ديـــوان

ابن دراج القسطلي

(٣٤٧ - ٤٢١هـ / ٩٥٨ - ١٠٣٠م)

الطبعـــة الثانيـــة

حققه وقدم له وعلق عليه

الدكـتور محمود علـــي مكـــي

أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي
بجامعة القاهرة، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

أشرف على طباعة هذا الكتاب وراجعه الباحث

بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

سيدي ولد الأمجاد

الصف والإخراج والتنفيذ

محمد العلي

أحمد متولي **أحمد جاسم**

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

ردمـك: **ISBN : 99906 -72 - 09 - 1**

رقم الإيداع **Depository Number: 2004 / 00283 :**

الطبعة الثانية

من منشورات مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

الكويت ٢٠٠٤

الطبعة الأولى

من منشورات المكتب الإسلامي بدمشق ١٩٦١

هاتف: 2430514 فاكس: 2455039 (00965)

E-mail < Kuwait@albabtainpoeticprize.org >

تصديـــــر...

في دوحة الشعر الأندلسي، بلابلُ ظلت تغني فتميسُ بها الأغصانُ شوقاً وطرباً في آفاق الحياة. ولعل الشاعرَ ابنَ دراج القسطلي واحدٌ من أهم هذه الأصوات الإبداعية، التي اندغمت مع روح هذا العصر الفتان، فتفاعلت مع أحداثه وتطوراته فرَحاً أحيانا وتَرَحًا أحيانًا أخرى في شبَّابةِ القصيدْ.

إنه علم كبير من أعلام الشعر العربي في هذه الخميلة التي آتت أكلها، حملت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري على عاتقها، مسؤولية نشر ديوانه من جديد، بعد مضي زُهاء أربعين سنةً على نفاد الطبعة الأولى منه، بتحقيق وتعليق وإضافات جديدة لأستاذنا الفاضل الدكتور محمود مكي أطال الله في عمره، وذلك ضمن احتفالية ابن زيدون التي تنعقد في ربوع الأندلس في الفترة من ٤ – ٨ أكتوبر من العام الحالي ٢٠٠٤م.

والمؤسسة إذ تركز على نشر عيون التراث الشعري الأندلسي إنما تحتفي بذلك برموزه وقاماته الفارعة، وفي صدارتهم الشاعر ابن دراج القسطلي أستاذ ابن زيدون و«متنبي الأندلس» بلا جدال، وهو تقليد دَأبنا عليه في كل دورة من الدورات، حيث تشكل الإصدارات المختلفة في سيرة الشاعر وإبداعه وعصره، رحلةً متكاملة المحطات، يجد فيها القارئ الكريم مرآة صافية تعكس له كل الصور والملامح والأطياف وذلك بأقلام كبار النقاد والأساتذة والباحثين.

لقد كانت حياة ابن دراج حافلةً بالإثارة في محيطه الاجتماعي والثقافي والسياسي، وهو ما حرك وجدانه بهذا الشعر البديع المدهش.

إن هذه الطبعة من الديوان، هي لبنة أخرى في صرح منشوراتنا الأدبية التي نعتز بإهدائها إلى القارئ الكريم أينما كان، آملين من خلالها زيادة التواصل معكم، واستعادة الذكرى لذلك الصب الذي ساءل الليل قديماً متى غده؟ في قرطبة وغرناطة وليالي الأندلس الحالمة.

ولابد هنا أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى العلامة الدكتور أستاذنا الكبير محمود علي مكي الذي قام بأمانة وكفاءة علمية بتحقيق هذا الإصدار الخاص من ديوان ابن دراج القسطلي بمناسبة هذه الدورة التاسعة في إسبانيا، حيث بذل هذه المرة المزيد من الجهود، وأمعن الكثير من النظر بين المصادر والمراجع والمخطوطات، فجاءت الطبعة الثانية على يديه جامعة مانعة رائعة.

وختاماً أجدني أردد مع ابن دراج قوله في الأندلس:

لـــــلـه من وطنٍ قـــــلــــــبـي له وطنٌ
يــبْـلى وأبــلى ومــا تــبـلى فـجــائـعُهُ
لا يـســأم الـدهـرُ من شـوق يُـطـالـعـني
مـــنـهُ ومن زفـــرةٍ مـــني تُـــطـــالـــعُهُ

والحمد للـه،،

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت في جمادى الأولـى 1425هـ

الموافـق يوليـو 2004م

****

مقدمة الطبعة الثانية

مضى على صدور الطبعة الأولى من ديوان ابن دراج القسطلي في سنة ١٣٨١هـ (١٩٦١م) أكثر من أربعين عاماً، وخلال هذه الفترة كثيراً ما كان الأصدقاء والزملاء، ولا سيما المشتغلون بدراسة الأدب الأندلسي، يلحُّون عليَّ في أن أعيد نشره، وذلك لسببين رئيسيين: أولهما النفاد السريع لتلك الطبعة الأولى، والثاني هو أن تلك الطبعة كانت وقفاً لله تعالى من صاحب السمو الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني حاكم إمارة قطر الأسبق. وكون الكتاب وقفاً يعني أنه لا يعرض في المكتبات ولا يجوز بيعه، وإنما يكون نشره عن طريق الإهداء فحسب. وكان سمو الشيخ – جزاه الله خيراً – قد تكفل بنفقات طبع الديوان وأوصى – في حرصه على خدمة العلم ونشره – بأن تهدى نسخ منه إلى الجامعات والمؤسسات العلمية والثقافية، بل وإلى كل من يرغب في اقتنائه من الأفراد. وكان ذلك عاملاً على سرعة نفاد تلك الطبعة.

ومع ذلك فإني لم أنشط لإعادة طبع الديوان، إذ كنت أطمع في أن يسعدني الحظ بأن أعثر على نسخ أو نسخة أخرى على الأقل لمخطوطة الديوان، يمكن أن أستكمل منها ما تخلله من فجوات وخروم، إذ كان اعتمادي في تحقيق الديوان على مخطوطة وحيدة وقطعة صغيرة كانت محفوظة في خزانة القرويين بفاس. ولكن السنوات ظلت تمضي سنة بعد سنة ولم يتحقق ذلك الأمل، وإن كان في بعض المصادر الأندلسية التي تم نشرها مؤخراً ما أعانني على إضافة نصوص خلا منها الديوان.

وهكذا انعقد عزمي على إعادة نشر الديوان، وكان عليَّ أن أردد النظر فيه، وأتاحت لي هذه المراجعة مزيداً من التصحيح والتدقيق في ضبط الشعر، وفي تحديث كثير من الحواشي والتعليقات التي كانت في الطبعة الأولى معتمدة على أساس من مخطوطات تم طبعها أو مصادر كانت في طبعات قديمة استبدلت بها طبعات أحدث وأجود تحقيقاً، وغير

ذلك مما يقضي به التقدم الذي أحرزته الدراسات الأندلسية على مدى العقود التي انقضت منذ صدور الطبعة الأولى.

وهكذا تم إعداد هذه الطبعة الجديدة التي أرجو أن أكون قد استجبت فيها لرغبات الكثيرين من المهتمين بالتراث الأندلسي، ولا سيما التراث الشعري الذي يعد من أعظم منجزات حضارة الأندلسيين. وابن دراج الذي أجمع الدارسون والنقاد القدماء منهم والمحدثون على أنه «متنبي الأندلس» يعد من مفاخر أهل هذه البلاد في مجال الإبداع الشعري.

وإذا كان عليَّ أن أرد الفضل لأهله فإنه يتعين عليَّ أن أعترف بالجميل في هذه الطبعة الجديدة لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، هذه المؤسسة العتيدة التي وقفها صاحبها منذ سنوات على خدمة الثقافة العربية، ولا سيما الشعر العربي ماضيه وحاضره، مقدمة في ذلك من المنجزات الجليلة ما تستحق معه التقدير من كل من ينتمي إلى عالم العروبة.

وقد كان نشر هذا الديوان جزءاً من الاحتفال الذي تنظمه مؤسسة الجائزة بدورة ابن زيدون في قرطبة لسنة ٢٠٠٤، ويعد ابن دراج (الذي عاش بين سنتي ٣٤٧ و٤٢١) أستاذاً لابن زيدون الذي امتدت به الحياة بين سنتي ٣٩٤ و٤٦٣، وإن كان لكل منهما أسلوبه المتفرد وشخصيته المتميزة.

ومن الله نستلهم الصواب وبه نستعين.

محمود علي مكي

مصر الجديدة في ١٢ ربيع الأول ١٤٢٥هـ.

٢ مايو ٢٠٠٤م.

****

ابن دراج القسطلي(*)

(٣٤٧ - ٤٢١هـ/ ٩٥٨ - ١٠٣٠م)

(*) مراجع ترجمة ابن دراج وأخباره: الحميدي: جذوة المقتبس، ترجمة ١٨٦، الثعالبي: يتيمة الدهر (ط. الشيخ محيي الدين عبدالحميد) ١٠٣/٢ – ١١٦، أبو الوليد الحميري: البديع في وصف الربيع، تحقيق عبدالله العسيلان ص ٥٦، ١٠٣، ١٣٦، ١١٣، ١٢٠، ١١٨، ١٢٧، ابن بسام: الذخيرة ق ٥٩ – ١٠٣، ٣٥١، ٣٥٣، ٣٧٦، ٤٥٠، ٨٨٩، ق ٢ – ٤٦٩، ٢٩٢، ٣/ ١٣، ٢٢، ق ٤ – ١٧٠، ١٩٨، ٢١١، ٢٩٦. ابن بشكوال: الصلة، ترجمة ٧٧، الضبي: بغية الملتمس، ترجمة ٣٤٣، ابن سعيد: المغرب ٢/ ٦٠ – ٦٢، ٢٩٩، ٤٣٥، ابن سعيد: رايات المبرزين ص ٧٣ من النص العربي و٢٣٢ من الترجمة الإسبانية، ابن سعيد: عنوان المرقصات والمطربات ص ٢٠ من النص و ٢١ من الترجمة الفرنسية و٦٣ من التعليقات، ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس ١٣٥/١ – ١٣٩، ٢/ ١٠٣، ٣١٠/٧، ابن دحية: المطرب ص ١٥٦ – ١٥٧، عبدالواحد المراكشي: المعجب، ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٧٤، ٩/٣، ٢٠ – ٢١، ٣٥، ١٢٤، ابن عبدالمنعم الحميري: الروض المعطار ص ١٥٥ – ١١٦، ١٦٠، وصلاح الدين الصفدة: الوافي بالوفيات ٤٩/٨ – ٥٢ ترجمة رقم ٣٠٤٦٠ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٢٢ – ١٢٤، ١٩٧ – ٢٠٠، ٢١٢ – ٢١٥، ٢٢٢ – ٢٢٥، ابن الخطيب: الإحاطة مخطوطة الأسكوريال ص ١٨٣، ١٨٦، وبتحقيق محمد عبدالله عنان ٢٩٣/٣ – ٢٩٧ – ٢٩٧، و٥٧/٤، ابن خير الاشبيلي: فهرسة ما رواه عن شيوخه ص ٤١٤ – ٤١٥، صفوان ابن إدريس: زاد المسافر ص ٧، ١٠٢ – ١٠٣، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٦ – ٤٦٧، الشريف الغرناطي: شرح مقصورة حازم القرطاجي ٤٣/١، ٢٠٣، ١٤٠، ١٤٢، ١٥٥، الشريشي: شرح مقامات الحريري ٣٣٨ – ٣٣٩، ١٥٤/٣، المقري: نفح الطيب (ط. بيروت) ٤٠٦/١، ٤٨٤، ١٧٨/٣، ١٩٥، ٢٣١، ٣٤١، ٣٤٢، ٤٤١، ٥٨/٤، ٤٣/٥، ابن عبدالحليم: مفاخر البربر (تحت عنوان: نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى) ص ٣٢ – ٣٣، ٦٣، ياقوت: معجم البلدان، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٢١٧/٣ – ٢١٩، النويري: نهاية الأرب ٢٧٦/١١، ٢٨٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٧٢/٤ – ٢٧٣، ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار (مخطوطة دار الكتب) ٢٠١/١١ – ٢٠٤.

ومن الأبحاث الحديثة: الأستاذ أحمد ضيف: بلاغة العرب في الأندلس ص ٩٤ – ١٠٠، الدكتور زكي مبارك: الموازنة بين الشعراء ص ٢٢١، ٢٤٣ – ٢٥٢، عبقرية الشريف الرضي ١٠٣/١ – ١٠٤، الدكتور إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٩١ – ٢١٣، الدكتور أحمد هيكل: الأدب الأندلسي ص ٣٣٩ – ٣٥٧.

ومن الدراسات الأوربية: جونثالث بانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة الدكتور حسين مؤنس) ص ٦١، ٦٥ – ٦٦، ٢٤٠، بلاشير: ابن دراج، حياته وأدبه (المجلد السادس عشر من مجلة Hesperis سنة ١٩٣٣، ص ٩٩ – ١٢١)، نيكل: الشعر الأندلسي ص ٥٦ – ٥٨، هنري بيريس: الشعر الأندلسي في القرن الحادي عشر ص ٣٤، ٤٧ – ٥٠، ٢٥٧ – ٢٥٨، غرسية غومس: الشعر الأندلسي (ترجمة الدكتور حسين مؤنس) ص ٣٨، ١٤٨.

حياته

آ - منذ مولده حتى اتصاله بالمنصور.

(١)

على الرغم من أن ابن دراج القسطلي كان من الشعراء الذين نالوا الشهرة في الشرق والغرب على السواء، فإن الكتب التي ترجمت له أو اقتطفت بعض أشعاره لم تحتفظ لنا بالكثير عن أخبار حياته الطويلة التي زادت على سبعين سنة.

ونحن نعرف عن ابن دراج أن اسمه الكامل أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج[(١)]، وأن كنيته أبو عمر[(٢)].

ولسنا نعرف عن آبائه المباشرين شيئاً كثيراً إلا أننا نرى ابن حزم يخص أباه بالذكر في حديثه عن رهط الشاعر فيقول: «وكان منهم محمد بن العاصي بن أحمد ابن سليمان من ولد ذر بن عيسى بن دراج»[(٣)].

---

(١) المترجمان الوحيدان اللذان احتفظا لنا بهذا الاسم كاملاً هما ابن خلكان في الوفيات (١٣٥/١) وابن تغري بردي في النجوم (٢٧٢/٤)، ومن الغريب أن من ترجموا له من الأندلسيين لم يهتموا بتحقيق ذلك، على أننا نستطيع أن نثق في صحة ما ذكره ابن خلكان، فقد كان يتحرى الدقة لاسيما في أسماء الأعلام والمواضع، ولاسيما أن بعض هذه النسبة التي ذكرها تتفق مع ما ذكره ابن حزم في الجمهرة عن عائلة ابن دراج، ونلاحظ أخيراً أن ابن فضل الله العمري ذكره باسم «ابن الدراج» بإضافة أداة التعريف، وهو ينفرد بذلك دون جميع مترجميه.

(٢) وقد حرفت هذه الكنية في كثير من الكتب التي ترجمت له إلى «أبي – عمرو»، ويذكر صاحب كتاب «مفاخر البربر» (ص ٦٣) أن كنيته «أبو محمد»، ويظهر أن هذا مجرد خطأ وقع فيه ناشر الكتاب، نضيف إلى ذلك أن المستشرق الفرنسي الأستاذ بلاشير في بحثه عن «ابن دراج! حياته وأدبه» (ص ١٠٠ حاشية ١) يقول إن المقري كنى ابن دراج في أحد المواضع التي تحدث فيها عنه «بأبي الوليد» (نفح الطيب ٤٦٧/٢ ط. ليدن ٦٩/٤ من طبعة إحسان عباس)، غير أنه قد فات الأستاذ بلاشير أن «أبا الوليد القسطلي» المذكور في ذلك الموضع شاعر آخر غير ابن دراج، إذ أن اسمه الكامل هو يونس بن محمد، وهو من «قسطلة» أخرى من عمل الجزيرة الخضراء، وليست «قسطلة دراج» التي ينتمي إليها شاعرنا، وهذا الشاعر توفي في سنة ٥٧٦ (انظر ترجمته في ابن سعيد: المغرب ٣٢٨/١، ابن الأبار: التكملة، ترجمة ٢١٠٢).

(٣) جمهرة أنساب العرب، ص ٤٦٦ – ٤٦٧.

أما أسرة ابن دراج فكانت بشهادة كثيرين ممن ترجموا له أسرة نبيلة مرموقة الشأن، حتى أنَّ بلده قسطلة كانت معروفة في كتب الجغرافيين والمؤرخين الأندلسيين باسم «قسطلة دراج»، ويقول ابن سعيد إن دراجاً جد الشاعر الأعلى وبنيه تداولوا على رياستها[١].

وقد كان بنو دراج ينتمون إلى قبيلة صنهاجة البربرية، ويبدو أن دخول هؤلاء إلى الأندلس كان يرجع إلى الوقت الذي افتتح فيه طارق بن زياد هذه البلاد في سنة ٩٢هـ. (٧١١م)، فابن حزم – الذي يرجع اليه فضل إيراد نص عظيم القيمة عن أصل بني دراج[٢] – يشير إلى منازل الصنهاجيين في الأندلس، فيخص بالذكر منهم بني الغلظ (كذا ولعلها الغليظ)، وبني عبدالوهاب بأشونة وهم من ولد ميمون بن أبي جميل[٣] ابن أخت طارق بن زياد، ثم بني دراج الذين كان إليهم انتهاء شاعرنا القسطلي.

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن الصنهاجيين من البربر كانوا قلة في الأندلس إذا قيسوا بغيرهم من البطون البربرية مثل زناتة، إذ إن الدولة الأموية الأندلسية كانت منذ قيامها أميل إلى البربر الزناتية منهم إلى الصنهاجيين، وقد كان من مظاهر ذلك أن أصبحت السياسة التقليدية التي كان الزناتيون يدينون بها دائماً في الشمال الإفريقي هي موالاة الأمويين، بينما كان الصنهاجيون هم عماد معظم الحركات الشيعية هناك[٤]، ويعلل ابن خلدون ذلك بأن صنهاجة كان لها ولاية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، بينما كان لمغراوة – ومعها سائر قبائل زناتة ولاية لعثمان بن عفان رضي الله عنه، وإن كان ابن خلدون يعلق على ذلك بقوله إنه لا يعرف سبب هذه الولاية ولا أصلها[٥]، ولم تتزايد هجرة الصنهاجيين إلى الأندلس إلا منذ أن أسرف المنصور بن أبي عامر وابنه عبدالملك المظفر في استقدامهم في أواخر القرن الرابع الهجري، حتى انتهى الأمر بهم إلى الأخذ بأوفى نصيب في هدم الخلافة الأموية في الأندلس.

---

(١) المغرب ٢/٦٠.
(٢) الجمهرة، في الموضع المشار إليه فيما سبق.
(٣) انظر كذلك ابن خلدون: العبر ٦/١٥٣، وقد ورد الاسم هناك: «ميمون بن جبلش وهو تحريف.
(٤) انظر مقالنا عن «التشيع في الأندلس» – صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد – المجلد الثاني سنة ١٩٥٤، ص ١٢٧.
(٥) العبر ٦/١٥٢ – ١٥٣.

ونعود إلى ابن دراج فنقول إنه كان إذن ذا نسب بربري عريق، فابن سعيد – كما أسلفنا الإشارة إلى ذلك – يقول إن عائلته تداولت على رياسة بلده «قسطلة»، وابن عبدالحليم في كتابه عن «مفاخر البربر» يتمدح بإنجاب الأمة البربرية لمثل هذا الشاعر العظيم[1]، كما أننا نعلم أن واحداً من عشيرة ابن دراج هو يحيى بن الضريس، وكان مقيماً ببلكونة، كان له موقف مشهود في خلال الفتنة التي أثار المولد عمر بن حفصون نارها على الخلافة الأموية بقرطبة في أيام الأمير عبدالله بن محمد وعبدالرحمن الناصر، فقد كان يحيى بن الضريس هذا هو الذي «صدم ابن حفصون، فأبطل يده بالضربة المشهورة، فلم يأكل ابن حفصون بيمينه بعدها، وعاش بعد ذلك نحو ثلاثين سنة»[2]. وعلى الرغم من ذلك فإننا لا نرى أثراً واضحاً لهذه البربرية في حياة ابن دراج ولا شعره، وهو لا يتحدث عن نسبه على الإطلاق[3]، والذي يتأمل ديوان ابن دراج دون أن يعرف نسبه البربري لا يكاد يحس فيه بأي أثر لذلك النسب، ولعل هذا يرجع في الغالب إلى أن البربر الذين دخلوا الأندلس في الرعيل الأول من فاتحيها المسلمين لم يستقروا في هذه البلاد حتى «تأقلموا» بسرعة مذهلة، وهكذا لم يمض قليل من الوقت حتى اندمجوا في المجتمع الأندلسي اندماجاً كاملا[4].

ويبدو أن هذا كان شأن عشيرة ابن دراج كما كان شأن كثير من الأسر البربرية ذات التاريخ المتأصل في الأندلس، وهذا بعكس الطوائف البربرية التي قدمت في أواخر القرن الرابع الهجري ممن انثالوا على الأندلس في عهد المنصور ابن أبي عامر وابنه عبدالملك المظفر، فهؤلاء لم يتمثلهم المجتمع الأندلسي ولم يتمثلوه، وكان الأندلسيون

---

(١) ص ٦٣.

(٢) ابن حزم: الجمهرة ص ٤٦٧، وقد نقل ليفي بروفنسال هذا النص في كتابه «تاريخ إسبانيا الإسلامية» ١/٣٧٠.

(٣) هذا والإشارة الوحيدة التي نجد فيها ما يوحي بالافتخار بنسب ابن دراج لا نراها في شعره هو وإنما في بيتين لواحد من ذوي قرباه هو ابن أخته أبو عمرو عثمان بن محمد اللخمي البشجي المرسي (المتوفي سنة ٥٨٠) إذ يروي له صفوان بن إدريس بيتين في مجلس القاضي ابن الحلال يقول في أحدهما:

أنا ابن الأكرمين من آل لخم ... وأخوالي ذوو عالي السناء

(انظر القصة في «زاد المسافر» ص ١٠٢ – ١٠٣).

(٤) انظر الفصل المكتوب عن البربر في المجتمع الأندلسي في «تاريخ إسبانيا الإسلامية» للمستشرق ليفي بروفنسال ١٦٩/٣، وكذلك كتابه «إسبانيا الإسلامية» في القرن العاشر الميلادي ص ١٩١.

يشعرون نحوهم بكراهة شديدة، لا سيما بعد أن شبوا نار الفتنة التي أتت على الخلافة الأموية وألقت على قرطبتهم من ضروب التدمير والتخريب ما لم تشهده العاصمة الأندلسية الجميلة في أي وقت مضى، وقد اضطر ذلك البربر إلى التكتل والتجمع في الجزء الجنوبي الشرقي من الأندلس على مقربة من العدوة المغربية حتى يأمنوا على أنفسهم من عواقب ذلك البغض الشديد الذي كان الأندلسيون يكنونه لهم.

وهكذا نرى أن ابن دراج ولد ونشأ أندلسياً خالصاً، فهو لم يشعر قط بعصبيته لنسبه الصنهاجي البربري، بل هو لا يرى بأساً في أن يهجو الزعيم البربري زيري بن عطية المغراوي حينما أعلن الثورة على المنصور بن أبي عامر، مهدداً إياه بسوء المصير على يد الجيوش والأساطيل العامرية:

أراقم تقري ناقع السم ما لها
بما حملت دون الغواة مقيل
إذا نفثت في زور زيري حماتها
فويل له من نكزها وأليل
هنالك يبلو مرتع المكر أنه
وخيم على نفس الكفور وبيل

وقد كان من المنتظر – لو أن ابن دراج بقيت فيه بقية من عصبية بربرية – أن يجري ذلك على لسانه عندما تمهد أمر الخلافة لسليمان بن الحكم الملقب بالمستعين والذي نعرف أن دولته إنما قامت على أكتاف البربر، غير أننا نرى ابن دراج – بدلاً من أن يمت إليه بماتته الصنهاجية – يكتفي بأن يقول:

قبائل من أبناء عاد وجُرْهُمٍ
لهم صفو ما تنميه عادٌ وقحطانُ
أسود هياج ما تزال تراهمُ
تطير بهم نحو الكريهة عُقبان
بكلَ زَناتِيٍّ كأن حسامه
وهامة من لاقاه نار وقربان

وأبـــيض صــنـــهـــاج كـــأن ســـنـــانه

شـــهـــاب إذا أهــوى لـــقــرن وشـــيــطـــان

وهـو يشــير في هــذه الأبيــات إلـى ما يزعـمه بـعض نسابة البربر من اتصال نسبـهم بعـرب اليمن[1]، ويتحدث عن فضل صنهاجة وزناتة في تأييد المستعين، إلا أن قارئ هذه الأبيات لا يكاد يحس فيها بما يدل على أن بين قائلها وبين صنهاجة وشيجة قرابة أو لحمة نسب.

ونحو ذلك نراه في قوله يمدح المستعين:

في قـــبـــة المـــلك الـــذي صـــنـــهـــاجـــة

وزنـــاتـــة أطـــنـــابـــهـــا وعـــمـــودهـــا

أو قوله في مدحه أيضاً:

تـــبـــارى إلـى الـــهـــيـــجـــا بـــأسد خـــفـــيـــة

إذا هل وجه المـوت هـــامــوا به عـــشـــقـــا

عـــبـــيـــد ممـــالـــيك وأملاك بـــربـــر

وكل عـــظـــيم الـــفـــخـــر قـــد حـــزته رقـــا

هم فـــئـــة الإسلام إن شـــهـــدوا الـــوغى

وهم أفق لـــلـــمـــلك إن نـــزلـــوا أفـــقـــا

كذلك لا نلحظ أي سمة «لبربرية» ابن دراج في أمداحه لعلي بن حمود وابنه يحيى المعتلي وأخيه القاسم، إذ أن قصائده في هؤلاء الزعماء البرابر إنما هي أشعار يمكن أن يتوجه بها القائل إلى أي ملك من ملوك الطوائف، إلا إذا استثنينا منها تلك المسحة الشيعية التي أراد ابن دراج أن يتودد بها إلى هؤلاء الخلفاء العلويين.

ثم إننا نرى أخيراً أن جل شعر ابن دراج إنما كان – منذ انهارت الدولة العامرية – في مدح أولئك الملوك الذين ناصبوا البربر العداء، فهو تارة يتوجه بمدائحه إلى بقية

---

(١) انظر حول ذلك ابن خلدون: العبر٦/ ٩٣ وما بعدها، ابن حزم: الجمهرة ص ٤٦١ وما بعدها، والسلاوي: الاستقصا ١/٦٠ وما يليها، وقد أجمع ثقات المؤرخين على إنكار هذه النسبة.

الأمراء الأمويين الذين حاولوا إعادة خلافتهم دون أن يحالفهم النجاح من أمثال محمد بن هشام المهدي أو عبدالرحمن المرتضى، وتارة يخطب ود «الفتيان» العامريين مثل مبارك ومظفر صاحبي بلنسية، ولبيب صاحب طرطوشة، ومجاهد صاحب دانية والجزائر الشرقية، وخيران صاحب المرية، ثم أخيراً نجد شطراً كبيراً من شعره في مدح منذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة وابنه يحيى بن منذر، وكل هؤلاء كانوا من ألد خصوم البربر، بل إننا نراه لا يتورع عن مهاجمة الحزب البربري في قصيدته التي مدح بها خيران العامري، وكان خيران هذا هو ومنذر ابن يحيى قد اضطلعا بتدبير الأمر لعبد الرحمن المرتضى، وتأمل قوله في هذا المقام:

ففضت سيوف حاربته وأيمن
وشاهت وجوه فاخرته وتيجان
ورد بها يوم اللقاء زناتة
كما انقلبت يوم الهباءة ذبيان
تراءاك حزب البغي منهم فأقبلوا
وفي كل أنف للغواية شيطان
فأي صقور قلبت أي أعين
إلى أي ليث ردها وهي خلدان

كما أنه مما يستوقف النظر أن ابن دراج - وهو الذي لم يكد يدع ملكاً من ملوك الطوائف إلا وفد عليه وأهدى إليه مدائحه - نراه قد أعرض إعراضاً كاملاً عن قصد الأمراء البرابرة من ملوك الطوائف باستثناء الحموديين، فإننا نلاحظ أنه تجنب الوفود على أمراء أكبر مملكة بربرية في عصره، وهي مملكة بني زيري الصنهاجيين في غرناطة، هذا على الرغم من ماتته المباشرة إليهم، وفي كل ذلك دليل على أن ابن دراج لم يعد يحس بأي صدى لهذا الأصل البربري الذي كان نسبه ينتهي إليه، ولعل ذلك هو الذي جعل ابن حزم في رسالته في «فضل الأندلس[1]» والشقندي في رسالته حول الموضوع نفسه[2] -

(١) المقري: نفح الطيب ٣/١٧٨.
(٢) نفس المرجع ٣/١٩٥.

يفتخران بابن دراج «الأندلسي» ويلزمان أهل المغرب الحجة في أن أرض العدوة لم تستطع أن تنجب شاعراً في مثل نبوغه وعبقريته، هذا على الرغم من معرفتهما بأن «متنبي الأندلس» إنما هو بربري الأصل والمحتد.

(٢)

أما «قسطلة» أو «قسطلة دراج» التي ينتمي إليها شاعرنا فقد اختلف حول تحديد موقعها المؤرخون الأندلسيون القدماء والباحثون المحدثون.

أما ابن عبدالمنعم الحميري فقد أفرد في معجمه الجغرافي مادة لقسطلة دراج، فقال إنها قرية في غرب الأندلس[١]، وأما ابن سعيد فقد ترجم لابن دراج في الكتاب الثاني من الكتب التي يشتمل عليها كتاب المملكة الجيانية وهو كتاب «السراج في حلي قسطلة دراج»، ويجدر بنا أن نذكر أن ابن سعيد جعل جيان وأعمالها منتمية إلى موسطة الأندلس[٢]، ثم عاد فألح على كون قسطلة من عمل جيان في كتاب آخر له[٣].

والذي استقر عليه معظم الباحثين المحدثين هو ما قال به الحميري، أما تحديد موقع قسطلة الذي أجمع عليه هؤلاء فهو أنها القرية الداخلة اليوم في حدود البرتغال والتي تسمى الآن Cacella من أعمال منطقة Algarve (وهذا الاسم مأخوذ من كلمة «الغرب» العربية)، وتقع هذه القرية على ساحل المحيط الأطلسي بين الحدود الإسبانية ومدينة طبيرة Tavira ، وقد أضاف «ليفي

(١) الروض المعطار، مادة ١٤٣، ص ١٦٠ من النص العربي (و ١٩٢ من الترجمة الفرنسية).
(٢) المغرب ٢/ ٦٠.
(٣) رايات المبرزين ص ٧٣ من النص العربي (و ٢٣٢ من الترجمة الاسبانية)، أما ياقوت فإنه ذكر قسطلة دراج في معجمه دون أن يشير إلى تحديد موقعها (معجم البلدان ٣٤٧/٤).
(٤) في حاشية هذا الموضع من ترجمته الفرنسية للروض ص ١٩٢.
(٥) ص ١٧٩ من النص العربي.

بروفنسال[٤]» إلى ذلك أن «قسطلة» هذه هي التي أشار إليها الإدريسي في كتابه «نزهة المشتاق[٥]».

وقد أخذ بهذا الرأي – فضلاً عن ليفي بروفنسال كما ذكرنا – الأستاذ بلاشير في بحثه عن ابن دراج[١]، ثم ردده المستشرق نيكل في كتابه «الشعر الأندلسي[٢]»، وأما الأستاذ غرسية غومز فقد أبدى في أول الأمر تردداً بين الرأيين[٣]، وأخيراً وافق من تقدموه من الباحثين على أن «قسطلة دراج» هذه هي Cacclla البرتغالية، وأن ابن سعيد أخطأ إذ اعتبرها من أعمال جيان[٤]، وكذا فعل بالنثيا في كتابه عن «تاريخ الفكر الأندلسي»[٥].

والذي نراه هو أنه ينبغي أولاً أن نفرق بين ثلاثة مواضع تحمل اسم «قسطلة» في جغرافية الأندلس العربية:

أ – الموضع الأول قسطلة الواقعة في غرب الأندلس، وهي التي أشار إليها الإدريسي في جغرافيته، وهي الواقعة الآن في البرتغال، وقد نبه عليها ابن سعيد المغربي أيضاً، فقال إنها من أعمال شاب Silces، ولهذا أضاف إلى ذلك أنها هي المعروفة باسم قسطلة الغرب، وقال إن منها الشاعر الأندلسي المعروف إدريس ابن اليمان[٦].

ب – والموضع الثاني هو قسطلة التابعة لعمل جيان، وهي التي أشار إليها المقدسي[٧]، وابن سعيد في «المغرب» و«الرايات»، وأخيراً المقري إذ يقول إن «من أعمال

---

(١) «الشاعر الكاتب ابن دراج القسطلي: حياته وأدبه» ص ١٠٠.
(٢) ص ٥٦.
(٣) في ترجمته الإسبانية لرسالة الشقندي في «فضل الأندلس» ص ٦٠.
(٤) في ترجمته الإسبانية لرايات المبرزين ص ٢٣٢.
(٥) (ترجمة الدكتور حسين مؤنس) ص ٦٥.
(٦) المغرب ١/ ٤٠٠.
(٧) أحسن التقاسيم ص ٢٣٣.
(٨) نفح الطيب ١/١٦٥.

جيان: أبدة وبياسة وقسطلة[٨]»، أما اسم هذه القرية في الوقت الحاضر فينبغي أن يكون واحداً من اثنين:

– إما Cazalilla وهي الآن بلدة صغيرة من أعمال أندوجر Andujar (في إقليم جيان) وهي تبعد بنحو ثلاثة عشر ميلا إلى الشمال الشرقي من أرجونة Arjona، وبنحو عشرين ميلا إلى شمال جيان[١].

– أو Castellar de Santisteban إلى الشمال الشرقي من جيان[٢]. على أننا نرى أن الأرجح هو أن تكون قسطلة جيان هي الأولى التي تقابل الآن قرية Cazalilla، فهي أقرب إلى أبدة Ubeda وبياسة Baeza اللتين يذكر المقري أنهما – مثل قسطلة – ينتميان إلى عمل جيان.

جـ – والموضع الثالث هو قسطلة من قرى «الجزيرة الخضراء» (وتسمى الآن Algeciras) في أقصى جنوب الأندلس على مضيق جبل طارق، وقد أشار إليها ابن سعيد مفرداً لها فصلاً تحت عنوان «الأهلة في حلى قرية قسطلة» من كورة الجزيرة

(١) انظر قاموس مادوث الجغرافي ٦/٢٦٧.
(٢) نفس المرجع ٦/ ١٠٠.
(٣) المغرب ١/ ٣٢٨، وأبو الوليد القسطلي هذا هو الشاعر الذي أشرنا إلى خلط بلاشير بينه وبين ابن دراج.

الخضراء، وإلى قسطلة هذه ينتمي الشاعر أبو الوليد يونس بن محمد القسطلي(٣).

أما أي هذه المواضع الثلاثة كان بلد ابن دراج فإننا أميل إلى رأي ابن سعيد في أن «قسطلة دراج» موطن شاعرنا هي التي من عمل جيان، وأنها ليست قسطلة الغرب (التي تقع الآن في البرتغال) كما قال الحميري وتبعه على ذلك كل الباحثين المحدثين، فابن سعيد كان يعرف المواضع الثلاثة بدليل تفريقه بينها في دقة ووضوح، بينما لم يشر الحميري منها إلا إلى واحد فقط، مما يحتمل معه أن يكون قد خلط بينها، وينبغي ألا ننسى أن ابن سعيد ممن لا يشك في معرفتهم بجغرافية الأندلس، فضلاً عن أنه أقدم من الحميري، وربما كان ابن سعيد أعرف الناس بجغرافية إقليم جيان بوجه خاص، فهو موطنه وموطن أسرته، فنحن نعرف أنه من «قلعة يحصب» (وتسمى الآن Alcala la Real) أو «قلعة بني سعيد» وهي تقع على بعد متوسط بين جيان وغرناطة، ولا شك أن ابن سعيد أعلم بهذه المناطق المجاورة لبلده من غيره من الجغرافيين والمؤرخين.

(٣)

كان مولد ابن دراج في شهر المحرم من سنة ٣٤٧ (مارس سنة ٩٥٨) على ما يذكر ابن بشكوال، ولسنا نعرف شيئاً عن طفولة ابن دراج ولا عن صباه ولا الأساتذة الذين أخذ عنهم، إذ أن أول ما احتفظت لنا به الكتب التي ترجمت له يبدأ بصلته بالمنصور بن أبي عامر، وهكذا نرى فراغاً كبيراً يمتد بين مولد ابن دراج وظهوره فجأة في بلاط المنصور العامري، وهو فراغ لا تلقي عليه المراجع أي بصيص من الضوء.

على أننا نستطيع أن نتصور حياة ابن دراج في مستهل حياته إذا تأملنا الظروف التي كانت الأندلس تعيش في ظلها في ذلك الوقت، فقد ولد ابن دراج في السنوات الأخيرة من خلافة عبدالرحمن الناصر أول خلفاء بني أمية (حكم بين سنتي ٣٠٠ و٣٥٠هـ/ ٩١٢ – ٩٦١م)، وقضى فترة تعليمه في السنوات التي وافقت خلافة الحكم المستنصر (بين سنتي ٣٥٠ و٣٦٦هـ/ ٩٦١ – ٩٧٦) وجانباً من خلافة ابنه هشام المؤيد. ونحن نعرف أن هذه الفترة من حياة الأندلس كانت أزهر عصور التاريخ الإسلامي في هذه البلاد على الإطلاق.

أما من الناحية السياسية فقد وافقت وصول الدولة الأندلسية إلى أوج عظمتها فالممالك المسيحية في شمال إسبانيا لا يكاد يذكر لها شأن بعد أن خضد عبدالرحمن الناصر شوكتها وأصبح هو – ومن بعده ابنه الحكم – المتحكمين في مصير إسبانيا، بحيث كان الأمراء المسيحيون في الشمال يحتكمون إليهما فيما يشجر بينهم من خلاف، وكان معظمهم يؤدون إليهما الجزية عن يد وهم صاغرون، وملوك البلاد الأوروبية المجاورة يهابونهما ويلطفون إليهما بالهدايا والسفارات، حتى شمال إفريقية دان جانب كبير منه بالطاعة للخلافة الأندلسية، وأصبح كثير من حكام الإمارات المغربية يناوئون سلطان الفاطميين معتمدين على تأييد قرطبة.

وأما المجتمع الأندلسي في هذه الفترة فقد أصبح بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعها الناصر والمستنصر مجتمعاً متكاملاً متسقاً لا مجال فيه للتمييز بين الطبقات، ولهذا لم يكن من الغريب أن تزدهر الحياة الاقتصادية كذلك، ويعم الرخاء بشكل لا نكاد نرى له مثيلاً في تاريخ الأندلس قبل هذين الخليفتين العبقريين.

وأما الحياة العلمية والثقافية فقد طالمَا تحدثت المراجع الأندلسية القديمة والدراسات الحديثة عن النهضة الرائعة التي قدرت للأندلس في هذا الميدان خلال ذلك العصر، مما نرى أن الحديث عنه يعود ترداداً وتكراراً لما قيل يغني عنه تصفح أي كتاب من كتب التراجم الأندلسية مثل «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي أو «جذوة المقتبس» للحميدي أو «صلة» ابن بشكوال، لكي نرى كيف قيض للأندلس مكان بالغ العلو في جميع نواحي الثقافة العربية، وكيف أصبحت قرطبة تقف على قدم المساواة مع كبريات العواصم الإسلامية مثل بغداد ودمشق والقاهرة.

وقد كان للأدب في هذه النهضة الثقافية أكبر نصيب، حتى إن سوقه سرعان ما أصبحت أروج أسواق الثقافة، ولم تلبث قرطبة أن صارت محوراً يجتذب كل من يأنس في نفسه اقتداراً في ميدان الأدب لا من الأندلسيين وحدهم بل ومن سائر الأقطار الإسلامية أيضاً. وقد كان استدعاء أدباء المشرق وشعرائه وظرفائه ومغنيه إلى بلاط قرطبة سنة جرت عليها الأندلس منذ أن ولي الأندلس الأمير عبدالرحمن الأوسط الذي استقدم المغني

البغدادي زرياب، وكان لهذا نفوذ عظيم وتأثير هائل في حياة الأندلس الفنية والاجتماعية، ثم ما زال الأمراء الأمويون يتوسعون في ذلك، ولا يبخلون في سبيله بجهد ولا مال، وكان منتهى ذلك هو استقدام عبدالرحمن الناصر للغوي البغدادي الكبير أبي علي القالي الذي كان له نصيب في التقدم بالنهضة الأدبية واللغوية بالأندلس.

على أنه يجب أن نذكر أن الثقافة الأندلسية في عصر الخلافة كانت تسير في طريق النضج والاستقلال بخطى سريعة، وكان العلماء الأندلسيون الذين لم يكفوا قط عن الرحلة إلى المشرق في سبيل العلم قد أرسوا قواعد هذا النضج الثقافي بحيث لم يعودوا بحاجة إلى «أساتذة» مشارقة يوجهونهم في هذا الميدان، ولهذا فإن استقدام بعض علماء المشرق في عصري الناصر والمستنصر إنما كان ضرباً من ضروب الترف والمباهاة لا حاجة ماسة ضرورية، حتى تأثير أبي علي القالي في الأندلس قد بولغ فيه إلى حد كبير، فالواقع أن معظم ما أتى به القالي من كتب كان مما يعرفه الأندلسيون من قبل، إذ أتى به من المشرق قبل ذلك علماء أندلسيون، إلا أنه لم يكن هناك بأس على أية حال في أن تفاخر قرطبة أترابها من العواصم الإسلامية بأن هناك من علماء الشرق من يتخذونها ملاذاً ومستقراً، وهذا أمر ينبغي أن نقدره في ظروف المنافسة الشديدة التي كانت قائمة بين الخلافات الثلاث التي كانت تتوزع العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري، وهي: الخلافة العباسية في بغداد، والفاطمية في مصر، والأموية بقرطبة.

ونعود إلى الشعر في هذه الفترة، فنلاحظ أولاً أن جيان ومنطقتها التي أنجبت ابن دراج كانت – على ما يبدو لنا – تربة خصبة للشعر والشعراء، فقد كان منها أول شاعر أندلسي تميز بالأصالة وقوة الشخصية، ونعني به يحيى بن الحكم الغزال الذي نبغ في أيام عبدالرحمن الأوسط خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وأما في القرن الرابع فلعل أهم شعراء جيان كانوا بني فرج، وهم ثلاثة إخوة: أحمد وسعيد وعبدالله أبناء محمد بن فرج، وإلى أولهم يرجع فضل تأليف كتاب «الحدائق» الذي عارض به مؤلفه كتاب «الزهرة» لابن داوود الإصفهاني وجمع فيه من أشعار الأندلسيين ما أراد أن يظهر به للمشارقة أن الأندلس على حداثة عهدها بالإسلام لا تقل في هذا الميدان عن أي قطر

عربي آخر.

(٤)

وأغلب الظن أن ابن دراج بدأ حياته الدراسية تلميذاً يتردد على مجالس الشيوخ وحلقاتهم في جيان، ولعل دراسته في تلك الفترة المبكرة من حياته لم تكن تختلف عما يتلقاه أمثاله من الصبيان من حفظ للقرآن وإلمام بمبادئ النحو واللغة والأدب والأخبار والأنساب والفقه، هذا وإن كنا نعتقد أن تذوقه المبكر للأدب كان يحمله على متابعة ما كانت قرطبة تموج به من أخبار أدبائها وعلمائها على عهد الحَكَم المستنصر ثم في أيام الحاجب المنصور بن أبي عامر الذي لم يلبث سلطانه أن استفحل حتى أصبح معقد أمور الحكم في يده بعد موت الحكم المستنصر بعدة سنوات.

ولسنا نستبعد أن يكون ابن دراج – وهو في غضاضة الصبا – قد قام بعدة رِحْلاَتٍ إلى قرطبة حيث اطلع عن كثب على جوها الأدبي وجمعته منتدياتها بأمثاله من الشعراء الطامحين إلى شق طريقهم في العاصمة الأندلسية عروس الغرب الإسلامي كله في ذلك الوقت، على أننا نرجح أنه لم يكن قد عزم بعد على الانتقال إلى قرطبة، والاستقرار فيها بصفة نهائية، لا بهدف الدراسة ولا من أجل تولي بعض مناصب الكتابة كما ظن الأستاذ بلاشير[١]، وإنما انتهينا إلى ذلك من مطالعة شعره الذي يدل ما بقي منه على الأقل على أنه لم يتصل بحاكم أندلسي قبل المنصور بن أبي عامر، ثم إننا نراه في قصيدته الهائية التي ينص جامع الديوان والحميدي[٢] على أنها أول ما أنشده بين يدي المنصور – نقول إننا نرى ابن دراج يتحدث عن رحلته من بلده إلى قرطبة وعن وداعه لزوجه وابنته من أجل هذه الرحلة، وقد يتبادر إلى الظن أن مثل هذه الرحلة قد تكون ضرباً من الخيال اصطنعه الشاعر ليستثير عطفاً أو يستدر إشفاقاً[٣]، إلا أن ما في تصوير ابن دراج من واقعية

(١) في بحثه «ابن دراج القسطلي...» ص ١٠١، وقد افترض بلاشير أن يكون ابن دراج قد تولى عملاً من أعمال كتابة الإنشاء في عهد الحكم المستنصر، وهو أمر لا نجد عليه أي دليل.
(٢) جذوة المقتبس ص ١٠٣.
(٣) كما حسب الأستاذ أحمد ضيف في «بلاغة العرب في الأندلس» ص ٩٧.

وتفصيل يشعر بأنه صادق مخلص، وانظر إليه في قوله:

ولـــله عـــزمي يـــوم ودعت نـــحـــوه
نـفـوساً شـجـاني بـيـنـهـا وشـجـاهـا
وربـــة خـــدر كـــالجـــمـــان دمـــوعـــهـــا
عـــزيـــز عـــلـى قـلـــبي شـطـوط نـواهـا
وبـــنـت ثـــمـــان مـــا يـــزال يـــروعـــني
عـلـى الـنـأي تـذكـاري خـفـوق حـشـاهـا
ومـــوقـــفـــهـــا والـــبـــين قـــد جـــد جـــده
مـــنـــوطـــاً بـــحـــبـــلـي عـــاتـــقي يـــداهـا
تـــشـــكـي جـــفـــاء الأقـــربـــين إذا الـــنـــوى
تـــرامت بـــرحـــلـي في الـــبلاد فـــتـــاهـــا

فما نظن أن الشاعر وهو في مجلس ينشد المنصور العامري فيه لأول مرة إنما لفق هذه القصة عن زوجة وابنة صغيرة في الثامنة من العمر إلى آخر ما أورد من وصف، ونود بهذه المناسبة أن نقدم حكماً عاماً على مدى صدق ابن دراج في شعره: فنقول إنه أصدق ما يكون عند الحديث عن أبنائه، والذي يطالع هذا الديوان يرى كيف يستغرق جانباً عظيماً منه حديث الشاعر عن أبنائه وتصوير عاطفة الأبوة نحوهم.

ويحملنا ذلك على الحديث عن هذه المسألة التي عرضت في سياق تلك الأبيات الهائية التي أوردنا، وهي مسألة زوجته وابنته التي كانت تبلغ حينئذ ثمان سنوات، فإذا كنا نعرف أن هذه القصيدة أنشدت في سنة ٣٨٢هـ. فإننا نستنتج أن ابن دراج كان قد تزوج في سنة ٣٧٤ على أقل تقدير، أي وهو في سن السابعة والعشرين. ومتصفح الديوان

---

(١) ابن دراج... ص ١٠١.
(٢) ١/ ٧١ (ط. القاهرة سنة ١٣١٩)، ومن المعروف أن هذا الكتاب الذي نشر تحت عنوان «الإحاطة» ليس إلا مختصراً لكتاب ابن الخطيب. ويقابل هذا الموضع ١/١٠٦ - ١٠٧ من طبعة محمد عبدالله عنان.
(٣) انظر ترجمة «صاعد» في جذوة المقتبس للحميدي رقم ٥٠٩، وكذلك البحث الذي أفرده له الأستاذ بلاشير في

سيرى كيف لا يكف ابن دراج عن الحديث عن أبنائه حتى يدركه الموت.

(٥)

بهذه القصيدة الهائية التي أشرنا اليها تبدأ صلة ابن دراج ببلاط المنصور العامري، ولسنا نذهب في ذلك إلى ما قاله الأستاذ بلاشير[١] من أن صلته بالمنصور أقدم من ذلك، وقد استدل المستشرق الفرنسي في تأييد رأيه بما جاء في كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» لابن الخطيب[٢] من أن ابن دراج كان من بين الشعراء الأربعين الذين رافقوا المنصور بن أبي عامر في غزوته المشهورة إلى برشلونة في سنة ٣٧٤ (٩٨٤).

والحقيقة أن هذا وهم من مؤلف الكتاب، فإنه حتى لو كان صحيحاً أن كل الشعراء الذين ذكروا في هذا الموضع قد اتصلوا بالمنصور أو كانوا من شعرائه – وهو أمر لا يعلو على مستوى الشك – فإنه من المؤكد أن بعض هؤلاء لم يكن من الممكن أن يرافقوه في تلك الغزوة.

ولنضرب على ذلك مثلاً بصاعد بن الحسن البغدادي اللغوي الذي نعرف على وجه التأكيد أنه قدم إلى الأندلس في سنة ٣٨٠ (٩٩٠[٣])، أي بعد هذه الغزوة بنحو ست سنوات، وقد جاء أيضاً في قائمة الشعراء الذين اصطحبهم المنصور عندئذ اسم شاعر آخر هو عبدالرحمن بن أبي فهد الأشجعي، ويذكر ابن شهيد عن هذا الشاعر أنه خرج عن الأندلس إلى المشرق في أيام الحاجب عبدالملك المظفر بن المنصور العامري بعد سنة ٣٩٠ (١٠٠٠) وهو لم يستوف بعد ثلاثاً وعشرين سنة[١]، ومعنى هذا أن ابن أبي الفهد قد ولد في حدود سنة ٣٧٠ (٩٨٠) أو قبلها بقليل، وأن سنه في وقت غزوة المنصور لم تكن

---

(١) انظر ترجمته في الجذوة رقم ٦١٣، وقد جاء هذا التاريخ هناك «بعد الثلاث والسبعين»، وهو خطأ صوابه «... والتسعين».

(٢) لم نجد ما يلقي شكا على هذا الحكم إلا قصيدة فائية لابن دراج مدح بها المنصور بن أبي عامر بمناسبة تلقيبه ابنه عبدالملك بالحجابة ومطلع هذه القصيدة:

منكم إليكم مساعي المجد تنصرف ... ونحوكم عنكم الآمال تنعطف

فابن عذاري يذكر في البيان المغرب (٢/٢٩٣) أن المنصور رشح ابنه للحجابة والقيادة العليا في سنة ٣٨١، على أن هذا المؤلف لم يحدد متى تم ذلك بشكل فعلي، مما يحتمل أن يكون تنفيذ هذا الأمر تم في السنة التالية.

تتجاوز سبع سنوات على أكثر تقدير، وهي سن يستحيل معها أنها يكون قد رافق المنصور باعتباره أحد شعرائه.

ويبدو أن ابن الخطيب - أو مختصر كتابه - إنما جمع أسماء عدد من الشعراء الذين اتصلوا بالدولة العامرية من قريب أو من بعيد، فنسب إليهم خبر مرافقتهم للمنصور في غزوة برشلونة دون تحقق أو تحفظ، ولعل حكم ابن دراج في ذلك لا يختلف عن حكم صاعد وابن أبي الفهد.

ويؤيد ما نزعمه ما سبق أن ذكرناه من اتفاق جامع الديوان والحميدي - وهو ينقل أخباره عن ابن حزم تلميذ ابن دراج - على أن صلة شاعرنا بالمنصور العامري تبدأ في سنة ٣٨٢، لاسيما وأننا لم نجد في شعر الديوان ما يسبق هذا التاريخ[٢]، ثم إننا نستطيع أن نؤكد أن هذه القصيدة الهائية التي ذكرنا لا يمكن أن تكون سابقة على سنة ٣٨٠، إذ أن الحميدي يقول إن ابن دراج عارض بها قصيدة لصاعد البغدادي، وصاعد قدم إلى الأندلس كما ذكرنا في هذه السنة.

وقد كانت سن ابن دراج يوم أنشد المنصور العامري هذه القصيدة نحواً من خمس وثلاثين سنة، غير أنها - وإن ظهرت فيها آثار من التقليد وقلة الأصالة - تدل على قدم ثابت في ميدان الشعر، مما يحملنا على أن نفترض أنها لم تكن أول محاولة لقول الشعر من ابن دراج، وأن له شعراً قليلاً أو كثيراً لم يثبت في ديوانه، وربما كان السبب في ذلك هو أن الشاعر - وقد كان حريصاً على تنقيح شعره وتحكيكه وصقله - قد يكون تصرف في ديوانه بحذف ما لم يقع منه موقع الرضا من شعره بعد إذ تقدمت به السن واكتمل حظه من النضوج والشهرة كما سوف نرى بعد.

(٦)

---

(١) الحميدي: جذوة ص ٧٣، وعبدالواحد المراكشي: المعجب ص ٣٠ - ٣١.

(٢) ابن بسام الذخيرة ق ٤ - ١/١٦.

وعلى أية حال فقد شق شاعرنا الفتى طريقه في بلاط الحاجب العامري، وأتيحت له الفرصة للإنشاد بين يديه، وكان ذلك وحده كسباً عظيماً بالنسبة إليه، فقد كانت سدة المنصور تزدحم بالشعراء وتغص بالنقاد الذين ما وفد عليهم شاعر أو أديب إلا تعقبوه بالنقد والتجريح، وقد كان ابن دراج عندئذ في غضاضة الشباب إذا قسناه بمن كان في بلاط المنصور من فحول الشعراء وخضارمتهم، ويكفيه مع ذلك أنه استطاع أن يلفت إليه أنظار الجميع، فأقبلوا يتساءلون: من أين نجم عليهم هذا الشاب الناشئ الذي أتى يزاحم جلة الشعراء الواقفين على باب المنصور؟ واستطالت ألسنة السوء: أتراه منتحلاً لشعر غيره متلبساً بغير ثوبه؟

ونحن نعلم كيف كان المنصور على الرغم من كثرة غزواته واتصال جهاده واضطلاعه بأعباء الحكم «محباً للعلم مؤثراً للأدب مفرطاً في إكرام من ينتسب إليهما ويفد عليه متوسلاً بهما بحسب حظه منهما وطلبه لهما ومشاركته فيهما»[1]، وإذا كان كما يقول ابن بسام «غير ذي تحرير ولا بصر بالنقد مشهور»[2] – وهو حكم يبدو لنا بالغ القسوة – فإنه لم يكن يسمح لشاعر بالمثول بين صفوف حاشيته من أهل الأدب إلا بعد أن يجري عليه اختباراً قاسياً شديداً، ونحن نعلم كيف تعرض صاعد البغدادي على الرغم من تجشمه الرحلة إليه من العراق لعدة تجارب شديدة أخفق في بعضها ونجح في بعضها

---

(١) انظر ترجمة صاعد في الجذوة رقم ٥٠٩، وابن بشكوال: الصلة رقم ٥٣٦، وابن بسام: الذخيرة ق ٤ – ١/ ٨ – ٥٥، والمقري، نفح الطيب تحقيق احسان عباس ٣/ ٧٥ – ٨٠، وانظر كذلك مقال بلاشير الذي سلفت الإشارة إليه عن صاعد ص ٢١ – ٢٣.

(٢) المقري: النفح، وابن بسام: الذخيرة، في المواضع المذكورة بالحاشية السابقة.

(٣) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤ – ١/ ١٨، ابن سعيد: المغرب ٣٢٢/١، المقري: النفح.

(٤) الذخيرة ق ٤ – ١/ ٢٢، والنفح ٩٧/٣.

(٥) الذخيرة ق ٤ – ١/ ١٤ – ١٦.

(٦) الحميدي: الجذوة ص ٧٣.

(٧) انظر ترجمة ابن دراج في الجذوة ص ١٠٣، وابن الخطيب: الإحاطة ١٠٦/٢ حيث يتحدث عن «الشعراء المرتزقين بديوانه» (أي ديوان المنصور)، وابن بسام: الذخيرة ق ٤ – ١٩/١ حيث يذكر أن المنصور أجرى على صاعد راتباً قدره ثلاثون ديناراً.

(٨) انظر قول ابن شهيد في الحديث عن الشاعر ابن أبي فهد والمقارنة بينه وبين عبادة بن ماء السماء: «وكانت مرتبته في الشعراء أيام بني عامر دون مرتبة عبادة في الزمام، فأعجب!» (الحميدي: الجذوة ص ٢٥٩).

(٩) الجذوة ص ٢٣٩.

الآخر[١]. وقد كان امتحان الشعراء بين يدي المنصور يتم على صور مختلفة: إما أن يفاجأ الشاعر بالمنصور يقترح عليه ارتجال قطعة في موضوع يعن له، وكثيراً ما كان الأمر يتعلق بوصف لشيء من أثاث أو زهر أو فاكهة مما يوجد في مجلسه[٢]، أو وصفاً لحادثة طارئة تقع تحت سمع المجتمعين وبصرهم[٣]، وإما أن يقترح على الشاعر أن يعارض قصيدة مشهورة لشاعر كبير من شعراء المشرق[٤]، وإما أن يعقد ندوة تضم الشاعر وبعض نقاده أو المعترضين عليه للجدال والمناظرة[٥]، وقد كان للمنصور مجلس معروف في يوم معين من كل أسبوع «يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيه بحضرته ما كان مقيماً بقرطبة[٦]»، وكثيراً ما كان يتم اختبار الشعراء في أمثال هذه المجالس.

ويتوقف على هذه الامتحانات مصير الشاعر: فإذا أثبتت التجربة قوة عارضته وحضور بديهته وذرابة لسانه في الجواب ورسوخه في علوم اللغة والأدب استحق أن يثبت في «ديوان العطاء»، وهكذا يصبح «شاعراً رسمياً» يجري عليه راتب منتظم[٧]، وقد كان للشعراء المثبتين في هذا الديوان «زمام» على ما يذكر الحميدي، ويبدو أن هذه الكلمة يقصد بها ترتيب للشعراء في طبقات تتفاوت باختلاف مدى إجادتهم[٨]، وقد كان «زمام الشعر» موكولاً في أيام المنصور إلى عبدالله بن مسلمة وكان رئيساً كاتباً جليلاً ناقداً للشعر، وعلى يديه كانت تخرج صلات الشعراء ورسومهم، وعلى ترتيبه كانت تجري أمورهم[٩].

ونعود إلى ابن دراج، فنرى كيف ظفرت قصيدته بإعجاب المنصور مما يدل عليه أنه أمر بإثباته في ديوان العطاء، وكيف أطلق ذلك من ألسنة الحاسدين والمنافسين ممن لا يخلو منهم بلاط أمير أو خليفة[١]، وقد رأينا كيف تفنن منافسو صاعد البغدادي في بث العقبات في طريقه، وكان اتهام الشاعر بالسرقة والانتحال أمراً شائعاً تعرض له هذا الشاعر[٢]، وهكذا لم يكن هناك بد من مجلس لنظر أمر شاعرنا القسطلي للتحقق من صدقه، ويبدو أن ابن دراج قد استعد لذلك اليوم، فأعد قصيدته البائية التي سنعرض لها بعد ذلك.

---

(١) احتفظ المقري بقصة طريفة تصور لنا هذا الجو في بلاط المنصور بينه وبين الشاعر أبي عمر يوسف بن هارون الرمادي (النفح ٣/ ٣٦٤ - ٣٦٥).

(٢) انظر مقال بلاشير عن صاعد البغدادي ص ٢١ - ٢٣ والمصادر التي اعتمد عليها.

ويقول الحميدي – نقلاً عن ابن حزم – إن المنصور استحضر ابن دراج عشي يوم الخميس لثلاث خلون من شوال سنة ٣٨٢ (أول ديسمبر سنة ٩٩٢) واقترح عليه فبرز وسبق[٣]، إلا أنه لم يحتفظ لنا بتفصيل عن الموضوع الذي اقترح عليه ولا الشعر الذي قاله فيه، وأغلب الظن أن المنصور أراد أن يختبر بديهته على الطريقة المتبعة مع غيره من الشعراء كما أشرنا إلى ذلك قبل.

ولم نجد في الديوان إشارة صريحة إلى هذه المناسبة، غير أننا نرى فيه هذا النص:

«وله أيضاً في المنصور بن أبي عامر ولها قصة طويلة:

يا حبذا خجل التفاح في طبق
منضد بجني الزهر متسق
فيه عيون بهار قد أحطن به
نواظراً بجفون العاشق الأرق
كأن ما احمر من تفاحه خجلاً
بدر بدا قطعاً من حمرة الشفق
في مجلس الملك المنصور يانعة
كأنما غذيت من جوده الغدق»

ولسنا نستبعد أن تكون مناسبة «القصة الطويلة» التي قيلت فيها هذه الأبيات هي ذلك المجلس الذي أراد المنصور فيه أن يختبر شاعرية ابن دراج ويكشف عن صحة التهمة التي قذف بها وهي السرقة والانتحال، إذ إننا نرى في تلك الأبيات طابع ما يمتحن فيه الشعراء، أي أن يتعمد صاحب المجلس من الأمراء الإتيان بشيء ما على صورة مركبة، ثم يقترح على الشاعر القول في ذلك ارتجالاً، وهو أمر كثيراً ما رأيناه في المجالس الأدبية الأندلسية عامة ولدى المنصور بن أبي عامر بصفة خاصة، وأبيات ابن دراج التي أوردنا في وصف طبق تفاح أحيط بأزهار البهار، وهي صورة مركبة لا يستطيع وصفها – على سبيل الارتجال – إلا شاعر بعد على الأقل عن مظنة السرقة والانتحال. ثم إن هذه الأبيات يبدو عليها طابع الارتجال السريع، وليس فيها تحكيك ابن دراج وصنعته وإحكامه مما

نراه في سائر شعره، ولو أن أبا عمر القسطلي أمهل أو ترك على سجيته فيها لأتى بغير ما أتى به.

والقطعة بوجه عام غير جيدة، وهي تدلنا على أن الارتجال لم يكن بالميدان الذي يبرز فيه ابن دراج كما برز غيره من شعراء عصره مثل ابن حزم وابن شهيد وصاعد البغدادي، غير أن المقام لن يكن يقتضي كبير إجادة، فحسب المنصور والحاضرين في مجلسه أن الشاعر لم يخيب الرجاء، ولم يخلف الظن، وهو غير مطالب بأكثر من ذلك ليدفع عن نفسه التهمة التي كتبت إليه.

وفي هذا المجلس - على ما يبدو من كلام الحميدي - أتبع ابن دراج نجاحه في ذلك الاختبار بإنشاء قصيدته البائية التي مطلعها:

حسبي رضاك من الدهر الذي عتبا

وجود كفيك للحظ الذي انقلبا

وهي قصيدة يغلب على ظننا أنه عاد فيها إلى معارضة صاعد البغدادي الذي نرى من شعره في مدح المنصور قصيدة على بحرها ورويها في وصف قصر الزاهرة الذي بناه المنصور:

يأيها الملك المنصور من يمن

والمبتني نسباً غير الذي انتسبا[1]

وقد أشار ابن دراج في قصيدته إلى «الامتحان» الذي عقد له، وافتخر بظفره فيه وأنه لم يقصر في ميدان الارتجال:

ودسوا ليَ في مثنى حبائلهم

شنعاء بت بها حَرَّان مكتئبَا

(١) انظر ابن عذاري: البيان المغرب ٢/٢٧٧، والمقري: النفح ١/٥٨٠ - ٥٨١، ويجدر بنا أن نذكر أن قصيدة ابن دراج البائية في ذلك المجلس لم تكن على سبيل الارتجال كما ظن بعض الباحثين (مثل بلاشير: ابن دراج ص ١٠٢) فنسجها يدل على أنه أحكم صنعته ورويته فيها إلى حد بعيد.

(٢) وفيات الأعيان ١/١٣٥، وابن فضل الله العمري: المسالك ١١/٢٠٢.

حــتـى هــززت فلا زنــد الــقــريض كـبــا
فــيــمـــا لــديَّ ولا ســيف الــبـديه نــبــا

ثم يعرض للمنصور بأنه مقتدر على النثر والكتابة والخطابة اقتداره على الشعر:

إن شـئتَ أَمْـلَى بـديع الـشـعـر أو كَـتَـبـا
أو شـئتَ خـاطب بـالمنـثـور أو خَـطَـبَـا

ولعل هذه الإشارة لم تفت المنصور إذ لم يلبث بعدها أن اتخذه من كتاب الرسائل في ديوان إنشائه.

وعلى أية حال فالذي نعرفه أن المنصور كافأ ابن دراج على جوازه ذلك الاختبار بأن أثبته في ديوان شعرائه، ووصله في ذلك المجلس بمائة دينار، وكانت هذه بداية طيبة بغير شك لمستقبل شاعرنا الفتي.

على أن هذا المجلس لم يكن آخر اختبار لابن دراج على ما يبدو، فابن خلكان يذكر أن المنصور أمره بعد ذلك أن يعارض قصيدة أبي نواس في مدح الخصيب بن عبدالحميد صاحب خراج مصر(٢)، وهي القصيدة التي أولها:

أجـــارةَ بـــيْـــتَـــيْـــنـــا أبـــوكِ غـــيـــورُ
ومـــيـــســـورُ مـــا يـــرجى لـــديك عـــســـيـــرُ

وجدير بالذكر أن المنصور كان يستبد به الإعجاب بهذه القصيدة مما حمله على أن يقترح معارضتها كذلك على صاعد البغدادي ارتجالاً، فأبى صاعد من ذلك «إجلالاً لأبي نواس» على زعمه أو لصعوبة الأمر فيما نعتقد وأنشد:

إنـي لَـــــمُـــــسْـــــتَـــــحْـي عُـلا
ك مـن ارتجـــال الـــقـــول فـــيـهْ
مـن لـــيس يُـــدرك بـــالـــرَّوِ
يَّـــةِ كـــيف يُـــدركُ بـــالـــبَـــديهْ

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ق ٤ – ٢٢/١.

على أن المنصور أصر عليه في ذلك، فجاءه صاعد من الغد فأنشده قصيدته:

جـذال الـشـرى إني بـكن بـصـيـر

طـوتـكن عـني خـلـسـة وقـتـيـر[1]

ولعل المنصور أراد أن يجري الاختبار نفسه على ابن دراج، فنظم هذا قصيدته التي أولها:

دعي عـزمـات المـسـتـضـام تـسـيـر

فـتـنـجـد في عـرض الـفلا وتـغـور

وقد بلغت هذه القصيدة شهرة هائلة في المشرق والمغرب حتى إنه لا يكاد يخلو كتاب من كتب المنتخبات الأدبية من بعض أبياتها، ويمكن أن نفترض أن مكانة ابن دراج قد توطدت بعدها وأنه أصبح نجماً من النجوم الساطعة في فلك دولة المنصور ابن أبي عامر.

ب - في ظل الدولة العامرية

(١)

نحو من ستة عشر عاماً قضاها ابن دراج في ظل المنصور العامري وابنيه عبدالملك وعبدالرحمن (٣٨٢ - ٣٩٩/ ٩٩٢ - ١٠٠٨)، وهو زمن ليس بالقصير احتفظ لنا ديوان ابن دراج بجانب لا بأس به من شعره خلاله. وشعر القسطلي في الدولة العامرية يعتبر من أروع ما نظم وأحقه بالتقدير، ولا سيما ما توجه به من مديح إلى المنصور، والذي يقرأ شعر ابن دراج في القائد العامري لا يملك تفكيره من أن يثب إلى مدائح المتنبي لسيف الدولة، فهو مدح لا يقوم فقط على الطمع والرغبة - وأي امرئ شاعر أو غير شاعر تجرد منهما؟ - وإنما المصدر الأول فيه هو شعور قوي من الإعجاب بشخصية الممدوح، وإذا كان جهاد سيف الدولة وكفاحه للدفاع عن الثغور الشمالية للدولة العربية ضد مملكة البيزنطيين على قلة موارده وضآلة بلده - كان مما بث في نفس شاعره المتنبي

(١) انظر عن ذلك الصفحات الممتعة التي كتبها أستاذنا الدكتور طه حسين في كتابه «مع المتنبي» ص ١٧٣ وما بعدها (ط. دار المعارف سنة ١٩٤٩).

شعوراً قوياً مضطرماً بالفتوة العربية[1]، فقد كان في حياة المنصور العامري واتصال كفاحه في سبيل الإسلام ما هو كفيل بإثارة شعور مماثل في نفس ابن دراج. فابن أبي عامر هو الذي جعل من هذه الدولة العربية القاصية المنحصرة بين البحر وممالك أوربا بالمسيحية أقوى دول الغرب الإسلامي كله، بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا ودول القارة الأوربية جمعاء. وإعجاب ابن دراج بشخصية هذا البطل الإسلامي إنما كان صورة لإعجاب الشعب الأندلسي المسلم جميعه به، فقد كان المنصور رمزاً لمجد الإسلام في تلك البلاد، ذلك المجد الذي لم يقدر للمسلمين أن يستعيدوه مرة أخرى طول تاريخهم في إسبانيا بعد انتثار سلك الدولة العامرية، وبعد أن أضاع ورثة هذه الدولة ما كان المنصور قد حرص على جمع شمله طوال عشرين سنة من الجهاد المتواصل والعمل الجبار والعزيمة التي لم تعرف نصباً ولا إعياء.

أما شعر ابن دراج في المنصور فقد احتفظ منه لنا ديوانه الذي بين أيدينا باثنتين وثلاثين ما بين قطعة وقصيدة، وإن كنا نظن أن كثيراً مما ذهب في خروم النسخة الخطية للديوان إنما كان من مدائح ابن دراج العامرية، على أن ما بقي مقدار لا بأس به، وقد سجل شاعرنا فيه كثيراً مما مر على الدولة من أحداث، ومعظم قصائده غير مؤرخة إلا أننا توصلنا إلى تحديد تواريخ الكثير منها مما يسمح لنا بتتبع فن الشاعر وتطوره فيها.

(٢)

ومن أولى قصائد ابن دراج في ابن أبي عامر تلك التي قالها في إحدى المناسبات التي كانت من أروع مظاهر عزة الإسلام في الأندلس، ونعني بها وفود ملك البشكس (إمارة نبارة) شانجه بن غرسيه Sancho Garces على قرطبة محكماً للمنصور في نفسه ومعلناً له بالطاعة والخضوع، وكان شانجه قد جدد من قبل عهود السلم للمنصور ثم نقض تلك العهود، فأوقع به العامري عدة هزائم قتل في إحداها ابن له في سنة ٣٧١

(١) أعمال الأعلام ص ٦٦.
(٢) نفس المرجع ص ٧٣ – ٧٤، وانظر ليفي بروفنسال، تاريخ ٢/٢٤٢ – ٢٤٣.

(٩٨١)، وحينئذ لم ير الملك المسيحي بدا من العودة إلى إعلان طاعته للمنصور وتجديد العهد له، بل إنه لم يلبث أن أهدى إلى المنصور ابنة له، فأعتقها هذا وتزوج منها فأنجبت له ابنه عبدالرحمن الذي كان ينبز من أجل ذلك بلقب «شنجول» (بالإسبانية Sanchol أو San-chuelo) وهو تصغير اسم شانجه جده لأمه. وفي سنة ٣٨٢ (٩٩٢) ورد إلى قرطبة نبأ مقدم الملك المسيحي صهر المنصور إلى قرطبة «محكماً له في نفسه» على حد قول جامع الديوان أو «زائراً مستصرخاً» كما قال ابن الخطيب[1]، وكان وصول شانجه إلى قرطبة في ٣ رجب سنة ٣٨٢ (٤ سبتمبر سنة ٩٩٢)، فاستقبله المنصور استقبالاً رائعاً فخماً أفاض في وصفه ابن الخطيب[2]، وبهذه المناسبة قال ابن دراج قصيدته التي مطلعها:

ألا هكذا فليَسْمُ للمجد من سما
ويحْمِ ذمارَ المُلْكِ والدين من حمى

ولم تكن هذه السفارة هي الوحيدة لملك نصراني إلى سدة المنصور، ففي سنة ٣٨٢ نفسها وفد على قرطبة أيضاً أمير قشتالة وولي عهد ملكها شانجه بن غرسية بن فرذلند Sancho Gatcia I، ولعله قدم موفداً من قبل أبيه غرسية قومس قشتالة Castilla، ولم تتحدث كتب التاريخ الإسلامية ولا المسيحية عن تلك السفارة، إلا أن ابن دراج يثبت لنا وقوعها في هذه القصيدة اللامية الفريدة التي يبدؤها بقوله:

إليك منك فرار الخائف الوجل
وفي يديك أمان الفارس البطل

وفيها يقول:

وقد تيمم «شنج» منك عائدة
تجيره من سيوف الكرب والوهل
وقاد نحوك والتوفيق يقدمه
جيشاً من الذل ملء السهل والجبل
مستعطفاً لحياة جل مطلبها
عن مبلغ الكتب أو مستعطف الرسل

مستخذياً لسيوف النصر حين أبت

من دين طاعته قولاً بلا عمل

ثم يصف مثول شانجه بين يدي المنصور والعرض العسكري الهائل الذي أعده القائد المسلم لاستقباله - وهو عرض كان فيه من الإرهاب والإنذار أكثر مما فيه من الحفاوة والتكريم - وموقف شانجه وقد أخذت بنفسه هيبة المقام ورهبته.

ويصف ابن دراج في قصيدة ثالثة سفارة الأمير غند شلب Gonzalvo ابن شانجه بن غرسية ملك نبارة إلى المنصور في سنة ٣٨٣ (٩٩٣) بقصيدة أولها:

ورمى ابن شنج إليك نفس محكم

نهج الخضوع لها سبيل رشادها

مستعطفاً لحشاشة من ملكه

وثمالة قد آذنت بنفادها

فاستنقذته منك عودة منعم

قامت لمهجته مقام معادها

غازٍ لعطف العامري مجاهد

في طاعة «المنصور» حق جهادها

مستنجد منه مذلة خاضع

غنم الحياة أبوه باستنجادها

وهو يشير في هذا البيت الأخير إلى سفارة أبيه شانجه في السنة السابقة، وهي السفارة التي وصفها ابن دراج من قبل في قصيدته الميمية.

(٣)

ونحن نعرف أن ملوك إسبانيا المسيحية كانوا يبدون للمنصور في كثير من الأحيان خضوعهم وانقيادهم، إلا أنهم كذلك كانوا ينتهزون أي فرصة تسنح للإغارة على أرض المسلمين أو نقض العهود المبرمة بينهم وبين المنصور مما جعل حياة القائد العظيم جهاداً

متواصلاً، حتى إن المؤرخين يقدرون غزواته إلى الممالك المسيحية باثنتين وخمسين غزوة، وقد رافق ابن دراج المنصور في كثير من هذه الغزوات ولعل أولها مما شهده شاعرنا القسطلي هي الغزوة التي وجهها المنصور في سنة ٣٨٤ (٩٩٤) إلى قشتالة التي كان يحكمها في ذلك الوقت غرسية بن فرذلند، وفي هذه الغزوة فتح المنصورة قلعتي شنت إشتيبن San Esteban de Gornaz وقلنية Clunia وخرب أبلة Avila، ولابن دراج بهذه المناسبه قصيدتان: الأولى مطلعها:

أنضيت خيلي في الهوى وركابي

وعمرت كأس صبا بكأس نصاب

وفيها يسجل شهوده لتلك الغزوة ويتحدث عن بسالة عبدالملك بن المنصور وكان له في المعركة موقف مشهود:

وبرأي عيني منه يوم «قلنية»

منه شهاب خاطف لشهاب

سيف الإله وحزبه المفني به

شيع الضلال وفرقة الأحزاب

أما القصيدة الثانية فأولها:

أهلاً بمن نصر الإله وأيدا

وحمى من الإشراك أمة أحمدا

وهي في مدح عبدالملك بن المنصور، وفيها يتحدث ابن دراج عن هذه الغزوة التي رآها رؤية عيان:

ووقفت دون «الدير» فيها وقفة

كانت لنصر الله فيها موعدًا

وبرأي عيني يوم خضت لفتحها

بحراً من البيض الصوارم مزبدا

فـرأيت مـا اسـتـنـزلت من نجم هـوى
وشـهـدت مـا حـدثت عن لـيث عـدا

....

وتـركت «شـنت اشـتـيـبـنـاً» وكـأنمـا
حـطت سـيـوفك من عـداهـا الـفـرقـدا
فـقـصـرت مـدتـهـا بـوقـفـة سـاعـة
أبـقت لك الـفـخـر الجـلـيل مـخـلـدا
شـيـدت عـز المـسـلـمـين بـهـدم مـا
قـد كـان عـز الـكـفـر مـنـهـا شـيـدا
وتـركت «غـرسـيـة» بـنـقـمـة غـدره
بـالـروع في الأرض الـفـضـاء مـقـيـدا

وفي شوال سنة ٣٨٥ (نوفمبر سنة ٩٩٥) توجه المنصور على رأس حملة أخرى لعقاب مملكة «ليون Leon» التي كان يحكمها آنذاك برمند بن أردون Bermudo II، فعاثت فيها جيوش المسلمين، ويبدو أن ابن دراج قد شاهد أيضاً هذه الوقعة مما يتبين من قصيدته الرائية التي أولها:

إن تـفـخـر الـدنـيـا فـأنت فـخـارهـا
أو تـخـتـر الـعـلـيـا فـأنت خـيـارهـا

وفي هذه السنة تأسر جيوش المسلمين غرسية بن فرذلند قومس قشتالة الذي كان أصلب أعداء ا لمنصور عوداً وأقواهم جلداً على قتاله، وما كانت هذه المناسبة لتفوت ابن

(١) كان صاعد قد بعث بأيل سماه غرسية هدية إلى المنصور وكتب معه بأبيات يتفاءل فيها بأسر الملك القشتالي، فشاءت المصادفة أن يؤسر في ذلك اليوم (راجع القصة في ابن بسام: الذخيرة ق ٤ - ٣٤/١ - ٣٥، ابن الخطيب: الأعمال ص ٦٨ - ٦٩)، وعن أسر غرسية بن فرذلند انظر ليفي بروفنسال: تاريخ ٢٤٤/٢ - ٢٤٥، بيريث دي أوربل: تاريخ إمارة قشتالة ص ٧٦٦ - ٧٧٠).

(٢) عن هذه الغزوة انظر ابن عذاري: البيان ٣١٣/٢ - ٣١٦، وليفي بروفنسال: تاريخ ٢٤٦/٢ - ٢٥٠.

دراج، كما لم تفت صاعداً البغدادي الذي كان من توفيقه أن تنبأ بأسر غرسية قبل وقوعه[1]، أما قصيدة ابن دراج فأولها:

تناضل عنك أقدار السماء

وتبطش عن يديك يد القضاء

وفيها تصوير رائع لشخصية غرسية لا يخلو من إعجاب به، وهو إعجاب الخصم بالخصم على ما كانت تقضي به سنن الفتوة والفروسية في العصور الوسطى.

(٤)

ولعل من أجل المناسبات التي رفع فيها ابن دراج لواء شعره في الإشادة بعظمة الإسلام وعزة الدولة العربية تلك الغزوة التي وجهها المنصور في جمادي الثانية سنة ٣٨٧ (يولية سنة ٩٩٧) إلى شنتياقب Santiago de Compostela في منطقة جليقية Galicia (في أقصى شمال غرب إسبانيا)، وكانت هذه المدينة - ولا تزال - من أقدس بقاع المسيحية الإسبانية والأوروبية عامة، إذ كان إليها حجهم وتعبدهم[2] ونحن نعرف على وجه التحقيق أن ابن دراج شهد هذه الوقعة، فالحميري يذكر أن له فيها رسالة مشهورة كتبها على لسان المنصور إلى الخليفة هشام بن الحكم من هناك، وفيها يخبره بالفتح ويصف الكنيسة وأرضها، كما يضيف الحميري إلى ذلك أن لابن دراج في تلك الغزوة قصيدة مشهورة[1].

أما الرسالة التي كتبها القسطلي بهذه المناسبة فقد أمدنا الحميدي عنها - نقلاً عن أستاذه ابن حزم - بأخبار أكثر تفصيلاً، فقد ذكر أن المنصور استدعى أبا عمر ابن دراج

---

(١) الروض المعطار ص ١١٥ - ١١٦.

(٢) عن ابن الجزيري انظر: الحميدي: الجذوة - ترجمة ٧٥٧، ابن بسام: الذخيرة ق ٤ - ١/ ٤٦ - ٥٢، ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٥ - ٢٦، ابن الخطيب: الأعمال ص ٧١ - ٧٢، المقري: النفح ٥٨٦/١ - ٥٨٨.

(٣) الجذوة ص ١٠٤.

وعبدالملك بن إدريس الجزيري[٢]، وكلفهما بإنشاء كتاب الفتح إلى الحضرة وسائر الأعمال. أما ابن الجزيري فإنه قال: سمعاً وطاعة، وأما ابن دراج فقال إنه لا يتم له ذلك في أقل من يومين أو ثلاثة. فخرج الأمر إلى ابن الجزيري بالشروع في ذلك، فجلس في ظل السرادق ولم يبرح حتى أكمل كتابه في ذلك، وتركت لابن دراج فسحة من الوقت ليكتب كتابه على اختياره، «ثم جاء بعد ذلك بنسخة الفتح ووصف الغزاة من أولها إلى آخرها ومشاهد القتال وكيفية الحال بأحسن وصف وأبدع رصف، فاستحسنت ووقع الإعجاب بها ولم تزل منقولة متداولة إلى الآن، وما بقي من نسخ ابن الجزيري في ذلك الفتح على كثرتها عين ولا أثر»[٣]، على أن رسالة القسطلي هذه لم تصل إلينا لسوء الحظ، ولو أنها بقيت لكانت وثيقة تاريخية أدبية على أكبر جانب من القيمة.

وأما ما نظمه ابن دراج من شعر بهذه المناسبة فإنه ليس قصيدة واحدة على ما يذكر الحميري، بل إننا نرى في ديوان ابن دراج ثلاث قصائد حول هذا الموضوع، أوَّلُهَا بائيته في مدح المنصور وأولها:

اليوم أنكص إبليس على عقبه
مبرءاً سبب الغاوين من سببه

ولعلها هي التي يعنيها الحميري ففيها وصف للكنيسة وتصوير لمقامها في نفوس النصارى، وما يعنيه هذا الفتح من تأكيد لعزة الإسلام وإظهار بأسه وقوته.

أما الثانية فقد اختص ابن دراج بها ابني المنصور عبدالملك وعبدالرحمن وحسن بلائهما في هذه الغزوة ومطلعها:

لك البشرى ودمت قرير عين
بشأوي كوكبيك الثاقبين

---

(١) يقول الحميري في الروض (ص ١١٥) إن عبدالرحمن غزا شنتياقوب فأوسع أهلها قتلاً وأسراً وقراها وأسوارها هدماً وإحراقاً.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ق ٤ - ١/ ٧٩.

وأما الثالثة فإنها في عبدالرحمن المنصور خاصة، ومن المعروف أن عبدالرحمن – على فناء سنه – كان له مقام محمود في تلك الغزوة[1]، وأول هذه القصيدة:

هـــو الـــبـــدر في فـــلك الـــمُـــلْكِ دارا
فـــمـــا غَـــسَقَ الخـــطْبُ إلا أنـــارا

(٥)

ولو أننا تتبعنا شعر ابن دراج في غزوات المنصور والوقائع التي صورها في كل ذلك لاقتضى منا الحديث مجالاً أوسع بكثير مما تسمح به هذه العجالة، فلنجتزئ بهذا القدر، ولنمض مع ابن دراج في حياته في ظل عبدالملك المظفر ابن المنصور بن أبي عامر الذي خلف أباه على الحجابة للخليفة هشام بن الحكم المؤيد.

وقد ولي عبدالملك بعد وفاة أبيه المنصور سنة ٣٩٢ (١٠٠٢) حتى موته سنة ٣٩٩ (١٠٠٨)، وفي عهده نعمت الأندلس بفترة من الرخاء والرفاهية كانت مضرب المثل في تاريخ إسبانيا الاسلامية كله، ولا شك في أن الفضل في ازدهار الدولة الاندلسية في عهده إنما يرجع لهذه الجهود المتواصلة التي بذلها سلفه العبقري في توطيد دعائمها وتأمينها من أعدائها.

غير أن عبد الملك كان – على ما يذكر المؤرخ ابن حيان – أقل اهتماماً بالأدب وشغفاً بالشعر من أبيه المنصور، وهو يعلل ذلك مرة بأنه كان ذا نصيب قليل من الثقافة الأدبية والتمييز بين جيد القول ورديئه[2]، وتارة أخرى بالرغبة في توفير المال والقصد في الإنفاق[1]، على أنه برغم ذلك عمل على احترام رسوم أبيه، فأقر الشعراء على مراتبهم «ولم ينقصهم سوى الفوز بخصوصيته»، ويلاحظ ابن حيان أن هذا كان السبب في فتور أشعار مادحيه بوجه عام[2].

ويبدو أن ابن دراج خشي أن يؤثر زهد عبدالملك في الشعر والشعراء على مركزه في «ديوان العطاء»، إلا أن عبدالملك كان أكرم من أن يخيس بعهود والده في بر الشاعر الذي

---

(١) ابن عذاري: البيان ٣/ ٣٦.
(٢) ابن بسام: الذخيرة ق ٤ – ١/ ٨٠.

ظل طوال عشر سنوات لساناً له ومُسجلاً لأمجاده وانتصاراته، ولهذا فإن عبدالملك لم يلبث أن أثبت اسم ابن دراج في ديوان شعرائه، ونستخلص هذا من قصيدة وجهها إليه شاعرنا القسطلي يقول فيها:

وخططت بالكف الكريمة ملحقي
والفخر فخري منك إذ سميتني
حسبي فحين ذكرتني كرمتني
وكفى فحين نطقت بي أعيتني

وقد اطمأنت نفس ابن دراج بعد ذلك، فعاود حياته في ظل عبدالملك المظفر شاعراً من شعراء بلاطه وكاتباً في ديوان إنشائه، ولعله كان أبرز هؤلاء وأولئك، إذ أن مكانته منذ أيام المنصور كانت قد رسخت، وبلغ شعره أقصى ما يمكن أن يطمح إليه شاعر.

وقد تغنى القسطلي بغزوات عبدالملك وفتوحه في أقطار المسيحية الإسبانية كما كان شأنه مع المنصور، وكان من أبرز قصائده في ذلك ما قاله في الغزوة التي قادها عبدالملك ضد مملكة ليون في سنة ٣٩٥ (١٠٠٥) وهي رائيته التي أولها:

لئن سَرَّتِ الدنيا فأنت سرورُها
وإن سطعت نوراً فوجهك نورُها

وفيها يذكر اقتحام الحاجب العامري لقلعة «لونة Luna» وتمزيقه لجيوش ملك ليون لديها:

وأنت الذي أوردت لونة قاهراً
خيولاً سماء الأرض فيها نحورها
وقد لاح بالنصر العزيز لواؤها
وأعلن بالفتح المبين بشيرها

ويعود مرة أخرى للحديث عن هذه الغزوة التي بطش فيها عبدالملك بأعداء الإسلام وأعلى كلمة المسلمين:

بــعــثت عــلــيــهــا مــنك دعــوة واثق

صــفــا شــاهــد الإخــلاص مــنه وغــائــبه

فــسرعــان مــا أقــوى الــشرى من أسوده

وأبـــرز من حـــر الحــــجــــال كـــواعـــبه

ثلاثـــة آلاف حـــســـابـــاً ومـــثـــلــــهـــا

وقـــد غل عـــازيه وأســـأر حـــاســـبه

فــيــا لــيت قــوطــاً حــين شــاد بــنــاءه

رآه وقـــد خـــرت إلـــيك جـــوانـــبه

وكان عبدالملك قد توجه في أول ولايته سنة ٣٩٣ (١٠٠٣) على رأس حملة عظيمة إلى إمارة قطلونية التي كانت تحت حكم قومس برشلونة ريمند (الثالث) بن بريل Bamon Bor-rell، فأحرز على جيوش النصرانية انتصاراً عظيماً أعاد هيبة قرطبة إلى نفوس من ظنوا موت المنصور نهاية لمجد الأندلس الإسلامية، وفي هذه الغزوة فتح حصن ممقصر Mon-magatre وأسكنه المسلمين ودوخ بسيط برشلونة، وفي هذه الغزوة قال ابن دراج قصيدته:

الـــلـه جـــارك ظـــاعـــنـــا ومـــقـــيـــمـــا

ومـــثـــيـــبك الـــتـــبـــجـــيل والـــتـــكـــريمـــا

فضلاً عن قطعتين أخريين نظمهما في تهنئة الحاجب بعد إيابه.

(٦)

على أن مدائح ابن دراج في هذه الفترة لم تقتصر على عبدالملك المظفر كما قصر شعره من قبل على المنصور، بل إنه اتصل – كما يبدو لنا من شعره – بوزير عبدالملك المقرب إليه: عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف بالقطاع، ولعل في هذا مظهراً يدل على عدم احتفال عبدالملك بالشعر احتفال أبيه مما ألجأ ابن دراج إلى التوجه بمدحه إلى عيسى بن سعيد، وقد احتفظ لنا الديوان بقصيدتين فيه، أولاهما مطلعها:

مـكــارمك اغــتــبــاقي واصــطــبــاحي

ومـن ذكـــــراك ريـــــحـــــاني وراحـي

أما الثانية فهي لاميته التي أولها:

أفي مـثـلـهـا تـنـبـو أيـاديك عن مـثـلـي؟

وهـذي الأمــاني فـيك جــامـعــة الـشـمل

ولعل هذه القصيدة هي أول ما يحمل طابع الشكوى الصريحة من شعر ابن دراج، فقد ظل هذا الشعر متمتعاً بحياة رغدة لا قلق فيها طوال السنوات الماضية، فما الذي أصابه في تلك الفترة من «خطوب شيبت مفرق الطفل» على حد قوله؟ وما شأن الحديث عن «رجائه المقيد» و«حظه المغلول»؟ وما باله يتكلم عن «اليأس» و«المطل»؟ وعن ذلك الصديق الذي:

تـذكـرني في سـاعــة الـعـلـم والـنـهى

وأنـسـيـني في سـاعـة الجـود والـبـذل

ولسنا نرى من هذه القصيدة إلا أن ابن دراج قد أصابه شيء في أيام حكم الوزير عيسى بن سعيد، ونحن نعلم أن هذا الوزير بدأ حياته كاتباً للمنصور قبل ولايته الأمر، ثم ارتفع شأنه حتى صار هو المتصرف في كل أمور الدولة على عهد عبدالملك، ومعنى ذلك أنه كانت تربطه بابن دراج ماتة الأدب والكتابة، وعلى الرغم من ذلك فقد أصاب أبا عمر القسطلي في ظلك وزارته ما لم يصبه من قبل منذ أن اتصل بالمنصور. ترى الوزير ألقى أذنيه لما كان يلفظ به حساد ابن درَّاج وخصومه – ولعلهم كانوا كثيرين – من طعن عليه أو نيل من إخلاصه وولائه؟ أرجح الظن لدينا أنه كان شيء من ذلك، وأن ابن دراج قد أصابه من تلك المحنة قليل أو كثير.

إلا أن هذه الأزمة لا تلبث أن تنقشع، إذ سرعان ما يتبين لعبدالملك أن وزيره القطاع لم يكن أهلاً لتلك الثقة التي أودعه، إياها، فقد نقل إليه أن عيسى ابن سعيد كان يسعى

سراً إلى هدم الدولة العامرية، وتنصيب الأموي هشام بن عبدالجبار على عرش الخلافة، فبادر عبدالملك إلى القضاء على تلك الفتنة قبل أن تستطير نارها، وهكذا قبض على عيسى بن سعيد وأمر بقتله في العاشر من ربيع الأول سنة ٣٩٧ (٤ ديسمبر سنة ١٠٠٦)، ولنا أن نتصور بعد ذلك كيف تنفس ابن دراج الصعداء بعد مقتل هذا الوزير، وبهذه المناسبة قال قصيدته في تهنئة المظفر:

شكراً لمن أعطاك ما أعطاكا

رب أذل لملكك الأملاكا

وفيها لا يخفي ابن دراج شماتته الصريحة بمصرع عيسى بن سعيد وسروره بمهلكه:

قل للمصرع لاهياً من صرعة

وافيتها بغياً على مولاكا

تباً لسعيك إذ تسل معانداً

لخلافة السيف الذي حلاكا

وإننا لنستشف من خلال أبيات القصيدة ما لعل ابن دراج لقيه من الشدة والعسف على يد الوزير المقتول:

حييت لموتك أنفس مظلومة

كانت منيتهن في محياكا

(٧)

ولم يكن عبدالملك المظفر - على الرغم مما دفعه به ابن حيان - متجرداً من هذه الحساسية الفنية التي أنصف بها أبوه من قبل حينما كان يخلو إلى نفسه ويفرغ من أعباء

---

(١) ابن عذاري: البيان ٣/ ١٨.

(٢) عن الفتنة القرطبية انظر: الدكتور حسين مؤنس: رسالة حول سقوط الخلافة الأموية في قرطبة في سنة ١٠٠٩ (وهو بحث كتب باللغة الفرنسية ونشر في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٨)، وليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية ٢/٢٩١ - ٣٤٥، والمراجع المذكورة في هذين البحثين.

عمله، ويبدو أنه كان يستريح إلى المقطعات التي كان الشعراء يصفون فيها جمال الربيع والأزهار، وأنه كان يحب أن يغنيه قيانه في ذلك[1] وقد تردد صدى هذا في شعر ابن دراج مما نراه في تلك القطع الروضية التي احتفظ لنا الديوان بها، فضلاً عن بعض القطع الغنائية التي ألفها ابن دراج لقيانه مما يصلح للغناء.

جـ - ابن دراج والفتنة

وفي سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) تحل المنية بالمظفر وهو بعد في عنفوان شبابه، ويتولى الحجابة بعده أخوه عبدالرحمن المعروف بشنجول، ويقول ابن دراج في ذلك مرثيته في المظفر معزياً أخاه ومهنئاً إياه بتنصيبه في مكانه:

ما أطبق الهم إلا ريثما انفرجا
ولا دجا الخطب إلا وشك ما انبلجا

ولم يكن ابن دراج ولا أهل الأندلس يقدرون ما قضي على الأندلس أن تلقاه على يد هذا الفتى المشؤوم الذي بدأت بولايته النكبات على الدولة الإسلامية الأندلسية بعد أن بلغت أوج القوة والعظمة في عهدي أبيه وأخيه من قبل.

وليس من شرطنا التحدث هنا عن تلك الفترة الحافلة بالأحداث السياسية خلال هذه «الفتنة» التي اضطرمت الأندلس بها ناراً ودماراً والتي كانت إيذانا ببدء نهاية الإسلام في هذه البلاد، ففي المراجع التاريخية من تفصيل ذلك مالا مجال لترداده في هذا التقديم[٢]، أما فيما يتعلق بشعر ابن دراج فيجدر بنا أن نشير إلى أن ديوانه لم يحتفظ لنا بشيء في عهد عبدالرحمن «شنجول» إلا بهذه القصيدة التي عزاه بها عن موت أخيه وهنأه بالولاية، وهذا أمر منطقي فعبد الرحمن لم يتمتع بالحكم إلا قرابة شهرين، وقد حمله غروره وغفلته على الخروج على رأس غزوة إلى بلاد النصارى في الشمال تشبهاً بأبيه وأخيه وهو لم يوطد بعد أركان دولته، واغتنمها محمد بن هشام بن عبدالجبار الأموي المتلقب بالمهدي، فأعلن الثورة، وخلع دولة العامريين، ونادى بنفسه خليفة في جمادي الثانية سنة ٣٩٩ (فبراير سنة ١٠٠٩).

وتلاحقت بعد ذلك الأحداث في سرعة مذهلة، ولكأننا بأهل قرطبة ينظرون إلى هذه الدولة العتيدة التي سهرت على بنائها أجيال متتابعة من عباقرة الساسة وأفذاذ القواد طوال قرن كامل، ليروها وهي تتقوض وتنهار في لحظات كأن لم تكن، وقد كان لكل ذلك أسبابه وعوامله بغير شك، غير أن السرعة التي تواترت بها النكبات على عاصمة الخلافة الأندلسية ما كانت لتدع للناس حتى فرصة التفكير الهادئ أو التقدير السليم، وما قيمة أن يعرف الناس كيف حدث كل ذلك أو لماذا حدث وهم يرون حياتهم تعصف بها الثورات وتمزقها الأهواء والفتن؟.

وبقدر تخبط الساسة والشعب في غمرات تلك الفتنة الجائحة كان تخبط الأدباء والشعراء، فهم لا يدرون إلى ما يقبلون وعمن يدبرون، يحيون حياتهم يوماً بيوم دون أن يعرفوا ماذا يكون من أمر غدهم ولا أي كارثة تتربص بهم الدوائر.

ولهذا فإننا لا نستغرب أن يساير ابن دراج تقلب الدول على قرطبة، فما يعلن ابن عبدالجبار ثورته حتى يتوجه إليه مادحاً بقصيدته التي أولها:

قل للخلافة قد بلغت مُناك
ورأيتِ ما قرَّتْ به عيْناكِ

وفي آخرها يجهر بشكواه ويبكي حظ أدبه المضيع:

وأنا الشريد وظل عزك موئلي
وأنا الأسير وفي يديك فكاكي
أدب أضاء المشرقين وتحته
حظ يئن إليك أنة شاك

(١) انظر مقال المستشرق الإسباني الأستاذ إميليو غرسية غومس: نظرات حول انهيار قرطبة الأموية (مجلة الأندلس – المجلد الثاني عشر – سنة ١٩٤٧ (ص ٢٦٧ – ٢٩٣)، ص ٢٧٣).
(٢) ابن الخطيب: الأعمال ص ١٢٢.
(٣) في الأصل: يبال.
(٤) في الأصل: شد.

غير أن هذا الأمير الأموي المشؤوم لم يستقر في الخلافة إذ سرعان ما ثار عليه أموي آخر لم يكن أقل منه شؤماً على الأندلس المنكوبة، وهو سليمان بن الحكم المتلقب بالمستعين، ويستمر الصراع بين هذين حتى يقتل المهدي بتدبير أنصاره أنفسهم، ويعتلي المستعين عرش الخلافة للمرة الثانية في شوال سنة ٤٠٣ (مايو سنة ١٠١٣).

ويبدو أن ابن دراج – شأنه في ذلك كشأن سائر شعراء الدولة العامرية – قد تلبث في قرطبة وهو يعلل نفسه برجاء انقشاع الأزمة وانجلاء الفتنة[١]، ولنا أن نعتقد أنه ظل طوال هذه السنوات الثلاث راكد القريحة، إذ إن الديوان لم يحتفظ لنا بشيء من شعره في خلال هذه الفترة، حتى عادت إليه صبابة من أمل بعد ولاية المستعين. ويؤكد لنا ذلك قول ابن حيان[٢]:

«واغتنمته [أي سليمان المستعين] شعراء العامرية والدولة العامرية وقد نسجت على أفواههم ومحاريبهم العناكب أيام الحرب والفتنة، واشتدت فاقتهم وحمت طباعهم، وكانوا كالبزاة الفذة الجياع انقضت لفرط الضرورة على الجرادة، فلم يبلّ[٣] صداهم، ولا سد[٤] خلتهم لاشتغاله بشأنه واشتداد حاجة سلطانه».

ويروي لنا ابن بسام[٥] أن ابن دراج دخل عليه أول مجلس كان له بالقصر فأنشده قصيدته الدالية التي مطلعها:

شهدت لك الأيام أنك عيدها
بك حن موحشها وآب بعيدها

ثم مدحه بنونيته المشهورة:

هنيئاً لهذا الملك رَوْحٌ وريحَانُ
وللدين والدنيا أمان وإيمان

وبثالثة أولها:

تخيرت فاستمسكت بالعروة الوثقى
فبشراك أن تفنى عداك وأَنْ تبقى

وهذه القصائد الثلاث من عيون شعره السياسي إذ إن ابن دراج ينطق فيها بلسان الحزب البربري الذي تزعمه سليمان بن الحكم ويروي مشاهد القتال بينه وبين الحزب الأندلسي الذي كان منضوياً تحت لواء المهدي.

على أن المستعين لم يبل صداه ولا سد خلته كما قال ابن حيان وكما نرى من تلك القطعة التي وجهها إليه مصرحاً بشكواه وآماله:

بلغت عبدك الخطوب مداها

يوم تبليغك النفوس مناها

(٢)

ولا يلبث ابن دراج أن يقنط من سليمان المستعين، وحينئذ يولي وجهه شطر أحد وزرائه: القاسم بن حمود العلوي، وكان في ذلك الوقت وزيراً لسليمان في قرطبة، ولعل ابن دراج أحس بما كان يدبره العلويون وعلى رأسهم علي بن حمود حاكم سبتة وأخوه القاسم من إطاحة بعرش سليمان وإقامة دولة علوية تخلف دولة المروانيين في حكم الأندلس.

ففي سنة ٤٠٤ (١٠١٤) يمدح ابن دراج القاسم الحمودي بقصيدة أولها:

كم أستطيل تضللي وتلددي

وأروح في ظلم الخطوب وأغتدي

وفيها يصور ما حل به وبأسرته من أهوال الفتنة في أسلوب مؤثر نابض بالألم:

في ستة ضعفوا وضعف عدهم

حملاً لمبهور الفؤاد مبلد

---

(١) الذخيرة ق ١ - ٧٢/١، وانظر مقالنا عن «التشيع في الأندلس» - صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد - المجلد الثاني ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٢) ذكر الدكتور زكي مبارك في كتابه «عبقرية الشريف الرضي» (١/ ١٠٣ - ١٠٤) أن في شعر ابن دراج ما يدل على أنه رحل إلى المشرق واستشهدَ بقوله في مدح خيران العامري:

فإن غربت أرض المغارب موئلي   وأنكرني فيها خليط وخلان

فكم رحبت أرض العراق بمقدمي   وأجزلت البشرى عليَّ خراسان

ولسنا نرى في هذين البيتين ما يدل على أية رحلة، وإنما هي نفثة مصدور ضاقت به بلاده فضاق بها، وعبر عن سخطه على مصيره بما يشير إليه من ضياعه في الأندلس على الرغم من سيرورة شعره وحفاوة بلاد المشرق به لو أنه عزم على الرحلة إليها.

شد الجلاء رحالهم فتحملت
أفلاذ قلب بالهموم مبدد
وحدت بهم صعقات روع شردت
أوطانهم في الأرض كل مشرد
لاذات خدرهم يرام لوجهها
كن ولاذو مهدهم بممهد
عاذوا بلمع الآل في مد الضحى
من بعد ظل في القصور ممدد
ورضوا لباس الجود ينهك منهم
بالبؤس أبشار النعيم الأرغد

ويبدو أن ابن دراج لم يجد لدى القاسم ما كان يؤمل، وحينئذ قرر مغادرة قرطبة لأول مرة، فتوجه في هذه السنة عابراً مضيق جبل طارق إلى أخيه علي ابن حمود بسبتة، وهناك ينشده لاميته المشهورة التي فضلها ابن بسام على هاشميات الكميت وكثير عزة وشيعيات دعبل الخزاعي والسيد الحميري[1]، وهي التي يستهلها بقوله:

لعلك يا شمس عند الأصيل
شجيت لشجو الغريب الذليل

وقد كانت هذه أول رحلة لابن دراج خارج حدود الأندلس وآخرها على ما يظهر، ونحن لا نراه يجاوز مدينة سبتة على ساحل الشمال الإفريقي إلى غيرها من بلاد المغرب، ولا شك في أن سن ابن دراج - وكان قد قارب الستين سنة - وكثرة أبنائه وارتباطه الشديد بوطنه - رغم كل ما لاقاه فيه - كل ذلك لم يكن يسمح لابن دراج بهجرة طويلة المدى عن الأندلس[2].

ولهذا فسرعان ما يعود من سبتة وقد انقطع رجاؤه أو كادَ من الحموديين ودولتهم التي لم تستطع أن تفرض نفسها على الأندلس بل انحصرت في جزء صغير من جنوبي شرقي الجزيرة.

---

(١) عن هؤلاء الموالي العامريين ودولهم في الأندلس انظر بحث الدكتور أحمد مختار العبادي: الصقالبة في إسبانيا (نشر معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٥٣)، وبحث المؤرخ الإسباني بريتو فيفس عن «ملوك الطوائف» ص ٣٣ - ٤١.

(٣)

ولم يجد ابن دراج بعد أن ضاقت به الحال بداً من أن يضرب في مناكب شبه الجزيرة بحثاً عن مستقر جديد، وقد اتجه نظره إلى دولة الموالي العامريين أو دولهم بتعبير أصح، وكان هؤلاء الموالي من الصقالبة الذين خدموا في دولة بني عامر ثم وثبوا على بلاد شرق الأندلس حينما انفرط عقد الخلافة، فاستبدوا بمدنها واستقل كل منهم بإحدى إماراتها[١].

ويظهر لنا أن الذي ساق ابن دراج إلى استرفاد هؤلاء العامريين كان هو الصلة القديمة التي كان يمت بها إلى المنصور بن أبي عامر وذريته، ولعله كان يعرف بعض هؤلاء في أثناء خدمته في بلاط المنصور مما أطمعه في أن يجد لديهم مستقراً يطمئن إليه.

وقد تردد ابن دراج ما بين سنتي ٤٠٤ (١٠١٤) و٤٠٨ (١٠١٨) بين المرية Almeria وبلنسية alencia وشاطبة Jativa وطرطوشة Tortosa مادحاً أمراء هذه المدن دون أن يظفر منهم بطائل.

ولعل أول من قصده من هؤلاء الفتيان العامريين كان خيران الذي انتزى على المرية في سنة ٤٠٥ (١٠١٥) وظل يحكمها حتى سنة ٤١٩ (١٠٢٨)، فقد مدحه ابن دراج بقصيدة طارت شهرتها في المشرق والمغرب، وهي النونية التي أولها:

لك الخير قد أوفى بعدهك خيران
وبشراك قد آواك عز وسلطان

وهي في الواقع من أجمل ما نظم ابن دراج وأصدقه، ولا نعني بصدقه هنا إخلاصه في مدح هذا الصقلبي الذي لم يكن على حظ كبير من تقدير الشعر أو العناية به، وإنما نعني به تصوير ما جرته الفتنة على الأندلس من ويلات وكوارث، أما خيران فإنه لم يكافئ ابن دراج على مدحه إياه إلا بقدر ما سمحت به جلافة الصقلبي وبعده عن تذوق الأدب، إذ

(١) جذوة المقتبس ص ٣٧٠ (ترجمة ٩٢٩).

يذكر الحميدي[١] أنه بخس ابن دراج حظه في الجائزة، فبلغ الخبر أبا جعفر ابن جواد الطبيب، فقصد الشاعر بخمسة عشر مثقالاً دفعها إليه وقال له: اعذر أخاك فإنه في دار غربة. وقد سارت فعلة خيران هذه حتى ضرب بها المثل، وبقي صداها يتردد في الأندلس ويتندر به أدباؤها حتى آخر عهد الإسلام بهذه البلاد، حتى إننا نرى الشاعر الغرناطي الفقيه عمر الزجال يقول لأحد ممدوحيه:

ولا خـيـر إن تجـعل كـفـاء قـصـيـدتي

كـفـاء ابن دراج عـلـى مـدح خـيـران[٢]

وكان خيران ومنذر بن يحيى التجيبي قد اضطلعا في هذا الوقت سنة ٤٠٧ (١٠١٧) بأمر عبدالرحمن بن محمد الملقب بالمرتضى زعيم الحزب الأموي، فبايعاه على الخلافة خالعين طاعة علي بن حمود، وجمعا له جيشاً كبيراً انضم إليه بعض الافرنج من أهل برشلونة وتوجهوا إلى غرناطة حيث تجمع البربر تحت لواء زاوي بن زيري الصنهاجي، وفي هذه المناسبة مدح ابن دراج عبدالرحمن المرتضى بداليته التي مطلعها:

جـهـادك حـكم الـلـه من ذا يـرده؟

وعـزمك أمـر الـلـه من ذا يـصـده

وقد اختص الشاعر منذر بن يحيى بجانب كبير من هذه القصيدة، ولعله كان يبيت في نفسه منذ ذلك الحين التوجه إلى منذر في سرقسطة للاختصاص به.

ولم ير ابن دراج بداً من ترك المرية والتوجه إلى بلنسية حيث كان يحكم مبارك ومظفر، وهما خصيان من موالي المنصور العامري كان شأنهما قد ارتفع حتى تسلطا على إمـارة بلنسـية، ولعل ابن دراج أَمَّلَ لديهما ما كان المتنبي قد أمله في كافور الإخشيدي

(١) لم نجد في المراجع التاريخية التي كتبت عن هذه الفترة من حكم ملوك الطوائف تفصيلاً لما ذكره جامع الديوان وما تدل عليه قصيدة ابن دراج هذه من دعوة مبارك ومظفر لولاية طليطلة، ولعل ذلك حدث بعد خلع أهل طليطلة لعبدالملك بن عبدالرحمن بن متيوه، فالمؤرخون يذكرون أنه قد أعقبت ذلك فترة من الاضطراب السياسي في هذه المدينة لم تنته إلا بولاية اسماعيل بن عبدالرحمن بن ذي النون، ولعل دعوة مبارك ومظفر لحكم طليطلة وقعت بين هذين الحدثين، والذي نعرفه أن أميري بلنسية هذين لم يصلا في النهاية إلى حكم طليطلة (انظر ابن عذاري: البيان المغرب ٢٧٦/٣ – ٢٧٧).

حين قصده بعد مفارقته لسيف الدولة. وقد احتفظ لنا الديوان في مدحهما بقصيدتين مطلع الأولى:

أنورك أم أوقدت بالليل نارك
لباغ قراك أو لباغ جوارك

أما الثانية فقد قالها حينما دعيا إلى ولاية طليطلة Toledo[1] وأولها:

أهنيكما ما يهنئ الدين منكما
هدى وندى فليسلم الدين واسلما

ولم يقتصر ابن دراج على مدح هذين الصقلبيين أميري بلنسية، بل إنه توجه كذلك إلى بعض أصاغر الأمراء ممن كانوا يدينون بالطاعة لهذين، فإننا نرى في الديوان قصيدة له في مدح لبيب العامري صاحب طرطوشة مطلعها:

هل تثنين غروب دمع ساكب
من شام بارقة الغمام الصائب

وفيها يذكر بما يربط بينهما من خدمة الدولة العامرية:

بيني وبينك أن يلبي دعوتي
داعي «لبيب» من مناخ ركائبي
وأشيم برق يمينه وجبينه
ويشم ريح أواصري ومطالبي
وأهزه بشوافع من عامر
تزري بكل قرابة ومناسب

كذلك مدح ابن دراج الفتح بن أفلح صاحب شاطبة بقصيدة أولها:

أَرَحْلِيَ محمولٌ على العُتُقِ النُّجْبِ
يؤمك أمْ سَارٍ على القتم النُّكْبِ

---

(١) الذخيرة ق ٣ – أب (مخطوطة المجمع التاريخي الملكي بمدريد)، وتحقيق إحسان عباس، ق ٣ – ١/ ١٠ – ١١.

وهكذا نرى كيف تردد القسطلي على هؤلاء الموالي العامريين دون أن يجد منهم أذناً مصغية أو يداً رفيقة، وما أحسن ما صور ابن بسام هذه الوفادات حين قال:

«... فكم له من وفدة أخزى من وفادة البرجمي، ووسيلة أضيع من المصحف في بيت الزنديق الأمي، بقصائد لو مدح بها الزمان لما جار، أو رواها الزبرقان لأمن من السرار..»[1].

د - في بلاط التجيبيين ملوك سرقسطة

وأخيراً يتجه ابن دراج إلى سرقسطة حيث كان منذر بن يحيى التجيبي قائماً بالأمر بعد نحو ثماني سنوات من التغرب والتشرد، ولعل هذه السنوات العجاف كانت أعصب فترة مرت على حياة ابن دراج، أما منذر بن يحيى فقد رأينا كيف اتصل به أبو عمر القسطلي من قبل وأسبغ عليه مدحه حينما قصد عبدالرحمن المرتضى في سنة ٤٠٧ (١٠١٧)، وربما كانت هذه الصلة هي التي شجعت ابن دراج على التوجه إلى منذر بعد أن أعيت وسائله لدى الفتيان العامريين.

وقد كانت أول قصائده في مدح منذر عند قدومه على سرقسطة في سنة ٤٠٨ (١٠١٨) هي الرائية التي استهلها بقوله:

بشراك من طول الترحل والسرى
صبح بروح السفر لاح فأسفرا

ولم يخب أمل ابن درّاج في هذه المرة، فقد أتيح له في سرقسطة جو من الاستقرار لم ينعم به منذ فارق قرطبة في سنوات الفتنة، وفي بلاط منذر التجيبي وابنه يحيى قضى ابن دراج نحو عشر سنوات تمتع خلالها ببعض الهدوء والنعمة، وإلى هذين الملكين وجه ابن دراج شطراً كبيراً يبلغ نحو الثلث من إنتاجه الشعري.

وقد كان منذر على نصيب من الأدب حمله على العناية بالشعراء والعلماء، ولا ريب أنه قدر ما في إيوائه لشاعر مثل ابن دراج من إشادة بذكره بين ملوك الطوائف، أما ابن دراج فلعله رأى في حياته في ظل التجيبيين صورة - مصغرة بلا شك - من حياته الماضية في رحاب العامريين حين كان شاعر دولتهم «الرسمي» وكاتب الرسائل

في ديوانهم.

على أن ابن دراج كان يستبد به – ولا سيما في فترة مقامه الأولى بسرقسطة – شعور الحنين إلى أيامه الذاهبة في قرطبة، مما جعل قصائده الأولى على الرغم مما فيها من سرور بحياته الجديدة المستقرة تفيض بالألم والحزن:

قل للربيع اسحب ملاء سحائب
فاجرر ذيولك في مجر ذوائبي
لا تكدين ومن ورائك أدمعي
مدداً إليك بفيض دمع ساكب

......

واجنح لقرطبة فعانق تربها
عني بمثل جوانحي وترائبي
حيث استكانت للعفاء منازلي
وهوت بأفلاذ الفؤاد ركائبي
من كل مفجوع بترحة راحل
لم يسله طمع بفرحة آيب
كذبته بارقة المنى عن صادق
من ظنه وصَدَقْنَه عن كاذب
ظُعُنٌ سَرَيْنَ الليل ضربة لازم
وسرى إليها الهم ضربة لازب
جمدت عليهن القلوب فأبرزت
عن أعين بدمائهن سواكب

وهو ينظر إلى وراء ويستعرض حياته في خلال الفتنة وما لاقاه من شدة في تلك الأيام فلا يملك إلا أن ينفث هذه الزفرة:

ويالك من ذكرى سناء ورفعة
إذا وضعوا في الترب أيمن جنبيا

وفــاحت لــيــالي الــدهــر مــنـي مــيــتــا
فــأخـــزين أيــامــاً دفــنــت بـــهــا حـــيــا
وكـــان ضــيـــاعـي حـــســرة وتـــنـــدمـــا
إذا لـم يـفـد شـيـئـاً ولـم يـغـنـنـي شـيـا
سوى حسرتي عرض ووجه تضعضعا
لــقــارعــة الــبــلــوى وكــانــا عــتــاديــا

ثم يتعود ابن دراج على حياته الجديدة ويعيد في ظل منذر بن يحيى عهده مع المنصور بن أبي عامر، فلا يكاد يدع مناسبة تمر إلا وأنشد فيها شيئاً، وقد كان لمنذر نصيب من جهاد المسيحيين المصاقبين لملكته، ووجد ابن دراج في ذلك متنفساً لشعره كما كان يجد في غزوات العامريين لمن جاورهم من الممالك النصرانية ومن أجمل قصائده في ذلك تلك التي يستهلها بقوله:

أهل بـــالــبـــين فـــانـــهـــلـت مـــدامـــعـه
وأنس الــنــفــر فــاســتــكت مــســامــعـه

وأخرى مدحه بها وقد انصرف من إحدى غزواته أولها:

نـــعـم يــــبــــشـــر بـــدؤهـــا بـــتـــمـــام
فـــتـح الـــقـــدوم ونـــصـــرة الإقـــدام

وقد كان لسياسة منذر التجيبي مع جيرانه من الأمراء المسلمين والنصارى على السواء صدى في شعر ابن دراج، ولعل أهم الأحداث التي وقعت في عهده ذلك الصهر الذي تولى منذر عقده بين جاريه المسيحيين قومس برشلونة ريمند بن بريل Ramon Borrell وقومس قشتالة شانجخه بن غرسية بن فرذلند Sancho Garcia III على أساس أن يتزوج ابن الأول من ابنة الثاني، ويذكر ابن حيان في معرض الحديث عن هذا الصهر أن ألسنة المسلمين قرفت منذراً لتوسطه في تأليف شمل الإمارتين المسيحيتين، على أن ابن

(١) انظر ابن بسام: الذخيرة ق ١ – ١/ ١٨١ – ١٨٢، ابن عذاري: البيان ١/١٧٧.
(٢) على قدر أهل العزم تاتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

حيان دافع عن منذر بهذه المناسبة وقال إنه كان أحصف ممن قدح فيه فقد وفر لبلاده جوا من السلام والطمأنينة ولم ينتفع الملكان المسيحيان بصهرهما[1].

وقد مدح القسطلي منذراً في هذه المناسبة بعدة قصائد من أروع شعره السياسي وأجمله، ومن خيرها تلك الميمية الطويلة التي يبدو أنه أراد أن يعارض بها إحدى قصائد المتنبي[2] في سيف الدولة وأولها:

لـعل سـنـا الـبـرق الـذي أنـا شـائم

يـهـيم من الـدنـيـا بمن أنـا هـائم

وقصيدته الأخرى التي أولها:

عـمـرت بـطـول بـقـائك الأعـمـار

وجـرت بـرفـعـة قـدرك الأقـدار

كذلك وصف ابن دراج سفارات أمراء المسيحيين على سرقسطة كما فعل من قبل

---

(١) حول منذر بن يحيى التجيبي وسنوات حكمه وحكم ابنه يحيى من بعده خلاف كبير بين المؤرخين واضطراب في أقوالهم مما أوقع الباحثين المحدثين كذلك في خلاف واضطراب أشد، حتى ظن الكثيرون أنه لم يكن هناك من التجيبيين إلا ملك واحد هو منذر بن يحيى وجعل هؤلاء مدة حكمه ممتدة بين سنتي ٤٠٨ و٤٣٠ حين اغتاله على قولهم عبدالله بن حكم، وظن آخرون أنه لم يحكم سرقسطة إلا منذر هذا ثم ابنه يحيى بن منذر دون أن يهتدوا إلى تحديد سنوات ولايتهما ووفاتهما، وليس هذا مجال بحث الخلاف حول هذه المسألة، ويكفي أن نذكر هنا أن التجيبيين ملوك سرقسطة قبل دولة بني هود كانوا ثلاثة: الأول منذر بن يحيى وقد استقل بحكم سرقسطة منذ سنة ٤٠٨ حتى سنة ٤١٢، وخلفه بعده ابنه يحيى بن منذر الذي حكم بين سنتي ٤١٢ و٤٢٧، وثالثهم هو منذر بن يحيى (الثاني) وحكم بين ٤٢٧ و٤٣٠ حين اغتاله عبدالله بن حكم منهيا بذلك حكم التجيبيين في سرقسطة في خبر مشهور متناقل عن ابن حيان (انظر الذخيرة ق ١ – ١٨٥/١ – ١٨٨، ابن عذاري البيان ١٧٨/٣ – ١٨١، ابن الخطيب: الأعمال ص ١٩٦ – ١٩٧)، وقد لبث ابن دراج في سرقسطة طوال مدة منذر الأول ثم شطراً من امارة يحيى بن منذر، أما منذر الثاني فلم يدركه القسطلي وإن كان قد أشار إليه في بعض مدائحه لأبيه يحيى وكان حينئذ ولي عهده. وأما هذا التحديد التاريخي وهو ما لم يرد في أي مرجع تاريخي من المراجع المنشورة حتى الآن فقد تفضل بإطلاعي عليه أستاذنا الكريم الدكتور عبدالعزيز الأهواني نقلاً عن مخطوطة للعذري يعدها الآن للنشر، ونحن نغتنم هذه الفرصة لنقدم للأستاذ الدكتور الأهواني خالص الشكر على هذه الفائدة القيمة.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ١٧٧/٣، وابن بسام: الذخيرة ق ١ – ١٨٣/١.

(٣) لم يرد في المراجع التاريخية شيء عن القائد ابن باق هذا، على أننا عثرنا على إشارة عابرة إلى قائد كاتب يدعى أحمد بن محمد بن باق كان والياً على «مدينة سالم Medinaceli» وبها قتل في سنة ٤١٩ أو ٤٢٠، وربما كان هذا هو الذي يعنيه ابن دراج (انظر ابن الأبار التكملة ص ٤١).

أيام المنصور، ومن ذلك قصيدته في ذكر وفود الأمير ابن ميره عليه:

عــجــبــاً لــغي الحب لاح ســبــيــله

ولــرشــد حــلــمك كــيف ضل دلــيــله

ويبدو أن ابن دراج قد أتيح له شيء من اليسار والثروة في خلال إقامته بسرقسطة، فنحن نعرف من شعره أنه اقتنى ضياعاً وجناناً يتحدث عنها في قصيدتين أرسلهما إلى قاضي سرقسطة يحتج على زيادة الضرائب على هذه الضياع، وهما قصيدتان أشبه بالرسائل منهما بالشعر.

ولما مات منذر بن يحيى في سنة ٤١٢ (١٠٢٢) وخلفه على عرش سرقسطة ابنه يحيى[١] بقي ابن دراج في كنف الأمير الجديد على حاله الأول مادحاً له مسجلاً كل ما وقع في عهده من أحداث مهمة من غزوة أو سفارة أو ما إلى ذلك، هذا فضلاً عما كان معتاداً عليه من شعر المناسبات والتهنئات ومقطعات أخرى غنائية.

وقد كان لابن دراج – فضلاً عن هذين الأميرين التجيبيين – صلة وثيقة ببعض رجالات سرقسطة نذكر منهم الكاتب ابن أزرق الذي كان من جلة من تولوا العمل في ديوان الرسائل هناك[٢]، وكذلك القائد ابن باق الذي كان على ما يبدو من شعر ابن دراج من أعظم القواد والوزراء على عهد التجيبيين[٣].

على أن العلاقة بين ابن دراج ويحيى أصابها شيء من الفتور لأسباب لا نعرفها على وجه التحقيق، ولعل الأمير لم يعامل الشاعر بمثل ما كان يعامله به أبوه منذر ابن يحيى، وقد باح ا بن دراج بذلك في قصيدة وجهها إلى صديقه القائد ابن باق، وتحدث فيها بكثير من الامتنان عن شعره الذي ظفر به «قدح مليكي تجيب» (يعني منذراً وابنه يحيى)، إلا أنه يشكو من إضاعة يحيى لحقه وإلوائه بجزائه:

فــهل في الــورى غــيــر ســمع شــهــيــد

يــلــبــيه كل فــؤاد لــبــيب

بــأن لم يــفــز قــبــلــهــا مــلك مــلك

(١) ابن بسام: الذخيرة ق ١ – ١/ ٦١.

بقدح كقدح مليكي تجيب

فأنجب بمورثه من مليك

وأسعد بوارثه من نجيب

وأعجب بأوفى مليك أضاع

من الذكر والفخر أوفى نصيب

وقد بلغ به الضيق أن هدد بفراق جوار يحيى بن منذر، وطلب من ابن باق أن ينهي ذلك إلى الأمير:

فإن تنه عني فأولى مجاب

دعا للمكارم أهدى مجيب

وكنت بذلك أحظى مثاب

له من ثنائي أوفى مثيب

ومن يمنع الضيف رحب الفناء

فقد قاده للفضاء الرحيب

هـ - تغرب جديد

لا تمدنا المراجع بأي تفصيل عن الأيام الأخيرة لإقامة ابن دراج في سرقسطة ويفهم من نص لابن حيان أنه قضى آخر سنوات حياته في هذا البلد في كنف يحيى بن منذر التجيبي إذ يقول: «فلم يزل عنده [أي عند منذر] وعند ابنه بعده مادحاً لهما، مثنياً عليهما غير باغٍ بدلاً بجوارهما إلى أن مضى لسبيله»(١)، غير أنه يبدو لنا أن ابن دراج قد ضاق أخيراً بمقامه في سرقسطة كما سبق أن أوضحنا، وقد رأينا كيف جرى ذلك على لسانه في قصيدته التي أرسلها إلى ابن باق معرضاً له بمغادرة سرقسطة. ويظهر أنه اضطر أخيراً إلى ذلك بالفعل، فنحن لا نلبث أن نراه بعد ذلك في دانية Denia مادحاً أميرها مجاهداً العامري في سنة ٤١٩ (١٠٢٨) على ما نفهم من كلام جامع الديوان.

---

(١) الحميدي: الجذوة ص ١٧١، ابن بسام: الذخيرة ق ٤ - ١/٨ - ٩.

(٢) الجذوه ص ١٧٣، والذخيرة ق ٤ - ١/ ١٢٥.

(٣) الجذوة ص ١٧٢، وابن بشكوال، ترجمة ٢٨٣ ص ١٢٢.

(٤) الجذوة ص ٣٣١ - ٣٣٢ (ترجمة مجاهد، رقم ٨٢٩).

ولابد أن شيئاً خطيراً هو الذي دفع ابن دراج إلى هذه الرحلة وهو قد ناهز السبعين من عمره، ونحن نحس صدى لذلك في مطلع قصيدته في مدح مجاهد:

إلى أي ذكـــر بـــعـــد ذكـــرك أرتـــاح؟

ومن أي بـحـــر بـعـد بـحـــرك أمـتـــاح؟

فهو يرى في مجاهد آخر أمل له بعد أن أدركه اليأس، ولعل في قوله هذا تعريضاً بممدوحه السابق يحيي بن منذر الذي «أضاع من الفخر أوفى نصيب» كما قال بتضييقه على الشاعر وتقصيره في إيوائه.

وهــو يعــود إلى الحديث في هذه القصيدة عما ألم به من خطوب ألجأته إلى حضرة مجاهد:

إلــيــهــا حــدتــنـي حــادثــات كــأنــهــا

بـــوارح يـــحـــدوهن بـــرح وأبـــراح

ولسنا نعلم كنه هذه «الحادثات» إلا أننا لا نستبعد أن تكون العلاقات قد ساءت بينه وبين يحيى بن منذر إلى حد أنه خافه على حياته، فقرر الهجرة من سرقسطة، وعاد مرة أخرى إلى الاستجارة بأحد الموالي العامريين، وكان في هذه المرة مجاهداً العامري، ولعل ابن دراج بلغته أنباء إكرام مجاهد للعلماء وحفاوته بهم، مما هو ثابت في المراجع الأدبية الأندلسية، فقد وفد عليه صاعد البغدادي زميل ابن دراج في بلاط العامريين بقرطبة والتجيبيين بسرقسطة من قبل(١)، وأبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني(٢)، وبلغ من إكرامه لأدباء دولته أن عرض على أحد علماء اللغة ألف دينار على أن يقول في مقدمة كتابه إنه مما ألفه له(٣) بل إن مجاهداً نفسه كان من أكثر ملوك الطوائف علماً ومعرفة وأدباً، ويذكر أنه شارك في التأليف إذ يقول الحميدي إن له كتاباً في العروض يدل على قوته فيه(٤)، ويضيف ابن حيان إلى ذلك أنه كان أشد الناس في الشعر لا يزال يتعقبه على

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ١٥٦/٣، وانظر بحث الدكتور مختار العبادي: «الصقالبة في إسبانيا» ص ٢١ – ٢٦.

(٢) احتفظ لنا بهذا التاريخ ابن خلكان في وفيات الأعيان ١٣٩/١.

(٣) انظر: الحميدي: الجذوة ترجمة ٧٥٦، وابن بشكوال: الصلة ترجمة ٩٩٦، والضبي: بغية الملتمس، ترجمة ١٢٨٢.

(٤) ابن بسام: الذخيرة ق ١ – ٦٠/١.

القائل كلمة كلمة مما جعل الشعراء يقصرون عن مدحه[1]، على أننا لا نظن ذلك كان مقعداً لابن دراج عن مدحه، فقد كان له من مكانته الأدبية وشهرته لا سيما في آخر عمره مالا يتهيب معه قصد هذا الأمير الناقد الأديب.

ولسنا نعلم كم من الوقت قضى ابن دراج في كنف مجاهد، وربما كان الأرجح أنه توفي هناك في دانية، وإذا صح ذلك فإن مقامه كان في هذه المدينة نحواً من سنتين، فنحن نعلم أنه توفي في ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادي الثانية سنة ٤٢١ (٢٢ يونية سنة ١٠٣٠)[2]، وربما كان مما يرجح وفاة ابن دراج في دانية أن الابن الوحيد الذي احتفظت كتب التراجم لنا ببعض أخباره من ولد ابن دراج وهو الفضل بن أحمد كان من شعراء إقبال الدولة علي ابن مجاهد[3] الذي حكم دانية والجزائر الشرقية بعد وفاة أبيه ممدوح ابن دراج في سنة ٤٣٦ (١٠٤٤ – ١٠٤٥).

✵✵✵✵✵

وهكذا انتهت أيام ابن دراج «سباق حلبة الشعراء العامريين وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين» بعد أن «طرحت به تلك الفتنة الشنعاء واضطرته إلى النجعة، فاستقرى ملوكهم أجمعين ما بين الجزيرة الخضراء فسرقسطة من الثغر الأعلى[4]» على حد قول ابن حيان، مخلفاً لنا في ديوان شعره الذي نقدمه الآن ما يصور حياة الأندلس في «يومي نعيمها وبؤسها»، في أوج عزتها وعظمتها على أيدي العامريين ثم عند انهيارها وإلواء المحن بها منذ أن ساقت نوازع البطر وتفرق الكلمة أهل الأندلس إلى تحطيم أركان الدولة العامرية.

---

(١) جمع الأستاذ بلاشير في بحثه الذي تكررت الإشارة إليه في هذا التقديم أوفَى بيان حتى الآن عن آراء النقاد القدماء المشارقة والأندلسيين والنقاد المحدثين في شعر ابن دراج (ص ١١٥ – ١٢١)، وعلى بلاشير اعتمد من كتب بعد ذلك عن ابن دراج مثل جونثالث بالنثيا (تاريخ الفكر الأندلسي – ترجمة الدكتور حسين مؤنس – ص ٦١، ٦٥ – ٦٦، ٢٤٠)، ونيكل: الشعر الأندلسي ص ٥٦ – ٥٨، وانظر من الأبحاث العربية الحديثة: الدكتور إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ص ٢٠٥ – ٢١٣، والدكتور أحمد هيكل: الأدب الأندلسي ص ٣٤٣ – ٣٥٧.

(٢) انظر يتيمة الدهر ٢/١٠٣ – ١١٦.

(٣) ص ٤١٤ – ٤١٥.

ديوان ابن دراج القسطلي

أ - روايات الديوان

ليس في نيتنا التحدث هنا عن فن ابن دراج[١]، فموضع ذلك الدراسة التفصيلية التي نعدها عن الشاعر، وانما سنكتفي بالإشارة إلى روايات ديوانه المختلفة كما نصت على ذلك المراجع التي تحدثت عنه.

وقد ذاع صيت ابن دراج وتنوقل شعره في حياته في جميع أنحاء العالم الإسلامي كما يبدو من اختيار معاصره أبي منصور الثعالبي النيسابوري جملة كبيرة من شعره وهو بعد على قيد الحياة[٢]، إذ إن ذلك يدلنا على أن مجموعة من شعر ابن دراج كانت مدونة ومتداولة في ذلك الوقت، وأن الأدباء الأندلسيين الراحلين إلى المشرق في ذلك الوقت كانوا يتزودون بها لتعريف المشارقة بمكانة شاعرهم الأندلسي «متنبي المغرب» كما كانوا يطلقون عليه.

وأوفى ما وصلنا عن الروايات المختلفة لديوان ابن دراج هو ما سجله أبو بكر ابن خير الإشبيلي (توفي سنة ٥٧٥هـ) في «فهرسة ما رواه عن شيوخه»[٣] وسنورد جدولاً تخطيطياً لروايات الديوان كما وصلت إلى ابن خير نفسه.

---

(١) انظر ترجمته في ابن بشكوال: الصلة ترجمة ٥٣٥، الضبي: البغية، ترجمة ٨٤٩.

(٢) ابن بشكوال: الصلة ترجمة ٧٥٣، الضبي: البغية ترجمة ١٠٣١، ابن الأبار: معجم أبي علي الصدفي ترجمة ١٥.

(٣) ابن بشكوال: الصلة ترجمة ١٢٩٧.

(٤) كان عبدالله ابن العربي من المقربين إلى ابن عباد صاحب إشبيلية، وتوفي في رحلته إلى المشرق أثناء إقامته بمصر – انظر الضبي: البغية ترجمة ٨٩١.

(٥) ابن بشكوال: الصلة ترجمة ١٢٧.

ومن هذا الجدول نرى أن ابن خير الإشبيلي الذي عاش في القرن السادس الهجري قد توافرت لديه ثلاث روايات للديوان:

أ - أولاها عن شريح بن محمد بن شريح الرعيني الإشبيلي خطيب إشبيلية وقاضيها، وكان من المكثرين من الرواية عن المفكر الأندلسي العظيم ابن حزم القرطبي، وتوفي شريح هذا في سنة ٥٣٩هـ(١) أما روايته للديوان فكانت بطريق الإجازة عن أستاذه ابن حزم الذي رواه بدوره عن ناظمه ابن دراج.

ب - والثانية عن أبي الحكم عبدالرحمن بن عبدالملك بن غشليان السرقسطي، وكان والياً للأحكام في مالقة واشتغل بالتدريس في قرطبة، وكانت وفاته في سنة ٥٤١هـ(٢)، أما ابن غشليان هذا فقد روى الديوان عن أبي عبدالله محمد بن فتوح الحميدي صاحب كتاب «جذوة المقتبس» ثم تلتقي هذه الرواية بالتي ذكرناها قبل، إذ إن كلتيهما ترتفع إلى ابن حزم القرطبي.

جـ - وأما الرواية الثالثة فيأخذها ابن خير عن العالم الأندلسي المعروف القاضي أبي بكر ابن العربي الإشبيلي. وقد ولد ابن العربي في سنة ٤٦٨ ودخل بغداد فسمع فيها من جماعة كبيرة من علماء المشرق ثم عاد إلى الأندلس فتوفي بها سنة ٥٤٣(٣)، ولابن العربي هذا روايتان للديوان:

إحداهما أندلسية خالصة، إذ هو يرويه عن أبيه(٤) عن أبي عمر أحمد بن الحسين بن حي التجيبي، وهو عالم قرطبي الأصل ولد في سنة ٣٨٩، وكان ينظر في الأحكام بقرطبة أيام الفتنة ثم انتقل إلى إشبيلية وانتهى به المطاف أخيراً إلى سرقسطة، فتوفي بها سنة ٤٥٩(٥)، وقد نقل ابن حي الديوان عن ابن دراج نفسه.

وأما الثانية فإنها رواية مشرقية أندلسية معاً، إذ إنَّ أبا بكر ابن العربي أخذها

---

(١) ابن بشكوال: الصلة ترجمة ١١١٤، الضبي: البغية ترجمة ٢٥٧، المقري: النفح ١١٢/٢ - ١١٥.
(٢) انظر طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس (في مجموعة رسائل ابن حزم، بيروت ١٩٨٧، ٢١٦/١ - ٢١٧). وكذلك مقدمة الأستاذ غرسية غومس لترجمته الإسبانية لكتاب الطوق ص ١١ - ١٢.
(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ١٢٥/٣ - ١٢٧.

عن العالم البغدادي أبي بكر محمد بن طرخان، وكان من أساتذته في بغداد حين دخلها في رحلته التي أشرنا إليها، أما ابن طرخان فقد أخذ الديوان عن أستاذه الأندلسي الحميدي الذي نعرف عنه أنه رحل إلى المشرق في سنة ٤٤٨ وأقام ببغداد حتى توفي بها سنة ٤٨٨، وهناك في العراق ألف كتابه «جذوة المقتبس[(١)]»، ويروي الحميدي الديوان عن ابن حزم عن ابن دراج.

ونحن نستدل من الجدول الذي فصلنا الحديث عنه على الكثير: فمنه نعرف أن من أكثر روايات الديوان شهرة في القرن السادس الهجري - على الأقل فيما اعتمده أبو بكر ابن خير - روايتين تنتهيان إلى تلميذين من تلاميذ ابن دراج: أحدهما ابن حزم القرطبي، وكان من أشد المتصلين بالشاعر تفضيلاً له وإعجاباً به، وأما الآخر فهو ابن حي التجيبي السرقسطي.

أما ابن حزم فلسنا نعرف متى روى الديوان عنه، ولعله روى بعض شعره في قرطبة قبل وقوع الفتنة، وكان ابن دراج في ذلك الوقت قد جاوز حد الكهولة وكانت مكانته لدى العامريين قد رسخت وتوطدت، أما ابن حزم فكان شاباً دون العشرين لا يزال في مرحلة الطلب، على أننا نرجح أن صلة ابن حزم بابن دراج توثقت بين سنتي ٤٠٧ و٤٠٨ في الوقت الذي انحصر بين توجه الشاعر إلى المرية لمدح خيران العامري واتصاله بعبدالرحمن بن محمد الملقب بالمرتضى ممدوح ابن دراج أيضاً، فنحن نعلم أن ابن حزم تنقل في هذه الفترة كذلك بين المرية وبنلسية مؤيداً عبدالرحمن الأموي في حركته التي حاول بها إعادة الخلافة الأموية[(٢)]، وهي تلك الحركة التي تحطمت أخيراً على أسوار غرناطة في سنة ٤٠٩[(٣)]، وإذا كان ما نفترضه صحيحاً فإن رواية ابن حزم هذه لديوان ابن دراج لم تكن كاملة إذ لم تتضمن ما قاله الشاعر في ظل التجيبيين أصحاب سرقسطة، وهو جانب كبير من شعره إلا إذا افترضنا أن ابن حزم التقى بابن دراج بعد

---

(١) هذا ويجدر بنا أن نذكر ان ابن حي التجيبي المذكور كان له ولد اسمه الحسين خرج من الأندلس سنة ٤٢٢ ولحق بمصر واليمن والعراق، وكانت وفاته باليمن سنة ٤٥٦ (انظر ابن الأبار: التكملة - ترجمة ٧٧)، ولسنا نستبعد أن يكون الحسين بن حي هذا قد ساهم أيضاً في نشر ديوان ابن دراج في المشرق رواية عن أبيه.

(٢) يقول ابن فضل الله العمري في ترجمته: «إلى أن أقام بسرقسطة... يعلم اللغة والنسب، ويعيد ندى أندية العرب» (مسالك الأبصار - مخطوطة دار الكتب ٢٠١/١١).

ذلك في ظروف لم نتحقق من الإلمام بها أو الاطلاع عليها، أو أن يكون الشاعر قد كتب إلى ابن حزم مجيزاً له رواية ديوانه بغير أن يلقاه.

ونأخذ من جدول ابن خير أيضاً أن الحميدي تلميذ ابن حزم وصاحب «جذوة المقتبس» كان له فضل كبير في إذاعة ديوان القسطلي في المشرق والأندلس على السواء، فقد تناقله عنه علماء بغداد حيث كان مستقره بعد هجرته من بلاده، ومن بين هؤلاء فيما نعرف أبو بكر محمد بن طرخان الذي أشرنا إليه، ومن الطريف أن نرى أندلسياً متأخراً هو أبو بكر ابن العربي الإشبيلي يقدم إلى بغداد ليأخذ عن ابن طرخان هذا ديوان شاعرنا الأندلسي ويعود به إلى بلاده، وكأنه يعيد إلى ذاكرتنا ما سبق أن قاله الصاحب بن عباد حين اطلع على كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه: بضاعتنا ردت إلينا».

كذلك اهتم الأندلسيون الراحلون إلى المشرق بتتبع ديوانهم عن مواطنهم الحميدي هناك كما نرى من رواية ابن غشليان السرقسطي له عن هذا العالم.

وإذا كان لابن حزم فضل في نشر ديوان كبير من إذاعته بالأندلس، فقد رواه عنه هناك ابن شريح الإشبيلي وعن طريقه تناقله العلماء الاندلسيون.

كذلك نرى من هذا الجدول أن أدباء سرقسطة بوجه خاص اهتموا برواية ديوان ابن دراج والعناية به، فنحن نرى أن أحد رواته عن الشاعر نفسه كان أبا عمر أحمد بن الحسين بن حي التجيبي الذي أقام بالثغر الأعلى بأخرة من عمره ولعل روايته كانت أكمل من رواية ابن حزم(١)، فنحن نعرف أن ابن دراج قضى السنوات الأخيرة من حياته في هذا البلد، ولعله كان يملي في ذلك الوقت الرواية النهائية لشعره بعد تهذيبه وتنقيحه.

فمن المحقق أن ابن دراج كان في آخر عمره قد تصدر لتدريس اللغة والأدب والأنساب في سرقسطة(٢)، وقد نقل إلينا ابن الأبار في كتابه «التكملة» أسماء عدد من

---

(١) التكملة – ترجمة ٤٥٨.
(٢) التكملة – ترجمة ١١٢٤.
(٣) التكملة – ترجمة ١٦٩٥.
(٤) التكملة – ترجمة ٤٨٧.
(٥) وفيات الأعيان ١/١٣٥.

أدبــاء هــذا البــلــد ممــن أحـاطــوا بـابن دراج وأخذوا عنه هنـاك: من بينـهم مـحـمـد بن ميمـون القــرشــي السرقســطـي وكان من أهل العلم بالعربية والآداب[١]، والكاتب أبو الفـرج مظفـر السـرقسـطـي الذي استقـر أخيراً في غرناطة[٢]، وعبدالملك بن هشـام التجيبي السرقسطي[٣].

بل إن أديباً أصله من وشقة IIuesca هو محمد بن إبراهيم القيسي عني في أثناء إقامته بسرقسطة بجمع شعر ابن دراج وترتيبه على حروف المعجم، وذلك في سنة ٤٦٧، ويضيف ابن الأبار إلى ذلك أن هذاا لأديب زاد في الديوان كثيراً على ما بأيدي الناس، وأنه (أي ابن الأبـار) رآه بخطه في بلنسية سنة ٦٣٥ أي قبل سقوط المدينة في أيدي المسيحيين بفترة وجيزة[٤].

وقد نص ابن خلكان فيما ذكره بين يدي ما اختاره من شعر ابن دراج أنه نقله من ديوانه الذي يتألف من جزأين[٥]، ولعل نسخة هذا الديوان التي كانت سائرة متداولة في أول أيام ابن خلكان إنما كانت عن إحدى الروايات المشرقية المتناقلة هناك كما رأينا.

ب - المخطوط

أمــا النســخة المخطــوطة التي اعتـمدنا عليها في نشر الديوان فلسنا نعرف على أي الروايات التي ذكرناها تستند، إذ هي مبتورة الأول والآخر، وقد ذهب منها لأجل ذلك اسم الناسخ وتاريخ النسخ، والشعر فيها غير مرتب لا على أساس الحروف الهجائية، ولا على أي أساس آخر تاريخي أو موضوعي، وقد آثرنا أن نترك هذا الترتيب على ما هو عليه حتى لا ندخل كثيراً من التعديل على نظام الديوان، ثم إن في الفهارس الملحقة به ما يغني عن ذلك.

وقد كانت هذه النسخة المخطوطة بالمكتبة الزيدانية في المغرب الأقصى، وهي تحمل ورقة وضعت في أول الديوان يبدو أن أحد أمناء هذه المكتبة قد سجل فيها ملاحظة حول المخطوط ننقلها هنا بنصها: **ديوان أحمد بن محمد بن دراج القسطلي (المولود سنة**

٣٤٧هـ. المتوفي ٤٢١/ ٩٥٨ - ١٠٣٠) «مبتور الأول والأخير، يبتدئ من الورقة الرابعة بقوله:

كما رفع الآل الهوادج بالضحى

غداة استقلت بالخليط حمول

تنقصه أوراق من ٢١ إلى ٢٦ ورقة ٥١، ٦٣، ٧٦، ٩٠، الموجودة من ورقاته ١٢٢، مسطرته ٢٥، مقياسه ٢٥٠ × ١٩٠ (ملليمتراً)، مكتوب بخط مغربي جيد، نسخة المكتبة الزيدانية.

تكلم عن صاحب الديوان ابن خلكان: «الجزء الأول ص ٤٢، والذخيرة لابن بسام: الجزء الأول ص ٤٣، الأعلام للزركلي، الجزء الأول ص ٢٠٤».

وهذه الملاحظة صحيحة فيما يتعلق بعدد أوراق المخطوطة ومقاييسها ومسطرتها أما الناقص من عدد أوراقها - فضلاً عن كون النسخة مبتورة الأول والآخر - فإنه يبدو لنا أكثر مما ذكر، فهناك مواضع أخرى بخلاف ما نص عليه هنا سقطت فيها أوراق من الديوان بغير شك على الرغم من انتظام الترقيم وتسلسله (وقد نبهنا على ذلك في موضعه)، وهذا يدلنا على أن الترقيم الذي وضع على الأطراف العليا من الأوراق حديث نسبياً.

وكذلك نلاحظ أن هناك خطأ في ترتيب الأوراق في موضعين من المخطوطة وقد أشرنا إلى ذلك في أثناء التحقيق، إذ إننا أعدنا ترتيب الأوراق إلى ما رأينا أنه الصواب المساير للمنطق المعقول.

وناسخ الديوان لا بأس به بوجه عام، فالأخطاء في النسخة المخطوطة قليلة إلى حد ما، على أنه ترك بغير إعجام تلك الكلمات التي لم يستطع التحقق من صحة كتابتها،

(١) هذا وقد ضاق بهذه التعليقات الفارغة ذلك العالم المغربي الذي وقع إليه الديوان، فكتب في حاشية إحدى صفحاته ملاحظة فكهة ساخرة ننقلها بنصها هنا لطرافتها (ورقة ٤٢): «قطع روي هذه القصيدة الذي هو الراء، فصفح الله لملوث هذا الديوان بما كتب في هامشه وقطع من أطرافه، غفر الله لنا وله».

ويبدو ذلك بوجه خاص في أسماء بعض الأعلام الجغرافية المسيحية هذا إلى غير ذلك من بعض التحريفات والتصحيفات الأخرى، وكثير من أخطاء الناسخ يرجع إلى اعتسافه في ضبط الألفاظ، إذ إن التوفيق جانبه في كثير من ذلك، ولهذا فقد ضربنا صفحاً عن ضبطه حيثما تبين لنا الخطأ فيه، أما الأخطاء الأخرى فقد نبهنا عليها في مواضعها مع إثبات ما ورد في الأصل.

ويبدو أن هذه النسخة المخطوطة قد وقعت إلى أحد العلماء المغاربة، فعلق عليها في بعض المواضع تعليقات وتصويبات جيدة تدل على مكانه من العلم، وقد نقلناها من حواشي الديوان إذ رأينا فيها ما يفيد القارئ مشيرين إلى مصدرها، كذلك أشرنا إلى ما نظن الصواب قد جانبه فيها.

وهناك تعليقات أخرى بخط آخر أقدم من خط هذه التي أشرنا إليها وهي تعليقات لا تمت إلى هذا الديوان ولا إلى الأدب عامة بصلة، إذ إن كلها كلام عن الطلسمات والقوى السحرية للحروف وما إلى ذلك، وقد أعرضنا عن كل ذلك إذ رأينا عدم جدواه فيما نحن بصدده(١).

هذا ونلاحظ أخيراً أن كثيراً من مواضع الأصل المخطوط قد أصابها تآكل ورطوبة ذهبت بفعلهما أجزاء من أبيات الديوان، وقد وصل الطمس في بعضها إلى حد تعذر استكمال النقص فيها بأي صورة، وقد استطعت على الرغم من ذلك أن أهتدي في أكثر هذه المواضع إلى ما ظننت أنه الصواب، وجعلت كل ما أضفته بين حواصر، على أن هذه الإضافات لم تكن اختراعاً، بل إن كلها يعتمد على بقايا ألفاظ بدت بعض حروفها وامحى البعض الآخر، وباب الاجتهاد في هذا مفتوح على أية حال.

ونضيف إلى ذلك أنه بعد أن بدأ طبع الديوان اعتماداً على النسخة الخطية الوحيدة المذكورة اتصل بنا أن هناك قطعة من ديوان ابن دراج محفوظة في مكتبة جامعة القرويين

بمدينة فاس بالمغرب العربي، ويعود فضل إبلاغنا بذلك إلى البحاثة الجليل الفاضل الأستاذ محمد عبدالله عنان صاحب المؤلفات الكثيرة حول تاريخ الأندلس، وقد كان الأستاذ عنان قد قضى فترة في المغرب مطلعاً في مكتباته على المخطوطات المتعلقة بتاريخ الأندلس، فرأى في مجموعة من الأوراق المختلطة (الدشت) في مكتبة القرويين أوراقاً رجح أنها من ديوان ابن دراج، فلما قدم إلى مدريد تكرم بإنهاء ذلك إليّ، فقمت على الفور بالكتابة إلى الأستاذ الفاضل محمد العابد الفاسي القائم على مكتبة القرويين أرجوه أن يبعث إليّ بصور فوتوغرافية لهذه الأوراق، وكان من تلطف الأستاذ الفاسي أن اجتهد في الإسراع بذلك وأولى الأمر من العناية ما هو معهود فيه من كرم ونبل.

أما هذه الأوراق فهي تبلغ ثمانياً وأربعين ورقة، وهي قطع متفرقة من ديوان ابن دراج مبتورة الأول والآخر بغير ترقيم، ويبدو أنها بقيت من نسخة كاملة للديوان تتفق في ترتيب قصائده مع النسخة الزيدانية التي اعتمدنا عليها أساساً للنشر.

وفيما يلي وصف إجمالي لأوراق هذه القطعة:

مقاييس الورقة ٢١٠ × ١٥٠ ملليمتراً، ومسطرتها ٢٠، وهي مكتوبة بخط مغربي لا يبلغ في جودته وإتقانه خط النسخة الزيدانية، والصفحات لا تحمل ترقيماً.

وقد انتفعنا بهذه القطعة في استكمال بعض ما ذهب في خروم النسخة الزيدانية، ولو أن هذه الزيادات ليست كثيرة إذ إن معظم ما جاء في النسخة الفاسية كان مما احتفظت بها المخطوطة الزيدانية، على أن هناك اختلافات يسيرة في بعض المواضع بين الأصلين، وقد أمكن لنا أن نستدرك ذلك في أثناء طبع الديوان.

ويسرني بهذه المناسبة أن أسجل شكري الخالص للعالمين الجليلين الأستاذ محمد عبدالله عنان والأستاذ محمد العابد الفاسي على كريم معونتهما.

جـ - منهجنا في العمل

من المعروف مدى صعوبة نشر أي نص على أساس مخطوط وحيد، وقد واجهتنا هذه الصعوبة في نشر ديوان ابن دراج على أن قيمة الديوان وأهميته كانتا مما شجعنا على المضي في هذا العمل وبذل الجهد في إتمامه.

وقد بدأت بجمع كل ما ورد في المراجع الأندلسية والمشرقية من شعر ابن دراج، وعنيت بمقابلة رواية الديوان علي مختلف ما جاء في تلك المراجع مطبوعها ومخطوطها، واجتهدت في استقصاء ذلك إلى أبعد حد ممكن.

وأعانني ذلك على استكمال بعض الناقص في خروم الديوان من شعر ابن دراج، وجعلت هذه الإضافات بين حواصر مشيراً إلى المصادر التي نقلت عنها تمييزاً لها عما جاء في النسخة المخطوطة.

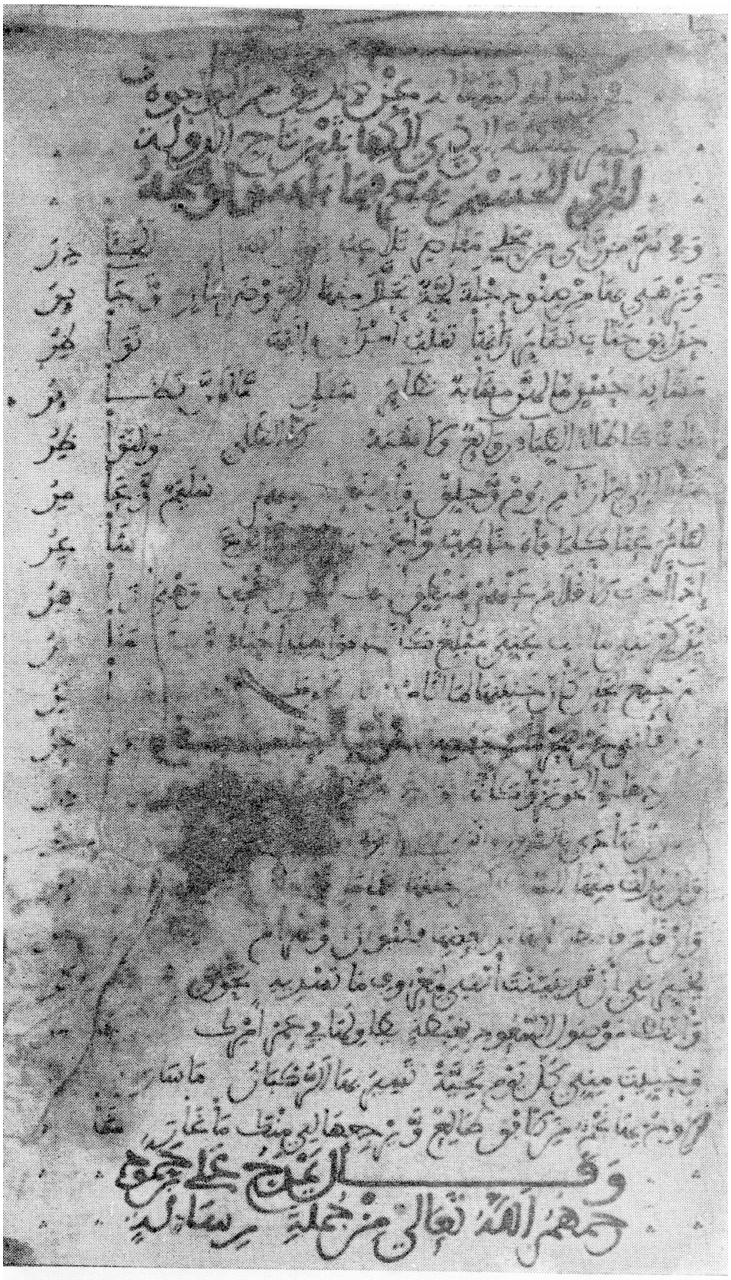
وبقيت بعد ذلك طائفة أخرى من شعر القسطلي لم ترد أصلاً في النسخة الخطية فألحقتها بآخر الديوان ناصاً على مصادرها كذلك، وأضفت إليها جملة من نثره ومقتطفات من رسائله مما جاء في كتاب «الذخيرة» لابن بسام، إتماماً للفائدة منها.

أما التعليقات على النص، فقدعمدت فيها إلى شرح ما غمض أو عسر على الفهم من ألفاظ الأبيات أو معانيها، وأتيت من ذلك بقدر ما يحتاج إليه دون إسراف فيها وتوسعت إلى جانب ذلك في بيان المناسبات التاريخية التي قيلت فيها القصائد والترجمة للأعلام الواردة في الديوان، وبيان المواضع الجغرافية، ولا سيما ما يتعلق من ذلك بالناحية المسيحية، إذ تبين لي صعوبة تتبع ذلك في المراجع المختلفة، ثم إن كثيراً منها لا يمكن التعرف عليه إلا بالاطلاع على الكتب التاريخية والجغرافية التي تتناول تاريخ إسبانيا المسيحية في العصور الوسطى، فاضطلعت بمئونة ذلك تخفيفاً على القارئ وإعانة له على تتبع ما يقصده الشاعر وفهم ما يرمي إليه.

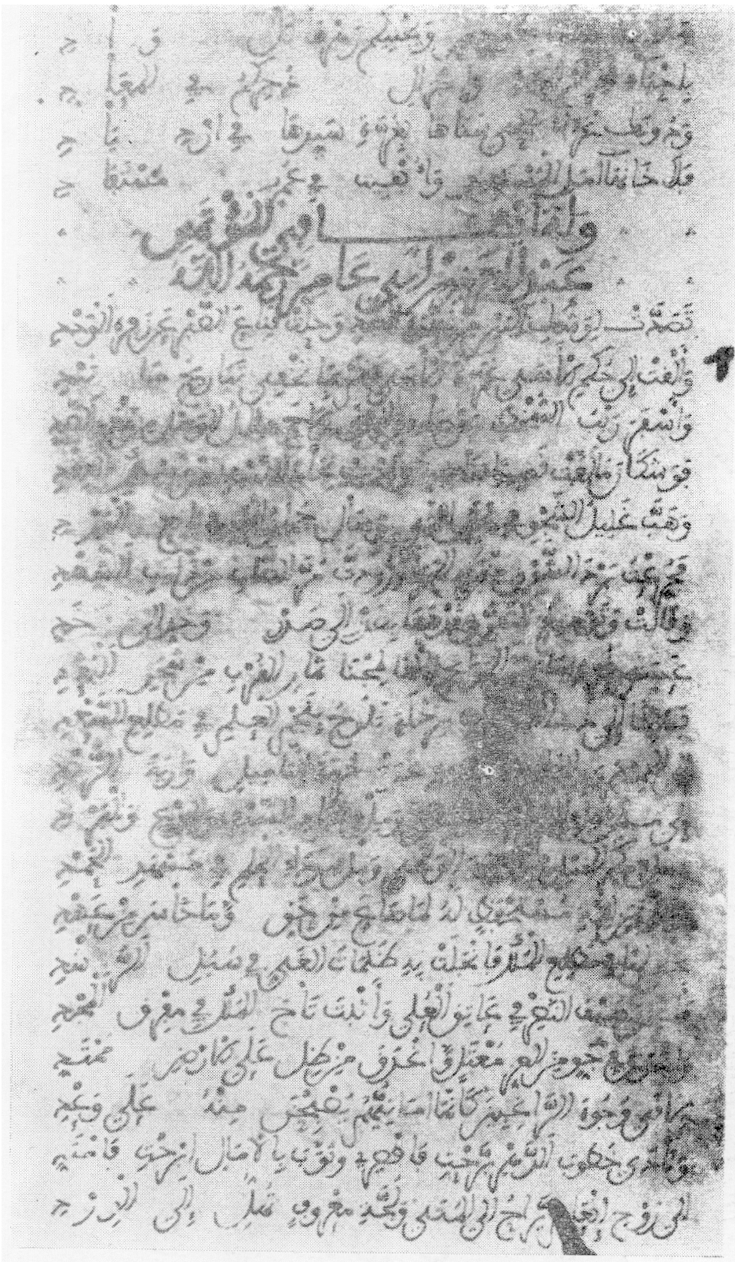
وقد اجتهدت في ضبط ألفاظ الديوان على أوسع نطاق.

وأخيراً أرجو أن أكون وفقت في تقديم هذا الديوان وإخراجه على هذه الصورة، وبالله الاستعانة ومنه التوفيق؟

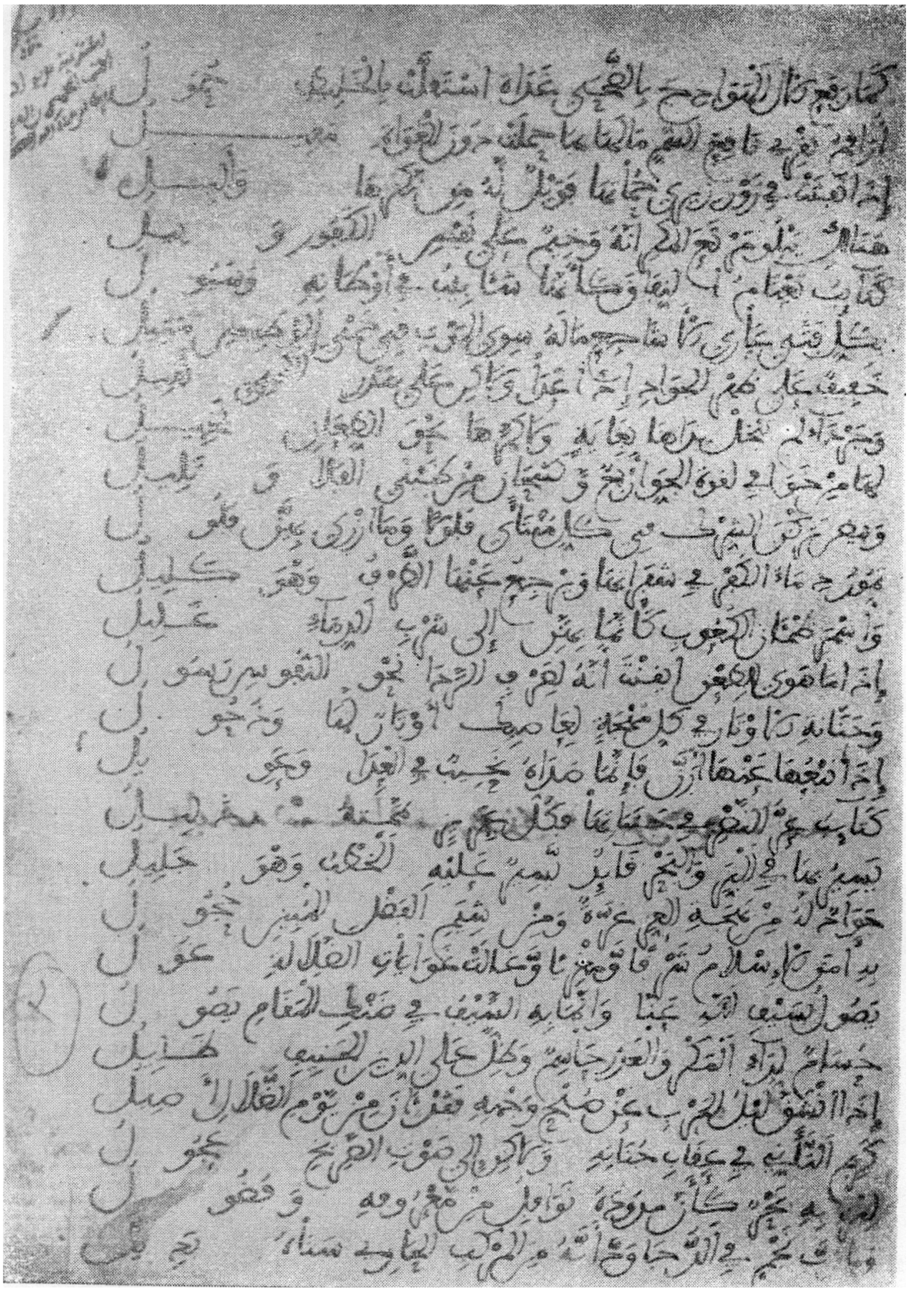
الإشارات والرموز



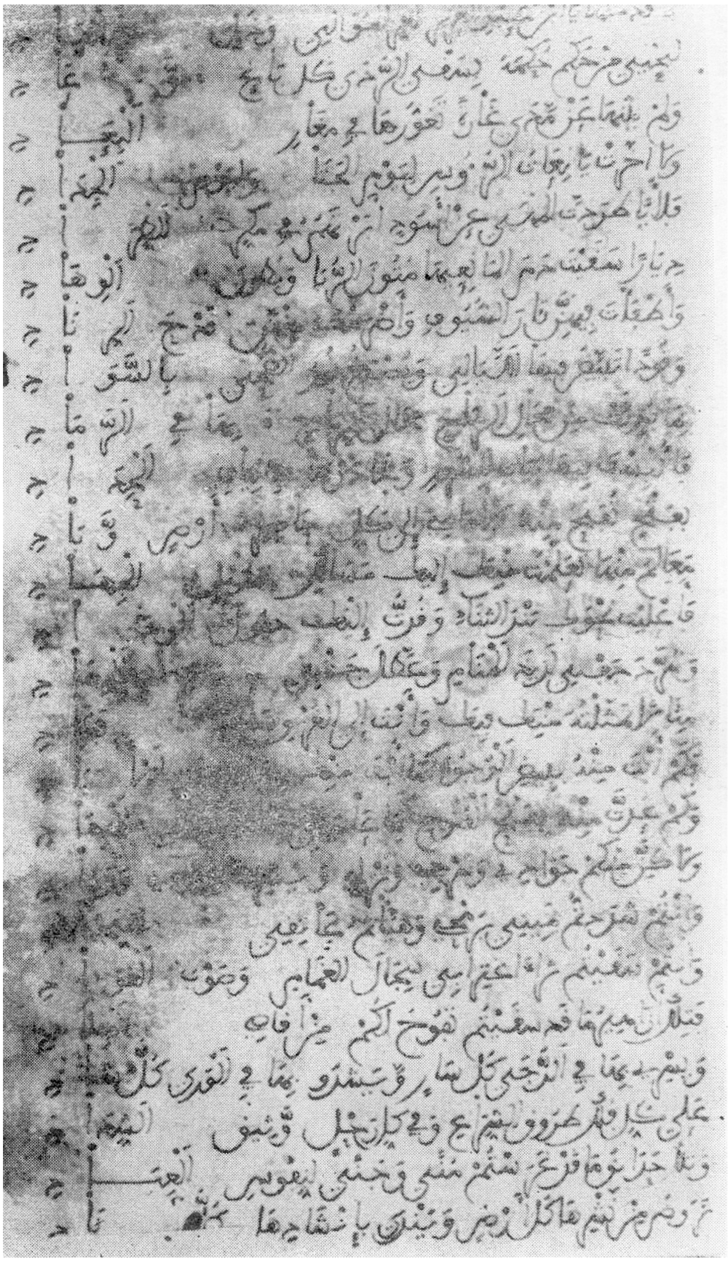
– صورة ظهر الورقة الأخيرة من المخطوطة (١٣٦ ب) وهي تقابل ص ٥٣٢ من المطبوع.



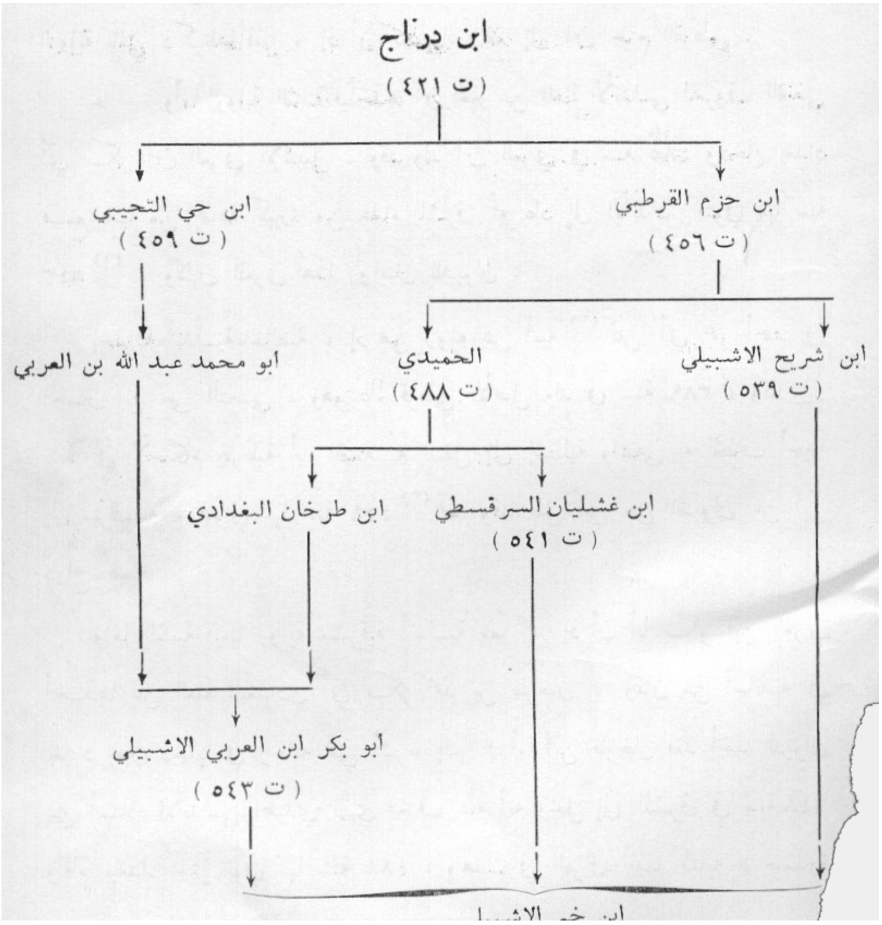
– صورة لوجه الورقة رقم ١٢٩ (١٢٩ أ) من الأصل المخطوط وهي تقابل ص ٥٠١ من المطبوع.



– صورة وجه الورقة الأولى من مخطوطة المكتبة الزيدانية.



– صورة لظهر الورقة رقم ١٢٨ (١٢٨ ب) من الأصل المخطوط وهي تقابل ص ٥٠٠ من المطبوع.



– روايات ديوان ابن دراج كما وصلت الى ابن خير الإشبيلي
(في القرن السادس الهجري).

الديــــوان

(١)

قال ابن دراج القسطلي(١) يمدح المنصور بن أبي عامر ويذكر تجهيزه الجيوش إلى زيري بن عطية(*).

[من الطويل]

لك الله بالنصر العزيز كفيلُ
أَجَدٌّ مقامٌ أمْ أجدَّ رحيلُ

هو الفتح أما يومه فمعجل
إليك وأما صنعه فجزيل

وآيات نصرٍ ما تزال ولم تزل
بهن عمايات الضلال تزول

---

(١) عنوان القصيدة والأبيات الخمسة عشر الأولى ساقطة من النسخة المخطوطة للديوان، إذ إنها – كما يرى – تبدأ من الورقة الرابعة، وقد رجعت في استكمال الناقص من هذه القصيدة إلى ثلاثة مراجع أوردت بعض هذه الأبيات الموضوعة بين الحاصرتين مع اختلاف في عددها وفي ترتيبها، وفي رواية بعض ألفاظها: أما الأول فهو «يتيمة الدهر» لأبي منصور الثعالبي (بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد – ط. القاهرة سنة ١٩٤٧)، ١١٠/٢، وأما الثاني فهو «نفح الطيب» للمقري ٨٧/٤ (تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨)، والثالث هو كتاب «نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى»، بتحقيق المستشرق ليفي بروفنسال (ط. الرباط سنة ١٩٣٤) ص ٣٢ – ٣٣، وصاحب هذا المرجع الأخير هو الوحيد الذي ذكر مناسبة هذه القصيدة، بينما يقتصر المقري على القول بين يدي ما اقتطفه منها إنها «في وصف أسطول أنشأه المنصور ابن أبي عامر»، أما الثعالبي فإنه لا يمدنا عنها بأي بيان.

(*) هو زيري بن عطية زعيم قبيلة مغراوة البربرية، وكان قد وفد على – حضرة المنصور بن أبي عامر بقرطبة في سنة ٩٨٩/٣٧٩ فأغدق عليه المنصور الصِّلات، وتعهد زيري له بالطاعة، غير أن العلاقات بينهما لم تلبث أن فترت، وفي سنة ٩٩٧/٣٨٦ أعلن زيري الثورة على المنصور متهماً إياه باغتصاب الحكم من هشام المؤيد بن الحكم المستنصر واستبداده به دونه، فأرسل ابن أبي عامر إليه جيشاً بقيادة الوزير عيسى بن سعيد القطاع، ثم بعث إليه جيشاً آخر بقيادة واضح قائد الثغر الأوسط الذي تمكن من هزيمة زيري في سنة ٩٩٨/٣٨٨، ولم يكتف المنصور بذلك إذ إنه أرسل جيشاً آخر لإمداد واضح تحت قيادة ابنه عبدالملك المظفر، وقد استطاع هذا أن يوقع بزيري هزيمة منكرة وأن يقتحم مدينة فاس، على أن أمر زيري بن عطية لم ينته بذلك إذ إنه سار إلى الشمال ففتح تاهرت وتلمسان وتنس والمسيلة إلا أنه لم يلبث أن أرسل إلى ابن أبي عامر يطلب منه الصفح عنه وإثباته على ما بيده من البلاد متعهداً بالتزام طاعته، فقبل منه المنصور وبقي زيري على الولاء له حتى توفي في سنة ١٠٠١/٣٩١ (انظر ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية ٢٦٤/٢ – ٢٧٢)، أما تاريخ هذه القصيدة فينبغي أن يكون بين سنتي ٣٨٦ و٣٨٨ أي في الوقت الذي كان المنصور يستعد فيه للقضاء على ثورة زيري بن عطية.

سيوفٌ تنير الحق أنَّى انتضيتها
وخيلٌ يجول النصر حيث تجول
ألا في سبيل الله غزوك من غوى
وضل به في الناكثين سبيل[١]
لئن صَدِئَتْ ألباب قوم بمكرهم
فسيف الهدى في راحتيك صقيل
فإن يَحْيَ فيهم بَغْيُ جالوتَ جَدِّهِمْ
فأحجار داوُودٍ لديك مثول[٢]
هدى وتقى يودي الظلامُ لديهما
وحق بدفع المبطلين كفيل
بجمعٍ له من قائد النصر عاجلٌ
إليه ومن حق اليقين دليل[٣]
تحمل منه البحر بحراً من القنا
يروع بها أمواجه ويهول
بكل معالاة الشراع كأنها
- وقد حملت أسد الحقائق - غيل[٤]
إذا سابقت شأو الرياح تخيلت
خيولاً مدى فرسانهن خيول
سحائب تزجيها الرياح فإن وفت
أنافت بأجياد النعام فيول[٥]
ظباءُ سِمَامٍ ما لهُن مَفاحصٌ
وزُرْقٌ حَمام ما لهن هديل

(١) انفرد الثعالبي بإثبات هذه الأبيات.
(٢) أورد هذين البيتين الثعالبي وصاحب «النبذ التاريخية» مع اختلاف طفيف في الرواية: فقد جاء في صدر البيت الأول لفظ «ببغيهم» في رواية «النبذ» بدلاً من «بمكرهم» كما جاء في اليتيمة.
(٣) انفرد بإثبات هذين البيتين صاحب «النبذ» على أني أصلحت قراءة بعض ألفاظهما.
(٤) ورد هذان البيتان في كل من «النبذ» و«النفح».
(٥) انفرد بذكر هذين البيتين المقري في «النفح».

سـواكن في أوطـانـهن كـأن سـمـا
بـهـا المـوج حـيث الـراسـيـات تـزول[١]

كـمـا رفع الآل الـهـوادج بـالـضـحى
غـداة اسـتـقـلت بـالخـلـيط حـمـول

أراقم تـقـري نـاقع الـسم مـا لـهـا
بمـا حـمـلت دون الـغـواة مـقـيل[٢]

إذا نـفـثت في زَوْرِ «زيـري» حُـمـاتـهـا
فـويلٌ لـه من نـكـزهـا وألـيل[٣]

هـنـالك يـبـلـو مـرتع المـكـر أنه
وخـيمٌ عـلـى نـفس الـكـفـور وبـيل

كـتـائب تـعـتـام الـنـفـاق كـأنـهـا
شـآبـيب في أوطـانـه وسـيـول

بـكل فـتى عـاري الأشـاجع مـاله
سوى المـوت في حَـمْيِ الـوطـيس مـثـيل

خـفـيفٌ عـلـى ظـهـر الجـواد إذا عـدا
ولـكن عـلـى صـدر الـكـمي ثـقـيل[٤]

وجـرداء لم تـبـخل يـداهـا بـغـايـةٍ
ولاكـرهـا نـحـر الـطـعـان بـخـيل

---

(١) ورد هذان البيتان في كل من «النبذ» و«النفح» دون خلاف في روايتهما، وأورد المقري بعد البيت الأخير بشكل مباشر البيت الذي تبدأ به هذه المخطوطة من الديوان وهو:

كما رفع الآل الهوادج بالضحى   غداة استقلت بالخليط حمول

وقد اتبعنا نحن هذا الترتيب.

(٢) ورد هذان البيتان في كل من «نفح الطيب» و«النبذ التاريخية» مع اختلاف يسير في قراءة بعض الكلمات: فقد وردت في البيت الثاني كلمة «تفري» بدلاً من «تقري» في كلا المرجعين، وكذلك كلمة «الغداة» بدلا من «الغواة»، وقراءة الديوان التي أثبتناها أصوب. أما قوله «تقري ناقع السم» فمعناه «تجمع السم في شدقها»، يقال للناقة هي تقري إذا جمعت حرتها في شدقها.

(٣) جاء هذا البيت في «النبذ» غير أنه وردت فيه كلمة «ذكرها» في موضع «نكزها»، ولعله تحريف من ناشر الكتاب، ويقال نكزته الحية إذا طعنته بأنفها، وخص بعضهم به الثعبان والدساسة، والنكاز ضرب من الحيات ينكز بأنفه ولا يعض بفيه. والأليل هو الأنين والتوجع، يقال يئل ويؤل أي رفع صوته بالدعاء.

(٤) هذا البيت والأبيات التي تليه حتى قوله «كريم التأني..» ورد معظمها في اليتيمة مع بعض الاختلاف في رواية ألفاظ منها، ورواية الديوان التي أثبتناها أصوب.

لــهــا من خــوافي لِــقْــوَةِ الجــو أربعٌ
وكـشــحــان من ظــبي الــفلا وتــلــيل[1]

وبــيض تــركن الــشــرك في كل مــنــتــأى
فــلــولاً ومــا أزرى بــهن فــلــول

تــمــور دمــاء الــكــفــر في شــفــراتــهــا
ويــرجع عــنــهــا الــطــرف وهــو كــلــيل

وأســمــر ظــمــآن الــكــعــوب كــأنمــا
بــهن إلى شــرب الــدمــاء غــلــيل

إذا مــا هــوى لــلــطــعن أيــقــنت أنه
لــصرف الــردى نــحــو الــنــفوس رسول

وحــنــانــة الأوتــار في كل مــهــجــةٍ
لــعــاصــيك أوتــارٌ لــهــا وذحُــولُ[2]

إذا نــبــعــهــا عــنــهــا أرنَّ فــإنمــا
صــداه نجــيبٌ في الــعــدى وعــويل

كــتــائبُ عِــزٌّ الــنــصــر في جــنــبــاتــهــا
فــكل عــزيــزٍ يمــمــتــه ذلــيل

يُــسَــيِّــرُهــا في الــبــر والــبــحــر قــائدٌ
يــســيــرٌ عــلــيه الخــطب وهــو جــلــيل

جــوادٌ له من بــهــجــة الــعــز غــرة
ومن شــيم الــفــضل المــبــين حُــجــول

به أمن الإسلام شــرقــاً ومــغــربــاً
وغــالت غــوايــات الــضلالــة غــول

يــصــول بــســيف الــله عــنــا وإنمــا
به الــســيف في ضــنك المــقــام يــصــول

---

(١) اللقوة بكسر اللام وفتحها هي العُقاب الخفيفة السريعة الاختطاف، والتليل صفحة العنق.
(٢) ورد هذا البيت والذي يليه في مختارات ابن الكتاني الطبيب في كتابه «التشبيهات من أشعار أهل الأندلس»، القطعة رقم ٤٢٤ ص ٢٠٤.

حسامٌ لداء المكر والغدر حاسمٌ
وظلٌّ على الدين الحنيف ظليل
إذا انشق ليل الحرب عن صبح وجهه
فقد آن من يوم الضلال أصيل
كريم التأني في عِقاب جُناته
ولكن إلى صوت الصريخ عجول
لِيَزْهُ به بحرٌ كأن مُدُودَه
نوافل من معروفه وفُضول
ويا رب نجمٍ في الدجى وَدَّ أنه
من المركب الحاوي سناه بديل
تهادت به أنفاس روحٍ من الصبا
وخدٍّ من البحر الخضم أسيل
وقد أومت الأعلام نحو حلوله
وحن من الغر الجياد صهيل
فجلى سناه العدوتين وبشرت
خوافق رايات له[1] وطبول
وأيقن باغي حتفه أن أمه
- وقد أمه الليث الهصور - هبول
فواتح عز ما لها دون «زمزمٍ»
ولا دون سعي «المروتين» قفول
وهل عائق عنها، وكل سنيةٍ
إليك تسامى أو إليك تئول
سيوفٌ على الجرد العتاق عزيزةٌ
وأرضٌ إلى «البيت العتيق» ذلولُ
فقد أَذِنَتْ تلك الفجاج ودُمِّثَتْ[2]
حُزونٌ لمهوى مَرِّها وسهول

(١) كذا في الأصل، وقد يكون الأصوب «به».
(٢) أي ذللت ومهدت.

وقــام بــهــا عــنــد «المــقــام» مــبــشــرٌ
وشــام سـنــاهــا «شــامــةٌ» و«طَـفِـيلُ»[1]
فَـيَـهـنـيكَ يــا مــنــصــور مــبــدأ أنــعُمٍ
عــوائــده صــنــع لــديك جــمــيل
وفــرعــان من دوح الــثــنــاء نمــتــهــا
من المجــد فــي الــتــرب الــزكي أصــول
عــقــيــبــان بــين الحــرب والمــلك دولــة
وعــز مُــدالٌ مــنــهــمــا ومُــديل
مــلــيكــان عَمَّ الــسالمَ[2] الحــربَ مــنــهــمــا
غِــنىً وغَــنَــاءٌ مُــبــرمٌ وســحــيل
ويــهــنــيك شــهــرٌ عــنــد ذي الــعــرش شــاهــدٌ
بــأنك بَــرٌّ بــالــصــيــام وَصُــولُ
فُــوفِّــيتَ أجــر الــصــابــرين ولا عــدا
مــســاعــيك فــوزٌ عــاجلٌ وقَــبــول

****

(١) «شامة» و«طفيل»، جبلان قرب مكة، انظر ياقوت: معجم البلدان ٥/٢٢٢.
(٢) في الأصل: «السا» ثم بياض صغير، ولعلها كما أثبتنا، أي الذي يسلم من حربهما.

(٢)

وله فيه يسأله إنشادَ هذه القصيدة رحمهما الله.

[من البسيط]

هل أنت مـدرك آمــالي فـمـحـيـيـهـا
ومـبـد لي في الـورى من ذلـتي تـيـهـا؟
بـلـحـظـةٍ تـقـتـضي مـني مـكـارمـهـا
هـديـة لك حـاز الـسـبق مـهـديـهـا
جـواهـراً من بـحـور الـعـلم لـيس لـهـا
إلا اسـتـمـاعـكـهـا قـدرٌ يـسـاويـهـا
حـتى تـرى الـطـرف في كَـرَّات فـارسه
والـكـاعبَ الـرُّودَ في أثـواب جـالـيـهـا
عـسى الـذين نـأوا عـني أُخـبـرهم
بـأن نـفـسيَ[1] مـبـلـوغٌ أمـانـيـهـا

****

(١) في الأصل «النفس» على أن هناك تعليقاً في الحاشية كتبه أحد من اطلعوا على هذا الديوان وفيما يلي نصه: «بأن نفسي» به يستقيم الوزن، وهي ملاحظة صائبة أصلحنا الأصل على أساسها.

(٣)

وله فيه أيضاً رحمهما الله، وهي أول ما أنشده[١].

[من الطويل]

أضاء لها فجرُ النُّهى فنهاها
عن الدنف المُضنَى بِحَرِّ هواها

وضللها صبحٌ جلا ليلة الدجى
وقد كان يَهديها إليَّ دُجاها[٢]

ويشفع لي منها إلى الوصل مفرقٌ
يهل إليه حليها وحلاها

فيا للشباب الغض أنهج برده
ويا لرياض اللهو جف سفاها[٣]

وما هي إلا الشمس حلت بمفرقي
فأعشى عيون الغانيات سناها

وعين الصبا عارَ المشيبُ سوادَها
فعن أي عينٍ بعد تلك أراها؟

سلامٌ على شرخ الشباب مرددٌ
وآها[٤] لوصل الغانيات وآها

---

(١) تاريخ إنشاد هذه القصيدة هو سنة ٩٩٢/٣٨٢ كما يفهم من إشارة الحميدي إليها في «جذوة المقتبس» (ص ١٠٣)، والحميدي يقول إنها «أول شعر مدحه – أي مدح المنصور – به»، ويضيف إلى ذلك أن ابن دراج عارض بها قصيدة لأبي العلاء صاعد بن الحسن اللغوي البغدادي.

(٢) ورد هذان البيتان دون خلاف في الرواية في «جذوة المقتبس» للحميدي (نشر الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي – القاهرة سنة ١٩٥٢) ص ١٠٣، وانظر كذلك الضبي: بغية الملتمس (ط. فرانسسكو كوديرا – مدريد سنة ١٨٨٤) ص ١٤٨، كما وردا أيضاً في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (ط. دار الكتب سنة ١٩٣٣) ٢٧٣/٤ مع خلاف يسير، فقد جاءت كلمة «المدنف» بدلاً من الدنف و«ليله» بدلاً من ليلة.

(٣) السفا هو اسم كل ما تسفي الريح أي تحمل وتذرو، وقد ورد هذا البيت والتالي له في مختارات ابن الكتاني الطبيب في كتابه «التشبيهات من أشعار أهل الأندلس»، القطعة رقم ٥٩٣ ص ٢٦٨.

(٤) في الأصل «وآه».

ويـا لـديـار الـلـهـو أقـوت رسـومـهـا
ومَـحَّتْ[1] مـغـانـيـهـا وصَمَّ صـداهـا
وخَـبَّـرَ عـنـهـا سَـحْقُ أَثْـلَمَ خـاشعٍ
كـهـالـةِ بـدرٍ بـشـرت بـحـيـاهـا[2]
فـيـا حـبـذا تـلـك الـرسـوم وحـبـذا
نـوافح تـهـديـهـا إلـي صَـبـاهـا
تَـهَادِي المـهـا الـوحشي في عرصـاتـهـا
يـذكـرنـيـه آنـسـات مـهـاهـا
ومـبـتـسم الأحـبـاب في جـنـبـاتـهـا
أقـاحٍ كـسـاهـن الـربـيـع ربـاهـا
دعـوت لـهـا سـقـيـا الحـيـا ودعـا الـهـوى
وبـرح الـهـوى[3] دمـعـي لـهـا فـسـقـاهـا
وقـد أسـتـقـيـد الحـور فـيـهـا بـلـمـةٍ
تَـبـارى نـفـوسُ الـعـين نـحـو فـداهـا
وأصـبـحـهـا الـشـرب الـكـرامَ سُلافـةً
أهـانت لـهـا أمـوالـهـا ونُـهـاهـا
كُـمـيـتـاً كـأن الـنـجم حـين تـشـجـهـا
تـقـحمَ كـأسٌ كـأسَـهـا فـعـلاهـا
بـأيـدي سُـقـاةٍ مـثل قـضـبـان فـضـةٍ
جـلت أحـمـر الـيـاقـوت فـهـو جـنـاهـا
ونـزهـى بـسـحـرٍ من أحـاديثَ بـيـنـنـا
كـأن أسـيـرَيْ بـابلٍ نـفـثـاهـا[4]

---

(١) محَّت الدار أي عفت وبليت.

(٢) السحق هو الثوب البالي الخلق، والأثلم كالأثلب التراب والحجارة.

(٣) كذا في الأصل ولعلها «الجوي».

(٤) بابل على ما تذكر كتب الأحبار هي أقدم بناء بعد الطوفان، ونسب السحر إليها لأنه – على ما يذكر – كان بها هاروت وماروت معلماً السحر وكانا قد عصيا الله فباحا بالاسم الذي يرجعان به إلى السماء، فخيرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، فهما يعذبان ببابل ويعلمان السحر، وإليهما أشار ابن دراج بقول «أسيري بابل» (انظر شرح الشريشي على مقامات الحريري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،

وقـد عـجـمت مـني الخـطـوب ابن حـرةٍ
أبـيـاً مـحـزاتي لـوقع مـداهـا
جـديـراً إذا أكـدى الـزمـان بـرحـلـة
يـحـقـر بـعـد الأرض عـرض فلاهـا[١]
رحـلت لـهـا أدمـاء وجـنـاء حـرة
وشـيـكـاً بـأوبـات الـسـرور سـراهـا[٢]
أقـامت بمـرعى خـصب أرضٍ مـريـعـةٍ
أطـاع لـهـا تـنـومـهـا وألاهـا[٣]
بمـا أفـرغ الـفـرغـان[٤] ثُـمَّتَ أتـبـعت
بـنـوء الـثـريـا فـالـتـقى ثـريـاهـا
أَشُجُّ بـهـا والـلـيل مـرخٍ سـدوله
سـبـاريت[٥] أرض لايـراع قـطـاهـا
أسـائل عن مـجـهـولـهـا أنجم الـهـدى
بـعـينٍ كـأن الـفـرقـدين قـذاهـا
وأحـيي نـفـوس الـركب من مـيـتـة الـكرى
-وقـد عـطف الـلـيل الـتـمـام طلاهـا-
بـذكـر أيـادي الـعـامـري الـتـي طـمت[٦]
عـلى نـأي آفـاق الـبلاد مـنـاهـا
ومـوحـشـة الأقـطـار طـامٍ جـمـامـهـا
مـريشٍ بـأسـراب الـقـطـا رجـواهـا[٧]

(١) في الأصل «يحقو عند الأرض» وقد يكون الصواب ما أثبتنا، وإن يكن من المحتمل أن تكون أيضاً «تحقر عند الأرض».
(٢) أدماء أي بيضاء، والأدمة في الناس السمرة وفي الإبل والظباء البياض الشديد، والوجناء هي الناقة التامة الخلق الغليظة لحم الوجنة.
(٣) في الأصل «ولاها» ولعلها كما أثبتنا، والتنوم شجرة غبراء يأكلها النعام والظباء، والألاء شجر يشبه الآس لا يزال أخضر صيفاً وشتاءً، ويقال فيه أيضاً الألى بالألف المقصورة.
(٤) الفرغان (مثنى فرغ) منزلان من منازل القمر في برج الدلو.
(٥) سباريت جمع سبروت وسبرات وسبريت وهي الأرض القفر لا نبات فيها.
(٦) في الأصل «ظمت» ولعل الصواب ما أثبتنا.
(٧) الرجوان مثنى الرجا مقصور وهو ناحية كل شيء.

أهل إليها بعد خمسٍ دليلنا
فعجنا صدور العيس نحو جباها[1]
نغيث بقايا من نفوسٍ كأنها
بقايا نجوم القذف غار سناها
وقمنا إلى أنقاض سفر كأنها
- وقد رحلت شطراً - شطور براها[2]
وقلت لنضوٍ في الزمام رذيةٍ[3]
تشكى إلى الأرض الفضاء وجاها[4]
عسى راحة المنصور تعقب راحةً
وحتمٌ لآمال العفاة عساها
فلله منه قائد الحمد قادها
ومِنِّيَ مَحْدُوٌّ الخطوب حداها
ولله عزمي يوم ودعت نحوه
نفوساً شجاني بينها وشجاها[5]
وربة خدرٍ كالجمان دموعها
عزيزٌ على قلبي شطوط نواها
وبنت ثمانٍ ما يزال يروعني
على النأي تذكاري خفوق حشاها
وموقفَها والبينُ قد جد جده
منوطاً بحبليْ عاتقيًّ يداها
تشكى جفاءَ الأقربين إذا النوى
ترامت برحلي في البلاد فتاها

(١) الجبا بكسر الجيم وفتحها هو ما جمع في الحوض من ماء أو هو التراب الذي حول البئر أو الحوض يرى من بعيد.

(٢) في الأصل «سطور» ولعل الصواب ما أثبتنا، والبُرَى جمع برة (بضم الباء وفتح الراء) هي الحلقة تجعل في أنف البعير، وتشبيه البعير حال هزاله وضعفه بنصف البرة شائع في الشعر، ومنه قول ابن دراج نفسه في قصيدة أخرى: خوص نفحن بنا البرى حتى انثنت أشلاؤهن كمثل أنصاف البرى

(٣) في الأصل «ردية» ولعل الصواب ما أثبتنا، والرذية من الإبل الناقة المهزولة.

(٤) الوجا هو الحفى وهو أن يشتكي البعير باطن خفه.

(٥) أورد هذا البيت والأبيات الثلاثة التي تليه الشريف الغرناطي في شرحه على مقصورة حازم القرطاجني (٤٤/١).

وأقسم جود العامري ليرجعن
حفياً بها من كان قبلُ جفاها
ورامت ثواء من أب وثواؤه
على الضيم برحٌ من شمات عداها
وأنَّى لها مثوى أبيها وقد دعت
بوارق كف العامري أباها
بُنَيَّ إليكِ اليوم عني فإنها
عزائم كف العامري مداها
فحطت بمغنى الجود والمجد رحلها
وألقت بربع المكرمات عصاها
لدى ملكٍ إحدى لواحظ طرفه
بعين الرضا حسب المنى وكفاها
هو الحاجب المنصور والملك[1] الذي
سعى فتعالى جده فتناهى
سليل الملوك الصيد من سَرْوِ حميرٍ
توسط في الأحساب سَمك ذُراها
لُبابُ معاليها وإنسان عينها
وبدر دياجيها وشمس ضحاها
مُعَظَّمُهَا منصورُها وجوادها
وفارسها يومَ الوغى وفتاها
ووارث ملكٍ أثلته ملوكها
وجامع شَمْليْ مجدها وعلاها
نماه لقَوْدِ الخيل «تُبَّعُ» فخرها
وأورثه سَبْيَ الملوك «سَباها»[2]

(١) في الأصل «الملك» ولا يستقيم الوزن إلا بنطق الألف بهمزت قطع، وخير من ذلك إضافة الواو كما أثبتنا.
(٢) «سباها» يقصد سبأها بتسهيل الهمزة.

ذوو الملك والتيجان والغرر التي
جديرٌ بها التيجان أن تتباهى
شموس اعتلاءٍ توجت بأهلةٍ
وسربلت الآجال فهو كساها

****

(٤)

وقال أيضاً يمدحه رحمهما الله تعالى[١].

[من الكامل]

أَنْضَيْتُ خيلي في الهوى وركابي
وعمرت كأس صِباً بكأس نِصابِ[٢]
وعُنِيتُ مُغْرًى بالغواني والصبا
واللهو، واللذاتُ قد تُغْرى بي
في غمرةٍ لا تنقضي نشواتها
من صرف كأسٍ أو جفون كَعاب
أيامَ لا نرتاع من صرف النوى
أمناً، ولا نُصغي لنعب غراب
أيامَ وجه الدهر نحوي مشرقٌ
ومحاسن الدنيا بغير نقاب

---

(١) لسنا ندري ما إذا كانت القصيدة الهائية الواردة في الأوراق الماضية في الأصل قد انتهت عند آخر الورقة التي تحمل رقم ٥ أم أن لها بقية سقطت، وذلك لأن الورقة رقم ٦ تبدأ بتسعة أبيات أولها:

متشاكه الحالات من أدواته ... في حربه وخلاله في سلمه

وواضح أن هذه الأبيات إنما هي بقية لقصيدة أخرى كنا نظن أولها مفقوداً أو ساقطاً حتى وجدنا في الورقة رقم ٨٠ (ب) أبياتاً من بحرها ورويها أولها:

لو كان يعدل حاكم في حكمه ... أو كان يقصر ظالم عن ظلمه

ولاحظنا أن الأبيات التسعة الواردة في الورقة رقم ٦ (أ) ينسجم سياقها تماماً مع أبيات هذه القصيدة بحيث ينبغي أن تكون تتمتها، ولهذا فإننا أثبتنا هذه الأبيات التسعة في موضعها الطبيعي في آخر القصيدة الميمية التي سترد بعد. والذي حدث هو خطأ في ترقيم أوراق الديوان، وهو أمر تكرر في موضع آخر سننبه عليه في مكانه.

(٢) تاريخ هذه القصيدة – كما نستنتج من الإشارة إلى الغزوة التي فتح فيها المنصور «قلنية» – ينبغي أن يكون في سنة ٣٨٤/٩٩٤، فهي بمناسبة الحملة التي وجهها ابن أبي عامر إلى قشتالة التي كان يحكمها آنذاك غرسية زين فرذلند **Garci - Fernandez** منتهزاً فرصة الثورة التي أعلنها على غرسية ابنه شانجه **Sancho** في ٧ يونيه ٩٩٤، وفي هذه الغزوة فتح المنصور شنت اشتيبن وقلنية وخرب أبلة **Avila** (انظر ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الاسلامية ٢/٢٤٤).

ولـقـد أضـاء الـشـيـب لي سـنن الـهـدى

فـثـنـى سِـنِـي دَدَني[1] عـلـى الأعـقـاب

ورأيت أرديـــة الـــنـــهى مـــنـــشـــورةً

تـــسـعى بـــجـــدتـــهـــا[2] إلى أتــرابي

ورأيت دار الـــلــــهـــو أقــوى ربـــعـــهـــا

وخـــلـت مـــعـــاهـــدهـــا من الأحـــبـــاب

وخـلـتْ بِيَ الـنـكـبـات تـرمي نـاظـري

وخـــواطـــري بـــنـــوافـــذ الـــنُّـــشَّـــاب

ولـكم أصـابـتـني الخـطـوب بـشَـكَّـةٍ

تُعْـيِي الـتَّـجَـلُـدَ واحْـتَـسَـبْتُ مُصابي

حِـفْـظـاً لـعـلـمٍ حـاز صـدريَ حـفـظه

ألاَّ أَخِـــيـــسَ بـــحُـــرمـــة الآداب

حـــتـى تـــركت الـــدهـــر وهـــو لمـــا به

صـــبـــراً وغـــادرني الـــســـقـــام لمـــا بي

وصـــرفت عن صـــرف الـــزمـــان ملامـــتي

وكــفـفت عن ســعي الحــســود عــتــابي

عــلـــمـــاً بـــأن الحـــرص لـــيس بـــزائـــدٍ

حـــظـــاً وأن الـــدهـــر غـــيـــرُ مـــحـــاب

هـــمم الـــفـــتى نُـــكْبٌ تُـــبـــرح بـــالمـــنى

أبـــــداً إذا عم الـــــقـــــضـــــاء الآبي

فـقـطـعـتُ يـا مـنـصـورُ نـحـوك نـازعـاً

خُـــدَعَ المـــنى وعلائق الأســـبـــاب

فَـرِضَـاكَ تـأمـيـلي وقُـرْبُك هـمـتي

ونِـــدَاكَ مَـــحـــيـــائي وحـــمـــدُك دابي[3]

---

(١) الددن هو اللهو.

(٢) في الأصل «بحدتها»

(٣) محيائي أي محياي بمد الألف المقصورة، ودابي أي دأبي بتسهيل الهمزة.

وقـد احــتـلـلـت لـديكَ أمـنع مـعـقلٍ

وحــطـطت رحــلي في أعــز جــنــاب

في ذمــة المــلك الــذي آمــالــنــا

من راحــتــيه تحت صــوب ســحــاب

قــمــرٌ تــوسط من مـنــاسب يــعــربٍ

قــمم الــســنــاء وذِروَة الأنــســاب

صــدقت به في الــله عــزمــة مــخــلصٍ

تــركتْ ذَمَــاء[1] الــشــرك رهن ذهــاب

بــكــتــائب عــزت بــهــا ســبل الــهـدى

ومـحت رسـوم الـكـفـر مـحـو كـتـاب

غــادرن أرضــهمُ كــأن فــضــاءهــا

أغــوالُ[2] قَــفْــرٍ أو ســهــوبُ يــبــاب

تَـحْـتَثُّ سـالـكـهـا بـغـيـر هـدايـةٍ

وتجـيـب سـائـلـهـا بـغـيـر جـواب

يـــأيـــهـــا المـــلك الــذي عـــزمـــاته

في الـــدين أعـــظمُ أَنْـــعُمِ الـــوهـــاب

وصل الإله لـديك عـمـراً يـقـتـضي[3]

أمــد الـــســنـــينَ ومــدة الأحــقـــاب

ولك الـــســـرور مُـــضــاعِــفــاً أيـــامَه

ولك الـــنـــعـــيم مُـــجـــددَ الأثـــواب

ولـــيَـــهْـنِكَ الأضــحى الــذي أضــحى به

صــــنع الإله مُــــفــــتحَ الأبــــواب

واسـلم لـسـبـطـيك الـلـذين تـمـلـكـا

رِقَّ الـــســـنـــاء تـــمـــلك الأربـــاب

(١) الذماء هو بقية النفس.

(٢) الأغوال جمع غول وهو كل ما يهلك الانسان.

(٣) في الأصل «تقتضي».

السابقَيْنِ إلى مقامات العلا
ذا في الحروب وذاك في المحراب
الحاجب الأعلى الذي زهيت به
رتب العلا ومفاخر الأحساب
فلكم تدانَى في مكرٍ للوغى
كالشمس في كِسَفِ العجاج الهابي
وبرأي عيني منه يوم «قُلُنْيَة»[1]
منه شهابٌ خاطفٌ لشهاب
سيف الإله وحزبه المفني به
شيع الضلال وفرقة الأحزاب

****

(١) في الأصل: قنلية، ولعل الصواب ما أثبتنا، وقلنية – وتكتب في المراجع العربية أيضاً «قلونية» – كانت من أمنع المعاقل المسيحية في قشتالة مما يتاخم الأندلس الاسلامية، وقد فتحها عبدالرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر وابنه المظفر مراراً عديدة (انظر ابن عذاري: البيان المغرب ١٧٧/٢، ١٤/٣، ١٥، ابن الخطيب: أعمال

(٥)

وقال أيضاً في المظفر عبدالملك رحمهما الله تعالى.

[من الكامل]

مـــنٌ بـأيـسـر شـكـرهـا أعـيـيـتـني
فـمـتى أقـوم بـشـكـر مـا أولـيـتـني؟
أعـطـيـتـني ذخـر الـزمـان وإنمـا
شـرفَ الحـيـاة وعـزهـا أعـطـيـتـني
لـبـيك شـاكـر نـعـمـةٍ أنت الـذي
لمـا دعـوتُ غـيـاثَـهـا لـبـيـتـني
فـقـتـلتَ هـمـاً ذقتُ حـد سـيـوفه
بـسـيوف إنـعـامٍ بـهـا اسـتـحـيـيتـني
وخـطـطت بـالـكف الـكريمـة مـلـحَـقي
والـفـخـرُ فـخـري مـنك إذ سـمـيـتـني
حـسـبي فـحـين ذكـرتـني كـرمـتـني
وكـفى فـحـين نـطـقت بي أعـيـيـتـني
ذكـراك أعـظم نـعـمـةٍ ألـبـسـتـني
ورضـاك أعـلى خُـطـةٍ ولـيـتـني
فـفـداؤك الأملاك يـوم سـمـعـتـني
لـهْـفـانَ في أسـر الأسى فـفـديـتـني
وسُقِيتَ غـيثَ الـنصر حـينَ بـصُرْتَ بي
ظـمـآنَ مـلـتـهبَ الحـشـا فـسـقـيـتـني
آواكَ ظلُّ الـلـه في سـلـطـانه
ونـعـيـمِه بـجـزاء مـا آويـتـني

ورعى لك الــرحــمن مــا اســتــرعــاكه
من ديـــنه أجــراً بمـــا راعــيــتــني
وشـفى سـيـوفك من عـداك وقـد سـطـا
هم أمــوت بـــدائه فـــشــفــيــتــني
وكُـفِـيتَ مـا اسْـتُـكْـفِـيتَ يـوم ألمَّ بي
هم أنــاخ بـكـلـكـلي فـكـفـيـتـني
فـكـأنمـا اسـتـيـقـنت مـالك في الحـشـا
من طـاعـةٍ ونـصـيـحـةٍ فـجـزيـتـني
وعـــلـــمت أني في وفـــائك ســـابقٌ
فـسـبـقت بـالـنـعم الـتي وفـيـتـني
فـلـو أنَّ آمـالي بـقـربك أسـعـفت
مـا قـلتُ بـعـد بـلـوغـهـا: يـالـيـتـني!
حـتى أُقَـبِّلَ كـلـمـا قـابـلـتُـهـا
كـفـاً بـجـود عـطـائـهـا أحـيـيـتـني

****

(٦)

وقال يمدحه أيضاً رحمهما الله تعالى.

[من الطويل]

مـحـلك بـالـدنـيـا وبـالـدين آهلُ
فـعـيـدٌ وأعـيـادٌ وعـامٌ وقـابلُ
وسـعـدٌ وإقـبـال ويمنٌ وغـبـطـةٌ
ونـصـرٌ وفـتحٌ عـاجلٌ ثم آجل
وصـوم كـريم بـالمـبـرة راحلٌ
وفـطـرٌ عـزيـز بـالمـسـرة نـازل
ورفع لـواء شـدد الـله عَـقـده
لـيـعـلُـوَ حقٌّ أو لـيـسـفُلَ بـاطل
ألا في سـبـيل الـله عـزمـتك الـتي
عـلى الـدين والإسلام مـنـهـا دلائل
فقد نطقت بالنصر فيها شواهدٌ
وقد وضحت للفتح منها مخائل
فأبشرْ فنجمُ الدين بالسعد طالعٌ
وأيقن فنجم الشرك بالخزي آفل
وقد أصحب التسديد[1] ما أنت قائل
وأيد بالتوفيق ما أنت سائل
فـمـا تـصل الأيـامُ من أنت قـاطع
ولاتـقـطع الأيـامُ من أنت واصل

(١) في الأصل «التشديد»، وما أثبتنا أصوب.

وهل خـــيـــبت يمــــنــــاك من جـــاء آملاً؟
فـــيُـــكـِــذبَ ربُّ الـــعــرش مـــا أنت آمل
وقـــد أفـطـر الإسلامُ والــســيفُ صــائِمٌ
وعـــلَّتْ ظِــمَـــاءٌ والـــرمـــاح نـــواهل
فـأورِدْ صــواديـهـا فـقـد طـاب مـشـرعٌ
وقـــد حـــان مـــأكـــول وقـــد حن آكل
فـمـا أنت إلا الـشـمـس تـطـلـع لـلـعـدى
فـــظـــلـــهُمُ حـــتـــمـــاً بـــنـــورك زائل
كَـرُمتَ فـمـا يـعـيـا بـحـمـدك مُـفـحَمٌ
وسُـدْتَ فـمـا يـغـبَى بـقـدرك جـاهل
وجـــودُك في ســـلـمٍ وبـــأسُك في وغىً
بـــحـــورٌ طـــوامٍ مـــا لـــهن ســـواحل
فلا خـــذل الـــرحـــمنُ من أنت نـــاصـــرٌ
ولا نـــصـــر الـــرحـــمن من أنت خـــاذل

****

(٧)

وقال فيه أيضاً رحمهما الله تعالى.

[من الطويل]

لئن سَرَّتِ الدنيا فأنت سرورُها
وإن سطعت نوراً فوجهُكَ نورها
سلامٌ على الأيام ما شِمْتَ للعلا
أهلتها واستقبلتك بُدورُها
وبُوركتِ الأزمانُ ما أشرقت لنا
بوجهك هيجاواتها وقصورها
فلا أوحشت من عز ذكرك دولةٌ
إليك انتهى مأمورها وأميرها
فما راق إلا في جبينك تاجها
ولا قر إلا إذ حواك سريرها
فلا راعها خطب وسيفك أنسها
ولارامها ضيمٌ وأنت مُجيرها
ومن ذا يناويها وأنت أميرها
ومن نَسْلِكَ الزاكي الكريم وزيرها؟
فتى طالعته بالسعود نجومُها
وطارت له باليمن فينا طيورها
أذل له «عبدُالمليك» ملوكَها
وأنجبَه «المنصور» فَهْوَ نصيرها
بِحارٌ أُمِرَّتْ للأعادي طعومُها
كما طاب فينا شُرْبُها وطَهورها
وأرباب ملكٍ في رياسة أمةٍ
لهم في المعالي عيرها ونفيرها

ومـا يـتـسـاوى مـوتـهـا وحـيـاتـهـا
ولا يـتـكـافـا ظـلـهـا وحَـرورُهـا
وأنت الـذي أوردت «لُـونَـةَ»[1] قـاهـراً
خـيـولاً سـمـاءُ الأرض فـيـهـا نُـحـورُهـا
وقـد لاح بـالـنـصـر الـعـزيـز لـواؤهـا
وأعـلـن بـالـفـتـح المـبـين بـشـيـرهـا
وحـلـت حـلـول الـلـيـل في كل بـلـدةٍ
سـواءٌ بـهـا إدلاجُـهـا وبُـكـورهـا
وقـد قَـنَـأَتْ[2] سـمـر الـقـنـا بـدمـائـهـا
وغـالتْ صـدورَ الـدارعـين صـدورُهـا
صَـلِـيتَ وقـد أذكى الـطـعـانُ وقـودَهـا
وفـار بـنـيـران الـسـيـوف سـعـيـرهـا
وخُـضْتَ وقـد أعـيَتْ نجـاةُ غـريـقِـهـا
وهـالـت بـأمـواج المـنـايـا بـحـورهـا
وقـد ضربت خـدراً عـلـى الشـمس وانجلت
بـهـا عن شـمـوس الـغـانـيـات خـدورهـا
عـقـائِلَ أبـكـاراً غـدون نـواكـحـاً
ومـا أصـبـحـت إلا الـسـيـوفُ مُـهـورهـا
فلا مُـحِـيَتْ أفـخـاذُهـا من سِـمـاتـكم
ولاعَـرِيَتْ من نـاصِـرَيـكُم ظُـهـورهـا[3]

****

(١) «لونة» (بالإسبانية **Luna**) اسم قلعة منيعة تقع على نهير يحمل هذا الاسم أيضاً وتسمى الآن باريوس دي لونا **Barris de Luna** في مقاطعة ليون **Leon** الحالية، وكان عبدالملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر قد توجه إليها وافتتحها في غزوة له إلى بلاد النصارى في سنة ٣٩٥هـ (١٠٠٥م) ولابن دراج أكثر من إشارة له إلى هذه الغزوة التي يتحدث عنها في هذا البيت. (انظر ما كتبه حول الغزوة المذكورة ليفي بروفنسال في تاريخ إسبانيا الإسلامية ٢/٢٨٧).

(٢) قنأت أي اشتدت حمرتها.

(٣) هكذا في الأصل وهي تحتمل وجها من التأويل إذ يحتمل أن يكون قد قصد «فلا محيت سماتكم من أفخاذها» أي بتغيير مكان حرف الجر، ويمكن أن تكون «أنجادها» أي جبالها ومرتفعاتها جمع نجد.

(٨)

وقال فيه أيضاً رحمهما الله تعالى.

[من الطويل]

فديناك سيفاً لم تخنه مضاربه
وبحر عطاء ما تغيض مواهبه
وبدراً تجلى في سماء رياسةٍ
كواكبها آثاره ومناقبه
تقلد سيف الله والتحف الندى
فسدد راجيه وأعذر هائبه
فها هو ذا في كل قلبٍ ممثل
وهاتيك عند الفرقدين مراتبه
فما عرَّجت عنه سبيلٌ لطالبٍ
ولا رحبت أرضٌ بمن هو طالبه
خلائق من ماء الحياة وطالما
يغص به يوم الكريهة شاربه
أملبسنا النعمى ألا رُبَّ ملبس
سني وتاجٍ للعلا أنت سالبه
وليل كريعان الشباب قذفته
بهول السرى حتى أشيبت ذوائبه(١)
وصلت به يوماً أغرَّ صحبته
غلاماً إلى أن طر بالليل شاربه
بكل مذلٍ كرَّمَتْهُ جُدودُه
وكلِ كمي أحكمته تجاربه

(١) ورد هذا البيت والذي يليه في «رايات المبرزين وغايات المميزين» لابن سعيد المغربي (نشر الأستاذ غرسية غومس – مدريد سنة ١٩٤٢) ص ٧٣، على أنه قد جاء في الرايات «بجهد السرى» مكان «بهول السرى».

وعــضب يمـــانٍ قـــد تـــعــرفت يمـــنه
وإن يـنــتـسبْ تـعـطِفْ عـلـيك مـنـاسـبه
وسـمــرٍ لـدانٍ كـالـكـواكب سـقـتـهـا
لـــيـــوم من الأعـــداء بـــادٍ كـــواكـــبه
صـلـيت ونـار الحرب يـذكـو سعـيـرهـا
وخــضت ومــوج المـوت تـطـفـو غـواربه
ولامــثـل يــوم نـــحـــو «لُـــونَـــةَ» سِــرْتَهُ
وقـد قَـنَّـعتْ شـمسَ الـنـهـار غـيـاهِـبُه
رفـعت لــهــا في عــارض الــنـقع بـارقـاً
تَـسِحُّ شـآبـيـبَ المـنـايـا سـحـائـبُه
وعـذراء لم يـأت الـزمـان بـكُـفـئـهـا
ولارامـــهـــا بـــعلٌ وإن عـــز جـــانـــبه
مُـعَـوَّذَةٍ[1] لم يـسـر خـطبٌ بـأرضـهـا
ولاعــرفت بــالــدهــر كـيف نــوائـبه
ثَــوَتْ بـين أحـشــاء الـضلال وأشـرعت
أســـنـــتُه من دونـــهـــا وقـــواضـــبه
وأصـبـحت يـا عـبـدالمـلـيك مـلـيـكـهـا
وأنجح سـاعٍ جـاء والـسـيفُ خـاطـبه
وسُـقْتَ لــهـا صـدق الــلـقـاء مـعـجَّلا
صَـداقـاً إذا مـا هـلـهل[2] الـضـربَ كـاذبه
وجـــيشٍ أضـــاء الخـــافـقـــين رمـــاحُه
وفـاضت عـلـى رحب الـبلاد كـتـائـبه
وقـد ضـمـهـا في نـفـنف[3] الجـو مـعـقلٌ
عـسـيـرٌ عـلـى عُـصْمِ الـوعـول مـراقـبه

---

(١) في الأصل «معودة» ولعلها كما أثبتنا، أي جعلت لها عوذة وهي الرقية.
(٢) هلهل الصوت أي رجعه ويقصد بهلهلة الضرب ترديده دون قطع أو إنفاذ.
(٣) النفنف هو الهواء.

بـعـثت عـلـيـهـا مـنك دعـوة واثقٍ
صـفـا شـاهـد الإخلاص مـنه وغـائـبه
فـسرعـان مـا أقـوى الـشرى من أسوده
وأُبْـرِزَ من حُـرِّ الحـجـال كـواعـبه
ثلاثـةُ آلاف حِـسـابـاً ومـثـلُـهـا
وقـد غَلَّ عـازيه وأَسْـأَرَ حـاسـبه[1]
فـيـا لـيت «قُـوطـاً» حـين شـاد بـنـاءه
رآه وقـد خـرت إلـيك جـوانـبه
ويـا لـيت إذ سـمـاه بـدراً مـعـظـمـاً
رآه وفي كِـسْفِ الـعَـجـاج مـغـاربه[2]
فـيـعـلـمَ أن الحق دافعُ[3] كـيـده
وأنك - حـزبَ الـلـه - لاشك غـالـبه
فلا خُـذِلَ الـدينُ الـذي أنتَ سـيـفُه
ولا أوحش الـمُـلْكُ الـذي أنت حـاجـبه

****

(١) غل من المغنم أي أخذ شيئاً منه في خفاء، وعازيه أي من يتحرى نسبته، وأسأر من الشراب أبقى منه شيئاً، ويقصد الشاعر أن عدد السبايا بلغ ستة آلاف فضلاً عما أخفى حسابه القائمون بمهمة تحري عدده.

(٢) يريد في هذين البيتين أن من بنَى هذا الحصن - حسن «لونة» - من ملوك النصارى - ويعبر عنهم بكلمة «قوط» - أطلقوا عليه لفظ **Luna** ومعناها باللاتينية «بدر» وكذلك في اللغة الإسبانية الحالية، وهم لا يقدرون أن هذا «البدر» سيكون غروبه على يد عبدالملك المظفر.

(٩)

وقال فيه أيضاً رحمهما اله تعالى.

[من المتقارب]

زمـــان جـــديـــد وصـــنعٌ جـــديـــدُ
ودنـــيـــا تـــروق ونـــعـــمى تـــزيـــدُ

وغـــيثٌ يـــصـــوب وعـــيش يـــطـــيب
وعـــزٌّ يـــدوم وعـــيـــدٌ يـــعـــود

ومـــلكٌ يـــنـــيـــر بـــعـــبـــد المـــلـــيك
كشمس الضحى ساعدتها السعود[1]

ونـــصـــرٌ كـــمـــا تـــتـــمـــنى الأمـــاني
ومـولى كـمـا يـتـمـنى الـعـبـيـد

حـــيـــاء وحـــلـــمٌ وفـــضـــلٌ وعـــدلٌ
وعـــطفٌ وعـــفـــوٌ وبـــأسٌ وجـــود

إذا سِـيلَ كـادَ يـذوب ارتـيـاحـاً
وإن صـال كـاد يـذوب الحـديـد

فـيـا خـيـر من ولـدته المـلـوكُ
وأكـرم من نـصـرته الجـنـود

وأشـجع من حـمـلـته الخـيـولُ
وأهـيب من رهـبـته الأسـود

وأصـمـد من جـربـته الـسـيـوفُ
وأجـمل من ظـلـلـته الـبـنـود

(١) وردت هذه الأبيات الثلاثة الأولى في البيان المغرب لابن عذاري (٢١/٣) دون أن ينسبها لابن دراج.

ومَنْ هــو لــلــمُــلْكِ ســورٌ مــنــيعٌ
ومن هــو لــلــدين ركنٌ مَــشــيــد
تــقــبلْ هــديــةَ عــبــدٍ حَــداهــا
لــســانٌ شــكــورٌ وقــلــبٌ ودود
جــواهــرَ من نــظم حُــرِّ الــثــنــاءِ
تــبــيــدُ الــلــيــالــي ومــا إنْ تــبــيــد

****

(١٠)

وقال فيه أيضاً رحمة الله عليهما.

[من الكامل]

كُلُّ الـكـواكب مـا طـلـعتَ سُـعـودُ
وإذا سـلـمتَ فـكلُّ يـومٍ عـيـدُ
وافـاكَ يـومُ المـهـرجـان وبـعـده
لـلـفـطـر يـومٌ بـالـسـرور جـديـد
فـصلٌ يـعـاود كل عـامٍ والـنـدى
في كل حـينٍ من يـديك يـعـود
إن أقـلـعت دِيَمُ الـسـحـاب فـلم تَـجُـدْ
فـسـحـاب كـفك مـا يـزال يـجـود
ولـئن طـوى عـنـا الـربـيعُ ثـيـابَه
فـربـيعُ جـودك شـاهـدٌ مـشـهـود
لازالت الـدنـيـا وأنت لأهـلـهـا
مـولى ونـحن لـراحـتـيك عـبـيـد

****

(١١)

وقال فيه حين ولى ابنه الوزارة رحمهم الله تعالى[١].

[من الكامل]

اليوم أبهجت المنى إبهاجَها
وتوسطت شمس الضحى أبراجَها
ما للوزارة لا تضيء لنا وقد
أضحى سراج العالمين سراجها
شمسٌ تبدت في ذوائب يعرب
ركبت إلى الرتب العلى معراجها
لم تنتقل قدماً لأول منزلٍ
في المجد حتى استقبلت منهاجها
أنجَبْتَه[٢] ذُخرَ الخلافة إن شكت
ألماً تضمن برءها وعلاجها
وسَلَلْتَه سيفاً لكل ملمةٍ
يفري بأول ضربةٍ أوداجها
فنظمتَ في صدر الوزارة عِقدها
وعقدت في رأس الرياسة تاجها
والخيلُ جانحةٌ إليه كلما
رُفِعَ اللواءُ وأَوْجَسَتْ إسراجَها

---

(١) أورد معظم أبيات هذه القصيدة الثعالبي في يتيمة الدهر (١١١/٢ – ١١٢)، وقد قيلت في صدر سنة ٣٩٨ (أكتوبر سنة ١٠٠٧) بمناسبة صدور كتاب من الخليفة هشام المؤيد إلى عبدالملك بن المنصور بن أبي عامر بتلقيبه «المظفر» وبتولية ابنه محمد أبي عامر خطة الوزارتين، وذلك بعد غزوة قلنية التي فض فيها جموع النصرانية، وقد أورد نص هذا الكتاب ابن عذاري في البيان المغرب (١٦/٣ – ١٧) وابن الخطيب في الأعمال (ص ١٠٢ – ١٠٣) وانظر عن ذلك ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية ٢٨١/٢.

وكــأنــني بــجــبــيــنه في لجــة
لـلـحـرب يـخـرق بـالـقـنـا أمـواجَـهـا
حـتـى يُـغَـيِّبَ في الـنـجـوم دمـاءَهـا
دفْـنـاً ويـرفع في الـسـمـاء عَـجـاجـهـا
ويـئـوب[1] بـالـفـتـح المبـين وقـد كـسـا
نَـفَلُ[2] الـعُـداة شِـعـابـهـا وفِـجـاجـهـا
يــا قِــبــلــةً لــلآمــلــين وكــعــبــةً
تـدعـو بِـحَيَّ عـلـى الـنَّـدى حُـجَّـاجَـهـا
ومُـبـارزَ الأُسْـدِ الـغـضـاب وقـد غَـلَتْ
حـربٌ تُـوَكِّلُ بـالـحـتـوف هِـيـاجـهـا
أنت الــذي فــرجت عــني كــربــةً
لـلـدهـر قـد سَـدَّتْ[3] عـليَّ رِتـاجَـهـا
وجـلـوتَ لي فـلـق[4] المـنـى من لـيـلـةٍ
طــاوَلْتُ في ظُـــلَمِ الأسى إدلاجَـــهـــا
وسـقـيـتـني من جـود كـفك مـنـعـمـاً
كـأسـاً وجـدت من الـحـيـاة مـزاجـهـا
فلأَلْــبِــسَنَّ الــدهــرَ فـيك ملابــســاً
لـلـحـمـد أَحْـكَمَ مـنـطـقي دِيـبَـاجَـهـا
جُــدُداً عــلـى طــول الــزمــان أبى له
حُـرُّ الـتـيـقظ والـنـهى إنـهـاجَـهـا[5]
مـاعـاقب الـلـيلُ الـنـهـارَ ورجَّـعَتْ
وُرْقُ الـحـمـائم بـالـضـحى أهـزاجَـهـا

****

(١) في الأصل «ويوت» ولا يستقيم بها الوزن ولا المعنى، ولعل الصواب ما أثبتنا.
(٢) النفل هو الغنيمة.
(٣) في اليتيمة «شدت».
(٤) في اليتيمة «قلق» ولا معنى لها هنا.
(٥) أي إبلاءها.

(١٢)

وله فيه أيضاً رحمهما الله.

[من الطويل]

سلامٌ على البدر الذي خَلَفَ الشمسا
وكان لنا في يوم وحشته أُنْسَا
سراجان للدنيا وللدين أشرقا
فشمسٌ لمن أضحى وبدرٌ لمن أمسى
رمى في سبيل الله غاية مُقْدِمٍ
جديرٍ بأن يستعبد الجن والإنسا
فسابق حتى لم يجد للعلا مدى
وجاهد حتى لم يجد للعدى حسا
وسار وروحُ المُلْكِ في نور وجهه
وخلاكَ يا نجل الملوك له نَفْسا
لِتَعْتَصِبَ التاجَ السنيَّ الذي اكتسى
وترتقيَ الطود الرفيع الذي أرسى
وتجلو لنا منه شمائلَ لم تغب
وتُذْكِرَنا منه شمائل لا تُنسى
وتكسو ثيابَ العُرْف والجود والندى
أمانيَّ لا زالت بأنْعُمِه تُكسى
فلا أوحشت هذي المنازل منكما
ولافارقت أبراجُها البدر والشمسا

****

(١٣)

وله في إعذار ابن المظفر وشهود هشام أمير المؤمنين إياه رحمة الله تعالى على جميعهم(*).

[من مخلع البسيط]

بـــشـــيـــرُ يـــومٍ بمـــلـك دَهْـــرِ
وصـــدق فـــالٍ بـــطُـــولِ عُـــمْـــرِ
ودولـــةٌ بـــالـــســـرور تـــبـــأى[1]
وأنجمٌ بـــالـــســـعـــود تجـــري
وغُـــرةٌ بـــشَّـــرت بـــفـــتـحٍ
وافـــاكَ واســـتـبـشـرت بـــنـــصـــر
شـــاهـــدُ صـــنـعٍ وغـــيـث فـــتـحٍ
تـــواعـــدا طُـــهـــرَه لـــقـــدر
فـــأقـــبـلا ســـابقٌ وتـــالٍ
طـــلـــوع شـــمسٍ بـــإثـــر فـــجـــر
فـــآن يـــا نـــفـس أن تُـــسَـــرِّي
بـــكـل مـــا شـــئـت أن تُـــسَـــري
وحـــان يـــا عـــين أن تـــقـــري
بـــكـل مـــا شـــئـت أن تـــقـــري
غـــيـث ســـحـــابٍ وغـــيـث جـــودٍ
وطِـــيـبُ عَـــرفٍ وطـــيـبُ ذِكْـــر

(*) يعني بابن المظفر هذا محمداً أبا عامر بن عبدالملك المذكور في القصيدة السابقة، وقد ولد محمد سنة ٣٩٢ (١٠٠٢م) كما يفهم من نص لابن الخطيب (أعمال الأعلام ص ١٩٣)، وكانت وفاته في سنة ٤٢١ (١٠٣٠). أما تاريخ هذه القصيدة فينبغي أن يكون بين سنتي ٣٩٢ و٣٩٨هـ.
(١) تبأى أي تفخر.

وراحـــةُ غـــيـــمت عـــلـــيـــنـــا
تَـــغـــدِق ســاحــاتِــنــا بــتــبــر
الأرضُ قـــد حُـــلّـــيَتْ ريـــاضـــاً
كُـــلِّلَ تـــيـــجـــانُـــهـــا بـــزهـــر
كـــأنمـــا أنـــبـــتت ربـــاهـــا
زُمُـــــرُّداً أثـــــمـــــرتْ بـــــدُرّ
وخـــيـــرُ شـــمسٍ «لـــعـــبـــد شـــمسٍ»
أحـــلـه الـــســـعـــد خـــيـــر قـــصـــر
خـــلـــيـــفـــةُ الـــلـه راح ضـــيـــفـــاً
لـــســـيـــفـه الحـــاجب الأغـــر
زار لـــتـــطـــهـــيـــر من كـــســـاه
وزارَتَيْ مـــفـــخـــر وخَـــطْـــرِ
فـــأيُّ ضـــيـــف وأي ســـيـــفٍ
وأي مُـــلْـكٍ وأيُّ فـــخـــرٍ
وأي شـــبـــلٍ لأي لـــيـــث
وأي نـــهـــر لأي بـــحـــر
مـــتـــوجٌ قـــبل يـــوم مـــلكٍ
مـــطـــهـــر قـــبل حـــين طـــهـــر
أدنى إلـــيـه الـــطـــبـــيب عـــطـــفـــاً
في مـــرتـــقى لـــلـــخـــطـــوب وعـــر
فـــسُـــدِّدَتْ كـــفُّـه بـــصـــنـــعٍ
وأُدْهِـــشَت نـــفـــسُه بـــذعـــرٍ
فـــيـــا لـه رام غَـــمْـــرَ لـــيْـثٍ
ومـــد كـــفـــا لـــلـــمس بـــدر
أُغـــمِـــدَ عـــنـه حُـــســـام بـــأسٍ
فـــقـــد تـــكـــمى بـــدرع صـــبـــر

لِـــــــسُـــــــنَّـــــــة لـلإلـه أعــــــطى
قـــــيـــــاد راضٍ بـــــهـــــا مُـــــقِــــرٍّ
يـــا لـــوعـــةً لـــلـــحـــديـــد فـــازت
طُلاَّبُ أعــــدائــــهـــــا بــــوِتـــــرْ
وقـــــطــــرةً مـن دمٍ ســــتـــــمــــري
دمَ الـــــعـــــدى وابـلاً بــــقَـــــطـــــر
وجُـــنْـــدُ أنـــصـــارهـــا شـــهـــودٌ
لم يـــذعـــنـــوا قـــبـــلـــهـــا لـــقـــسـر
وأبــــــرزوا كـلَّ شِـــــبْـلٍ غـــــابٍ
بـــكل[1] ذي لـــــبـــــدةٍ هِـــــزبـــــر
كُلٌّ يــــواسي بـــنـــفس عـــبـــدٍ
يـــقـــضي عـــلـــيـــهـــا بـــصـــبـــرِ حُـــر
فَـــحُـفَّ بـــدرُ الـــســـمـــاء مـــنـه
بـــأنجمٍ لـــلـــســـعـــود زُهـــر
وأصـــبح الـــدهـــر مِنْ كُـــســـاهُ
في حُـــمْـــر إســـتـــبـــرقٍ وخُـــضـــر
وأشـــرقَ المـــسـكُ والـــغـــوالي
فـي أوجـهٍ مـن نـــــــداه غُـــــــرٍّ

****

(١) لعلها «لكل»، فهي أوفق للسياق.

(١٤)

وقال فيه حين قتله لعيسى بن سعيد(*).

[من الكامل]

شكراً لمن أعطاك ما أعطاكا
رب أذل لملكك الأملاكا[1]

فشفى الأماني من يمينك مثلما
روّى سيوفَك من دماء عِداكا

شِيَمٌ بعدل الله فيك تقسمت
في العالمين معايشاً وهَلاكا

والله أشقى جَدٍّ من عاداكا
صنعاً وأسعد جَدٍّ من والاكا

ياحَيْنَ مختارٍ لسُخطك بعدما
ضاءت له الدنيا بنجم رضاكا

جَدَّتْ مساعيه ليحفر هوةً
فهوى إليها من سماء عُلاكا

(*) هو عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف بالقطاع، كان أول كاتب للمنصور ابن أبي عامر قبل ملكه ولهذا حسنت منزلته لدى المنصور، وفي سنة ٣٨٦ أرسله ابن أبي عامر على رأس جيش لإخضاع ثورة زيري بن عطية المغراوي، وارتفعت درجة ابن القطاع بعد ذلك في عهد عبدالملك المظفر ابن المنصور حتى إن عبدالملك زوج ابنه من أخته الصغرى، ثم لم يلبث أن تنكر له المظفر بعد أن نقل إليه أنه يسعى إلى الثورة علي الدولة العامرية وتنصيب الأموي هشام بن عبدالجبار، على أن المظفر عاجله بالقتل في العاشر من ربيع الأول سنة ٣٩٧ (٤ ديسمبر سنة ١٠٠٦) – انظر ليفي بروفنسال: تاريخ ٢٦٨/٢، ٢٧٨، ٢٨٠ – ٢٨١، ابن عذاري: البيان المغرب ٢٤/٣ – ٣٥، ٥٢، ابن بسام: الذخيرة ق ١ – ١٢٣/١ – ١٢٨، ق ٤ – ١/ ٥٠ – ٥٢، ابن الخطيب: الأعمال ص ٧٥.

(١) أورد ابن عذاري في «البيان المغرب» – نقلاً عن ابن حيان – مطلع هذه القصيدة فيما أورده من قصائد الشعراء الذين هنأوا المظفر عبدالملك بن المنصور بن أبي عامر بإيقاعه بعيسى بن سعيد القطاع وقتله إياه (٣٥/٣). ونلاحظ أن في رواية ابن حيان لهذا المطلع كلمة «ملك» في مكان كلمة «رب» الواردة في الديوان.

لــفــحــتـه نــارٌ بــات يــقــدح زنــدَهــا
في روضــــةٍ ممـــطــورة بــــنــــداكـــا
أمـــسى وأصـــبح بـــين ثـــوبي غـــدرةٍ
سلــبــتــه مــا ألــبـست من نــعــمـاكـا
أو مـا رأى المــغــتــرُّ عـقــبى من سـعى
في كــفــر مــا أســدَتْ له يمــنــاكـا؟
أو مـا رآك قـد استـعـنت بـذي الـعلا
فــأعــان واسـتـكـفـيـتـه فـكـفـاكـا؟
أو مــا رأى أحــكــامه وقــضــاءه
يـجـري بمَـهْـلِكِ من يـشق عـصـاكـا
أو مــا رأى إشــراق تــاجك في الــورى
والمـكـرمـات الـزُّهــرَ بـعض حلاكـا؟
أو مـا رأى مـفـتـاح بـاب الـيُـمْن في
يمـنـاك والمـيـسـورَ في يـسـراكـا
ومـــتـى رأى داءً جـــهـــلت دواءَه
أو خَـطْبَ دهـرٍ قـبـله أعـيـاكـا
مـا كـان أبـين في شـواهـد عـلـمه
أن الـريـاسـة لا تـريـد سـواكـا
حـتى هـوت قـدمـاه في ظُـلَمِ الـردى
لمـا اهـتـدى فـيـهـا بـغـيـر هـداكـا
وأراك فـيه الــلـه من نِــقْــمـاته
عــاداتِه في حــتف من عــاداكـا
قل لـلـمُـصَـرَّعِ لاَلـعَـاً من صـرعـةٍ
وافـيـتَـهـا بـغـيـاً عـلـى مـولاكـا
تـبـاً لـسـعـيكَ إذ تَـسُلُّ مـعـانـداً
لخلافه الـسـيفَ الـذي حَلاَّكـا

وسـقـاك كـأسـاً لـلـحـتـوف وكم وكم
من قـبـلـهـا كـأسَ الحـيـاة سـقـاكـا
لا تَـفْـلُلِ الأيـامُ سـيـفـاً مـاضـيـاً
فضَّ الإله بـشـفـرتـيه فـاكـا
حَـيِـيَتْ لمـوتك أنـفسٌ مـظـلـومـةٌ
كـانت مـنـايـاهن في مـحـيـاكـا
فـانـهض بـخـزي الـدين والـدنـيـا بمـا
قـد قـدمت في المـسـلـمـين يـداكـا
هـذا جـزاء الـغـدر لا عَـدِمَ الـهـدى[1]
مـولى بـسـعـيك في الـنـفـاق جـزاكـا
يـأيـهـا المـولى الـذي نـصـر الـهـدى
وحـمـى الـثـغـورَ وذلل الإشـراكـا
لايُـبـعـدِ الـرحـمنُ إلا مـهـجـةً
ضـلـت وفي يـدهـا سـراجُ هـداكـا
تَـعْـسـاً لمن نـاواك بل ذلاً لمن
سـامـاك بل خـزيـاً لمن جـاراكـا
فـابْـلُغْ مُـنـاك فـإنَّ غـايـات المـنى
لـلـمـسـلـمـين بـأن تـنـال مـنـاكـا
حـتى تـرى الـنَّـجْلَ المـبـاركَ رافـعـاً
عَـلَمَ الـسـيـادة جـاريـاً لمـداكـا
ويُـريكَ في شِـبْل المـكـارم والـهـدى
والـبِـرِّ أفـضل مـا أَرَيْتَ أبـاكـا

****

(١) في الأصل: الهوى.

(١٥)

وقال فيه رحمة الله عليهما ويصف روضة سوسن في شهر شعبان[١].

[من الكامل]

جـهـز لـنـا في الأرض[٢] غـزوة مـحـتـسِبْ
وانـدب إلـيـهـا من يُـسـاعـدُ وانـتَـدِبْ
واحـمل عـلـى خـيل الـهـوى شـيم الـصـبـا
واعـقـد لجـيش الـلـهـو ألـويـة الـطـرب
واهـتـف بـأجـنـاد الـسـرور وقـد بـهـا
نـحـو الـريـاض وأنت أكـرم من رَكِب
جـيـشـاً تـكـون طـبـولُه عـيـدانَه
وقـرونُه الـنـايـاتِ تُـسـعِـدُهـا الـقَـصَبْ
واهـزز رمـاحـاً من تـبـاشـيـر المـنـى
واسـلل سـيـوفـاً من مـعـتـقـة الـعـنـب
وانـصِبْ مـجـانـيـقـاً من الـنِّـيَم الـتي
أحـجـارُهُن من الـرواطم والـنُّـخَب[٣]

(١) وردت عشرة أبيات من هذه القصيدة في كتاب «البديع في وصف الربيع» لأبي الوليد إسماعيل بن عامر الحميري، بتحقيق الأستاذ الدكتور عبدالله عبدالرحيم عسيلان ط. خدة ١٩٨٧، ص ١٣٦، كذلك روى بيتين من أبياتها كل من ابن سعيد المغربي في كتاب رايات المبرزين وغايات المميزين بتحقيق الأستاذ غرسية غومز، ط. مدريد سنة ١٩٤٢، ص ٧٣ من النص العربي و ص ٢٣٢ من الترجمة الإسبانية، وفي عنوان المرقصات والمطربات (بتحقيق الأستاذ محداد عبدالقادر ط. الجزائر سنة ١٩٤٩) ص ٢٠ من النص و٢١ من الترجمة وص ٦٣ من حواشي الكتاب، والمقري في نفح الطيب ١٩٦/٣.

(٢) في «البديع»: الروض.

(٣) النيم جمع نيمه (بكسر النون) وهي عند الأندلسيين القنينة أو الزجاجة (انظر: دوزي: ملحق القواميس العربية ٧٤٣/٢)، وأما الرواطم فجمع رطومة ويقال فيها أيضاً «رضومة»، ومعناها القنينة أيضاً، وهو لفظ أندلسي مأخوذ من اللغة الإسبانية القديمة (اللاتينية الدارجة أو الرومانية)، وكان ينطق بهذه الصورة **Rotoma** أو **Arrodoma** (انظر ملحق القواميس لدوزي ٥٣٤/١، وأرنالد شتايجر: دراسة حول الأصوات الأندلسية ص ١٦٣، ٣٥٤).

لمعاقل من سوسن قد شيدت
أيدي الربيع بناءها فوق القُضُب[١]
شرفاتُها من فضة وحُماتُها
حول الأمير لهم سيوف من ذهب[٢]
مترقبين لأمره وقد ارتقى
خَلَلَ البناء ومد صفحةَ مرتَقِب
كأمير «لُونَةَ» قد تطلع إذ دنا
عبدُ المليك إليه في جيش لَجِب
فلئن غنمتَ هناك أمثالَ الدمى
فهنا بيوتُ المسك فاغْنَمْ وانتَهِبْ
تُحَفاً لشَعْبَانٍ جلا لك وجْهَه
عِوَضاً من الورد الذي أهدى رجب
فاقبل هديته فقد وافى بها
قدرا إلى أمد الصيام إذا[٣] وجب
واستوف[٤] بهجتها وطيب نسيمها
فإذا دنا رمضان فاسجد واقترب
وَصِلِ الجهادَ إلى الصيام بعزمة
من ثائر يُرضي الإلهَ إذا غضب
فالنصرُ مضمونٌ على برِّ الهدى
وعواقبُ الراحات أثمارُ التعب
وارفع رغائِبَ ما نويتَ إلى الذي
مازلتَ ترفعها إليه فلم تَخِب

(١) في رايات المبرزين وعنوان المرقصات: «ومعاقل» بدلا من «لمعاقل» وفي نفح الطيب «كمعاقل»، أما الحميري في البديع فقد اتبع رواية الديوان، وفي عنوان المرقصات «العذب» بدلاً من «القضب».
(٢) ورد هذا البيت في جميع المراجع التي سبق ذكرها دون خلاف في الرواية.
(٣) في الأصل: الذي، وقد تكون كما أثبتنا، أو لعلها «وقد» إذ أن الوزن لا يستقيم بكلمة «الذي» الواردة في الأصل.
(٤) في البديع: «فاستوف».

حـــتى تــئــوب وقـــد نـــظــمتَ قلائــداً
فــوق المــنـــابــر لا تُــغــيــرهــا الحِــقب
بـجــواهــرٍ من فــخــر يــومك في الــعــدى
تــبــأى بــهــا في الــدهــر تــيـجــانُ الــعـرب
فـــتْحٌ تـــكـــادُ ســـطـــوره من نـــورهـــا
تــبــدو فــتُــقْــرَأَ خــلْفَ طــيَّــاتِ الــكــتب
واقــبل هــديـــة عــبــدِكَ الــراجي الــذي
أهـــدى إلـــيك الـــدُرَّ من بـــحــــر الأدب

****

(١٦)

وقال أيضاً فيه رحمهما الله ويصف البهار[١].

[من المتقارب]

دُعِـيتَ فـأصغ لـداعي[٢] الـطـربْ
وطـاب لك الـدهـر فـاشـرَبْ وطِبْ
وهـذا[٣] بـشـيـرُ الـربـيـعِ الجـديـدِ
يـبـشـرنـا أنه قـد قَـرُبْ
بَـهَـارٌ يـروقُ بمـسك ذكيٍّ
وصُـنـعٍ بـديع وخَـلْقٍ عَـجَب
غُـصـونُ الـزبـرْ جَـدِ قـد أورقت
لـنـا فـضـة نـوَّرتْ بـالـذهب[٤]
إذا جُـمِـعت في حِـبـال الحَـريـر[٥]
وقـامت أمـامكَ مـثل الـلُّـعبَ
فـمن حـقـهـا أن تـرى الـشـاربـينَ
وقـد نـفَـقَتْ سـوقُـهُم بـالـنُّـخَب
وأن تـسـألـوا[٦] الـله طـول الـبـقـاء
لـعـبـد المـلـيك مـلـيكِ الـعـرب
فـلـولا مـحـاسـنُه[٧] لم تَـرُقْ
ولـولا شـمـائِـلُه لم تَـطِبْ

****

(١) جاءت هذه الأبيات كلها في «البديع» للحميري ص ١٠٣، وانظر كذلك ص ٥٦، وقد أورد الثعالبي منها سبعة أبيات في «اليتيمة» ٢/١١٢ ونقل النويري منها بيتين في «نهاية الأرب» ١١/٢٨٦.
(٢) في «البديع»: «لراعي» ورواية الديوان هي الصحيحة.
(٣) في «اليتيمة»: فهذا.
(٤) في «البديع»: «الزمرد» بدلاً من «الزبرجد» ورواية الديوان أصح، وفي نهاية الأرب: «موهت» بدلاً من «نورت».
(٥) في «البديع»: الحديد ولا معنى لها هنا.
(٦) في «البديع»: يسألوا.
(٧) في «البديع» مجالسه.

(١٧)

وله أيضاً رحمه الله في النرجس[1].

[من الكامل]

شـــــكلان من راح وروضـــــة نــــرجَسِ
يــتــنــازعــان الــشِّــبْهَ وسْطَ المجـلسِ
مُــتَــبَــاهِــيْــين تَــلَــوُّنــاً بــتــلــون
مــتــبــارِيَــيْنِ تــنــفــســاً بــتــنــفس
لـــكن هـــذي بـــين أحـــشـــاء الـــفـــتى
نـــار، وهـــذا جـــنـــة لـلأنـــفس
فــكــأنــهــا من حــد سـيــفك تــلــتــظي
وكــأنه من طــيب خُــلْــقِكَ يــكــتــسي
يـــا من علا من رتـــبـــة في رتـــبـــة
حـــتى غـــدا وَسْطَ الـــنـــجـــوم الخُـــنَّس
وابـنَ الـــذين هُـــداهُـمُ ونُـــهـــاهُـمُ
أدبُ المــلــوك وأُســوةٌ لــلــمــؤتَــسِي

****

(١) وردت هذه المقطوعة في «البديع» أيضاً ما عدا البيت الثالث منها، وقد ذكر الحميري أنها في وصف النرجس الأصفر. انظر ص ١١٦ - ١٢٠.

(١٨)

وله أيضاً رحمه الله في الخيري[1].

[من المتقارب]

غـدا غــيــر مــســعــدنــا ثـم راحــا
يــســاعــدنــا طــربــاً وارتــيــاحــا
وخُــيِّــرَ فــاخــتــار دِينَ[2] الــغَــبُــوقِ
ولـج فـلـيـس يـرى الاصـطـبـاحـا
فــإن آنسَ الــصــبــحَ نــام وشحَّ
وإن آنس الــلــيـل نَمَّ وفــاحــا
كــمــا خــيَّــرَ الــلــهُ عــبــدَالمــلــيــ
ـكِ فـاخـتـار في راحـتَـيْـهِ الـسَّـمـاحـا
وفي صــهــوات الخــيــولِ الــرجــالَ
ومن أدوات الــرجــال الــســلاحــا
فَــعَـمَّ الــقــريبَ نَــدًى والــبــعــيــدَ
ورَوَّى الــســيــوفَ دَمــاً والــرِّمــاحــا

****

---

(١) وردت هذه القطعة كلها أيضاً في «البديع» ص ١١٣، وورد البيتان الأولان منها في شرح الشريف الغرناطي لمقصورة حازم القرطاجني ١/١٥٥.

(٢) في «البديع» شرب.

(١٩)

وله أيضاً رحمه الله في الخيري الأصفر[١].

[من السريع]

أعـــاره الـــنـــرجس من لـــونِهِ
تـــفـــضلاً وازداد من طـــيـــبِهِ

ونـــاسبَ الـــنَّـــمَّـــامَ لمـــا انـــتـــمى
إلى أُسْـــمِهِ الأدنى وتـــركـــيـــبِهِ

ومـــا يـــجـــاري واحـــداً مـــنـــهـــمـــا
إلا كـــبـــا في ريح[٢] تـــقـــريـــبه

ولـــو رجـــا عـــبـــدَ المـــلـــيك الـــذي
تـــأدب الـــدهـــرُ بـــتـــأديـــبه

لجـــاءَنـــا مُـــبـــتـــدراً ســـابـــقـــاً
يُـــزري بمن قـــد كـــان يُـــزري به

****

(١) وردت الأبيات الثلاثة الأولى من هذه المقطوعة في «البديع» ص ١١٨.
(٢) في البديع «حين».

(٢٠)

وله أيضاً رحمه الله في الورد[١].

[من الكامل]

ضحك الزمانُ لنا فهاكَ وهاتِه
أوَ ما رأيتَ الوردَ في شجراتِه؟
قد جاء بالنَّارَنّجِ[٢] من أغصانه
وبخجلة المعشوق من وجناتِه
وكساه مولانا غلائلَ سيفه[٣]
يوماً يُسربله دماءَ عُداته
من بعد ما نفخَ الحيا من روحه
فيه وعَرْفُ المسك من نفحاته
إنْ كان أبدع واصفٌ في وصفه
فلقد تقاصر عن بديع صفاته
كمديحِ سيفِ الدولة الأعلى الذي
أعيا فأعيا[٤] في مدى غاياته
مَلِكٌ يُنير الجودُ في لحظاته
واليُمْنُ والإيمانُ في عزماته
وحَيَاتهِ إنْ كان أبقى حاجةً
لِمَنِ ارتجاهُ غيرَ طولِ حياتِه

****

(١) وردت هذه المقطوعة كلها في «البديع» ص ١٢٧. وجاءت الأبيات الثلاثة الأولى منها أيضاً في «البيان المغرب» لابن عذاري المراكشي ١٨/٣.
(٢) في «البديع» بالتاريخ ولا معنى لها.
(٣) في «البيان المغرب»: سندس.
(٤) في «البديع»: فأغيا والصواب ما أثبتنا، و«أعيا» الأولى بمعنى أعجز الناس عن إدراكه والثانية من العي وهو

(٢١)

وله أيضاً رحمه الله في السوسن[١].

[من المنسرح]

إن كـــان وجه الــربــيـع مــبــتــســمَــا
فــالــســوسنُ الــمُــجــتــلَى ثــنــايــاهُ

يـــا حُــسْــنَــهُ سِنّ[٢] ضـــاحكٍ عَـــبِقٍ
بـــطـــيب ريح الحـــبـــيـب رَيَّـــاهُ

خـــاف عـــلــيه الحــســودَ عــاشـــقُه
فـــاشـــتقَّ من ضـــده فـــســـمَّـــاه

وَهْـــوَ[٣] إذا مُـــغـــرمٌ تـــنـــســـمه
خَــلِيَّ عــلى الأنف[٤] مــنه ســيــمــاه

كــمــا يــخــلي الحــبــيبُ غــالــيــةً
في عـــارِضَيْ إلـــفه لِـــذكْـــراه

يـــا حـــاجـــبـــاً مـــذ بـــراه خـــالـــقه
تَـــوَّجَـهُ بـــالـــعـــلى وحَـلاَّه

إذا رآه الـــزمـــان مـــبـــتـــســـمـــاً[٥]
فـــقـــد رأى كلَّ مـــا تـــمـــنَّـــاه

وإن رآه الــــهلال مُــــطَّـــلِـــعًـــا
يـــقـــول: ربـي وربـك الـــلـــه

****

(١) أورد أبو الوليد الحميري خمسة من أبيات هذه المقطوعة في «البديع» ص ١٣٢ – ١٣٦، وأتى ابن عذاري في «البيان المغرب» بستة منها (٢٠/٣ – ٢١) كذلك روى منها ابن عبدالمنعم الحميري سبعة أبيات في «الروض المعطار» ص ١٦٠، ونقل النويري منها بيتين في «نهاية الأرب» (٢٧٦/١١) دون أن ينسبهما.

(٢) في «الروض المعطار»: بين والصواب ما أثبتنا، وفي «نهاية الأرب»:

يا حسنه ضاحكاً له عبق كطيب ريح الحبيب رياه.

(٣) في الأصل «وهوى» وقد اتبعنا قراءة البديع والبيان والروض.

(٤) في الأصل «الألف وقد أثبتنا قراءة المراجع التي سلفت الإشارة إليها لكونها أقرب إلى الصواب.

(٥) في «الروض» مبتهجاً.

(٢٢)

وله أيضاً رحمه الله في النيلوفر.

[من المتقارب]

ونـــيـــلـــوفـــرٍ قَـــمِنٍ بـــالـــذبـــولِ
يـــروق فـــيـــذبل عـــمَّـــا قـــلـــيلِ
يُلاقي الـــصـــبـــاحَ بـــيُـــمـــنى جـــوادٍ
ويـــخـــفي الـــظلام بـــيـــمـــنى بـــخـــيل[1]
يـــبـــيح الـــضـــحى مـــا حـــوى من نـــســـيم
ويمـــــنـــــعه عـــــنـــــد وقت الأُفـــــول
ألم يـــر عـــبـــدَ المـــلـــيك المـــلـــيكَ
مُـــجـــيبَ الـــرجـــاء ومـــعـــطي الجـــزيل؟
لـــو ازدادت الأرض عَـــرضـــاً بـــعـــرض
ولـــو وصل الـــدهـــرُ طـــولاً بـــطـــول
لمـــــا زال يُـــــوسعُ هـــــذا وتـــــلك
بـــفـــعل كـــريم وذكـــر جـــمـــيلِ

****

(١) ورد هذا البيت والذي يليه في شرح مقصورة حازم للشريف الغرناطي (١٥٥/١) وقد جاء في أصل الديوان المخطوط كلمة «ويحيي» بدلاً من «ويخفي» التي أثبتناها في البيت الأول، وقد اخترنا رواية الشريف لأنها أكثر مناسبة للمعنى المقصود.

(٢٣)

وله في الوزير عيسى بن سعيد رحمهما الله[١].

[من الطويل]

أفي مثلها تنبو أياديك عن مثلي؟
وهذي الأماني فيك جامعة الشمل
وقد أوفت الدنيا بعهدك واقتضت
وفاءك ألا زلت تعلي وتستعلي
وقد أَمَّنَ المقدار ما كنتُ أتقي
وأرخصت الأيام ما كنتُ أستغلي
وأذعن صرف الدهر سمعاً وطاعة
لما فُهْتَ من قول وأمضيت من فعل
وناديتَ بالإنعام في الأرض فالتقت
بيمناك أشتات الطرائق[٢] والسُّبْل
وحلت بك الآمال في عدد الدَّبى[٣]
فوافت أياد منك في عدد الرمل
وهذا مقامي منذ تسع وأربع
رجائيَ في قيد وحظيَ في غُل
كأنيَ لم أحلل ذَراك ولم أُقِمْ
مُناخَ العطايا فيك مرتهَنَ الرحْل

(١) أورد ابن بسام الشنتريني نحو نصف هذه القصيدة في كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» (القسم الأول – ٧٧/١ – ٨٠)، كذلك اختار منها ابن فضل الله العمري أربعة أبيات (مسالك ٢٠٢/١١)، أما عن عيسى بن سعيد فانظر ص ٣٢ والحاشية الواردة في ذلك الموضع.
(٢) في الأصل «الطريق» وقد أثبتنا قراءة «الذخيرة» إذ بها يستقيم الوزن والمعنى.
(٣) الدبى هو أصغر ما يكون من النمل أو الجراد.

وأُغْضِ عن البرق الذي شيم للحيا

وأَعقِدْ بحبل منك بين الورى حبلي

ولم أدخر من راحتيك وسائلاً

رَضيتُ بها كُفئاً عن المال والأهل

ولم تُصْفِني خُلْقاً أرق من الهوى

ولم تولني نعمى ألذ من الوصل

ولم تَثْنِ عني في مواطنَ جمةٍ

سيوفاً حداداً قد سُللن على قتلي

ولم أطو سِنَّ الإكتهال مُحاكما

إليكَ خطوباً شيبت مفرق الطفل

وكنتَ ومفتاحُ الرغائب ضائعٌ

ملاذي فهذا بابُها ضائعُ القفل

وكمْ مرتقًى وَعْرٍ جذبتَ بساعدي

إليه فقد أفسحت بالأُفيَحِ السهل

وأنهارِ راحٍ في رياض أنيقةٍ

مُوطأةِ الأكناف للنهل والعل[1]

حرامٍ على وِرْدي حمًى دون مرتعي

وقد برَّحتْ في الناس بالطَّيِّبِ الحِلِّ

وقد شفني رشفُ الثمار أواجناً

وأنضى ركابي مَجْذِبُ المرتع المحل

وإن عجيباً أنَّ عِزكَ موئلي

وأكظِمُ أنفاسي على غُصَص الذل

وأَنِّيَ من ظلمي بِعَدْ لِكَ عائذٌ

وكم مطلبٍ أسلمتَهُ في يديْ عدل

---

(١) في الأصل «والنعل» ولا معنى لها هنا.

وَأَنِّيَ في أفــيــاء ظــلك أشــتــكي
شــكــيــة مــوسى إذ تــولى إلى الــظل
ففي حــكمك المــاضي وسلطانك العدل
تُــمِــرُّ ليَ الــدنــيــا وطــعــمي لــهــا مُــحْلِ
وتــقــلــبُ لي ظــهــر المجن تجــنــيــاً
فموتي بمــا يــحــيي وموتي بمــا يُسلي
ألم تــرني يــوم الــرهــان مــبــرِّزاً
أمــام الألى جــاءوا إلى الحظ من قــبــلي
فــكم بــات هــذا الْــمَــلْكُ مــني مــعــرســاً
بــفــتــانــة بــكــر وبِتُّ عــلى الــثــكل
وأثــقــلتُ أوقــار الــركــاب جــواهــراً
عــلى ثــمن يــعــدو به مُــحْــوِلُ الــنــمل
وهــا أنــذا مــا إن أمــوت[1] من الأسى
بــوقــر عــلى وقــر وثِــقل عــلى ثِــقْل
وَلِيُّ الــنــدى أصــبــحتُ في دولــة الــنــدى
كــأني عــدوُّ الــبــخل في دولــة الــبــخل
يُقَــتِّلُ أخفى اليأس[2] أَحْــيَى مطــالبي
لــيــاليَ جَلَّ الــوعــد عن ريــبــة[3] المــطل
وأبــدي لِــلَــسْعِ الــدَّبْــرِ وجــهي مــنــازعــاً
وقد فاز غيري - سالماً - بجنى النحل
ومَــوْلًى يــخــر الــبــأس والحــمــد ساجداً
إلى ســيــفه المــاضي ونــائــله الجــزل
ســريعٍ إلى داعي الــنــدى وشــفــيــعه
وبــحــرُ عــطــايــاه أصمُّ عن الــعــذل

(١) في الأصل: أمو.
(٢) في «الذخيرة» أحفى الناس، ورواية الديوان أصح.
(٣) في «الذخيرة»: رتبة، على أن محققي هذا الكتاب ذكروا في الحاشية أن إحدى مخطوطاته روتها «ريبة» كما أثبت

تذكرني في ساعة العلم والنهى
وأُنْسِيَني في ساعة الجود والبذل
وبوأني في قصره أعل[1] منزلٍ
وحظيَ مُلقىً يستغيث من السُّفْلِ
فأكسو له الأيامَ من حُرِّ ما أشي[2]
وأملأُ سمع الدهر من سحر ما أُملي
أواصل آناءَ الأصائل بالضحى
وزاديَ من جهدي وراحلتي رِجلي
إذا أَحْفَتِ الفُرسانُ غُرَّ جياده[3]
خصفتُ بوجهي ما تمزق من نعلي
وإن أقبلوا والمسك يندى عليهمُ
أتيت وقد ضُمختُ مسكا من الوحل
وإن شُغلوا لهواً بأنعُمِ كفه
فخدمَتُه لهوي وطاعتُه شُغلي
أُقِرُّ عيونَ الشامتين وليتني
أُبرِّدُ ما تطوي الضلوعُ[4] من الغِلِ
أَمُرُّ بهم ألقى[5] الثرى وكأنما
فؤاديَ من أحداقهم غَرَضُ النَّبل
إذا الأسد الضرغامُ أنفذ مقتلي
فما فزعي إلا إلى الأرقم الصِّلِّ
وإن ذاب حُرُّ الوجه من حَرِّ نارهم
فما مُستغاثي منه إلا إلى المُهْلِ

(١) في الأصل «أعلى»، وبها يختل الوزن إذ أنه لا يستقيم إلا بحذف الألف المقصورة. وقد تكون «علو» في مقابلة «السفل» الواردة في آخر البيت.
(٢) في الذخيرة «فأكسو لك الأيام من حر ما أثني» وما أثبتناه أصح.
(٣) في «الذخيرة» جيادهم، ورواية الديوان أصوب.
(٤) في «الذخيرة»: الصدور.

ومن شيمة الماء القَراح وإن صفا
إذا اضطرمت من تحته النار أن يغلي

ولا وزرٌ إلا وزيرٌ له يدٌ
تُملُّ على أيدي الربيع فيستملي[1]

أبا الأصبغِ المَعْنِيَّ هل أنتَ مُصرخي؟
وهل أنت لي مُغن وهل أنت لي مُعْلِ؟

وهل ملكُ الإنعام والجود عائدٌ
بإحسان ما يولي على حسن ما أُبلي؟

وهل لرياض المُلْكِ في نفحة الصَّبا؟
وهل لسماء المجد في كوكب النُّبْل؟

وحتى متى أُعطي الزمانَ مقادتي؟
وقد قَبضتْ كفي على قائم النصل

وناديتُ من عليا الوزارة ناصراً
يرى خاطفات الشهب تمشي على رِسْل

فلا يَغْبِطِ الأعداءُ ما طُلَّ من دمي
ولا يَهْنِئِ الأيامَ ما فات من ذَحلي

عسى مجدُ عيسى أن ينوء ببارق
يُسِحُّ حيا الإفضال في روضة الفضل

فيا بن سعيدٍ هل لسعدك كَرَّةٌ
على الهمة العلياء في الأُفُقِ الغُفْل؟

طوتْ زفراتِ البث حتى لقد أنى
لذات مخاض أن تُطَرِّقَ بالحَمْل

مطالبُ أبقى الدهرُ منها مظالماً
تُناديك[2] بالشكوى وتدعوكَ للفضْلِ

---

(١) في «الذخيرة»: فتستملي.
(٢) في الأصل «تناد».

وكُلٌّ عـلـيـهـا شـاهـدٌ غـيـرُ شـاهـدٍ
وليس لـهـا - حـاشـاك - من حَـكَمٍ عـدْل
أيـحـتـقبُ الـركـبـان شـرقـاً ومـغـربـاً
غـرائبَ أنـفـاسي وألـقـاكَ في الـرَّجْلِ؟[1]
ويـنـتـقلُ الـشَّـرْبُ الـنـدامى بـدائـعي
وهـيـهـات لـي من لـذة الـشُّـرْبِ والـنُّـقْل؟!
وضـيفٌ بـحيثُ الـطـيـرُ تُـدعى إلى الـقِرى
يـضـيق به رحب المـبـاءة والـنُّـزْلِ
طَـوٍوَ وُجُـوُه[2] الأرض خـِصْبٌ ومـطـعم
وعَـيْـمـانُ والجُـلـمـودُ يـفْـهَقُ بـالـرِّسْلِ[3]
وحَـــرَّانُ أوفَى ظِـمْءَ تـــسعٍ وأربعٍ
بـحـيثُ تلاقَى دافقُ الـبـحـر والـوَبْل
وسـيف يَـقُـدُّ الـبَـيْضَ والـزَّغْـفَ[4] مُـقدِماً
يـروح بـلا غـمـد ويـغـدو بـلا صـقل
وذو غـرة مـعـروفـة الـسـبق في المـدى
وقد قَـرِحَ الـتـحـجيلُ من حَـلَقِ الـشُّكْل[5]
ودوحـةُ عـلـم في الـسـمـاء غـصـونُـهـا
تـرف بـلا سـقـيـا سـوى بَـغَش[6] الـطلِّ

****

(١) في الأصل: الرحل، وقد آثرنا ما جاء في الذخيرة.
(٢) في الأصل «وجوه».
(٣) طو أي جائع، والعيمان هو الذي أصابته العيمة وهي شدة الشهوة إلى اللبن، والرسل اللبن.
(٤) الزغف جمع زغفة وهي الدرع المحكمة السابغة.
(٥) الشكل جمع شكال وهو الحبل الذي تشد به قوائم الخيل. وقد ورد الشطر الثاني من هذا البيت في الذخيرة (ق ١ - ٣٠٤/١) هكذا: هكذا: وقد قرح التحجيل من ألم الشكل.
(٦) البغش والبغشة المطر الضعيف الصغير القطر.

(٢٤)

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى.

[من الوافر]

مـكـارمك اغـتـبـاقي واصـطـبـاحي
ومـن ذكـــراك ريـــحـــاني وراحي

تحـــيـــيـــني بـــأثـــمـــار الأمـــاني
وأرفل مـــنك في روض الـــســمـــاح

فـــمـــا هـــاجـــتـــني الأطـــراب إلا
إلـــيك نـــزاع نـــفـــسي وارتـــيـــاحي

ولا غـــــــــنـت لـي الآمـــــــال إلا
وحظ رضـــاك ســـؤلي واقـــتـــراحي

فـإن أصـبـحت مـنـتـشـيـاً بـنـعـمى
تـــوالـــيـــهـا فـشـكـر الحـر صـاح

وقـلَّ لمـن جَـلاَ الإظـلامَ عـــــــــني
ولَـــقيَّ نـــاظـــري وجهَ الـــصـــبـــاح

ومن بـــيـــمـــيـــنه وريَت زنـــادي
ســنـــاً وبـــيـــمـــنه فـــازت قـــداحي

ومن نـــاديتُ: حي عـــلى الـــتلاقي
فـلـــبـــاني بـحي عـلى الـنـجـاح

وآوانـي إلـى ركـن شـــــديـــــــد
وأوفى بي عـــلى أمل مـــتـــاح

وزيـــرٌ قُـــلِّـــدَ المـــلـــكـــانِ مـــنه
حـسـام الـبـأس والـنـصح المـبـاح

حـــمـــائـــلُه لـــصـــدر الـــمُـــلْك حَـــلْيٌ
وحَـــــدَّاهُ عـــــتـــــاد لـــــلـــــكـــــفـــــاح
حـــيـــاة عـــنـــد مـــزدحم الأمـــاني
ومـــوت عـــنـــد مـــشـــتـــجـــر الـــرمـــاح
ولـــيـــث تحت ســـابـــغـــة دلاص
وغـــيـــث بـــين أثـــنـــاء الـــوشـــاح
إذا الـــرايـــات جـــهـــزهـــا بـــرأي
لـــقـــد لَـــقِيَ الـــعـــدى شـــاكي الـــسلاح
وإن لاقى الخـــطـــوب بـــفـــضل حـــكم
فـــقـــد أبـــقـــاه ذخـــراً لـــلـــصلاح
بـــعـــيـــدُ الـــشـــأو مـــقـــتـــرب الأيـــادي
عـــزيـــز الـــقـــدر مـــخـــفـــوض الجـــنـــاح
حـــســـام لـــلـــكـــواكب في المـــعـــالي
مـــبـــار في المـــكـــارم لـــلـــريـــاح
فَـــمُـــلِّـــيـــنَـــاه فُي دين ودنـــيـــا
مَـــرِيعَ الـــروض مـــحـــلـــولَ الـــنـــواحي

****

(٢٥)

وله في المهدي محمد بن عبدالجبار أمير المؤمنين رحمهم الله(*).

[من الكامل]

قل لــلــخلافـــة قــد بـلــغت مُـنــاكِ
ورأيتِ مـــا قـــرتْ بـه عـــيـــنـــاكِ
مَـــهــدِيُّ أمـــة أحْـــمَـدٍ وكـــريمُــهـــا
وحـــلــيــمُـــهـــا يـــأوي إلى مـــأواك
وسـلـيلُ نـفسِ إمـامِـهـا وشـهـيـدِهـا(1)
قـمَـرَيْكِ في الـدنـيـا، ومـا قـمـراك!
هـــذا تـــعـــجَّلَ من كـــرامـــة ربـه
في الخُـلْـد مـثـوىً جلَّ عن مـثـواك
ودعــوتِ: يـاثــاراتِه! فـمــحــمــدٌ
بـــالـــســـيف أولُ ســـامع لـــبَّـــاك

(*) هو محمد بن هشام بن عبدالجبار المهدي الذي ثار على عبدالرحمن بن المنصور العامري الملقب بشنجول في أول إمارته وفي أثناء غيابه عن قرطبة في أولى غزواته ضد إسبانيا المسيحية، وذلك في جمادي الثانية سنة ٣٩٩ (فبراير سنة ١٠٠٩)، معلناً نفسه خليفة للمسلمين، على أنه لم يلبث قليلاً حتى ثار عليه سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين وقد انضم إليه البربر، والتقى المهدي والمستعين في معركة «قنتيش» التي انتصر فيها سلميان وقواته البربرية (١٣ من ربيع الأول سنة ٥/٤٠٠ نوفمبر سنة ١٠٠٩)، وهرب المهدي إلى طليطلة حيث جمع له قائده واضح قوات جديدة، ثم التقى بسليمان مرة أخرى في «عقبة البقر» (٥ شوال سنة ٢٢/٤٠٠ مايو سنة ١٠١٠) وانتصرت قوات البربر المناصرة لسليمان المستعين مرة ثانية، إلا أن سليمان – وكان يظن الهزيمة قد لحقت به لاذ بالفرار وهكذا دخل المهدي قرطبة وأعلنت خلافته للمرة الثانية، غير أن دولته الثانية لم تطل إذ أن قائده واضحاً غدربه فدبر مؤامرة لاغتياله، فقتل في ٨ من ذي الحجة سنة ٤٠٠ (٢٣ يوليه سنة ١٠١٠). انظر ليفي بروفنسال: تاريخ ٢٩٨/٢ – ٣١٥، ابن عذاري: البيان المغرب ٤٩/٣ – ٦٥، ٧٤ – ٩١، ٩٥ – ١٠٠، ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٠٩ – ١١٦. أما تاريخ قول هذه القصيدة فنرجح أنه في دولة المهدي الأولى.

(1) يقصد بهذا الشهيد أبا الممدوح: هشام بن عبدالجبار المهدي الذي كان عبدالملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر قد قتله حينما اتهمه بالقيام عليه في المؤامرة التي دبرها عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع لخلع الدولة العامرية وتنصيب هشام المذكور، وقد كان مصرع هشام على يد المظفر من الأسباب التي دعت ابنه محمداً إلى الثورة على عبدالرحمن شنجول بن المنصور (انظر ابن عذاري: البيان ٣٤/٣ – ٣٦، ٦١ – ٦٢، ابن الخطيب: أعمال ص ١٠٩).

الخــائضُ الــغــمــراتِ غــيــرَ مُــروَّع

بــالمــوت زاحــمــه إلى مــحــيــاك

فــأضــاءتِ الــدنــيــا لأول وهــلــة

وَصَلَ الإلـهُ ســنــاءَه بــســنــاك

مــا كــنــتِ قــابــلــةً ســواه ولم يــكن

يــومــاً يــريــد حــيــاته لــســواك

ولــكم شــجــاه مــنك في جــنح الــدجى

إعــوال مــحــزون وزفــرة بــاك

حــتى تلافى مــادهــاك بــعــزمــة

لم يــعــيــهــا الــداء الــذي أعــيــاك

في كــفه الــســيف الــمُــقَــلَّــدُ جَــدُّهُ

«بــالمــرج» إذ تــبتْ يــدُ «الــضــحــاك»[1]

وســعى فــأدرك بــعــد ثــأرك ثــأره

من كــل ممــتــنــع من الإدراك

وأبــاح كل[2] حــمى لــكل مــضــلل

غــاو أبــاح حــمى الــهــدى وحــمــاك

فــشــفى نــفــوس المــســلــمين ونــفــسه

لمــا ســقى الــدنــيــا دمــاء عــداك

بــشــهــيــد آل الــله والــمَــلِكِ الــذي

لا كُفْءَ من دمه الــكــريم الــزاكي

لَــبِــسَتْ عــلــيه الأرض ثــوبَ حــدادهــا

وبــدت نجــومُ الــلــيل وَهْيَ بَــواك

---

(١) يشير ابن دراج هنا إلى انتصار مروان بن الحكم على الضحاك بن قيس الفهري في موقعة مرج راهط سنة ٦٥هـ. وبذلك انتقلت الخلافة الأموية من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني الذي انتمى إليه أيضاً الأمراء الأمويون في الأندلس.

(٢) في الأصل «لكل»، وقد كتب أمامها على الحاشية بخط مغاير ملاحظة نصها: «اللام زائدة. الوزن»، وهي ملاحظة صائبة، إذ بوجود اللام يختل الوزن والمعنى، وقد أصلحنا الأصل على هذا الأساس.

فـحـوى الخلافـةَ والـسـنـاءُ ولـيُّهُ
رَغـمـاً لـكل مـعـانـد أفَّـاك
حُـكْـمـاً من الحَـكَمِ الـعـلي لـطـالب
أبـداً دمَ الخـلـفـاء والأمـلاك
حـتى تـنـجـز مـوعـدَ الـلـه الـذي
لم تـخْفَ فـيه مـواعـدُ الإيـشـاك
يـا لابـسـاً لـعـدوه وولـيـه
بـطشَ الأسـود وعـفـةَ الـنُّـسـاك
مـا أبـهج الـدنـيـا لـديك بـعـزة الـ
ـدين الحـنـيف وذلـة الإشـراك
إنْ غصَّ يـومُ الـقـوطِ مـنك بـرُسْـلـهم
فـغـداً بـيـوم الـروم والأتـراك
سـمـعـوا بـدعـوتِكَ الـتي نـادتْـهُمُ
أوطـانُـهُم مـنـهـا: تَـرَاكِ! تـراك!
فـالـروعُ مـنـقـطع إلـيـهم واصل
لـيلَ الـبـيـات لـهم بـيـوم عِـراك
بمـثـال طـعنٍ في الـكُـلـى مُـتـتـابع
وخـيـالِ ضـرْبٍ في الـرقـاب دِراك
فـتَـيَـمَّـمُـوكَ ومِنْ أَشَكِّ سلاحـهم
سِـيـمَى الخُـضـوعِ وبِـزَّةُ الـهُلاَّك
مُـتـعـوذين من الـفـنـاء بـصَـفْـحَـتَيْ
سـيف لمـثل دمـائِـهم سـفَّـاك
فـكـأنمـا خـاضت إلـيكَ وجُـوهـهم
نـاراً تـضـرَّمُ في غـضـاء أَراك
حـتى اجـتـلـوا قـمـرَ الخلافـة حـوله
أمـثـال زهـر كـواكب الأفلاك

فـــاغــلِبْ ولا تـــزلِ الـخـلافـــةُ والـــهــدى
من ســـعـــد جَـــدِّكَ في سلاحٍ شـــاك
واشـــرب بـأكـــواس الــســـرور وسَــقِّــهَـا
رِفْـــهـــاً مـــدى الأيـــام هـــاتِ وهـــاك
وأنـــا الــشـــريـــدُ وظلُّ عـــزك مـــوئـــلـي
وأنـــا الأســـيـــرُ وفي يـــديك فَـــكـــاكي
أدبٌ أضـــاءَ المـــشـــرقـــين وتحـــته
حـظ يـــــئـن إلـــــيك أنَّــــةَ شــــاك

****

(٢٦)

وقال في سليمان المستعين بالله أمير المؤمنين(*) رحمهم الله تعالى[1].

[من الطويل]

هـنـيـئـاً لـهـذا الـدهـر[2] رَوْحٌ وريـحـانُ
ولــلــدين والــدنــيــا أمــان وإيمــانُ

(*) هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر، الملقب بالمستعين، ولد سنة ٣٤٨هـ. / ٩٥٩م. وهو الثائر على محمد بن هشام بن عبدالجبار المهدي في شوال سنة ٣٩٩ (يونيه سنة ١٠٠٩)، وكان المهدي وأهل قرطبة قد أمعنوا في الإساءة إلى البربر، فانحاز هؤلاء إلى سليمان وطلبوا من شانجه بن غرسية صاحب قشتالة عونه فأمدهم، وساروا إلى قلعة رباح **Calatrava** حيث بايعه أهلها ثم دخلوا وادي الحجارة وساروا إلى وادي شرنبة **Rio Jarama** وجمع لهم واضح قائد المهدي أهل الثغور فالتقى الجمعان قرب قلعة عبدالسلام التي تسمى الآن **Alcala de Henares** ودارت موقعة هناك في أواخر ذي الحجة سنة ٤٠٠ (أغسطس ١٠٠٩) وكان لسليمان والبربر الظفر فيها، ثم توجهوا إلى قرطبة فاشتبكوا بقربها مع جيوش المهدي في وقعة «قنتيش» في ٥ نوفمبر من هذه السنة، وأعقب ذلك إعلان سليمان نفسه خليفة في قرطبة للمرة الأولى في ١٧ ربيع الأول سنة ٤٠٠ (٨ نوفمبر سنة ١٠٠٩) بعد فرار المهدي منها بيوم واحد، على أن المهدي ظل يترقب الفرص للعودة، فجمع له واضح من أهل طليطلة والثغور جيشاً انضم إليه نصارى الإفرنج (من أتباع قومس برشلونة)، فسار إليهم البربر والتقى الجمعان في عقبة البقر **El Vacar** حيث انهزم المهدي ومن معه من الإفرنج في شوال سنة ٤٠٠ (مايو سنة ١٠١٠)، إلا أن سليمان الذي ظن في أول المعركة أن الدائرة دارت على البربر كان قد لاذ بالفرار، وهكذا دخل المهدي قرطبة وأعلن خلافته للمرة الثانية، ولكن واضحاً لم يلبث أن دبر مؤامرة انتهت باغتياله في ٨ من ذي الحجة سنة ٤٠٠ (٢٣ يولية ١٠١٠)، وأعلنت خلافة هشام بن الحكم المؤيد، ثم عاد سليمان بفضل أشياعه من البربر فدخلها في ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ (٩ مايو ١٠١٣) فخلع هشاماً وأعلن خلافته مرة ثانية، وظل حتى ثار عليه قائده علي بن حمود الذي فتح قرطبة في ٢٢ من محرم سنة ٤٠٧ (١ يوليه ١٠١٦)، وقتل الحمودي سليمان وأخاه وأباه (انظر ليفي بروفنسال: تاريخ ٢/٣٠٤ – ٣٢٦، ابن عذاري: البيان ٣/٨٣ – ١١٩ ابن الخطيب: أعمال ١١٣ – ١٢٨، ابن بسام: الذخيرة ق ١ – ١/٣٥ – ٤٨.

(١) أورد لسان الدين بن الخطيب هذه القصيدة كاملة في «أعمال الأعلام» (بتحقيق ليفي بروفنسال – ط. بيروت سنة ١٩٥٦) ص ١٢٣ – ١٢٥ مع اختلافات سننبه عليها في موضعها. كذلك اختار ابن بسام الشنتريني في «الذخيرة» منها ثمانية عشر بيتاً (القسم الأول – ١/٧٠ – ٧١)، وقد اختار منها ابن فضل الله العمري أيضاً ستة أبيات (مسالك الأبصار – مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٥٥٩ – ١١/٢٠١ – ٢٠٢).

(٢) «الأعمال» و«الذخيرة»: الملك.

بـأن[1] قـعـيـد الـشـرك[2] قـد ثُلَّ عـرشُه
وأن[3] أمـيـر المـؤمـنـين سـلـيـمـانُ
سَـمِيٌّ الـذي انـقـاد الأنـامُ لأمـره
فـلـم يـعـصه في الأرض إنس ولا جـان
وبـاني الـعلا لـلـمـجـد غـاد ورائح
وحـلفُ الـتقى في الله[4] راض وغـضـبان
بـه رُدَّ في جـو الخلافـة نـورُهـا
وقـد أظـلـمت مـنـهـا قـصـور وأوطـان
وأنـقـذ دين الـلـه من قـبـضـة الـعـدى
وقـد قـاده لـلـشـرك[5] ذل وإذعـان
وقـام فـقـامت لـلـمـعـالي مـعـالم
ولـلـخـيـر أسـواق ولـلـعـدل مـيـزان
وجـدد لـلإسلام ثـوب[6] خلافـة
عـلـيـهـا من الـرحـمن نـور وبـرهـان
وأكَّـدهـا عـهـد لأكـرم من وفى
بـعـهـد، زكت فـيه[7] عـهـود وإيمـان
به شُـدَّ أَزْرُ الـمُـلْكِ وابـتـهج الـهدى[8]
وفـاض عـلى الإسلام[9] حـسن وإحـسان
فـتًى نـكـصت عـنه الـعـيـونُ مـهـابـةً
فـلـيـس له إلا الـرغـائـبَ أقـرانُ

(١) «الأعمال» و«الذخيرة»: فإن.
(٢) «أ ع» و«ذخ»: الخزي، أما «قعيد الشرك» فيقصد به الشاعر محمد بن هشام المهدي.
(٣) «أ ع» و«ذخ»: وإن.
(٤) «أ ع»: لله.
(٥) «أ ع»: للشر.
(٦) «ذخ»: سور.
(٧) «أ ع»: منه.
(٨) «أ ع»: «به شد أزر العدل والعلم والهدى».
(٩) «أ ع»: الأيام.

يـــهـــون عـــلـــيه يـــوم يُـــروي ســـيـــوفَه
دمـــاً أن يـــوافـــيه الـــدجى وَهْـــوَ ظـــمـــآن
سَـمِيٌّ[1] الـنـبيِّ المـصـطـفى وابنُ عـمه
ووارث مـــا شـــادت قـــريش وعـــدنـــان
ومـا ساقت الـشـورى وأوجـبت[2] الـتـقى
وأورث ذو الـــنـــورين عـــمك عـــثـــمـــان
ومـا حـاكـمت[3] فـيه الـسـيـوف وحـازه
إلـــيك أبـــو الأملاك جـــدك مـــروان
مـــواريث أملاك وتـــوكـــيـــد بـــيـــعـــة
جـــديـــر بـــهـــا فـــتح قـــريب ورضـــوان
ودوحـــة مـــجـــد في الـــســـمـــاء كـــأنمـــا[4]
كـــواكـــبـــهـــا مـــنـــهـــا فـــروع وأغـــصـــان
لـئن عـظـمت شـأنـاً لـقـد عـز نـصـرهـا
بـــكـــرَّاتِ فـــرســـان لأقـــدارهـــا شـــان
قـــبـــائل من أبـــنـــاء عـــاد وجُـــرْهُـمٍ[5]
لـهم صـفـو مـا تـنـمـيه عـاد وقـحـطـان
بَـنُـو دُول الـمُـلْكِ الـذي سـلـفت به
لآبـــائـــهم فـــيـــهـــا قـــرون وأزمـــان
هُمُ[6] عـرفـوا مـثـواك في هـبـوة الـردى
وقـد راب مـــعـــهـــود وأنـــكـــر عـــرفـــان
ولـلـمـوت في نـفس الـشـجـاع تـخـيل
ولـلـذعـر في عـين[7] الـمُـخـاطـر ألـوان

(١) «ذخ» قريب، وقد ذكر محققو الذخيرة أنها جاءت في بعض مخطوطاتها «سمّي» كما هي في الديوان.
(٢) «ذخ»: وأوجبه.
(٣) «ذخ»: حكمت.
(٤) «أع»: كأنها.
(٥) «أع»: وجوههم.
(٦) «أع»: فهم.

فأعطوك واستعطوك في السلم والوغى[1]
مـواثـيق: لـو خـانـتك نـفسك مـا خـانـوا
كـأن الـسـمـاءَ بـدرَهـا ونجـومَـهـا
سُراك[2] وقـد حـفـوك: شـيب وشـبـان
وقـد لمـعت حـولـيك مـنـهم أسـنـة[3]
تُـخـيلُ أن الحَـزْنَ والـسـهلَ نـيـران
أسـودُ هِـيـاجٍ مـا تـزال تـراهمُ
تـطيـر بـهم نـحـو[4] الـكريـهـةِ عِـقبان
وأقـمـار حـرب طـالـعـاتٌ كـأنمـا
عـمـائـمـهم في مـوقف الـروع تـيـجـان
دلـفتَ بـهم لـلـفـتح[5] تحت عَـجـاجـة
كـأن مُـثـيـرَيْـهـا عـليٌّ وهـمـدان[6]
ويـومَ اقـتـحـام الحـفـر أيـقـنت أنـهم
يـريـدون فـيه أن تَـعـِزَّ ولـو هـانـوا
بـكل[7] زِنـاتِيٍّ كـأن حـسـامَه
وهـامـةَ من لاقـاه نـارٌ وقُـربـان
وأبـيضَ صِـنـهـاجٍ كـأن سـنـانه
شـهـاب إذا أهـوى لـقِـرْنٍ وشـيـطـان
وقـد[8] عـلـمـوا يـا مـسـتـعـينُ بـأنـهم
لـربـهمُ لمـا أعـانـوك أعـوان

---

(١) «أع» في حومة الوغى.
(٢) «أع» سداك.
(٣) «مس»: وقد بلغت حوليك ثم أسنة.
(٤) «أع»: يوم.
(٥) «أع»: للحرب.
(٦) يشير ابن دراج هنا إلى الأبيات التي تنسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث يقول:
ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا   نواصيها حمر النحور دوامي
وأعرض نقع في السماء كأنه   عجاجة دجن ملبس بقتام
تيممت همدان الذين همُ همُ   إذا ناب دهر جنتي وسهامي
(انظر ابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده – ط. القاهرة سنة ١٩٣٤، ١/ ٣٤).
(٧) «ذخ»: وكل.
(٨) «أع»: لقد.

ولولاك والبيض التي نهدوا[1] بها
لمَا قام للإسلام في الأرض سلطان
ولاستبدلت قرع النواقيس بالضحى
منارٌ وقامت في المحاريب صُلبان
وهم سمعوا داعيك لما دعوتهم
وهم أبصروا والناس صم وعميان
تصاويرَ ناس مهطعين لصورة
يكلمهم منها سفيه ومَيَّان
فلله عزم رد في الحق روحَه
وأودى به في الأرض زور وبهتان
وقلتَ[2] لَعاً للعاثرين كأنه
نشور لقوم حان منهم وقد حانوا
وأصبح أهل الحق في دار حقهم
ونحن لهم في الله أهل وإخوان
فحمداً[3] لمن رد النفوس فأصبحت
لهم كالذي كنا وهم كالذي كانوا
وأُنِّسَ[4] شمل بالتفرق موحشٌ
وحن خليط بالصبابة حنَّان
ورُدَّ جِماحُ الغي[5] من غرب شأوه
وبُرِّدَ قلب بالحفيظة حرَّان
وقد أَمِنَ التثريبَ إخوةُ يوسف
وأدركهم لله عفو وغفران
وأعقب طولُ الحرب أبناءَ «قَيْلَة»[6]
زكاة وَرُحْماً فيه أمن وإيمان

---

(١) «أ ع»: مهدوا.
(٢) في الأصل «وقل» والصواب ما أثبتنا، وهكذا جاءت في «الذخيرة» وفي «الأعمال».
(٣) «أ ع»: محمد من.
(٤) «أ ع»: وآنس.
(٥) في الأصل «جماع الغل» وقد اتبعنا قراءة «الأعمال».

وحنت لداعي الصلح بكر وتغلب
وشفَّعتِ الأرحامَ عبس وذبيان
وفازت قداحُ المشتري بسعودها
وسالمَ بَهْرَامُ وأعْتَبَ كِيوان
وعُرِّفَ معروف وأُنكر منكر
وطار مع العنقاء ظلم وعدوان
وأُغمِدَ سيف البغي عنا[1] وعُطلتْ
قيود وأغلال وسجن وسجَّان
وما كان منا الحيُّ في ثوب ذله
بأنهضَ ممن ضم قبر وأكفان
وَمُنَّ على المستضعفين وأُنجزتْ
مواعيدُ تمكين وآذنَ إمكان
بِيُمْنِ الإمام الظافر الغافر الذي
صفا منه للإسلام سر وإعلان
مُجَرِّدُ سيف الإنتقام لمن عنا
فمال[2] به في الدين زيغ وإدهان
فَمَنْ سَرَّهُ المحيا فسمعٌ وطاعةٌ
ومن يحسُدِ الموتى فكفر وعصيان

****

(١) هذه الكلمة ناقصة في الأصل، وقد استكملناها نقلاً عن «الأعمال».

(٢٧)

وله فيه رحمهما الله في عيد أضحى سنة ثلاث وأربعمائة[١].

[من الكامل]

شــهــدت لك الأعــيــاد[٢] أنك عــيــدُهــا
بك[٣] حن مـوحـشـهـا وآب بـعـيـدُهـا

وأضـاء مـظـلـمـهـا وأفْـرَخَ روعُــهـا
وأطـاع عـاصـيـهـا ولان شـديـدهـا

وصـفت لـنـا[٤] الـدنـيـا فشب كبيـرهـا
في إثــر مـا قــد كـان شـاب ولـيـدهـا

مـا كـان أجـمـد قـبل يـومك[٥] بـحـرهـا
فـالآن فُـجِّـرَ بـالـنـدى جـلـمـودهـا

والـريح للإقـبـال تـزجي لـلـمـنى
دِيَـمـاً تـدفَقُ بـالـحـيـاة مُـدودهـا

ولـقـد تَـغِـيمُ ومـا لـنـا من ودقـهـا
إلا خـواطفُ بـرقـهـا ورُعـودهـا

وارتـاح بـيـتك في أبـاطح مـكـة
لمـعـاد أيـام دنـا مـوعـودهـا

---

(١) أورد ابن بسام أربعة وثلاثين بيتاً من هذه القصيدة (الذخيرة ق ١ - ١/٦٧ - ٧٠)، وقد ذكر بين يديها - نقلاً عن ابن حيان - أن ابن دراج أنشد سليمان ابن الحكم المستعين هذه القصيدة في أول مجلس كان له بالقصر بعد توليه الخلافة وإذا كنا نعلم أن سليمان المستعين ولي الخلافة في دولته الثانية في شوال سنة ٤٠٣ (مايو سنة ١٠١٣) فإن تاريخ إنشاد هذه القصيدة يكون قد تم بعد ذلك بنحو شهر ونصف شهر (في ذي الحجة - يونيه من هذه السنة).

(٢) «ذخ»: الأيام.

(٣) «ذخ»: لك.

(٤) «ذخ»: بك.

لمواكب صهلت إليك خيولها
وكتائب خفقت عليك بنودها
شغفاً بدعوتك[1] التي قد طالما
عمرت تهائمها بها ونجودها
وأَهَلَّ مُحْرِمُها ولبى ركبها
وتلاحقت حُجَّابُها ووفودها
فالآن أنجز موعدُ الدنيا لنا
ولها وأخلف رَوْعُها ووعيدها
حين استقل بك السرير وفوقه
بأس الخلائف منجبيك وجودُها
وبهاؤها وسناؤها ووفاؤها
وصفوفها وسيوفها وجنودها
وتلبست منك الخلافة تاجها
وتلألأت لبَّاتُها وعقودها
أَعْظِمْ بها نِعَماً وفيْتَ بشكرها
فوليُّ عهد المسلمين مَزيدها
تاليكَ تحتاز المدى فيحوزهُ[2]
وتؤودُ شاهقةَ الربا فيؤودُها
إن تزرعِ المعروفَ فهْوَ غمامة
أو تبدأ النعماءَ فهْوَ مُعيدها
تستفتحُ السراءَ وهْوَ يُسيرُها
وتُشيِّدُ العلياءَ وهْوَ يَشيدُها
وإذا ازدهتك من المحامد زهرة
في روضةٍ غناءَ فهْوَ يَرُودُها

(١) هذه الكلمة غير واضحة في الأصل، وقد أثبتنا ما جاء في الذخيرة، على أن ما بقي في أصل الديوان من حروفها يحتمل أن تكون «دولتك».
(٢) في الأصل: فيجوزه.

وإذا تــقــحــمت الــعــداة مـــوارداً
فـلـنـِعْمَ طـعَّـانُ الـكـمـاة يـذودهـا
فَـطَـرَتْهُ من قـطب الـنـجـوم ولادةٌ
وَكَـلَتْ إلـيه الخـيلَ فـهْـوَ يـقـودهـا
واخـتـصه بـدر الـسـمـاء بـنـسـبـة
حـكـمت علـي الـسـادات أنْ سـيسُـودُهـا
وسـرَتْ إلـيه من يـديك شـمـائل
أغـرتـه بـالآفـاق فـهْـوَ يـحُـودهـا
وكـسـوتَهُ ثـوبَيْ وغًى وريـاسـةٍ
زُهـِيَتْ عـلـيه سـيـوفُـهـا وبُـرودهـا
أيـامَ أزهـرَتِ الـبلادُ كـواكـبـاً
بـقـبـاب جـنـدك والـرجـاءُ عـبـيـدهـا
حِـجَـجـاً ثلاثـاً مـا تـأنَّسَ حَـضْـرُهـا
شـوقـاً إلـيك ولا تـوحش بـيـدهـا
وسُـرادقُ الـنـصـر الـعـزيـز عـلـيـكـمـا
مـرفـوعُ أروقـةِ الـهـدى مَـمـدودُهـا
حـتى ارتـقـيت من المـنـابـر رتـبـة
عـزت بـهـا غُـرُّ الـرجـال وصـيـدهـا
في قـبـة الـمُـلْكِ الـذي «صـنـهـاجـةٌ»
و«زِنـاتـةٌ» أطـنـابُـهـا وعَـمُـودهـا
وسَـراتُـهـا ودُعـاتـهـا ورُعـاتـهـا
وبُـنـاتـهـا وحُـمـاتـهـا وأسُـودهـا
هـم نُـوَّروُا لك لـيلَ كل مُـضـلـة
سُـمْـراً وبِـيـضـاً مـا تجف غُـمـودهـا
نـور لمن والاكَ فـهْيَ وقـيـدُه
أو نـارُ من عـاداك فـهْـوَ وَقُـودهـا

أذهــلــتــهــا بــعلاك عــمــا أورثت

من مــلــكــهــا آبــاؤُهــا وجُــدودهــا

وتــعــوضت بــذَراك من أوطــانــهــا

أمــنــيَّــةً حَــسْبُ الــنــفــوس وُجــودهــا

صــدَقــتكَ أيــامَ الــنــزال[1] ســيــوفُــهــا

ضــربــاً وفي يــوم الــنــفــار عــهــودهــا

في[2] ســاعــة مــقــطــوعــة أرحــامــهــا

لا الــبِــرُّ[3] شــاهــدُهــا ولا مــشــهــودهــا

يــومٌ[4] أُذِلَّ كــرامُه لِــلــئــامِه

وســطت بــأحــرار المــلــوك عــبــيــدهــا

وتــواكــلــت أبــطــالُــهــا في كــربــة

أعــيت[5] بــهــا ســاداتُــهــا ومَــســودهــا

لا يــهــتــدي سَــمْتَ الــنــجــاة دلــيــلُــهــا

دَهَــشــاً ولا وجهَ الــســداد ســديــدهــا

حــتى طــلــعتَ لــهم بــأســعــد غُــرة

طــلــعتْ عــلــيــهم في الــســمــاء سُــعــودهــا

فــتــنــســمــوا نــفَسَ الــحــيــاة لأنــفس

قــد حــان من حــوض الــحِــمــام ورُودهــا

وتــبــين الــغَيَّ الــمُــبــيــرَ غــويُّــهــا

وارتــاح لــلــرشــد المــبــين رشــيــدهــا

وتــبــادروا يمــنــى يــديكَ بــبــيــعــة

يــبــلى الــزمــانُ ويــســتــجــد جــديــدهــا

---

(١) «ذخ»: النوال ولا معنى لها.

(٢) «ذخ»: يا.

(٣) «ذخ»: الستر.

(٤) «ذخ»: يوماً.

يــدُ ربـــهم فـــيـــهـــا عـــلـى أيــديـــهمُ
والـكـاتـبـونَ الـحـافـظـون شـُـهـودهـا
أوفَـوْا بــهـا فـوفتْ بـأُلـفَـةِ شـمـلـهم
في دولـــةٍ مُـــســتــقــبَلٍ تـــأيـــيـــدهـــا
ضـمـنت لــهم ألا تُــسلَّ سـيـوفُــهـا
في مـعـرك حـتـى تُـسلَّ حُـقـودهـا
وسـقـتـهمُ بـكـئـوس عـطف أخـمـدَتْ
مــنــهم ذُحــولاً لا يُــرام خُــمــودهـا
فَـبِـسَـلْـمِـهـا أصـفى الـسلامَ أبـيُّـهـا
وبـأمـنـهـا أَلِفَ الـعـيـونَ هُـجـودهـا
وتـصـافـحـوا بـعـد الـسـيـوف بـأوجه
مُـتـقـارضٍ مَـودودُهـا وَوَدودهـا
هي دعـوة بـسـيـوفـهم تـثـبـيـتُـهـا
في بـيـعـة أيمـانُـهم تـوكـيـدهـا
ومـعـالمُ لـشـريـعـة بـجـهـادهم
وجـيـادُهم وجلادهم تـوطـيـدهـا
أنْ جـاهـدوا في الـلـه حق جـهـاده
وعـلى الـنـفـوس لـربـهـا مـجـهـودهـا
لـيـزيـد عـزاً بـالـجـهـاد عـزيـزهـا
ويـزيـد سـعـداً بـالـيـقـين سـعـيـدهـا
حـلـفـوا بـربـهمُ لـعَـقـد خلافـة
أوصـاهمُ ألا تُـحَلَّ عُـقـودهـا
وبـهـا اسـتـقـاد لـهم مـلـوكَ عُـداتـهم
وعـنـا لـهم جـبـارهـا وعـنـيـدهـا[1]

(١) في الأصل: وعتيدها، ولعل ما أثبتناه أفضل.

واستودعوا جَنْبَيْ[١] «شَرَنْبَة» وقعةً
هد الجبال الراسيات وئيدُها[٢]
دلفوا إلى شهباء حان حصادها
بظُبىً[٣] رئوس الدارعين حصيدها
وشعاب قنتيشٍ[٤] وقد حَشرت لهم
أُممٌ بغاةٌ لا يُكَتُّ[٥] عديدها
فكأنما مَرِضَت قلوبهُمُ لهم
غِلاً فجاءوا بالرماح تعودها
تركوا بها ظهر الصعيد وقد غدا
بطناً وأجسادُ الغُواة صعيدها
وكتائبُ الإفرنج إذ كادتك في
أشياعها والله عنك يكيدها[٦]
بسوابح في لج بحر سوابغ
فاضت على الأرض الفضاء مُدودها
ولقد أضافوا نسرَها وغُرابَها
وقراهُما[٧] طاغوتُها وعميدها
شِلْوٌ لأرْمنقودِها[٨] حُشِرت[٩] به
للزحف ثم إلى الجحيم حُشودها

(١) «ذخ»: جيء، وشرنبة هو النهير الذي يسمى الآن **Rio Jarama** وهو فرع من نهر تاجه **El Tajo**.
(٢) «ذخ»: رعودها.
(٣) «ذخ»: وطلى.
(٤) قنتيش هو المكان الذي دارت فيه المعركة الشديدة التي تحمل هذا الاسم بين سليمان بن الحكم المستعين في دولته الأولى ومن معه من جيوش البربر ومحمد المهدي وحلفائه من الإفرنج في ١٣ من ربيع الأول سنة ٤٠٠ (٥ نوفمبر سنة ١٠٠٩م) انظر عن هذه الموقعة ما نقله ابن بسام عن ابن حيان في الذخيرة ق ١ - ٤٣/١ - ٤٤، وليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية ٣١٠/٢ وما بعدها.
(٥) «ذخ»: يكف، والصواب ما أثبتنا، ويكت أي يعد أو يحصى.
(٦) «ذخ»: يعيدها.
(٧) «ذخ»: وقوامها.
(٨) يعني بأرمنقود القومس قائد خيل الإفرنج وحليف محمد المهدي خصم سليمان الحكم وهو أخو رامون بريل **Ramon Borrell** قومس برشلونة، وتسميه المراجع الإسبانية **Ermengaud** أو **Armengol**، وقد قتل في موقعة عقبة البقر، وقد تسميه المراجع العربية أيضاً «أرمقند» (انظر ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب ٩٥/٣).
(٩) «ذخ»: حشدت.

ودنت[1] لـــهـــا في «آرُ»[2] تحت صـــوارم

وَرِيَتْ بـــعـــز المـســلــمـــين زنُـــودهـــا

من بـعـد مـا قـصـفوا الـرماح وأصلـتـوا

بـيـضـاً يُـشـيع[3] حـدهـا تـوحـيـدهـا

فـكـأنمـا رُفـعت لـهـا صُلـبـانُـهـا

في ظل هـبـوتـهـا فـحـان سـجـودهـا

وبـــجـــانب الـــغـــربي إذ أقـدمـــتَـــهـــا

شـعـثـاء بـشر بـالـفـتـوح شـهـيـدهـا[4]

ضـربـوا عـلـى الأخـدود هـام حُـمـاته

حـتى عـبـرتَ[5] وجـسـرهن خـدودهـا

في وقـعـة قـامت بـعـذر سـيـوفـهـم

لـــو ذاب من حـــر الجلاد حـــديـــدهـــا

ويـضـيق فـيـهـا الـعـذر عن خـطـيـة

ســمـــراء لم يـــورق بـــكـــفك عـــودهـــا

فـبـهـا رأيـنـا الـعـز حـيث تـوده[6]

وسـوابغ الـنـعـمـاء حـيث تـريـدهـا

إلا كـــــرائمَ من كـــــرائـــــمك الـــــتي

بك كُـرمت أخـطـارهـا وجـدودهـا

ذُعِـرَتْ بـحـكم الجـاهـلـيـة أن تـرى

قَـدْ دُسَّ في تُـرْبِ الـثـرى مـوؤودهـا

---

(١) «ذخ»: ودنوا.

(٢) يعني «وادي آر» (بالإسبانية الآن **Guadiaro**) وفيه وقعت معركة أخرى بين سليمان المستعين ومحمد المهدي في ٦ من ذي القعدة سنة ٤٠٠ (٢١ يونية سنة ١٠١٠). انظر ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية ٢/٣١٣ – ٣١٤.

(٣) «ذخ»: يشايع.

(٤) ورد هذا البيت في الذخيرة هكذا: وبجانب إذ قدمتها...... شعثاً يبشر بالفتوح شهيدها.

(٥) «ذخ»: عبرن.

(٦) «ذخ»: فيها رأيت العز حيث تريده.

أنْ مَــلَّــكَتْ من في يـــديه ممـــاتُـــهـــا

ونـــأت عــلـى من في يــديه خــلـــودهـــا

فــاقــبلْ فــقــد ســاقتْ إلــيكَ مُــهــورهــا

أكــفـــاءُ حـــمــد لا يُـــذم حـــمـــيــدهـــا

بِـدْعـاً من الـنـظم الـنـفـيس تـشـاكـهت[1]

فــيـــهـــا الـجـــواهـــر درهـــا وفـــريــدهـــا

وَلْـــتَـــهْـــنِـــنَـــا[2] أيـــامُ عـــز كـــلُّـــهـــا

عـــيـــد وأنت لمن أطـــاعك عـــيـــدهـــا

ولـــقـــد يـــحـــولُ عـــلـى ولــيِّكَ حَـــوْلُـــهـــا

في مُـشْـفِقِ الأهــلــينَ وهْــوَ فــقــيــدُهــا

إن يــطْــرُقِ الأوطـــانَ فـــهْـــوَ أسِـــيــرُهـــا

أو يُـشـعـــرِ الأعــداءَ فـــهـــو طـــريـــدهـــا

لا حـــرمـــةُ الـــرحـــمن نـــاهـــيـــة ولا

مـــعـــلـــومُ أيـــام ولا مـــعـــدودهـــا

عن مُـــســـلـم ضَـــحَّى به غَـــاوٍ وعن

نـــفسٍ حـــرامٍ والـــعُـــداة تـــصـــيـــدهـــا

قـــد عـــانـــدوا الـــرحـــمن في حـــرمـــاته

أنْ تُـــعـــتَـــدَى في المـسـلـمـين حـــدودهـــا

بـــيض الـــســيـــوف عـــليٍّ فـــيك حـــدادهـــا

مـــتـــوقـــدُ الأكـــبـــاد نـــحـــويَ ســـودهـــا

هـــذا جـــنـــايَ وغـــارة مـــشـــهـــودة

عــدلت بــحب «المـسـتـعـين» شـــهـــودهـــا

وكـــفـــاك من نـــفـس كَـــفَـــيْتَ رجـــاءَهـــا

ذخـــراً فـــهـــان طـــريـــفـــهـــا وتـــلـــيـــدهـــا

---

(١) «ذخ»: تشابهت.

(٢) «ذخ»: وليهنها.

كـــانت وحـــيـــدة دهـــرهـــا من نـــكـــبـــة
مـــنـــكـــوبُـــهـــا فـــذ الـــدهـــور وحـــيـــدهـــا
ولـــئن أجـــدَّ لـيَ الحـــســـودُ نـــفـــاســـة
أن قـــد دعـــاك لـــنـــعـــمـــة تجـــديـــدهـــا
فـــأنـــا الـــذي لم تـــغض عـــين الـــدهـــر عن
نُـــعْـــمَى ولا نُـــقـــمى يـــنـــام حـــســـودهـــا
ولـــذاك في عـــنـــقي مـــوثق غُـــلِّـــهَـــا
بـــاق وفي الـــقـــدمـــين بـــعـــدُ قـــيـــودهـــا

****

(٢٨)

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى:

[من الطويل]

تخيرتَ فاستمسكتَ بالعروة والوثقى
فبُشْراك أن تفنى عداك وأن تبقى
فما أبطل الرحمنُ باطلَ من بغى
على الحق إلا أن يُحِقَّ بك الحقا
وما لاح هذا المُلْكُ بدراً لتمِّه
بوجهك إلا أن يُبيرَ العدى محقا
وما كنت عند الله أكرم من حبا
خلافته إلا وأنت له أتقى
ليجلو عن الدنيا بك الهم والأسى
ويجمع في سلطانك الغرب والشرقا
رددت نظام المُلْكِ في عهد سلكه
وما كان إلا صوفة في يَدَيْ خرقا
وأضحكت سن الدهر من بعد مقلة
مدامعُها شوقاً إلى الحق ما تَرْقَا
وقلدتَ والي العهد[1] سيفاً إلى العدى
فسار كأن الشمس قُلِّدَتِ البرقا

---

(١) يعني به ابنه محمد بن سليمان بن الحكم، وكان المستعين قد ولاه عهده عند توليه الخلافة، فلما قتل علي بن حمود أباه سليمان هرب والتجأ إلى منذر ابن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة والثغر الأعلى طامعاً في أن ينصره لميل أبيه إليه واستحجابه إياه، فغدر به التجيبي وقتله صبراً (انظر ابن حزم: جمهرة الأنساب ص ٩٤)، وقد حدد ابن الخطيب تاريخ عقد سليمان بولاية العهد لابنه محمد هذا، إذ قال إنه كان في منتصف جُمادَى الآخرة سنة ٤٠٠ (أعمال الأعلام ص ١٢٥).

وَسِيطَيْ سماء قد جعلتَ نجومها
صفائح بيض الهند والأسلَ الزُّرْقا
بوارقَ لو لم تخطف الهام في الوغى
لَخرَّتْ جسومٌ من رواعدها صَعقا
كأن الملا منهن أحشاءُ عاشق
تُبَكيٍّ دماً عيناه من حر ما يلقى
هواديَ في ضنْك المَكَرِّ ولا هُدًى
نواطقَ بالفتح المبين ولا نُطقا
يخبرن عن إلحاح سعيك في العدى
كأن «سطيحاً» في سناهن أو «شِقًّا»[1]
ويجلون عن ليل العجاج كأنما
تُقلبُ إحداهن ناظرتَيْ «زَرْقَا»[2]
وجُرداً يُنازعن الكُماةَ أعنة
يُفَرِّ غْنَها جُهداً ويملأنها عِتْقا
تكِرُّ وِراداً من دماء عُداتها
وإن أقدمت شهباً على الطعن أو بُلقا
روائعَ يومِ الروع تعدو سوابحاً
كراماً وتمسي في دماء العدى غرقى
ضَمانٌ عليها نفس كل منازع
ولو حملته الغول أو ركب العنقا
تبارى إلى الهيجا بأُسْدٍ خفية
إذا هال وجه الموت هاموا به عشقا
وإن فزعوا نحو الصريخ فلا ونًى
وإن وردوا حوض المنايا فلا فرقا

(١) سطيح وشق كانا من المعروفين بالكهانة في الجاهلية.
(٢) يشير الى زرقاء اليمامة التي كانت معروفة بحدة البصر.

عـــبـــيـــدٌ ممـــالـــيـكُ وأمـلاكُ بـــربـــر

وكل عـظـيـم الـفـخـر قـد حـزتـه رِقـا

همُ فـئــة الإسلام إن شـــهــدوا الـــوغى

وهـم أُفُق لـــلـــمُـــلك إن نـــزلـــوا أُفْـــقـــا

عَـمَـمْـتَـهُمُ نُـعْـمى جزوك[1] بـهـا هـوىً

وأوزعـتَـهُـم حِـلْـمـاً جَـزَوك به صـدقـا

وأوريــتــهم زنـــداً يـــنـــيـــر لـــهم هـــدى

وأقـبـلـتـهم كـفـاً يـنـيـر لـــهم زرقـا

وعـزمـاً لـنـصـر الـديـن والـمُلْك منـتـضًى

ورأيـاً من الـتـوفـيق والـسـعـد مـشـتـقـا

شـــمـــائلُ إنـــعـــام شـــمـــلت به الـــورى

وأخلاقُ إكـــرام عـــمـــمت به الخـــلـــقـــا

فـجَـدُّك مـا أعـلى، وذكـرك مـا أبـقى،

وراجـيك مـا أغـنى، وشـانـيك مـا أشـقى

ويمـنـاك بـالإحـسـان حـسب من اعـتـفى

وسقـياك بـالمعروف حـسب من استـسقى

ونـــاداك عــبــد يــقــتــضــيك ودائــعــاً

وإن عـظـمت خَـطْـراً فـأنـفِسْ به عِـلْـقـا

به أَنْـسَتِ الـدنـيـا أسـاطـيـرَ من مـضى

وأتـــعـــبت الأيـــامُ أقلامَ من يـــبـــقى

إذا مـا شـجـا الأعـداءَ في قـمم الـذرى

شَـفَـاهـا بـحظ تحت أقـدامـهـا مُـلـقَى

وإن يك مـسـبـوقـاً فـيـارُبَّ سـابق

بـعـيـدالمـدى لا يـدَّعِي مَـعه سَـبْـقـا

---

(١) في الأصل: جروك.

وإن لـه في راحـــــتـــــيك وســـــائلا

تـنــاديه من جــو الــسـمــاء: ألا تــرقى؟!

فــســر في ضــمـــان الــله نــاصــر دولـــة

كأن عـمـود الـصـبح عن وجـهـهـا انـشـقـا

وحــــســــبك مَن حلاَّكَ تــــاجَ خـلافـــة

رآك لـــهـــا أهـلاً فـأعــطــاكـــهـــا حــقــا

****

(٢٩)

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى.

[من الخفيف]

بلغت عبدَك الخطوبُ مداها
يومَ تبليغك النفوس مناها
وتناهى جهد الحياة بمن لم
يسع فيما رضيت إلا تناهى
وعجيب أنْ يُفْنِيَ الظمْءُ نفساً
أبحُرُ الأرض في يدي مولاها
ملك نافست بأدنى رضاه
بشَّرَتْهُ[1] ربحاً بأقصى رضاها
بذلت كل طارف وتليد
لو شفاها من ليتها وعساها
ولقد شافهت سيوفَ عداه
لو كفاها بها شَماتَ عِداها
إن تلافيتَها فأنفسُ نفس
لك أسنى حُليِّها وحُلاها
أو فأدنى مواعدِ الموت منها
إنْ تُضِعْها عشية أو ضحاها

****

---

(١) في الأصل: فبشرته، وفي الحاشية تعليق بخط مغاير لخط الناسخ نصه، بشرته بلا فاء، وهي ملاحظة صائبة إذ إنّ وجود الفاء يؤدي إلى اختلال الوزن.

(٣٠)

وله في القاسم بن حمود بقرطبة(*) وهو وزير يسأله أن يكتب إلى أخيه علي بسبتة رحمهم الله ورضي عن سلفهم.

[من الكامل]

كم أستطيل تضللي وتلددي
وأروح في ظلم الخطوب وأغتدي
والأرض مشرقة بنوريْ ربها
والفجر منبلج لعين المهتدي
بأغرَّ من بيت النبوة والهدى
كالبدر من ولد النبي محمد
«القاسمِ» المقسومِ راحةُ كفه
في بسط معروف وقبض مهند

(*) هو القاسم بن حمود بن ميمون بن حمود الإدريسي الحسني، ولد في سنة ٣٤٨ (٩٦٠) وكان هو وأخوه علي من جملة قواد سليمان بن الحكم المستعين حينما ولي الخلافة للمرة الثانية في سنة ٤٠٣ (١٠١٣) إذ كانا من أمراء المغاربة الذين شايعوه، فنزلا بشقندة (من ضواحي قرطبة) ثم قدم سليمان علي بن حمود على سبتة، وولي القاسم على طنجة وأصيلا، على أنه يبدو أنه ظل بقرطبة، ثم انتقل منها إلى إشبيلية بعد أن جاز أخوه علي من سبتة إلى قرطبة وقتل سليمان المستعين واستأثر بالخلافة، فلما قتل علي بن حمود في أول ذي القعدة سنة ٤٠٨ (٢١ مارس سنة ١٠١٨) توجه إلى قرطبة من اشبيلية وبويع فيها بالخلافة، ثم ضعف أمره وثار عليه إبنا أخيه: يحيى بن علي القائم بسبتة، وإدريس بمالقة، وجاز يحيى البحر، فلما رأى القاسم عجزه عن مقاومته فر إلى إشبيلية في الثاني والعشرين من ربيع الثاني سنة ٤١٢ (٥ أغسطس سنة ١٠٢١)، وأعلن يحيى نفسه خليفة بقرطبة، ثم ضعف أمر يحيى فاضطر إلى الفرار، واستدعى أهل قرطبة القاسم مرة ثانية فعاد إلى قرطبة وولي الأمر للمرة الثانية حتى ثار عليه القرطبيون مرة أخرى فهرب إلى إشبيلية في الواحد والعشرين من جمادي الثانية سنة ٤١٣ (٩ سبتمبر ١٠٢٣) فمنعه أهلها من دخولها بتدبير من القاضي ابن عباد، فانصرف منها إلى شريش وتوفي بها محبوساً عند ابن أخيه إدريس بن علي سنة ٤٢٧ (١٠٣٦)، انظر ليفي بروفنسال: تاريخ ٣٢٣/٢ – ٣٣٣، ابن عذاري: البيان ١١٩/٣ – ١٣٥، ابن الخطيب: أعمال ص ١٣٠ – ١٣٥. أما تاريخ قول هذه القصيدة فينبغي أن يكون في أثناء خلافة سليمان ابن الحكم المستعين حينما كان علي بن حمود والياً له على سبتة والقاسم ما زال بقرطبة في سنة ٤٠٤ (١٠١٤)، وذلك في الوقت الذي كان يهم علي فيه بخلع طاعة سليمان والجواز إلى الأندلس (انظر ابن عذاري: البيان ١١٥/٣).

الهاشميِّ الطالبيِّ الفاطمـ
ـيِّ الوارث العليا بأعلى قُعْدُدُ
أهدى إلى الدنيا «عليٌّ» هديَه
في طي أرديةِ النُّهَى والسَّوْدَد
حتى تجلى للمكارم والعلا
بدراً تنقل في بروج الأسعُد
متقدماً من مشرق في مشرق
متنقلاً من سيد في سيد
من كل روح بالعفاف مقدسٍ
في كل جسم بالسناء مقلد
بعدوا عن الرجس الذميم وطُهروا
في منشأ للمنجبين ومولد
ولَرُبَّ موجودٍ ولما يوجَد
منهم ومفقود كأنْ لم يُفقَد
ما بشَّروا بالفوز حتى بُشروا
بأبرٍّ من خَلَفَ الجدودَ وأمجَد
لهمُ زكيٌّ صلاتنا ودعاؤُنا
في كل خُطبة منبر وتَشَهُّد
ومكانهم من قلب كل كتيبة
كمكانهم من قلب كل موحد
هم أنجبوك لسان صدق عنهمُ
فرعاً يطيب لنا بطيب المحتد
وهمُ رضوك لكل خطب فادح
واستخلفوك لكل غاو مُعتَد
ولصوتِ داع بالصريخ مُثوِّب
ولفك عان بالخطوب مقيد

مــــلك تـــشـــاكه جـــودُه وجـــوادُه
إن كــر نـــحـــو مـــبـــارز أو مُـــجـــتَـــد
أعـــيـــا عـــلـيَّ: أهـــاديـــاتُ جـــيـــادِه
في الـــروع أهـــدَى أم نـــداه في الـــنـــدي؟
لا الـــفـــارس الأقـــصى بمـــعـــجـــزه ولا
جـــــدواه لـلأدنـــــين دون الأبـــــعـــــد
سـيفُ الخلافـة في الـعـدى وأمـيـنُـهـا
دون الـغُـبـوب وزيْـنُـهـا في المشـهـد
يـبـلـي جـوانـحـهـا بـنـفس مـخـاطـر
ويـنـيـم أعـيـنـهـا بـعـين مـسـهـد
جَـهِـدَ الـكـرامُ ومـا دنـوا من غـايـة
أحـــرزتـــهـــا مـــتـــأنـــيـــاً لم تجـــهـــد
بك أُخـمـدت نـيـرانُـهـا من فـتـنـة
لـولاك يـا بن نـبـيـنـا لم تـخـمـد
من ذا سـواك إذا الـرجـال تـدافـعـوا
رأيـــاً يـــؤلـــفـــهـــا بـــرأي أوحـــد
وإذا الـــصـــوارم جُـــردت في فـــتـــنـــة
عـمـيـاءَ تُـغـمـدهـا بـسـيفٍ مُـغـمـد
ولـرب مـشـعـلـة الـرمـاح كـفـفـتـهـا
عـفـواً ومـا زعـزعتَ حَـبـوة مُـرتـد
يـا من إذا عـلـقت يـدي بـيـمـيـنه
فـالـكـاشـحـون أقل مـا مـلـكت يـدي
وإذا عـقـلـت رواحـلي بـفـنـائه
فـقـد اقـتـضـيت ضَـمـان يـومي عن غـد
وَعَـدَتْـنِيَ الـدنـيـا شـقـيـقَك مَـفـزَعـاً
من سـوء عـاديـة الـزمـان الأنـكـد

وكـفـى بـبـشـرك لي بـشـيـراً بـالمـنى

وقـبـول وجـهك مـنـجـزاً لـلـمـوعـد

يـا بن الـشـفـيع بـنـا وأكـرم أسـوة

لـلـمـقـتـدين وأنت أجـدر مـقـتـد

امـدد يمـيـنك شـافـعـاً ومـشـفـعـاً

تحـز الـثـنـاء مـخـلـداً بمـخـلـد

يـا بن الـوصيِّ عـليَّ أوص سـمـيَّه

ألا يـضـيـع سـميُّ جَـدك أحـمـد

يا صـفوة الحَـسنَـيْنِ[1] كم قد أحـسنا

إصـغـاء ود الـنـازح المـتـودد

يـا أيـهـا الـقـمـران أين سـنـاكـما

عن مـطـبق في لـيل هم أسـود؟

يـا أيـهـا الـغَـيْـثَـانِ هل لـكـمـا إلى

روض الـنـهى والـعـلم في الـترب الـصدي

يـا فـرقـديْ قـطب الخلافـة جَـهِّـزا

مُـهـدي الـسلامِ لـفـرقـد من فـرقـد

فلأجـعـلنَّ ثـنـاء مـا أولـيـتـمـا

زاداً لـكل مُـكـوِّف أو مـنـجـد

حـتى يُـسـمَّعَ طـيبَ مـا أُثـني به

قـبـرٌ بـطـيـبـة أو بـصـحن المـسـجـد

وإذا وردنـا حـوض جـدك فـاسـتـمع

وأبـوك يـسـقي لـلـرَّواء الـسـرمـد

شُـكُـرَ الـذي أرحـبـتـمـا من مـنـزلي

وثـنـاء مـا رفـهـتـمـا من مـوردي

(١) في في الأصل: الحسنبين.

في ستة ضعفوا وضُعِّفَ عدُّهم
حَملاً لمبهور الفؤاد مُبَلَّد
شد الجلاءُ رحالهم فتحملت
أفلاذ قلب بالهموم مبدَّد
وحدتْ بهم صعقاتُ روع شردتْ
أوطانهم في الأرض كل مشرد
لاذاتُ خدرهمُ يُرام لوجهها
كِنٌّ ولا ذو مهدهم بِممهد
عاذوا بلمع الآل في مد الضحى
من بعد ظل في القصور ممدد
ورضوا لباس الجود[1] ينهك منهمُ
بالبؤس أبشار النعيم الأرغد
واستوطنوا فزعاً إلى بحر الندى
أهوال بحر ذي غوارب مزبد
من كل عار بالتجمل مُكتس
ومُزوَّد بالصبر غير مزوَّد
ولَنِعمَ جبرُ الفقر من بعد الغنى
والذلِّ بعد العز آلُ محمد

****

(١) كذا في الأصل، وهي قلقة في سياق البيت، ولعل صحتها «الخوف»، وقد يرجح هذه القراءة ذكره للقرع في البيت التالي.

(٣١)

وقال يمدح علي بن حمود(*) رحمهم الله بسبتة حين قصده من الأندلس إليها سنة أربع وأربعمائة[1].

[من المتقارب]

لـــعـــلــك يـــا شـــمــسُ عـــنـــد الأصـــيلِ
شَـجـيتِ لـشـجـو الـغـريب الـذلـيلِ
فـكـوني شـفـيـعـي إلى ابن[2] الـشـفـيـع
وكـــوني رســـولي إلى ابن[3] الـــرســـول
فـــإمـــا شـــهـــدت فـــأزكَى شـــهـــيـــد
وإمـــا دلـــلـــت فـــأهـــدى دلـــيـــل
عـــلـى ســـابق في قـــيـــود الخـــطـــوب
ونجـم ســـنـــاً في غُـــثـــاء الـــســـيـــول
يـنـادي الـنـدى[4] لـسـقـام الـضـيـاع
ويـــشـــكـــو إلى الـــمُـــلْك داء الخـــمـــول

(*) هو علي بن حمود بن ميمون الإدريسي الحسني، ولد في سنة ٣٥٢/٩٦٣ وكان هو وأخوه القاسم في أيام الفتنة من زعماء الحزب البربري، وفي سنة ٤٠٠ (١٠١٠) كان جوازه إلى سبتة وانتزاؤه فيها باسم سليمان بن الحكم المستعين، وفي سنة ٤٠٣ (١٠١٣) كان هو وأخوه القاسم في جملة قواد البربر الذين دخلوا قرطبة في دولة سليمان الثانية، ثم أثبته سليمان على سبتة فظل بها حتى سنة ٤٠٥ (١٠١٥) حين جاز إلى مالقة خالعاً طاعة المستعين ومعلناً أن هشام بن الحكم المؤيد قد عهد إليه بولاية الأمر بعده وأخذ ثأره من قتلته، وتوجه إلى قرطبة فخرج إليه سليمان فهزم وقتله علي بن حمود، ثم بويع له في ٢٢ من محرم سنة ٤٠٧ (١ يولية ١٠١٦) وبقي حتى قتله بعض عبيده الصقالبة في الحمام في أول ذي العقدة سنة ٤٠٨ (٢١ مارس سنة ١٠١٨). انظر ليفي بروفنسال: تاريخ ٣٢٣/٢ – ٣٢٨ والمراجع المذكورة).

(١) أورد ابن بسام ستة وأربعين بيتاً من هذه القصيدة (انظر الذخيرة القسم الأول ٨٨/١ – ٩١)، وانظر كذلك المقري: نفح الطيب ٤٨٤/١، وابن عذاري المراكشي: البيان المغرب ١٢٤/٣، وابن الخطيب الغرناطي: الإحاطة في أخبار غرناطة (مخطوط الاسكوريال رقم ١٦٧٣) ص ٢٩١، وبتحقيق عبدالله عنان ٥٧/٤ .

(٢) في «النفح»: لابن.

(٣) في «النفح»: لابن.

(٤) «ذخ»: الثرى.

وعــز عــلـى الــعــلـم مــثــواه أرضــاً
عــلى حــكم دهــر ظــلــوم جــهــول
ويــعــجب كــيف دنــا من «عــلي»
ولم تــنــفــصم حــلــقــات الــكــبــول
وكــيف تــنــسم آل الــنــبي
وأبــطــأ عــنه شــفــاء الــغــلــيل
وأطــواد عــزهـم مــاثلات
له وهــو يــرنــو بــطــرف كــلــيل
وأبــحــرهم زاخــرات إلــيــهم
ويــرشف في الــثــمــد المــســتــحــيل
وقــد آذنــوه الــخــصــيب المــريع
ومــرتــعه في الــوخــيم الــوبــيل
تجــزأ من جــنــتــيْ مــأرب
بــخــمط وأثل وســدر قــلــيل
غــريب وكم غــرَّبتْ راحــتــا
ه في الأرض من وجه بــكــر بــتــول
مــكــرمــةٍ مــانــأت عن بلاد
ولا قــربت من شــبــيه مــثــيلِ
تــضيء لــهــا مُــظــلــماتُ الــنــفــوس
وتــروى بــهــا ظــامــئــات الــعــقــول
وتــطــلُعُ في زاهــرات الــنــجــوم
ومــطــلــعــهــا جــانح للأفــول
شــريــدُ الــســيــوف وفلُّ الحــتــوف
يــكــيــدُ بــأفلاذ قــلــب مَــهــول
تــهــاوت بــهم مــصــعــقــات الــرواعــ
ــد[1] في مــدجــنــات الــضــحى والأصــيل

(١) «ذخ»: الرعود.

بوارق ظلماءِ ظُلم تبيحُ[1]
دُمًى من حِمًى أو دماً من قتيل
فأذهل مرضعة عن رضيع
وأنسى الحمائم ذكر الهديل
وشط الصريخُ على ذي الصراخ
وفات المعوَّلُ ذات العويل
فما تهتدي العين فيها سبيلاً
سوى سَبَلِ العبرات الهُمول
ولا يعرف الموت فيها طريقاً
إلى النفس إلا بعضب صقيل
ركبتُ لها محملاً للنجاة
وصيرتُ قصدَك فيه عديلي
فَرُدَّتْ على عقبيها المنونُ
بِوَاقٍ مُجير ورأي أصيل
وقد سُمتها بنفيس التلاد
على أنفس ضائعات الذُّحول
فَهِلْتُ اليسار بيسرى جواد
وحُطتُ الذمار بيمنى بخيل
نفوساً[2] حنت قوس عطفي عليها
فكُن[3] سهامَ قِسِيِّ الخمول

(١) في الأصل: تسح، ولعل الصواب ما أثبتنا، وقد ورد هذا البيت في أصول الذخيرة شديد الاضطراب، وفي الأصل الذي اعتمده محققو الطبعة الأولى هكذا: بوارق ظلما تسح دما   من حمأ أو دما من قتيل.
ولم يغب على محققي الذخيرة (في طبعتها الأولى في جامعة القاهرة) ما في هذا البيت من اختلال، فقد ذكروا في الحاشية أنه يحتمل أن يكون: بوارق ظلمائها تستبيح   ذمام حمى أو دماً من قتيل
على أن ما أثبتناه أقرب إلى الأصل وأكثر وفاء بالمعنى، وربما يحتمل أيضاً أن يكون:
بوارق ظلماء ظلم تسح   دماً من حمى أو ذما من قتيل
ويكون المقصود بكلمة «ذما» – ذماء (بالمد) وهو بقية النفس.
(٢) «ذخ»: نفوس.
(٣) في الأصل: فكنا، والتصويب عن الذخيرة.

ومن دونـــنـــا آنـــســـات الـــديـــار
نــهـاب الحـمى مـوحـشـات الـطـلـول
يـــهـــيج فـــيـــهـــا زفـــيـــر الـــريـــاح
مـــدامع شـــجـــو الـــســـحـــاب المخـــيل
وتـــلـــطم فـــيـــهـــا أكف الـــبـــروق
خـــدود عـــراص عـــلـــيـــنـــا ثـــكـــول
تـــظـــلـم من هـــاطلات الـــغـــمـــام
وتـــشـــكـــو من الـــريح جـــر الـــذيـــول
مـــغـــاني الـــســـرور لـــبـــسن الحـــداد
عـــلـى لابـــســـات ثـــيـــاب الـــذهـــول
خـطـيـبـاتِ خـطب الـنـوى والمـهـورُ
مـهـارى عـلـيـهـا رحـال الـرحـيل
فـــمن حـــرة جُـــلـــيت بـــالجلاء
وعـــذراء نـــصت بـــنص الـــذمـــيل
ولا حـــلـــيَ إلا جُـــمـــان الـــدمـــوع
يـــســـيل[1] عـــلـى كل خـــد أســـيل
فـبـدلن من بـعـد[2] خـفض الـنـعـيم
بـــشق الحُـــزون ووعث الـــســـهـــول
ومن قـــصـــر الـــلـــيل تحت الحـــجـــال
بـــهـــول الـــسُّـــرى تحت لـــيل طـــويل
ومن عـــلـــل المـــاء تحت الـــظلال
صلاءَ الـــقـــلـــوب بـــحـــر الـــغـــلـــيل
ومن طـــيب نـــفـح بـــنـــورْ الـــريـــاض
تـــلـــظِّيَ لـــفـح بـــنـــار المـــقـــيل
ومن أنـــســـهـــا بـــين ظـــئـــر وتـــرب
ســـرى لـــيـــلـــهـــا بـــين ذيب وغـــول

(١) «ذخ»: تسيل.
(٢) «ذخ»: طول.

ومن كل مــرأى مــحــيــا جــمــيل

تــلــقي الخـطـوب بـصـبـر جـمـيل

لــعل عـــواقـــبه أن تـــتم[1]

فـيـهدى الـغـريبُ سـواء الـسـبـيل

إلى الــهــاشــمي إلى الــطــالــبي

إلى الـفـاطـمي الـعـطـوف الـوصـول

إلى ابن الــوصي إلى ابن الــنــبي

إلى ابن الــذبــيح إلى ابن الخــلــيل

إلى المــســتــجــار من المــســتــجــيــر

إلى المــســتــقــال من المــســتــقــيل

إلى المـسـتـضـاف المـلـيك الـعـزيـز

من المـسـتـضـيف الـغـريب الـذلـيل

سلام وأنت ابن بــــدء الـــســلا

م من ضــيــفه المــكــرمــين الـدخـول

غـــداة يُــضَــيِّفُ أهل الــســمــاء

إلى مـــنـــزل آلف[2] لـــلـــنــزيل

فـــرد سلام حـــلـــيم مـــنـــيب

وجــاء بــعــجل كــريم عــجــول

وأعــطــانُه مــألف لــلــضــيــوف

ومــوطن ذي عَــيْــلــة أو مُــعــيل[3]

شــرائع خــلــدهــا في الأنــا

م من كل أرض وفي كل جـــيـــل

ومـــا زال من آله حـــافظ

مــعــالمــهــا حـفظ بــر وصــول

---

(١) في البيان المغرب: تنم.

(٢) في الأصل: ألف، ولعلها كما أثبتنا، وقد تكون أيضاً: مألف.

(٣) في الأصل: مغيل، والعيلة هي كثرة العيال، والمعيل اسم فاعل من «أعال» أي افتقر.

بـــأنــفُسِ مــجــد ســراع إلـــيــهـــا
وأيــد عـــلـــيـــهـــا شـــهـــودٍ عـــدول

فـــسُـــمِّيَ جــدُّكَ «عـــمـــرَو الـــكـــرام»
بـــهـــشم الـــثـــريـــد زمـــان المحـــول[١]

و«شـيـبـةُ» سـاقي الـحـجـيـج الـكـفـيلُ
بمـــأوى الـــغـــريب وقـــوت الخـــلـــيل[٢]

وضَـــيَّفَ حـــتـى وحـــوش الـــفلاة
وأهــدى الــقــرى لــهـضـاب الـوعـول

وإن أبـــا طـــالب لـــلـــضـــيـــوف
لأطــلب من ضـيـــفه لـــلـــحـــلـــول[٣]

ولا مـــثل والـــدك المـــصـــطـــفى
لـــركب وفـــود وحي حـــلـــــول

يــبــادرهم بــابــتــنــاء الــقــبــاب
ويـــكـــرمـــهم بـــدنـــو الـــنـــزول

ويـــخــلـع عن مــنــكــبــيـه الـــرداء
سـروراً وفـرشـاً لـضـيـف الـقُـيـول

يــروح عـــلـــيـــهم بـــغـــر الجـــفـــان
ويـغـدو لـهم بـالـغـريـض الـنـشـيل[٤]

قـــرى عـــاجلاً يـــقـــتـــضي شـــربه
من الــكـوثـر الــعـذب والـسـلـسـبـيل[٥]

---

(١) يشير هنا إلى هاشم بن عبد مناف واسمه «عمرو» وقول الشاعر فيه:
عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف
(٢) شيبه هو اسم أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم.
(٣) «ذخ»: للنزول.
(٤) الغريض أي الطري: والنشيل هو المستخرج سريعاً من القدر.
(٥) يتلو هذا البيت في الأصل خرم خمس ورقات، فالترقيم ينتقل هنا من ٢٠ إلى ٢٦، على أننا أثبتنا بعد هذا البيت ثمانية أبيات نقلناها عن الذخيرة (١/٧٣).

فـــأنـــتـم هـــداة حـــيـــاة ومـــوت
وأنـــــتم أئــــمـــــة فــــعل وقــــيل
وســــادات من حلَّ جـــنــــات عـــدن
جــمـــيعِ شــبــابـــهم والـــكـــهــول
وأنــــــتم خلائف دنــــــيــــــا ودين
بــحــكم الــكــتــاب وحــكم الــعــقــول
ووالــــدكم خــــاتم الأنـــــبـــــيــــاء
لــــكم مـــنه مـــجـــد حَـــفِيٍّ كـــفــــيل
تــــلــــذ بــــحـــمــــلــــكمُ عــــاتـــقــــاه
عـــــلى حـــمـــــله كل عبء ثــــقـــــيل
ورحب عــــــلى ضــــمــــكم صـــدره
إذا ضــــاق صـــــدر أب عن ســــلـــيل
ويـــطــــرقه الـــوحي وهـــنــــاً وأنـــتم
ضـــجــيـــعــاه بـــين يـــدي جـــبــرئــيل
وزودكـــم كـــلَّ هَـــــــــــــــدْي زكــي
وأودعـــــــــكم كل رأي أصـــــــــيـل
....
....

****

(٣٢)

[وقال رحمه الله يمدح المرتضى(*) آخر ملوك بني مروان][(١)]

[من الطويل]

جــــهـــادك حـــكم الـــلـه، من ذا يـــردُّهُ؟
وعـــزمك أمـــر الـــلـه، من ذا يـــصـــدُّهُ؟

وطـــائـــرك الـــيـــمن الـــذي أنت يمـــنه
وطـــالـعك الـسـعـد الـذي أنت سـعـده

....
....

وبـــيـــعـــة رضـــوان رعى الـــله حـــقـــهـــا
لمن بـــيـــعـــة الـــرضـــوان إذ غـــاب جَـــدُّه

فـــأصـــبح في رأس الـــريـــاســـة تـــاجه
ونُـــظِمَّ في جـــيـــد الخلافـــة عِـــقـــده

مـــســـرته مـــأوى الـــغـــريب وســـتـــره
ولـــذته خـــيـــر الـــمُـــقِلِّ ورفـــده

(*) هو عبدالرحمن بن محمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر وكان قد ألجأته الفتنة القرطبية الى بلنسية حيث قام بأمره خيران العامري ومنذر بن يحيى التجيبي في سنة ٤٠٧ (١٠١٧)، وفي العاشر من ذي الحجة سنة ٤٠٨ (٢٩ أبريل سنة ١٠١٨) بايعاه على الخلافة خالعين طاعة علي بن حمود، وجمعا له جيشاً كبيراً انضم إليه بعض الأفرنج (من أهل برشلونة) وساروا الى قرطبة لمحاربة الخليفة العلوي بها، وكان بها حينئذ القاسم بن حمود الذي خلف أخاه علياً بعد قتله، إلا أن المرتضى – بمشورة خيران ومنذر – عرج قبل المسير إلى قرطبة على غرناطة لمحاربة البربر بها، وكان عليها آنذاك زاوي بن زيري الصنهاجي فخرج له الصنهاجيون وأوقعوا به هزيمة شنعاء قتل فيها ومزقت جيوشه، وذلك في سنة ٤٠٩ وكان سبب هزيمته هو غدر مواليه العامريين به بتدبير من خيران العامري ومنذر التجيبي (انظر ليفي بروفنسال: تاريخ ٣٢٨/٢ – ٣٣١ والمراجع المذكورة). أما تاريخ قول هذه القصيدة فينبغي أن يكون بين سنتي ٤٠٧ و ٤٠٨هـ.

(١) عنوان هذه القصيدة والجزء الأول منها ساقطان من الأصل في الخرم الذي أشرنا إليه في الحاشية السابقة، وقد نقلنا العنوان وسبعة أبيات منها عن الذخيرة (ق ١ – ٨٢/١) حيث أورد ابن بسام منها اثني عشر بيتاً.

وأجـــنـــاده فـي مـــوقف الـــروع روضه
وأعـلامه فـي مـــــورد المـــــوت ورده

نـلاعب آرام الـــــفلا من هِــــبـــــاتِه
وآرامُه غُــــرُّ الـــــطـــــراد وجُــــرْدُه

ونـفـتـرش[1] الـديـبـاح من جـود كـفه
ومـــا فـــرشه إلا الجـــواد ولـــبـــده

ومن بـرَّحَ الـبـيضُ الحـسـانُ بـوجـده
فَـبِـالـبِـيضِ في الـهـيـجـاء بـرَّحَ وَجْدُه

وقــرَّبـــنـــا من رحـــمـــة الـــله هـــدْيه
ورغَّــبـــنـــا في طـــاعـــة الـــله زُهْــده[2]

وعـلَّـمـنـا بـذل الـنـفـوس لـنـصـره
نـدى كـفه المـربي عـلـى الـقَـطْـر عـدُّه

ولـــو لم يـــواف الـــوافـــدون قـــبـــابه
لأصـــبـح من زهـــر الـــكـــواكب وفـــده

وأيـــامُه المـــوصـــولُ طـــولُ صـــيـــامه
بـــلـــيـل تحـــلَّى بـــالـــتلاوة ســـهـــده

وأبـــلـج من قـــحـــطـــانَ قُـــرْبُك عِـــزُّه
ومـلـكك مـحـيـاه ونـصـرك مـجـده[3]

شـــديـــد مـــحـــال الـــرمح فـــيك أبـــيُّه
مُـبِـرٌّ خـصـام الـسـيف عـنك ألـده

رضـــاك لـه يـــا مـــرتـــضـى دين واثق
بـــأنك لـــلـــدين الحـــنـــيف تـــعـــده

ومـــا يـــزدهـــيه مـــنك دهـــر يـــســـوده
إذا لـم تجـــرده لـــثـــغـــر يـــســـده

(١) في الأصل: ويفترش، والتصويب عن الذخيرة.
(٢) في هذه الأبيات وما بعدها مصداق قول ابن حزم عن عبدالرحمن المرتضى هذا إنه كان «رجلاً صالحاً متقشفاً مائلاً إلى الفقه لم يلبس في ولايته خزاً إلى أن قتل» (جمهرة الأنساب ص ٩٣).
(٣) الإشارة هنا إلى منذر بن يحيى التجيبي أحد القائمين بأمر المرتضى.

يــوقِّــرُ عــنــكم ســمــعُه فـيُــصــيــخه

ويـــقــصــر عــنــكم طــرفه فـــيــمــده

وعـــهـــدك بـــالآمـــال تــصْــرِفُ عــنــكمُ

ورَدَّاكُمُ عـــهـــدَ الـــســـمـــوأل عـــهـــده

وكم حلَّ مــوتُ الحق من شَــدٍّ عــقــدكم

ويُـحـيي «ابن يـحـيى» عـقدكم فـيـشُدُّه

وإن مــات مــوت الــيــأس مــنــكم رجــاؤه

تـــنـــسم فـــيـــكم روحه فـــيـــرده

ونـــاديتَ في الإسلام حيَّ عــلى الــهــدى

فـــيـــالك من ظـــمـــآنَ قـــد حـــان ورده

فــقــلــدته ســيــفــاً لــزحف يــقــوده

لخـــزي عِـــداكَ أو لـــزغف يـــقـــده

فــإن لم يــكن لــلــهــنــد يــومــاً حــديــده

فــمن يَــعْــرُبَ الــعــلــيــا شَــبَــاه وحَــدُّه

وإن يك في ســـرو الـــيـــمـــانِـــيَن أصــله

فــطــاعـــته في عـــبـــد شـــمس ووده

وإن أنجـــبـــته أزدُه وتُـــجــيـــبُه

فـــصـــفـــوته عـــدنـــانه ومـــعـــده

أمـــا وتحـــلَّى دون مـــلـــكك نـــصـــله

لـــقِـــدمـــاً تحـــلى من ســـنـــائك غـــمـــده

لـــمُـــلْكٍ نمى عـــبـــدُالمـــلـــيك مـــلـــوكَه

وأنجمِ نـــور من هـــشـــام تُـــمـــِـــده

بـــكل[1] إمـــام نـــاصـــر أنت صـــنـــوه

وكل مـــلـــيك قـــاهـــر أنت نـــده

(١) «ذخ»: وكل.

نمــوك إلى بــيت الــنــبــوة وابــتــنــوا
لك الــشــرف الــفــرد الــذي أنت فــرده
فــأفــخــرْ بمن قــربُ الــنــبــيــين فــخــرُه
وأمْــجــدْ بمن مــجــدُ الخلائف مــجــده
ومـنْ كلُّ حـق فـي الخلافـــــة حـــــقه
وكل إمـــــام في الـــــبـــــريـــــة جَـــده
ومن أمُّه «أجـــيـــادُ» والــركن ظـــئــره
ومـرضعه الـبـطـحـاء والحـِجْـر مـهـده
له حـــرم الإتـــهـــام، والـــغَـــوْرُ غَـــوْرُه
ومــنــهج سُـبْل الحج، والـنـجـدُ نجـده
وحـيث اعـتـلى صـوت المـلـبي وحـجُّه
وحـيث انـتـهى صدر الحـجـيج ووخـده
مـنـاقب سارت[1] في مـعـالم كـنـهـهـا
عـقـول بـني الـدنـيـا ومـا حُـدَّ حَـدُّه
وفـخـر لـو اسـتـنـجـدتَ في وصـفه الورى
لأســأر من عـــد الحـــصى من يـــعـــده
ولـم يُـــبلِ مـــا أبلاه آبـــاء «مـــنـــذر»
لأولـــهم، بل مـــفـــخـــر تـــســـتـــجـــده
وألــقــوا عــلى مــروانَ صــفـوةَ أنــفس
تـــعـــالى بـــهـــا جَـدُّ الــزمـــان وجَـدُّه
وسـيـفُك مـنـهم سـهـمُك الـصـائب الـذي
يـــزيـــد غَـــنـــاء كـــلـــمـــا زاد بُـــعـــده
رمـــيت به آفـــاق رومـــةَ فـــانـــثـــنى
يـقـود بـنـودَ الـروم نـحـوك بَـنـدهُ[2]

(١) كذا في الأصل، وربما كانت: حارت.
(٢) يشير في هذه الأبيات وما بعدها إلى ما كان في جيوش المرتضى من رجال الإفرنج ممن أمده به قومس برشلونة رايمند **Ramon Borrell III** (انظر ابن عذاري: البيان ٣/١٢٦).

فــرُبَّ حَـمِـيٍّ الــغلِ في غِـيل مــلــكــهــا
بــعــيــد عــلــى شــأو الجــنــائب قــصــدُه
مــتى يــرم صــرفَ الــدهــر لا يــعــدُ نــفــسه
وإن يـــرمه صـــرفُ المـــكـــاره يـــعـــدُه
تجــلــى ابن يــحــيــى في ســنــاكَ لِــغَــيِّه
فــبَــصَّــره أن اصــطــنــاعَك رُشــده
فــمــا أبــطــأت إذ أبــطــأت يــد قــادح
أتـــاك وقـــد أورى لك الـــنُّـــجْحَ زنــدُه
ولا غـــاب من وافـــاك من أرض رومـــةٍ
بـــغـــابٍ من الخَـــطِّيِّ تـــزأر أُسْـــدُه
كتـائب لـو يُـرمى بـهـا الـدهـر قـبـلـنـا
لــزُلــزَل ذو الــقــرنــين مــنــهــا وسَــدُّه
كــأن فــضــاء الأرض ألُـــبسَ مـــنـــهمُ
لَـــبـــوســـاً من المـــاذيِّ[1] قُـــدِّرَ ســـرده
تُـــهـــد بـــهم شم الجـــبـــال فـــإن هـــفـــوا
فــلــحــظك يــرمي جــمــعــهم فــيــهــده
فــمــا يــنــظــر الأعــداء إلا عــجــاجــة
يــســيــر بــهــا الــرحــمن فــيــهــا وعــبــده
إلــى يـــوم فـــلــج ســـاطع لك نـــوره
ومـــيـــقـــات فـــتــح صـــادق لك وعـــده
عــلــى بــادئ الإنــعــام فــيه تــمــامه
وحَقٌّ عــلــى ســبط الخلافــة حــمــده
وحَقٌّ عـــلـــى يمـــنـــى يـــديَّ بـــقـــاؤه
جــديــداً عــلــى مــر الــزمــان وخُــلــده

(١) الماذي الدرع اللينة البيضاء.

بـغـرب لـسـان لـو أبـاري به الـورى
مـدى الـدهـر لم يـبـلـغ نـصـيـفيَ مـده
عـلـيـمـاً بـأنْ منْ[1] أَلْـحَـدَتْ فـيك نـفسُه
فـفـي لـهـوات الـذيب والـذِّيخِ لحـدُه
ومن يـبـغ في الآفـاق عـنك مُـراغـمـاً
فـوجـدانُه في مـلـتـقى الخـيل فـقـده
ومن يَـتـخـذْ في غـيـر بـحـرك مـورداً
فـلم يُـتَّـخَـذْ إلا لـنـعـلـيك خـده
فلا أملٌ إلا إلـيك انـتـهـاؤه
ولا مـلِكٌ إلا إلـيك مـردُّه

****

(١) في الأصل: ما، ولعل الصواب ما أثبتنا.

(٣٣)

وله في خيران العامري[*] رحمها الله تعالى[١].

[من الطويل]

لك الخيرُ، قد أوفى بعهدك خيرانُ
وبشراك، قد آواك[٢] عز وسلطانُ
هو النجح[٣]، لا يدعى إلى الصبح شاهد
هو الفوز[٤]، لا يُبغَى على الشمس برهان
إليك شحَنَّا الفُلْكَ تهوي كأنها
- وقد ذعرت[٥] عن مغرب الشمسِ - غِربان
على لُجَج خُضْر إذا هبت الصبا
ترامَى بنا فيها ثبيرٌ وثهلان
مواثلَ[٦] نرعى في ذراها مواثلاً
كما عُبدت في الجاهلية أو ثان

(*) خيران العامري الصقلبي كان من جلة فتيان المنصور بن أبي عامر، فلما نشبت الفتنة كان من بين من أيدوا محمد بن هشام المهدي حتى بدا لهم في أمره فغدروا به، ولما دخل سليمان المستعين قرطبة فر منها، ثم كان ممن أعانوا علي ابن حمود في ثورته على سليمان إلا أنه حين دخل قرطبة معه كان يطمع في أن يجد هشاماً المؤيد حياً، فلما لم يجده استراب من ابن حمود وفر من قرطبة واشترك مع منذر بن يحيى في تدبير الأمر عبد الرحمن المرتضى ولكنه عاد فغدر به ودبر قتله بعد هزيمته أمام أسوار غرناطة سنة ٤٠٩، وكان خيران قد استقل بالمرية في سنة ٤٠٥ (١٠١٥)، واستولى كذلك على أريوله ومرسية، وبقي على المرية حتى توفي سنة ٤١٩ (١٠٢٨). انظر ابن عذاري: البيان المغرب وابن الخطيب: الأعمال (الفهرس). أما تاريخ هذه القصيدة فقد نص ابن الخطيب على أنه قالها في سنة ٤٠٧ (أعمال ص ٢١٢).

(١) احتفظ ابن بسام في «الذخيرة» من هذه القصيدة بأربعة وستين بيتاً (ق ١ - ٩٢/١ - ٩٦)، ونقل ابن الخطيب في «أعمال الأعلام» منها واحداً وستين بيتاً (ص ٢١٢ - ٢١٥)، واختار منها الثعالبي في «يتيمة الدهر» ثمانية وثلاثين بيتاً (١٠٦/٢ - ١٠٧)، واحتفظ المقري منها بخمسة أبيات (نفح الطيب - ٤٤١/٣).

(٢) «ذخ»: وافاك.

(٣) «ذخ» و«أع»: النجم.

(٤) «ذخ» و«أع»: النور.

(٥) «ذخ» و«أع»: من، وفي النفح: «ركبنا» بدلاً من «شحنا».

(٦) «ذخ» و«أع»: مواثل، وكذلك في النفح.

وفي طي أسـمـال الـغـريب غـرائب
سكَنَّ شغاف القلب شيب وولدان
يُرددّنَ في الأحشاء حَزّاً[1] مصائب
تزيد ظلاماً ليلَها وهْي نيران
إذا غيض ماء البحر منها مَدَدْنَه
بدمع عيون يمتريهن[2] أشجان
وإن سكنت عنا[3] الرياح جرى بنا
زفير إلى ذكر الأحبة حنَّانُ
يقلن[4] - وموج البحر والهم والدجى
تموج بنا فيها عيون وآذان -:
ألا هل إلى الدنيا معاد وهل لنا
سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان؟
وهبنا رأينا معلم الأرض هل لنا
من الأرض مأوى أو من الإنس عرفان؟
وصرف الردى من دون أدنى منازل
تباهى إلينا بالسرور وتزدان
تقسمهن السيف والحيف والبلى
وشطت بنا عنها عصور وأزمان
كما اقتسمت أخدانَهنُ يد النوى
فهم للردى والبر والبحر أخدان[5]
ظعائن عُمرانُ المعاهد مقفرٌ
بهن، وقفر[6] الأرض منهن عمران

---

(١) «ذخ» و«أ ع»: حر.
(٢) «ذخ» و«أ ع»: تمتريهن.
(٣) «ذخ» و«أ ع»: عنها.
(٤) في النفح: مقاتل موج.
(٥) «ذخ» و«أ ع»: إخوان، وقد ورد الشطر الأول في النسخة المخطوطة من المجلد الثالث لكتاب الذخيرة (نسخة جايا نجوس المحفوظة في مكتبة المجمع الملكي التاريخي بمدريد) على هذه الصورة: «كما قسمت أحداثهم بيد النوى». (انظر الورقة ١و).

هــوت أمــهم مــاذا هــوت بــرحــالــهم[1]
إلى نـــازح الآفـــاق سُــفْن وأظــعـــان؟
كــــواكب، إلا أن أفلاك ســـــيـــــرهـــا
زمــــام ورحل، أو شــــراع وسُـــكّـــان
فــإن غَــرَّبَتْ أرضَ المــغــاربِ مــوئــلــي[2]
وأنــكــرنــي فــيـــهـــا خـــلـــيـط وخِلاَّن
فــكم رحَّــبت أرضُ الــعــراق بمــقــدمي
وأجــزلت الــبــشــرى عــلــيَّ خُــراســان
وإن[3] بلاداً أخــــرجــــتــــني لَــــعُــــطّلٌ
وإن زمـــانـــاً خـــان عـــهـــديَ لخَـــوَّان
سلام عــلـى الإخــوان! تــســلــيمَ آيس[4]
وسَــقــيــاً لــدهــر كــان لي فــيه إخــوان
ولا عــــرَّفت بي خَـــلَّــــةً دار خُــــلَّــــةٍ[5]
عــفـا رسمَــهـا مـنـهـا جـفـاء ونـسـيـان
وغــرَّت بــبــرق المــزن من ذكــر صــعــقه
ومن ذكــــر رب كل يـــــوم لـه شــــان
ويـــا رُبَّ يـــوم بـــان صـــدعُ سلامه
بـصدع الـنـوى أفلاذَ قـلـبيَ إذ بـانـوا[6]
نـودعـهم شـجـواً بـشـجـو كـمـثـلـمـا
أجـابت حـفـيف الـسـهم عـوجـاءُ مِرْنـان
ويـــصـــدع مـــا ضم الـــوداعُ تـــفـــرق
كمـا انـشـعـبت تحت الـعـواصف أغـصان
إذا شـــرَّق الحـــادي بـــهم غـــرَّبت بـــنـــا
نـوًى يـومُــهـا يـومـان والحـِينُ أحـيـان

---

(١) «يت»: برجالهم.
(٢) «أع»: موطني.
(٣) «أع»: فإن.
(٤) «ذخ»: يائس.
(٥) «أع»: ولا عرفت خلات دار خليلة.
(٦) «أع»: بصدع النوى أفلاك قلبي إذ كانوا(!).

فلا مؤنسٌ إلا شهيقٌ وزفرةٌ
ولامسعدٌ إلا دموعٌ وأجفان[1]
وما كان ذاك البين بين أحبةٍ
ولكن قلوبٌ فارقتهن أبدان
فيا عجباً للصبر منا كأننا
لهم غيرُ من كنا، وهم غيرُ من كانوا
قضى[2] عيشهم بعدي وعيشيَ بعدهم
بأنيَ[3] قد خنت الوفاء وقد خانوا
وأفجِعْ بمنْ[4] اَوى صفيحٌ وجلمدٌ
ووارت رمالٌ بالفلاة وكثبان
وجوهٌ تناءت في البلاد قبورها
وإنهمُ في القلب مني لَسُكّان
وما بَليَتْ في الترب إلا تجددت
عليها من القلب المفجع[5] أحزان
هم استخلفوا الأحباب أمواج لجةٍ
هي الموت أو في الموت عنهن سُلوان
بقايا نفوسٍ من بقية أنفسٍ
يُميتون أحزاني، فدينوا بما دانوا
أقول لهم صبراً لكم أو عليكمُ
عسى العيشُ محمودٌ أو الموت عجلان
ولا[6] قَنَطٌ، واليسرُ للعسر غالب[7]
وفي العرش ربٌّ بالخلائق رحمن

(١) «ذخ» و«أع»: وأشجان.
(٢) «يت»: مضى.
(٣) «يت»: كأني.
(٤) «ذخ» و«يت»: من.
(٥) «ذخ» و«أع»: الموجع.
(٦) «أع»: فلا.
(٧) «أع»: والعسر لليسر غالب (!).

ولايــــأس من رَوْحٍ وفي الـــلـه مــطـــمعٌ
ولابُـعـد من خــيــرٍ وفي الأرض «خــيــرانُ»
ســتــنــســون أهــوال الــعــذاب ومــالــكــاً
إذا ضــمــكم في جــنـــة الــفــوز رضــوان
متى تلـحـظـوا قصر «الـمَرِيَّةِ» تظفروا[١]
بــبــحــرٍ حــصــى[٢] يُــمــنــاه دُرٌّ ومَـرجـان
وتــســتــبــدلــوا من مــوج بــحــرِ شــجــاكمُ
بــبــحــرٍ[٣] لــكم مــنــه لُــجَــينٌ وعِــقــيــان
فــتًــى ســيـــفُه لــلـــدين أمنٌ وإيمـــان
ويمـــنـــاه لـــلآمـــال[٤] روْحٌ وريـــحـــان
تــقــلــد ســيفَ الــلــه فــيــنــا[٥] بــحــقه
فــبَــرَّتْ عـــهـــودٌ بـــالـــوفـــاء وأيمــان
وحَــلَّى بــتـــاج الــعــز مــفــرقَ مُــخــبتٍ
يُـــقــــلِّـــبُه[٦] داعٍ إلـى الـــلـه ديَّـــان
وبـــالـخـــيــر فــتَّـــاحٌ، وبـــالـخـــيــر عـــائــدٌ،
وبـــالـخـــيل ظـــعَّـــانٌ، ولـــلـــخـــيل طـــعَّـــان
فــــقُـــضَّتْ ســـيـــوفٌ حـــاربـــتـه وأيمُنٌ،
وشـــاهـت وجـــوهٌ فـــاخـــرتـه وتـــيـــجـــان
له[٧] الـــكَـــرَّةُ الـــغـــراء عن كل شـــاردٍ
أضـــاءت لـــهم مـــنـــهـــا[٨] ديـــارٌ وأوطـــان

(١) «ذخ» و«أ ع»: تنزلوا.
(٢) «ذخ» و«أ ع»: ندى.
(٣) «ذخ» و«أ ع»: بموج.
(٤) «ذخ»: وإيمانه للأهل (!).
(٥) «أ ع»: عنا.
(٦) «أ ع»: يوجهه.
(٧) «ذخ» لها.
(٨) «أ ع»: لنا منه.

ورد بـــهـــا يـــوم الـــلـــقـــاء «زنـــانـــةً»[1]
كـمـا انـقـلـبـت[2] يـوم «الـهـبـاءة» ذُبْـيـان
بـــكـل كـــمـي عـــامـــري يـــســـوقه[3]
لحَــرِّ الــوغى قـلبٌ عـلـى الـدين حَـرَّان
حُـلِـيُّـهُمُ بِـيضُ الـصـوارم والـقـنـا
لــهــا وحُلاهــا ســابــغــات وأبــدان
تـراءاكَ حـزب الـبـغي مـنـهم[4] فـأقـبـلـوا
وفي كل أنف لـــلـــغـــوايـــة شـــيـــطـــان
فـــأيُّ صـــقـــورٍ قـــلَّـــبت أيَّ أعـــينٍ
إلى أي لـــيـــثٍ ردَّهـــا وهْي خِـــلـــدان
عيونـاً بـهـا كـادوا الـهـدى فـفـقـأتَـهـا[5]
فـهم في شـعـاب الـغي والـرشد عـمـيان[6]
ومــا لــهمُ في ظــلــمــةٍ بــعــدُ كــوكبٌ
ومــا لــهمُ في مُــقــلــةٍ بــعــد إنــســان
يـضـيق[7] بـهـم رحب الـقـصـور ووُدُّهم
لـو احـتـازهم عـنـهـا كـهـوفٌ وغـيـران
وأنـسَـيْـتَـهم حـملَ الـقـنـا فـسلاحـهم[8]
عــلـــيـك إذا لاقـــوك ذلٌّ وإذعـــان
وأنّى لِـفَلِّ[9] الـقـبط في مـصـر مـوئل
وقـد غِـيلَ فـرعـونٌ وأُهـلك هـامـانُ
فـــيـــاذُلَّ أعلامِ الـــهـــدى يـــوم عـــزهم
ويـا عـز أعلام الـهـدى بك إذ هـانـوا

---

(١) «يت»: وأوردتها يوم اللقاء فراته.
(٢) «يت»: انصرفت.
(٣) «أع»: يقوده.
(٤) «أع»: الغي فيهم.
(٥) «ذخ» و«أع»: بعمائها.
(٦) «ذخ» و«أع»: فهم في سبيل الرشد والغي عميان.
(٧) «ذخ»: تضيق.
(٨) «ذخ»: بسلاحهم.

حـفـرت لـهـم في يـوم قَـبْـرَةَ[١] بـالـقـنـا
قـبـوراً هـواءُ الجـو مـنـهن مـلآن
تـطـيـر بـهـا هـامٌ ونـسـرٌ ونـاعبٌ
ويـعـدو بـهـا ذِيبٌ وذِيخٌ وسـرحـان[٢]
فـلـو شـهـد[٣] الأملاكُ يـومك فـيـهمُ
لألـقى إلـيك الـتـاج كـسرى وخـاقـان
ولـو رُدَّ في «المـنـصـور» روحُ حـيـاته
غـداة لـقـيت المـوتَ والمـوتُ عُـريـان[٤]
ونـاديتَ لـلـهـيـجـاء أبـنـاءَ مُـلْـكه
فـلـبَّـاك آسـادٌ عـبـيـدٌ وفـتـيـان[٥]
جـبـالٌ إذا أرسـيْـتَـهـا حـومـةَ الـوغى
وإن تَـدْعُـهُمُ[٦] يـومـاً[٧] إلـيك[٨] فـعِـقبـان
يـقـودُهُمُ داعٍ إلى الحق مُـجـلبٌ
على الـبـغي يُـرضي ربَّه وهْـو غضـبـان
كـتـائبُ بل كُـتْبٌ بـنـصـرك سُـطـرت
ووجـهك «بـاسم الـلـه» والـسـيفُ عُـنـوان
هـو الـسـيف لا يـرتـاب أنك سـيـفُه
إذا نـازل الأقـرانَ في الحـرب أقـران
كـأن الـعـدى لمـا اصـطـلـوا حـرَّ نـاره
أصـاب هـواديـهم من الجـو حُـسـبـان[٩]

---

(١) «يت»: ثبرة.
(٢) «يت»: يطير بهم باز ونسر وناعب ... ويغدو بهم ذئب رميح وسرحان
(٣) «ذخ» و«أ ع» و«يت»: نشر.
(٤) «ذخ» و«يت»: غرثان، «أ ع»: ألوان.
(٥) هذا البيت ساقط من الأصل، وقد أضفناه ملتزمين رواية الذخيرة والأعلام، وقد ورد أيضاً في اليتيمة مع اختلاف يسير، إذ إنه جاء فيها: وناديت في الهيجاء... الخ.
(٦) «يت»: تدعها.
(٧) «يت»: يوماك(!).
(٨) «ذخ» و«أ ع»: إليها.
(٩) الحسبان هو البلاء والعذاب.

وأسـمـرَ يـسـري في بـحـارٍ من الـنـدى
بـيـمـنـاك[١] لـكن يـغـتـدي[٢] وهـو ظـمـآن

تـلألأ نــوراً من ســنــاك ســنــانه
وقـد دعت الـفـرسـانَ لـلـحـرب فـرسـان

لـحَـيَّـاكَ[٣] من أحـيَـيْت مـنه[٤] شـمـائلاً
يمـوت بـهـا في الأرض ظـلـمٌ وعـدوان

ونـاجـاك[٥] إسـراراً ونـاداك مُـعـلـنـاً[٦]
وحـسْبُ الـعُـلَـى مـنه سـرارٌ وإعلان[٧]

ألا هـكـذا فـلـيـحـفظ الـعـهـد حـافظٌ
ألا هـكـذا فـلـيـخـلُفِ الـمُـلْكَ سـلـطـان

فـلـلـه مـاذا أنجـبتْ مـنك عـامـرٌ!
ولـلـه مـاذا نـاسـبت مـنك قـحـطـان

ولـلـه مـنـا أهلَ بـيتٍ رمـتـهـمُ
إلى يـدك الـعُـلـيـا بـحـور وبـلـدان[٨]

وكلـهمُ يُزهى على الشمس في الضحى[٩]
وبـدرِ الـديـاجي أنـهـم لك جـيـران

وقـد زاد[١٠] أبـنـاءُ الـسـبـيل وسـيـلـةً
وحَـلّـوا فـزادوا[١١] أنـهـم لك ضِـيـفـان

فـمـا قـصَّـرت بي عن عُلاك شـفـاعـةٌ
ولا بك عن مـثـلـي جـزاء وإحـسـان

****

(١) «يت»: لكفك.
(٢) «ذخ»: تغتدي.
(٣) «يت»: فحياك.
(٤) «أع»: قد أحييت منا.
(٥) «يت»: وناداك.
(٦) «أع»: معلما.
(٧) «يت»: وحسب المعالي منه سر وإعلان.
(٨) في الأصل: وأبدان، وقد اتبعنا هنا القراءة التي أجمعت عليها الذخيرة والأعلام واليتيمة.
(٩) «ذخ»: بالضحى.
(١٠) «ذخ»: و«أع»: راد.

(٣٤)

وله في بعض رؤساء الكتاب أيضاً رحمهما الله[١]

[من الطويل]

أَرِحْلِيَ محمولٌ على العُتُق النُّجْبِ
يؤمك، أم سارٍ على القُتُمِ النُّكْبِ؟
يقود بها هادٍ إلى الأمن والمنى
ويحدو بها حادٍ على الخوف والرعب
غرائبُ مما أغرب الدهرُ أطلعت
عليك[٢] هلالَ العلم من أفق الغرب
طوت فلوات الأرض نحوك[٣] وانطوت
كبدرٍ إلى محقٍ بشهرٍ[٤] إلى عُقب
كئوساً تساقتها الليالي تنادماً
فجاءتك كالأقداح ردت عن[٥] الشرب
تعاورهن البر والبحر مثلما
تُرد بأيدي الرسل أجوبة الكُتْب

---

(١) لم يفصح جامع الديوان عن اسم هذا «الكاتب الرئيس» الذي مدحه ابن دراج بهذه القصيدة، على أن ابن بسام صرح به في الذخيرة (القسم الثالث ١ – ظ من النسخة المخطوطة المحفوظة في مكتبة المجمع التاريخي الملكي بمدريد ومن المطبوعة ق ٣ – ١٢/١)، وهو الفتح بن أفلح، وقد أورد ابن بسام في هذا الموضع ثمانية عشر بيتاً من تلك القصيدة، وقد أشار ابن الخطيب في حديثه عن ملوك الطوائف (أعمال ص ٢٢٦) إلى رجل سماه عبدالعزيز بن أفلح السلطاني وقال إنه كان نائباً لمبارك العامري صاحب بلنسية وإنه تفرد بضبط شاطبة وتدبيرها بعد أن مات صاحبها خيرة الصقلبي مسموماً بيد مبارك، وإنه كان له انحطاط إلي مبارك فلم يهجه وخلاه على حاله وقنع منه بذلك حتى تصير أمر شاطبة بعد ذلك إلى يد مجاهد العامري. هذا ونظن أن عبدالعزيز بن أفلح هذا هو نفسه الذي يسميه ابن بسام «الفتح بن أفلح»، ولعل «الفتح» كان لقباله.

(٢) «ذخ»: عليها.

(٣) هذه الكلمة ناقصة في الذخيرة.

(٤) «ذخ»: وشهر.

(٥) «ذخ»: على.

فـلـيلٌ إلى صـبحٍ، وصـبحٌ إلى دجى
وكـربٌ إلى روح، وروحٌ إلى كـرب
وسـهلٌ إلى حَـزن، وحَـزنٌ إلى فلا
وسـهبٌ إلى بـحـرٍ، وبـحـرٌ إلى سـهب
يُكَتِّبْنَ صفْحات السعود نواظراً
وينفضن من أقلامهن على القلب
ويقضمن أطراف الهشيم تبلغا
إلى الروضة الغناء في المشرب العذب
تُنيخُ فتلْقي في الصخور كلاكلاً
تنوء لأرض المسك زهواً عن الترب
ويفحصن في رضْم الحصى بمناسم
تهيم إلى حصباءَ من لؤلؤ رطب
أُنَسِّمُها ريَّاكَ في نفحة الصبا
وأجلو لها سيماك في أوجه الشهب
وأُسْمِعُها داعيك في كل منهلٍ
هَلُمَّ إلى الإكرام والمنزل الرحب
ولاح لها البرق الذي أغدق[1] الثرى
فهن[2] إليه موفضات[3] إلى نُصْب
مُوَفَّرَةً مني إليك وسائلاً
تفوح لأنفاس الركائب والركب
ولو عجزت عن همتي لتبلغت
بذي قدمٍ تصبو إلى ذي يدٍ تُصبي
فَقَلَّ لمن عاذ الهدى بسيوفه
ودارت نجوم المُلْكِ منه على قطب

(١) في الأصل: أغدى، وقد اخترنا ما أثبته ابن بسام في «الذخيرة».
(٢) «ذخ»: فهز.
(٣) أي مسرعات.

وضـــاء بـــنـــور الحق غــرةُ وجـــهه

فـأطـفـأ نـيـران الـضـغـائن والـشَّغب

أخــو الـكـهل وابنٌ لـلـكـبـيـر ووالـدٌ

لأبـنـائـهم في مُـعـتـزىً غـيـرُ ذي تِـرْب

عـــطـــاءٌ بلا منٍ، وحـــكمٌ بلا هـــوى

ومُـــلْكٌ بلا كِـــبْـــر، وعـــزٌّ بلا عُـــجب

ومولى كما تجلو المصابيحُ في الدجى

ورأيٌّ كـمـا يـشـفِي الـهِـنـاءُ من الـنُّقب[1]

سـمـا فـاشـتـرى مـثـنى الـوزارة سـابـقـاً

بمـثـنى الأيـادي الـبـيض والخـلق الـنـدب

وحـاز عـنـان الـدهـر سـمـعـاً وطـاعـةً

بـكشف قـنـاع الـصـبـر والـسـمر والـقـضب

غـــمـــامٌ أظل الأرض وانـــهل بـــالحـــيـــا

ضـمـانٌ عـلـى الـنـعـمى أمـانٌ من الجـدب

تـــفـــجـــر للأيـــام بـــالجـــود والـــنـــدى

وأثـــمـــر للإسلام بـــالحـــزم والُّـــلب

فـتى يـتـلـقى الـروع بـالـبـيض والـقـنـا

ومُـعـتـفـيَ الأضـيـاف بـالأهل والـرحب

مُـسـمًّى «بـفـتـح الـلـه»[2] أرضَ الـعـدى به

مُـكـنـىّ «بـنـصـر الـلـه» والـديـن والـرب

وأيُّ ولـــيـــدٍ لـــلـــمـــكـــارم والـــعلا

وأيُّ رضـــيـعٍ لـــلـــوقـــائع والحـــرب

وأي فـتـى في مـشـهـد الـرأي والـنـهى

وأيُّ فـتـى في مـوقع الـطـعن والـضـرب

---

(١) الهناء هو القطران، والنقب الجرب.

(٢) في هذا البيت ما يؤكد صحة قول ابن بسام إن اسم ممدوح ابن دراج هذا هو «الفتح».

وأيَّ عــروس بــالــســيــادة لم يــسق

سوى السيف من مـهـر إلـيـهـا ولا خِـطب

وأيٌّ[(١)] رجـاءٍ قـاد رحـلـي إلـيـكـمـا

وقد أصعقتني[(٢)] مثلُ راغية الصَّقب[(٣)]

بـعـيـدٌ من الأوطـان مـسـتـشـعـر الـعدى

غـريبٌ عـلى الأمـواه مُـتَّـهَمُ الـصـحب

أَقَلُّ من الــرئــبــال في الأرض آلِــفــاً

وإن كـان لحـمي لـلـحـسـود ولـلـخِب[(٤)]

وأعـظمُ تـأنـيـسـاً لـدهـري[(٥)] من المـنى

وأوحشُ مـنه من فـتى الجُب في الجُب[(٦)]

ولـــله من عـــزمٍ إلـــيك اســتــقــادني

فــأفــرط في بــعــد وفــرط[(٧)] في قــرب

حــيــاءً من الحــال الــتي أنت[(٨)] عــالمٌ

بـهـا كـيف عـاثت في سنـاهـا يـد الخـطب

وتــســويفَ يــوم بــعـد يــوم (تــخـوفـا)[(٩)]

لَــعَــلِّيَ لا ألــقــاكَ مُــنــشــرحَ الــقــلب

وشُــحّــاً بــبــاقي[(١٠)] مــاء وجـهٍ بـذلــته

لَــعَــلِّيَ أقــضي قــبلَ أنــفــاده نــحــبي

---

(١) «ذخ»: فأي.
(٢) «ذخ»: أضعفتني.
(٣) «ذخ»: السقب. كلتا الكلمتين صواب إذ أن السين والصاد لغة فيهما، والصقب هو ولد الناقة.
(٤) «ذخ»: وإن كان يحيى للأسود وللنجب.
(٥) «ذخ»: لدهر.
(٦) يعني بفتى الجب سيدنا يوسف عليه السلام. وفي الذخيرة: وأوحش فيهم من فتى الحب للحب.
(٧) «ذخ»: وأفرط.
(٨) «ذخ»: أنا.
(٩) هذه الكلمة ناقصة في الأصل، وقد استكملناها من الذخيرة.
(١٠) «ذخ»: بمائي.

وتـأخـيـر رجل بـعـد تـقـديم أخـتـهـا
حـذاراً لـدهـر لا يُـغَـمِّضُ عن حـربي[1]
كما مسني الشيطان نحوك ساعياً
بـطـائف سـقم من عـذاب ومن نـصب
وبـارقـة من مـقـلـتيْ أم مِـلْـدَمٍ[2]
ثـنـتـني صريعاً لـلـيـدين ولـلـجـنب
مُـحَـجَّـبَـةٍ لا تُـتَّـقَى بـشـبـا الـقـنـا
ولا يُـخـتـفَى مـنـهـا بـبـابٍ ولا حُـجْب
يَـدِقُّ عن الـقـلـب المـؤَنَّب قـدرُهـا
وقـد جلَّ مـا لاقـيت مـنـهـا عن الـعـتب
طـوتْ ظِمْءَ عـشـرٍ بـعـد عـشـرٍ وأوردت
عـلى الـنفس لا تـرضى عن الـرِّفْهِ بـالـغِبِّ
إذا كرعت في حوض نفسيَ خضخضت
فـفـاضت نـواحـيه بمـنـهـمـرٍ سـكب
فـمـطـعـمُـهـا لـحـمي، ومـشـربُـهـا دمي
وتـرتـع في جـسـمي، وتـأوي إلى قـلـبي
كـأن لـهـا عـنـدي مـخـاريفَ جـنـةٍ
وأصْـلَى بـهـا نـار المـعـذَّب بـالـذنب
إذا أوقـدت جـسـمي هـجـيـراً تـظـلـلت
فـحـلت كـنـاسـاً من شـغـافيَ أو خِـلْبي[3]
تحـمَّـلْـتُـهـا في حُـرِّ صدري، وأضـلـعي
وتحْمِل أحشائي على المركب الصعب
ألاُ وِذُ عـنـهـا قـلـب مـكـتـئب شجٍ
وتحـفـز نـحـوي قـلـب ذي لـوعـةٍ صب

(١) «ذخ»: حزب.
(٢) أم ملدم كناية عن الحمى، والأبيات التالية في وصفها.
(٣) الخلب هو حجاب بين القلب وسواد البطن.

وتَــكْــذِبــني عــنــهــا الأمــاني، وإنــهــا
إليَّ لأَهـــدَى من قـــطـــاةٍ إلى شِـــرْبِ
وإن كــان أضــنـى الحُبُّ فــالـعــقل حــاكمٌ
بــأن ضــنى الــشــنـآن فــوق ضــنى الحب
وفي راحــتـيْ عــبــدِالــفــعــيل بن فــاعلٍ[1]
شــفــائي، وفي نُــعْــمى مــكــارمه طِــبِّي
دعـــوتُ فـــلـــبَّـــاني وآوى تـــغـــربي
إلى كــرم لــلــعــز ذي مــرتــقًّى صــعب
وجَــلَّى هـــمــومي من ســنــاه بــبــارقٍ
أضـــاء به مـــا بـــين شـــرقٍ إلى غـــرب
وأَسْــبَلَ لي من ســتــره فــوق ســتــة[2]
أهــيم بــهم في الأرض مــثل الــقــطــا الــزُّغب
فــأصــبــحتُ في إكــرامه مــانع الحــمى
وأمــســيتُ في ســلــطــانه آمن الــســرب
وحــمــداً لمن هَــدىً لــســاني لحــمــده
وحــسبي له من قــد قــضى أنه حَــسْبي

****

(١) واضح أنه يقصد إخفاء اسم على زنة هذه الكلمات، على أننا ذكرنا أن اسم ممدوح ابن دراج في هذه القصيدة هو «الفتح بن أفلح» وهو لا يستقيم على وزن ما ذكره هنا، وربما كان هذا دليلا آخر على أن الشخص المراد هنا هو عبدالعزيز بن أفلح الذي أشار إليه ابن الخطيب كما ذكرنا (وبهذا الاسم يستقيم الوزن) وعلى أن «الفتح» إنما كان لقباً له، أو لعلهما أخوان مدحهما ابن دراج بهذه القصيدة.

(٣٥)

وله أيضاً في مبارك ومظفر صاحبي بنلسبة(*) رحمهم الله تبارك وتعالى(١)

[من الطويل]

أنــورُكِ أم أوقَــدْتِ بــالــلــيل نــارَكِ
لــبــاغٍ قِــرَاكِ أو(٢) لــبــاغٍ جــوارِكِ؟

وريَّــاكِ أم عــرف المجــامــر أشــعــلت
بِــعُــود الــكِــبــاء والأَلُــوَّةِ(٣) نــارك؟

ومــبــســمُكِ الــوضــاح أم ضــوء بــارقٍ
حَــداه دعـــائي أن يـــجـــود ديـــارك؟

وخـلـخـالَكِ اسـتـنـضـيتِ أم قـمـرٌ بـدا؟
وشــمسٌ(٤) تــبــدت أم أَلَــحْتِ سِــوارك؟

وطُــرَّةُ صــبــحٍ أم جــبــيــنُك ســافــراً
أعــرتِ الــصــبــاح نــورَه أم أعــارك؟

(*) من موالي بني عامر، وكانت بلنسية في أول فتنة ابن عبدالجبار المهدي بيد مجاهد العامري فثار عليه مبارك ومظفر هذان، فخرج مجاهد الى دانية وسلم بلنسية لهما فاشتركا في حكمها ثم مات مظفر وبقي مبارك حتى توفي في سنة ٤٠٨ أو ٤٠٩ (١٠١٨ – ١٠١٩). (انظر ابن عذاري: بيان ١٥٨/٣ – ١٦٣، ٣٠٢، ابن الخطيب: أعمال ص ٢٢٢ – ٢٢٦).

(١) نقل ابن الخطيب أجزاء كبيرة من هذه القصيدة في كتابين له: «الإحاطة في أخبار غرناطة» (النسخة المحفوظة بالاسكوريال ص ١٨٦ – ١٨٧) وبتحقيق محمد عبدالله عنان ٢٩٣/٣ – ٢٩٧ حيث أتى باثنين وستين بيتاً منها، و«أعمال الأعلام» ص ٢٢٣ – ٢٢٥، كذلك اختار ابن بسام منها خمسة أبيات في «الذخيرة» (القسم الثالث – مخطوطة المجمع الملكي التاريخي بمدريد) ورقة ١ – ظ وفي المطبوعات ق ٣ – ١١ – ١٢ ونلاحظ أن روي هذه القصيدة جاء بكاف مفتوحة تتبعها ألف أي باستعمال ضمير المخاطب المذكر في أعمال الأعلام والذخيرة بينما هو في الديوان وفي ما اختاره ابن الخطيب منها في الإحاطة بكاف مكسورة أي باستعمال ضمير المخاطبة وهو الصواب.

(٢) «أع» و«إح»: أم.

(٣) الكباء ضرب من العود يتبخر به، وكذلك الألوة.

(٤) في الأصل: أو، والصواب ما أثبتنا، وفي الحاشية ملاحظة يفهم منها مثل هذاا لتصويب.

وأنت أجرت[1] الليل إذ هزم الضحى
كتائبُه والصبحَ لما استجارك

فللصبح فيما[2] بين قرطيك مطلعٌ
وقد سكن الليل البهيم خمارك

فيا لنهارٍ لايغيض[3] ظلامُه
ويا لظلام لا يغيض نهارك

ونجمُ الثريا أم لآل تقسمت
يمينك إذ ضمختها أم يسارك؟

لسلطانٍ[4] حُسْنٍ في بديع محاسن
يصيد القلوب النافرات نِفارك

وجُندِ غرامٍ في دروع[5] صبابةٍ
تقلدن أقدار الهوى واقتدارك

هو المُلْك لا «بلقيسُ» أدرك شأوها
مداك ولا «الزَّبَّاءُ» شقتْ غُبارك

وقادمةَ الجوزاء راعيتُ مَوْهِناً
بحَرِّ هواك[6] أم ترسَّمْتُ[7] دارك؟

وطيفك أسرى فاستثار تشوقي
إلى العهد أم شوقي إليك استثارك

ومُرَتَّد[8] أنفاسي إليك استطارني
أم الروح لما رُد فيَّ استطارك؟

---

(١) إح: هجرت.

(٢) في الأصل: فيها، وقد آثرنا قراءة ابن الخطيب في كل من الإحاطة والأعمال.

(٣) أع: يغيظ.

(٤) أع: بسلطان.

(٥) أع: ضلوع.

(٦) في الأصل: هويها، وقد آثرنا ما اتفقت عليه الإحاطة والأعمال.

(٧) أع و إح: توسمت.

(٨) إح: وموقد.

فـكم جُـزتِ من بـحـرٍ إليَّ ومـهـمهٍ
يـكـاد يُـنَـسِّي المـسـتـهـامَ ادِّكـارَكِ
أذو[1] الحظ من علم الـكتـاب حـداكِ لي
أمِ الـفَـلَكُ الـدوار نـحـوي[2] أدارك؟
وكـيف كـتمتِ اللـيل وجـهَك مـظـلـماً
أشعـرَك أغْشـيت[3] السـنـا أم شـِعـارك؟
وكـيف اعـتـسفتِ[4] البـيدَ لا في ظعـائن
ولاشـجـرُ الخـطي حفَّ شِـجـارك[5]؟
ولا آذن الحيُّ الجـمـيع بـرحـلـةٍ
أراح لـهـا راعي المخـاض عِـشـارك[6]
ولا أرزمت[7] خـوصُ[8] المهـاري مجـيـبةً
صـهـيل جـيـادٍ يـكـتـنـفن قِـطـارك[9]
ولا أذكتِ الـركـبـان عـنك عـيـونَـهـا[10]
حِـذار عـيـون لايـنـمن حِـذارك
وكـيف رضـيتِ اللـيل مـلـبس طـارقٍ
ومـا ذر قـرنُ الـشـمس إلا اسـتـنـارك
وكم دون رحـلـي من قـصـورٍ[11] مَـشـيـدة
تُـحـرم[12] من قُـرب المـزار مـزارك

(١) أع: إذا.
(٢) أع: يحمي ادكارك.
(٣) إح: أعشيت.
(٤) أع: عسفت.
(٥) الشجار بفتح الشين وكسرها هو خشب هوادج النساء.
(٦) العشار من الإبل الحوامل التي مضت عليها عشرة أشهر.
(٧) أع: أزحت.
(٨) في الأصل: خوض، والصواب ما أثبتنا.
(٩) القطار هو أن تشد الإبل على نسق واحداً خلف واحد.
(١٠) إذكاء العيون هو إرسال الطلائع.
(١١) أع وإح وذخ: بروج.
(١٢) ذخ: تحوم.

وقـــد زأرت حــولي أســـودُ تـــهـــامـــست
لــهـــا الأســـد أنْ كُــفِّي عن الـــســمع زارك
وأرضِي ســيــولٌ من خــيــول «مــظـفــر»
ولــيــلي نجــومٌ من ســمــاء[١] «مــبــارك»
بــحــيث وجــدت الأمن يـــهــتف بــالمــنى
هــلــمي إلى عــيــنــين[٢] جــادا سَــرارك[٣]
هـــلـــمي إلى بـــحــرين قــد مــرج الــنــدى
عُــبـابــيــهــمـا لا يــسـأمــان انــتـظـارك
هـــلـــمي إلى ســيــفـــين والحـــد واحــدٌ
يــجــيـــران من صـــرف الحـــوادث جــارك
هـــلـــمي إلى طِــرفَيْ رهـــانٍ تـــقـــدمـــا
إلى الأمــد[٤] الجــالي عــلــيك اخــتــيــارك
وحَــيِّي[٥] عــلـى دوحــين جـاد[٦] نــداهــمــا
ظلالَكِ واســــتـــــدني[٧] إليَّ[٨] ثـــمـــارك
وبُــشــراك قــد فــازت قــداحك بــالمــنى[٩]
وأعُــطــيتِ من هـــذا الأنـــام خِــيــارك[١٠]
شــريــكـــان في صـــدق المــنى وكلاهــمـــا
إذا بـــارز[١١] الأقـــرانَ غـــيـــرُ مـــشـــارك

---

(١) أع وإح: سيوف، وذخ: رماح.
(٢) أع وإح: غيثين.
(٣) سرار الأرض هو أوسطها وأكرمها.
(٤) في الأصل: الأمل، والتصويب عن الاحاطة والأعمال.
(٥) أع: وحي، وإح: وحيا.
(٦) أع: مد.
(٧) إح: وستندى.
(٨) أع وإح: إليك.
(٩) إح: بالعلا.
(١٠) أع وإح: اختيارك.
(١١) إح: قارن.

همـا سـمـعـا دعـواك[١] يـا دعـوة الـهـدى

وَقـد أوثق الـدهـر الخـئـون إسـارك

وسلا سـيـوفـاً لم تـزل تـلـتـظي أسى[٢]

بـثـأرك حـتى أدر كـالك ثـارك[٣]

ويـهـنـيك يـا دار الخلافـة مـنـهـمـا

هلالان لاحـا يـرفـعـان مـنـارك

كلا الـقـمـرين بـين عـيـنـيه غـرة

أنـارت كُـسـوفـيك وجَـلَّتْ سِـرارك[٤]

فـقـاد إلـيك الخـيل شُـعـثـاً شـوازبـاً[٥]

يلـبـين بـالـنصر الـعزيـز انـتـصارك[٦]

سـوابقَ هـيـجـاءٍ كـأن صـهـيـلـهـا

يـجـاوب[٧] تحت الخـافـقـات شـعـارك

بـكل سَـرِيٍّ الـعِـتْقِ سَـرًّى عن الـهـدى

وكل حـمـي الأنـف أحـمـى ذمـارك

تحـلـوا من «المـنـصـور» نـصـراً وعـزة

فـأبـلـوك في يـوم الـبلاء اخـتـيـارك[٨]

إذا انـتـسـبـوا يـوم الـطـعـان لـعـامرٍ

فـعُـمـرَك يـا هـام الـعـدى لا عَـمـارَك!

يـقـودهمُ مـنـهـم سـراجَـا كـتـائبٍ

يـقـولان لـلـدنـيـا: أَجِـدِّي افـتـخـارك

---

(١) في الأصل: دعويك.
(٢) أ ع: أذى.
(٣) أ ع: فثارك حتى أدركاك فثاركا.
(٤) السرار هو الليلة التي يستتر أي يختفي فيها القمر.
(٥) في الأصل وفي الإحاطة: شوازيا، والشوازب من الخيل الضامرات.
(٦) إح: شعارك.
(٧) في الأصل: تجاوب، وقد اخترنا ما جاء في الإحاطة.
(٨) إح: اختبارك.

إذا افـتـرَّتِ الـرايـات[1] عن غـرتـيـهـمـا

فـيـا لـلـعـدى أضـلـلـتِ مـنـهـم فِـرارك

وإن أشـرق الـنـادي بـنـور سـنـاهـمـا

فـبـشـرى الأمـانـي عـيـنـكِ[2] لاضِـمـارك

وكم كـشـفـا من كـربـة بـعـد كـربـة

تـقـول لـهـا الـنـيـران: كُـفي أُوارك!

وكم لـبـيـا من دعـوةٍ وتـداركـا

شَـفَـى رمقٍ مـا كـان بـالمـتـدارَك

ويـا نـفسَ غـاوٍ كم أقـرا نـفـارك

ويـا رجل هـاوٍ كم أقـالا عـثـارك

ولـستُ بِـبِـدعٍ حـين قـلت لـهـمـتي:

أقـلي لإعـتـاب الـزمـان انـتـظـارك

فـلـلـه صـدق الـعـزم، أيـةُ غِـرةٍ

إذا لم تـطـيـعي في «لـعلّ» اغـتـرارك!

فإن غـالتِ الـبـيـدُ اصـطـبـارك والـسُّرى

فـمـا غـالَ ضـيمُ الـكـاشـحـين اصـطـبـارك

ويـا خُـلـةَ الـتـسـويف قـومي فـأغـدفي[3]

قـنـاعـك من دونـي وشـدي إزارك

وحـسـبك بي يـا خُـلـة الـنـأي، خـاطـري

بـنـفـسي إلى الحظ الـنـفـيس خِـطـارك

---

(١) في الأصل: الدنيا، وبها لا يستقيم الوزن ولا المعنى، وقد آثرنا رواية الإحاطة.

(٢) كذا في الأصل وفي الإحاطة، ونلاحظ أنه لكي يستقيم الوزن فإنه ينبغي أن تنطق هذه الكلمة باشباع كسرة الكاف حتى تبدو كأنها متبوعة بياء ساكنة أي هكذا: «عينكي» إذ لم يجيء في عروض الطويل «فعلن» مكان «فعولن» أي بحذف الثالث الساكن، فالزحاف لا يدخل في شيء من الأوتاد وإنما يدخل في الأسباب خاصة، أما معنى «عينك لاضمارك» فإن الضمار هو خلاف العيان.

فـقـد آن إعـطـاء الـنـوى صـفـقـة الـهـوى
وقـــولـكِ للأيـــام: حـــوري مَـــحـــارك[1]
ويـا سُـتُـرَ الـبِـيض الـنـواعم أَعْـلِـنِي
إلى الـــيـــعـــملات والـــرحـــال سِـــرارك[2]
نـــواجيَ واســتــودعــتــهن نـــواجــيــاً
حِــفــاظَكِ يـــا هـــذي بـــذي وازدهــــارك[3]
ودونـكِ أفلاذَ الــــفــــؤاد فــــشـــمــــري
ودونك يـــا عـــينَ الـــلـــبـــيب اعــتـــبـــارك
صرفتُ الـكـرى عـنـهـا بـمـغـتَـبَـق[4] الـسُّـرى
وقـــلـتُ: أديــــري والــــنــــجـــومَ عُـــقــــارك
فـإن وجـبتْ لـلـمـغـربَـين[5] جُـنـوبُـهـا[6]
فـــداوي بـــرقـــراق الــــســــراب خُـــمــــارك
وأوري[7] بـــزنْـــدَيْ سُـــدفـــة ودُجُـــنَّـــةٍ
إذا كـــانـــتـــا لي مَـــرْخَكِ وعَـــفـــارك[8]
وإن خـــلـــع الـــلـــيلُ الأصـــائلَ فـــاخـــلـــعي
إلى الـــمَـــلِـــكَـــيْنِ[9] الأكـــرمـــين عِـــذارك
«بـلـنـسـيـةٌ» مـثـوى الأمـانيِّ فـاطـلـبي
كـــنـــوزك في أقـــطـــارهـــا[10] وادخـــارك

(١) الحور هو التغير من حال إلى حال. وفي الأعمال والإحاطة: جوري مجارك، من الجور أي الظلم، وهذه القراءة تصلح أيضاً لمعنى البيت.
(٢) أع وإح: أعملي... بدارك، وبها يستقيم المعنى أيضاً. وقد جاء في الأعمال «والرجال» بدلاً من «الرحال».
(٣) الازدهار بالشيء هو الاحتفاظ به.
(٤) إح: بمعتنق.
(٥) إح: للمقوين.
(٦) أع: وجوبها.
(٧) إح: فأوري.
(٨) المرخ والعفار ضربان من الشجر، وإنما اختصهما بالذكر لأن النار تقتدح من أغصانهما ولهذا فالعرب تضرب بهما المثل في الشرف العالي. ونلاحظ هنا أن «مرخك» ينبغي أن تنطق باشباع كسرة الكاف حتى يستقيم الوزن كما سبق أن ذكرنا في بيت سابق.
(٩) إح: المالكين.
(١٠) أع وإح: أعطانها، وبها يستقيم المعنى أيضاً.

سيـنـبـيكِ زجـري عن «بلاء نَـسِيـتُه»
إذا أصـبـحت تـلك الـقـصـور قُـصـارك
وأُظْـفِـرَ سـعيٌ بـالـرِّضَـا من «مُـظـفرٍ»[1]
وبــورك لي في حــسن رأيٍ «مــبــارك»
فَـظِمءٌ[2] المـنى قد شـام بـارقـة الحـيـا
وأُنـشـقْتِ[3] يـا ظـئـر الـرجـاء حُـوارك[4]
وحـمـداً يمـيـني قـد تـملأتِ بـالمـنى
وشـكـراً يـسـاري قـد حَـوَيْتِ يـسـارك
وقُلْ لـسـمـاء المـزن: إن شـئـت أقـلـعي
ويـا أرضـنـا[5] إن شئت غـيـضي بـحـارك
ولاتـوحـشي يـا دولـة الـعـز[6] والـنـدى[7]
مـسـاءك من نُـورَيْـهـمـا وابـتـكـارك

****

(١) ورد هذا الشطر في «المغرب في حلي المغرب» لابن سعيد (ط. الدكتور شوقي ضيف) ٢/٢٩٩ هكذا: وأظفرت أمالي بقصد مظفر.

(٢) إح: قصي.

(٣) هذه الكلمة ناقصة في الإحاطة.

(٤) إح: جوارك. والظئر هي المرضعة، والحوار هو ولد الناقة من حين يوضع إلى أن يفطم. وأنشق الدابة ولدها أي قربه إليها حتى تشمه.

(٥) أع وإح: ويا أرضها.

(٦) أع: البأس.

(٧) إح: والمنى.

(٣٦)

وله في لبيب العامري(*) رحمهما الله بطرطوشة فتحها الله.

[من الكامل]

هل تَثْنِينَّ غُروبَ دمعٍ ساكب
مِنْ شامَ بارقة الغمام الصائب

أبت العزيمة من فؤاد جامد
أن تستقيد لماء جفنٍ ذائب

مِنْ ترمهِ حَدَقُ المكارم تُصْبه
عن مُصْبيَاتِ أحبَّةٍ وحبائب

ففراق ربات الخدور مُكفَّرٌ
بلقاء نجم المكرمات الثاقب

قالت وقد مزج الوداع مدامعاً
بمدامع وترائباً بترائب(١)

أَتفرُّقٌ حتى بمنزل غربةٍ؟
كم نحن للأيام نُهْبَةُ ناهب!

(*) لبيب الصقلبي كان من موالي الدولة العامرية، اشترك مع خيران العامري ومنذر التجيبي في القيام بأمر عبدالرحمن بن محمد المرتضى حتى قتل في سنة ٤٠٩، ثم استولى على طرطوشة ويبدو أنه كان يدين بلون من التبعية لمبارك صاحب بلنسية إذ يذكر ابن الخطيب أنه استغاث به حينما طمع منذر بن يحيى صاحب سرقسطة في بلده طرطوشة، فخرج إليه مبارك وهزم منذراً هزيمة شديدة (أعمال ص ٢٢٦)، ولما مات مبارك في سنة ٤٠٩ اتفق أهل بلنسية على تقديم لبيب عليها فأحدث أحداثاً مقتوه بها ولاذ بأمير الافرنج (قومس برشلونة) حتى صير نفسه كبعض أتباعه، فثار عليه البلنسيون وأمروا عليهم عبدالعزيز بن عبدالرحمن ابن أبي عامر، وهرب لبيب إلى طرطوشة وانفرد بها حتى عزل عنها في تاريخ غير معروف قد يكون سنة ١٠٣٦/٤٢٧ (انظر بريتو إي فيفس: ملوك الطوائف ص ٣٧ – ٣٩ والدكتور أحمد مختار العبادي: الصقالبة في إسبانيا ص ١٩ – ويلاحظ أن هذين المرجعين يسميانه «نبيلاً» بدلاً من «لبيب»).

(١) ورد هذا البيت والذي يليه في نفح الطيب للمقري (١٩٦/٣).

في كل يـوم مُـنـتـوًى[1] مـتـبـاعـدٌ

يـرمي حـشاشـة شـمـلـنـا المـتـقـارب

وثـنـت تُـذَكِّـرُ مُـقْـرَبـاتِ سـفـائن

عُـذنـا بـهـا من مُـقـفـرات سـبـاسب

أيـام تُـؤنـسـنـا فَلاً وسـواحلٌ

عن آنـسـاتِ مَـقـاصـر وملاعب

نـعب الـغـراب بـهـا فـطـار بـأهـلـهـا

سـربـاً عـلـى مـثل الـغـراب الـنـاعب[2]

خَـرِقُ الجـنـاحِ إلى الـريـاح[3] مـضـلَّلٌ

بـشـمـائل[4] لـعـبت به وجـنـائب

يـهـوي بـذي طـمـرين مـزَّق لـبـسـهـا

أيـدي لـواهفَ لـلـنـفـوس نـوادب

في غَـوْل ذي لجج ٍلـبـسن ديـاجـيـاً

تـرك الحـيـاةَ لـنـا كـأمس الـذاهب

قـاسَـيْـتُـهن غـواربـاً كـغـيـاهب

وسـريـتُـهُنَّ غـيـاهـبـاً كـغـوارب

نجـلـو ظلام الـلـيل قـبل صـبـاحه

بـلـظى زفـيـرٍ أو بـرأسٍ شـائب

يـا هـذه لـله تـلـك حـدائـقـا

زهـراتـهن مـفـارقي وذوائـبي

مـثل الـريـاض تـفـتـحتْ أكـمـامُـهـا

عن مُـحـكـمـات بـصـائـري وتجـاربي

---

(١) في الأصل: منشوى.

(٢) ورد هذا البيت والذي يليه في شرح الشريف الغرناطي على مقصورة حازم (١٤٠/١)، إلا أنه جاء فيه «بنا» بدلاً من «بها».

(٣) في الأصل «الرياض»، وقد آثرنا رواية الشريف الغرناطي.

(٤) في شرح المقصورة: لشمائل.

فــدَخَــرتُ للألـــبـــاب كِــفَّـــة حـــابلٍ[1]
ولأشـــطُـــرِ الأيـــامِ كَـــفَّيْ حـــالب
ورمـــيتُ آفـــاقَ الـــعـــراق بـــشُـــرَّدٍ
لـيس الـعـجـائب عـنـدهـا بـعـجـائب
من كل ســـاحـــرةٍ كـــأن رَويَّـــهـــا
في ألـــسن الـــراوين ريـــقـــةُ كـــاعب
ولــكم وصــلتُ تــنــائــفــاً بــتــنــائف
حــتى وصــلت مــشــارقــاً بمــغــارب
فــكــأنَّــمــا قَــفَّــيْتُ إثــر بــدائــعي
في الأرض أو نـــاويتُ شـــأو غـــرائـــبي
أو رمت حـظي في الـسـمـاء وقـد جـرى
لمـداه في فـلـك الـفـضـاء الـغـائب
ولـــئن دجت لـي الـحـادثـات فـمـا أرى
نـــورَ الـــيـــقـــين بـــطـــرف ظنٍ كـــاذب
صـــدقـــتـــنيَ الأنـــبـــاءُ ضـــربـــة لازمٍ
أنْ لـــيس هَمُّ الـــدهـــر ضـــربـــةَ لازب
فـشـفـيتُ في حُـر الـتـجـمل غُـلَّـتي
وقـضـيت من حـسن الـعـزاء مـآربي
وحــرَسْتُ عِــرضي بــالــتــوكل، من نــأى
عـــني بـــجـــانـــبه نـــأيت بـــجـــانـــبي
ولـــقـــد رأيتُ الجِـــدَّ لـــيس بـــبـــالغٍ
والـعـجـزَ لـيس عن الـصـراط بـنـاكب
كم قـد سـعـدت بمـا تـمـنى حـاسـدي
قـدراً وخـبت بمـا تـخـيـر صـاحـبي

(١) كفة الحابل هي شباك الصائد.

ووجـدتُ طـعمَ الـسُّم في شـهـد الجـنى
وأُجــاج شـُـربي في نمــيــر مــشــاربي
ورفـلت في الـنـعم الـسـوابغ، مُـلـبِسي
أثـوابَـهـا الـدهـرُ الـذي هـو سـالـبي
يــا ربــة الخــدر اسـتــجـدي سَـلـوةً
جَــدَّ الــنَّــجــاءُ بــهــائمٍ بك لاعب
إمـا شَـجِـيتِ بـرحـلـتي فـاسـتـبـشـري
بـجـمـيل ظـنـي من جـمـيل عـواقـبي
ولـئن جـنـيتُ[1] عـلـيك تـرحـة[2] راحلٍ
فـأنـا الـزعـيم[3] لـهـا بـفـرحـة آيب
هل أبـصـرت عـيـنـاك بـدراً طـالـعـاً
فـي الأُفْـق إلا مـن هـلالٍ غــــارب
والـلـهُ من بَـعـدي عـلـيك خـلـيـفـتي
وخـلـيـفـةٌ هُـديتْ إلـيه مـذاهـبي
بـيـني وبـيـنك أن يُـلـبِّيَ دعـوتي
داعي «لـبـيبٍ» من مُـنـاخ ركـائـبي
وأُهِلَّ نـحـو فـنـائه وعـطـائه
فـيـهل نـحـو وسـائـلي ورغـائـبي
وأَشـيمَ بـرق يمـيـنه وجـبـيـنه
ويـشـم ريح أواصـري ومـطـالـبي
وأَهُـزَّه بـشـوافع من عـامـرٍ
تـزري بـكل قـرابـةٍ ومـنـاسب

(١) في الأصل: حنيت، وقد آثرنا رواية المقري في نفح الطيب (١٩٦/٣) وابن سعيد: المغرب في حلي المغرب (ط. الدكتور شوقي ضيف) ٦١/٢.
(٢) في النفح: نزحة.
(٣) في المغرب: الضمين.

فهُناك جاءتكِ الخطوبُ خواضعاً
ومشى إليكِ الدهرُ مِشيةَ تائب
وأناب سلطان النوائب وانثنت
ذُلُلاً وأعتب كل مولى عاتب
ملكٌ متى أرم الحوادث باسمه
تقتل أفاعيَها سُمومُ عقاربي
الرافعُ[1] الأعلامَ فوق خوافقٍ
والقائد الآساد فوق شوازب
ملكٌ تكرم عن خلائق غادرٍ
فأثابه الرحمن قدرة غالب
يقضي فيُمضي كل حق واجب
إلا إذا أعطى ففوق الواجب
قُفْلٌ على الإسلام ممنوعٌ له
عن قلب كل معاندٍ ومُناصب
لايخلعُ الإسلامُ حلة آمنٍ
منه ولا الإشراك ربقة هائب
حَرَمُ الهدى، سم العدى، أمنية
لمسالمٍ، ومَنيةٌ لمُحارب
وقفٌ على علَمِ الثغور، مقاربٌ
لمباعدٍ، ومباعدٌ لمقارب
فمراقبُ الإسلامِ غيرُ مراقبٍ
ومُصاقِبُ الأعداء غيرُ مصاقب
مُوفٍ بعلياء الثغور لرغبة
من راغب[2]، أو رهبةٍ من راهب
تُضحي عطاياه تحيةَ زائرٍ
وتبيت روعتُه نجية هارب

(١) في الأصل: الدافع، والصواب ما أثبتنا، وهكذا جاءت في ق.
(٢) في الأصل: رغبة، والصواب ما أثبتنا، وهكذا جاءت في «ق».

يامن يلاقي[1] النازلين قبابَه

بجبين موهوب وراحة واهب

وإذا التقى الجمعان أولُ طاعنٍ

وإذا استحر الطعن أول ضارب

وإذا تئوب الخيل آخر نازلٍ

وإذا دعا الداعي فأولُ راكب

كرمت أياديك التي أنشأتها

أتراب كل مؤمل أو راغب

من كل بكرٍ في يمينك حرة

يرفلن بين قلائد وجلابب

هذي لأول خاطب ولِدَاتُها

يهتفن في الآفاق: هل من خاطب؟

ويجل قدرك عن ولادة «يافث»

أو قيصرٍ أو عن أروم صقالب

بل أنت بكر غمامةٍ من بارق

لقحت به أو صعدةٍ من قاضب

قبلتك أيدي همةٍ وسيادةٍ

ورضعت دَرَّ مكارمٍ ومواهب

في عز مهدٍ ما استقر مكانُه

إلا بقرب منابر ومحارب

وفُطِمت يوم فطمت في رهج[2] الوغى

عند التفاف كتائب بكتائب

حتى حللت من السماء مراتباً

تركت كواكبها بغير مراتب

---

(١) في الأصل: يلافي.

(٢) في الأصل: وهج، والتصويب عن «ق».

فلئن طلبت هناك حقاً صاعداً
فلأنت أقرب من وريد الطالب
ولئن وهبت لقد وهبت مساعياً
أصبحن حلي مآثري ومناقبي
شيماً بها حليتُ غُرَّ قصائدي
وجعلتهن أهلة لكواكبي
وذخرتُ للأزمان من حسناتها
مثل القلائد في نحور كواعب
ولأشفين بها سقام تغربي
ولآسُوَنَّ بها جراح مصائبي
ولأجعلنْ منها تمائم خائفٍ
من طائفٍ أو من رجاءٍ خائب
ولأتركَنَّ ثناءها وجزاءها
قوت المقيم غداً وزاد الراكب
وسرور محزونٍ وأنس مغرَّب
وحُلِيَّ أوتارٍ وروضة شارب
ولقد نثرتُ عليك شكلك جوهراً
«لا ما قَمَشْتُ[1] وضمَّ حبلُ الحاطب»[2]

****

(١) قمش أي جمع الشيء من ها هنا وها هنا.
(٢) في هذا المصراع تضمين لشطر بيت لموسى بن جابر الحنفي من قطعة في حماسة أبي تمام (انظر شرح الحماسة للمرزوقي، رقم ١٢٢، الجزء الأول ص ٣٦٣، وتمام البيت:
منهم ليوث لا ترام وبعضهم　　مما قمشت وضم حبل الحاطب

(٣٧)

وله في بعض رؤساء الكتاب رحمهما الله.

[من المتقارب]

سلامٌ وهُنِّيتُ فيك السلامهْ
وعمراً أُهنّي الليالي دوامهْ
ومَقدمُ يومٍ تجليت فيه
كريماً تحلى بتاج الكرامه
كما رُفِعتْ مظلمات العيونِ
إلى قمر طالعٍ في غمامه
ومُلِّيتَ مُلْك الرِّضا من مليكٍ
إذا سَلَّ رأيك أمضى حُسامه
مُفِيقَ[1] سهامٍ تباري القضاء
وقائد خيلٍ تباري سهامه
إلى غزوةٍ ما عدا أن أطاع
بها ربه ثم أرضى إمامه
تسربل بأساً يكاد الحِمامُ
إذا صال يرهب فيه حِمامه
فلا نسيَ اللهُ والمسلمو
ن والمُلْكُ والدينُ فيها مقامَه
وقد هاج مُصْعَبُ هيجائِها
بكفٍ تعالت فجَبَّتْ سنامه

---

(١) أفاق السهم أي وضعه في الوتر ليرمي به.

وزيـــــراً تحـــــمل أعـــــبـــــاءَ مُـــــلْكٍ
كـــمـــا نِـــيطَ بـــالـــسـيف أذيـــالُ لامه
ولـــــله ســــعــــيُك في الـــله يـــومـــاً
تـــقـــنـــعتِ الـــشـــمسُ مـــنه غـــمـــامه
تُـــــفـــــلل[1] خَـــــدّاً تـــــعـــــالتْ ذُراه
وتـــطـــفِئ جـــمـــراً يـــشب اضـــطـــرامه
بمـــــا أنـــــبت الخط إلا شـــــبـــــاه
ومـــا يـــنـــبت الخط حـــتى نـــظـــامه
سِـــنـــانـــاً ســـنـــنت له المـــأثُـــرَاتِ
وثـــقـــفه الـــعـــدل حـــتى أقـــامه
فـــأوقـــد في كل نجـــدٍ ســـنـــاه
وأَهْـــــدى إلى كل أَمْتٍ[2] قِـــــوامه
وأتـــبـــعه قـــلمٌ مـــا يـــنـــال
مُـــســـاجـــلُه في مـــداه قُلامه
فـصـيحُ الـشَّـبا مـا اسـتـمـد الـرضـاعَ
وأعـــجَمُ ســـاعـــة تـــنـــوي فـــطـــامه
يـــريك ظلام الـــدجى مـــشـــرقـــا
إذا مج في وجـه صـــــــبحٍ ظلامه
وإن أمـــطـــر المـــسكَ كـــافـــورَ أرضٍ
فـــقـــد فض عن كل طـــيبٍ خِـــتـــامه
تجـــهـــز لـــلـــخـــطْبِ فـصلُ الخـطـاب
فـــمـــلَّك أيـــدي الأمـــاني زمـــامه
وَوُشِّجَ لـــلـــسَّـــلْمِ مـــنك الـــسُّلامى
فـــأهـــدَى لـه كل أُفْقٍ سلامه
وقـــلـــدته ســـيف رأي وحـــزمٍ
يـــضيء الـــظَّلاَمَ ويـــأبى الـــظُّلامه

---

(١) في الأصل: تعلل، والتصويب عن «ق».
(٢) الأمت هو العوج.

سلاحاً قتلت بهن الحُقودَ
وخيلاً غنمت بهن السلامه
فرُبَّ تلاقٍ أباحت حماهُ
ورُبَّ اعتناق أحلَّت حرامه
وليس بأول شَعْبٍ رأبت[1]
ولاصَدْعِ شَمْلٍ ضمنت التئامه
فما دويَ الثغرُ إلا بعثتَ
إليه شمائل[2] تشفي سقامه
ولا ظمئ الدهر إلا سكبت
عليه سحائب تُروي أُوامه
ذكاء زكا فاحتبى[3] ثوب حِلمٍ
كما احتبتِ الماءَ نارُ المُدامه
وآدابُ علمٍ تحلت بهَدْي
كهادي الجوادِ تحلَّى لِجامه
كأن العُلا خُيِّرت في الوُلاة
وأُعطِيَ سلطانهن احتكامه
فأعطاكَ حُرُّ الخطاب المقادَ
وولاَّكَ دُرُّ المقال انتظامه
فلو غبت يوم استباق الكرام
لوافاك ذو السبق منها أمامه
وكيف وما ضاع حق لحر
تُراعي حماه وترعى سوامه
وكيف يقصر عن غايةٍ
فتى شد طفلاً إليها حزامه؟
وعندك أُبلِغَ ساعٍ مَداهُ
وعندك أدركَ جفنٌ منامه

---

(١) في الأصل: رأيت.
(٢) كلمة مطموسة في الأصل، وقد أضفناها نقلاً عن «ق».
(٣) في الأصل: فاحتوى، وقد آثرنا ما ورد في «ق».

وكم من يدٍ حرة عند حرٍ
تطوقها منك طوق الحمامه
وأنت غفرت ذنوب الزمان
إليَّ وكفَّرت عندي أثامه
فإن ذكَّرتني ليالي المُقام
لديك نعيماً بدار المقُامه
فكم لُجٍّ بحرٍ وضحضاح قفرٍ
أجولُ الفلا بين غُولٍ وهامه
مُعَنًّى بأفلاذ قلبٍ حوام
تُباري إلى كلِّ ماء سَمامه(1)
وكلهم نَمِريٌّ وإني
لكلٍّ هنالك «كعبُ بن مامه»(2)
وأعْذر مُبلِغُهم حيث ألقَوْا
عِصيَّ النوى ورحال السآمه
وأُنْسُوا ببحرك موج البحار
ومَيْدَ السفين بها وارتطامه
وظلُّكَ أنساهمُ ليل همٍّ
يُقاسون في ليل يمٍّ غرامه
ونورُك أنساهمُ آل قفرٍ
وحرَّ الهجير بها واحتدامه
ووعدُك بالفضل أنساهمُ
وعيد الردى حيث حلوا خيامه

---

(1) السمام ضرب من الطير نحو السماني.
(2) يشير ابن دراج هنا إلى ما يذكر عن كعب بن مامة الإيادي – أحد أجواد العرب المشهورين – من إيثاره رفيقه النمري بالماء حتى مات عطشاً ونجا النمري (انظر ابن عبد ربه: العقد الفريد – ط. القاهرة سنة ١٩٤٨ – ٢٩٣/١).

ولــــــيس عـــــــلى زمنٍ قـــــــادني
إلـــيك - وإن شف نـــفـــسي - ملامه
وأنت كـــســـوت نجـــومي ســـنـــاهـــا
فلاحت، وأمـــطـــرتَ روضي غـــمـــامه
وأدنـــيت من «مَـــدٍّ» كـــفي جـــنـــاهـــا
وقـــربت من مَـــرِّ ســـهـــمي مـــرامه
وأنت أســـوت عـــلى حُـــر وجـــهي
«جـــراح أكف أضـــاعت»[1] ذِمـــامه
فـإن يـــصـــدُقِ الجَـــدُّ صـــدق «الـــوفـــا
ء»[2] مـــنك فـــقـــد نـــال بـــدرٌ تـــمـــامه
وأرطبَ زهـــوُ الأمـــاني فـــجـــاءت
مُـــبـــاكَـــرَةُ الحـــمـــد تـــبـــغي صِـــرامه[3]
وصـــدقُ الـــوفـــاء بـــصـــدق الـــرجـــاء
فـــهل يـــنـــظـــرُ الـــدهـــرُ إلا تَـــمـــامه؟

****

(١) هذه الكلمة ناقصة في الأصل، وقد استكملناها عن «ق».
(٢) هذه الكلمات مطموسة تماماً في الأصل، والإضافة عن «ق».
(٣) صرام الثمرة هو اجتناؤها وقطعها.

(٣٨)

وقال يرثي السيدة أم هشام أمير المؤمنين المؤيد بالله[*] رحمهم الله تعالى وعفا عنه[١].

[من المتقارب]

بـــــقـــــاءُ الخلائقِ رهنُ الـــــفَـــــنـــــاءِ
وقــصــر الــتــداني وشــيك الــتــنــائي

لـــــقـــــد حل منْ يـــــومُه لاقـــــتـــــرابٍ
وقــد حـــان من عـــمـــرُه لانـــتـــهـــاء

هل الـــمُـــلْكُ يمـــلِكُ ريْبَ المـــنـــونِ؟
أم الــعــز يــصــرف صــرف الــقــضــاء؟

هــو[٢] المــوت يــصــدع شــمل الجــمــيع
ويــكــسُــو الــربــوع ثــيــاب الــعــفــاء

يــبــز[٣] الحــيــاة بــبــطشٍ شــديــدٍ
ويــلــقى الــنــفــوس بــداءٍ عــيــاء

ألم تــر كـــيف اســتــبــاحت يــداه
كــريم[٤] المــلــوك وعــلق الــســنــاء[٥]؟

(*) هي صبح زوجة الحكم المستنصر وأم ولده هشام المؤيد كانت بشكنسية الأصل وكانت حظية لديه مما جعل نفوذها كبيراً في تسيير أمور الدولة لا سيما بعد أن ولدت له هشاماً في سنة ٩٦٥/٣٥٤، وينسب إليها بعض الفضل في ترقية المنصور بن أبي عامر في مناصب الدولة، ثم ساءت العلاقات بينهما، وتوفيت صبح في أثناء حجابة المنصور في ٢٩ من ذي الحجة سنة ٣٨٩ (١١ ديسمبر سنة ٩٩٩). والقصيدة الواردة هنا ينبغي أن تكون في هذا التاريخ. (انظر ليفي بروفنسال: تاريخ ٢٠٢/٢ – ٢٠٤، ٢٠٨ – ٢١١، ٢١٥ – ٢١٩، ٢٣٠ – ٢٣١).

(١) اختار الثعالبي في «يتيمة الدهر» من هذه القصيدة خمسة وعشرين بيتاً، انظر ١٠٩/٢ – ١١٠.

(٢) بت: أرى.

(٣) بت: يبيد.

(٤) يت: حريم.

(٥) كذا في الأصل وفي «ق»، وفي اليتيمة «النساء»، وربما كانت أقرب إلى المراد.

ووافى بـــــســــيـــــدة الـــسَّـــيِّـــدَا
ت مــأوى الــبــلى ومُــنــاخ الــفــنــاء؟
هــو الــرزء ألــوى بــعــزم الــقــلــوب[1]
مــصــابــاً، وأودى بــحــسن الــعــزاء
فــمــا في الــعــويل له من كــفيء[2]
ولا في الـــدمـــوع لـه من شـــفـــاء
فــهــيــهــات فــيه غَــنــاءُ الــزفــيــر
وهــيــهــات مــنه[3] انــتــصــار الــبــكــاء
وأنَّى يُـــدافَعُ سُـــقمٌ بـــسُـــقمٍ؟
وكـــيف يــعـــالج داءٌ بـــداء؟
فـــتـــلك مـــآقي جـــفـــونٍ رِوَاءٍ
مُـــفَـــجَّـــرة من قُـــلـــوب ظـــمـــاء
فلا صـــدر إلا حـــريقٌ بـــنـــارٍ
ولاجـــفن إلا غـــريقٌ بمـــاء
فــقــد كــاد يــصــدع صُمَّ الــسِّلامِ
ويُــضــرم نــار الأسى في الــهــواء
وجَــيبُ الــقــلــوب، وشقُّ الجــيــوب،
وشــجــوُ الــنــحــيب، ولــهفُ الــنــداء
فــمن مــقــلــةٍ شــرقت بــالــدمــوع
ومن وجــنــةٍ شــرقت[4] بــالــدمــاء
وســافــرة من قــنــاع الحــيــاء
ونــابــذةٍ صــبــرهــا بــالــعــراء
وبِــيضٍ صــبــغن بــلــون الحِــدا
دِ حُــمْــرَ الــبــنــود[5] وبــيــضَ الــمُلاء

(١) يت: هو الرزء أودى بعزم الملوك.
(٢) يت: كفاء.
(٣) يت: فيه.
(٤) يت: غرقت.
(٥) يت: البرود.

نـواشجَ في سـابـغـات الـمُـسـوحِ
وضـافي الـشـعـور بـلُـبسٍ سـواءِ
أَنَـجْـمـاً هـوى في سـمـاء المـعـالي
لـتـبكِ عـلـيكِ[1] نجـومُ الـسـمـاء
فـحـاشى[2] لـرُزئكِ أن يـقـتـضـيه
عـويلُ الـرجـال ولَـدْمُ[3] الـنـسـاء
لـبـيض أيـاديك في الـصـالحـات
تـمـسك وجه الـضـحى بـالـضـيـاء
وقَلَّ لـفـقـدك[4] أن يـحْـتَـبي
عـلـيه الـصـبـاح بـثـوب المـسـاء
فـيـا أسف الـمُـلْك من ذات عـز
تـعـوض مـنـهـا بـعـز الـعـزاء
ورَوْحَ الـقـبـور لمجـدٍ مُـقـيمٍ
وتـرْح الـقـصـور لـربعٍ خلاء
ولـو قَـبِلَ المـوتُ مـنـهـا الـفِـداءَ
لـضـاق الأنـام لـهـا عن فـداء[5]
لـئن حُـجِـبَتْ تحت ردم الـلـحـود
ومن قَـبْلُ في شُـرُفـات الـعلاء
فـتـلك مـآثـرهـا في الـتـقى
وبـذلِ الـلُّـهَى مـالـهـا[6] من خـفـاء

(١) في الأصل: عليه وقد آثرنا رواية اليتيمة و«ق».
(٢) يت: وحاشى.
(٣) اللدم هو ضرب المرأة صدرها.
(٤) يت: فقل لفقيدك.
(٥) ورد هذا البيت والأبيات الأربعة التالية في مختارات ابن الكستاني الطبيب في كتابه «التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، القطعة رقم ٦١١ ص ٢٧٤.

جزاكِ بأعمالك الزاكيا
تِ خير المُجازين خيرَ الجزاءِ
ولُقِّيتِ في ضنك ذاك الضريح
نسيمَ النعيم وطيب الثَّواء
فيا رُبَّ زلفى لدى المشرقيـ
ـن أَبْضَعْتِ فابتعْتِها بالعَلاء
وعاري الجناحين نُبِّئتِ عنه
فأمسى وقد رِشْتِهِ بالعطاء
ودعوة عانٍ بأقصى الدروبِ
سمعت لوجه سميع الدعاء
وذي حُبوةٍ بفِناء المقام
سنحتِ له بسِجَال الحِباء
فلله من طارقٍ لليالي
رماك بيوم كيومٍ «البَراء»[1]
فوَدَّعتِ فيه إمام الهدى
وَداعَ نوىً ماالها من لقاء
نجيبَك والمصطفى للخلافـ
ـة من سلفَيْ خاتَم الأنبياء
وما ردَّ عنك سِهامَ الحِمام
بحرز الجناب وعز الفِناء
ودهرٍ مطيعٍ وسورٍ منيعٍ
وقصرٍ رفيعٍ مَشيدِ البناء

---

(١) لعله يعني بيوم البراء يوم الكلاب الثاني – من أيام العرب المشهورة في الجاهلية – وهو الذي كان بين قبائل اليمن وأحلافها من قضاعة وتميم، وكان رئيس كندة – من اليمنية – هو البراء بن قيس بن الحارث، وفيه حلت الهزيمة على مذحج وأحلافها من القبائل اليمنية (انظر ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/٢٢٤ وما بعدها، وأبا الفرج الإصبهاني – ط. الساسي – ١٥/٧٠ وبعدها، وابن الأثير: الكامل – ط. منير الدمشقي سنة ١٣٤٨هـ – ١/٣٧٨ وما يليها).

وزأرِ الأســود وخــفق الــبــنــود
وجــمع الحــشــود بمِلء الــفــضــاء
بــكل كـــميٍّ جـــرئ الجَـــنـــان
وكل أمـــيـــرٍ مُـــنـــيف الـــلـــواء
ووالٍ رعى الـــلـــهُ مـــا قـــد رعـــاه
فــأبلاه في الـــصـــنع خـــيـــر الـــبلاء
تـــبـــلـــج عـــنه ســـنـــا يـــعـــربٍ
تـــبـــلـــجَ قَـــرن الـــضـــحى عن ذُكـــاء
وهُـــزت مـــضـــاربُه عن حُـــســـامٍ
وفُـــرَّت نـــواجـــذُه عن ذكـــاءِ
فــتى قـــارض الـــله عن نـــفس حـــرٍ
بـــراهـــا لـــتـــخـــلـــيـــد حُـــرِّ الـــثـــنـــاء
وأقـــحـــمـــهـــا مـــخـــطـــرات الحـــروب
وأحـــبـــســـهـــا في ســـبـــيل الـــســـواء[1]
وجـــاهـــد في الـــله حق الجـــهـــاد
وأغـــنى عن الـــمُـــلْك حق الـــغَـــنـــاء
وشـــد عـــلى الـــدين ســـور الأمـــان
وســـد عن الـــشـــرك بـــاب الـــنَّـــجـــاء
وســـــــيـــفٌ إذا لألأتْـــه الحـــــــرو
بُ طـــار الـــعُـــداة به كـــالـــهـــبـــاء
وألـــبـــسه الـــنـــصـــرُ ثـــوبَ الجلال
وتـــوجه الـــصـــبـــرُ تـــاج الـــبـــهـــاء
فـــلـــو أفـــصح الـــدهـــر عـــمـــا يُـــكِنُّ
لـــنـــاداه: يـــا صـــفـــوة الأولـــيـــاء!

(١) في «ق»: الوفاء.

هـُ (ـوَ الـمَلـِ)[1]ـكُ العامريُّ المسمَّى

يداه كَفِيلَيْ حياةِ الرجاء

عَزاءً إمامَ الهدى فالنفو

سُ ما إن سواك لها من عزاء

وعُوِّضْتَ منها جزيل الثواب

ومدَّ لك اللهُ طولَ البقاء

****

(١) غير واضحة في الأصل، والتكملة عن: «ق».

(٣٩)

وله في المنصور منذر بن يحيى(*) حين قدومه عليه سرقسطة وهو حينئذ حاجبٌ سنة ثمان وأربعمائة[1].

[من الكامل]

بشراك من طول الترحل والسرى
صبحٌ بِرَوْح السَّفْر لاح فأسفرا
من حاجب الشمس الذي حجب الدجى
فجراً[2] بأنهار الندى متفجراً
نادى بحيٍّ[3] على الندى ثم اعتلى
سُبَلَ[4] العُفاة مهللاً ومكبراً

(*) أبو الحكم منذر بن يحيى التجيبي كان قد ترقى إلى القيادة في الثغر الأعلى (سرقسطة) في آخر الدولة العامرية ثم اشترك في الفتنة القرطبية وأيد سليمان بن الحكم المستعين في دولته الثانية (سنة ١٠١٣/٤٠٣) فأقره على سرقسطة ثم قام مع خيران العامري بتدبير الأمر لعبدالرحمن المرتضى حتى غدرا به وتسببا في مصرعه (١٠١٩/٤٠٩)، ووقعت أحداث كثيرة بينه وبين جيرانه من ملوك الطوائف على أنه ظل متسلطاً على سرقسطة والثغر حتى وفاته سنة ١٠٢٢/٤١٢، وخلفه ابنه يحيى. وفي المراجع العربية اختلاط واضطراب كثير حول الدولة المنذرية في سرقسطة ومرد ذلك إلى الخلط بين منذر بن يحيى هذا وحفيد له يحمل نفس الاسم تولى سرقسطة أيضاً بعد ذلك (انظر بريتو إي فيفس: ملوك الطوائف ص ٤٣ – ٤٤)، وقد سبق أن تحدثنا بالتفصيل عن ذلك في مقدمة الديوان فليراجع هناك (ص ٧٥ – ٧٦ من ترقيم التصدير العام). وأما تاريخ هذه القصيدة فهو كما يبدو من نص الديوان سنة ٤٠٨، ويجعلها ابن الخطيب في أعمال الأعلام سنة ٤٢٨ (ص ١٩٨)، وهو خطأ تناقله كثير من المؤرخين والصواب ما أثبت جامع الديوان.

(١) انتخب ابن بسام من هذه القصيدة ثلاثين بيتاً (انظر الذخيرة ق ١ – ٧٣/١ – ٧٥ وأوردها لسان الدين بن الخطيب كاملة باستثناء بيت واحد في «الإحاطة» (مخطوطة الاسكوريال) ص ١٨٣ – ١٨٤، وبتحقيق محمد عبدالله عنان ٢٨١/٣ – ٢٨٥، كما أنه اختار منها أيضاً واحداً وخمسين بيتاً في «أعمال الأعلام» ص ١٩٨ – ٢٠٠، كذلك اختار منها ابن فضل الله العمري بيتين (مسالك ٢٠٢/١١)، هذا وقد سقط من هذه القصيدة بيت في الديوان فألحقناه بها كما سيأتي في موضعه.

(٢) أع و إح: فجرى.

(٣) أع: ناديت حي.

(٤) أع: سيل.

لــبـيك أســمَــعَــنــا نــداك ودونــنـــا

نــوْءَ الـكــواكب مُـخْـويـاً[1] أو مُـمْـطِـراً

من كل طــارق لــيلِ هَــمِّي[2] يــنــتــحي

وجـــهي بـــوجه من لـــقـــائك أزهـــرا

ســارٍ لـــيــعــدل عن ســمــائك أنجــمي

وقـد ازدهـاهــا عن سـنــاك مُـحَـيِّـرا[3]

فــكــأنمــا[4] أغــرته أســبــاب الــنــوى

قـــدَراً لــبُـــعــديَ عن يــديك مُـــقَــدَّرا

أو غـــار من هــمــمي فــأنــحى شــأوهــا

فَــلَكَ الــبــروجِ مُــغَــرِّبــاً ومُــغَــوِّرا

حــتى عــلــقتُ الــنــيِّــرين فــأعــلــقــا

مـثـنى يـدي مَـلِكَ الـمُـلـوكِ الـنـيِّـرا

فــسـريتُ في حــرم الأهــلــة مـظــلــمــاً

ورفـلتُ[5] في خِـلَعِ الـسَّـمـوم مُـهَـجِّـرا

وشـــعَــــبْتُ أفلاذَ الـــفـــؤاد ولم أكـــد

فــحــذوتُ من حــذو الــثــريــا مــنـظــرا

ستٌّ تـــســـرَّاهـــا الجلاءُ مُـــغـــربـــاً

وحـدا بـهـا حـادي الـنَّـجـاء[6] مُـشـمِّـرا

لا يــســتــفـيق الـصـبح مـنـهـا مـا بـدا

فـلــقـاً[7] ولا جـديُ الـفـراقـد مـا سـرى

---

(١) في الأصل: محويا، وقد آثرنا رواية «ق» وابن الخطيب في «الإحاطة» و«الأعمال» وابن بسام في «الذخيرة»، ويقال خوت النجوم وأخوت إذا أمحلت أو سقطت ولم تمطر في نوئها.

(٢) إح: هم.

(٣) في الأصل: مخبرا، وقد اخترنا رواية «الإحاطة».

(٤) إح: وكأنما أعدته أسباب النوى.

(٥) في الأصل: ورفعت، وقد اخترنا القراءة التي أجمعت عليها الذخيرة والإحاطة والأعمال.

(٦) أع: النواء.

(٧) إح: قلقا.

ظُـعُنٌ ألـفن الـقـفـر[1] في غَـوْلِ الـدجى
وتـركن مـألـوف المـعـاهـد مُـقْـفِـرا
يـطـلـبن لج الـبـحـر حـيث تـقـاذفت
أمـــواجُه والـــبَـــرَّ حـــيثُ تـــنـــكـــرا
هـــيمٌ ومـــا يـــبـــغـــين دونك مـــورداً
أبـداً ولا عن بـــحـــر جـــودك مـــصـــدرا
من كل نــضـــو الآل مـــحـــبـــوك المـــنى
يـزجـيه نـحـوك كل مـحـبـوك الـقَـرا[2]
بُـدُنٌ فـدت مـنـا دمـاء نـحـورهـا
بـبِـغـائـهـا[3] في كل أُفْقٍ مـنـحـرَا
نـحـرت بـنـا صـدر الـدَّبـور فـأنْـبَـطت
قـلقَ المـضـاجع تحت جَـوٍّ أكـدرا
وصبَتْ إلى نـحو[4] الصَّبا فاستخلصت
سكن الـلـيـالي والـنـهـار المـبـصـرا
خـوصٌ نـفـخن بـنـا الـبـرى حتى انـثـنت
أشلاؤهن كـمـثل أنـصـاف الـبُـرى
نـــذرت لــــنـــا ألا تُـلاقيَ راحـــةً
ممـــا تـلاقي أو تـلاقيَ «مُـــنـــذرا»
وتـقـاسـمت ألا تُـسـيغَ حـيـاتـهـا
دون «ابن يـحـيى» أو تـمـوتَ فَـتُـعْـذَرا
لـــله أيُّ أهـــلـــةٍ بـــلـــغت بـــنـــا
يمـنـاكَ يـا بـدرَ الـسـمـاء الـمُـقـمِـرا

(١) في الأصل: الفقر، والصواب ما أثبتنا، وهو ما اتفق عليه الذخيرة والإحاطة والأعمال.
(٢) القرا هو الظهر.
(٣) ذخ و أع: ببقائها، والبغاء هنا هو الطلب.
(٤) ذخ و أع: نحر.

بل أيُّ غـــصنٍ في ذَراك هــصــرتَه
نَــخِــرٍ[1] فــأورَقَ في يــديك وأثــمــرا
فـلـئن صـفـا مـاء الـحـيـاة لـديك لي
فـبـمـا شـرقتُ إلـيك بـالمـاء الـصَّـرى[2]
ولـئن خـلـعتَ عـلـيَّ بُـرداً أخـضـراً
فـلـقـد لـبـستُ إلـيك عَـيْـشـاً أغـبـرا[3]
ولـئن مـددتَ عـلـيَّ ظلاً بـارداً
فـلـكم صَـلِـيتُ إلـيك جـواً[4] مُـسـعَـراً
وكَـفَـاكَ منْ[5] جـعل الـحـيـاةَ بـضـاعـة
ورأى رضـاكَ بـهـا رخـيـصـاً فـاشـتـرى
فَـمَنِ الـمُـبَـلِّغُ عن غـريب نـازحٍ
قـلـبـاً يـكـادُ عـلـيَّ أن يـتـفـطـرا
لـهـفـانَ لا يـرتـد طـرفُ جـفـونه[6]
إلا تـذكـر عـبـرتي فـاسـتـعـبـرا
أَبُـنَـيَّ لا تـذهب بـنـفـسك حـسـرةٌ
عن غَـوْلِ رحـلـي مُـنـجـداً أو مُـغْـوِراً
فـلـئن تـركتَ الـلـيل فـوقيَ داجـيـاً
فـلـقـد لـقـيتُ الـصـبح بـعـدك أزهـرا
ولـقـد وردتُ مـيـاه «مَـاربَ» حُـفَّلاً
وأسَـمْتُ خـيـلـي وسْطَ جـنـةِ عـبـقـرا

---

(١) إح و أع: فجرى.
(٢) في الأصل: فبما شرقت إليك عيشاً أغبرا. والصواب ما أثبتنا وهو ما ورد في الذخيرة والإحاطة والأعمال، والماء الصرى هو الذي طال استنقاعه.
(٣) سقط هذا البيت من الأصل، وقد استكملناه نقلاً عن المراجع الثلاثة المذكورة فضلاً عن النسخة الخطية «ق».
(٤) إح و أع: حرا.
(٥) إح و أع: وكفى لمن.
(٦) إح و أع: لهفان لا يرتد في أجفانه.

ونـظـمتُ لـلـغـيـد الحـسـان قلائـداً
من تـاج كـسـرى ذي الـبـهـاء وقـيـصـرا
وحـلـلـتُ أرضـاً بُـدلتْ حـصـبـاؤُهـا
ذهــبـاً يـرف لـنـاظـريَ وجـوهـرا
ولــيـعـلمِ[1] الأملاكُ أنيَ بـعـدهم
ألـفـيتُ كل الـصـيْـد في جـوف الـفـرا
ورمـى عـلـيَّ رداءَه من دونـهـم
مـلـكٌ تُـخُـيِّـرَ لـلـعلا فـتَـخـيـرا
ضـربـوا قـداحَـهَمُ عـلـيَّ فـفـاز بي
من كـان بـالـقِـدْح المـعـلى أجـدرا
من فك طِـرفي من تـكـالـيف الـفلا
وأجـار طَـرفي من تـبـاريح الـسـرى
وكـفى عـتـابي من ألامَ مُـعَـذِّراً
وتـذممي ممن تجـمل مُـعْـذِرا
ومُـسـائِلٍ عـني الـرفـاقَ وودُّه
لـو تـنـبـذُ الـسـاداتُ[2] رحـليَ بـالـعـرا
وبـقـيتُ في لجج الأسى مـتـضـلـلاً
وعَـدَلتُ عن سُـبْل الـهـدى مُـتـحَـيِّـرا
كلا وقـد آنـستُ من «هـودٍ» هُـدًى
ولـقيت «يـعرب» في الـقُـيـولِ و«حِـمْـيَـرا»
وأصـبتُ في «سـبـأٍ» مُـورَّثَ مُـلْـكه[3]
يـسـبي المـلـوك ولا يَـدِبُّ لـهـا الـضَّـرا
فـكـأنمـا تـابـعتُ «تُـبَّعَ» رافـعـاً
أعلامَه مَـلِـكـاً يـدينُ له الـورى

(١) ذخ و أع: ولتعلم.
(٢) أع: الساحات.
(٣) ذخ: ملكها. ونلاحظ أن هذا هو البيت الوحيد الذي لم يرد في الإحاطة من هذه القصيدة.

و«الحارثَ الجفنيَّ» ممنوعَ الحمى
بالخيل والآساد مبذول القِرى

وحططتُ رحلي بين ناريْ[1] «حاتم»
أيامَ يقري موسراً أو مُعسرا

ولقيتُ «زيدَ الخيل» تحت عجاجة
يكسو[2] غلائلُها الجيادَ الضمرا

وعقدتُ في «يمن» مواثقَ ذمةٍ
مشدودة الأسباب مُوثَقة العُرى

وأتيت «بحدلَ»[3] «وهو»[4] يرفع منبراً
للدين والدنيا ويَخفِضُ منبرا

وخططتُ[5] بين جفانها وجفونها
حرَماً أبت حُرُماتُه أن تُخفَرا

تلك البحور[6] تتابعت وخلَفتَها
سعياً فكنت[7] الجوهر المتخيَّرا

ولقد نَموكَ ولادةً وسيادةً
وكسوك عزاً وابتنوا لك مفخرا

فعمرتَ بالإقبال[8] أكرم أكرمٍ
مُلكاً ورثتَ عُلاه أكبرا أكبرا

---

(١) إح: نادى.
(٢) ذخ و أع و إح: تكسو.
(٣) ذخ: نجدك، ولا معنى لها هنا، وإنما يقصد بحدل بن أنيف الكلبي الذي تزوج معاوية بن أبي سفيان (رضه) من بنته ميسون والدة ابنه يزيد، وقد كان لقبيلة كلب اليمنية التي ينتسب إليها بحدل هذا أعظم البلاء في نصرة الدعوة الأموية (انظر تاريخ الطبري – ط. القاهرة – ٢٤٣/٤).
(٤) هذه الكلمة ناقصة في الأصل.
(٥) في الأصل: وحططت، وقد اتبعنا قراءة الذخيرة والأعمال.
(٦) ذخ و أع: البدور.
(٧) إح: فكنت.

وشمائلٍ عبِقَتْ[1] بها سُبُل الهدى
وذرت على الآفاق مسكاً أذفرا
أهدَى إلى شغف القلوب من الهوى
وألذ في الأجفان من طعم[2] الكرى
ومشاهدٍ لك لم تكن أيامها
ظناً يريب ولا حديثاً يفترى
لاقيت فيها الموتَ أسود أدهماً
فذعرته بالسيف أبيض أحمرا
ولو اجتلى في زيٍّ قرنك مُعلماً
لتركته تحت العجاج معفرا
يا من تكبر بالتكرم قدرُه
حتى تكرم أن يُرى متكبِّراً
و«المنذرُ» الأعداءَ بالبشرى لنا
صدقت صفاتُك منذراً ومبشراً
ما صُوِّرَ الإيمانُ في قلب امرئ
حتى يراك الله فيه مصوَّراً
فارفع لها علم الهدى فلمثلها
رفعتك أعلام السيادة في الذرا
وانصر نُصرتَ من السماء فإنما
ناسبتَ[3] أنصار النبي لتُنصرا
واسلم ولا وجدوا لجوك منفساً[4]
في النائبات ولا لبحرك معبرا

****

(١) في الأصل: عنقت، والصواب ما أثبتنا وهو ما جاء في الإحاطة.
(٢) أع و إح: سنة.
(٣) إح: ناصبت.
(٤) إح: لجودك مقبسا.

(٤٠)

وقال فيه أيضاً رحمهما الله.

[من البسيط]

بُشراكِ أيتها الدنيا وبشرانا
أحياك بالعدل من بالأمن أحيانا
لعل آمالنا في الله قد صدقت
وصدْقَ موعده بالفتح قد آنا
وعودةً تمتري عفواً وعافية
ودعوة تقتضي صفحاً وغفرانا
تنسمي ريح روْح الله منشئة
غيوث رحمته سَحًّا وتهتانا
واستقبلي زهرة العقبى منورة
بالنَّوْرِ في روضة تهتز رضوانا
لَتُورِقَنْ شجرُ الدنيا لنا وَرِقاً
بسعدها وتُريقُ[1] الأرض عِقيانا
وتعبق الأرض من مسك وغالية
وتُمطرُ[2] المزنُ ياقوتاً ومرجانا
وقُلْ لمن قد أضل الشمس طالعة
لا تسر من بعدها في ليْل حيْرانا
ويا غريباً شريداً عن مواطنه
لتهنك الأرض أُلَّافاً وأوطانا

(١) لا تظهر من هذه الكلمة في الأصل إلا: ودق.
(٢) مطموسة لا يتبين منها إلا: حر.

ويا مَروعَ الضحى يزجي ظعائِنَه
عَرِّسْ بجَوْز الفَلاَ أمْناً وإيمانا
هاتيك شمسُ الهدى[1] في بُرْج أسْعُدِها
ودينُنا مُشرق في عِزِّ دنيانا
ودوحةُ الله زكَّى غرسها فزكت
أُكْلاً وظلا وأشجاراً وأغصانا
أوشكْ بها نعمة راقت لتحيينا
نعمى ويثمر ذاك الحسن إحسانا
خلافة الله في مثوى نُبُوته
وحفظُه قد تولى من تولانا
ودولة سبقت آمالنا كرماً
كأن ما قد تمنينا تمنانا
ودعوة أعلن الداعي فأسمعها
من قصر «قرطبةٍ» أقصى خُراسانا
وبيعة عرف الإسلامُ آيتها
فلم يخِرُّوا لها صُما وعميانا
كادت تحرك للأشجار ألسنةً
تدعو وتخرق للأحجار آذانا
للقاسمِ القائم الهادي الذي هُديت
إليه طاعتنا سراً وإعلانا[2]
وابنِ الذي كُتبتْ في اللوح طاعتُه
وَوُدُّ قرباه عند الله قُربانا

(١) في الأصل: ال......ى.

(٢) يشير في هذا البيت إلى القاسم بن حمود، ويبدو أن منذراً التزم طاعته في مبدأ الأمر، وينبغي أن يكون ذلك في سنة ٤٠٨، فنحن نعلم أن القاسم ولي الأمر بعد مقتل أخيه علي في أول ذي القعدة من هذه السنة (٢١ مارس سنة ١٠١٨)، وأن منذراً خلع طاعة القاسم بعد ذلك وقام مع خيران بتدبير الأمر لعبدالرحمن المرتضى (في العاشر ن ذي الحجة من هذه السنة/ ٢٩ أبريل سنة ١٠١٨)، ولهذا فإن قول هذه القصيدة ينبغي أن يكون بين

إمـــــامُـــــنـــــا وابنُ من أم الإله به
أهل الـــســمــاء ومن في أرضه دانـــا
تـلك المـنـابـر لم تـثـبت قـواعـدهـا
حـتى تحـلـين من ذكـراه تـيـجـانـا
بل الـكـتـائب لم تُـنـشـر صـحـائـفـهـا
حـتى رأته لـفـتـح الـلـه عُـنـوانـا
مـقـلـداً نـصل هـذا الـسـيف من يمن
في الـسلم والحرب تـمكـيـنـاً وإمكانا
نـصـيحـةٌ عـمت الـدنـيـا وسـاكـنَـهـا
نـوراً وأضـرمت الأعـداء نـيـرانـا
فـأصـبح «المـنـذر» المـنـصـور والـيَـنـا
والـقـاسمُ المـلكُ المـأمـونُ مـولانـا
من بـعـد فـتـرة أزمـان مـطـلـنَ به
وَدِدْنَ ألا نُـسـمِـيـهنَ أزمـانـا
يُـمـنـاه في قـائم الـسيف الـمُـقام[1] له
في الـعـدل والـقـسط عـنـد الـلـه مـيـزَانـا
رد الإلـه إلـيـه حـقَّ والـده
فـكلُّ حـق بـه ردٌّ لمن كـانـا
أحـيـا به لابن يـحـيى حق أوله
في نـصـرة الحق إقـراراً وإذعـانـا
حـكـمـاً بمـا نـطـقتْ فـيه ومـا صـدقت
شـهـادةُ الـلـه تـنـزيلاً وفُـرقـانـا
وأسـوةً بـرسـول الـلـه والـدهِ
فـيـمن تـخـيـر أنـصـاراً وجـيـرانـا

(١) في الأصل في موضع هذه الكلمة: الذي أقيم، وهو مالا يستقيم به الوزن، ولعل الصواب ما أثبتنا.

فحسبُ مؤثرِ هذا الحكم معدلةً
وحسبُ ناصر هذا الدين برهانا
فتى نماه إلى نصر الهدى نسب
لو قُدِّرَ البدرَ ليلَ[1] التِّمِّ لازدانا
من الذين وفت لله بيعتُهم
فأخلصوا العهد إيمانا وأيمانا
باعوا نفوسهمُ من ربهم فجُزُوا
خُلْدَ الثناء وخلد الفوز أثمانا
فأشرقت سبلُ الدنيا بهديهمُ
والأرضُ قد شرِقت كفراً وأوثانا
تلقى شبابهمُ في السِّلْمِ إن نطقوا
شيباً وشيبهُمُ في الحرب شبانا
هم الملبُّون والأبصارُ ناكصة
نبيَّهم يوم نادى: يالَقحطانا
والمطلعون نجومَ المُلْك إذ أفَلَتْ
والكافلون بعز الحق إذ هانا
لهم مدى السبق في «بدرْ» وفي «أُحُدٍ»
وآل حرب وحِزْبَيْ قَيْسِ عيْلانا
وفي «تبوكَ» و«أوطاسٍ» و«مُصْطَلِقٍ»
ومن عصَى اللهَ من أبناء عدنانا
لهم براءةُ والأنفالُ إذْ خُتمت
والنصف قسمُهُمُ من آل عِمرانا
ويوم «صِفِّينَ» لم تخذُل سيوفُكُمُ
آلَ الرسول [به[2]] يا آلَ هَمْدانا

(١) في الأصل: ليلة، وبها لا يستقيم الوزن.
(٢) إضافة يقتضيها الوزن.

فَلْيَهِنْكُمْ نصرُ من أهدى الهدى لكمُ
ونصرُ أبنائه من بعده الآنا
سعْيَ الذين همُ آووا وهم نصروا
وأنجبوا ناصراً للدين آوانا
أسرى إلى الروع في تأمين روعتنا[1]
وساور الموتَ في تمهيد محيانا
وأتعب الخيل إيثاراً لراحتنا
وفرق المال إكراماً لمثوانا
كأنه لم يجد غير الوغى وطناً
ولا سوانا لما يحويه خُزَّانا
سيفاً، ولكن على الأعداء محتكماً
بحراً، ولكن إلى الظمآن ظمآنا
أعطى الرغائب حتى كاد يوهمُنا
لو سائل سالنا منه لأعطانا
وساجل الدهر حتى لم تدع يده
في الجود كُفئاً ولا في الحرب أقرانا
إذا المراتب جالت في أعنتها
وجررت خُطط العلياء أرسانا
فاضمم إليك أقاصيهن مذعنة
حقاً لسعيك لا بغياً وعدوانا
فكم ضربت عليها من قداح وغى
بالبيض والسمر ضرَّاباً وطعَّانا
وكم سبقت إليها واحتويت لها
مدًى جعلت إليها الصدق ميدانا

(١) في الأصل: روعتها، ولعل الأصح ما أثبتناه حتى يتم التقابل بين الشطرين.

ريـاسـتـين كـمـثل الـشِّـعْـرَيَـيْن سـنـاً
وكـالـربـيـعـين روحـانـاً[1] وريـحـانـا
وتـاجَ نـصـر وإعـظـام وتـكـرمـة
حـلاَّكَـهـا[2] من بـأمن الأرض حلاَّنـا
فـإن وَلَـدْتَ لـهـا أقـمـارَ ممـلـكـة
أسـبـاطَ مـلـحـمـةٍ أُسْـداً وفُـرسـانـا
فقد خلعت على «يحي»[3] حِجابَتها
محفوفة منك إعزازاً وسُلطانا
ثم احتوى «حَكَمٌ»[4] مُثْنى وزارَتها
فـفُزْتُمُ بالعلا مَثْنى ووِحْدانا
كلٌّ حباكم أميرُ المؤمنين به
كما بِقُرْبِكُمُ الرحمنُ حابانا
مَزِيَّةٌ جالَتِ الدنيا فما وجدت
سواكمُ لنفوس المُلْكِ أبدانا
وهـمـةٌ لك يا «منصورُ» ما هدأت
حتى رأتك لعين الدين إنسانا
فـهـدَّمت بك بنيان العدى فَرَقاً
وشيَّدت لك فوق النَّجم بُنيانا
يُنسِي بناءُكُمُ صنعاءَ بل إرَماً
ذاتَ العِمَادِ وسِنداداً وغُمدانا

---

(١) في الأصل: روحاما، ولعل الصواب ما أثبتنا، والروحان: الطيب.

(٢) في الأصل: حلاك....، وباقي الكلمة مطموس.

(٣) الإشارة هنا إلى «يحيى بن منذر بن يحيى» ابن ممدوح ابن دراج وولي عهده وهو الذي ولي ملك سرقسطة بعد وفاة أبيه منذر في سنة ٤١٢ (١٠٢٢) وظل ملكاً عليها حتى سنة ٤٢٧ (١٠٣٦).

(٤) هو حكم بن منذر بن يحيى، ويدلنا هذا البيت على أن أباه لقبه بذي الوزارتين، وسترد إشارات أخرى إلى حكم هذا في مواضع مختلفة من هذا الديوان، ونحن نعرف من هذه الاشارات أنه قد وكل إليه بقيادة الجيوش في عهد أبيه منذر ثم أخيه يحيى بن منذر.

والأبلقَ الفرد والأبراج من أجأٍ
والسَّيْلَحِينَ وسَدّاً كان ما كانا[1]

بنسبة من رسول الله شد بها
ربُّ العلا للهدى والدين أركانا

صهراً يكاد وقد لاحت معالمه
يشدو به الدهر إفصاحاً وَتِبْيانا

جزاءُ ربك بالحسنى لذي حُرَم
أضحى على حُرم الإسلام غيرانا

وحفْظُ من لم يزل بالعدل يحفظنا
ورعْيُ من لم يزل بالبِرِّ يرعانا

وصدقُ ما قد عهدتم في كرائمكم
إن لم يُمَلَّكْنَ أكفاءً[2] فأكفانا

فَلْتَهْنِكُمْ نعمةٌ يحيا السرور بها
وغبطةٌ حان فيها يوم من حانا

ففاز بالعز من نادى ببيعتكم
وباء بالخزي هيَّانُ بن بيَّانا[3]

✱✱✱✱

---

(١) يشير ابن دراج هنا إلى ما شاده اليمنيون في الجاهلية من قصور وحصون، وقد نسج الكتاب والقصاص العرب حول ما ذكره من معالم كثيراً من الأساطير والخرافات، أما إرم ذات العماد التي ورد ذكرها في القرآن الكريم فذلك لقب لقبيلة عاد، وهم جيل من العرب العاربة البائدة على ما يذكر المفسرون، وسنداد هو موضع منازل بني إياد في أسفل سواد الكوفة وكان عليه قصر تحج إليه العرب، وقد ذكره الأسود بن يعفر في داليته المعروفة، وقصر غمدان كان بصنعاء أسسه أزال بن قحطان بأمر أخيه يعرب على ما يذكر، والأبلق الفرد حصن ينسب إلى السموأل بن عادياء بين الحجر والشام وقد افتخر به السموأل في لاميته المشهورة، وأجأ جبل لبني طيء يذكر دائماً مقروناً بجبل سلمى، والسيلحين ويقال فيه أيضاً السيلحون قصر بناه الحارث الرائش أحد ملوك اليمن بين صنعاء ومأرب، ويريد بالسد سد مأرب المشهور.

(٢) في الأصل: أكفاناء.

(٣) «هيان بن بيان» كناية عمن لم يعرف هو ولا أبوه. قال أمية بن الأسكر:

هل لكما في تراث تذهبان به   إن التراث لهيّان بن بيّان

(الأغاني، طبعة هيئة الكتاب، القاهرة، ١٣/٢١).

(٤١)

وله في أيضاً رحمه الله تعالى[١].

[من البسيط]

أهل بالبين فانهلت مدامعُهُ
وآنس النفْرَ فاستكت مسامعُهُ
وودع المنزل الأعلى فأودعه
في القلب لاعج بث لا يُوادِعُهُ
يا معهداً لم يُضع عهدُ الوفاء له
مُكسَّفُ النورِ عافي القدر ضائعُه
ولا ثنى عبراتي عن تذكره
دهر تقارَعُ في صدري قوارعه
حسبي ضلوع ثوت فيها مصائِبُه
ومُقلةٌ[٢] ربعَتْ فيها مَرَابِعُه
سقاك مثلُ الذي عفَّى ربـاك عسى
ينبيك[٣] كيف غريب الرحل شاسعه
صباً كتصعيد أنفاسي وصوبُ حياً
تريك عبرَة أجفاني مدامعه
سحٌّ إذا شف صحنَ الخد ضائرهُ
شفى تباريح ما في القلب نافِعُه

(١) اختار ابن بسام من هذه القصيدة عشرين بيتاً. الذخيرة ق ١ - ١/٨٥ - ٨٧، كذلك اختار منها ابن فضل الله العمري ثلاثة أبيات (مسالك ١١/٢٠٢)، وابن سعيد بيتين (المغرب ٢/٦١).
(٢) هذه الكلمة والتي تسبقها قد طمست في الأصل بعض حروفهما لتآكل في موضعهما.
(٣) طمست بعض حروف هذه الكلمة للتآكل الذي أشرنا إليه في الحاشية السابقة.

لــــــلـه من وطـن قـــــلـــــبـي لـه وطن
يــبـلـى وأبـلـى ومـا تـبـلـى فـجـائـعه

لا يـسـأم الـدهـرُ من شـوق يـطـالـعـني
مــنـه ومن زفــرة مــنـي تــطــالــعه

فـطـالمـا قـصـَّرت لـيـلـي مـقـاصـره
لـهـواً ومـا صـنـعت صـبـحي مـصـانـعه

وطــالمــا أيـــنـعت حـولي حـدائـــقه
والـعـيش غض أنـيق الـروض يـانـعه

وكم أُظلَّ مــقـــيــلـي وَسْط جــنـــته
بـــكـل فــرع حــــمــــامُ الأيك فـــارعه

إنْ تُـسْـعِـدِ الـيـومَ أشـجـاني نـوائـحُه
فـكم وكم سـاعـدت شـجـوي[١] سـواجـعه

وكم وفى ليَ فـــيه من حــبــيب هــوًى
خـــلـــعتُ فـيه عِـذاري فـهْـوَ خـالـعه

روضٌ لِـعَـيْنِ الــهـوى راقت أزاهـرُه
ومـشـرب لـلـصـبـا طـابت مـشـارعُه

وكم صـدعتُ فـؤاد الـلـيل عن قـمـر
له هـوى في صـمـيم الـقـلب صـادعه

خـالـستُ فـيه عـيـونـاً غـيـر هـاجـعـة
والحـزمُ عني غـضـيضُ الـطـرف هـاجـعُه

وفي نجـــادِي جـــريُّ الإلف مُــقْــدِمُه
وفي عِـنــاني مُـشـيـحُ الجـذل دارعُه[٢]

فـمـا تجـاوزتُ قَـرْنَ المـوت مُـعـتـسـفـاً
إلا وقِـــرْني رخـــيم الـــدَّلِّ بـــارعُه

---

(١) ربما كانت كلمة «شدوي» أصلح في هذا الموضع.

(٢) في الأصل: جزى الألف. والشاعر يتحدث في الشطر الأول عن السيف وفي الثاني عن الجواد. والمشيح هو الجاد الحذر، والجذل هو أصل الشيء، وهو كذلك انتصاب عنق الجواد ورأسه.

تحـيــتي مــنه تــقـبــيل ومــعــتَـنقٌ
يــشــدني غُــلـهُ فــيه[1] وجــامِــعُه

لم أخــلـع الــدرع إلا حــين شــقــه
عن صـفح صـدريَ مـا تحـوي مـدارعه[2]

ولا تــوقّــيْتُ ســهــمــاً من لــواحــظه
يــذيب سـيـفي وفي قــلـبي مــواقــعه

غــصن تجــرع أنــداء الــنــعـيم[3] فــمــا
يُــطَــوّقُ الــدَرّ[4] إلا وهــو جــارعه

غضٌ القـبـاطِيِّ تحت الـوشي نـاعـمُـهـا
مـخـلـخل الجـيـد فـوق الـعِـقـد رادعُه[5]

يمــيس طــوراً وسُــكْـرُ الــدل عــاطــفُه
وتــارةً وانــثــنــاءُ الــوشي لاذِعُه[6]

فاستـفـرغ[7] الخـصْرُ كُـثـبـانـاً تُـبـاعِـدُه
وأنــبت الــصــدرُ رمــانــاً تُــدافــعه[8]

وفي الـسـوالف خـوفَ الـصُّدغ يـجـرحُه
تـمـثـالُ صُـدغـيه مـسـكـاً فَـهْوَ مـانـعه

فــبِتُّ تحت رواق الــلــيل ثــانــيَهُ
والــشــوق ثــالــثُه والــوصلُ رابــعه

---

(١) ذخ: عنه.
(٢) ذخ: عن صبح صدري ما تحمي مدارعه.
(٣) ذخ: الغمام.
(٤) ذخ: تطوق الدر (بفتح الدال).
(٥) القباطي ثياب كتان بيض رقاق كانت تعمل بمصر، ورادع أي ممتلئ.
(٦) ورد هذا البيت في المغرب لابن سعيد (٢/٦١) هكذا:
يجر سكراً وسكر الدل عاطفة   وقاره وانثناء الوشي لاذعه
ورواية الديوان أفضل، وتتفق معها رواية الذخيرة.
(٧) في المغرب: ففرع.
(٨) ذخ: يدافعه.

والسحرُ يُسحر من لفظ ينازعني
والمسك يعبق من كأس أنازعه
راحاً يمد سناها نورُ راحته
لولا المها[1] لجرت فيها أصابعه
كأنما ذاب فيها ورد وجنته[2]
وشَجَّها ريقُهُ المعسولُ مائعه
جَنَى حياةٍ دنتْ مني مطاعِمُه
من بعدِ ما قد نأت عني مطامعه
قد أنهب المسكَ والكافورَ خازنُه
وأرخص الورد والتفاح بائعه
فيا ضلال[3] نجوم الليل إذ عدمت
بدرَ السماء وفي حِجري مضاجعُه
ويا حنين ظباء القفر إذ فقدت
غزالهُنَّ وفي روضي مراتِعُه
مجالُ[4] طَرفي وما حازت لواحظه
وحرُّ[5] صدري وما ضمت أضالِعُه
والطِّرفُ مرآة عيني أستدل به[6]
على الصباح إذا ما خيف ساطعه
جَوْناً أزيد به ليل الرقيب دُجًى
ويستثيرُ[7] ليَ الإصباح لامِعُه

(١) المها: هو البلور.
(٢) في الأصل: جنته، وقد اتبعنا قراءة الذخيرة و «ق».
(٣) ذخ ومس: فيا ظلام.
(٤) ذخ: فجال.
(٥) ذخ: وحن.
(٦) ذخ: بها.
(٧) ذخ: يستنير.

فبات يعجب من ظبي يصارعني
وقد يحن[1] على ليث أُصارعه

وما رأى قبلها قِرناً أعانقه
إلا وودع نفساً لا تراجعه

حتى بدا الصبح مُشْمَطّاً ذوائبُه
يطارد الليل مَوْشِيّاً[2] أكارِعُه

كأن جمع ضلال حان[3] مصرعه
وأنت بالسيف يا منصورُ صارعه

أو كاشتجار[4] رماح أنت مُشرعها
في باب فتح مبين أنت شارعه

جيش بجيش برعد الموت يقدمه
إلى عِداك قضاء حُمَّ واقعه

صباحُ بارقةٍ لولا عجاجتُه
وليلُ هابية لولا لوامعُه

دلائلُ اليُمْن في الهيجَا أدلَّتُه
وأنجمُ السعد بالبشرى طلائعه

يُهدَى بهدْيِ لواءٍ أنت عاقده
لله، واللهُ بالتأييد رافعه

لموعد غير مكذوب عواقبُه
في متجرٍ غيرِ مُزجاة بضائعُه

مثنَى جهادٍ وصومٍ ضَمَّ شملَهُما
عزمٌ يسايرُه صبر يُشايعُه

(١) ذخ: يرق.
(٢) مس: موسيا.
(٣) مس: حاز.
(٤) في الأصل أو كاشجار، ولا يستقيم الوزن ولا المعنى إلا بما أثبتنا، وهو ما ورد كذلك في «ق».

فلا ظلامُ قـــرارٍ أنت سـاكـنـه
ولا نـهـارُ مُـغـار أنت وادعه
تـهـيم في الأرض عن حـصن تُـنـازله
وتـخـرق الـبـيـد عن جـيش تُـقـارعه
حـتى جـدعت أنـوف الـشـرك قـاطـبـة
بـأنف مـعـقل كـفـر أنت جـادعه
غـابُ الأسـود الـذي غُـرَّ الـضلال به
فـخـادع الـلـهَ مـنه وهـو خـادعه
فـإن شَـجَتْ ثـغـرك الأقـصى مـرابـطُه
فقد شجت أرضه الـقـصـوى مـصـارعُه
وإن يـرع نـازحَ الأوطـان عـنك فـقـد
راع الـعِـدَى مـنه يـوم أنت رائـعه
صبَّـحـتَه من ريـاح الـنـصر عـاصـفـة
لا تـتـقي بـعـدهـا خـسـفـاً بلاقـعه
كـأن نـافخ صـور المـوت أصْـعـقَه
فـهَـدَّ أسـواره الـعـلـيـا صـواقـعُه
فـمُـقـعَص نـاشـز عـنه حلائـلُه
ومُـرضَع ذاهل عـنه مـراضـعُه(١)
وهـام تحت بُـروق المـوت كلُّ رشـاً
الـلـيثُ كـافـلـه والـلـيثُ فـاجـعه
هـذا مُـعـانِـقُه يـأسـاً فـمُـسـلِـمُه
وذا مـعـانـقه إلـفـاً فـشـافـعه
عـواطلاً أنت حـلَّـيت الخـيـول بـهـا
جـيـشـاً غـدائـرهـا فـيه بـراقـعه

(١) أقعصه بالرمح أي طعنه طعنا متتابعاً سريعاً، ونشزت الزوجة أي خرجت عن طاعة زوجها.

أوردتـهـا المـصـروالأبـصـارُ طـامـحـة

لـصـنـع مـا لك ربُّ الـعـرش صـانـعُه

والأرضُ تـلـبـسه طـوراً وتـخـلـعه

والجـسـر حـامـله كَـرهـاً فـواضـعُه

طـود من الخـيل أعلاه وأسـفـلُه

بـحـر من الـسـيل مُـلـتـج دوافـعه[١]

والـشـمس لابـسـة مـنه قـنـاع دجى

والـيـومُ أزهـرُ وجهِ الجـوِ مـاتـعه[٢]

بـيـمن حـاجـبك المـيـمـون طـائـره

وسـعـد قـائـدك المـسـعـود طـالـعه

أنجـبـتَه كـاسـمه تحـيـا عُلاك به

كـهلُ الـتـجـارب شـرخ الـعـزم يـافـعه

سـاقي الحـيـاة لمن سـالمتَ، مـطـعـمُـهـا

ذُعـافَ سم لمن حـاربت نـاقـعُه

أوفـى بـه في رداء الحِـلم لابـسُه

وعـلَّه بـلِـبـان الحـرب راضـعه

من أشـرقت بـسـجـايـاه مَـقـاوِلَه

وأعـرقت في مـسـاعـيه تـبـابـعه[٣]

وقـلـدته «تُـجِـيبٌ» حَـلْيَ سـابـقـهـا

حـتى غـدا الـسـابق المـتـبـوع تـابـعه

واحـتـاز إرث الألى آووا[٤] وهم نـصـروا

بـاسـم يـصـدقه فـعل يُـضـارعه

(١) في الأصل: دوامعه، وقد آثرنا ما جاء في «ق».

(٢) متع النهار أي ارتفع وطال.

(٣) يقصد بالمقاول الأقيال جمع قيل، وهم ملوك اليمن في الجاهلية، والتبابع آل تبع.

(٤) فـي الأصـل: إرث الألـى هـم آووا وهم نصروا، ولا يستقيم الوزن إلا بحذف «هم» الأولى، وقد جاءت في «ق»

فـإن تـضـايـقت الـدنـيـا بمـغـتـرب

«فـمـنـذر» بـعْـدُ رحبُ الـصـدر واسـعه

وإن دجـــا فـــلـق يـــومـــاً بـــذي أمل

فـذُو الـريـاسـات طـلْق الـلـيل نـاصـعُه

ومَنْ ســـواه لمـــقـــطـــوع أواصـــرُه؟

ومن ســـــواه لمـــــردود شـــــوافـــــعه؟

ومن ســـــواه لخـــــطب جل فـــــادحه؟

ومن ســـــواه لخَـــــرْقٍ قل راقـــــعه؟

ومن يُـــســـيمُ نـــداه في خـــزائـــنه

كـــأنـه في أعـــاديه وقـــائـــعه؟

واســـتـــودع الـــلهُ للإسلام في يـــده

مـكـارمـاً حُـفـظت فـيـهـا ودائـعه

يـا واصلاً بـالـنـدى مـا الـلهُ واصـله

وقـاطـعـاً بـالـظـبى مـا الـله قـاطـعه

اِسـعَـدْ بـفـخـر وفِـطْـر أنت حـاصـده

من بُـــرٍّ فـــتح[1] وصـــوم أنت زارعه

ومـشـهـد لـلـمُـصـلَّى قـد طـلـعت له

كـالـبـدر مـشـرقـة مـنه مـطـالـعه

في جـــيش عـــز ونـــصـــر أنت غـــرته

وشـــمل دين ودنـــيـــا أنت جـــامـــعه

مُـعـظَّمُ الـقـدر في الأبـصـار بـاهـرُه

وخـافض الـطـرف لـلـرحـمن خـاشـعه

ومَـــوقفٍ لك في الـــداعـــين رفَّـــعه

إلَى الـــســـمـــوات رائـــيه وســـامـــعه

(١) في الأصل كلمة مطموسة وقد استكملناها عن «ق».

بكَ اسْـتُـهِلَّ به فـصلُ الخـطـاب ومـا
أســرَّ ســاجــدُه الــداعي وراكــعه
وسلَّموا من صلاة العيد وافتتحوا
إلــيكَ أزكى سلام شــاع شــائــعُه
جمعاً يؤُمُّ إليكَ القصْرَ مُستبقاً
الحــمـدُ قـائـده والحـمـدُ[1] وازعه
حيث المكارم مرفوعٌ معالِمُها
ونــيِّـرُ الـدين مـعـمـور شـرائـعه
وتالدُ المُلْك محفوظ بخاتمِه
من طـينـة المجد والرحمنُ طابِعه
واســلم لــهم ولمن أوفَى به أمل
فــات المـنـايـا إلى يمـنـاك نـازعه
يعلو الجبال بأمثال[2] الجبال أسًى
يـحـدوه جِـدٌّ عَـثُـور الجَـدِّ ظـالـعه
ورب لجة بحر تحت بحر دجًى
قـاسى إلى بـحـرك الـطـامي يـنـابـعه
ومن شمائلك المُعيي بدائعُها
في الأرض جاءتك تـسـتـملي بـدائـعه
فلا تـــواضعَ قــدرٌ أنت رافــعه
ولا تـــرفـع قــدر أنـت واضــعه

****

(١) في «ق»: والطوع.
(٢) في الأصل: بمثل الجبال، ولا يستقيم بها الوزن، وقد أصلحنا ذلك بما أثبتناه، وهو ما جاء أيضاً في «ق».

(٤٢)

وله فيه رحمهما الله عند انصرافه عن بنبلونة[١].

[من البسيط]

سعْيٌ شفى بالمُنَى قبل انتها أَمَدِهْ
ويومُ سعد أرانا الفتح قبل غَدِهْ
بمُقْدِمٍ والقنا ملْءُ الفضاء به
وقادمٍ وعتادُ الشرك ملءُ يده
داعٍ إلى دعوة الإسلام ينصرُها
فأيُّ معتمد من شأو معتَمَدِه
وكم فُؤادٍ وكم جسم وكم بصر
لَبَّاه من قربه سعياً ومن بُعُدِه
جمعاً غدا الحاجبُ الميمونُ قائدَه
والنصرُ والصبر والإيمان من مدده
لمثلها كنت يا «منصورُ» والدَه
ومثلَها سيريك الله في ولده
أنجبتَه وسْطَ روض المُلْك تظأرُه
بواسقٌ للعلا تهتز في ثأده[٢]
أثمارُها من جنى الجانين دانية
وورد زهرتها قد راق في نضده
فأرضعَتْهُ ثُدِيَّ الحرب في كلل
من القنا فوق مهد من شبا قِصَدِه

(١) في «ق»: منبلونة، والصواب ما أثبتناه، وبنبلونة **Pamplona** هي عاصمة مملكة البشكنس أو مملكة نبرة **Navarra**، وهي الآن عاصمة لهذه المقاطعة من مقاطعات إسبانيا.
(٢) الثأد هو المكان الندي الرطب.

حيث تلاقت نواصي الخيل واعتنقت
صدورُ غيظ يذوب الصخرُ من وَقَدِه
سرى لأمرك لا ليلٌ بواجده
على الحشايا[1] ولا نجم بمفتقده
مُجهِّزاً في سبيل الله جيش هدى
السمعُ والطوع للمنصور من عدده
لمن بنى قبةَ العليا ندًى ووغى
فأصبح المُلْك مرفوعاً على عُمُده
موَرَّثِ المُلْكِ من عُليا «تبابعه»
والسيفِ من «عمره» والسيْبِ من «أُدَدِهْ»
والنصرِ من سعي أعمام له فُطِروا
لنصر ذي العرش في «بدر» وفي «أُحُده»[2]
مُشدِّداً عُقَدَ الإسلام إن نُكثتْ
ولا تَحُلُّ خطوبُ الدهر من عُقَدِه
وقائدُ الخيل مزجاةً مُجهزة
للحرب من صبره فيها ومنْ جلده
هادٍ هواديَها والليلُ معتكرٌ
بهدي منْ أُرشِدَ الإسلامُ في رشَدِه
كم بين ليلكَ يا «منصورُ» تُركِضُها
وليلِ مُرتكِضٍ في لهوه ودَدِهْ[3]

(١) في الأصل: الحشا... وباقي الكلمة مطموس، وفي «ق»: الحشيا.
(٢) في الأصل: والنصر من سي...، وقد آثرنا قراءة «ق» ويشير ابن دراج في هذا البيت والذي قبله إلى مآثر عرب اليمن (الذين ينتمي إليهم ممدوحه منذر بن يحيى التجيبي) في الجاهلية والاسلام: فهو يتحدث عن ملوك التبابعة، وأما «عمرو» المذكور فلعلَّه يعني به عمرو بن معدي كرب الزبيدي الفارس المشهور، وأما «أدد» فهو ابن زيد بن كهلان بن سبأ بن حمير أبو قبيلة من اليمن، وفي البيت الثاني يشيد بما قام به الأوس والخزرج من نصرة للاسلام، ويخص بالذكر موقعتي بدر وأحد.
(٣) في الأصل: وودده والصواب ما أثبتنا، وهكذا وردت أيضاً في «ق».

مــا صُـبْحُ مــصــطــبــح في روضـــة أُنف
من صــبــح من يــنــعم الإسلامُ في كــبــده
ســـارٍ إلى غــرة الأعـــداء يــطـــلــبُـــهــا
إذا تــقــلــب ســاهــي الــعـــيش في رغــده
مـــســـهَّـــداً في ســـبــيل الــلــه يــكــلــؤهُ
رب أنـــام عـــيـــونَ الـــدِيّنِ في سُـــهُـــدِه
مُـــوف عــلــى كَــتَـدَيْ طــاوي الحُــزون به
والملكُ والــدينُ والــدنــيــا عــلـى كَــتَـدِه[1]
تُــقــصِّــرُ الــريحُ عن مــســرى كــتــائــبه
كـــمـــا تـــقـــاصـــرتِ الأملاكُ عن أمـــده
بـــحـــورُ جـــدواه في الآفـــاق زاخـــرة
وقــد يُــزاحمُ هــيـمَ الــطــيــر في ثَــمَــدِه
شـــرَّابُ أنـــقُــعِ أجـــواز الـــفلاة إذا
مــا كــان شُــرْبُ دم الأعــداء من صــدَدِه[2]
حــتى يــئــودَ الــقــنــا في كل مــعــركــة
أَوْداً يُـــقـــيم قـــنـــاةَ الـــدين من أوده
ويُــنــهبُ المــوت أرواحَ الــكــمــاة كــمــا
يــبــيح في الــسَّــلْمِ جــدواهُ لمــنــتــقِــدِه
حـــيث يُـــعلُّ أديمَ الـــقِـــرْنِ من دمه
ويــحــتــبي جــســدُ الجــبَّــارِ في جــســده
وتُــلــحَظُ الــشــمسُ من أثــنــاء هــبــوته
كمــا يُــغــضــغِضُ جــفنُ الــعــين من رمــده
لا يُـــبـــعـــدُ الجــودَ من يـــوم الجلادِ ولا
يُـــغِبُّ يـــوم نـــداه يـــومُ مـــجـــتَـــلِـــدِه

(١) الكتد هو مجتمع الكتفين من الإنسان والفرس أو ما بين الكاهل إلى الظهر.
(٢) في «ق» قصده.

كأنه من دم الأعداء في حرج
فإن يمت ذو سلاح من يديه يَدِهْ[1]
ومُعتَقُوهُ لديه أولياءُ دم
نَداه ذو عقله فيهم وذو قَوَدِهِ
مساعياً كُتبت في اللوح واكتُتبت
فينا بسعي[2] «ابن يحيى» واعتلاءِ يده
يخطها بصدور الخط منصلتا
في كل صدر حليفِ الكفر مُعتقِده
وينثني في صِفاح العُجْم يُعجِمُها
بصفحتيْ كل ماضي الغَرْب مُتَّقده
والمُلْكُ ينسخها في أم مفخره
والدهرُ يقرؤُها في منتهى أبده
راعَ الملوكَ فمخنوقٌ بجرَّته
يهيم في الأرض أوْلاجٍ إلى سنده
فتلك نفسُ «ابنِ شَنْجٍ»[3] لا مآل لها
من ميتة السيف أو عيش على نكده

---

(١) يده أي يؤد إليه الدية، مضارع ودى.

(٢) كلمة مطموسة لا تبدو منها إلا بقايا من حروف وقد جاءت في «ق» كما أثبتنا.

(٣) يقصد ابن دراج «بإبن شنج» في أكثر المواضع التي ورد فيها هذا الاسم بالديوان شانجه بن غرسية بن شانجه بن غرسية الذي تعرفه المصادر المسيحية باسم **Sancho Garces III**، وهو خامس ملوك البشكنس أصحاب بنبلونة وثالث من يتسمى منهم بهذا الاسم، كذلك تلقبه كتب التاريخ المسيحي «بالأكبر **EL Mayor**»، وقد حكم مملكة نبرة **Navarra** بين سنتي ٣٩١ و٤٢٧هـ (١٠٠٠ – ١٠٣٥م)، ووصلت مملكته في عهده إلى أوج امتدادها وعظمتها حتى أصبحت مركز النشاط السياسي في إسبانيا المسيحية، وكانت تضم بعض المناطق الواقعة في شمال جبال البرتات (البيرينيه) ومقاطعات أرغون **Aragon** وشبررب **Sobrarbe** وريباغورثا **Ribagorza**، وكان قوامس برشلونه وغشقونية **Gascuna** (في جنوب فرنسا) يدينون له بالطاعة، ثم إن زوجه من إلبيره **Elvira** بنت سميه ومعاصره شانجه بن غرسية بن فرذلند قومس قشتالة أغراه بالاستيلاء على قشتالة بعد اغتيال غرسية بن شانجه في ليون سنة ١٠٢٩/٤٢٠ دون أن يترك وريثاً شرعياً لإمارة قشتالة، وهكذا احتل الجانب الأكبر منها باسم زوجته، ولم تقف أطماع شانجه عند ذلك بل إنه احتل ليون أيضاً متحدياً بذلك ملكها برمند الثالث **Vermudo III**، وتوفي شانجه في سنة ١٠٣٥/٤٢٧ مقسماً مملكته على أبنائه الثلاثة. وقد كان قرب مملكة نبرة من سرقسطة مهد حكم الدولة المنذرية عاملاً على قوة العلاقات بين الدولتين.

مـــا يـــرتـــقي شـــرفـــاً إلا رفـــعتَ له
وجـهاً من الـروع مـرفـوعـاً عـلى رصده
ولا انـــتـــحى بـــلـــداً إلا قـــرنت به
هـــمـــا يـــبـــلـده عن مـــنـــتـــحى بـــلـده
وقـــد تـــوجس من يمـــنـــاك بـــارقـــة
في عـارض لا يـفـوتُ الـطـيـرُ من بـرده
جـــيـــشـــاً إذا آد مـــتن الأرض تـــعـــدلهُ
بـــحِـــلـمِ أروعَ راسي الحِـلـم مُـــتَّـــئِـــدِهِ
كـالـبـحـر تـنـسِجُه ريح الـصَّـبـا حُـبُكـاً
إذا تـــــرقـــــرق في المـــــاذيِّ من زَرَدِهِ
بـــحـــرٌ سـفـــائِـــنُه غُـــرٌّ مـــســـومـــة
والبَـيْض والـبِيضُ والـرايـاتُ من زبـده
وجـــاحم من حـــريق لا خـــمـــود له
إلا ونـفس «ابن شَـنْجٍ» وسْطَ مُـفـتَـأده
كـــتـــائـــبـــاً تـــركت عُـــبَّـــادَ مـــلـــته
لا تـعـرف الـسـبتَ في الأيـام من أحـده
إن ضـاق عن مَـرِّهَـا رحبُ الـفـضـاء فـقد
نـفـذت من قـلـبه فـيـهـا إلى كـبـده
فـتَتَّ مـنـهـا قـواصي «بَـنْـبِلُـونَـتِه»[1]
بـالـهـدم والـنـار فَـتّـاً فتَّ في عـضـده
وقـــدت مـــنـــهـــا مـــطـــايـــاه مـــوقـــرةً
بـــأهل كُلّ رفـــيـــع الـــقـــدر أو ولـــده
سمـا لـهم رَهَجُ «المنـصـور» فـانـقلـبـوا
نَـحْلا جلاه دخـان الـنـار عن شُـهُـدِهِ
وراح كلُّ مـــنـــيـعٍ من مـــعـــاقـــلـــهم
غـابـاً خـلا لـمُـبِـيـرِ الأُسْـدِ من أَسَـدِهِ

(١) في «ق» منبلونته.

يـرمـي إلى الخـيل والأبـطـال مـفـتـديـاً
بـكل أغـيـد زادَ الـذعـرُ في غَـيَـدِهِ
ثم اتـقى أعـين الـنُّـظَّـارِ يـنـقـدهـا
من عـيـنه كـالحـصى عـدا ومن نـقـده
فَـرَبَّ ذي قَـنَص زرق حـبـائـلُه
قـد صـاد ظـبـيـاً وكـان الـلـيثُ مِنْ طرده
وقـد تـركتَ «ابن شـنج» فَلَّ مـعـتـركٍ
إن لم يمت من ظُـبـاه مـات من كـمـده
مـشـرداً في قـواصي الـبـيـد مـغـتـربـاً
وقـد ملأت فـجـاج الأرض من خُـرُدِه
و«فِرْذِلَنْدُ[(١)]» رددتَ المُلْك في [يـده[(٢)]]
ومـا رجـا غـيـرَ ردِّ الـروح في جـسـده
شـبل دعـاك لأُسْـدٍ فـوقه لِـبَـدٌ
فـأقـشـعتْ عـنه والأظـفـارُ في لِـبَـده
وطـار نـحـوك سـبـحـاً في مـدامـعه
وقـد تـزود ملءَ الـصـدر من زُؤْده[(٣)]
ثم انـثـنى ومـلـوكُ الـشـرك أعـبُـدُه
إذ جـاء عـبـدَ يـد ألـقى لـهـا بـيـده
وآب مـنـصـورُ قـحـطـانٍ بـعـزته
أَوْبـاً تـذوب مـلـوك الأرض من حـسـده
فـالـلـهُ يـنـقص من أعـدائه أبـداً
ويـسـتـزيـد من الإسلام في [عـدده[(٤)]]

****

---

(١) لم نهتد للتحقق من شخصية «فرذلند» هذا، وربما كان أحد الأمراء المستقلين على بعض الإمارات المسيحية الصغيرة المحيطة بمملكة نبرة والتي كان «ابن شنج **Sancho Garces**» يبذل كل جهوده للاستيلاء عليها واحدة بعد الأخرى.

(٢) مطموسة في الأصل لقطع أصاب الورقة، وهي في «ق» كما أثبتنا.

(٣) الزؤد السرور.

(٤٣)

وله[١] فيه رحمهما الله عند إيابه من الغزوة التي عقد فيها الصهر بين ابن فرذلند وابن راي مند(*).

[من الكامل]

عَـمُـرتْ بـطـول بـقـائك الأعـمـارُ
وجـرت بـرفـعـة قـدرك الأقـدارُ
ودنت لك الـدنـيـا بـقـاصـيـة المنى
وتـخـيـرت لك فـوق مـا تـخـتـار
فـإذا الـنـجـومُ تـطـلـعتْ لك أسـعُـداً
بـدَرَ الـبـدورُ بـهـن والأقـمـار
وإذا زجـرتَ لـيـمـن يـومك طـائـراً
حُـشِـرتْ إلـيك بـيـمـنـهـا الأطـيـار

---

(١) في الطرف الأيسر من هذه الصفحة قطع ذهب بروي أبيات القصيدة، وفي الحاشية تعليق لمن وقع في يده الديوان هذا نصه: «قطع روي القصيدة الذي هو الراء، فصفح الله لملوث هذا الديوان بما كتب في هامشه وقطع من أطرافه غفر الله لنا وله»!.

(*) يريد الشاعر بابن فرذلند: شانجه بن غرسية بن فرذلند قومس قشتالة وثالث من حملوا منهم هذا الاسم، ويعرفه المؤرخون المسيحيون باسم **Sancho Garcia**، تولى حكم قشتالة بعد موت أبيه غرسية في أسر المنصور بن أبي عامر من سنة ٣٨٥ إلى ٤٠٨هـ (٩٩٥ – ١٠١٧م) معاصراً للمنصور وابنيه المظفر وشنجول وسنوات الفتنة القرطبية وأول إمارة منذر بن يحيى على الثغر الأعلى. أما «ابن راي مند» فيقصد به قومس برشلونة ريمند بن بريل (رامون الثالث **Ramon Borrell III**) الذي حكم إمارة قطلونية (وعاصمتها برشلونة) بين سنتي ٤٨٢ و٤٠٩هـ (٩٩٢ – ١٠١٨م). وأما الصهر الذي عقده بينهما منذر بن يحيى في سرقسطة فقد تم على أساس أن يزوج قومس برشلونه ابنه وولي عهده برنجار بن ريمند **Rerenguer Ramon** من ابنة قومس قشتالة المعروفة باسم شانجه **Sancha**، وقد تحدث عن هذا الصهر ابن حيان (فيما نقله عنه ابن بسام في الذخيرة ق ١ – ١٨٢/١ – ١٨٤)، وكان كثير من المؤرخين المسيحيين يظنون أن قومس برشلونة إنما زوج ابنه من ابنة قومس غشقونية **Gascuna** (في جنوب فرنسا) حتى استطاع العلامة دوزي أن يثبت – معتمداً على نص ابن حيان المذكور – صحة الأمر في ذلك (**Dozy: Recherches... I, PP. 203 - 10**) وقصيدة ابن دراج الواردة هنا تؤيد رأيه. أما تاريخ هذه القصيدة فينبغي أن يكون بهذه المناسبة أي في سنة ٤٠٨ (١٠١٦).

وإذا المنى بدأتك غرس رياضها

حييتك في أغصانها الأثمار

سبقاً كما سبقت فعالُك كلما

أعييت به الأوهام والأفكار

وتجلياً للدارعين تصيدُها

بطيور خيلك والعقولُ تُطار

بشمائل مشمولة بمكارم

ما للخطائر عندها أخطار

ومعالم لندَى يديك وإنها

سُرُجٌ إليك لحائر ومنارُ

فإذا عوانُ المجد رُدَّ خطيبُها

فلك الأيامى منه والأبكار

وإذا الحروب تساجلت أيامُها

فقتيل سيفك في الملوك جُبار[1]

ولقد غَضَضْتَ على الخطوب بناجذ

للدهر منه سكينة ووقار

لكنْ شمائلُ في الندَى وكَّلْتَها

بعُفاة جودك فِتيةٌ أغمار

ما البحر في الأرض العريضة بعدما

فاضت عليها من نداك بحار؟!

أو ما غَناءُ المسك في الدنيا وقد

مُلئت بطيب ثنائك الأمصار

فبه تأنقتِ الحدائقُ وازدهى

زهر الربى وتفتح النُّوَّار

(١) جبار أي مهدر الدم لادية له.

وتـنـافـحت بـنـسـيـمـهـا ريح الـصَّبـا
وتــفــاوحت بــريــاضــهــا الأســحــار
وتــعــاطت الــنــدمــاءُ كـأسَ مُــدامــهـا
وسـرت بــهــا الــركــبــان والــسُّــمَّــار
فـكـأن لــلــدنــيــا بــحــمـدك ألــسُــنــا
تُــصــغي لــهــا الآفــاق والأقــطــار
وكـــأنمـــا الأيـــام فـــيك مـــدائح
نُــظــمت كــمــا نُــظــمتْ لك الأشــعــار
والـــلـهُ جـــارُك كم أجـــرتَ عـــبـــاده[1]
من كل خـــطب لـــيس مـــنه يُـــجَـــارُ
وضـــربت عـــنـــهم كل جـــبَّـــار عـــتـــا
فـحـبـاك[2] بـيْـضـة مُـلـكه الجـبَّـار
في جـــحـــفل كـــالـــلـــيل جـــرَّار له
من عـــز نـــصـــرك جـــحـــفل جـــرَّار
أُمْـــدِدْتَ فـــيه بـــالملائـــكـــة الـــتي
نُــصــرت بــهــا أعــمــامُك الأنــصــار
وكـسـوت فـيه الـشـمسَ بُـرد عَـجـاجـة
لـــلـــمـــوت تحت ظلامـــهـــا إســـفـــار
والجـــو يـــحْـــمَى والـــدمـــاء سُـــواكب
والأرض ريَّـــا والـــســـمـــاء غُـــبـــار
والمـــقـــفـــرات ســـوابق وخـــوافق
والـــشـــاهـــقـــات أســـنـــة وشِـــفَـــارُ

(١) في الأصل: عبا... والباقي مطموس، وقد وردت في «ق» كما أثبتنا.

كلٌّ رفعتَ صُدورهن لغارة
ما إن لها قبل الصدور مُغار
وقد ادرَّعتَ لها سوابقَ عزمة
البِرُّ والتقوى لهن شعار
بهرت فهن على «ابن يحيى» في الوغى
نور له وعلى «ابن شَنْجٍ» نار
تحمى فَيُودِعُها[1] جوانح صدره
كي لا تُبَيِّنَه لك النُّظار
أسد حطمتَ سلاحه فتركته
بالبيد: لا ظَفَرٌ ولا أظفار
رَهْناً بإلقاء اليدين لقاهر
أعلى يديه الواحدُ القهار
ملكٌ كأنكِ يا محاسنَ فعله
من سيئاتِ زمانكِ استغفار
خُصَّتْ به «سبأ» وعُمَّ بنصره
عُليا قريشٍ في الهدى ونزار
رَبِذُ القِداح من الرماح وماله
إلا السِّباعَ وطيرَها أيسار[2]
ونديمُ بِيض الهند يومَ دمُ العدى
خمر له والمأثُرات خُمار
آياتُ نصر في الورى بسيوفها
أَمِنَ الهُداةُ وآمن الكفار

(١) في الأصل: نحمي فيوذعها.
(٢) ربذ أي خفيف سريع، ويقال ربذت يده بالقداح أي خفت، والأيسار جمع ياسر ويسر (بفتحتين) وهو اللاعب بالقداح أو المتقامر.

جاهرتَ حُرَّ بلادهم بجهادهم
حتى غدوا وهمُ لها أسرار
وسريْتَ حتَّى ظَنَّ من صبَّحْتَه
أن الظلامَ على سُراك نهار
ولكم أطارَهُمُ لسيفِكَ بارقٌ
حتى دعوتهُمُ إليكَ فطاروا
وجنحت للسَّلْمِ التي جنحوا لها
وقضاءُ ربك في العباد خِيَارُ
فأتوكَ مُسْتَبِقين قد قَرُبَ المدى
منهم إليك وذُلل المضمار
ودنا «ابنُ رُذْمِيرٍ»[*] يزلزلُ[1] خَطْوَه
أمل تقسَّم نفسَه وحِذار
ففؤادهُ من ذعر سيفك طائر
طوراً ومن عجل إليك مُطار
ولَقَبْلُ أيقن «فِرْدَلَنْدُ» ما له
إلا إليك من الحِمام فرار
كُلٌّ يخِرُّ لأخمَصَيك وطالما
سامَوْكَ في رهج الخميس فخاروا
فهناك أُخْلِصَتِ النفوس وأُكِّدت
عُقَدُ[2] العُهود وشَدَّتِ الأنصار

(*) يقصد بابن رذمير ملك ليون، وإنما نسبه إلى جد أبيه، إذ إن اسمه هو ألفنش (الخامس) بن برمند (الثاني) بن أردون (الثالث) بن رذمير (الثاني) وهو المعروف لدى مؤرخي المسيحيين الإسبان باسم «ألفونسو النبيل **Alfonso el Noble**» ولي حكم مملكة ليون بين سنتي ٣٩٠ و٤١٨ (٩٩٩ – ١٠٢٧).

(١) في هذا الموضع قطع ذهب ببعض حروف هذه الكلمة بحيث لا يبدو منها إلا «ير....» وقد أثبتنا ما جاء في «ق».

(٢) في الأصل: عقود، وبها لا يستقيم الوزن والتصويب عن «ق».

وتواصَلَ البُعَداءُ منكَ بطاعَةٍ
وَصِلت بها الأرحام والأصهار
فعقدتَ في عُنق الظلال مواثقاً
دانت بها الرهبانُ والأحبَارُ
وكأنما كانت عقودَ تمائم
سكنت بها الأوجال والأذعارُ
أحيَيْتَ منها مُلْك «رُذميرٍ» وقد
مشت الدهور عليه والأعصار
وأقمتَ تاجَ جبينه من بعدما
عفت المعالم منه والآثار
وبسطتَ من «قَشْتِلَّةٍ» يد آمنٍ
لرضاكَ فيها يارَقٌ وسِوارٌ(١)
ثُم انثنوا يبْأَوْنَ منك بطاعة
رفعوا بها أعلامهم وأناروا
ولهم بذكركَ في العُداة تبجُّحٌ
وبقُبْل كَفِّكَ في البلاد فخار
ورفعت أجياد الجياد لأوبة
رُفعت لها الآمال والأبصار
فكأنما البشرى بذلك عندنا
كأس علينا بالسُّرور تُدار
والأرضُ أرضُكَ كلها لك روضة
أُنُفٌ وأنت سماؤها المدرارُ

---

(١) قشتلة هي المنطقة المعروفة باسم **Castilla** في وسط إسبانيا، والشائع أن تكتبها المراجع العربية هكذا: قشتالة، وأقل من ذلك شيوعاً «قشتيلة» وإن كانت هذه القراءة وما جاء في ديوان ابن دراج أقرب لنطقها الإسباني، واليارق ضرب من الأسورة.

حتى قدمت وما تقلب ناظر
إلا له بقدومك استبشار
حُرَّ المكارمِ حقُّ قدرك أن تُرى
وعبيدك الساداتُ والأحرار
ومجاهداً في الله حق جهاده
واللهُ أبصر فيك ما يختار
واسأل بضيفك كيف بعدك حاله
وقد اقتضته بعد دار دار
غدرت به أيامُ عامٍ قد وفى
أن الوفاء بعهده غدَّار
ودنا به أجل الرحيل كأنه
أجل الممات دنا به المقدار
عام كعمر الوصل ليلة زائر
وأسى تقاصَرُ دونه الأعمار
طالت لياليه الزمان بهمه
وكأنهن من السرور قصار
بمشرد قلق الثَّواء بمنزل
لا ينثني فيه له الزوار
مثوايَ فيه تقلقل وتأهب
وقِرايَ فيه ذلة وصَغار
وحسابُ أيام كأن متاعها
نوم على وجل البيات غِرار
وطلاب مأوى قبل حين أوانه
فالدهر أجمعه ليَ استنفار

لـــــله من عـــــام جـــــرى عـــــني بـه

جـــريُ الأهـــلـــة فـــيه والأقـــمـــار

في أهلِ دار كـــالــكـــواكب والـــنـــوى

بـــعـــد الـــنـــوى فــلك بـــهم دوار

كـانـوا جَـمـالاً لـلـزمـان فـأصـبـحـوا

وهمُ عـــلـــيه بـــالـــتـــغـــرب عـــار

تـــنـــبـــو الـــديـــار بـــهم وتـــلك ديـــارهم

غـــرض المـــصـــائب مـــا بـــهـــا ديَّـــارُ

قـــد أقـــفـــروا وطن الأنـــيس وأُنِّـــستْ

بـــهمُ مـــفـــاوز بـــالـــفلا وقـــفـــار

يـــتـــأوهـــون إذا رمت أوهـــامُـــهُم

داراً لـــســاكـــنـــهـــا بـــهـــا اســـتـــقـــرار

ويَـــهـــيـــجُـــهم عِـــينٌ لـــهن مـــرابض

ويـــشـــوقـــهم طـــيـــر لـــهـــا أوكـــار

وإلـيكَ يـا «مـنـصـورُ» حـطـوا أرْحُلاً

لـــعـــبت بـــهن تـــنـــائِفٌ وبـــحـــارُ

فـــزعـــاً إلـــيك من الجلاء بـــأوجه

في كل عـــام لـــلـــجلاء تـــثـــار

ورأوا بـقـربك أنـهم قـتـلـوا الـنـوى

فـاسْـتُـحْـيِـيَتْ ولـهـا عـلـيـهم ثـار

قـــد طُـــيِّـــرت غِـــربـــانُ كلِّ مُـــغَـــرَّبٍ

وغُـــرابـــهم لـــلـــبَـــيْن لـــيس يُـــطـــار

جُـرَةً[1] عـلـيك ومـا رأتْ من قـبـلـهـا
خَـطْـبـاً له فـيـمن أضـفت خـيـار
وعـلـى الـلـيـالي مـنك عـهـد ثـابت
ألاَّ يـبـاح لمن حـمـيْت ذمـار
والـلـهُ قـد أعـلى مـحـلك أن تـرى
مـكـشـوفـة في سـتـرك الأسـتـار
وحـبـاكَ بـالملك الـذي لـو شـئت لم
تَـضِق ِالـقـصـوُر بـنـا ولا الأحـيـار[2]
وأجـار قـدرك أن يـسـوغ لـقـائل
«جـار الـزمـان» وأنت مـنه جـار
ولَـحَـقٌ من أبـقى ثـنـاءك في الـورى
أن تـسـتـقـرَّ به لـديك الـدار

****

(١) كذا ضبطها ناسخ الديوان، وهكذا وردت في «ق»، ولم أهتد إلى تأويل صالح لها.
(٢) الأحيار: جمع حير والحير (بفتحة فسكون) في الأصل شبه الحظيرة أو الحمى، على أنه في الأندلس اتخذ هذا اللفظ معنى مختلفاً، إذ كان يطلق على الحديقة الكبيرة، انظر في هذا المعنى والمواضع التي ورد فيها من النصوص الأندلسية: دوزي: ملحق المعاجم العربية ٣٤٤/١ - العمود الثاني.

(٤٤)

وله في رحمهما الله حين وصَّلَ بنت ابن فرذلند إلى زوجها ابن راي مند.

[من الطويل]

لــعل ســنــا الــبــرق الــذي أنــا شــائمُ
يــهــيم من الــدنــيــا بمن أنــا هــائمُ
أمــا في حــشــاه من جــوايَ مــخــايل
أمــا في ذُراه من جــفــوني مــيــاسم؟
لــقــد بــرَّحت مــنه ضــلــوع خــوافق
وقــد صــرحت مــنه دمــوع ســواجم
وَنَــفْحُ صَــبــاً يــهــفــو عــلى جــنــبــاته
كــتــصــعــيــد أنــفــاسي إذا لام لائم
وتحــنــان رعــد صــادع لُــمــتُــونه
كــمــا زفــرت نــفــسي بمن أنــا كــاتم
ومــيض تــشُبُّ الــريح والــرعــد نــاره
كــمــا شب نــيــرانَ المجــوس الــزمــازم[1]
حــمــيل بــحــمل الــراسيــات إلى الــذي
تَــحَــمَّــلــني عــنه الــقلاص الــرواسم[2]

---

(١) الزمام جمع زمزمة وهي تراطن المجوس دون إفصاح بأصوات يديرونها في خياشيمهم.

(٢) الحميل هو السيل وما يجيء به من الغثاء والطين، والقلاص جمع قلوص وهي الناقة الشابة، والرواسم هي الإبل التي خطت على وجوهها علامات.

ومـا أنجـدت فـيه الـنـجـودُ تَـصَـبُّـري

ولا اتــهـمت وجـدي عــلــيه الــتـهـائم[١]

سـوى لـوعـة لـو يـغـلب الـصـبـر نـارهـا

لــشـامــنـيَ الــبــرق الــذي أنــا شــائم

فـإن يـسق من أهـوى فـدمـعيَ مُـسـعـد

وإن يــــلـــــقه دونـي فــــأنــــفيَ راغم

كـفـاني الـتـمـاحَ الـشـمس والـبـدر وجـهُه

ومـا اقـتـبـست مـنه الـنـجـوم الـعـواتم

ومـا تجـتـني من طـيب أردانه الـصَّـبـا

ومن ورد خـــديـه الـــريـــاض الـــنـــواعم

فـلــهـفي عـلـى قـرن من الـشـمس سـاطع

تجــلــله كِــسْفٌ من الــلــيل فــاحم

إذا زارني أعــشى جـــفـــون رقــيـــبه

وأخـــرس عـــني مـــا تــقــول الــلــوائم

وآذن أنــفــاسي ونــفــسي بــنــشــره

وَرَيَّــاهُ أنــفــاسُ الــريــاح الــنــواسم

وبــشَّــرَني من قــبــله صــوت حــلــيه

تُــجَـاوِبُه فـوق الــغـصـون الحـمـائم

(١) لاحظنا في هذا الموضع اختلالاً في ترتيب أوراق المخطوط، فالورقة التي تلي هذه مباشرة (أي رقم ٤٤) تبدأ بأربعة أبيات هي ختام هذه القصيدة وأولها:

ولا نظم الأعداء ما أنت ناثر ... ولا نثر الأعداء ما أنت ناظم

وواضح أن السياق لا يستقيم، مما استنتجنا معه أن ورقة أو أكثر سقطت من المخطوط على الرغم من تسلسل ترقيم الأوراق وانتظامه، على أننا رأينا بعد ذلك أن أبيات الورقتين ٩٣ و٩٤ ليست إلا التكملة المنشودة لهذه القصيدة، وآخر بيت في هذه الورقة الأخيرة وهو:

ولا ختمت عنك الليالي سريرة ... ولا فضت الأيام ما أنت خاتم

ينسجم تماماً مع أول أبيات الورقة رقم ٤٤ الذي أوردناه، ولهذا فقد أعدنا لأبيات القصيدة ترتيبها الطبيعي المنطقي كما يرى، هذا وقد تأكد لنا ذلك بعد أن رأينا المخطوطة «ق» تورد هذه القصيدة كلها على النسق الذي أوردناها به.

إلى ملتقى قلبين ضم عليهما
جوانحه جُنح من الليل عاتم
ومُعْتَنَقٍ كالجفن أطبق نائماً
على ضَمٍّ إنسانين والدهرُ نائم
فبتنا وقاضي الوصل يحكم في الهوى
وغانم قلبي بالحكومة غارم
أمص من الكافور مسكاً وأجتني
من الوشي رماناً زهته المقادم
ويَرجعُ روحَ النفس ما أنا ناشق
ويجبُرُ صَدْع القلب ما أنا لازم
وأرشُفُ من حصباءِ دُر وجوهر
رحيقَ مُدام سُكْرُه بيَ دائم
وفي كبدي حر من الشوق لاعج
وفي عضُدي غُصن من البان ناعم
يُقِرُّ هواه أنه ليَ قاتل
وقلبي له من جفوة الشوق راحم
أُجَنِّبُ أنفاسي أزاهرَ حُسنِه
لعلميَ أن النَّوْر بالنار ساهم
وَأَغْمِضُ لحظي عن جنَى وجناته
مخافة أن السهم للورد حاطم
وما صرع القتلى كعينيه صارع
ولا كَلَمَ الجرحى كصُدغيه كالم
فإن أشف وجدي من تباريح ظلمه
بضمي له أيقنتُ أنيَ ظالم
وإن أُحيْ نفسي فيه من ميتَةِ الهوى
بلثمي له لم أعْدُ أنِّيَ آثم

فـكـيـف وقـد غـارت به أنجمُ الـنـوى
وقُــيِّــدَ دون المــاء حــرَّان هــائم
مــتــاع من الــدنــيــا أراني فــراقُه
بــعــين الــنــهى والحــلم أنيَ حــالم
وقــد صــرمــتـه حـادثـات كـأنــهـا
بـيـمـنـاك يـا «مـنـصـور» بـيض صـوارم
يُــضــرِّمــهــا أمــثــالَــهُن كـتـائب
يُــقَــدِّمُــهــا أشــبــاهــهن عــزائم
أســنـتــهـا لـلـمـهـتـدين كـواكب
وأعلامُــهـا لـلـمـسـلـمـين مـعـالم
وآثــارهــا في الأرض أشلاء كــافــر
وغــاو وفي جـو الـسـمـاء غـمـائم
وفي كـبـد الـطـاغـوت مـنـهـا صـوارع
وفي فِـقَـرِ الـشـيـطـان مـنـهـا قـواصم
بــكل تُــجِـيـبِيٍّ إلـيك انـتـسـابه
وإن أنجـــبـــته تـــغــلبٌ والأراقم
ومُـخـتـارِ يمـنـاك الـعـلـيـةِ نـسـبـةً
وإن سـفـرت يـربـوعُ عـنـهـا ودارم
وأذهــلـــهم جــدواك عن كل مــفــخـر
وإن فَـخَـرَتْ ذُهْلٌ بـهـا والـلـهـازم[1]
أســودٌ إذا لاقــوا وطــيْــرٌ إذا دُعُــوا
أيـا مـنُـهم لـلـمـعـتـدين أشـائم
تـلـمَّظُ في الأيـسـار مِـنـهُمْ أسـاود
وتـهـتـز في الأيمـان مـنـهم أراقم

(١) اللهازم مجموعة من القبائل العربية تتألف من عجل وتيم اللات وقيس ابن ثعلبة وعنزة.

ظـمـاء ومـا غـيـرَ الـدمـاء مـشـارب
لـهن ولا غـيـر الـقـلـوب مـطـاعم
غـرستَ الـفلا مـنـهـا غـيـاضـاً أرُومُـهـا
حـمـاةُ الحمى والـصـافـنـاتُ الـصلادم[1]
إذا مـادنت من شـِربـهـا أجـنت الـردى
وكـان جـنـاهن الـطُّـلُّى والجـمـاجم
فـأنـسـتك يـا «مـنـصـور» روض حـدائق
تُلاعب فـيـهن المـنى وتُـنـادم
يـضـاحك في أرض الـزمـرد شـمـسَـهـا
دنـانـيـرُ من ضـرب الحـيـا ودراهم
وألـهـتك عن لـيـل كـواكـبُه المـهـا
وعن أبـرُج أقـمـارُهُن الـكـرائم
ومـا شُغِلت يُـمـنـاك عن بـذل مـا حـوت
وإن غـار مـنـهن الـنـدى والمـكـارم
فخـاصـمن بـيض الـهـنـد فـيك إلى الـعلا
وحق لمن في الـقـرب مـنك يـخـاصم
فـإن عـزهـا من صـدق بـأسكَ شـاهـد
فـقـد سـنـهـا من عـدل حـكـمك حـاكم
بـيـوم إلي الـهـيـجـا ويـوم إلى الـنـدى
ومـا عـالَ مـقـسـوم ولا جـارَ قـاسم[2]
ونـوديت يـوم الجـود لـلسَّلم في الـعدى
فـجـدت به والمـرهـفـات رواغم
حـذاراً عـلى إلف الـهـوَى غـربـةَ الـنـوى
ومـا إلـفُـهـا إلا الـوغى والملاحم

(١) الصلادم جمع صلِدِم بكسر الصاد والدال ويعني بها الخيل الشديدة الصلبة.
(٢) عال أي نقص.

وعَـوِّدتْـهَـا طُـعم الـسـبـاع فـأشـفـقت
بـإغـبـابه أن تـدعـيه الـبـهـائم
وكـلـفـتـهـا رزق الـذئـاب فـأُحـشـمت[1]
لـذيب عـوى تحت الـدجى وهـو صـائم
ومـنَّـيـتَـهـا نـفس «ابن شَنْجٍ» فـأسـمـحت
مـسـالمـةً من بـعـده من تُـسـالم
عـلـى أن بـعض الـعـفـو قـتل ومـغـنم
ومـا ردَّ ربْحَ الـمُـلك في الحـرب حـازم
فـإنَّ قـتـيلَ الـسـيف لـلـذيب مـطـعم
وإن قـتـيل الـعـفـو لـلـمُـلْك خـادم
فـيـا لـبُـروق لم يـزلن صـواعـقـاً
عـلـى الـكـفـر غـيث الأمن مـنـهن سـاجم
تُـقَـطِّعُ بـالأمس الـرقـابَ ووُصِّـلت
بـهـا الـيـومَ أرحـام لـهم ومـحـارم
غـدت وهْيَ أعـراسٌ لـهم وعـرائس
وبـالأمس مـوت فـيـهمُ ومـآتم
بـعَـقـد بـنـاء أنت شِـدْتَ بـنـاءه
ولـيس له في الأرض غـيـرَك هـادم
«فِـرَنْـجَـةُ» أعلاه و«قَـشْـتِلُ» أُسُّه[2]
وسَـلْـمُك أركـان له ودعـائم
فـمَـلَّـكْتَ تـاج الـمُـلك تـاجَ مَـلِـيكَـةٍ
لـتـاجَـيْـهِمَـا تـعنـو المـلوك الخـضـارم

(١) أحشم أي أغضب وأخجل.

(٢) يكرر ابن دراج هنا الإشارة إلى كون الذكر في هذا الصهر الذي أتم عقده منذر بن يحيى من «فرنجة» ويعني الأندلسيون بهذه الكلمة في الغالب نصارى إمارة برشلونة، أما الأنثى فكانت من قشتالة (انظر تعليقنا على القصيدة السابقة ص ١٥١ - ١٥٢).

وتـوجـتـهـا فـوق الأكـالـيل والـذرى
خـوافقَ تـغـشـاهـا الـنـسـور الـقـشـاعم
وحـلَّـيْـتَـهـا بـعـد الـدمـالـيج والـبُـرا
حُـلِـيـا لآلـيه الـقـنـا والـصـوارم
وضـمـخـتـهـا من طـيب ذكـرك في الـورى
بـأضـعـاف مـا تُـهـدي إلـيـهـا الـلـطـائم[1]
ونـظـمـت آفـاق الـفلا لـزِفـافـهـا
خـيـولاً حـمت مـا قـلـدتـهـا الـنـواظم
مُـنًّى كـان فـيـهـا «لابن شـنـج[2]» مَـنـيـة
يُـغَـرغِـر مـنـهـا راهقُ الـروح كـاظم[3]
مـرجت عـلـيه لج بـحـرين يـلـتـقي
عـلى نـفـسه تـيـاره المـتـلاطم
وغـادرته مـا بـين طـودين أطـبـقـا
حـتـوفـاً تُـصـادي[4] نـفـسه وتـصـادم
وأسـلـمه الأشـيـاع بَـوّاً بـقـفـرة
سـرايـاك أَظْـآرٌ عـلـيـه روائم
فـلـيس له من «نـاصـر الـدين» نـاصـر
ولـيس له من عـاصم المـلك عـاصم
وقـد صـدرت عـنه خـيـولك آنـفـاً
وأحـشـاؤه فَـيْءٌ لـهـا ومـغـانم
أقـاطـيعُ مِلْءُ الأرض أصـواتُ خـيـلـهـا
وأنـعـامِـهـا عـمـا يُـكِنُّ تَـراجم

(١) جمع لطيمة وهي العير التي تحمل المسك والطيب.
(٢) «ابن شنج» المقصود هنا هو «شانجة بن غرسية» ملك نبره **Navarra** ويبدو من هذا البيت أن الصهر بين أميري برشلونة وقشتالة والحلف بينهما بتدبير منذر لم يكن يتمشى مع سياسته ولا مصالحه، وهو ما لا تسبب في الحديث عنه المراجع المسيحية.
(٣) الغرغرة هي تردد الروح في الحلق، وراهق أي هالك.

يـنـاجي نـفـوسـاً حـازهن غـنـائـمـاً

بـأمـنك قـد حـانت عـلـيـهـا المـغـارم

وأفـعـال خـفض كـنت تـشـكُـلُـهـا له

بـرفـعك قـد أوفت عـلـيـهـا الجـوازم

بـغـزوة مـيـمـونِ الـنـقـيـبـة ثـائـرٍ

عـزائـمُه في الـنـاكـثـين هـزائم

وكم طـمـست عـيـنـيه بـرقـة مـقـدم

تـلألأ فـيـهـا مـجـدُك المـتـقـادم

تجَـلَّـلَـهَـا جَـدَّاكَ: عـمـروٌ وتُـبَّعٌ

وأعـقـبـهـا عـمَّـاك: كـعب وحـاتم

ومن أعـربت فـيه أعـاظِمُ يـعـرب

فـمـسـتـصـغَـرٌ في أصـغـرَيْه الـعـظـائم

مـآثـر لم يـسـبق إلـيـهن سـابق

ولا رامـهـا من قـبل سـعـيك رائم

كسـا الـعـرب الـعـربـاءَ مـنـهن مـفـخـر

تُـصَـلِّبُ مـنه لـلـوجـوه الأعـاجم

وشِـدْتَ بـهـا في الـروم والـقـوط رفـعـة

تُـسـامي بـهـا عـنـد السُّـهـا وتُـزاحم

وصَـرَّتْ بـهـا أقلام ضـيـفك صـرة

تُـصِرُّ[1] لـهـا الآذانَ بُـصْرى وجـاسم

فـزودهـا الـركـبـانَ شـرقـاً ومـغـربـاً

ووافت بـهـا جـمع الحـجـيج المـواسم

ومـا ليَ لا أُبـلـي بـذكـرك في الـورى

بلاءً تـهـاداه الـقُـرونُ الـنَّـواجِمُ

(١) صر بأذنه وأصر بها أي سواها ونصبها للاستماع.

وأُطــلِــعُه شـــمــســاً عــلى كل أمـــة

يُـكـذَّب فـيـهـا عن سـنـا الـشـمس زاعم

فـــيــحــســدني فـيك الــعـراقُ وشـامُه

وإيـــاك فيَّ عـــبـــدُ شـــمسٍ وهـــاشم

بُـخِـسْتُ إذن سـعـيي إلـيك وهـجـرتي

ومـا حـمـلت مـني إلـيك المـنـاسم[١]

وبـين ضـلـوعي بـضع عـشـرة مـهـجـة

ظـــمـــاءً إلى جـــدوى يـــديْكَ حـــوائم

تـلـذ الـلـيـالي لحـمَـهـا ودمـاءَهـا

وطـــعمُ الـــلـــيـــالي عـــنـــدهن علاقم

قـطـعت بـهن الـلـيل والـلـيلُ جـامـد

وخُـــضْتُ بـــهن الآل والآلُ جـــاحم

إذا ملأ الــهــولُ المـمـيتُ صـدورهـا

تحـــرك من ذكـــراك فـــيـــهـــا تـــمـــائم

عـلى شَـدَنِـيَّـاتٍ[٢] تـطـيـر بـركـنـهـا

إلـيك خـطـوب في الـقـلـوب جـواثم

فـكم غـال من أجـسـامـهـا غَـوْلُ قـفـرة

وخَــرَّمَ من ألـــبـــابـــهن الــمَــخـــارم[٣]

وكم عـــجـــزت عـــنـــا ذوات قـــوائم

فـعُـجْـنـا بـعـوج مـا لـهن قـوائم

جـآجئُ [٤] غِـربـان تـطـيـر لـنـا بـهـا

عـلى مـثل أطـواد الـفـيـافي نـعـائم

---

(١) جمع منسم وهو طرف خف البعير.

(٢) هي الإبل المنسوبة إلى شدن اسم موضع باليمن.

(٣) جمع مَخرِم (بفتح الميم وكسر الراء) وهو الطريق في الجبل.

(٤) جمع جؤجؤ وهو الصدر.

لـهـا من أعـاصـيـر الـشـمـال إذا هـوت
خـواف ومن عـصف الجـنـوب قـوادم
يُـحـاجَى بـهـا: مـا حـامل وهـو راقـد؟
ومـا طـائـر في جـوه وهـو عـائم؟
سـرت من عـصـا مـوسى إلـيه قـرابـة
فَـطَبٌّ بـفـلق الـبـحـر والـصـخـر عـالم
وشـاهـد لَـقْمَ الحـوت يـونسَ فـاقـتـدى
فـغـادٍ وسـارٍ وهـو لـلـسـفـر لاقم
أعـوذُ بـقـرع المـوج في جـنـبـاتـهـا
إلـيك بـنـا أن يـقـرع الـسن نـادم
ومـا عـبَّـرَت عـنه جـسـوم نـواحل
ومـا حـسـرت عـنه وجـوه سـواهم
ومـا كـتـبت في واضـحـات وجـوهـنـا
إلـيك الـديـاجي والـريـاح الـسـمـائم
فلا رجـعت عـنك الأمـاني حـسـيـرة
ولا فـزعت مـنـا لـديك الـتـمـائمُ
ولا خـتـمت عـنك الـلـيـالي سـريـرة
ولافـضت الأيـامُ مـا أنت خـاتم
ولا نـظم الأعـداءُ مـا أنت نـاثـر
ولا نـثـر الأعـداء مـا أنت نـاظم
ولا عـدِمَ الإشـراكُ أنك ظـافـر
ولا عـدم الإسلام أنك سـالـم
ولا زال لـلـسـيف الحـنـيـفي قـائم
وأنت به في طـاعـة الـلـه قـائم
جـهـادٌ عـلى الـكـفـار بـالـنـصـر مُـقـدم
ووجه عـلى الإسلام بـالـفـتـح قـادم

****

(٤٥)

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى[١].

[من الكامل]

قل لـلـربـيـع اسـحبْ مُلاءَ سـحـائب[٢]
فـاجـرر ذيـولك في مـجـر ذوائـبي
لا تُـكـدِينّ[٣] ومن ورائك أدمـعي
مـدداً إلـيك بـفـيض دمع سـاكب
وصـبـابـةٌ أنـفـاسُـهـا لك أسـوة
إن ضـاق ذرعك بـالـغـمـام الـصـائب
وامـزِج بـطـيب تحـيـتي غَـدِقَ الحـيـا
فـاجـعـله سـقيَ أحـبـتي وحـبـائـبي
عـهـداً كـعـهـدك من عـهـاد طـالما
كـست الـبـرود مـعـاهـدي وملاعـبي
واجـنح لـقـرطـبـةٍ فـعـانق تـربـهـا
عـني بمـثل جـوانـحي وتـرائـبي
حـيث اسـتـكـانت لـلـعـفـاء مـنـازلي
وهـوت بـأفلاذ الـفـؤاد نجـائـبي
ذللاً تـعـسـفن الـدجى بـأذلـة
ولـواغـبـا جُـبْن الـفـلا بـلـواغب

(١) أورد الحميدي من هذه القصيدة مطلعها وأربعة أبيات أخرى. انظر «جذوة المقتبس» ص ١٠٥، ونقلها عنه الضبي في بغية الملتمس ص ١٥٠.

(٢) في الجذوة: سحائبي.

(٣) في ا لجذوة: لا تكذبن ولا معنى لها هنا، وأكدي المطر أي قل وبخل.

وكـواكبٌ نـاءت بـغـربـتـهـا الـنـوى

فـقـضـت مـدامـعـهـا بـنـوء الـغـارب

من كل مــفــجـــوع بـــتـــرحـــة راحل

لم يــســـلـه طـــمـع بـــفـــرحـــة آيب

كــذَبَـــتـه بـــارقـــةُ المـــنى عن صـــادق

من ظـــنـه وصـــــدقـــــنه عن كـــاذب

ظُـــعُن ســـرين الــلـــيل ضـــربـــة لازم

وســرى إلـــيـــهـــا الـــهم ضـــربـــة لازب

جَـمُـدت عـلـيـهن الـقـلـوب فـأسـبـلت

فـــوق المحـــاجــــر كل قـــلـب ذائب

وتـــخـــازرت عـنـهـا الـعـيـون فـأبـرزت

عن أعـــين بـــدمـــائـــهن ســـــواكب

وتـــقـــطـــعت أســـبـــابـــهن لــطِـيـــة

وصلت بـهن سـبـاسـبـاً بـسـبـاسب

يـــطـــلـــبن شـــأو غـــرائب ليَ كـــلـــمـــا

نـــأتِ الـــبلاد حـــلـــلن غـــيـــرَ غـــرائب

لحـقت بـأسـبـاب الـسـمـاء فـأعـطـيت

فـــيـــهـــا خـــلـــود أهـــلـــهـــة وكـــواكب

وأعَـــدَّتِ الأزمـــانُ مـــاءَ شـــبـــابـــهـــا

لحـــنـــو ظـــهـــر أو لـــرأس شـــائب

وعـــقـــدن بـــالأبـــد الأبـــيـــد وإن نـــأى

حـــلـــفـين: حـــلف مُـــســـايـــر ومُـــعـــاقب

مـــا بلَّ بـــحـــر صـــوفـــة وتـــقـــاذفت

أمـــواجه بـــشـــمـــائل وجـــنـــائب

هَـــدَمـــاً إلـى هَـــدَمٍ وحِـــفظَ دم دمـــاً[1]
حَـدَبٌ بـعـطف مُـشـاكِهٍ[2] ومُـنـاسب
زُهْـــر طـــوالــعُـــهـــا لــكل غـــد غـــدٌ
وجــــزاؤُهـــا رهن بـــأمس الـــذاهب
تـشـدو بـهـا خُـضْـرُ الحـمـام وحـظـهـا
عـنـقـاءُ ريـعت بـالـغـراب الـنـاعب[3]
حـلَّـيـتُـهـا الأرضَ الـتي هي فـاركي
وكـسـوتُـهـا الـدهـر الـذي هـو سـالـبي
وملأتُ مـنـهن الـعـقـولَ عـجـائـبـاً
ولَـنـقصُ حـظي من تـمـام عـجـائـبي
مـيْتُ الـرغـائب والمـسـيحُ مـورثي
إحـيـاءَ آثـاري وخُـلْـدَ مـنـاقـبي
بـشـواردٍ في الأرض غـيـرِ أوابـد
وطـوالع في الجـو غـيـر غـوارب
ولـقـد قـضـيتُ من الـصـبـابـة حـقـهـا
فـقـضت من الأمل الـبـعـيـد مـآربي
قنَّـعـتُـهـا الـصبـرَ الجـمـيلَ فـأسـفـرت
في آل «يـحـيى» عن جـمـيلِ عـواقب
وشـددتُ عـقْـدَ خِـتـامـهـا فـاسـتـفـتـحت
بمـكـارم «المـنـصـور» ضـيقَ مـذاهـبي
فـهلَ آنت يـا زمن الـربـيع مُـبَـلِّغٌ
بـالمـغـربـين أحـبـتي وأقـاربي

(١) الهدم هو القبر، والعرب تقول: دمي دمك وهدمي هدمك وذلك عند المعاهد والنصرة، ومنه قول النبي (صلى الله عليه وسلم): بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني.

(٢) في الأصل: متشاكه وقد قومناها بما أثبتنا حتى يستقيم الوزن، وهكذا وردت في «ق».

(٣) في الأصل: ...... وحطها عتقاء..

أن الــربــيــع لــديَّ شــيــمــةُ قــاطن

وحــيــا الــغــمــام عــلــي ديمــةُ دائب

من بـعـد مـا غم الـصـبـاح لـنـاظـري

واشـتف مـنـي الـبـحـر جـرعـة شـارب

وأنـــستُ بـــالأهـــوال حـــتـى لم أَبُلْ

ألــقـــاءُ أُسْـــد أم لــقـــاء ثـــعـــالب

كم أنـشـبـت فيَّ الخـطـوب مـخـالـبـاً

حـتـى انـثـنت عـنـي بـغـيـر مـخـالب

وشـــفَـــيْتُ سُمَّ عـــقـــارب بـــأســـاود

ودفـــعـت سم أســـاود بـــعـــقـــارب

حـــتـى نـــزفن ســمـــومـــهن فـلـم يُـرع

من نــافــثـــات الــسم لــيلُ الحـــاطب

وسَـدِكْتُ[1] بـالـغـمـرات حـتـي بـلَّـدت

فَـرَمَـيْنَ حـبـلـي فـوق ذِروة غـاربي

وتـــداركـــتـــنـي ذمـــة من يـــعـــرُب

مــطـرت عـلـيَّ ثـمـارَ جـنـة مـارِب

فـهـنـاك أنـصـلتُ الأسـنـةَ وانـتـحى

سـيـفي بـهـا مـسـحـاً بـسـوق ركـائـبي

ورفـعـتُ نـاراً لـلـعـيـون وَقُـودُهـا

أقـتـابُ أحـداجي ووقـر[2] حـقـائـبي

نـعـم تـكـاد تـردُّ أيـامَ الـصِّـبـا

وتـعـيـد أزمـان الـنـعـيم الـذاهب

أيـامَ ألـقى الـصـبـح تـرْبَ كـواكب

أدبـاً وأُحْـيي الـلـيلَ خِـلْبَ كـواعب

---

(١) سدك بالشيء أي لزمه.

(٢) في الأصل: ووفر.

والمـكـرمـات مـنـازلي ومـشـاهـدي

والـمُـقـرَبـات مـراكـبي ومـراقـبي[1]

إذ أنت يـا زمن الـربـيع مـخـيِّم

في سـاحـلي ومُـغـيِّم من جـانـبي

عـبقُ الـروائح من نـثـيـر غـدائـري

غـدق الـسحـائب من فُـضـول مـشـاربي

وتـروح مـغـتـبـقـاً شـمـول شـمـائـلي

وتـعـودُ مـصـطـبحـاً ضـريب ضـرائـبي[2]

تـغـدو فـتـسـتـمـلي بـديع مـحـاسـني

وتـروح تـسـتـقـري نـفـيس غـرائـبي

وتـبـيت تـنـشـر في الأبـاطح والـربى[3]

زهـراً يـخـبـر عـنك أنك كـاتـبي

ممـا تـرف به ريـاضُ حـدائـقي

ويُـفـيضُ جـوهـرَه عـبـابُ غـواربي

فـنـظـمـتُـهـا في كل أفق نـازح

وبـعـثـتُـهـا معَ كل نجم ثـاقب

ونـظـمتُ يـا «مـنـصورُ» ذكـرك وسْطـهـا

نـظم الـعـقـود عـلى تـرائب كـاعب

ذكـر عـلى الألـبـاب أكـرمُ نـازل

وعـلى فـجـاج الأرض أوضح راكب

سـور لمجـدك رفَّـعتْ آيـاتِـهـا

أعـلامُ آدابي وذكـر مـنـاقـبي

---

(١) في (ق): ومراتبي.

(٢) الضريب هو اللبن، والضرائب جمع ضريبه وهي الخليقة والسجية.

(٣) في الجذوة: وانشر على تلك الأباطح والربى.

بــــفـــواتح من كل مــــدح ســـائـــر
وخـــواتم من كل حـــمـــد واظب[1]
فـاسـتـشـرف الـثـقلان أخـطبَ شـاعـر
وأصـاخت الـدنـيـا لأشـعـر خـاطب
فـخـطـبتُ والـعـوَّاءُ[2] بـعض مـنـابـري
وأممت والجـوزاء بــعض مـــحـــاربي
وكـتـبت مـنـهـا لـلـيـالي مـصـحـفـاً
تـتـلـوه ألـسـنـةُ الـزمـان الـدائب
حـتى تـركتُ سـنـاء مـلـكك حـاضـراً
في كـل أفـق عـن بـلادك غـــــائـب
وجـلـوت لـلـدنـيـا مـثـالك في الـوغى
تـــخـــتـــال بـــين ذوابل وقـــواضب
وأريـــتُك الأُممَ الخُـــلـــوفَ مـــتـــوَّجـــاً
بـــخـــوافق ومـــكـــلـلاً بـــكـــتـــائب
ورفـعت سـتـر الـلـيل عـنك لـغـابـر
ومُـــقـــدَّم ومُـــبـــاعِـــد ومـــقـــارِب
حـتى أريـتـهُمُ الـسـنـا تحت الـدجى
وخـيـال سـار في مَـخـيـلـة سـارب
طـيَّـارَ بـارقـةِ الـوغى بمَـقـادم
كـقـوادم ومـواكب كـمـنـاكب
حـتى «ابن شـنْجٍ» يـوم أمك خـاضـعـاً
تـسـعى إلـيك به نـدامـة تـائب
من بـعـد مـاراز[3] الـبلاد فـلم يـجـد
في الأرض عن مـأواك مـهـرب هـارب

(١) في الأصل وفي «ق»: واصب، ولا معنى لها هنا، ولعل الصواب ما أثبتنا، وواظب: دائم.
(٢) العواء هي أربعة كواكب ثلاثة متفرقة والرابع قريب منها وبه سميت العواء كأنه يعوي إليها عواء الذئب، وقد أراد الشاعر أن يقابل بها الجوزاء في الشطر الثاني، وهي بروج السماء.
(٣) راز أي امتحن وجرب، وقد تكون «راد»، وفي «ق»: زار.

ورأى الـضلال عـلـيك أضـعف نـاصـر
وراى الـفـرار إلـيك أيمن صـاحب
ودعـاك مـعـتـرفـاً بـذلـة مـذنب
وأتـاك مـشـتـملاً بـلـبـسـة راهب
ولـقـد تـراءت في ذَراك مـطـالـعي
حـين اسـتـبـد تـغـربي بمـغـاربي
فـخـتـمت طـول تـقـلـبي بـتـقـبلي
وجـزيت غـر غـرائـبي بـرغـائب
وأجـرتـني من كل خـطب طـارق
حـتى مـنـاجـاة الـرجـاء الخـائب
ووجـدتُ عـنـد يـديك سـد مـفـاقـري
وسـلـو أحـزاني وبـرء مـصـائـبي
ولـقـد تجـلى الـعـيـد عـنك بـغُـرة
جلاَّءة لـفـوادح وغـيـاهب
يـتـلـوك حـاجـبُك الـذي أنجـبـته
كـالـشـمس إذ ضـربت إلـيك بـحـاجب[1]
في مـشـهـد بـسـنـا جـبـيـنك مـشـرق
شَـرِقٍ بـأسـاد وجـرد سلاهب
غُـرٍّ تـواعَـدُ لـلـطـعـان صـواهلٍ
تـخـتـال بـين مُـخـاطب ومُـجـاوب
حـتى ارتـقـيتَ سـريـر مُـلـكك حـقَّه[2]
نـورُ الـسـرور جـوانـبـاً بـجـوانب
ومـددت لـلـتـقـبـيل راحـة مـنـعم
تـنـهلُّ أنمُـلُـهـا بـحـورَ مـواهب

(١) يشير هنا إلى يحيى بن منذر بن يحيى.
(٢) في الأصل: حقه، ولعل الصواب ما أثبتنا.

وتـــكــاد تـــهـــتف عـــنك: هل من راغب

أو راهب أو خــــــائف أو طـــــــالب؟

فـــاســـلم وكن للأرض آخـــر عـــامـــر

ولـــــغــــالـب الأعـــداء أول غــــالب

✱✱✱✱

(٤٦)

وله فيه أيضاً[١] وذكر قدوم الاستاذ صاعد أبي العلاء البغدادي عليه رحمة الله تعالى وعليهم[*].

[من الطويل]

أبى الله إلا أن يرى يدك العليا
فيُبليَها سعداً وتُبليَه سعيا
ويوسعها سقياً ورعياً كمثل ما
سمت للمنى سقياً وسامت بها رعيا
وأيُّ حياً في الشرق والغرب للورى
وأيُّ حمى للملك والدين والدنيا
وأيُّ فتًى والنفسُ كاذبة المنى
وأيُّ فتى والحرب صادقة الرؤيا
علا فحوى ميراث عاد وتبع
بهمته العليا ونسبته الدنيا
فأعرب عن إقدام[٢] يعرب واحتبى
فلم ينس من هود سناءً ولا هديا

(١) اختار ابن بسام من هذه القصيدة تسعة وعشرين بيتاً (انظر الذخيرة ق ١ - ٧١١/ - ٧٣) وأورد الحميدي منها أربعة أبيات (الجذوة ص ١٠٥).

(*) هو أبو العلاء صاعد بن أحمد الربعي البغدادي ورد من المشرق إلى الأندلس في نحو سنة ٣٨٢ في عهد المنصور بن أبي عامر وكان مقرباً إليه وإلى ابنه المظفر من بعده، وقد أزعجته الفتنة عن قرطبة فتردد على بعض الملوك الطوائف، ويبدو أنه قصد منذر بن يحيى بسرقسطة في سنة ٤٠٨ (١٠١٨)، ثم خرج إلى صقلية فمات بها سنة ٤١٧ (١٠٢٦). انظر جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسي - ترجمة الدكتور حسين مؤنس - ص ٦٦، وبحث الأستاذ بلاشير عن صاعد البغدادي في مجلة «إسبريس»، المجلد العاشر، سنة ١٩٣٠، ص ١٥ - ٣٦.

(٢) ذخ: أقوام.

ومن «حِمْيَرٍ» رد القنا أحمر الذرى

ومن «سبإٍ» قادت كتائبه السَّبْيا

وما نام عنه عرق «قحطانَ» إذ فدى

عروق الثرى من غلة القحط بالسُّقيا

ولا أسكنت عنه «السَّكونُ» سيادةً[1]

ولا رضيت «طيٌّ» لراحته طيّاً[2]

ولاَ كندتْ[3] أسيافُه مُلك «كندةٍ»

فيترك في أركان عزتها وَهْيا

ولا أقعدته عن إجابة صارخ

«تُجيبُ» ولو حبْواً إلى الطعن أو مشيا

وكائِنْ له في «الأوس» من حق أسوة

بنصر[4] الهدى جهراً وبذل الندى خَفْيا

همُ أورثوه نصر دين محمد

وحازوا له فخر الندى والقرى وحيا

وهم أوجدوه الجودَ أعذب مطعماً

من الرِّيقةِ الشنْباء في الشفة اللَّمْيا

مناقبُ أدَّوها إليهِ وراثَةً

فكان لها صدراً وكانت له حَلْيا

وروضةُ مُلْك عاهدتها عِهادُهُ

فأغدِقْ بها رِيّاً، وأعْبِقْ بها رَيَّا

وصوتُ ثناء أسمع اللهُ ذكرَه

ليُسمِعِ منه الصُمَّ أو يَهديَ العُميا

---

(١) ذخ: زيادة.

(٢) استخدم ابن دراج في هذا البيت وما قبله وما بعده جناس الاشتقاق مستنداً إلى أسماء القبائل اليمنية كحمير وقحطان والسكون وطيء وكندة وتُجِيبْ والأوس.

(٣) كند أي جحد أو كفر النعمة.

(٤) ذخ: بنصب.

لمن يـلـحظ الأعـلـين في المجـد من عل
وجـارى فأعـيا الـسـابـقـين ومـا أعـيـا
أنـيس الـقـلـوب في الـصـدور ولـم يـكن
لـيـوحش مـثـواه الـفـراقـد والجـديـا
ومـورد من أظـمـا، وإصـبـاح من سـرى
ومـبـرك من أعـيـا، وغـايـة من أغـيـا[1]
فـقـصـرُ[2] مـلـوك الأرض سـدة قـصـره
وإن سـحـقوا بُـعـداً، وإن شـحـطـوا نـأيـا
وأهـدت لـه بـغـداد ديـوان عـلـمـهـا[3]
هـديـة من والى، ونـخـبـة[4] من حـيًّـا
فـكـانت كـمن حـيًّـا الـريـاض بـزهـرهـا
وأهدى إلى صنعاء من نسجها [5] وشيا
وحـسـب رواة الـعـلـم أن يـتـدارسـوا
مـآثـره حـفـظـاً، وآثـاره وعـيـا
ويـكـفي مـلـوك الأرض من كل مـفـخـر
إذا امـتـثـلـوا من بـعض أفـعـاله شَـيًّـا
وأن يـسـمـعـوا من ضـيـفه في ثـنـائه
غـرائب حـلـى من جـواهـرهـا الـدنـيـا
وأن يـنـظـروا كـيف ازدهى مـفـرق الـعلا
بـعـقـدي لـه تـاجـاً من الـكـلم الـعـلـيـا
أوابـد حـالـفن الـلـيـاليَ أنـهـا
تـمـوت الـلـيـالي وهي بـاقـيـة تحـيـا

---

(١) أغيا مشتق من الغياية وهي كل ما أظل الإنسان فوق رأسه مثل السحابة والغبرة، وأغيا عليه السحاب أي أظل عليه.

(٢) أي قصارى.

(٣) يشير هنا إلى قدوم صاعد اللغوي البغدادي على منذر بن يحيى.

(٤) ذخ: وتحفة.

(٥) في الأصل: وشيها، وقد آثرنا قراءة «ق» والذخيرة.

لمن كـــــفل الإسـلامَ أُمَّ ســـــيــــادةٍ
فــبَــرَّت بـه حِــجــراً، ودرَّت لـه ثــديــا
ومن ذعــر الأعــداء حــتي تــوهــمــوا
بـه الـصـبحَ جـيـشـاً والـظلامَ لـه دَهْـيـا
لـطـاعـة من وصَّى المـنـايـا بـطـوعه
فـلـم تـعـصه في الـشـرك أمـراً ولا نـهـيـا
فــكم رأسِ كُــفْــر قــد أنــافت بــرأسه
من الصَّرعة السفلى إلى الصعدة العليا
فـأوفت به في مــرقب الــســور كـالحـاً
يــؤذن بـــالأعــداء: حيَّ هلا حـــيـــا[1]
وتــفــلي الــصَّـبـا مــنـه ذوائبَ لــمَّــة
تـفـاخَـرُ أيـدي الـمُـصْـبـيـات بـهـا فَـلْـيـا
فـهـامـته لـلـهـام تـسـتـامـهـا الـقِرى
وأشلاؤه لـلـريـح تـسـتـامـهـا الـسفـيـا[2]
وكم رد عن نـفس «ابن شـنج» سـهـامـهـا
وقـد أغـرقت نـزعـاً وأمـكـنـهـا رمـيـا
طــلــيــقكَ من كف الإســار وقــد هــوت
به الـرَّقِمُ الـرقـمـاء[3] والمـوُبِـدُ الـدَّهـيـا
فَـحَـكَّـمْتَ فـيه حـد سـيـفك فـاقـتـضى
وشاورت فيه الفضل فاستعجم الفُتيا
فـأخَّــرت عــنـه حـكم بــأسك بــالــردى
وأمـضـيت فـيه حـكم عـفـوك بـالـبُـقْـيَا
ووقَّــيْــتَه حَــرَّ الحِــمــام لــوِ اتــقى
وزوَّدتـه بَـرد الحـيــاة لــو اســتـحـيــا

(١) حيَّ هل صيحة يقصد بها التعجيل، وهو يعني أنه ينادي الاعداء أن عجلوا بالفرار.
(٢) في الاصل: السقيا، ولعل الاصلح ما أثبتنا، والسفي مصدر سفى، وهو ما تسفيه الريح أي ما تذروه.
(٣) يقال: وقع في الرقم الرقماء إذا وقع فيما لا يقوم به، وهو مثل قولهم بالداهية الدهياء.

فأفلت ينزو في حبائل غدرة
بأوتَ بها عزا، وباء بهاخزيا
فأتبعتَه تحت العجاجة راية
بهرتَ بها رأياً وأعليتها رأيا
وجردت سيف الحق مُدَّرِعَ الهدى
لمن سلَّ سيف النكث وادَّرعَ البغيا
وأعليتَها في دعوة الحق دعوة
كفاك بها بشرى وأعداءها نعيا
فجاءتك تحت الخافقات كتائباً
كما حدت الأفلاكُ أنجمَها جريا
مُهلِّينَ بالنصر العزيز لمن دعا
ملبين بالفتح المبين لمن أيَّا[1]
بكل أمير طوعَ يمناك جيشُه
وطاعتُك العلياءُ غايته القصيا
وكلٍّ كمي في مناط نجاده
دواءٌ لداء الناكثين إذا أعيا
وإن لم يفق داءُ «ابن شنج» بطِبِّه
فقد بلغت أدواؤُه النار والكيا
بسابحة الأجياد في كل لجة
تُريكَ عباب البحر من هولها حِسيا
قدحت بأيديها صفا الشرك قدحة
جعلت ضِرام المشرفي لها وريا
خواطفَ إبراق جلاهُن عارض
من النقع لا يوني دماءَ العِدى مَريا[2]

(١) يقال: أيا بالإبل إذا زجرها يقول لها: أيا أيا.
(٢) المري مصدر مرَى ويقال مرى الناقة إذا مسح ضرعها لتدر، ومرى الدم أي استخرجه. ولا يوني: لا يغتر.

عُـقِـدن بـأيمـان الـضِّـراب وعـوقـدت
بـأيمـان عـهـد لا انـثـنـاء ولا ثُـنـيـا[1]
وزُرقـاً تـشـكيَّ من ظـمـاء كُـعـوبـهـا
وتـسـقي ربـوع الـكـفـر من دمه رِيَّـا
إذا غـربت نـاءت بمـنـهـمـر الـكُـلى
وإن طـلـعت فـاءت بملء الملا فـيـا
فـأُبْتَ بـأعـداد الـنـجـوم مـسـاعـيـاً
وأمـثـالـهـا سـمـراً وأضـعـافـهـا سـبـيـا
وجوها سُلبنَ العصْبَ[2] والحَلْيَ فاكتست
مـحـاسن أنـسـين المجـاسـد والحـلـيـا
كـأن لم تـدع بـالـبـيـد أيـكـاً ولا غـضى
ولافي شـعـاب الـرمل خِـشْـفـاً ولا ظـبـيَـا
إيـابَ مـلـيـك قُـلِّـدت عـزمـاته
من الـرشـد والـتـوفـيق مـا دمـر الـغَـيَّـا
يُـقـر عـيـونَ الخـيـل في حـومـة الـوغى
إذا مـا قـدور الحـرب فـارت بـهـا غـلـيـا
ويُـعـرض عن فُـرش الـقـصـور وثـيـرة
لـيـركب ظـهـر الحـرب محـدودبـاً عُـريـا
ويـحـسـو ذعـاف الـسم في جـاحـم الـوغى
لـيُـرويَ آمـال الـنـفـوس بـهـا أريـا[3]
ويـصـلي بـحـر الـشـمس حُـر جـبـيـنه
لـيـبـسـط للإسلام من نـوره فـيـا[4]

(١) الثـنيـا من المصـطلـحات الفقهـية، وهـي أن يستثـنى من الشـيء المبيـع شـيء مجهول فيفسد البيع، وهي محرمة من أجل ذلك.

(٢) العصب في الأصل سن دابة بحرية يتخذ منها الخرز وغيره من حلي النساء.

(٣) الأري هو الشهد.

(٤) الفيء هنا الظل.

ويــا شــامــتــاً أني طـريـدُ حــجــابه

لــيــخــزك أني حــزته بــين جــنــبــيــا

ويــا حــاجــبــا قــد رد طــرفيَ دونه

تــأمل تجــده وهــو إنــســان عــيــنــيــا

صــفــاءُ وداد إن رمى فــوقه الــقــذى

ظـنـونـاً من الإشـفـاق طـيَّـرهـا نـفـيـا

وصــدقُ رجــاء كــلــمــا مُتُّ رحــمــة

عـلـى مـثل أفـراخ الـقـطـا ردني حـيـا

ظـمـاءُ ومـا يـدرون في الأرض مـشـربـاً

سـوى كـبدي الحـرى ومـهـجـتيَ الـظـمـيا

وكم عـسـفـوا بـحـراً ولا بـحـر لـلـنـدى

وخاضوا سراب البيدِ نهيا ولا نِهيا[1]

وبــاتــوا يــراعــون الــنــجــومَ وقـد رأت

وســائــلُــهم ألا حــفــاظ ولا رعــيــا

ولا خُــلَّــة إلا الــهــجــيــرُ إذا الــتــظى

فــكــان لــهم جــمــراً وكــانــوا له شَــيَّــا

ولا نــسب إلا الــثــريــا إذا انــتــحت

فكانت لهم نِصفاً وكانوا لها ثِنيا[2]

وكم زجــروهــا بــاسـمـهـا وخُـفـوقِـهـا

فـمـا صـدقـتـهم لا ثـراء ولا ثـريـا[3]

ولا صِــدْقَ إلا لــلــرجــاء الــذي ســرى

فـقـصـر طـول الـلـيل واسـتـقـرب الـنـأيـا

---

(١) النهي بكسر النون وفتحها هو الغدير وكل موضع يجتمع فيه الماء.

(٢) ثنيا الحبل طرفاه.

(٣) الثري مصدر ثري (بفتحة فكسرة) ويقال ثري بالشيء إذا سر به وفرح.

وبـارَى هُـوِيَّ الـريح يـسـبـقـهـا هـوًى

وغـال قـفـار الـبـيـد يـنـسـفـهـا طـيـا

إلى ســـابق الأملاك عَـــلَّمَ ســـيـــفُه

نـدَى كـفه أن يـسـبق الـوعـد والـوأيـا[1]

أبـــو الـحــكم المــمـضـي لحـكم عُـفـاته

رغـــائب لا يــعــرفن ســوفـــاً ولا لَــيًّـا

ومـــثَّلَ لي في الحـــرب حـــســـرُ ذراعه

بـحـسـريَ في حـرب الخـطـوب ذراعـيـا

إذا لمـــعت بـــيض الـصـــوارم[2] حـــوله

كـإضـرام نـيـران الـهـمـوم حـوالـيـا

وقـــد عـــاذ أبـــطـــال الجلاد بـــعـــطـــفه

كـمـا عـاذ [3] أطـفـال الجلاء بـعـطـفـيـا

وقـــد قـــصَّـــرت عـــنه رمـــاح عُـــداته

كـمـا قـصـرت عـنـهم رياش جـنـاحـيـا

ولـــــكنْ أُواسي بـــــيْن عـــــار ولابس

أُقَـلِّصُ عنْ ذَيَّـا لأَثْـنِي عـلـى تـيَّـا

وإن لَـــوت الـلأواءُ من شـــأو هـــمـــتي

وألحق ذُل الـعـسـر وجـهي بـنـعـلـيـا

فـلم تـلـو عن مـدح «ابن يـحـيى» مـدائـحي

بـأطـيب ذكـر في المـمـات وفي المحـيـا

يُـــصـــيخ إلـــيه كلُّ ســـمع مـــوقـــر

ويـجـلـو سـنـاه كلَّ نـاظـرة عـمـيـا

---

(١) الوأي مرادف للوعد.

(٢) ذخ: زرق الأسنة.

وأُنشيكَ[1] عنه المسكَ ما عشت ياورى
وأكسوكِ منه الدر ما دمتِ يا دنيا
وإن برَتِ الأيامُ من حد همتي
وفَلَّتْ سِلامُ الحادثات غِراريا
فهل قلم خُطت به الأرض كلُّها
نظاماً ونثراً ينكر القط والبريا
وزند ينير الشرقَ والغرب قدحُه
جدير بأن يستلحق المحق والوهيا
ويا لَكِ[2] من ذكرى سناءٍ ورِفعة
إذا وضعوا في الترب أيمن جنبيا[3]
وفاحت ليالي الدهر منيَ ميِّتا
فأخزين أياماً دُفِنْتُ بها حَيًّا
وكان ضياعي حسرة وتندما
إذا لم يُفد شيئاً ولم يغنني شيا
وأصبحتُ في دار الغنى عن ذوي الغنى
وعُوِّضْتُ فاستقبلت أسعد يوْمَيًّا
سوى حسرتَيْ عرض ووجه تضعضعا
لقارعةِ البلوى وكانا عتاديا
وللستر والصبر الجميل تأخرا
فأمَّهُما حرصي وكانا إماميا
فيا عبرتي سُحِّي لعلي مبلِّل
ببحريكِ[4] ما أنزفتُ من ماء عَيْنَيَّا

(١) أي أشمك، مشتق من نشى الرائحه إذا استنشقها وشمها.
(٢) ذخ: فيالك.
(٣) ذخ: مسقيا(!)، وفي الجذوة: شقيا.
(٤) ذخ: بجريك.

ويـــا زفـــرتـي هل في وقـــودك جــــذوة

تـنـيـر لـنـا صـبـحـاً ثـنـاه الأسـى مُـسـيـا[1]

ويـا خَـلَّـتي إن سـوَّفَ الـغـوثُ بـالمنى

ويـا غُـلـتي إن أبـطـأ الـغـيث بـالـسُّـقْـيـا

فـقــومـا إلى رب الــســمــاء فـأسْـعِـدَا

تـقـلـب وجــهي في الــســمــاء وكَـفَّـيَّــا

عـسي مـيِّتُ الأظـمـاء في روضـة الـنـدى

سـيـرجع عن رب الـسـمـاء وقـد حـيًّـا[2]

ويــــا أوجه الأحـــرار لا تـــتــــبــــدلي

بـظل «ابن يـحـيى» بـعـدُ ظلا ولا فـيـا

ويـا حـلـبـة الآمـال زيـدي عـلـى المدى

بقـاء «ابن يـحيى» ثم حـيي عـلى «يـحيى»

****

---

(١) ذخ: نساه الأسى نسيا.

(٢) في الأصل: أحيا، وما ورد في الذخيرة أصوب.

(٤٧)

وله فيه أيضاً رحمهما الله[١].

[من الكامل]

أَوْجَفْتُ[٢] خيلي في الهوى وركابي
وقذفت نبلي بالصبا [٣] وحرابي
وسللت في سبل الغواية صارما
عضباً ترقرق فيه ماء شبابي
ورفعت للشوق المبرح راية
خفاقة بهوائج[٤] الأطراب
ولبست للُّوامَ لأْمَةَ خالع
مسرودة بصبابة وتصاب
وبززت للشكوى بشِكَّة مُعلم
نكص الملامُ بها على الأعقاب
فاسأل كميَّ الوجد كيف أثرتُه
بغُروب دمع صائب التسكاب[٥]
واسأل جنود العذل كيف لقيتها
في جحفلٍ البُرَحاء والأوصاب
ولقد كررت على الملام بزفرة
ذهل العتاب بها عن الإعتاب

(١) انتخب الثعالبي من هذه القصيدة اثنين وثلاثين بيتا (يتيمة الدهر ٢/ ١١٤ - ١١٦).
(٢) يت: أو جعت.
(٣) يت: في الصبا.
(٤) يت: يهزائج.
(٥) يت: التكساب.

حـــتـى تـــركت الـــعـــاذلـــين لمــا بـــهم
شـــغـــفـــاً بـــحب الـــتـــاركِيَّ لمــا بي
من كل ممـــنـــوع الـــلـــقـــاء اغـــتـــاله
صَـــرف الـــنـــوى فـــنـــأى به ودنـــا بي
في لـــيـــلـــة لُـــقِّـــيتُ من تـــلـــقـــائه
دعـــوى مُـــجـــيب لـــلـــمـــزار مـــجـــاب
ســـرٌّ ســـرى لجـــوانـــحي فـــســـرى بـــهـــا
وهـــوًى هـــويْتُ لـــطـــوعه فـــهـــوى بي
فـكـسـوت خـيل الـشـوق لـيل مُـخـالس
مـــا كـــاد يـــشـــعـــر أنه جِـــلـــبـــابي
وهـتـفت في جـنـد الـصـبـا فـأجـابـني
في كل صب بـــــالأحـــــبـــــة صـــــاب
فـــزحـــفت والإقـــدامُ يـــحـــمل رايـــتي
وخـــواطـــر الإحـــجـــام تحت ركـــابي
وحـمـائـلي تـهـفـو بـلُـحـمـة[1] بـارق
لـــولا الـــوفـــاء بـــذمـــتي لـــوشى بي
وكـنـانـتي مـا شـئت في إكـنـانـهـا
من مُـلـتـظَى جـمـر وحـرِّ شـهـاب
كلٌّ يـــشـــاكه مـــا وراء جـــوانـــحي
لـــلـــشـــوق من ضـــرَم ومن إلـــهـــاب
حـتى افـتـتـحت عن[2] الأحـبـة مـعـقلاً
وعـــرِ المـــســـالك مُـــبـــهم[3] الأبـــواب
ووقـــفت مـــوقف عـــاشق حـــلـت له
فـــيه غـــنـــيـــمـــة كـــاعب وكـــعـــاب

(١) اللحمة هي القرابة والمخالطة.
(٢) يت: على.

بـحـدائق الحـدق الـتي لاقـيـنَـني[1]
بـأحـدَّ من سـيـفي ومن نُـشَّـابي
في تُـربـة جـاد الـنـعـيم ريـاضَـها[2]
فـتـفـتـحت بـنـواعم [3] أتـراب
من كل مـغـنـوم لـقـلـبيَ غـانم
عـشـقـاً ومَـسْـبِيٍّ لـعـقـليَ سـاب
في جُـنح لـيل كـالـغـراب أطـار لي
عن مـلـتـقى الأحـبـاب كل غـراب
وجلا لـعـيـنـيَ كل بـدر طـالع
قـمنٍ بـهـتك حـجـابه وحـجـابي
جـاب الـظلام فـلم يـدع من دجـنه
إلا غـدائـر شَـعـره المـنـجـاب
فـغَـنِـيتُ بـين ضـيـائه وظلامه [4]
مُـغرى الجـفـون بـطـرفه المـغـرى بي
فـإذا كـتـبتُ بـنـاظـري في قـلـبه
أخـفى فـخط بـنـاظـريه جـوابي
وإذا سـقـاني من عـقـار جـفـونه
أبـقى عـليَّ فـشـجَّـهـا بـرُضـاب
وسُلافـةُ الأعـنـاب تُـشـعَل [5] نـارُهـا
تُـهـدَى إليَّ بـيـانـع الـعُـنَّـاب
فـسَـكِـرتُ والأيـامُ تـسـلُبُ جِـدتي
والـدهـرُ يـنـسِج لي ثـيـابَ سِلابي

(١) في الأصل: لاقيتني، وفي اليتيمة: أفنينني.
(٢) يت: في روضة جاد النعيم نباتها.
(٣) يت: بكواعب.
(٤) يت: فظللت بين صبابة وظلامة.
(٥) يت: توقد.

سُكْرينِ من خمرين كان خُمارها[1]
فقْدَ الشباب وفُرقةَ الأحباب
لمدىً تناهى في الغواية فانتهى
فينا إلى أمد[2] له وكتاب
وهوًى تقاصر بالمنى فأطال بي
همّاً إلى قلبي سرى فسرى بي
في جاهليةِ فتنةٍ عُبدتْ بها
دون الإله مَضلّةُ الأرباب
تُستقسَمُ الأزلام في مُهَجاتنا
وتسيل أنفسنا على الأنصاب
غِيَراً من الأيام أصبح ماؤها
غَوْراً وأُعقبَ صفوُها بعِقاب
وبوارقاً للغيِّ أُضرِم نورُها
ناراً وصاب غمامُها بالصّاب
فلها فقدتُ النفسَ إلا قدر ما
أشجى به لحلول كل مصاب
وبها رُزيتُ الأهلَ إلا لابساً
بُؤساً يزيد به أليمُ عذابي
وبها رفعت حجاب ستريَ عن مهًا
تركت شبا قلبي بغير حجاب
وجلوتُ في خطْب الجلاء عقائلاً
قصَّرتُ عنها همة الخُطَّاب
سِربُ المقاصر والملاعب صُنتُه
فأطرتُهن مع القطا الأسرابِ

(١) يت: سكرين من خمر كأن خمارها.

ذُعِـرَتْ بــحس الإنس تحت حــجــالـــهــا
واســـتـــأنـــست بـــضـــراغم وذئـــاب
ونـــــزت بــــــهـن عن الأرائك روعـــــةٌ
مـــهـــدت لــــهن حُـــزون كل يـــبـــاب
فـــطـــوين آفـــاق الـــبلاد لـــطِـــيـــة
تـــأبى لــــهـــا الأيـــام يـــوم إيـــاب
وإلــيك يــا «مــنــصــور» حط رحــالــهــا
دأب الـــســـرى والـــيـــعـــملاتِ ودابي
وبــــحـــوُر هَم كم وكم داويـــتُـــهـــا
بـــبـــحـــور يم أو بـــحـــور ســـراب
وشــبــابُ لـــيل طـــالمـــا بـــلـــغـــتُه
تــخــطـيطَ شـيب أو نــصـول خــضـاب
فـوصـلتَ يــا «مـنـصـور» مـنــا غـربـة
مــقـــطـــوعـــة الأنـــســـاب والأســـبـــاب
ووقـــيـــتَـــني ريب الخـــطـــوب بمـــنـــة
جـــلَتِ الـــيـــقـــين لـــظـــنيَ المـــرتـــاب
وكــفـــيـــتـــني لـــوم الـــزمـــان بـــأنـــعم
كـــفت الـــزمـــان مـلامـــتي وعـــتـــابي
وشَــمِـــلـــتـــني بـــشـــمـــائل ذكَّـــرنـــني[1]
في طـــيـــبـــهـــا «طـــوبى وحـــسن مـآب»
وأقـــمت لي ســـوق المـــكـــارم مُـــغـــلـــيـــاً
بـــجـــواهـــر الإبـــداع والإغـــراب
ورضــــاك رد ليَ الــــرضــــا في أوجـه
من خُـــزْرِ[2] أيـــام عـــليَّ غـــضـــاب

(١) يت: أذكرنني.
(٢) في الأصل: حزر، وفي اليتيمة: جور، والخزر (بفتحتين) هو النظر بمؤخر العين والأخزر والخازر هو الداهيه من الرجال.

وهُـداك أشـرق لي ولـيـلي مـظـلم
وسـنـاك أبـرق لي وزنـديَ كـاب
وجَـداك داواني ودائِيَ مُـعـضل
وذَراك آواني ورحـليَ نـاب
فـحَـلَـلْتُ مـنه خـيـرَ دار مُـقـامـة
وثـويت[1] مـنه في أعـز جـنـاب
وأسـمت في أزكى الـبـقـاع صـوافـني
وضـربتُ في أعـلى الـيـفـاع[2] قـبـابي
وشـويت لـلأضـيـاف لحم ركـائـبي
في نـار أحلاسي[3] وفي أقـتـابي
عِـوضـاً من الـوطن الـذي أصـبـحتُ من
أسـلابـه إذ كـان مـن أسـلابـي
ولـقـد جـبـرتَ[4] بـرغم دهـر ضـامـني
مـا أخـلـقت عـصـراه من أثـوابي
خِـلـعـاً رفـعتَ بـفـخـرهـا وسـنـائـهـا
مـا ضـاع من قـدري ومن آدابي
كُلٌّ يـنـادي في الـبـريـة مـعـلـنـاً
هـذي مـواهب «مُـنـذِرَ» الـوهـاب
فلأُ هْـدِيَنْ من طـيب ذكـرك في الـورى
وَقْـرَ الـركـاب وذُخـرة الـركـاب
ولأكـتُـبنْ مـنـهـا عـلى صـحُف الـعلا
غُـرر الـكِـتَـاب وغُـرَّةَ الـكُـتَّـاب

(١) في الأصل: وثنيت، وقد اخترنا هنا رواية الثعالبي في اليتيمة.
(٢) يت: البقاع.
(٣) جمع حلس وهو كل شيء ولي ظهر الدابة تحت الرحل والقتب والسرج.
(٤) يت: كسوت.

ولأجلُوَنْ منها لأبصار النهى
حُرَّ الخِطاب وحُرة الخُطَّابِ
ولأجعلنَّ ثناءها وجزاءها
أبد الأبيد وعاقب الأعقاب
ولأتركنَّ خلودها ونشيدها
دينَ العصور ومِلةَّ الأحقاب
حتى يعود الدهر بدْعَ شريعة
بعُلاك والأيامُ أهلَ كتاب
وتراكَ بعدك أمةٌ لم تلقها
عينَ اليقين وجهرةَ الألباب
حتى يروا كرَّات خيلكَ في الوغى
لِوَحى[1] طعان أو وَحِيٍّ ضراب
ويروا سيوفك في الجماجم والطُّلى
وسنا جبينك في العجاج الهابي
ويروا إلى الأقران منك مُنَازلاً
إقدام ليث وانقضاض عُقاب
ويروك: حزبُ الله حزبُك والعدى
بسيوفه مفلولةُ الأحزاب
هذا وكم أعززت في دين الهدى
من منبر وحميتَ من محراب
ومَعادِ عيدٍ عُدتَ في إغبابه
بمكارم كرمت عن الإغباب
فكسوت فيه الأرض سابغ حُلة
نُسجَت بأُسْدِ شرًى ومأشَب[2] غاب

(١) الوحَى من معانيه النار والصوت الممدود الخفي والسرعة، وجميعها تصلح لهذا الموضع، ووحيّ بكسر الحاء وتشديد الياء معناها سريع.
(٢) مشتق من أشب الشجر (بكسر الشين) أي التف وغلظ.

وســـوابـق رد الجـــهـــاد جـــيـــادهـــا
قُبَّ الـــبـــطـــون لـــواحق الأقـــراب(١)
ولـــوامعٍ أشـــرعـــتـــهن فـــأشـــرقت
إشـــراق مـــلـــكك في ســـنـــا الأحـــســـاب
وخـــوافق حـــفَّت بـــوجـــهك فـــاحـــتـــذت
شـــمسَ الـــنـــهـــار تجـــلـــلـت بـــســـحـــاب
حـــتى انـــتـــهـــيت إلى المـــصلى لابـــســـاً
عِـــــزَّ المـــــلـــــيك ورقَّـــــةَ الأواب
في مـــنـــظـــر عَـــجَب وأعـــجَبُ شـــأنه
مـــا ذُمَّ من كِـــبْـــر ومن إعـــجـــاب
وهُـــدًى لمن صـــلـــى وضـــحـــى واتـــقى
وزكـــا فـــكـــنت له أجل ثـــواب
فـــالـــلهُ يـــرزقـــنـــا بـــقـــاءك ســـالمـــاً
رزقـــاً نُـــوفـــاه بـــغـــيـــر حـــســـاب
وانـــصـــر ومن والاك حِـــلف كـــرامـــة
واقـــهـــر ومن عـــاداك رهن تـــبـــاب

****

---

(١) قب جمع أقب وهو الضامر، واللحوق هو الضمور كذلك، والأقراب جمع قرب بضم الراء وتسكينها وهو الخاصرة.

(٤٨)

وله فيه أيضاً رحمهما الله في عيد الفطر.

[من الطويل]

لك الفوز من صوم زكي ومن فِطْرِ
وصلتَهُما بالبِر شهراً إلى شهْرِ

فناطقُ صدق عنك بالصدق والنهى
وشاهد عدل فيكَ بالعدل والبر

فهذا بما استقبلت من صائب الندى
وهذا بما زودت من وافر الذخر

فكم شافعٍ في ظلك الصومَ بالتقى
وكم واصل في أمنك الليل بالذكر

وكم ساجد لله مِنا وراكع
يبيت على شفع ويغدو على وتر

ووجهُك للهيجاء من دون وجهه
وتسري إلى الأعداء عنه ولا يسري

وظلك ممدود عليه وتصطلي
بجاحم نار الحرب أو جامد القُر

خلعت عليه ثوب صون ونعمة
وظاهرت عنه بين صِنٍ وصِنَّبْر[1]

وكم قاطع بالنوم ليلاً وصلته
بغزوك ما بين الأصيل إلى الفجر

---

(١) الصن والصنبر هما اليومان الأولان مما يسميه العرب بأيام العجوز، وهي خمسة أيام أو سبعة يبلغ فيها البرد أقصاه.

وأقــدمت فــيه الخــيل حــتى رددتــهــا
وآثــارُهــا ثــغــر لــقــاصــيــة الــثــغــر
كـأن دجى لـيل يمـر[1] عـلـى الـضـحى
إذا سـرن أو بـحـراً يمـور عـلـى الـبـر
فــأنت جــزاء صــومــنــا وصلاتــنــا
وفـيك رأيـنـا مـا ابـتـغـيـنـا من الأجـر
ومـنك اسـتـمـد الـفطـر مَـطعم فـطـرنا
وفـيك أرتـنـا قـدرهـا لـيـلـة الـقـدر
وبـاسمك عـزت في الخـطـاب مـنـابـر
بـأسـعـد عـيـد عـاد بـالـسـعـد أو فـطر
ولاح لـــــنــــا فـــيه هـلال كـــأنه
بـشـيـر بـفـتح مـنك أشـرق بـالـبـشـر
أهل فــأهــلــلــنــا إلــيه تــمــثلاً
بُرحـبك جنحَ الـليل بـالـضيف تـسـتقري
وأســفَـر عن زهــر الــنــجــوم كـأنمـا
جــبــيــنُك أبــدى عن خلائــقك الــزهــر
علا وتــدانى لــلــعــيــون كـمــا علا
مـحـلك واسـتـدنـيت بـعـداً عن الـكـبـر
وذكَّـرنــا عـطـفــاً بـعـطـفك حـانـيـاً
عـلى الـدين والإسلام في الـبـدو والـحـضر
هـلالُ مـسـاء بـات يـضـمن لـلـضـحى
غداة المـصـلى مـطـلع الـشـمس والـبـدر
وملءَ عـيـون الـنـاظـرين كـتـائـبـاً
كـتـبت بـهـا الآفـاق سـطـراً إلى سـطـر

---
(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ومثبتة في الحاشية.

مـخـطـطـةً بـالخـيل والأَسْـدِ والحُـلى
ومـعـجـمـة بـالـبيْض والـبِيض والـسمر

وصـادقـةَ الإقـدام تـهـتـز لـلـوغى
وخـافـقـة الأعلام تـعـتـز بـالـنـصـر

فـصلَّـيت وهي الـنـور في مـشـرق الـعلا
وأصـلـيت وهي الـنـار في مـغـرب الـكـفـر

ولما اسـتـهـلت بـالـسلام صلاتـهم
أَهَـلَّتْ إلى تـسـلـيـمـهم سُـدَّةُ الـقـصـر

فـكَـرُّوا يـعـيـدون الـسلام عـلى الـذي
يـعـاود عـنـهم في الـعـدى صـادق الـكر

يُـحـيُّـون بـالإعـظـام مـولًى حـنـانه
أخص بـهم من رأفـة الـوالـد الـبَـر

ووافـوا سـريـر الملك يـسـتـلـمـونه
كـمـسـتـلـم الـحـجـاج لـلـركن والـحـجـر

مـشـاهـد غـارت في الـبلاد وأنجـدت
مُـحـقَّـقـةَ الأنـبـاء طـيـبـة الـنـشـر

أنـارت فـمـا بـالخـلـد عـنـهن من عـمى
ولا بـزَبـاب الـرمل عـنـهن من وقـر(١)

فـكـيف بـأبـصـار أضـاءت لـهـا المنى
إلـيك وأسـمـاع صـغـت فيك لـلـجـبـر(٢)

ولا مـثـل مـجـلـو الـنـواظـر بـالـعـدى
بـيـاتـاً ومـفـتـوق المـسـامع بـالـذعـر

تـوقى فـأبـلـى عُـذرَ نـاجٍ مُـخـاطـر
فـرد المـنـايـا عـنـه مُـبـلـيـةَ الـعـذر

(١) الخلد بضم الخاء وفتحها ضرب من الجرذان أعمى، والزباب الفأر الأصم، والوقر الصمم.
(٢) الجبر هو أن تغني الرجل من الفقر أو تحسن إليه.

وآنس يا «منصور» عندك نفسه
فجلى لها تحت الدجى ناظرَيْ صقر
فأهوى إلى مثواك أمضى من الهوى
وأسرى إلى مأواك أخفى من السر
فكم جُزتُ من سيف لِقتليَ مُنتضًى
وجاوزتُ من ليث لضَغِميَ مُفتر
فيا خزيَ ذا مِن سبقِ خطوِ مُخاطر
ويا لهف ذا من فوت غِرة مغتر
كأن خُفوق القلب مدَّ جوانحي
بأجنحة ريشت من الروع والذعر
وتحت جناحَيْ مقدمي وتعطفي
ثمانٍ وعالت بالبنين إلى الشطر
أخذتُ لهم إصر الحياة فأُجلوا
وقد أخذ الإشفاقُ مني لهم إصري
فحملتهم وزراً ولو خف منهمُ
جناحي لكان الطود أيسر من وزري
فلله من أعداد أنجم يوسف
تحملها منها أقلُّ من العُشر
إلى كل مأوىً للجلاء هوى بنا
إلى حيثُ لا مهوى عُقاب ولا نسر
رحلتُ له عُوجاً كأن هُويَّها
بنا فيه[1] أفلاك بأنجمها تجري
طوين بنا بُعدَ السِّفار كأنها
ليال وأيامٌ طوين مدى العمر

---

(١) في الأصل: ينافيه.

وربــتــمــا اســتــودعــنــنــا بــطن حــرة
هــوائــيــةِ الأحــشــاء مــائــيــةِ الــظــهــر
رحــيــبــةِ مـأوى الـضــيـف مــانـعــةِ الـقِرى
وغــيــرُ ذمــيم أن تُــضــيــف ولا تَــقــري
فــكم ليَ بــين الــلــوح والــلــوح طــائــراً
وأو كــارُهم في طــائــر غــيــر ذي وكــر
وكم أسلموا لـلـعسف والخسف من حِمًى
وكم تـركـوا لــلـغـصب والــنــهب من وفر
وكم وجــهــوا وجــهــاً لــبــارقــة الــظُّــبى
وكم وطُّــنــوا نــحــراً لــنــافــذة الــنــحــر
وكم أقــدمــوا بــين المــنــايــا كــمــا هــوت
فــرائسُ أُسْــد الــغــابِ لــلــنَّــابِ والــظــفــر
وكم بــــدلــــوا من وجه راع وحـــــافظ
وُجــوهَ المــنــايــا الــســود والحَدَق الحــمــر
ومن رفــرفِ الأســتــار دون حــجــالــهــا
تــرقــرقَ لمع الآل في المــهــمــه الــقــفــر
ومن ســاجع الأطــيــار فــوق غــصــونــهــا
مــراسَــلــةَ الألحــان في نــغم الــوتــر
تــنــادي عــزيف الجن في ظُــلم الــدجى
وهــولَ الــتــطــام المـوج في لجج الــبــحــر
وكم زفــرة نمت عــلــيــهم بــحــســرة
أسـرت بــنــار الــســر في عــلم الجــهــر
ونــادت عــيــونَ الــشــامــتــين إلى الــقِرى
بــأفلاذ أكــبــاد كــصــالــيــة الجُــزر
ومــاذا جلا وجهُ الجلاء مــحــاســنــاً
تــهــاب الــعــيــونُ مــا نــثــرن من الــدر

ومــــاذا تــلــــظى الحَـــرُّ في حُـــرٍّ أوجه

تــــنـــسمُ فـــيه بَـــرْدَ ظل عـــلى نـــهـــر

ومــاذا أجن الــلــيل في مــوحش الــفلا

أوانسَ بـــالأتـــراب في يـــانع الـــزهـــر

ومــــاذا تـــرامَى المـــوج في غَـــوْل لجـــة

بـلاهـــــيـــــة بـــــين الأرائك والخِـــــدر

فـــإن نَـــبَتِ الأوطـــانُ من بـــعْـــدُ عـــنـــهمُ

فلا مـحـجري حَـجْـرٌ عـلـيـهم ولا حِـجـري

وإن ضـاق رحب الأرض عن مُـنْـتـواهُمُ[1]

فرحْبٌ لـهم مـا بـين سَحْري إلى نـحـري

وإن تَـــقْسُ أكـــبـــاد كـــرام عــــلـــيــــهمُ

فـــواكـــبـــدي ممن يـــذوب له صــــخـــري

وإن تَـــبْـــرَمِ الأيـــســـارُ في أزمـــاتـــهم

فـأحْـبِبْ بـأيـسـار قـمَرتُ لـهم يُسْري[2]

فـفـازوا بـنـفـسي غـيـرَ جـزء ذخـرته

لمـــا شف من خـــطب ومـــا مس من ضـــر

فـعـفـوٌ لـهم جَـهـدي وحـلـو لـهم مُـري

وصفو لـهم طِرفي[3] ويـسـر لـهم عـسري

وإن أضـرمـوا قـلـبي فـجـمـري لـهم نـد

وإن غـيَّـضـوا شِـربي فـروضي لـهم مُـثـر

(١) في الأصل: منثواهم، ولم يرد في اللغة انفعل من ثوى مما حملنا على تصحيحها بالشكل الذي أثبتنا، والمنتوَى اسم مكان من انتوى ومن معانيها أقام واستقر، يقال انتوى القوم منزل كذا أي أقاموا فيه.

(٢) الأيسار الأولى جمع يسر بفتح الياء وفتح السين أو سكونها ومعناه الإنسان السمح اللين الانقياد، والثانية جمع يسر بفتحتين ومعناها المجتمعون على الميسر أو اللعب بالقداح.

(٣) الطرف هو الجديد المستفاد من المال.

ودائع نـفـسي عـنـد نـفـسي حـفـظـتُـهـا
بمـا ضـاع من حـقي ومـا هـان من قـدري
قـلـيل غـنـاهم عن يـدي وغَـنـاؤهم
سوى أنـهم من ضيْم كسبي لـهم عذري
وأني لـهم في مـاء وجـهيَ تـاجـر
أُغـنـمـهم غُـنـمي وأُربـحـهم خُـسري
وأُسلِمُ في وخـز الـسـفى[1] ثـمـرَ المنى
وأبـذل في قـذف الحـصى جـوهـر الـشكر
وإن نـفـقت عـنـدي بـضـاعـة قـانع
تـقـنعت مـنـهـا في خَزايـة[2] مُعتَر[3]
رجـاءً لـضُـمْـرٍ[4] طـال مـا قـد عـهـدته
يـريـني أنـاة الـسـهل في المسلك الـوعر
وخِـزيـاً لـوجه هـان في صـون أوجه
كـريمٍ بـهم ربـحي لـئـيمٍ بـهم تَـجْـري
بـعـدة أبـراج الـسـمـاء ومـا سـرى
مـداهـا إلى صـبح يـضـيء ولا فـجـر

✡✡✡✡✡

ومن مُـلـكُـه إن جل خـطب ملاكُه
وأعلامُه إن راب دهـر مـعـالِـمُهْ
فـسـمـاه مـنـصـوراً مُـصـدقَ جَـده
ومـا صـدَّقت أرمـاحُه وصـوارمُه

(١) السفَى هو شوك السنابل.
(٢) الخزاية هي الاستحياء، والمعتر هو المتعرض للمعروف من غير أن يسأل.
(٣) سقطت في هذا الموضع من أصل المخطوطة الزيدانية الورقة رقم ٥١ التي تشتمل على آخر هذه القصيدة الرائية وأول القصيدة الميمية التالية، على أن القطعة التي عثرنا عليها من الديوان والمحفوظة في خزانة جامعة القرويين (وهي التي نرمز لها بحرف «ق») قد احتفظت لنا بما سقط في هذا الخرم كله، وذلك فيما بين صفحتي ٦١ و٦٤، فعملنا على استكمال القصيدتين منها، ووضعنا هذه التكملة بين حاصرتين. ونذكر أيضاً أن عشرة أبيات من القصيدة الرائية قد وردت كذلك في كتاب «رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة (شرح الشريف الغرناطي على مقصورة حازم القرطاجني – ط القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٤م – ١/٤٤).
(٤) الضمر مثل الضمار (بكسر الضاد)، وهو من الوعود ما كان ذا تسويف.

وتـوجه مـثـنى الـرياسـة مـعـلـنـاً
بمـا هـو من غـيب الـسـرائـر عـالمه
فـتى ولـدته الحـرب واسـتُـرْضِـعَت له
وقـائعُ من أحـمى الـهـدى وملاحـمه
مُـفـدّىً ومـا غـيـرُ الـسـروج مـهـادُه
مُوقى ومـا غـيـر الـسـيـوف تـمـائـمه
مـجـدد مـلك أحـرزته جـدوده
أعـزة أمـلاك الـهـدى وأكـارمه
فـأعـربَ عن أيـام يـعـربَ واقـتـدى
بمـا عـظـمت أذواؤه وأعـاظـمه
وأنجـبه لـلـطـعن والـضـرب «عَـمـرهُ»
وأخـلـصه لـلـجـود والحـمـد «حـاتـمه»
شـجـاع ولـكنَّ الجـيـادَ حـصـونه
كـريم ولـكن المـعـالي كـرائـمه
تلاقت عـلـيه الخـيل والـبـيض والـقـنـا
قـيـامـا لمن لا سـعيَ سـاع يـقـاومه
وخـلَّت لـه الأملاكُ عن سُـبُل الـهـدى
فـلـيس سـوى طـيب الـثـنـاء يـزاحـمه
مُـقـسِّمُ مـا يـحـويه في سـبُل الـنـدى
وإن كـان قـد حـابـاه في الحظ قـاسـمه
فـمـا خـاب في يـوم الـنـدى من يـنـوؤه
ولا فـاز في يـوم الـوغى من يـحـاكـمه
ولا ادُّعِـيَتْ في المـأثُـرات حـقـوقُه
ولـو أقـبـلت زُهـرُ الـنـجـوم تـخـاصـمه

ودعوى النهى والحِلم في غير «منذرٍ»
خيال من الأحلام أضغاثَ حالمه
فمن ذا الذي يرجو من المُلك غِرة
وما حومت إلا عليك حوائمه
ولا رُفعت إلا إليك عيونُه
ولا طأرت إلا عليك روائمه
ولا راقَ إلا في جبينك تاجُه
ولا قر إلا في يمينك خاتَمُه
فكيف بذي جهل تعسف مَجهلاً
يُبَرّح واقيه ويحتم حاتمه[1]
فغالتْه في غَوْل المهامه غُولُه
وهامت به في الترهات هوائمه
أباح حمى الإسلام للشرك مغنما
لتُقسَمَ بين الناهبين مغانمه
وفض خِتامَ الله عن حُرُماته
ليُفتَض عما تحتويه خواتمه
وعدّ دماء المسلمين مُدامة
فبرَّح[2] في الأعداء عمن ينادمه
فإن ألقح الحربَ العوان فحسبُه
فواقرُ ما شالت به وأشائمه

---

(١) التعسف هو السير على غير علم ولا هداية، والواقي هو الصُّرَد (بضم الصاد وفتح الراء) وهو طائر فوق العصفور، وقيل إنه سمي بذلك لحكاية صوته، والحاتم هو الغراب الأسود، وهو دليل الشؤم سمي كذلك لأنه يحتم عندهم بالفراق إذا نعب أي يحكم. وكثيراً ما يذكر الشعر العربي الواقي والحاتم في معرض زجر الطير:

قال مرقش السدوسي: ولقد غدوت وكنت لا ... أغدو على واق وحاتم

وقال الرقاص الكلبي: وليس بهياب إذا شد رحله ... يقول عداني اليوم واق وحاتم

والتبريح هو التعذيب وشدة الأذى أو هو قتل السوء، وقد تكون مشتقة من قولهم برح الطير أو الوحش أي مر من يمينك إلى شمالك والعرب تتطير به.

(٢) كذا في الأصل، والفعل يبدو قلقاً في هذا الموضع، ولعله محرف عن «فبارح» أي كاشف وبحث.

وإن زج في جــفن الــردى فــلِــحَــيْــنه
تـــخـــازرَ ســـاجـــيه وأُوقِظَ نـــائـــمه
غـداة دعــاك الــدين من أســر فَــعــلــة[^1]
وقـد أوشـكت أن تـسـتـبـاح مـحـارمُه
فــلــبَّــيــتَــهــا فــانجــاب عــنــهــا ظلامُه
ووافــيــتَــهــا فــاســتــنــكــرتــهــا مــظــالمه
وجـــاءك مـــدُّ الـــلــه من كل نـــاصـــر
عــلــى الحق مَــهــديــا إلــيك مَــقــادمه

---

[^1]: (١) كذا، ويبدو أنها اسم بلد أو قلعة، وقد ورد ذكرها مرة أخرى بنفس هذه الصورة في بيت آخر من قصيدة دالية لابن دراج سترد فيما بعد ويقول فيها متحدثاً عن «مارق» أعلن العصيان على منذر بن يحيى:
وليست «فعلة» تشـناك لكـن ... تمـلك أهـلها ضـد المعـاد
ولو وجدوا السبيل إليك يوما ... لما خفيت لهم طرق الرشاد
وقد يكون هذا الاسم محرفاً عن «فنلة»، فهناك موضعان يحملان هذا الاسم بالإسبانية **Fanlo**) من أعمال مدينة وشقة، وهما يسميان الآن: **Fanli de Nio** و **Fanlo de Jaca** (انظر معجم مادوث الجغرافي: **Madoz: Diceio-nario...** **(NIII.P.I**.
ونحن نعلم أنه كان على مدينة وشقة نزاع بين منذر بن يحيى وأحد أبناء عمومته وهو أبو يحيى محمد بن أحمد بن عبدالرحمن بن صمادح التجيبي الذي كان والياً،على وشقة وأعمالها في أيام هشام المؤيد ثم أكد له ذلك سليمان بن الحكم المستعين فأمضاه على

ونادى «أبو مسعود»[1] النصرَ مُسعداً

عزائمَك اللاتي تليها عزائمه

بجُود كماءِ الغيث يسقي رياضَه

وبأس كحر النار يُضرَم جاحمه

على كل من حاربتَ فهْو مُحاربٌ

كفاحاً ومن سالمت فهو مُسالِمه

وأعصمَ بالإشراك قائدُ بغيها

إلى ملك رب السموات عاصمه

فما ركضوا طِرفاً إليك لغارة

وأسهلَ إلا أسلمته قوائمه

ولا أصلتوا سيفاً وأنحوك حدَّه

فعرَّجَ عن مثنى يمينك قائمه

ولا أشَّبوا حصناً يردك عنهمُ

وقابلتَه إلا تداعت دعائمه

وإن أحرزوا في «بِطْرَشَلْجَ»[2] نفوسهم

فغانِمُ ما لا يحفظ اللهُ غارمه

فكم قدت في أكنافها من مُقنَّع

نفوسُ الأعادي شُربه ومطاعمه

(١) لم نهتد للتحقق من شخصية أبي مسعود هذا الذي يبدو أنه كان من كبار قواد منذر بن يحيى، على أن ابن دراج سيشير إليه في موضع آخر من هذا الديوان بشكل أكثر تفصيلاً في قصيدته العينية التي أولها «نور الوفاء بأرضنالك ساطع».

(٢) في الأصل: «بطرشنج» وكنت في الطبعة الأولى للديوان قد ظننت أن الاسم محرف عن «قطرشنج» أي بلاد البشكس أو مملكة بنبلونة التي كان يحكمها ملوك تسمى كثير منهم باسم شنج **Sancho**، غير أنه تبين لي بعد مزيد من الدراسة أن ظني ذلك كان خاطئاً، وأن المقصود بهذا الموضع قلعة تدعى «بطرشلج» أو «بيطرة شلج» (بالإسبانية **Pelta Seleg** ومعناها الصخرة المالحة) وقد ذكرها ياقوت في معجمه (٥٣٢/٢) وقال إنها حصن منيع من أعمال أشقة (وشقة **Haesca**) كما ذكرها العذري في جغرافيته (بتحقيق عبدالعزيز الأهواني – مدريد ١٩٦٥) بين أعمال وشقة واصفاً إياها بأنها «من معاقلها المنيعة» وأنها «حصن آهل وفيه مسجد جامع» (ص

خـمـيس لجُـنح الـلـيل من أنجُم الـدجى
حُلاه ومن شـمس الـنـهـار عـمـائـمه
كـأن شـعـاع الـشـمس تحت عَـجـاجه
إذا مـا الـتـقى الجـمـعـان سـر وكـاتـمه
تَـجـيشُ بـوَدْق من جـنى الـنـبع صـائبٍ
أسـاودُه نـحـو الـعـدى وأراقِـمُه
كمـا حـمـلتْ رجلَ الـدَّبـا عـاصفُ الـصَّبـا
أو انـهـل بـالـوبل الأجش غـمـائـمه
وهـدَّ هـواءَ الجـو نـحـوَ بـنـائـهـا
هُـوِيَّ سلامٍ[1] حـان منْ لا تُـسـالمه
ولـو لم تُـصـادمه بـطـود من الـقـنـا
لأ قـبل أطـوادُ الجـبـال تـصـادمه
ولـو لم تـزاحـمه المجـانـيقُ لا نـبـرت
عـلـيه نجـومُ الـقـذف عـنك تُـزاحـمه
ولـيس ولـو سـامى الـسـمـاءَ بمـعـجـز
من المـشـرفيِّ والـعـوالي سَلالمه
فسرعان مـا أقوى الشرى من ضبـاعه[2]
وبـربـرَ[3] في ذاك الـعـرين ضَـراغـمه
وطُـيِّـرَ عن لـيل الأبـاطـيل بـومُه
وشُـرِّد عن بَـيْض الـنـفـاق نـعـائـمُه
وبـدِّلتَ حـكمَ الـلـه من حُـكم غـيِّه
فـأنـفـذ حـكمُ الـلـه مـا أنت حـاكـمه
فـيـا رُبَّ أنف لـلـنـفـاق جَـدَعْـتَه
بـهـا و«ابن شـنجٍ» صـاغـرُ الأنف راغـمه

(١) السلام جمع سلمة (بفتحة فكسرة) وهي الحجارة الصلبة، وحان أي مات.

(٢) في الأصل: ضياعه.

(٣) البربرة هي الجلبة وكثرة الصياح، ويقال للأسد مبربر وبربار.

غـداة أطـار الـعـقلَ عـنه ونـفـسَه

بـسـيـفك يـومٌ راكـدُ الـهـول جـاثـمه

فـمـا يـرتُقُ الأرواحَ إلا ريـاحُه

ولا يـفـتُقُ الـغَـمَّـاءَ إلا غـمـاغـمه

فلا نُـطْقَ إلا أن يُـفـدّيك صـارخ

ويدعـوك بـالـبُـقـيـا عـلـيـهـا أعـاجـمه

فـأَبْـرِحْ[1] بـيـوم أنت بـالـنـصـر مُـقـدم

وأفـرحْ بـيـوم أنت بـالـفـتح قـادمه

ومـنـزلٍ مـفـلـولٍ نـزلتَ وخـيـلُـنـا

مـرابـطُـهـا أجـسـاده وجـمـاجـمه

ومـعـتـرفٍ بـالـذنب مـبـتـئس به

دعـاك وقـد قـامت عـلـيه مـآتـمه

إذا صـده المـوت الـذي سـام نـفـسَه

يـكُـرُّ به الـعـيش الـذي هـو سـائـمه

فـتـلـقـاه أطـراف الـقـنـا وهـو نُـصْـبُـهـا

ويـصـعـقُه بـرق الـردى وهْـو شـائـمه

إذا كـاد يـقـضي بـالأسى نـحـبه قـضت

له الـرحم الـدنـيـا بـأنك راحـمه

فـلـم أر أمـضى مـنك حـكـمـا تحـكـمت

عـلى سـيـفه يـوم الحـفـاظ مـكـارمه

ولا مـثل حـلـم أنت لـلـغـيـظ لابس

ولا مـثل غـيـظ أنت بـالحـلـم كـاظـمه

---

(١) أبرح: أعجب.

فأوْسعتَه حكم «النضير» وقد حكى
«قريظةَ» منه غِلّهُ وجرائمه[1]
فولَّى وقد ولاَّك ذو العرش عرشه
وطار وقد طارت إليك قوادمه
وأُبْتَ وقد لاحت سعودك بالمنى
وغارت به في الأخسرين عواتمه[2]
تغني لك الركبان بالفتح قافلاً
وتبكي عليه بالحِمام حمائمه
فمن ينصُرِ الرحمنُ هذي عزائمه
ومن يخذُلِ الرحمنُ هذي هزائمه

****

(١) في الأصل «النظير» عوضاً عن «النضير»، وقد قومناها بما يرى، ولعل ابن دراج يشير هنا إلى حكم رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام على بني النضير يهود المدينة الذين أئتمروا بالنبي ونقضوا عهده فحاصرهم المسلمون ثم صالحهم النبي على أن يجلوا عن المدينة وأن يكونوا آمنين على دمائهم وأموالهم وذراريهم، أما بنو قريظة فكانوا أيضاً من يهود المدينة ظلوا بعد جلاء بني النضير، غير أنهم غدروا بالمسلمين أيضاً في غزوة الخندق أو الأحزاب، فلما انتهت هذه الغزوة بفشل قريش وأحلافها حاصر المسلمون بني قريظة وحكم النبي صلى الله عليه وسلم، فيهم بقتل المقاتلة وقسمة الأموال وسبي الذرية والنساء. ويريد ابن دراج في هذا البيت أن منذر بن يحيى حكم في هذا الثائر عليه من أهله بحكم النبي في بني النضير (أي بالإجلاء دون القتل) مع أن جرائمه وغدره كانت كفيلة بأن توقع عليه حكم رسول الله على بني قريظة بالقتل.
(٢) العواتم هي نجوم الشتاء ذات الضوء الخافت.

(٥٠)

وله فيه رحمهما الله يصف قدوم الأمير ابن ميره(*) عليه سر قسطة أعادها الله.

[من الكامل]

عـــجـــبـــاً لــغيٍّ الحب لاح ســبــيـــلُهُ
ولـــرشـــد حـــلـــمك كـــيف ضل دلـــيـــلُهُ

ولـــعـــيش صب لا يـــرق حـــبـــيـــبه
ممـــا شـــجـــاه ولا يُـــفـــيق عَـــذوله

ولـــقـــاتل بـــالـــهـــجـــر غـــيـــر مُـــقـــاتل
يـــفـــديه من مـــضض الـــعـــتـــاب قـــتـــيـــله

(*) لم تشر كتب التاريخ الأندلسي إلى «ابن ميرو» المذكور، ولسنا نعرف بشكل قاطع من هو ولا من أبوه أو جده المتسمي بميرو. على أننا اهتدينا في كتب التاريخ المسيحية على شخص يحمل هذا الاسم كان قومسا لإمارة بليارش **Pallars** الصغيرة في المنطقة المتاخمة للثغر الأعلى (سرقسطة) ولملكة البشكنس (نبرة)، وكانت هذه الإمارة – هي وإمارتا شبربر **Sobrarbe** وريباغورثا **Ribagorza** المجاورتان لها – تابعة من الناحية الاسمية لملك فرنسا، ولو أنها كانت بالفعل مستقلة. وقد كان ميرو **Miro** ابنا لقومس بليارش المسمى ريمند الأول (باللاتينية **Regemondo I**) الذي كان يحكمها بين سنتي ٢٧١ و ٣٠٤هـ (٨٨٤ – ٩١٦م). أما ابنه «ميرو» فقد أنجب ولدين هما جيرمو **Guillermo** وريمند. ولعل «ابن ميرو» هو ابن لأحد هذين نسبه الشاعر إلى جده لشهرته. ونحن نعلم أن هذه الفترة التي كانت توافق حكم منذر التجيبي لسرقسطة كانت فترة احتضار تلك الإمارات الصغيرة التي كان «ابن شنج» (شانجه الأكبر ملك البشكنس) يعمل على ضمهما إلى ملكه حتى تمكن من ذلك بالفعل في سنة ٤١٦ (١٠٢٥)، على أن السنوات العشر السابقة لذلك كانت هي الفترة التي كافح فيها قوامس بليارش مكافحة شديدة للاحتفاظ باستقلالهم. ولسنا نستبعد أن تكون هذه الزيارة التي قام بها «ابن ميرو» لمنذر التجيبي بسرقسطة إنما كانت للاستعانة به على شانجه والحيلولة دون توثبه على إمارته. انظر عن «ميرو» ونسبه وبعض أخباره **M.Serrano Sanz: Noticias y documentos historicos del Condado de Ribagorza hasta Ia muerte de Sancho Garces III. PP. 301 - 304, 316 - 318.**

إن خُطَّ في جـــو الـــســـمـــاء مـــثـــالُه

بـــدراً فـبـــين جـوانـــحي تــمــثــيــلــه

أو شــرد الــتــســهــيــدَ طــيفُ خــيــالـه

عن نــاظــريَّ فـفـيــهـمــا تــخــيــيــلـه

وَلَـــهَـــانَ فــيـه مــا فـقــدتُ من الــكــرى

لـــو كـــان من نــظــري إلـــيه بــديـــلـه

أو كـــان حـــكـم هـــواه لا تحـــريمه

وصـــلي عــلـــيـه ولا دمي تحـــلـــيـــلـه

غـصن يمـيس به الـصِّـبـا فـيـقـيـمه

طـوراً وتـوهـمه[1] الـصَّـبـا فـتُـمـيـلـه

فـــكـــأنه في لمح طـــرفيَ عـــاثـــر

وتـــقــيـه تــفــديــتي لـه فـتُــقــيـــلـه

وتـــكـــاد أنـــفــاسي تُــزايل مـــتْـــنَه

لـــولا كـــثـــيب مـــنه لـــيس يُـــزيـــلـه

فـــكـــأنمـــا يُـــشـــتق من حـــركـــاته

نَـغَمُ الـغـنــاء خـفـيـفُه وثـقـيـلـه

لـــو أنه يُـــشـــتَق من أعـــطـــافه

عَـطف يُـعـلِّل لـوعـتي تـعـلـيـلـه

وعـــلـــيلُ لحظِ الــطـرف أعـدى طـرفُه

قـــلـــبي بـــداء لا يُـــفـــيق عـــلـــيـــلـه

سـلب الملاحـة في الـظـبـاء وفي المـهـا

حـتي اسـتـبـد بـجـزئـهـا تـكـمـيـلـه

أَنَــفـــاً لمن ســـكن الـــتـــرائب أن يُـــرى

يـطـأ الـتـرابَ شـبـيـهه ومـثـيـلـه

---

(١) كذا وربما كانت «وتوهنه».

ولــــقـــد حـــفــــظت لـه أمـــانــــة لاعج

بـالـشـوق يـغـلـي في الـفـؤاد غـلـيـلـه

وضــــربت من دمـــعي عــلـى خــــدي له

غُــرْمــاً غـرامي بـالــقــضـاء كـفـيـلـه

فــلــئن صــبــوتُ فـلــست أول عــاشق

تـــبع الـــهـــوى فـــهـــوى به تــضـــلـيـلـه

ولــئن صــبــرتُ فـلــستُ بــدْعَ مُــفــارق

غــالت حــبــيَب الــنــفس عــنه غُــوله

ولــــئن ســـلـــوتُ فـــأيُّ أســـوة واعظ

ألـــهـــاه عن قــمـــر الـــســـمـــاء أُفـــوله[1]

فـــســـمــــا إلى الملإ الأجل[2] بـــهـــجــرة

وافى بـــهـــا الـــرحـــمنُ وهــو خـــلـيـلـه

وهــنــاك يـا «مــنــصـور» هِـمْتَ بـهـمـة

فــيــهــا ســلــو المــســتــهــام وسُولُه

طــــلــــبــــاً لحظ لا يَــــذِلُّ عــــزيــــزه

من حظ غـي لا يــــعـــــز ذلـــــيــــلـه

فــــهــــدى وأهـــداني إلـــيك مُـــبـــرِّزاً

شــهــدت له في الــســابــقــات عُــدوله

وجـلا عــــلـــيك بـه الجلاءُ مـــهـــنَّـــداً

صــدقـــتْكَ عن قـــرع الحـــروب فـلـــوله

وعـفت مـحـاسـنه الـعـدى فـكـأنـهـا

في مـعـهـد الـوطن الـفـقـيـد طـلـوله

(١) يشير الشاعر هنا إلى اتعاظ ابراهيم عليه الصلاة والسلام حينما أفل القمر بعد أن ظن أنه ربه: «فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين» (سورة الأنعام آية رقم ٧٧).

(٢) في الأصل «الملأ الأعلى» على أن الوزن لا يستقيم بهذه الكلمة الأخيرة ولذا فقد استبدلنا بها كلمة «الأجل» التي أثبتنا، وقد تكون أيضاً «الأعز».

إن يُصدِه رهج الوغى فشعاعُه
بالعلم لماع الجلاء صقيله
أو تُخْلِقِ البلوى حمائلَ حَليه
فعلى التجمل والمنى تجميله
أو تقطع الأيام عهد ذمامه
فالصبر واصل حبله موصوله
فأتاك يا «منصور» فاقد غمده
برجاء مجرورٍ إليك ذُيوله
رَسْفَ المقيَّدِ في أضاليل الدجى
والقفرُ والبحرُ المحيط كُبوله
كُرباً كموج البحر لا إهلالُه
إلا إليك بها ولا تهليله
فَلْيَهْنِ ذا أملٍ إليك مآله
وجلاء مرتحلٍ إليك رحيله
وظلام ليلٍ في جبينك صبحه
وهجير قيظٍ في ذَراك مقيله
وليهنِنا وليهنِك العيدُ الذي
بسناك أشرق صبحه وأصيله
عيدٌ إليك سلامُه وقِوامه
ونظامُه وزحامُه وحُفوله
وعلى الإله معاده وعتاده
وإيابه وثوابه وقَبوله
وليهْنِ كلَّ مليكِ شركٍ عيدُه
يومٌ إليك بلوغه ووُصوله
ضلت به سبلُ الشرائع واهتدت
بشريعة الزلفى إليك سبيلُه

نــاشٍ عــلى دين الـــســجــود ومــا درى

قـــبل الــــســـجــود إلـــيك مــا تـــأويـــله

أنـــســـاه قـــدرك مـــا أضل صـــلـــيـــبه

وأراه ســـيـــفك مـــا حـــوى إنجـــيـــله

فـــأجـــار مـــحـــيـــاه إلـــيك نـــزاعُه

وأعـــزه بك في الـــورى تـــذلـــيـــله

ولــئن حــمى عــنك «ابن مـيـرُ» مَـحَـلَّـة

في شـامخٍ أعـيـا الـنـجـوم حـلـوله

ونمـــاه مـــلكٌ لا يُـــضـــعـــضَع تـــاجُه

ووقـــاه عـــزٌّ لا يُـــخـــاف خُـــمـــوله

فـــلـــقـــد دعـــاك إلى رضـــاك ودونه

غَـــوْلُ الـــضلال حُـــزونه وســـهـــوله

أصـــبى إلـــيك من الـــصَّـــبـــا وأحن من

أُفُقٍ ونت عـــنـه إلـــيك قَـــبـــوله[1]

وأجلَّ قـــدرَك عن ســـواه وقـــدرمـــا

أخـــفى إلـــيك نجـــيه ودخـــيـــله

عن صــدق غــيب بــالــكــتــاب يــبــثه

أو بــرح شــوقٍ بــالــرســول يــقــوله

فــهــوى وصــفــحــته إلــيك كــتــابه

وهـــفـــا ومـــهـــجـــته إلـــيك رســوله

عَـــجِلاً إلى أمل دنـــا تـــعـــجـــيـــله

وَجِلاً به أجل نـــأى تـــأجـــيـــله

لـــله مـــا رحـــلت إلـــيك رحـــاله

طـوعــاً، ومـا حـمـلت إلـيك حُـمـوله

(١) القبـول هي الريح الطيبة ضد الدبور، وقيل هي الصبا، وونت أي فترت، يقال النسيم الواني أي الخفيف

غــازٍ ونــاصــرُه عــلــيك خُــضــوعُه
سـارٍ وطــاعــته إلــيك دلــيــله
نــشــر الــلــواء زمــاعُه ونــزاعه
فــطــوى المــهــامةَ نــصه وذمــيــله[1]
ولــقــد خــلــعتَ عــلــيه قــبل دنــوه
بُــرداً تــفــيض عــلــى الــفــضــاء فــصــوله
لجــبــاً من الحَــلَقِ المــضــاعف نــسجُه
أَشِــبــاً من الأَسَلِ المــثــقف غِــيــلــه
شَــرِقــاً به لُــوحُ الــهــواء وجَــوُّه
غــرقــاً به عَــرض الــبلاد وطــوله[2]
مــســتــقــبلاً بــجــنــوده وبــنــوده
مــلــكــاً يُــهِلُّ إلــيك حــين تــهــوله
ولَــشَــدَّمــا مــاجت به أمــواجه
حــتى أســالــته إلــيك ســيــوله
بــصــوارمٍ في طَــيــهن تِــراتُه
وذوابلٍ فــي لمــعــهن ذُحــولــه
غــابٌ تُــســاودُ نــاظــريه أســوده
من بــعــد مــا اخــتــالت عــلــيه خُــيــوله[3]
فــمــشى إلــيك به الــزحــام كــأنه
عــانٍ يُــقــصِّــر خــطــوهَ تــكــبــيــله
مــبــهــورُ أنــفــاس الحــيــاة كــظــيــمُــهــا
وغــضــيض لحظ الــنــاظــرين كــلــيــله

---

(١) الزماع هو السرعة والعجلة والمضي في الأمور، والنص هو حث الدابة حتى تستخرج أقصى سيرها، والذميل هو السير اللين السريع.

(٢) اللوح بضم اللام هو الهواء بين السماء والأرض.

(٣) ساوده أي لقيه في سواد الليل.

حـــتـى تــــنـــفس روحُـه في راحـــة
علــيــاء مــقــبــولاً بــهــا تــقــبــيــلـه
ورفــعتَ نــاظــره بــنــظــرة بــاسطٍ
للأمن مــبــلــوغــاً بــهــا تــأمــيــلـه
فــأريـــته كــيف ارتجـــاع حـــيـــاته
ولَــتــلك أيــســرُ مــا بــدأتَ تُــنــيــلـه
من فــيضٍ عُــرف تــســتــقل كــثــيــره
ولــقــد يــزيــد عــلى الــرجــاء قــلــيــلـه
نُـــزُلاً يـــذكـــره الـــعـــراقَ ومـــصـــره
مُـــلْـــكـــاً ودجـــلـــتُه يـــداك ونـــيـــلـه
وشُـــروق شـــمسٍ لايـــحـــين غُـــروبـــهـــا
في بَـــرد ظلٍ لا يـــحـــور[1] ظـــلـــيـــله
ورأى صـــريعَ الخـــطب كـــيف تُـــقِـــلّهُ
ورأى عَـــثـــوَر الجَـــدِّ كـــيف تُـــقـــيـــله
ورأى ذلـــيـــلُ الحق كـــيـف تـــعـــزه
ورأى عـــزيـــز الـــشـــرك كـــيف تـــذيـــله
ورأى صُـــدوعَ الـــدين كـــيف تَـــلُـــمُّـــهـــا
ورأى كـــثـــيبَ الـــكـــفـــر كـــيف تُـــهـــيـــله
ولـــئن تـــقـــدم في رضـــاك قـــدومُه
فـــلـــقـــد تـــزود من نـــداك قُـــفـــوله
بـــخلائقٍ من طـــيـــبـــهن خَـــلُـــوقه
وشـــمـــائلٍ من صـــفـــوهن شَـــمُـــوله
ومـــعـــالمٍ لـــعُلاك لا تـــعـــظـــيـــمُه
لـــسوَى مـــشـــاهـــدهـــا ولا تـــبـــجـــيـــله

(١) يحور أي ينقص.

فـــلــــهـــا بـــقـــدر الـــروم وهـي أَرُو مُه
وزرى بمُـــلْك الـــصُّـــقْـــرِ وهي أصـــوله
لمنِ اصـــطـــفى قـــحـــطـــانُ عـــزةَ مُـــلْـكه
ومِنَ الـــتـــبـــابع جِـــذْمُه وقـــبـــيـــلـه
وَلمن نمى ســـبـــأٌ بـــســـبْيِ مـــلـــوكـــهـــا
واســـتُـــخـــلـــفت أذواؤه وقُـــيـــوله
ولمن تـــتـــوجَ بـــالمـــكـــارم تـــاجُه
عُـــلْـــواً وكُـــلل بـــالـــهـــدى إكـــلـــيـــله
ســـطـــعت عـــلـى الأملاك غُـــرة وجـــهه
نـــوراً وأشـــرق بـــالـــنـــدى تحـــجـــيـــله
فـــالـــلـــه يـــعـــلـي قـــدرَه ويـــزيـــدُه
صـــنـــعـــاً ويُـــنـــسِئُ عـــمـــرَه ويُـــطـــيـــله
في عـــزٍّ نـــصـــرٍ لا زمـــان يـــخـــونه
وبـــقـــاءِ مُـــلكٍ لا مُـــديل يُـــديـــله

****

(٥١)

وله فيه رحمهما الله وقد برأ من علة نالته.

[من الطويل]

كذا تتجلى الشمس بعد كسوفها
وتبرز أغماد الوغى من سيوفها
ويمرع بالأشجار عود ربيعها
ويونع بالأثمار كرُّ خريفها
ونعلم أنَّ اللهَ أبقى لأرضه
رعاية راعِيها وعطفَ عَطوفها
ورحمتُه أبقت حياة رحيمها
ورأفته جادت بنفس رؤوفها
حناناً على مكروبها وغريبها
وصُنعاً إلى مجهودها وضعيفها
ويا عجب الأيام أخفرن ذِمةً
لِمَلْكٍ متى تستوفه العهد يوفها
وكيف أخافتنا الليالي على الذي
يقي عدو عاديها وخوف مُخيفها
وكيف انتحى صرفُ الخطوب لمهجةٍ
بها أمن الإسلام جور صروفها
وإن غرها بالجود ختل طائف
تهجى لها الشكوى بغير حروفها
فدب إليها في عديد عُفاتها
وراح عليها في سمات ضُيوفِها

فـمـا يُـنـكـر الأوصـاب مـتن مـهـنـدٍ
مُـعـودَّدٍ قـرعِ الـبـاتـرات عَـروفِـهـا
ولابـطنُ كف مـا تُـغِبُّ كـواكـبـاً
تـنـوء بمـنـهل الـغُـيـوث وَكُـوفِـهـا[1]
مُـقَـبَّلُ أفـواهِ المـلـوك وظـلُّـهـا
سـمـاءٌ عـلـى مـشـروفـهـا وشـريـفـهـا
ولاقَـدَمٌ لا تـسـأمُ الـدهـرَ تـرتـقي
ذرى كل صـعـب المـرتـقـاة مُـنـيـفِـهـا
ولـو يـتـعـاطى عـاصفُ الـريح شـأوَهـا
لـعـاذ بـأرجـاء الـفلا من عُـصـوفـهـا
وإن نـال يـا «منصورُ» من جسمك الضنى
فـأمـضى الـيـمـانـيَّـاتِ حـدُّ نـحـيـفـهـا
صـفـيـحـةُ ضـربٍ شـفـهـا الـهـامُ والـطُّلى
فـراقت بمـصـقـول الـظُّـبـاةِ مَشوفِـهـا[2]
عـنـيـفٌ عـلـى الأبـطـال والـبـذلِ لـلّـهُى
بـكفٍ عـلـى الإسلام غـيـرِ عـنـيـفِـهـا
وإن أسـبـلـت شـكـواك دمعَ أبـيِّـهـا
فـقـد أرقـأت بُـشـراك عـينَ أسـيـفـهـا
وإن ذبـلـت من دوحـة الـمُـلْك نـضـرةٌ
فـمـا أوحش الـدنـيـا جـنـيٌّ قُـطـوفـهـا
لَـمَـدَّت عـلـيـنـا ظـلـهـا من مـهـادهـا
ونـورَ سـنـاهـا من وراء سـجـوفـهـا
وإن طـرحت عـنـهـا الـريـاسـة حَـلـيَـهـا
وبـدلـهـا الإشـفـاقُ لـوثَ نـصـيـفـهـا[3]

(١) الوكوف هي الغزيرة.
(٢) أي مجلوها، اسم مفعول من شاف أي جلا.
(٣) اللوث هو الطي، والنصيف قيل هو خمار المرأة وقيل هو الثوب الذي تتجلل به المرأة فوق ثيابها.

فـوَشْـكـانَ مـاعـادت من الـلـه نـعـمـةٌ
تجلت بـهـا في تـاجـهـا وشُـنـوفـهـا
فــردَّت عــلـى الإسلام نــورَ عُـيــونـــهم
وأهـــدت إلى الأعــداء رَغم أُنـــوفـــهـــا
بـكـرٍّ نـواصي الخـيل نـحـو ديـارهـا
تَـنُصُّ المنى في نَـصِّـهـا وَوَجِـيـفِـهـا
يـشب سـيـوف الـهـنـد نـورُ دلـيـلـهـا
ويُـعـيي حـسـاب الـهـنـد عـد ألـوفـهـا
وتُـنـشِئُ ريحُ الـنـصـر مـنـهـا سـحـائـباً
تَـسُح عـلـى الأعـداء ودق حـتـوفـهـا
يُـقـعـقِعُ رعـدُ الـنـصـر من جـنـبـاتـهـا
ويـومض بـرق الـفـتـح بـين صـفـوفـهـا
وإن عُـجْـتَ يـا «مـنـصـور» مـنـهـا فـأُسـوةٌ
بـرد جـنـود المصـطـفى عن ثـقـيـفـهـا[(١)]
وصــدٍّ هــدايــا الـبُـدن دون مـحــلــهــا
وقــد أكل الأوبــارَ طــولُ عــكــوفـــهـــا
وإن رُدَّ زحـفُ الخــيـل مــنك بــأنــةٍ
فـأعـداؤُهـا رهنٌ بـكـر زحـوفـهـا
وهـل غـادرت يمـنـاك إلا ودائـعـاً
خـتـمت عـلـيـهـا في مـقـر ظـروفـهـا
عـوائـدُ طـيـرٍ في وكـور بـروجـهـا
وحـيـات غَـوْرٍ في بـطـون كـهـوفـهـا
تـأيَّى[(٢)] نـواصي الخـيلِ مـعـقـودةً بـهـا
عـهـودُ مـوالـيـهـا وحـلف حـلـيـفـهـا

(١) يشير الشاعر هنا إلى رد النبي صلى الله عليه وسلم على بني ثقيف نساءهم وأبناءهم وأموالهم في غزوة الطائف بعد أن استعطفوه وذكروه بما تتهم إليه.

(٢) في الأصل: تأى، ولعلها كما أثبتنا، وتأيى أي تتأيى بحذف التاء الأولى، ومعناها تقصد أو تتبع، وهي مشتقة من

كـتـائب يـكـسـون الأبـاطح والـربى
بـخـيلٍ تـلـيـداتِ الـوغى وطـريـفـهـا
تـرد عـيـون الجـو عن لمح أرضـهـا
وتَثني أنوف البحر عن سوف سِيفِها[١]
وتُـسـمع خِـلدانَ الـثرى من صـهـيـلـهـا
ويَـخـرَسُ جِـنَّـانُ الـفلا عن عـزيـفـهـا[٢]
إذا أُرْسِـلَتْ فـيـهـا الـعـيـون تـشـكَّلتْ
نـواظـرهـا في سـيـرهـا ووقـوفـهـا
لإيلاف شـمل المـسـلـمـين بـرحـلـةٍ
تـشُجُّ بَـمشـتـاهـا كُـؤوسَ مـصـيـفـهـا
يـقـيـهـا هـجـيـرَ الـقـيظ ظلٌّ عَـجـاجـهـا
ومُـجـمِـدَةَ الأنـهـار نـارُ سـيـوفـهـا
فلا أوحش الإسلامَ عـامُ جـهـادهـا
ولا أنَّسَ الأعـداء يـومُ خُـلـوفـهـا
ولاخَـتَـرَتْ مـنك المـكـارمُ والـعلا
صـفـاءَ مُـصـافـيـهـا وإلْف ألـيـفـهـا
ولا انـصـرفت عـنك الـرغـائب والمـنى
ولا مِـنْكَ إلا مـالـئـاتِ كُـفـوفـهـا
وإن رجـعـت عن صـدق وعـدك بُـرهـةً
حـواجبُ آمـال الـغـريب بـصـوفـهـا

****

(١) السوف مصدر ساف الشيء يسوفه أي شمه، والسيف هو ساحل البحر.
(٢) الجنـان جمـع جـان، والعـزيف هـو جـرس أصوات الجن، وهو صـوت الريـاح في الجو توهـمه أهـل البادية

(٥٢)

وله فيه رحمهما الله وقد انصرف من غزوة غزاها.

[من الكامل]

نــعمٌ يــبــشــر بــدؤهــا بــتــمــامِ
فــتحُ الــقُــدوم ونُــصــرة الإقــدام

وُدِّعتَ مــحــمــوداً، وصُــلت مــظــفــراً
فــاقــدَم بــطــيب تحــيــةٍ وسلام

والــبَسْ بــعــزة من ســعــيتَ لــنــصــره
تــاج الجلال وحُــلَّــة الإعــظــام

واســعــد لــعــز الــدين والــدنــيــا مــعــاً
واســلــم لــنــصــر الــلــه والإسلام

وَعْــداً عــلــيه أن يُــتم عــلــى الــورى
بك أنــعــمــاً مــوصــولــة بــدوام

قــرُبت عــلــيك من الأعــادي غــايــةٌ
قــد طــالمــا بــعــدت عــلــى الأوهــام

وســلــلــت ســيف الــلــه طــالب ثــأره
من آل «جــالــوت» ونــثــرةِ «حــام»[1]

ورفــعــت أعلام الــهــدى في جــحــفلٍ
كــالــلــيلِ تحت كــواكِب الأعلام

بــســوابقٍ رفــعــن شــراع خــوافقٍ
كــالــفُــلْكِ في آذِيِّ بــحــرٍ طــام[2]

(١) للنثرة معان كثيرة منها طرف الأنف أو ما بين الشاربين، ولعل ذلك المقصود هنا كناية عن الشرف.
(٢) في الأصل «بسوافق» مكان «بسوابق» التي أثبتنا، والآذي هو بالموج الشديد.

يستـرجف الإسـراجُ عِـزَّ نفوسـهـا
حتى تُسكِّنهنَّ بالإلجام[1]
وأُسـودُ غـابٍ مـا تـلـذ حـيـاتَـهـا
حتى تـديـر بـهـا كـؤوس حِـمـام
مُـتـنـازعي مُـهـج الـعـداة كـأنمـا
يـتـنـادمون عـلـى رحـيق مـدام
مـسـتـقـدمـين إلـيـهمُ بـأسـنـة
أولى من الأرواح بـالأجـسـام
هـتكوا بـهـا حُجبَ الـترائب فـاصطلت
أحشاؤهـا جـمـر الـوطـيس الحـامي
وقـواضب نـبـذت إلـيك لـتَـتـركنْ
هـام الأعـادي لـلـصـدى والـهـام[2]
سُـرُجٍ لـديـن الحق إلا أنـهـا
كـسـتِ الـضـلالَ ديـاجيَ الإظلام
بـرقـت عـلى الأعـداء غـيـر خـوالبٍ
في عـارض لـلـمـوت غـيـر جـهـام
فـكـأنمـا استـسـقـوا حـيـاه وقـد رأوا
أن الـصـواعق في مـتـون غـمـام
حملوا قـلـوب الأسد نحوك فـانثنوا
مـسـتـبـدلـين بـهـا قـلـوب نـعـام
من كل مـنـتـهـك المحـارم بـارزٍ
بـدمٍ عـلـى الإسلام غـيـر حـرام
لـم يـعـبـدوا الأصـنـام إلا أنـهـم
عـبـدوا الـغـرور عـبـادة الأصـنـام

(١) يقال استرجف رأسه أي حركه.
(٢) الصدى – على ما كان يزعم أهل الجاهلية طائر يخرج من رأس المقتول حين يبلى إذا لم يثأر به، وكذلك الهام.

كم في بُـرود عـجـاجـهـا من مُـفـرَشٍ
ظـهْـرَ الـصـعـيـدِ مُـوسَّـدٍ بـسلام
أشـمـسْـتَه عَـفَـرَ الـتـراب وربمـا
حط الـرواسيَ من فـروع شِـمـام
وسـطـا الـرغـام بـأنـفه ولـطـالمـا
غـادى أنـوف الـدين بـالإرغـام
دامي الـلـبـان كـأن مـفـحص نـحـره
وجـنـاتُ مُـعـولـةٍ عـلـيه دوام
فـغـدا الـثـرى ريـان من دمه ومن
دمعٍ عـلـيه بـالـفـضـاء سـجـام
جَـزَراً لأيـسـار من الـبـيـداء لا
يـسـتـقـسـمـون عـلـيه بـالأزلام
حـتى إذا صـابت بـقُـرٍّ وانـثـنى
ثـمـر الـغـوايـة مـؤذيـاً بـصِـرام
ورمت أكف بـالـصـوارم والـقـنـا
كـيـمـا تـمـد إلـيك بـاسـتـسلام
وتـيـقن الإسلام عـودة رحـمـةٍ
تُـبـري من الأوصـاب والأسـقـام
وتـنـسم الـظـمـآن روْح مـشـاربٍ
يُـشـفى بـهن غـلـيل كل أُوام
نَـفِسَ الـنـجـاحَ عـلـيك من أقـسـامه
من فـوز قِـدحك أوفـرُ الأقـسـام
وهـفت به خُـدعُ الـظـنـون ولم يـزل
حـسـدُ الـقـرابـة طـائشَ الأحلام
فـدنـا لـغِـرة مُـنـتـواك[1] وقـد خـلت
من أسـدهـن مـرابض الآجـام

(١) في الأصل: منثواك.

ودعــا الـــســوام إلى حــمــاك ولم تــغب

إلا لـــتُـــبْـــلِيَ دونـــهـــا وتُـــحـــامي

فـبــرى الــعــداةُ لــرمي ظــلك أســهــمــاً

خـــابت وصـــائـــبُـــهـــا لأخـــيب رام

هل يـنـقـمـون سـوى سـجـيـةِ حـافظٍ

حـقَّ الأواصــــــر واصلِ الأرحــــــام

سَـهِـدِ الجـفـون طـويل آنـاء الـسـرى

عن أعـــينٍ تحت الـــســجـــوف نـــيـــام

أو يـحـسـدونك رتـبـة فـلـيـرتـقـوا

فـالـشـمس في جـو الـسـمـاء الـسـامي

أم أبـــرمـــوا أمـــراً يـــســـوؤك ذكـــره

فـــالـــلـــه نـــاقض ذلك الإبـــرام

فـاسـعـد بمـا اخـتـار الـذي في أمـره

خـــيـــرُ الـــقـــضـــاء وأيمن الأحـــكـــام

ولـــــئـن ونـى قَــــــدَرٌ إلـى أجـلٍ فلا

عَـــدَمَ الـــصـــوابِ ولا نُـــبُـــوَّ حـــســـام

ونـــبـــيـــنـــا لك أســـوةٌ في رده

عن أرض مـــكـــة مُـــعـــلِنَ الإحـــرام[1]

فـــأثـــابه الـــفـــتح الـــقـــريب وبـــعـــده

تـــصـــديـقُ رؤيـــاه لأول عـــام

والـــعَـــوْدُ أحـــمـــدُ، مـــا لأول لـــيـــلـــةٍ

يـــبـــدو هلال الأفق بـــدر تـــمـــام

وكـفـاك مَن وطـئت خـيـولك مـنـهمُ

كِـيـوَانَ واصـطـلـمت سـنـا بَـهْـرَامِ

(١) يشير ابن دراج في هذا البيت والذي يليه إلى سير النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المسلمين إلى مكة في السنة السادسة من الهجرة لتأدية فريضة الحج وما كان من منع قريش إياهم من ذلك واتفاق الجانبين على أن ينصرف النبي عليه الصلاة والسلام ومن معه عامهم هذا على أن تسمح لهم قريش بالحج في العام التالي، وذلك في صلح «الحديبية»، ثم ما كان من فتح الله عليه مكة في العام التالي دون قتال.

وجـعـلـت سـيـفك مـاثلاً لـنـفـوسـهم
يـحـتـثـهـا بـخـواطـر الأوهـام
وتـركت هـادرهم بـغـيـر شـقـاشقٍ
رهـبـاً وغـاربـهم بـغـيـر سـنـام
وتـركت فَلَّ ذئـابـهم وضـبـاعـهم
مـتـرقـبـين لـكـرة الـضـرغـام
هل يـنـظـرون سـوى تـألق حـاجبٍ
لـلـشـمس يـصـدع ثـوب كل ظلام
أو يـوجسُ الـسـمعُ الـنـذيـرَ «بمـنـذرٍ»
ضَـرِم الـعـجـاج مُـصَـمِّمَ الـصـمـصـام
مـلكٌ إذا ألـقى رواسيَ بـأسه
كـفـلـت لـه بـزلازل الأقـدام
قـادَ الـعلا بـزمـام كل فـضـيـلـةٍ
واقـتـاده الـراجي بـغـيـر زِمـام
فـابـشـر فـقـد نـبـهت نـائـمـة المنى
ونـظـمت دين الـلـه خـيـر نـظـام
وقـررت عـيـنـاً بـالـذي قـرت به
عـين الـزمـان وأعـين الإسلام
قـمـرٌ يـنـيـر عـلـى بـنـان[1] يمـيـنه
شُـهْبُ الـقـنـا وكـواكب الأقلام
ورث الجـدود مـنـاقـبـاً ومـسـاعـيـاً
تـركت كـرام الأرض غـيـر كـرام
وعُلاً تحـلـت بـالـسـنـاء وتـوجت
بـالمـكـرمـات مـفـارق الأيـام
بـاهى بـه الأمـلاكَ أعـلى مـنـجبٍ
ونمـاه لـلآمـال أكـرم نـام

(١) في الأصل: ينان.

فـاسـتن في الحـسـنى بـأهـدى مـرشـدٍ
وائـتم في الـعـلـيـا بـخـيـر إمـام
فـهـو الجـديـر بـأن يُـؤَكّـدَ عـقـدهُ
في حـفظ عـهـدِ وسـائـلي وذمـامي
وأنـا الجـديـر بـأن أشـيـد بـحـمـده
نـغـمـات أوتـارٍ وشـدو حـمـام
وأجـهـز الـركـبـانَ طـيِّبَ ذكـره
زاداً إلى الإنجـاد والإتـهـام
حـتى تـفـوح لك الجـنـائب والـصـبـا
بـثـنـائـهـا من مُـعـرِقٍ وشـآمي
وجـزاءِ مـا آويت وحش تـغـربي
وفـسـحت روضك لارتـعـاء سـوامي
وفـعـمت لي بـحـرَ الحـيـاة مـبـادراً
بـحـيـاة ذابـلـةالـكُـبـود ظـوامي
وبـسـطت لي وجـهـاً كـسـفتُ بـنـوره
كُـرَبَ الجلاء وخَـلـة الإعـدام
ووجـدتُ ظـلك بـعـد يـأس تـقـلـبي
وطنَ الـرجـاء ومـنـزل الإكـرام
فـكـأن وجـهك غُـرة الـفـطـر الـذي
وافى بـفـطـريَ بـعـد طـول صـيـامي
وكـأن ظـلك لـيـلـة الـقـدر الـتي
كَـفـلت بـأجـر تـهـجـدي وقـيـامي
ولْـتَـعـلـمِ الآفـاقُ أنك مـنـعـمٌ
حـقـاً وأنيَ شـاكـر الإنـعـام

****

(٥٣)

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى.

[من الكامل]

أهلاً بمن قـهـر المـلـوك ومـرحـبـا
وأعـزّ من حُـلَّت لـرؤيـتـه الحُـبَى
وبـحـاجـبِ الـشـمس الـذي حـجب الأسى
عـنـا وحـاش[1] لجـوده أن تُـحـجَـبـا
والمـسـتـطـارِ لـسـيـفه فِـرَقُ الـعِـدى
فَـرَقـاً فـكـان هـو الـسـنـا وهُمُ الـهـبـا
مـلـكٌ نمـاه الـمُـلـك يـتـبع تُـبـعـاً
فـيه ويُـعـرِبُ عن مـآثـر يَـعـربـا
قـاد الجـنـود مـكـاثـراً بـرمـاحـهـا
شـهب الـدجى وبـأسـدهـا عـددَ الـدبـا
وسـمـا فـعـادى بـين آفـاق الـعـدى
خَـسَفَ الـدبـور وكرَّ يـعـتـامُ الـصَّـبـا[2]
بـكـتـائب تـركت سـنـا شـمس الـضـحى
طـرفـاً سـجـا لـلـنـوم أو بـرقـاً خـبـا
تـبـنـي عـلـى الآفـاق من جـعـد الـثـرى
فـلَـكـاً بـزُرق الـسـمـهـريِّ مـكـوكـبـا
فـي هـمـة أورت زنـاد وقـائعٍ
غـادرنَ رأسَ الـدهـر أشـعث أشـيـبـا

---

(١) في الأصل: وحاشى.

(٢) المعاداة هنا هي الموالاة، يقال عادى الفارس بين صيدين أو رجلين إذا طعنهما طعنتين متواليتين.

حـــتى تجـــلى في عـــجـــاجـــة أوبـــةٍ
آبت إلى الـــدنـــيـــا بـــأيـــام الـــصِّـــبـــا
من بـــعـــد مـــا وصل الأصـــائل بـــالـــضـحـى
تحت الـــعـــوالي مـــســـئـــداً ومـــؤوبـــاً[1]
حـــتى تـــوهـــمه الـــدجى بـــدر الـــدجى
يـــســـري أو ابـــنـــاً لـــلـــكـــواكب أو أبـــا
شـــبـــهـــاً به نـــاســبـــتـــهـــا[2] مـــتـــعـــالـــيـــاً
ومـــحـــلـــقـــاً ومـــشـــرقـــاً ومُـــغـــربـــاً
بـــعـــزائم كـــلـــفـــتـــهـــا أعـــلى الـــعلا
فـــتـــســـابـــقت شـــأواً إلـــيه مـــغـــربـــاً
مـــســـتـــحـــيـــيـــاتٍ أن يُـــعـــرج لحـــظُـــهـــا
لـــقـــبـــول مـــا أدنى الـــزمـــان وقـــربـــا
لايـــركب الـــمُـــلكَ الـــذلـــولَ ركـــابُه
حـــتى يُـــذل له الـــزمـــانَ المـــصـــعـــبـــا
حـــتى يـــنـــالَ الـــعـــزَ أعـــلى مـــرتـــقى
ويـــفـــوزَ بـــالآمـــال أبـــعـــد مـــطـــلـــبـــا
جـــاوزن بـــالخـــيـل المـــدى بـــعـــد المـــدى
وأطـــلـــن إظـــمـــاء الأســـنـــة والـــظُّـــبَى
مـــا أوردتـــهـــا من عُـــداتك مـــنـــهلاً
إلا ابـــتـــدرن أمـــام ذلك مـــشـــربـــاً
يـــطـــلـــبن في الأفلاك شـــاهـــقـــة الـــعلا
ويـــدعن لـلأوعـــال شـــامـــخـــة الـــربى
مـــتـــكـــرمـــات أن يـــنـــاطح كـــبـــكـــبـــاً[3]
من كـــان في فـــلك المـــعـــالي كـــوكـــبـــا

(١) الإسآد هو سير الليل كله، والتأويب هو سير النهار لا تعريج فيه.
(٢) في الأصل: ناسيتها.
(٣) الكبكبة هي الجماعة من الناس أو الخيل.

هل من يـــســـامـــيه وأقـــربُ مـــا يُـــرى
مـنـــا إذا كـــان الـــغــمـــامَ الـــصـــيـــبـــا
عُـــذنـــا بـه من لاتَـــعَـــوَّذَ مَـــرقَـــبـــاً
مـــنه فـــأصـــبح في ذَراه مَـــرقـــبـــا
فـابـشـر فـمـا عـصـفت ريـاحُك حُـسَّـراً
فـــيه ولا بـــرقت ســـحـــابك خُـــلَّـــبـــا
وانـــظـــر فـــإن عـــزيمـــة ألـــقـــحـــتـــهـــا
بـــالـــنـــصـــر قـــد أزأت بـــفـــتـــحٍ مُـــقـــربـــاً
واعـــلم بـــأن أســـيـــر مُـــلـــكك مـــوثَـــقـــاً
من لايـــرى في الأرض دونك مـــهـــربـــا
ولـــئن حـــمى مـــنك الـــزمـــان مـكـامـنـــاً
فـــبـــهـــا يـــتـــوب إلـــيكَ ممـــا أذنـــبـــا
وغـــدا يـــجـــيـــئك مـــنـــشـــداً مـــتـــذممـــاً
لـــيس المـــسيء إلـــيك عـــبـــداً أعـــتـــبـــا
ولـــــئن دنـــــا أمـــــدٌ فلا عـــــزمٌ ونـى
ولـــئن بـــنـــــا قَـــدَرٌ فلا ســـيـفٌ نـــبـــا
والـــلهُ مُـــخـــتـــارُ الـــقـــضـــاء وإن أبى
فـــعـــسى لخـــيـــرٍ مـــا تـــعـــجـل أو أبى
ولـــكم أراك الـــنـــصـــرَ لمحـــاً بـــاصـــراً
ولـــعل أعـــظم مـــنه فـــيـــمـــا غَـــيَّـــبـــا
ربّـــاً بـــنـــصـــرك عـــائـــداً ومـــوالـــيـــاً
ولـــطـول عـــمـرك واهـــبـــاً مـــســـتـوهـــبـــاً
وكـــــفى بمن آوى إلـــــيك مـــــشـــــرداً
قـــلق الـــركـــائب في الـــبلاد مـــغـــربـــا
حـــتى يـــرى الـــبُـــؤْسَى غـــرابـــاً أعـــصـــمـــاً
بـــنـــداك والـــضـــراءَ عـــنـــقـــا مُـــغـــربـــا

****

(٥٤)

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى.

[من المتقارب]

بـفـتـح الـفـتـوح وسـعـد الـسـعـودِ
وعــز الــعــزيــز وحــمــد الحــمــيــدِ
تــدرعتَ صــبــراً تجــلــى بــنــصــرٍ
وأوفــيــت شــكــراً وفى بــالمــزيــد
فــمن يــوم عــيــد إلى يــوم فــتح
ومن يــوم فــتح إلى يــوم عــيــد
وجــود تــفــجــر من نــار بــأس
وبــأس تــســعــر من بــحــر جــود
بــطَــوْلٍ يُـعــيــد شــبــابَ الــكــبــيــر
وهــول يُــشــيِّب رأس الــولــيــد
وســعيٍ يــزيــد مــدًى كل يــوم
إذا لـم يــكن في مــدى من مــزيــد
فــلــو عــلــم الــبــدر عمَّ الــســمــاءَ
أو الــبــحــرُ جــلــل وجه الــصــعــيــد
فــكم صــبَّــحــتك بــفــتح قــريب
سُــرى لــيــلــة ذات صــبح بــعــيــد
وكم حــمــلت مــنك بــيــداءُ قــفــر
إلى الــكــفــر من يــوم حَــيْنٍ مُــبــيــد
بــكل كــمــي لأم نــزور
ومن راحــتــيك لأم ولــود

يـــجـــيب إلـــيك صـــريخ المـــنـــادي

بـــأنـــزع من قـــلب صب عـــمـــيـــد

ويَـــلـــقَى وجـــوه الأهـــاويل عـــنك

لـــقـــاء هـــوىً مـــا لـه من صـــدود

إذا قـــتل الحَـــزْن والـــســـهل وافى

نـفـوسَ الـعـدى من يـدي مـسـتـقـيـد

وكلِّ جـــــواد نمـــــته يـــــداك

فـــأعـــرق في ســـرو بـــأس وجُـــودِ

رعى بك كلُّ حــــمًى لم يــــرعـه

صـريخُ المـنـادي بـهـاد وهـيـد[1]

تـضـمـنه خـافـقـاتُ الـبـروق

تلألأُ في مُـصـعـقـات الـرعـود

وأوردتَـــهـــا كلَّ مـــاء حَـــمـــاهُ

بـــريقُ الـــســـيـــوف وزأر الأســـود

ســريت فــألحــقت لــيلاً بــلــيل

وسـرت فـوَصَّـلتَ بـيـداً بـبـيـد

كـمـا قـد وصـلتَ حـبـال الـغـريب

وقـربت مـأوَى الـقـصي الـبـعـيـد

ونـــادى نـــداك عـــلى الأرض حيًّ

عـلى مُـسـتـقَـر الـشـريـد الـطـريـد

وجـــيشٍ عـــقـــدت له في الجـــهـــاد

لـــواءً ســـمَـــا بـــوفـــاء الـــعـــقـــود

فـزاد الـضـحى من سـنـا الـشـمس نـوراً

ولـيلُ الـسـرى في نجـوم الـسـعـود

(١) هاد الرجل هيدا (بفتح الهاء وسكون الياء) وهادا وهيدا (بكسر الهاء) أي زجر الإبل واستحثها وهو مأخوذ من حكاية صوت الحداء: هيدْ.

وأصــــبـــحت أعـــلى جـــبـــال الأعـــادي

تـــزلـــزلـــهـــا بـــجـــبـــال الحــــديـــد

فـرُعتَ الـصـيـاصي بـشُـعث الـنـواصي

وأبـــنــــاء «قـــوط» بـــأبـــنـــاء «هـــود»

بــــكل نجــــيب نمى في «تُــــجــــيبَ»

بمــــجـــد الجـــدود وســـعـــد الجـــدود

له في المـــدى كلُّ بـــحـــر طَـــمـــوح

وفـــوق الـــعلا كل قـــصـــر مـــشـــيـــد

مــــنــــاقــــبــــهم لــــصـــدور الـــدهـــور

عُــقـــودٌ نُــظــمن نِــظـــام الــفـــريـــد

ومُـــلْـــك ســـلك لِـــذاكَ الـــنـــظــامِ

وأنت وســـيط لـــتـــلك الـــعـــقـــود

فـأســريت بـيــنــهمُ يــا «بن يــحــيى»

كـــبـــدر ســرى بـــين زهـــر الـــســعـــود

رجـــومـــا رمـــيت بـــهـــا في الـــضلال

عـــلى كل شـــيـــطـــان كـــفـــر مـــريـــد

تـــــذكـــــرهم بــــذُبــــال الـــرمـــاح

صِلاءَهُمُ الــــنــــارَ ذاتَ الــــوقـــــود

وتُـــرهـــقُـــهُم كل طَـــوْدٍ يـــفـــاع

يُـــمـــثـــلـــهم رَهـــقـــاً في صَـــعـــود[1]

ومـــا فـــات صـــرف الـــردى من عـــلـــيه

لـــنـــصـــرك عَـــينُ رقـــيب عـــتـــيـــد

(١) اليفاع هو المرتفع المشرف، وفي هذا إشارة إلى الآية القرآنية الكريمة: «سأرهقه صعودا» (سورة «المدثر» آية رقم ١٧)، ومعنى البيت أنك تجشمهم صعود كل حصن شامخ الارتفاع توقيا منك فتمثل لهم بذلك صورتهم في الحياة الأخرى وهم يكلفون مشقة الصعود في جبال جهنم، وقد ذكر بعض المفسرين أن صعود جبل في النار يكلف الكافر ارتقاءه والزبانية يضربونه بالمقامع، ولعل ابن دراج يشير إلى هذا المعنى.

ولـــو كـــان وعـــداً لأنجـــزتَ لـــكن
خُـلـقتَ خـلـيـقـاً بـخُـلْفِ الـوعـيـد
ولـو شِـمتَ سـيـفَك في صـدر كـسـرى
وقـيـصـرَ بـين الـطـلى والـوريـد
لمـا نـلت حـقك سـعـيـاً وهـديـاً
ولا بـعض ثـأر أبـيك الـشـهـيـد[1]
وفي الـلـه أكـفـأتَ كـأسَ المـنـام
وسُـمتَ جـفـونك فـقْـد الـهـجـود

✱✱✱✱

(١) يفهم من هذا البيت أن يحيى (بن مطرف بن عبدالعزيز) أبا منذر بن يحيى ممدوح ابن دراج توفي قتيلاً، وهذا مالم يشر إليه أي مرجع مما بأيدينا عن بني تجيب ملوك سرقسطة، إذ إن كل ما احتفظت به المراجع الأندلسية عن يحيى هذا – وجميعها يسند الرواية إلى ابن حيان المؤرخ – يقتصر على القول بأن يحيى كان «من الفرسان غير النبهاء» (انظر ابن عذاري: البيان ٣/١٧٥ – ١٧٦، ابن بسام: الذخيرة ق ١ – ١/١٨٠، ابن الخطيب: أعمال ص ١٩٦)، على أنَّ هناك مرجعاً اخر احتفظ لنا بخبر عن يحيى بن مطرف هذا هو كتاب «المرقبة العليا» للنباهي (ص ٨٣) إذ ذكر أنه كان من قواد المنصور بن أبي عامر في معركة جربيره **Cervera** التي انتصر فيها على جيوش النصارى التي ائتلفت على جمعها ممالك البشكنس (نبرة) وليون وقشتيلة سنة ٣٩٠/١٠٠٠ (انظر كذلك ليفي بروفنسال: تاريخ ٢/٢٥٤). فلعله استشهد في تلك المعركة.

(٥٥)

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى.

[من الطويل]

أخفضاً نوت فينا النوى ولعلَّها
أجدَّ بها طول السرى فأملَّها

وحاشَ لأصداء الفلا أن تصدها
بنا أو أضاليلِ الدجى أن تُضلَّها

وأحقِرْ بهول البحر أن يستكفها
وأهونْ بغَوْل القفر أن يستزلها

ولكن أيادي «مُنذرٍ» نذرت بها
فكانت لنا منها قذًى وشجاً لها

فحازت إلى عز الحياة رحالنا
وزمَّت على خزي المتالف رحلها

نحاها مقيل العاثرين بعثرة
لَعاً لِيَ منها والنوى لا لعاً لها

فكم أقفرت منا محلا وغرَّبت
وجوها[1] أجدت في الفؤاد محلها

ويا رُبَّ بلهاء الصبا عن جوى الهوى
لبستُ بها عيش الصبابة أبلها

كشفت لسهميْ طرفها عن مقاتلي
مِجَنَّ تُقًى لم يمنع النفسَ قتلها

(١) في الأصل: وجوداً، والتصويب عن «ق».

وشـكـكـنـي وجـدي بــهــا وصـبــابــتـي
أنــفـسـيَ لي إن أخــطــأ الحَــيْنُ أم لــهــا
وحـسـبـي بــهـا عـذلاً عـلـى سـلـوة الـهـوى
وعُــذراً كــفــانـي الــعــاذلات وعــذلــهــا
بــقَــدٍّ إلـى مــســتــودع الــقــلـب قـادهــا
ودلٍّ عــلـى مــســتــوطن الــنــفـس دلــهــا
ولــلــخـفـر الـسَّــحــار في وجــنــاتــهــا
خــواتِــيمُ لا يــخــفـرن مـنـيَ وصْــلــهــا
ومـا خـفـرت بـيض الـصـوارم والـقـنـا
مــحــاســنــهـا مـمـا أصـاب فَـأَوْلَــهـا
فـــلـــله من بَـــيْنٍ تـــقـــسَّم طُـــرْقَه
طــوارقُ لا يُــلــهــينَ عن لــهــوِ مَنْ لــهــا
عَلاقـــةُ حب شــدَّمــا عــلــقت بــهــا
حــبــائلُ بَــيْنٍ بَتَّ مِــنـيَ وصــلــهــا
وصـفـوُ هــوًى مـا قـرَّ حـتَّى هـوت به
حــوادث تـفـريق الـقـلـوب هَــوًى لـهـا
فـكـنـا لـهـا نـبلاً أصـابت بـنـا الـصِّـبـا
ومـا عـدلت عن رمي قــلــبِيَ نــبــلــهــا
جـسـومـاً أقـلـتـهـا الـريـاحُ فـلـم تـدع
لـــــهن من الأرواح إلا أقـــــلـــــهـــــا
نجــائبُ وصــاهــا الجـديلُ وشَــدْقم[1]
بــألا تــملَّ الــلــيل حــتـى يمــلــهــا
فــتُــخــلِقُ بــالإرقــال ثــوْبَ شــبــابه
وتــتــركه بــالأفق أشــيـب أَجْــلَــهــا[2]

(١) الجديل وشدقم اسما فحلين منجبين كانا للنعمان بن المنذر تنسب إليهما إبل جيدة.

(٢) الإرقال ضرب من العدو، والأجله مشتق من الجله (بفتحتين) وهو ذهاب الشعر من مقدم الرأس، وهو ابتداء الصلع.

تُــراوحه من خِــلــفــة الــفــجــر طُــرة

كمُعـتـرَض الـشـقـراء تـنـفُضُ جُـلَّـهـا[1]

فــكـم حــمــلـت من حُــر قــلـب مُــوله

يُــبـلـغ عـنـه الـنـجمُ قـلـبـاً مُـولَّـهـا

وكم ضم ذاك الــلــــيلُ من أمٍّ شـــادن

أضــلــته في جــوف الــفلا وأضــلــهــا

وقـد بـلَّغ الجـهـدُ الـقـلـوبَ حـنـاجـراً

تُــبـشـرهــا أن الــتــنــاهي مـدًى لــهــا

فوشكانَ يـا «منصورُ» مـا نُصرَ الأسى

بـرد أقـاصي الأرض نـحـوَك سُـبْـلـهـا

ونــادى نَــداك الــركبَ في كل بــلــدة

ألا بـلـغـوا هـدْيَ الـركـاب مَـحِـلَّـهـا[2]

فــلــبــتك من غــورْ الجلاء أهــلــة

أهل بــهــا مــأواك حــتى أهــلــهــا

كـأنـا نـذرنـا مـطـلـع الـشـمس مـنـزلاً

أَلِــيَّــةَ حَـلْف كـان وجــهُك حِــلَّــهَـا

فــآويتَ فلَّ الــنــائــبــات وطــالمــا

أبــرت الــعــدى قــتلاً وآويت فــلَّــهــا

ونــاديــتــهــا أهلاً وســهلاً ولم تــزل

أحقَّ بــهــا في الــنــازلــين وأهــلــهــا

فـظَــلَّــلْتَ من لم يُــدرك الــلــيلُ ظِــلَّه

وأغـدقتَ من لم تـلُـحقِ المـزنُ طَـلَّـهـا

---

(١) الخلفة هي البقية. والجل كساء يتخذ للخيل.

(٢) هـذا البيت مأخوذ من قوله تعالى «ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله» (سورة البقرة، آية رقم ١٩٦)، والهدي هو ما أهدي إلى مكة من النعم في شعائر الحج، وبلوغ الهدي محله هو بلوغه الموضع الذي يحل فيه نحره.

وعــوضــتــنـــا من راحـــة المــوت راحـــة
سـكـنـا بــهـا بـرد الحـيـاة وظـلـهـا
وأعـــمـــرت مـــنـــا في ذراك مـــنـــازلاً
تـفـقـدت مـثـواهـا وأرغـدت نـزلـهـا
ولم تـبـدَ من نـعـمـاك إلا بـبـعـضـهـا
ولـكـنـه عم الـرغـائب كـلـهـا
فَـرُحـنـا شُـروبـاً قـد تـأنق روضـهـا
وأنـهـلـهـا كـأسُ الـسـرور وعـلـهـا
نـدامى ولـكن من عـطـايـاك راحُـهـا
وقـد جـعـلـت من طـيـب ذكـرك نُـقـلـهـا
وخـفـت عـلـى يمـنـاك مـنـا مـطـالب
تـشـكى إلـيـنـا الـبـر والـبـحـر ثِـقـلـهـا
ومـا تَـوجـتْ هـذي الـريـاسـة سـيـداً
أكـالـيـلـهـا حـتى تحـمل كَـلَّـهـا
هي الـبـكـر مـجلاهـا حـرام محـرم
فـيـا من بمـهـر المكـرمـات اسـتـحـلـهـا
فـتـاة دعت: من لـلـحـروب ولـلـنـدى؟
فـمـا وجـدت إلاَّ «ابنَ يـحـيـى» فـتـىً لـهـا
من اخـتـرق الـدنـيـا لأول دعـوة
إلى دعـوة الإسلام فـافـتك غُـلـهـا
وشـرد أحـزاب الـعـدى عن حـريمـهـا
وأدرك من مُـسـتـأسـد الـكـفـر ذَحـلـهـا
ودوَّحَ في جـو الـسـمـاء غـصـونَـهـا
وأثـبت في بـحـبـوحـة الـعـز أصـلـهـا
ومـد هـوادي الخـيـل في طـلـب الـعـدى
فـأوطـأهـا حَـزْن الـبـلاد وسـهـلـهـا

وكم قد فدى أدنى النفوس من القنا
بنفسٍ نفوسُ العالمين فدىً لها
فلو كان للشمس المنيرة دولة
بأخرى لقيل: اصعدْ فَحلِّ مَحَلَّها!
ولو لحِقَت مجرى الكواكب خَلة
لقيل له: سُسْتَ العُلا فَتَولها
ولو قيل: زدها في هباتك واستزد
بها الحمد من هذا الورى! لاستقلها
ولو كان يرضاها نظاماً لزينة
لقيل: تَتَوَّجْ زُهرها وتَحَلَّهَا!
وَأَغْنِ به عنها وفي منطقي له
قلائدُ لا يرضى الكواكبَ بَدْلَهَا
جواهرُ لم يذخر لها الدهرُ مثله
مليكاً ولا أهدى له البحر مثلها
أُخلِّدُ فيها من نداه وبأسه
خلائق تستملي الخلائقُ فضلها
فتُحْيِي لها حسنَ الأحاديث بعدها
بإحيائها أيامَ من كان قبلها
وأُملي على الأيام آثار منعم
عليَّ بعين المكرمات أَمَلَّها
قضى الله لي منها وسائلِ نسبة
فألف في الأحقاب قولي وفعلها
ثنائي وعلياها ومدحي وفخرها
وشكري ونُعماها وحمدي وبذلها
ويا عيدَ أعيادٍ توافت فأشرقت
على الدين والدنيا وكنت أَجَلَّها

تُــخَــبِّــرُ عن جــمع المــنى فَــتَــهَــنَّــهـا
وعن عَــوْدِ أعــيــادٍ بــهــا فــتَــمَــلَّــهـا
وبــــرِّكَ لــلأضــــيـــاف قـــرّبَ بُـــعـــدهـــا
وبِـــشـــرُك بـــالـــزوار ألف شـــمـــلـــهـــا

****

(٥٦)

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى.

[من الوافر]

إلــيكَ سَــبَــقتُ أقــدارَ الحِــمــامِ
وعــنك هــتــكتُ أســتــار الــظلامِ
وفيك حميتُ مثوى النوم جفني
وأحــمــيت الــهــواجــر في لــثــامي
ونــحــوك جــبت لــيل الــبــيــد حــتى
خَــفِــيتُ عــلى المــنــايــا في الــزحــام[1]
وزاحــمت الخــطــوب إلــيك حــتى
خــفــيت عــلى المــنــايــا في الــزحــام[2]
وعــنك قــرعت مــتن الأرض حــتى
تــفــجــر بــالــريــاض وبــالمُــدام
زمــانَ جــبَــرتَ من كــبــدي صُــدوعــاً
يُــصــدِّعُ ذكــرُهــا صُمَّ الــسِّلام[3]
وحــين أســوت في قــلــبي جــراحــاً
قــلــوبُ الــكــاشــحــين لــهــا دوام
ويــوم حــمــيــتــني من كل خــطب
جــديــر أن يُــحَمَّ بِهِ حِــمــامي

(١) في هامش هذا الموضع تعليق لأحد من اطلعوا على هذا الأصل إلا أنه ذهب أوله وفيه يقول المعلق: «.... أقدار الحمام وخفيت [على المنا] يا، فلا ينبغي مثل هذا»، ويبدو أن هذا المعلق رأى من إساءة الأدب والاستخفاف بقدرة الله تعالى أن يقول الشاعر إنه سبق أقدار الحمام وإنه خفى على المنايا!..

(٢) سقط هذا البيت من الأصل، فاستلحقته من «ق».

(٣) في هامش هذا الموضع كلمة «الحجارة» وواضح أن المعلق أراد أن يفسر بها لفظ «السلام».

فــبـــين يــديك أصـــبح فضُّ شـــمـــلي
ألــيفَ الــشِّــعْب مــتــسق الــنــظــام
وعــنـــد حـــمــاك أمـــسى [نـــشـــرُ][1] سِربي
خـــصـــيبَ الـــرعي مَـــرْعِيَّ الـــسَّـــوام
وفي مــــأواك عـــاد شـــريـــد رحـــلي
عـــزيـــزَ الجـــار مـــضـــروب الخـــيـــام
ومن جـــــــدواك رُدَّ دمـي ولحـــــــمي
ومـــا انــتَـــقَت الحـــوادثُ من عـــظـــامي
فـــكـــفـــكـــفتَ الـــردى عـــنـي بـــكف
تـــثـــيـــر الـــغـــيثَ في الـــغـــيم الجـــهـــام
ولـــقَّـــتْـــني الأمـــاني مـــنك وجـــهـــاً
يـــنـــيـــر[2] الأرض في داجي الـــظلام
كـــمـــا أوثـــقتَ في حـــضـــر وثـــغـــر
عُـــرى الإسلام من بـــعـــد انـــفـــصـــام
وآويت الـــــغـــــريب وهل غـــــريب
تـــــوخَّى ركن عــــزك بـــــاســــتلام؟
بـــجُـــودٍ لا يـــضـــيع به رجـــاء
وجَـــدٍّ لا يـــريع[3] إلى مُـــســـام
وإقـــبـــالٍ تُـــشـــيِّـــعه بـــعـــزم
لأمــــر الـــلـه مـــاضي الاعـــتـــزام
وإقـــدام تـــؤيـــده بـــحـــزم
إلى الأعـــداء مـــشـــدود الحـــزام
وبـــأس هل يـــجـــيـــر الـــدهـــر مـــنه
بَـــعـــيـــدَ الـــشـــأو أو صـــعبَ المـــرام

(١) هذا اللفظ ساقط من الأصل، فأثبتناه من «ق».
(٢) في الأصل: تنير.
(٣) يريع أي يزيد.

ولــو بــلغ الــنــســورَ به نــســورٌ
وطــار به الــنــعــام إلى الــنــعــام[1]
بــكل مُــظــاهــرِ المــاذيِّ لِــبْــســاً
عــلى حَــبَــرات أَنْــعُــمك الجــســام
يــرى ثــمــرَ الحــيــاة لــديك مُــرّاً
إذا لـم يُــجْن من شــجــر الحِــمــام
وكل مــهــنــد ضَــرِمٍ شــذاه[2]
يــريك الــهــنــد في لمع الــضِّــرام
ومُــطَّــردِ الــكُــعــوب أصمَّ لَــدْنٍ
يــنــادي في الــعدى: صَــمِّي صَــمام[3]
ســفــكتَ بــهــن كل دم حلال
وصــنــت بــهــن كل دم حــرام
وجــلَّــلتَ الخُــيــول بــهــا نجــومــاً
تــطــلَّعُ في سَــمَــاوات الــقِــيَــامِ
كــتــائب يــنــتــهــبن[4] الأرض زحــفــاً
إذا أوجــسن من جــيش لُــهــام
ويــبــعــثن الــرَّغــام إلي أنــوف
وقــد عــفــرت أنــوفــاً بــالــرَّغــام
ســمــوت بــهن ســامــيــةَ[5] الــهــوادي
لــكل مُــشَــيَّــدِ الــشــرفــات ســام
حــقــوقــاً لــلــعلا خــاصــمت فــيــهــا
بمــاضــيــة الــظُّــبَى لُــدِّ الخِــصــام

(١) يقصد بالنسور الأولى النسرين وهما كوكبان في السماء يعرفان بهذا الاسم على التشبيه ويقال لهما النسر الطائر والنسر الواقع، أما النعام الثانية فمن منازل القمر ثمانية كواكب.
(٢) أي حده.
(٣) هو قول يضرب للرجل يأتي بالداهية، والصمام هي الداهية، وصمي أي زيدي.
(٤) في الأصل: يلتهبن.
(٥) في الأصل: ساميات.

وفي عـرش الـسـمـاء قـضـاء مـعط
يـديك بـهن مِـلْكَ الإحـتـكـام
فـصُـلتَ بـهـا مـلـيـكـاً ذا انـتـصـار
يـؤيـده عـزيـز ذو انـتـقـام
وأنـحى سـيـفك المـاضي عـلـيـهـا
فـعُـذن [1] بـسـيـف رحـمـتك الـكـهـام
بـطـاعـتك الـتي أثـبـتن مـنـهـا
دعـائم قـد هـوَين إلى انـهـدام
وأُبْتَ تـقـود خـيل الـله أوبـاً
شـفى الإسلامَ من حـر الأُوام
وقـد سـمـيـتـهـا في كل غـزو
مـفـاتـيح الـفـتـوحـات الـعـظـام
وكم قـودتـهـا «يـحـيى» فـحـفت
نجـومُ الـلـيل بـالـبـدر الـتـمـام
وعُـدْتَ بـهـا عـلى «حَـكَمٍ [2]» تُـعـالي
ومـيضَ الـبـرق في جـو الـغـمـام
عـروسـاً كل بـكـر أو عـوان
من الـعـطـرات بـالمـوت الـزؤام
ورُبَّ عـروسٍ فـتحٍ أبْـرزاهـا
إلـيـنـا من مـغـازيكَ الـتُّـؤام [3]
مـوشـحـةً بـأرءام وأُسْـد
مـتـوجـةً بـرايـاتٍ وهـامِ
مـقـلـدةَ الـسـبـايـا والأُسـارى
نـظـامـاً يـسـتـضـيف إلى نـظـام

(١) في الأصل: فعدن.
(٢) «حكم» هذا هو ابن منذر بن يحيى أمير سرقسطة وأخو يحيى المذكور قبله، وقد سبقت الإشارة.
(٣) أي المزدوجة جمع توأم. إليه (ص ١٣٦).

فـــمن ظـــبي غـــريـــر في عـــقـــال
ومن لـــيث هـــصـــور في خـِــطـــام
ومـــأســـور بـــقِـــدٍّ من ســـوار
ومـــكـــبـــول بـــقـــيـــد من خـِــدام[1]
حـــواسِـــرَ عن كـــواكبَ من وجـــوه
طـــوالـعَ في شـــعـــور من ظلام
رزايـــا كلِّ مُـــعْـــتـــاض المـــنـــايـــا
ســـبـــايـــا كل مـــحـــمـــود المـــقـــام
وفي الـــوجـــنـــات أمـــثـــلـــة تـــريـــنـــا
طـــعـــانَك في صـــدورهمُ الـــدوامي
كـمُـشْـعَـرِة الحـجـيج تُـسـاق هـدْيـا
إلى عـــرصـــات مـــكـــة والمـــقـــام
وقـد ضُـربتْ قـداحُ الـهـنـد فـيـهم
لأيـــســـار الحـــيـــاة أو الحِـــمـــام
فـقِـسْمٌ لـلـمـصـانع والحـشـايـا
وقـــسم لـــلـــمـــصـــارع والـــرِّجـــام
نـــفـــوســـاً دونـــهـــا مـــاتت كـــرامـــاً
وقـــد ضـــنت بـــهـــا ضن الـــلـــئـــام
فـــفـــارقْـنَ الـــديـــار بلا وداع
ولاقـــين الـــوجـــوه بلا سلام
تُـــذكـــرنـــا دواهـيَ بـــدَّلـــتـــنـــا
من الأكـــنـــان ضـــاحـــيـــةَ المـــوامي
نُـــغـــاوِرُ قَـــفْـــرهـــا والـــلـــيلُ داج
ونَـــعْـــسِفُ بـــحـــرَهـــا والمـــوجُ طـــامِ

(١) جمع خدمة (بفتحتين) وهي الخلخال.

ونــــؤنس بــــالمــــهــــالك كل نــــفسٍ
تــــوحَّشُ لــــلــــغــــصــــون بلا حَــــمــــام
ونــــنــــصب لــــلــــصــــواخــــد كل وجه
بَــــعــــيــــد أن يُــــحــــيَّــــا بــــالــــسلام
تــــغــــرب في الــــبلاد فــــأفــــردته
فــقــيــدَ الــعــز مــجــحــود الــذِّمــام
تجــــافَى الأرضُ عــــنه وهْــــوَ مُــــعْيٍ
وتجــــفــــوه المــــنــــاهل وهــــو ظــــامي
وقــد ضــرب الأسى فــيــهــا عــلــيــنــا
رواقــــاً يــــســــتــــضيء من الــــظلام
فــــمــــا نجمُ الــــهــــدى إلا ســــنــــاني
ولا فــــلق الــــضــــحى إلا حــــســــامي
وخُــــيِّــــلَتِ الأهــــلــــةُ لي قِــــسِــــيــــاً
رمــــينَ بيَ الــــصَّــــبــــا رمْيَ الــــســــهــــام
إمــــامــــاً لــــلــــريــــاح مُــــشــــرِّقــــات
و«مــــنــــذرُ» مَــــشــرِقُ الــــدنــــيــــا أمــــامي
ومــــا شِــــيَمُ الــــزمــــان رمت إلــــيه
ولــــكن رمــــيــــةٌ من غــــيــــر رام
وتــــهــــيــــامُ الــــثــــنــــاء إلى مــــلــــيك
لــه بــــالــــحــــمــــد وَجْــــدُ المــــســــتــــهــــام
فــــمــــا راع المــــشــــوقُ إلى غــــريب
ولا أصــــــــــــغــى المحــبُّ إلــى مــلام
فــيــا عــجب الخــطــوب يُــبِــحْنَ ســتــري
وقــــد أيــــقن أن به اعــــتــــصــــامي
وحــــتَّــــامَ الــــنــوى تــــهــوي بــــرحــلي
وقــــد عُــــقِــــدَت بــــذمــــته ذِمــــامي

فـــمـــا فَـــكَّتْ حُـــداءً عن ركـــابي
ولا كـــفت يمـــيـــنـــاً من زمـــامي
فـــلـــيس لـــنـــا إلى وطن مـــرد
ولا فـي دار قـــــوم مـن مُـــــقـــــام
ولا حـــلت بـــنـــا دار فـــزادت
عـــلى ذات الحـــوافـــر والـــســـنـــام
مـــخـــاض مـــا لمـــولـــده رضـــاع
وتـــرحـــال أمـــرُّ من الـــفـــطـــام
وعـــامُ مُـــقـــامـــنـــا عـــامٌ كـــيـــوم
ويـــومُ رحـــيـــلـــنـــا يـــومٌ كـــعـــام
كـــيـــومِ الـــهم لـــيس بـــذي انـــتـــقـــاص
ويـــومِ الـــلـــهـــو لـــيس بـــذي تـــمـــام
كـــأنـــا في المـــنـــازل طـــلـــعُ نـــخل
يـــوافي أهـــلَـه أمـــدُ الـــصِّـــرام
ومـــا يُـــغـــني خَـــراج من خُـــروج
ولـــيس يُـــجـــيـــر غُـــرْمٌ من غَـــرام
نُـــرَوَّعُ(1) بـــالـــنـــوى والـــذعـــرُ بـــاق
ونُـــفْـــجَـــأ بـــالأسى والجـــرح دام
ومـــا ســـكـــنت جُـــنـــوب في مـــهـــاد
ولا مُـــلـــئت عـــيـــون من مـــنـــام
كـــمـــا حُـــدِّثتَ عن لـــسع الأفـــاعي
يـــعـــاودُ ســـمُّـــهـــا عـــامـــاً بـــعـــام
فـــهل حـــول يـــحـــول بلا رحـــيل
ولـــو شـــيـــئـــاً نـــراه في المـــنـــام

(1) في الأصل: تروع.

وأَفــجِعْ بـــالـــنـــوى في دار سَـــفْـــر
فـــكـــيف نـــوى عـــلى دار الـــمُـــقـــام
ومـنْ ملَّ الجـلاءَ فــــعــــــاذ مــــــنه
بـــســـور الأمن في الـــبـــلـــد الحـــرام
وشـــــد يـــــديه في قـــــرب وبـــــعـــــد
بـــحـــبل «المـــنـــذر» المـــلك الـــهـــمـــام
وقـــــد نـــــبـــــذ الأنـــــامَ بـــــكل أرض
إلـــيك إلـــيك يـــا خـــيـــر الأنـــام
ومن ذا يـــا مـــلـــيـــكـــاً مُـــســـتـــجـــاراً
سِـــواك لـــلـــغـــريب المـــســـتـــضـــام
فـــإن هـــاج الـــرحـــيل دفـــينَ سُـــقـــمي
فـــكم دافـــعت من ذاك الـــسَّـــقـــام
وإن أَذْمُـمْ عـــوائـــدَ لـــؤم دهـــري
فـــحيٌّ عـــلى عـــوائـــدك الـــكـــرام

****

(٥٧)

وله فيها رحمهما الله تعالي وقد زيد عليه في جنان كانت بيده ليخرج عنها.

[من المتقارب]

ثـنـائي عـلـيك ونُـعـمـاك فـيـنـا
كـواكبُ تـشـرق لـلـعـالمـيـنـا
تَلألأُ بـالجـود ممـا يـلـيك
عـلـيـهم وبـالحـمـد ممـا يـلـيـنـا
جـواهـرُ فـصَّـلـتـهـا في سـلـوك
ملأن الـصـدور وَرُقْنَ الـعـيـونـا
مُـبـرِّزَةُ الـسـبق في الأولـيـنـا
ومـأثـورة الـذكـر في الآخـريـنـا
كـسـبـقك في كل عـلـيـاءَ حـتى
أضـرَّ غـبـارك بـالـسـابـقـيـنـا
فـيـا بُـعـدَ مـسـراك لـلـمـدلجـيـنـا
ويـا قـرب مـأواك لـلـرائـحـيـنـا
فـحـقـاً إلـيك رحـلـنـا المـهـاري
تـقـاسـمـنـا جـهـد مـا [قـد[١]] لَـقِـيـنَـا
أهـلـة سـفـر وقـفـر قـطـعـنـا
إلـيك الـشـهـور بـهـا والـسـنـيـنـا
نلاقي[٢] الـسـيـوف إذا مـا فـزعـنـا[٣]
ونُـسـقى[٤] الحـتـوف إذا مـا ظـمـيـنـا

---

(١) إضافة يقتضيها الوزن.

(٢) في الأصل: تلاقي.

(٣) في الأصل: فرعنا.

(٤) في الأصل: وتسقى.

فطوراً نرى العيش ظناً كذوباً
وطوراً نرى الموت حقاً يقينا

وحقاً إليك ركبنا الرياح
مطايا رحلنا عليها السفينا

كأن على لجج البحر منها
هوادجَ تخفُقُ بالظاعنينا

ولله من أمهات حَنَين
علينا الظهورَ وجُبن البطونا

تقود المنايا بها حيث شاءت
وتثني كلاكلها حيث شينا

خطوباً تباذلن منا نفوساً
جلبن لك الحمد غضاً مصونا

فغادرن أوطاننا عافيات
وجئن إليك بنا معتفينا

دياراً نسحُّ عليها الدموع
وفيها قُتلنا وفيها سُبِينا

وفيها صدقنا إليك الرجاء
وهن يُرَجِّمْنَ فينا الظنونا

أَهِمْنا بغُربتنا أم هُدينا
ومُتنا[1] بكربتنا أم حيينا

فإن يعجب الدهر أنَّا صبرنا
فأعجبُ من ذاك أنا بقينا

فهل بُلِّغَتْ عن ركاب أجرتَ
بأنْ قد سعدن بما قد شقينا

---

(١) في الأصل: وعشنا، والمعنى يقتضي عكس ذلك، وهو ما أثبتناه.

وأنَّى انـــتـــحـــيـــنـــا إلـــيكَ المـــطيَّ
كـمـا قـصف الـعـاصـفـاتُ الـغـصـونـا
دأبن كـــجـــدِّك حـــزمـــاً وعـــزمـــاً
وعُـدن كـحـلـمك عـطـفـاً ولـيـنـا
وأنك حـــيَّـــيْـــتَـــهـــا بـــالحـــيـــاة
وأمـــنـــتـــهـــا في ذراك المـــنـــونـــا
وأوطـــأتـــهـــا الـــبِـــرَّ حـــتى ســـكنَّ
وسـقَّـيْـتـهـا الجـود حـتى رَويـنـا
فـــأرضـــيت ربك في ابن الـــســـبـــيل
وفي الـعـائـلـين من المـسـلـمـيـنـا
وأحـــيـــيت في الأرض فـــضلاً وعـــدلاً
وعـطـفـاً وعُـرفـاً ودنـيـا وديـنـا
ودائعُ لـــلـــه في الـــروض ضـــاعت
وكـنت عـلـيـهـا الـقـوي الأمـيـنـا
فـــوفَّـــاك عـــنـــا الجـــزاء الجـــزيل
ولـقَّـاك مـنـا الـثـنـاء الـثـمـيـنـا
وبـــوأنـــا مـــنك جـــنـــات عـــطف
جـزاك بـهـا جـنـة الـفـائـزيـنـا
حـــدائقُ من غَـــرس يُـــمـــنـــاك وقـــفـــاً
عـلـى الـرائـحـين أو الـطـارقـيـنـا
كـــفـــيل بـــأثـــمـــارهـــا كل حـــين
غـيـوثُ سـمـائك حـيـنـاً فـحـيـنـا
وأَزْهَـــرُهـــا مـــنك لـــلـــنـــاظـــريـــنـــا
وأبـهَـرُهـا عـنك لـلـسـامـعـيـنـا
نُـــفـــجـــرهـــا نَـــهَـــراً حـــيث كـــنـــا
ونـأكـلـهـا رغـداً حـيث شـيـنـا

ذَرا جـــنـــة كـــتب الــلـه فـــيــــهـــا
لمن شـــرد الخـــوفُ حـــظـــا مـــبـــيـــنـــا
وزادت بـــــــعـــــــدلـك أُكـلاً وظـلاً
فـــزادت عـــلـى أمل الآمـــلـــيـــنـــا
رأيت لـــنـــا مـــوضع الحق فـــيـــهـــا
بمـــا قـــد أرتك المـــقـــاديـــر فـــيـــنـــا
فـــنـــادى نَـــداك بـــهـــا نـــحـــوهـــا:
سلام لـــكم فـــادخـــلـــوا آمـــنـــيـــنـــا
لـــكم ذمـــة الـــلـه في صـــدق عـــهـــدي
فلا خـــائـــفـــين ولا مُـــخـــرَجـــيـــنـــا
فـــظـــلـت تُـــنَـــفس عن روحـــهـــا
غـريـبـاً سـلـيـبـاً ونـضـواً حـزيـنـا
وتُـــبـــرِد من حـــر نـــار الـــســـيـــوف
ونـــار الـــهـــواجـــر مـــا قـــد صـــلـــيـــنـــا
فَـــنَـــسْـــلَى بـــهـــا عن ديـــار نـــأين
ونَـــغْـــنى بـــهـــا عن مـــغـــان غَـــنِـــيـــنـــا
وبُـــلْـــغَـــةُ عـــيش لمن قـــد ســـتـــرت
ضـعـاف الـبـنـات وشُـعثَ الـبـنـيـنـا
نـــعـــلـــلـــهم بـــجـــنى روضـــهـــا
إذا أوحـــشـــتـــهم عـــطـــايـــاكَ حِـــيـــنَـــا
ونَـشْـفِي بـهـا بث مـا قـد أصـبـنـا
ونـأسـو بـهـا جـرح مـا قـد رُزيـنـا
وفـــخـــراً لـــنـــا مـــنك ســـارت به
ركـاب الـتِّـهـامـين والمـنـجـديـنـا
وبـــشـــرى أهلَّ بـــهـــا الـــشـــاكـــرون
إلى من فـــجـــعـــنـــا من الأقـــربـــيـــنـــا

فما راعنا غيرُ قول الخبير
يذكرنا أسوة المؤتسينا
بآدمَ إذ أخرجته الغُواةُ من جنة الخلد مستظهرينا
ببغي حَسودٍ له طالبٍ
كما قد لقينا من الحاسدينا
فها نحن أَقْعَدُ[1] هذا الأنامِ
بميراثها مثلها عن أبينا
وهاتيك جنتُنا والتي
حبانا بها سيِّد المنعمينا
وأبيَنُ آياتنا أننا
حللنا لديه المكان المكينا
ومن شكَّ في حظنا من رضاهُ
فتلك لنا أعدَلُ الشاهدينا
قفوا فاسمعوا هدة الأرض رَجْلاً
وركباً إلى نُصبها يوفضونا
وداعي الزيادة فيها سميع
مُصيخٌ إلى ألسن الزائدينا
يُجمجم فيهم بأن قد سخِطْتَ
علينا وأنا من المبعدينا
ليجلُوَ أستارك الخُضرَ عنا
ويمحُوَ آثارك الغُر فينا
وقد أسمع الصُّمَّ فيها مناد
يؤذن: حيَّ على الشامتينا

(١) مشتق من القعيد وهو الحفيظ.

فـــمن هـــاتف زائـــد بـــالألـــوف
لـــبـغي أراه احـــتـــقـــار المـئـيـنـا
ومن كـــاشح كـــاشـــر قـــد أرته
أمـــانـــيه مـــا ظن أن لن يـــكـــونـــا
بـــذي حـــرمـــة مـــنك ألـــبـــســـته
كـــرامـــة أضـــيـــافك المـــكـــرمـــيـــنـــا
ومن حلَّ ســـتـــرَك في أهل بـــيت
بـحـبل وفـائك مـسـتـمـسـكـيـنـا
فـــيـــا مـــشـــهـــداً ســـامـــني تحت ظـــلـ
ـك خـــســـفـــاً وخـــزيـــاً وذلاً وهـــونـــا
بـــكل مُـــفـــيضٍ عـــلـيَّ الـــقِـــداحَ
لـــيـــقـــسِمَ لحـــميَ في الآكـــلـــيـــنـــا
وكل مُـــبـــيحٍ حـــمـــاك الـــعـــزيـــزَ
عـلـيـنـا لـعـاديـةِ الـمُـعـتـديـنـا
فـــمَـــدوا حـــبـــالـــهمُ طـــامـــعـــين
وألـــقـــوا عِـــصـــيَّـــهُمُ واثـــقـــيـــنـــا
....[1]

****

(١) في هذا الموضع خرم ورقة (رقم ٦٣) هي التي تشتمل على آخر هذه القصيدة وأول القصيدة التالية، وقد رمزنا إلى وضع هذا الخرم بالنقط التي وضعنا.

(١) استنتجنا من سياق ما بقي من هذه القصيدة نفسها أنها في رثاء منذر بن يحيى التجيبي (منذر الأول) الملقب بالمنصور وتهنئة ابنه يحيى الذي تلقب بالمظفر بتولي الملك من بعده. وينبغي أن تكون هذه القصيدة قد قيلت في سنة ٤١٢هـ. (١٠٢٢م) وهي سنة وفاة منذر بن يحيى الذي حكم سرقسطة مستقلاً بها منذ سنة ٤٠٨هـ. (١٠١٨م) هذا وفي جدول نسب التجيبيين أمراء سرقسطة على عهد الطوائف – خلاف كبير واضطراب أوقع في كثير من الأخطاء من أرخ لهم من القدماء مثل ابن الخطيب ومن تصدى لدراستهم من المحدثين مثل دوزي. وقد تبعنا فيما أثبتناه من هذه الأسماء والتواريخ ما أورده المستشرق الإسباني بريبتو فيفس **Antoio Priero Vives** في كتابه «ملوك الطوائف» (**Los Reyes de Taifas, ed. Madeid, 1926, PP. 43 - 45**)، وهو بحث تاريخي معتمد على دراسة النقود التي بقيت من عهد التجيبيين.

(٥٨)

[وله في رثاء منذر بن يحيى التجيبي وتهنئة ابنه يحيى بالإمارة بعده:[1]]

[من الطويل]

. . . .

ولا في سرور العيد نحن مُهنوهُ
ولا في سرير المُلك نحنُ مُحيُّوهُ

فلهفي عليه والكماةُ تهابه
ولهفي عليه والملوك مُطيعوه

ولهفي عليه والوغى تستخفه
ولهفي عليه والكتائب تقفوه

ولهفي عليه والضيوف تزوره
ولهفي عليه والركائب تنحوه

ولهفي عليه والأماني تؤمه
ولهفي عليه والخلائق ترجوه

ولهفي عليه والمصاحف حوله
يخُط كتابَ الله فيها ويتلوه

ولهفي عليه حاضراً كل مسجد
وداعوه أشياع له ومصلوه

تلَهُفَّ قلبٍ ليس يشفي غليله
سوابق دمع لاعجُ الحزن يحدوه

وأشكو إلى الرحمن ترحة فجعة

(١) في الأصل: لهدا، ولعل الصواب ما أثبتنا.

بمن لم يـبت داع إلى الله يشكوه
وأدعو لديه فوز رَوْح وراحة
لمن لم يزل يدعو إليه ويدعوه
وإن جل فينا فقده ومصابه
ليبلُوَنا في الصبر عنه ويبلوه
فقد عوض الإسلامَ من فقد نفسه
هلالَ سماء لا يضل مُهِلُّوه
وبحراً سقاكمِ ريَّ جُود وأنعم
فسَقُّوهُ إخلاص الصدور وَروُّوه
وسيفاً حباكم صفحَهُ ومضاءه
فصوغوا له حُرَّ الوفاء فحُلُّوه
فقد حَتَمَ الدهرُ الذي حل خطبه
بأنْ ليس إلا «بالمظفر» يجلوه
ومن كان لا يعدو الرياسةَ سعيُه
فليس تباشيرُ الرياسة تعدوه
بهدي من «المنصور» ليس يضيعه
على سنن من سعيه ليس يألُوه
فلولاك يا «يحيى» لهُدت[1] لفقده
ذُرى عَلَمٍ أذواؤُك الغُر بانوه
ولولاك يا «يحيَ» لماتَ بموتِهِ
رجال بأحرار القلوب مواسوه
وما رغبوا عن نفسه بنفوسهم
وقد ذاق طعم الموت حتى يَذُوقُوه
وَوِدّعَتِ الأرواحُ عند وداعه
وضل سبيلَ الصبر عنه مُضلوه

وقلبتِ الدنيا قلوباً وأنفساً
فلا العيش محبوب ولا الموت مكروه
فلا فضنا دهر وأنت تلمنا
ولا مضنا جرح ويمناك تأسوه
ولا وُقِيَ الإشراكُ ما منك يُتَّقى
ولا عدم الإسلام ما منك يرجوه

****

(٥٩)

وله في المظفر يحيى بن المنصور رحمهم الله تعالى في عيد والمنصور غائب في غزاة رحمه الله.

[من الطويل]

لـيَـهْنِ لك الـعـيـدُ الـذي بك يَـهْـنـيـنـا
سلامـاً وإسلامـاً وأمـنـاً وتـأمـيـنـا

ولا أُعْـدِمت أسـماؤكم وسـماؤكم
نجومَ الـسـعـود والـطـيـورَ المـيـامـيـنـا

بمن يَـمُـنت أيـامُـنـا وتلألأت
بـنـور المـنـى والمـكـرمـاتِ لـيـالـيـنـا

دعـانـا وسـقَّـانـا سِـجـال يمـيـنـه
فسَـقـيـاً لـسـاقـيـنـا ورعـيـاً لـراعـيـنـا

ومُـلـكـاً وتـمـلـيـكـاً وفَـلْـجـاً وغِـبـطـة
وعِـزا وإعـزازاً ونـصـراً وتـمـكـيـنـا

دعـاءٌ لمن عـزت به دعـوةُ الـهـدى
يـقـول له الإسلام: آمـينَ آمـيـنـا!

فـتًى مـلـك الـدنـيـا فـمـلـكـنـا بـهـا
وجـاهـد عـنـا يـنـصـر الملكَ والـدِّيـنـا

---

(١) جمع شفنين، وهو طائر عده الجاحظ من أنواع الحمام (انظر الحيوان، ط. القاهرة سنة ١٩٦٨ – ٣/١٤٦، ٥١٦)، وقال النويري إنه من الطير التي تترنم وإن صوته في ترنمه يشبه صوت الرباب (نهاية الأرب، ط. القاهرة سنة ١٩٣٣ – ١٠/٢٦٠)، وذكر الدميري أن بعضهم يقول إنه هو الذي تسميه العامة باليمام (حياة الحيوان الكبرى ط. القاهرة سنة ١٨٧٥ – ٢/٥٨)، وقد ضبط النويري هذا اللفظ بضم الشين بينما ضبطه الدميري بكسرها. وانظر كذلك دوزي: ملحق القواميس العربية ١/٧٧١.

فــقــلــد أعــنــاق الأســود أســاوداً
وحــلَّى أكُفَّ الــدارعــين ثــعــابــيــنــا
وخلَّى القصورَ البِيضَ والبِيضَ كالدمى
لـبِـيضٍ يُـكشِّـفْن الـعَـمَى ويُـجـلِّـيـنـا
إذا مــا كــســاهــا من دمــاء عــداته
سلـبن هـواه الـغـيـدَ والخُـرَّدَ الـعِـيـنـا
وعَـطَّلَ أشـجـارَ الـبـسـاتـين واكـتـفى
بمـشـتـجـر الأرمـاح مـنـهـا بـسـاتـيـنـا
لـيـسـتـفـتح الـورد الجـنـيَّ من الـطُّـلى
ويــشــتـم أرواحَ الــعــداة ريــاحــيــنــا
ويــســمع من وقع الـقـنـا في نــحـورهـا
حـمـائمَ في أغـصـانـهـا وشـفـانـيـنـا[1]
يــســيــرٌ عــلــيه أن يــســيــرَ إذا الــدجى
كسـا بـالجِلالِ الـبِـيضِ أفراسه الجـونـا
ســرى لــيلَ كــانــو نــين لم يــدخــر له
سـوى الجـو كِـنّـاً والـنـجـومَ كـوانـيـنـا
قــريب ومــا أدنــاه من صــارخ الــوغى
بــعــيــد ومــا أدنى له صــوتَ داعــيــنــا
وإن شـــئت لم تـــعـــدمك غُـــرة وجـــهه
أنــاسيَّ من أحــداقــنــا ومــآقــيــنــا
ومـــثـــواه في الأرواح وسْط صــــدورنــا
ومـجـراه في الأنـفـاس بـين تـراقـيـنـا
ونِـعْمَ كـفـيلُ الـشـمس حـاجـبُـهـا الـذي
يُـشـيِّـعـنـا فـيـهـا ويـخْـلُـفُـهـا فـيـنـا

---

(١) في الأصل: فتُؤسونا.
(٢) مشتق من الإحفاء وهو المبالغة والإلحاح في القطع.

يطالعنا في نورها فيعمنا
ويسمو لنا في شِبهها فيُسلِّينا
وصدَّقَ فينا ظنُّها حين صدقت
سحابُ نداه ما النفوسُ تُمَنِّينَا
وقد أثمرت فينا يداه بأنعُم
تَساقَطُ في أفواهنا قبْلَ أيدينا
وذكَّرَ منه الصومُ والفطر هديَه
وجمعُ المصلى وابتهال المصلينا
ومقعده في تاجه وسريره
ليوم السلام وازدحام المحيينا
فَمُلِّيتُمُوها آل «يحيى» تحية
تُحَيَّوْن بالمُلك التليد وتُحْيُونا
وتُرْجَون للجُلَّى فنعم المُجَلُّونا
وتُدعون للنعمى فنعم المجيبونا
تُشَرِّدُ آفاقُ البلاد فتُؤونا
وتجرَحُ أيدي النائبات فتأسونا[1]
تُداوون من ريب الزمان فتشفونا

(*) هو سليمان بن محمد بن هود الجذامي كان من كبار الجند بالثغر الأعلى في آخر أيام الدولة العامرية، فلما وقعت الفتنة غلب على مدينة لاردة **Lerida** وقتل القائم بها أبا المطرف التجيبي، وقد كان له مشاركة في أحداث الفتنة إنه كان في جملة من أيدوا عبدالرحمن بن محمد الملقب بالمرتضى، فقد انتظم في جيشه الذي قام بجمعه له منذر بن يحيى (الأول) وخيران العامري، وذلك في الوقعة التي انتهت بهزيمة ذلك الجيش وقتل المرتضى على أسوار غرناطة سنة ٤٠٩ (١٠١٩)، على أن سليمان آوى بعد ذلك أخاً لعبدالرحمن المرتضى هو هشام ابن محمد الذي استدعي بعد ذلك إلى قرطبة لتولي الخلافة وتلقب باسم «المعتد بالله» سنة ٤١٨ (١٠٢٧)، وبقي على لاردة طوال حكم منذر بن يحيى الأول وابنه يحيى بن منذر المظفر بسرقسطة (ت ١٠٣٥/٤٢٧)، وكذلك طوال حكم منذر بن يحيى (الثاني) (من سنة ٤٢٧ إلى ٤٣١ / ١٠٣٥ – ١٠٣٩)، فلما قتل هذا استولى سليمان على سرقسطة وأعمالها مؤسساً بذلك الدولة الهودية.

أما هذه القصيدة فينبغي أن يكون نظمها في فترة حكم يحيى بن منذر المظفر بين سنتي ٤١٢ و٤٢٧ ويبدو أن العلاقات بين سليمان بن هود والتجيبيين بسرقسطة لم تكن دائماً طيبة برغم صلة النسب والجوار بينهما مما تدل عليه هذه القصيدة نفسها. (عن سليمان بن هود راجع ابن عذاري: البيان ٢٢١/٣ – ٢٢٢ وابن الخطيب: أعمال ص ١٧٠ – ١٧١. **Prieto y Vives: os Reyes de Taifas, PP. 45 - 4**).

وتـسـقـون من كـأس الـحـيـاة فـتُـروونـا

حُـفـاةٌ[2] المحـزِّ في عـظـام عُـداتـكم

ولـكن عـلـى الإسلام هـيـنـون لـيـنـونـا

فـلـو لم تـلـونـا مـالـكـين لـكـنـتـمُ

بـأخلاقـكم سـاداتِـنـا ومـوالـيـنـا

ولـو لم نـكن في حـمـدكم كـيف شـئـتمُ

لـكنـتم لنـا في الـصـفح عنـا كـمـاشـيـنـا

وحُـبـكمُ في الـلـه أزكى فـعـالـنـا

وطـاعـتـكم في الـلـه أعـلَى مـسـاعـيـنـا

****

(٦٠)

وله فيه رحمهما الله حين قدوم ابن هود[*] عليه سرقطة:

[من البسيط]

الآن رُدَّ عـنـانُ الـمُـلك في يـدِهِ

وعـاد نـور الـهـدى في جـفن أرمـدِهِ

ولاح قـائـد ذاك الـثـغـر أوْحـدُهُ

في قـصـر مـالك هـذا المـلك أوحـده

وعْـدٌ من الـلـه في إعـزاز دعـوته

وحـاش لـلـه من إخلاف مـوعـده

---

(١) في الأصل: الأمن، ولا يستقيم بها الوزن، ولعل الصواب ما أثبتنا، وقد تكون أيضاً «الأماني».

(٢) في هذين البيتين إشارة إلى سليمان بن محمد بن هود الجذامي.

(٣) في الأصل: بسمع.

فَلْيَهْنِكَ اليومَ يا شمس الوفاء له
بدر دنا منك طَلاَّباً لأسْعُده
قادت إليك به في عهد مُوثِقه
قلائدٌ لم يُضِعْها في مُقَلِّده
دخائر لك ممن أنت فاقدُه
ووارث الملك عنه غيرُ مُفْقِده
محفوظة عند حُر لا يحور به
عن يومه لك ريبُ الدهر في غده
شمل من الدين منظوم له وبه
في حبل عهد مُمَرٍّ الفتل مُحْصَدِه
من كلِّ عاقد ميثاقٍ يداً بيد
لم تخلُ فيها يد الرحمن من يده
رأى نظامَ الأمان[1] في تألفِه
فطار نحوك خوفاً من تبدده
هَدْياً تلقى هُداه في اسم والده
وشيمة شمَّها في رَوْح مولده
واسمٌ من السَّلْم والإسلام أنشأه
بدء «من الصِّدق عوادٌ بأحمده[2]
في زهرة من وفاء العهد فاح بها
غمام أنعمكم في روض محتده
لم تُنبِتِ الدمنُ السفلى مراعيَها
ولا رعى في حماها كيدُ حُسَّده
مُصغ إليك بسَمْعَيْ[3] سامع أَذِنٍ
ومُبْهَم الباب للواشين مُوصَدِه
ورافعٌ لك من إذعانِه علَماً

كـمُـوقَـدِ الـنـار في عـلـيـاءِ مَـوْقِـدِه
يـبـأى بـذكـرك في أعـواد مـنـبـره
حـقـاً وبـاسـمك في أسـمـاع مـسـجـده
مـهـنـداً لك في يُـمـنـاك قـائـمُه
وعِـزُّ نـصـرك في حـدَّيْ مـهـنـده
تـغـمـدته أيـاد مـنك أوضـحَـهـا
إلى عـداك بـسـيف غـيـر مـغـمـده
وفي خـيـولك حـاز الـدربَ يُـصـعِـقُه
بـكل مُـبـرق غـيـم المـوت مُـرْعِـده
وعن قِـسِـيِّكَ رامى الـرومَ مـنـتـحـيـاً
بـكل نـافـذ وقع الـنـصل مُـقـصِـده
وفي سبـيلك خـاض الـبـحـر مـقـتـحـماً
سُـبْلَ الجـهـاد إلى غـايـات أَجْـهـده
مُـغَـمضَّ الـطـرف عن أغـراض أقـربه
سـامي الجُـفـون إلى آفـاق أبـعـده
فـلـيس هـادي الـقـطـا شـرَّابَ أنـقُـعِه
ولا مُـنـيـفُ الـربى طلاَّعَ أنجُـده
وإن أولَ مـقـتـول بـفـطـرته
شكٌّ من الـغـدر أرداه ولـم يَـده
حـتى إذا الـنـأيُ أدنى من تـوحـشِه
وفلَّ قـتـل الأعـادي من تجـلـده
وغـره بـعـد عـهـد مـنك أذكـرَهُ
عـهـداً لـقـربك يـبـلى في تـعـهـده
ثـنى إلـيك به من تحت رايـته
رأيٌ رأى في سـنـاه نـصح مـرشـده
كـأن من وجـهك الـوَضَّـاح قـابـلهُ

نـــور أنـــار إلـــيه وجهَ مـــقـــصِـــدِهِ

حـتى اسـتــهل إلى يمـنــاك مـقـتـبلاً

مـــنـــهـــا لأيمَن إهلال وأســـعَـــده

مـستـفـتحـاً منك بـاب الـعز مـبـتدراً

في بــاب ســدتك اســتــكــمــال سَــوْدَده

قـــد شق درع الـــتـــوقي عن تـــوقـــعه

وجــاب غـــيب الـــتـــظـــني عن تـــودده

إذْ لم تــرم خــيــلُك الــعُــزَّى بمــكــلــئه

ولـم يُـضِعْ ثــغــرَكَ الأعــلـى بمــرصــده

فـأيُّ شـمس أضـاءت قـبل مـطـلـعـهـا

لـه وبـــحـــرٍ ســـقـــاه قـــبل مـــورده

مُـــقـــدِّمـــا لـــســـنـــاه قـــبل مـــقـــدمه

ومُـشـــهِـداً بــرضــاه قـبل مـشــهـده

فـــأي مـــولى تـــلـــقَّـــاه فـــأســـمـــعه

من بـين شـيـعـته الـدنـيـا وأعـبُـدِهِ

بُـشْـراكَ هـذا حِـبـاءُ الـبِـرِّ فـاحْـتَـبِهِ

مـــني وهـــذا رداءُ الـــعـــز فـــارتَـــدِهِ

فـابـلُغْ قَـصِيَّ الأمـاني يـا «مـظـفـرُ» في

مُـظـفـر المـقـدم الأقـصى مُـؤيَّـدِهِ

في أكـرم الـذكـر في الـدنـيـا وأخـلـده

وأسـعـد الجـد في الـدنـيـا وأصـعَـدِهِ

****

(٦١)

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى.

[من الكامل]

الشمس شاهدة وإن تك واحِدَهْ
فشهادة الإقرار أعدل شاهدَهْ

عرفتك فاعترفت بأنك واحد
فينا كما هي في الكواكب واحده

فغدوتما صنوين إن يُبعدهما
نأي الديار فما الصفات مُباعده

متناسبين إلى أخوة فطرة
ليست لها فطر العقول بجاحده

متقاسميْ خطط العُلا لا حاسداً
فضلاً عليه لها ولا هي حاسده

إن راق حاجبها «فيحيى» حاجب
ورث الحجابة والرياسة والده

أو تَجْلُ راكدةَ الدجى فلكم جلا
«يحيى» بها ظلم الخطوب الراكده

أو تمحُ نورَ النيرات فكم عفا
نورَ الضلال رسومَه ومعاهده

أو تهوِ في فلك البروج فكم هوى
بالسيف يضرب قِرنه ومُعانده

أو تشف في كبد السماء فكم شفى
كبداً لأوجال الهموم مُكابده

ولربما احتجبت لنا شمس الضحى
في دجن بارقة السحاب الراعده
فسحابك الرهج المثارُ من الوغى
وبروقك الهندية المتجالده
وإذا تناهت في علو بروجها
بالسعد بادئةً إليك وعائده
فلك العوالي يا «مظفر» أسعد
ولك المراتب في العلو الصاعده
والشمس زائلة وعهدك ثابت
وتغيب عنك ومأثراتك شاهده
تتناسخ الأزمان من آياتها
سُوراً تخلدها القرون الخالده
وورثت عنها يا «مظفر» دولة
دانت لعزتها الملوك العانده
مُلكاً رفعت على القنا شرفاته
وجعلت حِلمك أسه وقواعده
فملأت أحناء الصدور محبة
وسللت أحقاد القلوب الحاقده
ووفيت للدنيا بعهد مكارم
سقت البلاد عهادها المتعاهده
شيماً عمدت بها علاك فأصبحت
عَمَداً لها فوق الخلائق عامده
وتركتها في كل أفق نازح
موجودة ولكل حمد واجده
فبها وسعت الأمنَ أمةَ فتنةٍ

(١) الأز هو التهييج والتحريك الشديد.

نعمت بعطفك في الظلال البارده

وبها أنمت جفون عين ساهده

وبها ذعرت جفون عين هاجده

وبها أهلَّ إليك أملاك العدى

تدعوك من أقطارها المتباعده

من عائذ بك منك بات يؤزه[1]

روع تذوب له الصخور الجامده

أو نازع فزع إليك حياتُه

من حية في قلبه لك راصده

أو غُرة جُعلت لسيفك عُرَّةً

إن لم تخرَّ إلى جبينك ساجده

ولمثلها قاد «ابن شنْجٍ» نفسَه

وجنودَه في طاعة لك قائده

يرتاد روضاً من رضاك ولم يجد

إلا هداياه إليها رائده

فغدا يكايد عن كرائم ذخره

نفساً له عن بذلهن مُكايده

حتى اصطفى لك من صوافن خيله

عِلقاً له لم يدخرك فوائده

خيلاً تُصاد بها الظباءُ وفوقها

فرسانها أشباه ما هي صائده

---

(١) الزمع هو المضاء في الأمر والعزم عليه، وهو كذلك جودة الرأي.

(٢) مائدة الأولى اسم فاعل من مادت الأرض، أما الثانية فيعني بها مائدة الطعام.

(٣) في الأصل: مقصورة، ونظن أن الصواب ما أثبتنا، فالشاعر أراد أن يقابل بين «مقصوده» و«قاصدة» الواردة بعد.

حـــتى إذا أدنــــاه إذنُك أقـــبـــلت
تــهــفــو به أنــفــاسه المــتــصــاعــده
ســمْــحــاً بــأن أعــطى يــديك قــيــادَه
لَــهِــجــاً بــأن ألــقى إلــيك مــقــالــده
ورأى فــرائــصه لــســيــفك فــرصــة
وفــؤادَه لــســنــان رمــحك فــائــده
فــدنــا به زَمَعٌ[1] الــرجــاء كــأنمــا
أحــشــاؤه عــزمــاته المــتــفــاقــده
لا ثــغــر دونك غــيــر ثُــغــرة نــحــره
إلا رجــاءَ عــوائــدٍ لك عــائــده
ولــقــد لــبــست إلــيه من حــلل الــهــدى
نــوراً ثــنى نــار الــضلالــة خــامــده
وملأت عــيــنــيه بمــا ملأ الملا
أســداً لأقــران الحــتــوف مُــســاوده
رمــقــوا صــفــوف جــنــوده من فــرسخ
فــأرتك إجــفــال الــنــعــام الــشــارده
حــتى بــســطت لخــاضع ومُــقــبِّل
كــفــا لــسيف الــبــأس عــنــهم غــامــده
فــدنــوا يــرون الأرض مــائــدة بــهم
ذعــراً ووشــكــا مــا رأوهــا مــائــده[2]
خِــصــبــاً لــهم بــالــنــزل أُرْغِــدَ أُكْــلــهُــا
لــلــمــعــتــفــين ولــلــجــنــود الــوافــده
ومــــواردٌ حطَّ «ابنُ شَــنْــجَ» رحــالَه
ورجــاله فــيــهــا مــحط الــوارده

---

(١) ترقيم أوراق المخطوط هنا مطرد متتابع، فالورقة التي تتلو هذه التي أثبتنا آخرها (رقم ٦٦) تتلوها ورقة تحمل رقم ٦٧، على أن هناك رغم ذلك خرما في هذا الموضع قد يكون ورقة أو أكثر، وقد رمزنا إلى هذا الخرم بالنقط التي وضعنا في مكانه.

صُـنـعـاً لمن أحـيـا بـدولـتك الـورى
فـسـقى بـيـمـنك كل أرض هـامـده
فـاسـلم ولا زالت قـصـورك لـلـمـنى
مـقـصـودة[٣] وسـهـام عـزمك قـاصـده
تُـصـمـي بـسـعـيك كل أنف شـامخ
قـهـراً وتـفـقـأ كل عـين حـاسـده
واسـلم ولا نـقـصت لـدهـرك سـاعـة
إلا وكـانـت في بـقـائك زائـده

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى[١].

....

****

(١) في الخرم الذي أشرنا إليه في الحاشية السابقة ذهبت قصيدة أو أكثر في مدح يحيى المظفر بن منذر التجيبي، كذلك سقط فيه صدر القصيدة الدالية التي نرى باقيها في أول الورقة رقم ٦٧، على أننا استطعنا لحسن الحظ أن نستكمل النقص الواقع في هذه القصيدة من كتاب «يتيمة الدهر» للثعالبي، فقد كانت ضمن ما انتخبه من شعر ابن دراج (انظر اليتيمة ٢/١٠٨ – ١٠٩)، كما أنناا ستنتجنا من أبيات القصيدة أنها في مدح منذر بن يحيى بن منذر التجيبي حفيد منذر الأكبر أو الأول، وهو الذي ولي حكم سرقسطة بعد وفاة أبيه يحيى المظفر في سنة ٤٢٧ (١٠٣٦)، وقتل في سنة ٤٣٠ (١٠٤٠) على يد عبدالله ابن حكم، وإنما استنتجنا أن القصيدة في مدح منذر هذا من قول ابن دراج فيها:

وسما للإسلام باسم أبيه — وانتحى باسم جده للأعادي
فهو للدين بالحياة بشير — وهو للشرك منذر بالنآد

وفي ذلك إشارة واضحة إلى اسمه واسمي أبيه وجده، وواضح أن الشاعر وجه هذه القصيدة إلى أبيه يحيَى بن منذر، ولعلها كانت بمناسبة توليته منذراً عهده وتلقيبه «المنصور» كما يبدو من سياق القصيدة.

(٦٢)

[وله في منذر بن يحيى بن منذر التجيبي][1].

[من الخفيف]

بَشِّرِ الخيلَ يوم كرِّ الطراد
وظُبى الهند عند حَرِّ الجلادِ
وسماءَ العلى بنجم المساعي
ورياضَ المنى بصوب الغوادي
ثم واف القصورَ من مُلك بُصرى
بالمَشيدات من ذُرا شداد
ثم نادِ الأذواءَ عن ذي الرياسا
تِ نداءً يُصغي له كلُّ ناد
وصلتكم أرحامُ ملك نمتكم
من كرام الأملاك والأجواد
وهناكم «منصورُكم» من تُجِيبٍ[1]
في مساعٍ جلت عن الأنداد
بلغت مجدكم نجومَ الثريا
ومساعيكُمُ أقاصي البلاد
ونمى منكمُ إلى المُلك سيف
نافذ الحكم في رقاب الأعادي

---

(١) يت: من نجيب، ولعل الصواب ما أثبتنا، إذ إن الشاعر يشير إلى أصله من هذه القبيلة.

(٢) يت: هو للبين.

(٣) يت: بالبواد.

بـــســمـــات أهــدت لــكم هَــدْيَ «هــود»
وبـــــحِـــــلم أعـــــاد أحـلام عـــــاد
وأنـــــارت بـه نجـــومُ المــــعــــالي
وأنـــار الـــدنـــيـــا بــبــيض الأيـــادي
وهـــو في المــنــجــبــين أعــلى وأزكى
والـــــــــد، أنـت أكـــــــرم الأولاد
قـــمـــر في مـــطـــالـع الـــمُـــلْكِ أوفى
طـــالـــعـــاً والمـــنى عـــلى مـــيـــعـــاد
وتلاقت زهـــر الـــنـــجـــوم عـــلـــيه
بـــســـعـــود الجـــدود والأجـــداد
وســـــمـــا للإسلام بـــاسم أبـــيه
وانـــتـــحى بـــاسم جـــده لـلأعـــادي
فـــهـــو لـــلـــدين[2] بـالـحـيـاة بـشـيـر
وهـــو لـــلـــشـــرك مـــنـــذر بـــالـــنـآدِ[3]
ســـابق الـــشـــأو لم يـــؤخِّـــر مـــداه
عن مــــداكم تـــــأخـــــرُ المـــــيلاد
ولـــدته الـحـــروبُ مـــنـــكم تـــمـــامـــاً
فـــارسَ الخــــيل فـــارسَ الآســـاد
واكـــتـــسى[1] الـــدينُ مـــنه ثـــوب ســـرور
وصـــلـــيبُ الـــضلال ثـــوبَ حـــداد
فـــهـــنـــيـــئـــاً لـــلـــتـــاج أي جـــبـــين
عـــنـــده أي عـــاتق لـــلـــنـــجـــاد
وهـــنـــيـــئـــاً لـــنـــا ولـــلـــدين والـــدنـ
ـــيـــا ولـــلـــبـــيض والـــقـــنـــا والجـــيـــاد
وغـــــريبٍ تـــــهـــــوي بـه كل أرض

---

(١) يت: فاكتسى.

(٢) يت: وإياد.

وشـــريـــد يـــنـــبـــو به كل واد

وهـنـيـئـاً لـطـيءٍ ولـهـمـدا

نَ ولخم وكـــنـــدةٍ ومُـــراد(٢)

****

(١) ورد اثنا عشر بيتاً من هذه القصيدة في إحدى النسخ المخطوطة من الذخيرة لابن بسام (نسخة ليفي بروفنسال)، وقد أثبتها محققو الكتاب في الحاشية انظر الذخيرة طبعة جامعة القاهرة، ق ١ – ٢٥٩/١، أما ممدوح ابن دراج في هذه القصيدة والذي يعود عليه ضمير الغائب في عنوانها فإنما يعني به يحيى بن منذر، وكذلك الأمر في القصائد التالية.

(٢) ذخ: انعم بحمام حمي لك ماؤه.

(٣) ذخ: شامه.

(٦٣)

وله فيه رحمهما الله يصف حماما بناه[١].

[من الكامل]

اِســـعَـــدْ كـــمـــا ســـعـــدت بك الأيـــامُ
واســـلـم كـــمـــا بك يـــســـلـمُ الإسلامُ
وابـــهـــر بمـــلـك ثـــابت أركـــانُـه
في بـــاذخ لـــلـــعـــز لـــيس يـــرام
وانـــعم بـــحَـــمَّـــامٍ حِـــمًى لك فـــألهُ[٢]
وعـــلـى عـــدوك تـــرحـــة وحِـــمـــام
ممـــا بـــنـــتـه لك الـــســـعـــود وأبـــدعت
فـــيـه المـــنـي وتـــأنق الإحـــكـــام
وتـــدفـــقت فـــيه المـــيـــاه كـــمـــا جـــرى
في كـــفك الإفـــضـــال والإنـــعـــام
مـــتـــألـف الأضـــداد إلا أنـه
فـــيـه طـــبـــاع زمـــانـه أقـــســـام
فـــكـــأن ســـيـــفك في يمـــيـــنك شـــاده[٣]
حـــتـى الـــتـــقـى فـــيه نـــدى وضِـــرام

---

(١) ذخ: لمبعث.

(٢) ذخ: وكأن فيه من الربيع سجية.

(٣) ذخ: حر.

(٤) ذخ: وكأنه.

(٥) ذخ: هذا.

(٦) ذخ: فكأنما.

وكـأنمـا يـسـري لـمُـثْـعَب[١] مـائه
ديم يُـخـالط بـرقـهن غـمـام
مـتـفـرجُ الأبـواب عن صـحن ثـوى
فـيه الـصـبـاح وشُـرد الإظلام
وتـخـيـلت فـيه خـيـولُك خـافـقـاً
من فـوقـهـا الـرايـات والأعلام
يـتـلـوه مُـنـفـجَـرُ المـيـاه كـأنـهـا
من فـيض جـودك في الأنـام سـجـام
وتـلـيه من جـوالـربـيع سـجـيـة[٢]
فـيـهـا تـسـاوى الـلـيل والأيـام
مـفض إلى شـكل[٣] الـهـجـيـر ونـارهُ
بـرد عـلـيك وإن غـلـى وسلام
فـكـأنه[٤] صـدر المـتـيم هـاجه
من ذكـر من يـهـوَى جـوى وغـرام
وتـألـفت من مـائه ورُخـامه
شـكلان تُـشـِكلُ فـيـهـمـا الأوهـام
هل تحت ذاك[٥] المـاء مـاء جـامـد
أم ذاب من فـوق الـرخـام رخـام
وكـأنمـا[٦] ريق الحـبـيب جـرى عـلى
ثـغـر كـمـا نـظم الـفـريـدَ نِـظـامُ
فـهـو الـذي لـهـوى الـنـفـوس هـواؤه
تـرتـاحه الأرواح والأجـسـام
وهـو الـزمـان شـتـاؤه ومـصـيـفه
وخـريـفه وربـيـعه الـبـسـام
وهـو الحـيـاة نـعـيـمـهـا ونـسـيـمـهـا

وســــــرورهـــــا لـك ســــــرمــــــد ودوام

فـــانـــعم بـه وبـــكل زهـــرة عِـــيـــشـــة

مــا غــردت فــوق الـــغـــصــون حَــمــام

✸✸✸✸

(١) في الأصل: ولسان.

(٦٤)

وله فيه رحمة الله عليهما ووصف شراعاً كان صنعه.

[من البسيط]

أيَّ شراع لأي بحرِ
وأي كِسف لأي بدْرِ
وأي شمس تجللتها
طرة صبح سمَتْ بفجر
ظِلا لمن مد ظل أمن
في كل أرض وكل ثغر
وسترَ صَون لوجه مولًى
به رعى الله كل ستر
تُشرق منه بنور هدي
وبرق غيث وسيف نصر
كأنما ظللت عليه
سحابة مدها بقطر
أو روضة في الهواء حُفَّت
من طِيبِ أخلاقه بزَهر
كأنما الريح في ذُراها
راحٌ تريه انثناء سُكر
أو كيف يهتز إن دعاه
صوت وغى أو[1] لسانُ شكر
مظفر حاز تاج مُلك

كُـــــلل من نـــــظم كل فـــــخـــــر
فـــالـــله يمـــلي له الـــلـــيـــالي
في عـــز مـــلك وطـــول عُـــمـــر

****

(١) المؤيد الأمر العظيم أو الداهية.

(٢) الأسل الصمع أي الرماح الصلبة المكتنزة الجوف اللطيفة العقد.

(٦٥)

وله فيه أيضاً رحمهما الله سنة ست عشرة وأربعمائه

[من الطويل]

خلا الدهر من خطب يضيق له ذرعي
ومن طارق للهم يعيا به وُسعي
ومن مُؤْيِدٍ[1] صماءَ تقصُرُ من يدي
ومعضلة دهياءَ تكبرُ عن دفعي
ومن فزع ينزو لروعته دمي
ومن نبأة يستك من ذكرها سمعي
وكيف ودوني سيف «يحيى بن منذر»
بعيدُ المدى ماضي الشبا ساطع اللمع
إذا انهل في الإسلام أرغد بالحيا
وإن حل في الأعداء أرعد بالصقع
سناً لو عدانا منه أن يجلُوَ العمى
لأشرق في النجوى وأُبْصِرَ بالسمع
تخللتُه من ليل هم كأنما
به تَم ليلُ التم قطعاً إلى قطع
وشمت وراء الموت بارقة الحيا

---

(١) المور هي الرياح الشديدة المحملة بالغبار.

(٢) في الأصل: بي ولا يستقيم بها الوزن والمعنى، ولعل الصحيح هو ما أثبتنا.

(٣) الشملة هي الناقة الخفيفة السريعة.

(٤) الردع هو العنق، ويقال ركب ردعه إذا خر صريعاً لوجهه على دمعه وعلى رأسه وإن لم يمت بعد، غير أنه إذا هم بالنهوض خر على مقاديمه.

وآنست من نار الوغى يانع النبع

وقد نفقت بي سوق موت يقودها

سنا البارقات الصم والأسل الصُّمعِ[٢]

أُغالي بأثمان النوى بائع الردى

وأُضعف صرفي ناجزَ الدم بالدمع

لخطب أبوه البغي والحرب أمه

ودرت عليه فتنةٌ حافلَ الضرع

فَوَشْكَانَ ما شَدَّدْتُ حيزومَ حازم

على كبد للبين بائنةِ الصدع

وقلتُ لمغنَى الدار: ربعَكِ والبِلى!

وللمُورِ[١] والإعصار: شأنكِ بالربع!

لعلكما أن تخلُفا في معاهدي

زوافرَ صدري والسواكبَ من دمعي

وأن تؤنسا ما أوحشت منيَ[٢] النوى

وأن ترقعا ما مزق الدهر من جمعي

ولا زاد من دار الغنى غيرُ حسرة

تجرُّعُها حسبي وكظمي لها شرعي

بلاغاً لأقصى ما لعُمريَ من مدى

ومُبلغُ أنأى ما على الأرض من صُقع

طوارقُ لم أُغمض لهن على القذى

جفوني ولم أَرْبَع لهن على ضِلع

مددتُ بها في البيد ضبعَيْ شِملَّة[٣]

(١) من معاني السمامة ضرب من الطير، ومنها طلعة الشيء أو شخصه، وكلاهما يصلح هنا.

(٢) يعني بالعقرب هنا البرج المعروف من بروج السماء.

(٣) الودع كالودع (بفتحتين) خرز أبيض.

(٤) السمع سبع مركب إذ هو ولد الذئب من الضبع، ويضرب به المثل في حدة السمع.

(٥) في الأصل: التسع.

تُـــبــاري زمـــانـــاً لا أمُــدُّ به ضــــبــعي

ولا مـــثــلـــهـــا في مـــثل هـــمي ركـــوبـــةٌ

ردعتُ المــنــايــا إذ ركــبتُ بـــهــا ردعي[٤]

ســمــامــة[١] لــيل بــات مــرتــبك الخــطى

ونــكــبــاء يــوم ظل مــنــقــطع الــشِّــسْع

ومُـــدْرجـــتي في طيِّ كل صـــحـــيـــفـــة

من الموثـقـاتِ الـفـجـرَ في خـاتم الـطبع

إذا الـعـقـرب[٢] الـعـوجـاء أمـست كـأنمـا

أثـارت عـلـيــهـا ثـأر عـاديـة الـلـسع

وراقـــبـــهـــا نجم الـــثـــريـــا بمـــطـــلـع

كمـا انـفـرقـت في الـعـذق نـاجـمـة الـطلـع

وأبـــــرزت الجــــوزاءُ صــــدر زمـــــرد

مـــحـــلـى بـــأفـــذاذ من الـــدر والـــودع[٣]

يـشـاكه زَهـرَ الـروض في مـاتع الـضـحى

عـلـى بـون مـا بـين الـتـرفع والـوضع

ســريتُ دجى هــذي وجُـبتُ هــجـيــرَ ذا

بــأَغْــولَ من غُــول وأســمـع من ســمع[٤]

نجـيـبـةُ هـول الـقـفـر في مُـطـبق الـدجى

وصـــفـــوة لمع الآل في الـــقُـــنَن الـــصُّـــلع

فلأيــاً حـطـطتُ الـرحل عن مـثل جـفـنه

وأطـلـقتُ عَـقـد الـنِّـسع[٥] عن شَبَه الـنِّسع

فــإن تُــؤو مــنـــهــا يــا «مــظــفــرُ» غُــربــة

فــنـــازحـــة الأوطــان مُـــؤيـــســـةَ الـــرجع

---

(١) في الأصل: فنعبة، ولعل الصحيح ما أثبتنا، والنغبة هي الجرعة، من قولهم نغب الطائر أي حسا من الماء، ونغب الإنسان ريقه أي ابتلعه.

(٢) بياض بالأصل في مكان هاتين الكلمتين، فاستلحقناهما من «ق».

(٣) الردع هنا هو أثر الطيب والخلوق في الجسد، يقال ردعت المرأة صدرها بالطيب أي لطخته به.

وإن أعلقت في حبل مُلكِكَ حَبْلَها
فحبل من الأحبابِ مُنصَرِمُ القطع
وإن أخصبت في زرع نعماك رعيَها
فكم قد تخطت وادياً غيرَ ذي زرع
وإن أرفهت في بحر جودك شِربها
فِمن ظِمْءِ عشرٍ في الهجير إلى تسع
وإن تُحي يا «يحيى» حُشاشة نفسها
فَنُغْبَةُ[1] حَسْوِ الموت مُوشكةُ الجرْعِ
أيادي مليك كُلُّها بِكْرُ مفزعي
وليست ببكر في الأنام ولا بدع
لفرع سما ثم انثنى دانيَ الجنى
لأصل زكا ثم اعتلى باسق الفرع
فأَوْدق بالحسنى وأغدق بالمنى
وأثمر بالنعمى وأجزل بالصنع
[وساقَ إليه[2]] المُلْكَ ميراثُ تُبَّع
بما قاد من جيش وأتبع من جمع
وتَوَّجَ من تاج وألبس من حُلًى
وقلد من سيف ودرَّع من درع
وصفوةُ طيٍّ والسَّكونِ ومَذحج
وكندةَ والأنصارِ والأزد والنَّخع
ووَتْرُ مثاني المكرمات ومالَه

---

(١) الفقع بفتح الفاء وكسرها هو الأبيض الرخو من الكمأة، وهو أردؤها، وبه يشبه الرجل الذليل: يقال أذل من فقع لأن الدواب تدوسه بأرجلها.

(٢) المضرحية ضرب من الصقور طويل الجناحين وهو مستحسن فيها، وإنما شبه الشاعر بها الخيل في هذا الموضع.

(٣) السفع هي الضاربة إلى السواد، ويقال الأثافي السفع أي التي أوقدت بينها النار فاسودت صفاحها.

(٤) الإرعاء على الشيء هو الإبقاء عليه والرفق به.

سـوى سـيـفه في مـقـدم الـروع من شـفع

وذو قـلـم يُـنـسـيك في صـدر مُـهـرَق

صـدور الـعـذارى في الـقلائـد والـردع[٣]

وإن لَـقِيَ الأقـران خط صـدورهـا

بـأقلام خَـطّيٍّ وأتـربَ بـالـنـقـع

وكم أعجمت بالخـفض في العُجْم أوجُهاً

وبـالـكـسـر والإسلامَ بـالـفـتـح والـرفع

وكـائن لـهـا في كل مُـلْك من الـعـدى

- وإن جل - من فـتق يـجل عن الـرقع

ومن مـعـقل أُشْـرِ عْنَ حـولـيْهِ فـاغـتـدى

أذلَّ لـوَطءِ الـمُـقْـرَبـات من الـفـقع[١]

قـرعتَ ذُرَاهُ يـا «مـظـفـرُ» قـرعـة

أصم صـداهـا كل مـسـتـرق الـسـمع

وصـبـحـته أُسْداً عـلى مَـضْـرَحـيَّـة[٢]

تـركْن صـفـاةَ الـشـرك صَـدْعـاً عـلى صدع

وويل لـهم من وقـعـة لك خـيَّـلت

عـلـيـهم سـمـاء الـلـه دانـيـة الـوقع

فـمن عُـقـر دار غـيـرِ مـحـمـيـةِ الحـمى

ومـصـرع قِـرن غـيـر مُـنـتـعش الـصـرع

وأشلاءِ قـفـر شـاكـهت فـيه مـاعـفت

خـيـولك من مـغـنى لـهُنَّ ومن ربع

بـهـام إلى هـام كـأن جُـثـومَـهـا

بـأطلالـهـا مـثـوى أثـافِـيِّـهـا الـسُّفع[٣]

فلا عـدم الإسلام رعـيك لا يـنـي

ولا أمن الإشـراكُ بـأسك لا يُـرْعِ[٤]

ولا زالـت الأعـيـاد عـائـدة لـنـا

بمـلـكك مـا عـاد الحـمـام إلى الـسـجع

ولا أُخـلِـيتْ مـنكَ المـصـلى بمـشـهـد

شـهـيـد عـلـى مـا أتـقن الـله من صـنع

ولا أوحـشت ذكـراك أعـوادَ مـنـبـر

بـداع لك الـرحـمن فـيـهـا ومـسـتـدع

ولا ردَّ مـن أعـلاك لـي فـيـك دعـوة

تجـلـى إلـيـهـا من سـمـواته الـسـبع

بمـارِشْتَ من سـهـمي وأيـدت من يـدي

وجـلـيت من ضَـرِّي وأدنـيت من نـفـعي

فـأصـبح حـمـدي فيك مـلـتـحم الـسدى

كـمـا راح شـمـلي فـيك مـلـتـئم الجـمع

****

(٦٦)

وله فيه رحمهما الله في عيد أضحى وكان شك في يوم منه فتأخر:

[من الكامل]

عـــيـــد ووعـــد صـــادق لك بـــالمـــنى
ولمن شـنِـئْتَ وعـيـدُ صـدق بـالـفـنـا
ومـــبـــشِّـــرُ الأيـــام أن تـــبـــقى لـــهـــا
ومـــبـــشـــر الإسلام أن تـــبـــقى لـــنـــا
ولمن مُـــنـــاه أن تـــعـــيش مـــؤيِّـــداً
ومـــؤيَّـــداً ومـــؤمِّـــنـــاً ومـــؤمَّـــنـــا
ومـعـظَّـمـاً ومـكـرَّمـاً ومـحـكَّـمـاً
ومـسـلَّـمـاً ومُـغـنَّـمـاً وممـكَّـنـا
ولـــعِـــزِّ مُـــلـك أنت أكـــرَمُ من نمى
ولـضن دهـر أنت أنـفس مـا اقـتـنى
ممـا نمى قـحـطـان أكـرمِ نـبـعـة
مـهـتـزة الأغـصـان دانـيـةِ الجـنى
غـنـاءَ تـشـدو من خلائـقـهـا بـهـا
طـيـر تـغـنى لـلـخلائق بـالـغِـنى
ولـربمـا كـانت فـروع غـصـونـهـا
قُـضُـبـاً من الـهـنـدي أولَـدن الـقـنـا
أهـوى إلى الأعـداء من عَـلَق الـهـوى
وأدبَّ في مُـهج الـضلال من الـضـنى
لـفـتًى له في كِـسْف كل عَـجـاجـة

(١) يشير هنا إلى اسم ممدوحه (يحيى بن منذر) وإلى لقبه (المظفر).

قُـبب عـلـى عَـمَـدِ الخـوافق تُـبـتـنـى

واخـتـال في لـبس الـوغى حـتى غـدا

مـنه الـسـنـاء يمـيس في حـلل الـسـنـا

أعــدى إلى الأعــداء من ســهم رمى

عن مـــلــكه وأحنُّ من قـــوس حـــنى

حــذر عـلـى الإسلام أيـسَـرَ مـا اتـقَى

هَـدَرٌ له في الـشـرك أعـظمُ مـا جـنى

بمـنـاقب نُـظـمت جـواهـرَ لـلـورى

مـا أجـمل الـدنـيـا بـهن وأزيـنـا

ومَـقــادم في يـوم كل كـريـهــة

مـا أقـرب الـدنـيـا لـهن وأمـكـنـا

حـفِظ الحـيـاةَ فـكـان أولى بـاسـمـهـا

وسـمـا إلى الظفر الـمُعلَّى فاكتنى[1]

واجـتـاب أثـوابَ الـنُّـهى حـتى غـدت

شـيمُ المـكـارم كــلُّــهن له كُـنى

وسـعى إلى نـيل المـنى فـكـأنمـا

كـانت مـسـاعـيه أمـانيَ لـلـمـنى

ودنت لـه الآمـال حـتى خـيَّـلَتْ

أن الـنـجـومَ له ثـمـار تُـجـتـنى

وتـوالت الأعـيـاد من نـعـمـائه

مـا يـنـقـضى عـيـد لـنـا إلا انـثـنى

فـكـأن هـذا الـعـيـد عـاد مـشـكِّـكـاً

أنـا عن الأعـيـاد غـيـرَك في غِـنى

أوغـار من أعـيـادنـا بك فـالـتـوى

(١) في الأصل: مساعيد.

بمــداه حــتى كــاد يــلــحــقُه الــونى

فـلـيَــهْنِ عـيـدَك يـا «مـظـفـرُ» شـيـمـةٌ

من عــطــفك الــتــأمت به حــتى دنــا

ولــيَــهــنِــنــا هــذا وتــلك وبــعــدهــا

ورضــاك في الأيــام أهــنــأُ مــا هَــنَــا

واســعــد بــعــيــد طــالمــا أعــديْــتَه

عَــوْداً بــإحــســان فــعــاد فــأحــســنــا

أهــدَى إلــيك سلام مــكــة فــالــصــفــا

فــمــعــالم الحــرم الأقــاصي فــالــدُّنــا

فــمــواقف الحــجــاج من عــرفــاتــهــا

فــالمــنــحــرَ المشــهــود من شِــعْــبَيْ مِــنى

ومــنــاسكٍ شــاقت مــســاعِــيَك[1] الــتي

أحــذيــتــهــا مــنــهــا المــثــال الأبــيــنــا

فــغــدا نَــداك يُــهِلُّ في شــرف الــعلا

لــهِــجًــا يــلــبي لــيــتــنــا ولــعــلــنــا

وخــلــفت ســعيَ المــروتــين مُــعــاقــبــاً

بــين الــنــدى والــبــأس ســعــيــاً مــا ونى

ورمــيــت بــالجــمــرات منْ بِــدَرِ الــلُّــهى

ونــحــرت بُــدن الــعُــرْفِ كُــومــاً بُــدَّنــا

وغــدوت تُــهــدي لــلــمــصــلى جــحــفلاً

لــســيــوفه خــضــع الــصــلــيبُ وأذعــنــا

تــهــوي عــلــيــهــا لــلــبــنــود ســحــائب

بــخــفــوقــهــا سكن الــشــقــاق وأســكــنــا

جُــنُــحــاً إلى أرض الــعــداة تــغــيُّــظــاً

وجــوانــحــاً لــلــمــســلــمــين تحــنُّــنــا

فأريتَ هذا العيدعزة مالك

متذللاً لإلهه متدينا

وراك في هدْيِ الصلاة مُكبراً

ومهللاً وبحمد ربك مُعلنا

فراك وسْط الخيل أحسن ما رأى

حسناً ووسْط الخير منه أحسنا

ورأى جبينك للرياسة فتنة

ورأى يمينك بالمحامد أفتنا

ثم انصرفتَ عن الصلاة مُشيَّعاً

ومُقدَّراً فيك الهدى ومُكوَّنا

والأرضُ تُشرق دارعاً ومُغفَّراً

والسُّبْلُ تَشرَقُ داعياً ومُؤمِّنا

فثنيت أجياد الجياد مُعرِّجا

وثنيتَ سمعك نحو ألسنة الثنا

في مشهد أندى نَدِيٍّ بالندى

وأحق بالمنن الجزيلة للمنى

والعيدُ يُقسِم ما رأى أهدى الهدى

والمُلكَ جامع شمله إلا هُنا

فلئن رأى في الدهر جوهر سَوْدد

من بعدها فقدِ استبان المعدِنا

ولْيَعْمُرَنَّ بذكر مجدك أعصُراً

ويُبَشرنَّ بطول عمرك أزمُنا

يا مُدنِيَ الأمل البعيد وإن نأى

ومُبعِّدَ الخطب الجليل وإن دنا

ومُسَلِّيَ الغرباء عن أوطانهم

(١) في الأصل: مرهوب، ولا معنى لها، ولعل ما أثبتنا هو الصحيح.

حــتى تــبــوأ كُلَّ قــلب مـــوطــنـــا

ومن احـــتـــذى من كلٍّ بـــانٍ لـــلـــعلا

مــثلاً ولم يُــغــفِل عــمــارةَ مــا بــنـى

حــســبي رســولُ الــله فــيــكم أســوةً

إذ عــاد من مُــضَــرِيِّــكُمْ فــتــيــمــنـــا

قـــلـــقتْ به أوطـــانُه من ظـــاعن

لم يُــلْفِ في عــدنــانَ عــنــكم مــظــعَــنـا

فــاخـــتــاركم رب الــســمــاء لحِــرزه

ولـــعـــزه ولحـــزبه أن يُـــفـــتَـــنـــا

ولـــرحـــلــه ولأهـــلــه أحـــبِبْ به

سـكَــنــاً لــكم وبــكم إلــيه مــســكــنـا

فــوفــيــتُمُ ورعــيــتمُ وســعــيــتمُ

وحــمــيــتمُ الإسلامَ حــتى اســتــيــقــنــا

وبـــذلـــتمُ عـــنه نـــفـــوســاً حـــرة

لإبـــائـــهـــا دان الـــضلال ودُيِّـــنـــا

وســلــلــتمُ مــنــهــا ســيــوفــاً بَــرة

بمــضــائــهــا بــان الــيــقــين وبــيــنـا

فــبــهــا ضــربــتم كل مــرهــوب عــتــا

وبــهــا فــكــكــتم كل مــرهــون[1] عــنــا

وبــهــا شــفــيــتم قــرح دهــر عــضــنــا

وبــهــا جــلــوتم خــطب ضــر مــســنــا

وبــهــا بــلــغــتك يــا «مــظــفــر» مُــسْــهلا

---

(١) الكل هو الوكيل أو الكفيل.

(٢) الغلق في الرهن ضد الفك، وغلق (بفتحة فكسرة) الرهن في يد المرتهن إذا لم يفتك في الوقت المشروط فبقي في يد المرتهن لا يقدر راهنه على تخليصه.

(٣) في الأصل: يعصمنا ولعل الأصح هو ما أثبتنا.

(٦٧)

وله[1] [فيه حين أعرس أخوه حكم بن منذر].

[من الكامل]

كَسِيَتْ بدولتك الليالي نورا
واهتزت الدنيا إليك سروراً
وإذا تأملت المنى ألفيتَها
قدراً لكم ولنا بكم مقدورا
وإذا تفاخرت الملوك وُجِدتُمُ
من كل مَلْك أوجهاً وصدورا
وخلعتُمُ في العالمين مساعياً
حلَّينَهُن مفارقاً ونحورا
وإذا الدهور تساجلت أُلفيتُمُ
يا آل تُبَّعَ للدهور دُهورا
من كل دهر لا يزال كأنه
لوح يلوح بفخركم مسطورا
يتلى فتنشَقُهُ النفوس كأنما
بالمسك خط غُواتُه[2] الكافورا
لكمُ سماء الملك مازالت بكم
تُزهى فتشرق أنجماً وبدورا

(١) كتبت هذه الكلمة بخط يغاير خط الناسخ، ويبدو لنا من آثار كتابة في هذا الموضع أن عنوان هذه القصيدة قد امحى لتلف أو بلل أصاب موضعه، فأثبت أحد من اطلعوا على الديوان هذه الكلمة محل العنوان. وقد استكملنا رأس القصيدة في التعريف بموضوعها من «ق». وحول حكم المذكور انظر ما كتبه ابن حزم حول جدول نسب التجيبيين أصحاب سرقسطة في جمهرة أنساب العرب – تحقيق ليفي بروفنسال – ط. القاهرة سنة ١٩٤٨ – ص ٤٠٤).

(٢) كذا، ولا نستبعد أن تكون هذه الكلمة تحريفاً للفظ «رواته» التي نراها أصلح للسياق هنا.

ولكم رياض الأرض تسقون الورى
نعماً فتنبت حامداً وشَكورا
فتَهَنَّ يا «يحيى» تراث مآثر
أحرزت منها حظك الموفورا
من كل ذي مُلْك نموك فأنجبوا
بدراً لفخرهمُ المنير منيرا
واستودعوك شمائلاً ومحاسناً
كرمت فكنت بحفظهن جديرا
فوصلت ما وصلوا من النسب الذي
بذَراك عُوِّذَ أن يُرى مهجورا
فحكمت في «حكم» بشمل جامع
نورين زادهما التألُّفُ نورا
قمرين لم يعرف لتلك نظيرة
هذا ولا هذي لذاك نظيرا
فلأمت شَعبهما بسوق وليمة
راح الثرى بدمائها ممطورا
تحكي مصارع من عُداتك لم تجد
من حكم سيفك في البلاد مجيرا
فجزرت حتى بات من عاديتَه
حذراً يراقب أن يكون جزورا
ورفعت في ظلم الدياجي عنهما
شقراءَ[1] بات لها السماك سميرا
ناراً تُمثل تحت ظل دخانها
كِسْفَ العجاج وسيفك المشهورا
وتخالُها زُهْرُ الكواكب تحتها
قمراً تغشَّى دونَها ساهورا[2]

---

(١) يعني بالشقراء هنا النار التي سيصفها في البيت التالي.
(٢) الساهور كالغلاف للقمر يدخل فيه إذا كسف فيما تزعم العرب.

في مـشـهـد أمـسى نـذيـراً لـلـعـدى
وغـدا لـنـا بـالـقـرب مـنك بـشـيـرا
تُـدعى لـه الجَـفَـلَى فـحـسـبك طـاعـة
ممن يـجـيـبك مـغـنـمـاً ونـفـيـرا
ولمن[1] يـرى خـفض الـنـعـيم مُـحـرَّمـاً
يـومـاً تـريـه لـواءك المـنـشـورا
فـجـلَـوتَ من صـدف المـقـاصـر دُرة
حـلَّـيْتَ مـنـهـا أربُـعـاً وقـصـورا
بـكـر الـربـيع لـهـا بـجـودك فـاغـتـدت
تُـسـقى به مـاء الـحـيـاة نِـمـيـرا
فـكـسا المـنـازلَ مـطـعـمـاً ومـشـاربـاً
وكـسـا الأسـرة نـضـرة وسـرورا
كُلاً كـسـوت درانـكـاً[2] ونمـارقـاً
وزرابـيـاً وأرائـكـاً وخـدورا
وتـتـابـعت مـنك الجـنـود كـأنمـا
يـطـأون مـنـهـا لـؤلـؤاً مـنـثـورا
وتلألأت فـيـهـا بـروق[3] مـجـامـر
يكسون أصبار الـمُسوك[4] صبيرا[5]
هَـطِلاً بمـاء الـورد سح كـأنمـا
والَى فـرَوَّضَ سُـنـدسـاً وحـريـرا
يـوم لك اكْـتُـتِـبَتْ شـهـادات الـنـدى
بـالمـسك في صُـحُفِ الـوجـوه سُـطـورا

(١) في الأصل: ومن، ولا يستقيم بها الوزن، ولعل الصحيح ما أثبتناه.
(٢) جمع درنوك بضم الدال ودرنيك بكسرها ضرب من الثياب أو البسط له خمل قصير، أو هو الطنفسة.
(٣) في الأصل: برق، ولا يستقيم بها الوزن.
(٤) في الأصل: السموك ولعل الصواب ما أثبتنا.
(٥) المجـامر جمـع مجمـرة وهي التي يوضع فيها الجمر مع الطيب، والأصبار جمع صبر بكسر الصاد وضمها وهـو حـرف الشيء وغلظه أو هو أعلاه، والصبير هو السحاب الأبيض يصبر أي يتجمع ويتكثف بعضه فوق بعض درجاً.

تـبـدو فـنـقـرأ في بـيـان خـطـوطـهـا
جـدوى يـديك وسـعـيك المـشـكـورا
لـله أمُّ مـهـيـرة[1] لم تـعـتـقـد
في مـهـرهـا الـعِلقَ الخـطـيـر خـطـيرا
زُفت إلى «حـكم» بـحـكـمك فـاغـتـدى
مـلـكـاً مـلـيـكـاً عـنـدهـا وأمـيـرا
والـسـعـدُ قـد شـمل الـسـمـاء كـواكـبـاً
والـيُـمْنُ قـد حـشـد الـهـواء طـيـورا
ولـو ابـتـذلتَ بـهـا مـخَـفَّـةَ[2] والـد
لم تـعـطـهـا إلا الـسـيـوف مـهـورا
ولمـا جـزرت لـهـا ولـيـمـة مُـعـرس
إلا الـضـراغم عـاديـاً وهـصـورا
ولـكـان يـومَ الـزحف مَـوقِـدُ نـارهـا
حـربـاً تـفـور مـراجلاً وقـدورا
ولمـا رفـعَت لـهـا دخـانـاً سـاطـعـاً
إلا عـجـاجـاً في الـسـمـاء ومـورا
حـتـى تـئـوب وقـد ملأت بلادنـا
نِـعَمَ الـعـدى والـنـاعـمـات الحـورا
فـتـمَلأُوا يـا آل «يـحـيى» عُـمـرَكم
في مُـلك «يـحـيى» بـالمـنى مـعـمـورا
وسُـقِـيـتُمُ ورُعِـيـتُمُ بـحـيـاته
ووُقِـيـتُمُ من فـقـده المحـذورا

****

(١) المهيرة هي الحرة أو الغالية المهر.

(٦٨)

وله فيه أيضاً رحمهما الله.

[من المتقارب]

قُدِ الخيلَ والخيرَ بأساً وجودا
وصل أبد الدهر عيداً فعيدا

ودونك فالبس ثياب البقاء
فأخلقْ جديداً وأخلِفْ جديدا

مُظاهِرَ ما أورثَتكَ الجُدودُ
من الحلل الملُبساتِ الجدودا

سنًى وسناءً ومُلْكاً ومِلْكاً
وسيفاً وسيْباً وَجدّاً وجودا

وما نثرته عليك السُّعودُ
محاسنَ تبهَرُ فيها السُّعودا

حُلًى منحت[1] منكَ زهرَ النجوم
شُنوفاً تحلَّى بها أو عُقودا

وأنتَ وسِعْتَ بهنَّ الرجال
ملابس [فالبسْ لهنَّ][2] الخلودا

فخَوَّلتَ منها اللُّهى والخيولَ
وعبَّدت منها المها والعبيدا

---

(١) في الأصل: منعت، ولعل الصحيح ما أثبتنا.

(٢) في الأصل: «ملابس لبسن لهن الخلودا» وواضح أن الوزن لا يستقيم بهاتين الكلمتين، وقد أصلحنا البيت طبقاً لما ورد في «ق».

وألــبــستَ فــيـــهـــا الحُــلى والــدروعَ
وأســحــبتَ مــنـــهـــا الـــمُلا والــبُــرودا
وكم قـــد كـــســـوتَ ثـــيـــابَ الحـــداد
بلاداً لـــبـــست إلـــيـــهـــا الحـــديـــدا
فــأشــرقت بــالــدين نــوراً مــبــيــنــاً
وألحـقت بــالــشــرك حــتــفــاً مــبــيــدا
كــتــائب حــلــيــتـــهن الــســيــوف
وتـــوجـــتـــهن الــقــنــا والــبــنــودا
صـــوارمَ بـــوأتـــهـــا في الـــرقـــاب
مــعــاهــد أنــســيــتــهن الــغُــمــودا
كــمــا فــتَــقت نَــيِّــراتُ الــصــبــاح
تُــفــتِّح في الــروض روضــاً نــضــيــدا
وسُــمــراً جــلــوت بــهــا لــلــعــيــون
وجـــوه المـــهـــالك حـــمـــراً وســـودا
يُــريـــنَك تحت سُــجــوف الــعــجــاج
نــواظــرَ أنــســيــتــهن[1] الــهــجــودا
مــصــارعَ قــربت مــنــهــا نــفــوســاً
تــعــاطــين مــنــهــا مــرامــاً بــعــيــدا
فــمُــلِّــيــتَه عـــز نـــصـــر وفـــلج
كَــفِــيلَ المــزيــد بــأن تــســتــزيــدا
وهُـــنِّـــيـــتَه فـــتح أيـــام عـــيـــد
جـــديـــر عـــوائـــدُه أن تـــعـــودا
ولُـــقِّـــيـــتَهُ عـــيـــدَ فـــأل بـــوعـــد
لــنــصــرك يــقــرُو[2] عِــدَاكَ الــوعــيــدا

(١) في الأصل: أنسينهن.
(٢) يقرو أي يتبع، على أننا نرجح أن تكون «يقري» (بضم الياء) أي يقريء أو «يقري» (بفتح الياء) من القرى.

وكم ذَكَّـــــرَتْ مــــــنك أيــــــامُه
مــقــامــاً كــريمــاً وفــعلاً حــمــيــدا
فــعَــشــرُ لــيــالــيه فـضلاً ونُــسكــاً
وعـــشْـــرُ بـــنـــانك عُـــرفـــاً وجـــودا
ويـــــومُ مِـــــنًى بـــــالمـــــنى أيُّ فـــأل
مُــفــيــدَ الــرغــائب أو مــســتــفــيــدا
وفي الـــيــوم من عـــرفـــات عـــرفــنــا
من الـــله فــيــمـــا حــبــاك المــزيــدا
وذكَّـــرَنـــا مـــنـــحـــرُ الـــبُـــدْن مـــنك
مـــواقف تـــنـــحـــر فـــيـــهـــا الأســـودا
وتـــكــســو ســيــوفَك فــيــهــا الــدمــاءَ
وتـــوطئ خـــيـــلك فـــيـــهـــا الخُـــدودا
ورميُ الجـــمـــار، فـــكم قـــد رمـــيت
عن الـــدين شـــيــطـــان كــفــر مـــريــدا
مـــعـــالمُ شـــيـــدهن الخـــلـــيلُ
وأذن بـــالحج فـــيـــهـــا مُـــشـــيـــدا
فـــلـــبـــاه من لم يـــكن قـــبلُ خَـــلْـــقـــاً
وأنـــشِئَ من بـــعـــدُ خـــلْـــقـــاً جـــديـــدا
رجـــال أجـــابـــوا أذانَ الخـــلـــيل
فـــجـــابـــوا إلـــيـــهـــا بـــحـــاراً وبـــيـــدا
كـــمـــا عُـــمِّـــرَت بك سُـــبْلُ الجـــهـــاد
جـــنـــوداً تـــفُلُّ بـــهن الجـــنـــودا
وجُـــدتَ فـــنـــادى نَـــداك الـــعُـــفـــاة
وسُـــدت فـــنـــادى عُلاك الـــوفـــودا
ولا كَـــوُفـــودٍ تَـــقَـــبَّـــلْتَ مِـــنْـــهُم
وسـائلَ كـانـوا عـلـيـهـا شُـهـودا

فـحـيــوك عن كل مــحــيي الــوفــاء
إلــيك حــيــاة تــمــيت الحــقــودا
فــكم أنـــســـوا بك شــكلاً زكــيــاً
وأدنــوا إلــيك صــفــيــاً بــعــيــدا
وكم وصــلـــوا بك قــلــبــاً كــريمــاً
وكم شـــــرحــــوا لـك صـــــدراً ودودا
عــهــوداً تــضــمــنــهن الــوفــاء
بــصــدق تــضــمن مــنك الــعــهــودا
فلا أعــدمــتكَ ظــنــونُ الــلــبــيب
يــقــيــنــاً عــلى كل قــلب شــهــيــدا
ولا زال ســــــيــــــفك فـي كـل أرض
عــلى كل غــاو رقــيــبــاً عــتــيــدا
ولا زلت لــلــدين طــوداً مــنــيــفــاً
وظلاً ظــلــيلاً وركــنــاً شــديــدا

****

(٦٩)

وله فيه أيضاً رحمه الله تعالى.

[من المتقارب]

نجـومَ الـصِّـبـا، أين تـلـك الـنـجـومُ؟
نـسـيمَ الـصَّـبـا، أين ذاك الـنـسـيمُ؟
أمـا في الـتـخـيل مـنـهـا ضـيـاء
أمـا في الـتـنـشق مـنـهـا شـمـيم
فـيـلْـحَـقُـهـا من ضـلـوعي زفـيـر
ويـدركـهـا من دمـوعي سَـجـوم
لـقـد شط روض إلـيـه أَحِنُّ
وغـارت مـيـاه إلـيـهـا أهـيمُ
أوانسُ يُـصـبح عـنـهـا الـصـبـاحُ
نـواعمُ يـنـعم مـنـهـا الـنـعـيم
كـواكبُ تـصـغي إلـيـهـا الـسُـعـود
كـواعبُ تـصـبـو إلـيـهـا الحُـلـوم
لـيـاليَ إذ لا حـبـيـب يـصـد
وعـهـديَ إذ لا عـذول يـلـوم
وإذْ لا صـبـاحي رقـيـب عـتـيـد
ولا لـيـلُ وصـلـي ظلام بـهـيم
وكـيف وشـمسُ الـضـحى لي ألـيف!
وأنَّى وبـدرُ الـدجى لي نـديم!
وخـمـري من الـدر مـسك مـذاب
وروضي من الـسِّـحْـرِ دَلٌّ رخـيم!
وأوجُـهُ أرضِيَ زَهْـر تـروق
وملء سـمـائي نجـوم رُجـوم

فشيطان لهوي مطاع مطيع
وشيطان همي طريد رجيم
غرارةُ عيش أراها الغُرورُ
بأن الزمان صديق حميم
وغمرة شك أتاها اليقين
بأنَّ رضيعَ الأماني فطيم
وغصن شباب علاه المشيب
كغض رياض علاها الهشيم
فيا عجباً لصروف الزمان
شهوداً لنا وهي فينا خصوم!
وكيف قضى حكم هذا القضاء
عليَّ لدهريَ وهو الظلوم؟!
فنحن ديونُ النوى كل يوم
على حكمه يقتضينا الغريم
وتلك المعاهد [منا[1]] رسوماً
عفاها الذميل بنا والرسيم
بسير يقول الصفا[2] الصمُّ منه:
أما للحوادث قلب رحيم؟!
أما يُستَقال الزمان الكئودُ؟
أما يُستَكف العذاب الأليم؟
عن الأوجه المُتوالي عليها
ليال وأيامُ جَهد حُسوم
جُسوم تطير بهن القلوب
بأجنحة ريشهن الهموم
بكل هجير لوِ النارُ تَصْلَى
جحيماً لأصبح وهو الجحيم

(١) في الأصل: بنا، والتصويب عن «ق»، والذميل والرسيم من ضروب السير.
(٢) في الأصل: الصـ...ـا، ولعلها كما قرأنا.

كـــأن رواحـــلـــنـــا في ضـــحـــاه
صـوادي سَـمـام[1] حَـداهـا الـسَّـمـوم
وفي كل لـــيل تـــغـــشى دُجـــاهُ
فـــنـــام ولـــكـــنه لا يُـــنـــيم
كـــأنـــا وقـــد سـد بـــابـــيه عـــنـــا
وهـــام بـــنـــا الـــذعـــرُ- هـــامٌ وبـــوم
وفي كل بـــحـــر- كـــمـــا قـــيل - خـــلق
صـــغـــيـــر يُـــهـــاويه خـــلق عـــظـــيم
كـــأنـــا عـــلـــيه نجـــومُ الـــثـــريـــا
تـــســـيـــر وقـــد أفـــردتـــهـــا الـــنـــجـــوم
نجـاء[2] تـمـنَّى ثـمـارَ الـنـجـاة[3]
ومن دونـــهـن رجـــاء عـــقـــيم
فـــذاك[4] مـــدى صـــبـــرِ حُـــرٍّ يُـــضـــام
وذاك مـــدى صـــرف دهـــر يَـــضـــيم
وكم[5] أعـــقب الـــظِّمْءَ حِـــسْيٌ جَـــمـــوم
وكم عـــاقب الجـــدبَ رِيٌّ [6] جـــمـــيم
وكـــيف يُـــؤمَّلُ مـــولًى كـــريمٌ
ويُـخـشى من الـدهـر خـطب ذمـيمُ[7]
وفي اسم «المـظـفـر» فـألُ الحـيـاة
لـــيـــحـــيـــا الـــغـــريب به والمـــقـــيم

---

(١) السمام ضرب من الطير نحو السماني، والصوادي أي العطاش.
(٢) النجاء جمع نجو (بفتح فسكون) وهو السحاب الذي أراق ماءه ثم مضى، أو لعله جمع ناج أو ناجية وهي الناقة السريعة تنجو براكبها أي تسرع.
(٣) طمست بعض ألفاظ هذا الشطر، ولعله كما قرأنا.
(٤) في الأصل: ...ـذاك.
(٥) هذه الكلمة مطموسة في الأصل.
(٦) في الأصل: رأى ولا معنى لها هنا، ولعلها تحريف لـ«ري» التي أثبتنا.
(٧) سقط هذا البيت من الأصل، وقد أضفناه من «ق».

يبشرنا بسناه الصباح
وتخبرنا عن نداه الغيوم
ففي كل بحر لنا منك شِبْه
وفي كل فجر لنا فيك خِيمُ
ومرعاك في كل أرض نرودُ
وسُقياك في كل برق نشيم
وفي كل نادٍ مُناد إليك:
هلم إلى حيث يُغنى العديم!
هلم إلى حيث تُنسى الرزايا!
هلم إلى حيث تُؤسى الكلوم!
هلم إلى حيث يُؤوَى الغريبُ!
هلم إلى حيث يُحمى الحريم!
هلم لعز حِمًى لا يُرامُ
يسُحُّ عليه حَياً[1] لا يريم!
عُلاً أعرقت فيك من عهد عاد[2]
يدين الكريم بها واللئيم
عهودُ مكارمَ لا عهدُها
ذميم ولا الدهر فيها مُليم
أَجَدُّ مناقبهن اللَّبيسُ
وأحدث آثارهن القديم
تُنيرُ بهن القبورُ الدُّثورُ
وتعبَق منها العظامُ الرميم
وتُثمِرُ من طعمهن الغصون
وتُغدِقُ في سَقيهن الأَرُوم

(١) في الأصل: حمى، ولا معنى لها هنا ولعلها تحريف لـ«حيا» أي مطر.
(٢) هذا الشطر مطموس في الأصل لا تبين منه إلا بعض الكلمات.

ويـــوصي بـــهن مـــلـــيـــكـــاً مـــلـــيكٌ
ويـــــودعُــــــهُن كــــــريمــــــاً كــــــريم
فـــعمَّ الخلائقَ مـــنـــهـــا خُـــصـــوص
كـــفـــاهـــا وخـــصك مـــنـــهـــا الـــعُـــمـــوم
وجـــاءتك بـــين ظُـــبـــاة الـــســـيـــوف
تـــصـــولُ الـــقُـــيـــول بـــهـــا والـــقُـــروم
وفي كـل بــــــــر وفي كـل بــــــحـــــــر
صـــراط إلـــيك لـــهـــا مـــســـتـــقـــيم
وأنت بمـــــيـــــراثـــــهن المحــــيطُ
لأنك فـــيـــهـــا الـــوســـيط الـــصـــمـــيم
فـــإن أعـــلـــقت بك عِـــلـــقَ الـــفـــخـــار
فـــأنت الـــكـــفـــيل به[1] والـــزعـــيم
وإن رضـــيـــتك لـــتـــاج الـــبـــقـــاء
فـــأنت الـــرفـــيع به والـــعـــمـــيم
وســـيـــفك لـــلـــدين ركن شـــديـــد
وحـــظك في المـــلك حظ جـــســـيم
وإن يَـــهْـــنِكَ الـــيـــومَ عـــيـــد يـــعـــود
فـــيَـــهْنِ لـــنـــا مـــنك[2] عـــيـــد يُـــقـــيم
ولمـــــــــا رأى أنـــه لا يـــــــــــدوم
أتـــاك يُـــهَـــنِّـــيكَ مُـــلـــكـــاً يـــدوم
وإقـــبـــالُـــهـــا دولـــةً لا تـــنـــاهى
وإقـــدامُـــهـــا عـــزةً لا تـــخـــيم
ويَـــهْنِ الـــمُـــصـــلَّى تجـــلـــيكَ فـــيه
بـــوجهٍ يُـــنـــيـــرُ وكَفٍّ تَـــغـــيم

(١) في الأصل: بها والتصويب عن «ق».
(٢) في الأصل: لك منه، ولا يستقيم بهاتين الكلمتين الوزن ولا المعنى، ويبدو أن الناسخ قلب ضميريهما، إذ يستقيم الشطر بما أثبتناه. وهو ما ورد أيضاً في «ق».

وهــــدْيٌ تـــهــــادَى إلـــيه الـــعـــيـــونُ
ويُـــــزهـى لـه زمـــــزم والحــــــطــــيم
لَـــبِــسْتَ إلــيــهــا من الــمُـلك تــاجــاً
يُـــــهِلُّ الــــهلال لـه والـــــنــــجـــوم
عـــلـى حـــلل حـــاكـــهن الـــســـنــاء
وأرديـــةٍ نـــســجـــتــهــا الحـــلـــوم
وتحت غـــيـــابـــات غـــابِ الـــوشـــيجِ
أســـود إلى مُـــهج الـــكـــفـــر هـــيمُ
ولـــلـــســـابـــغـــات بـــحـــورٌ تـــمـــورُ
ولـــلـــســـابـــحـــات ســـفـــين يـــعـــوم
كـــــأن خــــــوافق أعلامــــــهن
طـــيـــور عـــلـى المـــاء مـــنـــهـــا تحـــوم
فَــفُــصِّلَ بـــاســـمِكَ فــصْلُ الخـــطـــاب
كـــمـــا قـــد حـــبـــاك الـــعـــزيـــز الحـــكـــيم
وأُخْـــلِصَ فـــيك جـــمـــيلُ الـــدعـــاء
بمـــا لا يُـــضـــيع الـــســـمـــيعُ الـــعـــلـــيم
فلا شـــاء دهـــرُك مـــالا تـــشـــاء
ولا رام شـــانـــيك مـــا لا تـــروم
فـــنـــصـــرُك أولُ مـــا نـــســـتـــمـــدُّ
وعـــمـــرُك آخـــر مـــا نَـــسْـــتَـــدِيمُ

****

(٧٠)

وله فيه أيضاً في حياة أبيه رحمهم الله.

[من الكامل]

اليوم نادتك السيادة: هَيْتَ لَكْ
في مُلك من حلاَّك بهجة ما مَلَكْ
ورأى جبينك قد تلألأ للمنى
نوراً فتوجك السناء وكللك
فلك السيادة والقيادة دونه
وله الرياسة والسياسة ثم لك
صدقت فراستُه[1] شمائلَك التي
منه فأغمد سيفه واستبدلك
وأخذت سيف النصر منه بحقه
وحملت من أعبائه ما حمَّلك
فرمى بك الثغر القصيَّ تيقناً
ألاَّ يرى غير المُهند مَوْئلك
والفتحُ مُبتهج إليك كأنه
للعُرف والإكرام ممن أمَّلك
ولرُبَّ وجه للمنايا دونه
عممته بالسيف حين استقبلك
في غمرة أعيا الحِمامَ طريقُها
ففتحت فيه للقنا حتَّى سلك

(١) في الأصل: فراسة، ولعل الصواب ما أثبتنا.

ونــهــضتَ والإسلامُ يــهــتف مــعــلــنــاً
يـــا مـــنـــذراً «قـــرة عـــين[1] لي ولك»
فـسـقـيت ظمء الـغـيظ من مـهج الـعـدى
مـا عَـلَّكَ الـشـبم الـقـراحَ وأنـــهــلك
ألف كـأُسـد الـغـاب أُلِفّ شـمـلُـهم[2]
لـيـزيـدهم ذو الـعـرش فـيـمـا نـفَّـلك
فـقـسـمـتـهم بـين الـصـوارم والـقـنـا
إلا الـــذين ملأت مـــنـــهم أحـــبُـــلك
أمـــراءُ أجـــنـــادٍ ونـــخـــبـــة دَولـــة
كـانـوا ذخـيـرةَ نـخـبـة الأيـام لك
وحَـمى «ابن شـنـجٍ» مـنك أجل مِـيـتَـةٍ
ألـقت إلـيك بـعـذر مـا قـد أعـجـلك
فـالحَـيْنُ يـدنـيه إلـيك لـتـقـتـضي
عـبـداً يُـهـيئ وجـنـتـيه لـيُـنـعِـلك
قَـلِـقـاً تـنـاهى في الـبلاد فـرارُه
ونـهى ضـمـيـرَ الـنـفس أن يـتـمـثـلك
ويـذودُ عن أجـفـانه سِـنَـة الـكـرى
كي لا يُـريه الحُـلمُ أن يـتـأو لك
ويـحـيـدُ[3] عن جـو الـسـمـاء بـطَـرفه
ألاَّ يَـرى بـين الـكـواكب مَـنـزلك
ولـكم أراه الـبـدرُ حـينَ حِـمـامه
لمـا اسـتـبـد به الـكـمـال فـخـيَّـلك

(١) كذا في الأصل، وواضح أن هذا الشطر بهذه الصورة قلقا في الوزن، وما كان هذا ليغيبَ عن الشاعر، إذ كان في وسعه أن يقول «قرت عيون لي ولك» فيتفادى ذلك الخلل، غير أنه أراد أن يضمن البيت جزءاً من الآية القرآنية (وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك) (سورة القصص، ية ٩).
(٢) هاتان الكلمتان غير واضحتين في الأصل.
(٣) في الأصل: ويجيد.

ودوي سـيـفك في رقـاب حُـمـاته
عَـجِلٌ إلـيك بـرقّه، ويـقِلُّ لك!
ولـقـد تـفـهم فـيه لـفظَ مُـخـاطب:
خَلِّ الـبلادَ لأهـلـهـا لا أُمَّ لك!
لمن اسـتـردَّ حـيـاةَ نـفـسك عـفـوُهُ
وقـد انـتـحى سـهمُ المـنـيـة مَـقْـتَـلك
ولمن تـلـبـيه الـسـمـاء وأرضُـهـا
مـدداً إلـيك له مـلـيـكـاً أو مـلك
ولـمُـقْـحِمٍ عـيـنـيكَ في رهج الـوغى
خـيلاً تـغص بـهن[1] أقـطـارُ الـفـلك
فـلـيَـهْنِ سـعـيُك يـا «مـظـفـرُ»أمـة
جـاهـدتَ عـنـهـا من بـغى حـتى هـلك
ورمـيتَ دون ثُـغـورهـا ونـحـورهـا
من لم يـدِنْ بـالحَقِّ حـتى دان لك
ولـئن شـكـرتُ الـله فـيك جـزاء مـا
قـسمَ الـفـضـائلَ في المـلـوك فـفـضَّلك
فـلـقـد بَلا شُـكـري بمـا خُـوِّلـتُه
أني وَرِقُّ بَـنِيَّ ممـا خـوَّلك
فـلـئن لَـبِـستُ بكَ الـثـنـاء فـحُقّ لي
ولـئن لـبِـستَ بيَ الـثـنـاء فـحُقَّ لك

****

(١) في الأصل: بها، ولا يستقيم الوزن بها، ولعل ما أثبتناه هو الصواب.

(٧١)

وله فيه رحمه الله وقد قدم من غزوة.

[من الطويل]

سلام علـى الأيـام تـسـليمَ إقـبـالِ
بـآمـال تحـقـيق وتحـقـيق آمـالِ

بمـقـدم فـتح من مـليك مُـظـفـر
وأوبـةِ نـصـر في تـبـاشـيـر إقـبـال

وشـاهـدِ مُـلك لاح في تـاج مـفـرق
مُـحَـيـاً بـإعـظـام مُـحَـلّىً بـإجلال

ذخـيـرةُ أملاك وعِـلْقُ تـبـابع
وصـفـوة أذواء ومـيـراث أقـيـال

فـبُـشـراكِ يـا دنـيـا سـميٌّ الـذي به
علا صوتُ جـبـريلٍ بشـيراً ومـيكَالِ[(١)]

وبـشـراكِ بـاسـتـقـبـال أرضٍ حـيـاتُـهـا
بمـا في اسـمه من صـادق الـظن والـفـال

فَـهَـذِي ريـاضُ الأمن تُـزهـر بـالمـنى
وهـذي سـمـاء الـفضل تَـهْـمِي بـإفضـال

وهـذا سـنـاءُ الـفـخـر يـشـرق بـالـسـنـا
وهـذا جـمـال الـدهـر يُـزهَـى بـإجـمـال

---

(١) يشير الشاعر هنا بقوله «سمي الذي به... الخ» إلى يحيى بن زكريا عليهما السلام، وقصة مولده إذ دعا زكريا ربه أن يرزقه ذرية طيبة، فاستجاب الله لدعائه وأمر جبريل أن ينزل عليه بالبشرى فأتاه وأتته الملائكة وأحدقوا بالمحراب، قال الله تعالى: «فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى» (سورة آل عمران، آية رقم ٣٩).

بمن كشف الخطب الذي أظلم الضحى
وألقى على الألباب حيرة إضلال
ومن رتق الفتق الذي أعجز الورى
وأعدم فيه الدهرُ حيلة محتال
ومن رد في جسم المكارم روحَه
فلا عُذْر للباكي ولا ذنبَ للسالي
ومنْ وسِعَ الإسلامَ رأفةَ مُنعم
وهيَّأ للإشراك عَدوةَ رِئبال
ومن ركب الفُلك السوابحَ في الوغى
إلى كل هول ينتحيه بأهوال
ورفَّع أعلاماً كأن خفوقها
على علم الإشراك إرجافُ زلزال
وسامر بالشِّعْرَى خيولاً كأنما
تمشَّى بهن الأرضُ مِشيةَ مُختال
سرى ليلَ كانُو نَين والدَّجْنُ ذائب
عليه بجَمْدٍ في دُجى الليل مُنهال
وليس سوى نار الطِّعَانِ له صَلىً
ولا غيرُه في حَرٍّ أوَّلِها صال
بجمع كأنَّ الجَوَّ مرآةُ عينِه
إذا ما سَرَى أو بالغُدُوِّ وَالاصالِ(١)
فتمثالُ أطرافِ العَوالي نجومُه
وشمسُ ضحاه منكَ أبينُ تمثال
كأنك عَوَّضْتَ الأباطِحَ والرُّبى
وشيجَ القنا من منبِت السدر والضال

---

(١) كذا في الأصل، ويحتمل أن تكون أيضاً: «إذا ما سرى أو في غدو وآصال»، وعلى صحة الأصل ينبغي أن تقرأ «والاصال» بهمزة وصل.

كـمـا عـمـهـا جـدوى يـديك فـوصَّـلت

مـسـاءً بـإصـبـاح وسـهلاً بـأجـبـال

فـكم ألـبـست شُم الـربى من عـمـائم

وجـرت عـلى الـبـيـداء من فـضل أذيـال

حـدائقُ مـاذِيٍّ يـضـاحِكُ في الـدجى

حـبـيـكـاً كـلـمع الـشـمس في ريق الآل[1]

إذا هب ريح الـنـصـر فـيـهـا تـفـتـحت

بـأبـيضَ قـضَّـاب وأسـمـرَ عـسَّـالِ

وطـاقَـةِ نَـبْع في بـنـان مُـوَتِّـرٍ

وزهـرة نَـوْرٍ في كـنـانـة نـبَّـال

تجـارةُ غـزو نـقـدُها الـبـيضُ والـقـنـا

قـضـاءَ حـقـوق واقـتـضـاءً لآجـال

فـلـله كم أغـلـيت من دم مُـسـلـم

وأرخَـصْت في أعـدائه من دم غـال

وأسـلَـمْتَ للإسلام فـيـهـا بـضـاعـة

تـعـود بـأضـعـاف وتُـوفِي بـأمـثـال

وحـسـبُكَ فـيـهـا بـابن شَنْجٍ[2] وجـنـدِه

من الـسـبي أبـدالاً، وأيـةُ أبـدال!

مـلـيـكـاً ومـا يـحـوي شَـريْتَ بـبـعـضه

وأربِحْ بـقـنـطـار يـبـاع بمـثـقـال!

فـمـا حـاز غـازٍ مـثـلـه فَيْءَ مـغـنمٍ

ولا نـال سـابٍ مـثـلـهـا سَـبْيَ أنـفـال

---

(١) أي لامع السراب.

(٢) في الأصل: يابن شنج.

وما بعت رِقَّ الملك منهم نسيئةً
ولا مستجيزاً كالِيءَ الدَّيْن بالكالي(١)
ولكنَّ نقداً ناجزاً في رقابهم
بإذعان تمليك وإذعان إذلال
وإقرار من لا يبتغي عنك موئلاً
وليس له من دون سيفك من وال
فعُدْ بمفاتيح الفتوح التي شفت
على غَلَقٍ من غدرة تحتَ أقفال
بمن لم يُسِغْهُ كرُّه بعد فره(٢)
ولا رَدَّ من عينيه نظرةَ إجفال
غداة تقاضى منه أكفالَ خيله
بأجياد خيل لا تَقَرُّ بأكفال
وأُلْقِحَ منه بطنُ أم طوت به
مَشيمَةَ شُومٍ جال في سُخْدِ(٣) أوجال
إذا أسقطتْهُ روعة منك راعه
هشيمُ رياض في دوارس أطلال
شَفَا(٤) جنَّةٍ لم تُجْنَ حتى جنى لها
حروباً جناها من جحيم وأنكال(٥)

---

(١) الكالىء من كلأ الدَّيْن أي تأخر، والكالىء النسيئة والسلفة، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الكالىء بالكالىء أي النسيئة بالنسيئة. قال في تفسير ذلك أبو عبيد القاسم بن سلام: هو أن يسلم الرجل إلى الرجل مائة درهم إلى سنة في كر طعام (الكر هو مكيال لأهل العراق)، فإذا انقضت السنة وحل الطعام عليه قال الذي عليه الطعام للدافع ليس عندي طعام ولكن بعني هذا الكر بمائتي درهم إلى شهر فيبيع منه ولا يجري بينهما تقابض، فهذه نسيئة انتقلت إلى نسيئة وكل ما أشبه هذا هكذا، ولو قبض منه الطعام ثم باعه منه أو من غيره بنسيئة لم يكن كالئا بكالىء.

(٢) في الأصل: كرة بعد فرة، ولعل الأصلح للمعنى ما أثبتنا.

(٣) السخد ماء غليظ أصفر يخرج مع الولد.

(٤) كذا في الأصل، وجائز أن تكون بمعنى حرف أو حافة، على أننا لا نستبعد أن تكون «سفا» بالسين، والسفا هو الشوك والسنبل الجاف الذي تسفيه الريح أي تذروه، وتكون بذلك أنسب وأكثر ملاءمة لما ورد في البيت السابق.

(٥) الأنكال جمع نكل بكسر النون وهو القيد الشديد من أي شيء، وفي القرآن الكريم «إن لدينا أنكالاً وجحيماً» (سورة المزمل، آية رقم ١٢) وقيل في تفسيرها إن الأنكال قيود من نار.

يــقــلـب كــفــيـه بــحــســرة حــاســر
عــلــيــهــا وعــيــنــيـه بــعــبــرة إعــوال
مــصــانـع روضــات رعـى الــبــغيُ نــبــتــهــا
فــعــوَّضـه مــنــهــا شــواهقَ أوعــال
فــأيــةُ أســوارٍ ونُــصــحُـك ســرُّهــا
إلـى أن طـــوى غِلاً فـــأيـــةُ أغلال
وأيــةُ أشــجــارٍ وسَــلـمك ســقــيُــهــا
إلى أن بــغـى فــيــهــا فــأيــةُ أجــذال
حَــمــاهــا فــأعلاهــا بــنــاءً ومــا رأى
مــكــانك يــعــلــو كل ذي شــرفٍ عــال
وشــيَّــدهــا عُــجْــبــاً ويــا رُبَّ مــثــلِه
عــلـى مــثــلــهــا أبــكــيْتَ من طــلـل بــال
وعــطــلَّــهَــا من حَــلْيٍ نُــصـحك بــاغــيــاً
فــيــا عــجب الأيــام لــلــعــاطل الحــالي
يُــتــوجُــهــا بــالــنــقع نــظــمُك حــولــهــا
مــجــالَ عــقــودٍ من خــيــولٍ وأبــطــال
فــيُــمــسي لــهــا مــنه لحــافٌ ومِــلــحفٌ
وتـــصـــبـح مـــنه بـــين درعٍ وســـربـــال
كــمــا وصـف الــكــنــديُّ بــعلَ فــتــاتـه
(عــلــيه الــقــتــامُ سيءُ الــظن والــبــال)[1]

---

(١) هذا الشطر هو القسيم الثاني من بيت امرئ القيس:
فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلها	عليه القتام سيء الظن والبال
(انظر ديوان امرئ القيس، بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة، سنة ١٩٥٨، ص ٣٢).

فأبق لها بأسَ «ابن باقٍ»[1] ونُصحَه
فما لَمس الجرباءَ مثلُ يد الطالي
ولا أحصنَ الحربَ العوان كبعلها
ولاراع آساداً كغاضب أشبال
ولا سيما حُرٌّ جَلاَ لك غيمُه
نصيحةَ لا وانٍ وإشفاق لا آل
وشيعيةٌ لا مقصراً عن غُلوها
ولا مُشكِلاً بين المقصِّر والغالي
وطائرُ يُمْنٍ لا تزال تَريشُه
قوادمَ إقدام ونهضةَ إعجال
بها ردَّ خيلَ البغي تَدمى كلومُها
وقد يئست من نصرة العم والخال
وأَمَّن من عدوانها كل خائفٍ
وأثكلها مستودَع الأهل والمال
وإن هلالاً لاح من حد سيفه
لمضمونُ إتمامٍ عليه وإكمال
فهاكَ نجوم السعد من كل مطلعٍ
تُوالي بتكبيرٍ إليك وإهلال
فلا عريت منك الجيادُ إلى الوغى
ولا العيسُ من حل إليك وتَرحال

****

---

(١) لم نتحقق من شخصية «ابن باق» هذا، ويبدو أنه كان من قواد الدولة المنذرية وأنه كان على رأس الجيوش المتمرسة بالنصارى. وستأتي لابن دراج قصيدتان يمدح بهما ابن باق هما: البائية التي أولها «تسمع لدعوة ناء غريب» والميمية التي أولها «أقدمت دون معالم الإسلام»، هذا وقد عثرنا أخيراً على إشارة إلى أحد القواد ممن اشتغلوا في أول أمرهم بالكتابة، اسمه أحمد بن محمد بن باق وكان والياً على مدينة سالم (وتسمى الآن بالإسبانية **Medina celi**) وكانت من أجَل ثغور المسلمين بالأندلس، وقد توفي ابن باق هذا في سنة ٤١٩ أو ٤٢٠

(٧٢)

وله فيه أيضاً رحمه الله

[من الطويل]

دواليكَ من دهرٍ يُواليكَ بالنُّجْحِ
فـفـتحٌ إلى عـيدٍ وعـيدٌ إلى فـتْحِ

كما بشرت بالغيث بارقة الحيا
وأسفر عن شمس الضحى فلق الصبح

وريحٌ من الإقبال تعصف بالعدى
وتنشأ للإسلام بالوابل السَّحِّ

حياً منك «يا يحيى» على الدين والهدى
بوارقه في الكفر خاطفة اللمح

جديرُ الندى أن تُتبَع المنَّ بالمنى
وسُمُّ العدى أن تنكأ القرح بالقرح

فوُقّيَت[١] من سعي الجهاد تجارةً
مُضاعفَةَ الأضعاف نامية الربح

كما بشرت بالغيث بارقة الحيا
وأسفر عن شمس الضحى فلق الصبح[٢]

رفعت لها أعلام نصرٍ كأنما
كستها طيورُ اليمن أجنحة النجح

تمور بها في كل بحرٍ من الوغى
سوابح محمودٌ لها شيم السبح

---

(١) في الأصل: فوقيت.

(٢) كذا ورد هذا البيت، ويُلاحظ أنه تكرار لنص ثاني أبيات القصيدة، ويبدو أن الناسخ كرره سهواً.

إذِ[1] الحربُ بالأبطال في لجة الردى
تذكرهم «بلقيسَ» في لجة الصرح
وسيفك في الأعناق والسوق مقتدٍ
بسيف «سليمانَ» الموكل بالمسح[2]
لمعت به في جو «ناجرَ»[3] لمعةً
ثنت كبد الشيطان دامية الجرح
وصبحتها في جنح ليلٍ من القنا
أحل بها ليلَ الأسى مطبق الجنح
فأيةُ أمٍ للضلال قهرتها
بنيها بضربٍ في الطُّلى فائزِ القِدح
وبيْضة كفرٍ كم وكم لك أسمحت
ببيْضة خِدْر لا تواتي يدَ السمح
جَلِلْنَ عن الأكفاء قدراً وأوجهاً
فأُحْمِمْنَ عن خطب وأُخرسْنَ عن نِكْحِ

(١) في الأصل: إذا، وما أثبتناه أصلح للمعنى.

(٢) يشير في هذا البيت إلى ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى: (إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد. فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب. ردوها عليَّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق)، وقد ذكر المفسرون في شرح هذه الآية أن نبي الله سليمان بن داود عليه السلام كان قد فتن بالخيل التي عرضت عليه حتى شغلته عن الصلاة، وتنبه لصلاة العصر فإذا الشمس قد غابت فاغتَمَّ وندم وأمر بأن ترد الخيل عليه وبأن تضرب أعناقها وسوقها بالسيف، وهو ما يعنيه قوله تعالى «مسحاً بالسوق والأعناق» (انظر في ذلك شهاب الدين النويري: نهاية الأرب – ط. دار الكتب سنة ١٩٤٣ – ١٤/١٠٥ – ١٠٧).

(٣) ناجر أو ناجرة بالإسبانية **Najera** عاصمة منطقة صغيرة تحمل اسمها وتقع الآن في المقاطعة المعروفة باسم لوجرونيو **Logrono** (انظر المعجم الجغرافي التاريخي الإحصائي لباسكوال مادوث: **Pascual Madoz, Diccionario Geografico Estadistico - Historico, ed. Madrid, 1849, XII, PP. 10 - 22)**

فسرعان ما أبرزتَ منهن للفلا
غدائرَ تمسي في سنا أوجهٍ تُضحي
مظلَّلةً بالخافقات كأنها
ظباء تهادى في ذَرا الأيك والطلح
كواعبُ إلا أنهن كواكبٌ
جلوتَ سناها من سنا السيف والرمح
ترد إلينا عن سهامك فيهمُ
سهامَ عيونٍ حربُها موشِكُ الصلح
وتسفر عن أشباهِ ما نضحت به
سيوفٌ سبتها من دمٍ شَرِقِ النَّضح
فهاتيكَ أمُّ الكفر «ناجرُ» بعدها
ظلاماً بلا نجم وليلاً بلاصبح
لبستَ بها ثوب الفخار مجدداً
وغادرتها تلتف في خَلَقِ المِسح
تُباكي صدى الهام التي تركت بها
سيوفُك عن ذات المحاسن والملح
وعبرةِ ثكلى ما تقلِّب ناظراً
إلى أُفُقٍ إلا يقول لها: سُحِّي
وينعى إليها كلَّ بيْضة فتنةٍ
ستتركُها قَيْضاً[1] هشيماً بلا مُحِّ
بما قد رأى في كل ماءٍ أممتَه
لتشفيَ منها غُلة الظمَإ البَرح
وإنْ أُشرِعَتْ من دون مشربه القنا
وكاشر عنه الأسْدُ داميَة الألَحي[2]

---

(١) القيض هو قشرة البيضة العليا اليابسة، وهو كذلك ما تفلق من قشور البيض.
(٢) الألحي جمع لَحْي (بفتحة فسكون) وهو منبت اللحية من الإنسان.

فـــأيَّ دلاءٍ فـــيه أدلـــيت مـــاتحـــاً
وأيــةَ أشــطـــانٍ مــددت إلى المــتْح[1]
هــوائمُ بِــيضٌ لا يُــصــد بـــهـــا الــرِّوى
وسـمـرٌ ظـمـاء لا يُـعـلَّـلن بـالـنـشح[2]
....
....[3]

****

(١) المتح هو جذب رشاء الدلو للاستقاء.
(٢) الروى (بكسر ففتحة) هو الريّ مصدر روى، والنشح هو الشرب القليل الذي لا يروي.
(٣) يتلو نهاية هذه الورقة (رقم ٧٥) خرم ورقة واحدة (رقم ٧٦) وفيها نهاية هذه القصيدة وأول القصيدة التالية.

(٧٣)

[وله أيضاً في مدح يحيى بن منذر][1].

[من المتقارب]

....

....

وفـــيـــهن أضـــحـــيت يـــوم الأضـــاحي

كـــتـــائبَ مـــســـتـــقـــدمـــات الـــتـــهـــادي

بـــأجـــمعِ مـــولًى لـــشـــمل الـــعـــبـــيـــد

وأخـــشع عـــبـــدٍ لـــرب الـــعـــبـــاد

فـــأوســـعـــتـــهن نـــظـــام المـــصـــلى

وقـــد غص مـــنـــهن رحب الـــبلاد

مُلاعـــبـــةً لـــلـــصَّـــبـــا بـــالـــنـــواصي

مـــســـامـــيـــةً لـــلـــقـــنـــا بـــالـــهـــوادي

تـــكـــاد تـــفـــهَّمُ فـــصل الخـــطـــاب

بـــتـــعـــويـــدهـــا لاسـمك المـــســـتـــعـــاد

وعـــرفـــانِه في شـــعـــار الحـــروب

وتِـــبـــيـــانه في صـــريخ المـــنـــادي

وتـــرديـــده[2] في مـــجـــال الـــطـــعـــان

وتـــكـــريـــره في مـــكـــر الـــطـــراد

وفي كل ذكـــرٍ وفـــخـــرٍ ونـــشـــرٍ

وشـــكـــرٍ وشـــعـــرٍ وشـــدوٍ وشـــاد

---

(١) ذهب عنوان هذه القصيدة وأولها في الخرم الذي أشرنا إليه في الحاشية السابقة.

(٢) في الأصل: وترديديه.

فلما قضوا بك حق السلام

ثنوا لك حق سلامٍ معاد

فوافى قصورك وفدُ السلام

بأيمن حادٍ إليها وهاد

يخوضون نحوك بحر العوالي

تموج بها أبحرٌ من جياد

لملْءِ عيونهمُ من بهاء

ومَلءِ صدورهم من وداد

بمرأى هُداهم إلى هَدْي هودٍ

وعادَ إليهم بأحلام عاد

وقد ذكَّرتهم جِفاناً نمتكَ

إلى كل مُلكٍ رفيع العماد

مطاعمُ مُدت بها في الصحون

موائدُ مستبشرات التمادي

وكم خطَّ جودُك بالمسك فيهم

شهادته لمليكٍ جواد

سطوراً محون بياض المشيب

بنورٍ مَحَامِنْهُ لونَ السواد

وراح قرينُ الشباب النضير

وفَوْداهُ خَطَّا شبابٍ مُفاد

مشاهدُ غلَّفت[1] منها الزمانَ

بغاليةٍ مسكُها من مدادي

فأشعرتها كل برٍّ وبحرٍ

وأنشقْتَها كل سارٍ وغاد

---

(١) التغليف بالغالية (وهي ضرب مركب من الطيب) هو تلطيخ ظاهر الشعر بها.

وأتـبـعـتَـهـا[1] من كِـبـاء الـثـنـاء
عـجـاجـاً يـهُب إلى كل نـاد
نـوافجُ مِـجـمَـرُها من ضـلـوعي
تـؤجـجـهـا جـمـرةٌ من فـؤادي
بمـا عـلَّمَ الـهـنـدَ أنك أمـضى
غـداة الـوغى من ظُـبـاة الحِـداد
وأن ثـنـاءك أزكى وأذكى
عـلى الـدهـر من طـيـبه المـسـتـجـاد
سـوائمُ فـخـرٍ عـلت عن مُـسـيم
يـرود بـهـا مـرتع الإقـتـصـاد
ودعـوى هـوى لم يـزر في كـراه
خـيـالٌ ولا خـاطـرٌ في فـؤاد
وتـلـك عُلاك تُـهـادي الـعـيـونَ
كـواكبَ مـقـتـربـات الـبـعـاد
أوانسُ تـأبى لـهـا أن تـصُـدَّ
مـقـادمُـهـا في الـوغى أو تُـصـادي[2]
كـواعبُ مـجـدك حـلَّـيْـتَـهُن
بـزُهـر المـسـاعي وبِـيض الأيـادي
نجـومٌ تـنـيـر بـنـور الأمـاني
وطـوراً تـنـوء بـغُـر الـغـوادي
فـأولُ أنـوائِـهـا مـنك بِـشْـرٌ
وفيٌّ الـعـهـود بـصـوْبِ الـعـهـاد
حـيـاً صـدقُه مـنك في اسم وفـعل
وشـاهـده في الـورى مـنك بـاد

(١) في الأصل: وأنبعتها. والكباء هو ضرب من العود يتبخر به.
(٢) أي تداري وتساتر.

وســــمـــــاك ربك مـــــأمـــــونَ غـــــيثٍ
عـــلـى نـــشــره رحـــمـــةٌ لـــلــعـــبـــاد
غـــمـــامٌ يـــئـــودُ مـــتـــونَ الـــريـــاح
ويـــزجـــيـــه لـــلـــروع مـــتنُ الجـــواد
فـــمن راحـــةٍ ريـــحُـــهـــا الارتـــيـــاحُ
ومن مـــــاء صـــــادٍ[1] إلـى كل صـــــاد
وسُـقـيـا عَـنـان[2] بـثـني الـعِـنـان
وبـــــارقُه في مـــنـــاط الـــنـــجـــاد
فـــــأشــــرق في روضـه كلُّ حَـــــزن
وأغـــــــدق من وبـــــــلـه كلُّ واد
وذاب بـــــأنــــدائه كلُّ فـــــصلٍ
يُـــكـــذِّب فـــيه حـــديثَ الجـــمـــاد
ربـــيعُ المـــصـــيف ربـــيعُ الـــشـــتـــاء
مَـــريعُ الحُـــزون مـــريع الـــوهـــاد
ومن روضـه ســـرواتُ الـــكـــمـــاة
تـــثـــنى عـــلـى صـــهـــوات الجـــيـــاد
ومن زهـــره ســـابـــغـــات الـــدروع
وبـيض الـصـفـاح وسـمـر الـصِّـعـاد
وأيـــنِعْ بـــهـــا في وَقـــود الـــطـــعـــان
وأنـــضِـــرْ بـــهـــا في ضِـــرام الجلاد
وأيُّ فـــــواتحِ وردٍ نـــــضـــــيـــــد
مـــواقـــعُـــهـــا في نـــحـــور الأعـــادي
وكم غـــــادرت لمـــــهبِّ الـــريـــــاح
ســنـا جـسـدٍ شَـرِقٍ بـالجِـسـاد[3]

(١) أي أصيد، وأما «صاد» الثانية فمعناها الظامىء.
(٢) أي سحاب.
(٣) الجساد هو الزعفران أو نحوه من الاصباغ.

ريـــاضـــاً قـــســـمتَ أزاهـــيـــرهن
لـــعـــز الـــمُـــوالي وخـــزي المـــعـــادي
فـــأهـــديـــتـــهـــا لأنـــوف الـــغَـــنـــاء
وأرغـــمت مـــنـــهـــا أنـــوف الـــعـــنـــاد
وأوردتـــــهـــــا كل بـــــحـــــر يمـــــور
بمـــا يُـــلـــبسُ الـــشـــهبَ لـــونَ الـــوِراد
ودُست بـــــهـــــا كل صـــــعب المـــــرام
وقـــدت بـــهـــا كل عـــاصي الـــقـــيـــاد
إذا مـــا تـــنـــادت لجـــمع ثـــنـــتـــه
مـــجـــيبَ المـــنـــادي لـــيـــوم الـــتـــنـــادي
بـــهن شـــعـــبت عـــصي الـــشـــقـــاق
وعـــنـــهن أوضـــحت سُـــبْل الـــرشـــاد
فـــأودعـــتـــهـــا في نـــواصي الـــريـــاح
لـــتـــنـــثـــرهـــا في أقـــاصي الـــبلاد
فـكم أنـبت الـشـرق والـغـرب مـنـهـا
حـــدائق تـــغـــنـي عن الإرتـــيـــاد
ووقـفـاً عـلى سـقـيـهـا مـاءُ وجـهي
وفـــيضُ دمـــوعي ومـــا في مـــزادي
وكم حـصـد الـدهـرُ لـلـخـلـد مـنـهـا
ثـــمـــار الـــنـــهى وثـــمـــار الـــتـــهـــادي
فـــيـــا أرأسَ الـــرؤســـاء الجـــديـــرَ
بـــحـــكم الـــســـداد لـــقـــول الـــســـداد
أيـــغـــرُبُ عـــنـــدك نجمُ اغـــتـــرابي
ومـــطـــلـــعُه لك في الأرض بـــاد
وأسْـقي الـورى عـنك مـاءَ الحـيـاة
وأرشُفُ مـــنك حـــمِيَء الـــثِّـــمـــاد

وزرعيَ[1] فيك حصيد الخلود
وحظيَ منك لقيط الحصاد
سِداداً من العوز المستجار[2]
وأكثرُه عوز[3] من سداد[4]
قضاءٌ له في يدالإقتضاء
زِمامٌ ومن سابق البغي حاد
كعلمك من خطب دهر رماني
بأسهم واش وغاو وعاد
يسُلُّونَ بين الأماني وبيني
سيوف القلى ورماح البعاد
زمانٌ كأنْ قد تغذى لِسَعْيٍ
لعابَ أفاع وحيَّات واد
فأودع من نفثه حُرَّ صدري
سِماماً ليالِيَّ منها عِدادي[5]
وأطفأ نوري وناري عليما
بأن سُيضيء الدجى من رمادي
وهان عليه نَفاقي بفقدي
لبيع حياتيَ بيع الكساد
ولولا القضاء الذي فل عزمي
وآد شبا حدِّه متنَ آدي[6]

(١) في الأصل: وزرعتي، والصحيح ما أثبتنا.
(٢) في الأصل: المستجاز.
(٣) في الأصل: عون.
(٤) السداد بكسر السين هو ما يسد به، يقال: سداد من عوز أي ما تسد به الحاجة، أما السداد بالفتح فهو الإصابة في المنطق والتدبير.
(٥) عداد السليم (أي الملدوغ) أن تعد له سبعة أيام، فإن مضت رجوا له البرء وما لم تمض قيل هو في عداده أي قربت وفاته.

وأنـيَ دِنـتُ إلـــــــهي بــــــــدِين
من الــــصــــبـــر جل عن الإرتـــداد
لَـــغـــاضَتْ بـه قـــطـرة من ســحـــابي
وأودت بـه شـــــعــــلــــة من زنـــادي
ومـا انــفـرجت مُـبـهـمـات الخـطـوب
بمـــثل اشـــتـــداد الأمـــور الـــشـــداد
فـكِـلْـنِي لحـاجـبك المـســتـجـيـر
بــــذمــــته كلُّ قـــــار وبـــــاد[1]
لـيـقـسمَ لي سـهمَ حـمـدي وشـكـري
ويــــنـــزع ســـهم الأسى من فـــؤادي
لـيـقـتـادني بـيـد الإصـطـنـاع
ويـــخـــلع من يـــد دهـــري قـــيـــادي
ويـكـتب فـوق جـبـيـني ووجـهي
إلى نُـــوَب الــدهـــر: حـــيـــدي حَـــيـــاد
وحــــسبي فــإمـــا رِبـــاطي أراني
ثـــوابيَ مـــنه وإمـــا جِـــهــــادي
فـــإن شط عن غـــرب شـــأوي مـــداه
وعـــادت أمـــانيَّ مـــنه الـــعـــوادي
فـــأنت عـــلـــيه دلـــيـــلي وعـــوني
وجـــــدواك ذُخـــــري إلــــيه وزادي
فلا أبـــعـــد الــدهـــر مـــنـــكم حـــيـــاة
تـــلي نـــعـــمـــاً مـــالـــهـــا من نــفـــاد
ولا خـــذلـــتـــكم يـــد في عِـــنـــان
ولا خـــانـــكم عـــاتق في نِـــجـــاد

****

(١) القاري هو نازل القرية أو الحاضرة والبادي هو نازل البادية.

(٧٤)

وله فيه رحمهما الله وقد فَجَّر[١].

[من البسيط]

إنْ يــجْــرِ زاكي دمٍ لــلــحــمــد تُــتــلِــفُهُ
فـابـشِـرْ بـأحـمـدَ مـنه الـلهُ يُـخـلِـفُهُ[٢]

إمــا ســمــحت به لــلــجــو يــحــمــله
طــيــبــاً إلى كل روح عــنك يُــتــحــفه

فــقــد رأى الأرض تــأبــاه فــتــنــكــرُه
إذ لا ســـوى دم من عـــاداك تـــعـــرِفه

وأصـــبح الجـــو مـــنه روضـــة أُنُـــفـــاً
تــبــأى بــزَهــرك[٣] والأنــفــاسُ تــقْــطِــفه

فــاسـلـم فـإن كـانتِ الأنـفـاسُ طـبن به
فـــإن أطـــيب مـــنه فـــيك يُـــردفُه

****

---

(١) التفجير هو شق الجرح وبثقه.

(٢) هناك قطع أصاب الحافة اليمنى من هذه الصفحة في الأصل الفوتوغرافي من هذا الموضع حتى نهاية الصفحة، وقد ذهبت في هذا القطع أوائل الأبيات، على أننا قد اجتهدنا في استكمالها معتمدين على آثار ما بقي من حروف بعض الالفاظ ومع مراعاة السياق والوزن، ووضعنا كل ما قمنا بإضافته بين حاصرتين، وقد أثبتنا أقرب ما بدا لنا إلى الصواب، وباب الاجتهاد مفتوح على أية حال.

(٣) في الأصل: بزهره.

(٧٥)

وله أيضاً رحمه الله في المنصور أبي الحكم منذر بن يحيى رحمة الله عليه.

[من الطويل]

سماء العلا منكم وأنت لها بدرُ
وأخلاقك الحسنى كواكبها الزهرُ
وقد تم في هذا الورى بك أنعم
يقصر عن أدنى عوارفها الشكر
فمنها النُّهَى والحلم والدين والتقى
وبذل اللهى والجود والبأس والبر
وزحف إلى الأعداء أغراضه العدى
وسيف عن الإسلام إقدامه النصر
وبذلُك دون الثغر نفساً عزيزة
حمت عنه حتَّى عاد وهي له ثغر
وفي سر علم الله لي فيك أنني
ودادُك لي سر وحمدك لي جهر
وذكرك لي عز وعزك لي غنى
وبرك لي عهد وعهدك لي ذخر
وإنك أقصى ما بلغت من المنى
وإنك أسنى ما أفادنيَ الدهر
وإني وإن قصَّرتُ فيك مدائحي
فلا قِصَرٌ بالسلك إن عظُمَ الدر
وما قصَّرت بي همة عنك حُرة
ولا أمل حر ولا منطق حر

فـإن تـقـبل الـعـذر المـقُـصـِّـرَ طـولَــهـا
فـشُـغـلـي بـشـكـر الـلـه فـيك هـو الـعـذر

فلا قــصَّــرَ الــرحــمن عــنك ســيــادة
تــملأَّهــا عــمــراً يُــمــد به عُــمــر

وله فيه رحمهما الله أيضاً[1].

....

....

****

(١) الترقيم هنا منتظم بعد نهاية هذه الورقة، غير أنه لاشك في سقوط ورقة على الأقل في هذا الموضع، إذ إن ما تبدأ به الورقة رقم ٧٩ إنما هو نهاية القصيدة الميمية الواردة بعد.

(٧٧)

[وقال يمدح المنصور بن أبي عامر][1].

[من الكامل]

....

....

فكأن من حاني السحائب جُودَها
وكأن من صعق البروق حُسامَها

فعلَى سواكبِها إذا جادت رُبى
زهرِ الرجاء فواترتْ إنعامَها

أنْ تُتبِعِ الدلوَ السَّجُوفَ رشاءها
يوم الخوامِس والجوادَ لِجَامَها

لم تَطَّلِعْ زهرُ النجوم سوارياً
إلا رأته في السناء أمامها

يا رُبَّ شامخة الذوائب والذُّرى
أوطأْتَ أعلامَ الهُدى أعلامَها

أشرعتَ تنحُوها قسي عزائم
كانت هوادي المُقرَبات سهامها

الريحُ أحسرُ من يؤم محلها
والنجم أدنى من يديْ من رامها

فهتكت بالبِيض الرقاق سُجوفها
وفضَضْتَ بالجُرد العِتاق ختامَها

---

(١) بقية هذه القصيدة الميمية تدل على أنها قيلت في مدح المنصور ابن أبي عامر، إذ فيها إشارة إلى ابنيه: عبدالملك وعبدالرحمن، ويبدو أنها في وصف إحدى غزواته لنصارى شمال الأندلس.

ورفـعتَ من صُـلـبـانِ بـيـعَـةِ قـدسـهـا
نـاراً تـشب عـلـى الـضلال ضِـرامـهـا
ولـرُبَّ حـامـيـة الـوطـيس من الـردى
دلـفت وقـد كـستِ الـسـمـاءَ قـتـامـهـا
أقـحـمت أجـيـاد الجـيـاد مـكـرمـاً
فـصَـلِـينَ جـاحـمَـهـا وكـنت إمـامـهـا
فـاسـعَـدْ بـسِـبْـطيْ دولـة الـعَـرَب الـتي
بـسـنـاهـمـا جـلـتِ الخـطـوبُ ظلامـهـا:
عـبـدالمـلـيك حـسـامَـهـا وسـنـانـهـا
ومـجـنـهـا ومـلـيكـهـا وهـمـامـهـا
والـقـائـد الأعـلـى المـمـلك والـذي
زانت مـنـاقب مـجـده أيـامـهـا
لازال ديـنُ الـلـه يـأوِي ظـلَّـكم
مـا ظـلَّلت خُـضْـرُ الـغـصون حَـمـامـهـا

****

(٧٨)

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى[١].

[من الطويل]

دعي عزمات المستضام تسيرُ
فتُجدُ في عُرض الفلا وتغورُ

لعل بما أشجاكِ من لوعة النوى
يُعز ذليل أو يفك أسير

ألم تعلمي أن الثواء هو التوى[٢]
وأن بيوت العاجزين قبور

ولم تزجري طير السُّرى بحروفها
فتُنْبِئْكِ إن يَمَّنَّ[٣] فَهْي[٤] سُرور

---

(١) وردت مقتطفات من هذه القصيدة في المراجع الآتية:
- ابن بسام: الذخيرة - ق ١ - ٨٢/١-٨٤ (تسعة وعشرون بيتاً).
- الثعالبي: يتيمة الدهر - ١١٢/٢ - ١١٤ (ثمانية وثلاثون بيتاً).
- ابن خلكان: وفيات الأعيان (بتحقيق إحسان عباس) ١٣٥/١ - ١٣٧ (خمسة وعشرون بيتاً).
- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب (ط. القاهرة سنه ١٣٥٠هـ) ٣/ ٢١٨ - ٢١٩.
- المقري: نفح الطيب ٤٠٦/١ (بيتان)، ١٩٥/٣ (ثلاثة عشر بيتاً)، ٢٣٢/٣ (ثلاثة أبيات).
- الشريشي: شرح مقامات الحريري ٣٣٨/١ - ٣٣٩ (أربعة أبيات).
- الشريف الغرناطي: شرح مقصورة حازم القرطاجني ٤٣/١ (أربعة أبيات).
- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب ٢٧٤/٢ (بيتان).
- عبدالواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب (بتحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان، ص ٨٤ (بيتان).
- ابن فضل العمري: مسالك ٢٠٢/١١ - ٢٠٣ (ثلاثة وعشرون بيتاً).
- محمد بن الكتاني الطبيب: التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٦، رقم ١٨، ص ٢٤.

(٢) شذ ويت: النوى، والتوى: الهلاك.

(٣) في الأصل: يممن، وقد آثرنا قراءة اليتيمة. ومعنى يمن سرن يمينا.

(٤) يت: فهو.

تُـخـوفـني[1] طـولَ الـسـفـار وإنه[2]
لِـتـقـبـيلِ كف الـعـامـريِّ سـفـيـر
دعـيـني [3] أرد مـاء المـفـاوز آجـنـاً
إلى حـيث مـاءُ المـكـرمـات نمـيـر
وأخـتـلسِ الأيـامَ خـلـسـة فـاتك
إلى حـيث لي من غـدرهن [4] خـفـيـر
فـإنَّ[5] خـطـيـرات المـهـالك ضُـمَّنٌ
لـراكـبـهـا أن الجـزاء خـطـيـر
ولمـا تـدانت لـلـوداع وقـد هـفـا
بـصـبـريَ مـنـهـا أنـة وزفـيـر
تُـنـاشـدني عـهـدَ المـودة والـهـوى[6]
وفي المـهـد مـبـغـومُ الـنـداء صـغـيـر
عـيـيٌّ بمـرجـوع الخـطـاب[7] ولـفـظُه[8]
بمـوقع[9] أهـواء الـنـفـوس خـبـيـر
تـبـوأ ممـنـوع الـقـلـوب ومُـهـدت
له أذرع مـحـفـوفـة[10] ونُـحـور
فـكلٌّ مُـفـداة الـتـرائب مُـرضع
وكلٌّ مـحـيـاة المحـاسن ظـيـرُ

(١) يت: يخوفني، وكذلك في «مس».
(٢) ذخ: وأنه.
(٣) ذخ ويت: ذريني.
(٤) يت عدوهن.
(٥) نفح: وأن.
(٦) في الأصل: والنوى، وقد آثرنا القراءة التي أجمعت عليها الذخيرة واليتيمة.
(٧) شرح المقصورة: الجواب.
(٨) وف وشذ: ولحظه.
(٩) يت: بموضع.
(١٠) وف: معقوفة(!).

عـصـيت شـفـيع الـنـفس فـيه وقـادني
رواح لــتــدأب[١] الــســرى[٢] وبــكــور
وطـار جنـاح الـشوق[٣] بي وهـفت بـهـا
جــوانـح من ذعــر الــفــراق تــطــيــر
لــئن ودعت مــني غــيــوراً فــإنــني
عـلـى عـزمـتي من شـجـوهـا لـغـيـور
ولـو شاهدتني [٤] والـصواخدُ [٥] تلـتظي
عــلـيَّ ورقــراق الــســراب يمــور
أُســلطُ حَــرَّ الــهــاجــرات إذا ســطــا
عـلـى حُـرِّ وجـهي والأصـيلُ هـجـيـر [٦]
وأســتــنـشق الــنـكـبـاءَ وهْي بـوارح[٧]
وأســتــوطئ[٨] الـرمـضـاءَ وهي تـفـور
ولــلــمـوت في عـيش الجـبـان تـلـون
ولــلــذعـر في سـمع الجـريء صـفـيـر
لــبـان لــهـا أني من الـضـيـم[٩] جـازع
وأني عــلــى مض الخــطــوب صــبــور
أمـيـر عـلـى غَـوْل الـتـنـائف[١٠] مـالَه
إذا ريـع إلا المــشــرفـيَّ وزيــر

(١) ذخ: بتدأب.
(٢) شذ: الثرى.
(٣) كذا في الأصل، وفي ذخ، ووف، وشذ، ويت: البين.
(٤) يت: وما شاهدتنا، ذخ: ولو شهدتني.
(٥) يت والضواحك (!)، ذخ، ووف، وشذ، ومس: والهواجر.
(٦) مس: أسلط جو الهاجرات... على وجهي..
(٧) يت: نوازح (!)، وف، وشذ: لوافح، ومس: لواقح.
(٨) يت: وأستمطئ.
(٩) في الأصل: «الـ» وبياض بعدها، وقد استكملناها نقلاً عن مسالك الأبصار وفي الوفيات والشذرات: البين.
(١٠) شذ: التنايف.

ولـو بـصُرت[1] بي والـسُّرى جُلُّ عـزمـتي
وجَــرسي لجِــنَّــان[2] الــفلاة ســمــيــر
وأعــتــسف المـومــاةَ في غــسق الــدجى
ولـلأُسْـد في غــيل الــغـِـيــاض زئــيــر
وقــد حَــوَّمت زُهــر الــنــجــوم كــأنــهــا
كــواعبُ[3] في خُــضــر الحــدائق حُــور
ودارت نُــجــوم الــقُــطب حــتى كــأنــهــا
كــئــوسُ مــهــاً[4] وَالَى بــهــنَّ مُــديــر
وقــد [5] خــيِّــلَت طُــرْق المجــرة أنــهــا
عــلى مــفــرق الــلــيل الــبــهــيم قــتــيــر
وثـــاقبَ عـــزمي والـــظلامُ مـــروِّع
وقــد غض أجــفــانَ الــنــجــوم فــتــور
لــقــد أيــقــنت أن المــنى طــوعُ هــمــتي
وأني بــعــطف الــعــامــريِّ جــديــر
وأني بـــذكـــراه لـــهـــمِّيَ زاجـــر
وأنيَ مـــنـه لـــلـــخـــطـــوب نـــذيـــر
وأيُّ فــتى لــلــدين والــمُــلك والــنـدى
وتــصــديق ظن الــراغــبــين نَــزور
مــجــيــرُ الــهـدى والــدين من كل مُــلــحــد
ولــيــس عــلــيــه لــلــضلال مــجــيــر
تـلاقت عــلــيــه من تــمــيم ويــعــرب
شــمــوسٌ تلالا[6] في الــعـلا وبــدور[7]

---

(١) يت: ولو شاهدتني.
(٢) يت: لحنان، وهي تصلح أيضاً للمعنى.
(٣) وف: كواكب.
(٤) يت: طلا، ومس: نهى، والمها هو البلور.
(٥) في الأصل: فقد، وآثرنا هنا القراءة التي أجمعت عليها الذخيرة واليتيمة والوفيات والشذرات والمسالك.
(٦) نفح (١٣٢/٢): تلاقي، هذا وقد جاءت في موضع آخر من نفح الطيب نفسه «تلالا» كما هي هنا (٢٦٤/١).
(٧) في الأصل: ويدور، وقد آثرنا القراءة التي أجمع عليها نفح الطيب في الموضعين، كذلك البيان المغرب واليتيمة، والمعجب.

من الحِـــمْـــيَـــرِيِّــــينَ الـــذين أكـــفُّـــهم
سـحـائبُ تـهـمي بـالـنـدى وبُـحـورُ[1]

ذوو دُولِ الــمُـلْكِ الـذي سـلـفت بــهـا
لــهـم أعـصــر مــوصــولــة ودهــور

لـــهـم بـــذلَ الـــدهـــرُ الأبـيُّ قـــيـــادَه
وهم سَـكَّـنـوا الأيــامَ وهـي نَـفـور

وهـم ضـربـوا الآفـاق شـرقـاً ومـغـربـاً
بـجـمع يـسـيـر الـنـصـر حـيث يـسـيـر

وهـم يـسـتـقـلـون الـحـيـاة لـراغب
ويـسـتـصـغـرون الـخـطـب وهـو كـبـيـر

وهم نـصـروا حـزب الـنـبـوة والـهـدى
ولـيس لـهـا في الـعـالمـين نـصـيـر

وهم[2] صـدقـوا بـالـوحي لما [3] أتـاهمُ
ومـا الـنـاس إلا عـانـد [4] وكـفـور

مـنـاقب يـعـيـا الـوصف عن كـنه قـدرهـا
ويـرجع عـنـهـا الـوهم وهـو حـسـيـر

ألا كل مــدح عن مــداك[5] مــقــصــر
وكل رجـــاء في ســـواك غـــرور

تـمـلـيت هـذا الـعـيـد عـدة[6] أعـصـر
تـوالـيك مـنـهـا أنـعم وحـبـور

ولا فـقـدت أيـامك الـغـر أنـفس
حـيـاتك أعـيـاد لـهـم وسـرور

(١) علق عبدالواحد المراكشي في المعجب على هذين البيتين بقوله: وكان (يعني المنصور ابن أبي عامر) معافري النسب وأمه تميمية اسمها فريهة بنت يحيي ابن زكريا التيميمي كان يعرف بابن برطل، ولذلك قال فيه أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج الشاعر المعروف بالقسطلي من قصيدة له...... (ثم ساق البيتين).

(٢) يت: هم.

(٣) يت: حين.

(٤) يت: عابد.

(٥) يت: نداك.

(٦) في الأصل: حدة، ولعل الأصوب ما أثبتنا.

ولما توافوا[1] للسلام ورفعت
عن الشمس في أفق الشروق ستور
وقد قام من زرق الأسنة دونها[2]
صفوف ومن بيض السيوف سطور
رأوا طاعة الرحمن كيف اعتزازها
وآيات صنع الله كيف تنير
وكيف استوى بالبحر والبدر [3] مجلس
وقام بعبء الراسيات سرير
فساروا [4] عجالاً والقلوب خوافق
وأدنوا [5] بطاء والنواظر صور
يقولون والإجلال يخرس ألسنا
وحازت عيون ملأها وصدور [6]
لقد حاط أعلام الهدى بك حائط
وقدر فيك المكرمات قدير
مقيم على بذل الرغائب واللهى
وفكرُك في أقصى البلاد يسير
وأين انتوى فَلُّ الضلالة فانتهى
وأين جيوش المسلمين تُغير
وحسبك من خفض النعيم مُعيِّداً
جهازٌ إلى أرض العدى ونفير
فَقُدها إلى الأعداء شُعثاً كأنها
أراقم في شُم الربى وصقور

---

(١) يت: تراءوا.
(٢) يت: دونه.
(٣) ذخ ونفح: بالبر والبحر.
(٤) ذخ ونفح: فجاءوا.
(٥) ذخ ونفح: وولوا.
(٦) يت: يقولون والأوجال تخرس ألسنا وحارت عيون منهم وصدور.

فعزمُك بالنصر العزيز مُخَبِّرٌ
وسعدك بالفتح المبين بشير
وناداك يا بن المنعمين ابنُ عشرة
وعبد لنُعماك الجسام شكور
غني بجدوى راحتيك وإنه
إلى سبب يُدني رضاك فقير
ومن دون سِترَيْ عفتي وتجملي
لرَيْبٌ[1] وصرف للزمان يجور
وضاءلَ قدري في ذَراك عوائق
جرت ليَ برحاً والقضاءُ عسير
وما شكر «النخْعِيُّ» شكري ولا وفى
وفائِيَ- إذ عزَّ الوفاءُ - «قصير»
فقُدني لكشف الخطب والخطبُ معضل[2]
وكِلني لليث الغاب وَهْو هصور
فقد[3] تُخفَضُ الأسماءُ وهي سواكن
ويعملُ في الفعل الصحيح ضمير
وتنبو الردينيات والطول وافر
ويَنفُذ[4] وقع السهم وهو قصير
حنانيكَ في غفران زلة تائب
وإن الذي يجزي به لَغَفور

****

(١) في الأصل: أريب، ولعل الصواب ما أثبتنا.
(٢) ذخ ويت: «أثرني لخطب الدهر والدهر معضل»، نفح: «أثرني لكشف الخطب والخطب مشكل».
(٣) ذخ ويت: وقد.
(٤) ذخ ويت ونفح: ويبعد.

(٧٩)

وقال في الحاجب سيف الدولة عبدالملك بن المنصور ابن أبي عامر رحمهم الله تعالى.

[من الكامل]

لـــو كـــان يـــعـــدل حـــاكم في حُـــكـــمِهِ
أو كـــان يُـــقـــصِـــرُ ظـــالم عن ظُـــلـــمِهِ

مـــا جُـــشِّمَ الـــدنفُ الـــســـقـــيم مُلامـــة
تُـــغـــري الـــهـــوى بـــغـــرامه وبـــسُـــقـــمه

هل صَمَّ ســـمـع عن جـــلـــيـــةِ عُـــذره
أو ضـــاق ذرع عن تـــغـــمُّـــد جُـــرمه

كَـــلِـــفـــاً يُـــكـــلـــفه الـــعـــذولُ تـــسلِّـــيـــاً
عن حُبّ من صَـــرَم الـــســـلـــو بـــصـــرمه

من عـــاذرِي من عـــاذلٍ عـــصـــيـــانُه
من هـــمـــتي وصـــبـــابـــتي من هـــمه؟

لمـــا صـــبـــوتُ قـــضى عـــليٌّ بـــظـــنه
فـــأجـــاز في خـــصم شـــهـــادة خـــصـــمه

يـــاويـــحه لـــو غـــالـــني صـــرف الـــردى
فَـــيَـــبُـــو[١] بـــإثم المـــســـتـــهـــام وإثـــمه

إن لم أمت ممـــا أقـــاسي في الأسى
وجـــداً فـــأوشك أن أمـــوت بـــزعـــمه

عـــهـــداً عـــلي لـــئن ظـــفـــرت بـــســـلـــوة
ممن هـــويت لأعـــشـــقن بـــرَغـــمه

---

(١) في الأصل: فيبوء، ولا يستقيم الوزن بها، وقد تكون «فيبوء باثم» أي مع جعل همزة إثم همزة وصل.

يـا حـاجـبـاً تُـزهى الـحـجـابـةُ والـعلا
وسـنـا المـراتب والـقـيـادةِ بـاسـمه
مـلك تحـكم في هـواه حـزمه
وأبـاح سـيفُ نـداه مـهـجـةَ حـزمه
وطـمـا عـلى الـعـافـين بـحـرُ سـمـاحه
فـحـوَى الـثـنـاء بـطِـمِّه وبـرِمِّه[1]
والحِـلمَ من مـيـراث «أحـنف» خـالهِ
والـبـأسَ من مـيـراث «عـمرٍو» عـمه[2]
بـأس تـمـيـدالأرض من روعـاته
ذعـراً وتـنـهـد الجـبـال لـعـزمه
مـتـقـحمُ الأهـوال في ضـنك الـوغى
فـكـأن نـفس عـدوه في جـسـمه[3]
ضـرب الـزمـانَ بِـسَـيْـبِه وبـسـيـفه
حـتى اسـتـقـادَ لأمـره ولحـكـمه
ومـضى لأمـر الـله لـمَّـا أنْ مـضت
عـلـيـاه في مـكـنـون سـابق عـلـمه

(١) يقال «جاء بالطم والرم» أي جاء بالبحر والبر أو بالأخضر واليابس، ويقصد الشاعر أنه حوى الثناء كله.

(٢) يعني بالأحنف أبا بحر الأحنف بن قيس التميمي من سادة العرب المشهورين المعروفين بالحلم، وأما عمرو فهو عمرو بن معد يكرب الزبيدي الفارس المعروف، وإنما قصد الشاعر التذكير بنسب المظفر بن المنصور بن أبي عامر، ومن المعروف أن عمومته في بني معافر اليمنيين (انظر ابن حزم: جمهرة الأنساب ص ٣٩٣)، أما خئولته فكانت في تميم إذ كان عبدالله بن محمد بن أبي عامر والد المنصور قد أصهر إلى بني برطال التميميين القرطبيين (انظر ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب ٢/٢٥٧)، وإلى ذلك أشار ابن دراج أيضاً في قصيدته الرائية المتقدمة في مدح المنصور بن أبي عامر إذ يقول:

تلاقت عليه من تميم ويعرب　　　شموس تلألأ في العلا وبدور

(٣) ورد هذا البيت في مختارات ابن الكتاني الطبيب في كتابه «التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» القطعة رقم ٤٥٨ ص ٢١٩، وبعده بيت آخر لم يرد في الديوان ، وهو:

كالموت غال بفجئه والليث صا　　　ل ببأسه، والسيب جاح بحطمهِ

مـــــتـــــشـــــاكهُ الحـــــالات من أدواتـه
في حــــربه وخلالِه في سَـــــلـــــمه[1]
فـــكـــأن حـــد ســـنـــانه من بـــأسه
وكـأن صـفـحـة سـيـفه من حـلـمه[2]
فـــبــــهـــاؤه في نــــصـــله، وذكـــاؤه
في رمـــحه، ومـــضـــاؤه في ســـهـــمه
هـدمت صـروفُ الـدهـر مـا لم تـبـنه
وأبـــاحت الأيـــام مـــا لـم تحـــمه
ولـرُبَّ مُـشـعـلـة الـسـيـوف طـمـسـتَـها
قِـدْمـاً كـمـا فـعل الـصـبـاحُ بـنـجـمه
تـأوى الـنـجـوم الـزهـر في شـرفـاته
ويـزِلُّ عن عـلـيـاه مـعـقِل عُـصـمه
بـرَّدْتَ أحـشـاء الـهـدى بـضـرامه
وبـــنـــيت أركـــان الـــعلا من هـــدمه
فـاسـعَـدْ بـعـيـدٍ أنـتمُ أعـيـاده
وسـنِيُّ مـفـخـره وأنـفسُ قِـسـمه
بـأعـزِّ يـوم في الـدنـا وأجـله
وأخصِّ صُـنع في المـنى وأعـمِّه[3]

****

(١) بقية هذه القصيدة هي الأبيات التسعة التي تبدأ بهذا البيت هي التي وردت – كما يرى – في أول الورقة رقم ٦ (أ)، وقد سبق أن نبهنا إلى وقوع خطأ ترقيم في أوراق الديوان ترتب عليه أن فصل بين أول هذه القصيدة الميمية وآخرها. وقد أعدنا للأبيات ترتيبها الطبيعي.

(٢) ورد هذا البيت والذي يليه في مختارات ابن الكتاني الطبيب في كتابه «التشبيهات من أشعار أهل الأندلس»، القطعة رقم ٤١٤ ص ١٩٩ – ٢٠٠.

(٣) في الأصل: وأنمه، وما أثبتناه أصوب، وقد تكون أيضاً: وأتمه.

(٨٠)

وله رحمه الله في بعض خدم سرقسطة.

[من الكامل]

أعـيـا شـفـاءُ الـهم إن لم تـشـفه
وعـتـا مُـلم الخـطب إن لم تـكـفِه

وبك استـبـان الـصبحَ طـارقُ لـيـله
والـتـذ طـعمَ الأمن خـائفُ حـتـفه

ولـرُبَّ خـطب لم تـضق ذرعـاً به
ويـضـيقُ ذرع الـواصـفـين بـوصـفه

لم تـلـقك الـضـراءُ نـابيَ حـده
كلا[1] ولا الـسـراءُ ثـانِيَ عِـطـفه

نِـعْمَ الـمُـقـدِّرُ للأمـور بـرِفـقه
ركب الـزمـانَ ومـا اشـتـكى من عـنـفه

رحُـبَت حـدائـقه لمـرتع مُـخـصب
وصـفت مـشـاربُه لمـورد مُـرفه

مـسـتـكـملُ الإنـعـام قـبل أوانه
مـثل الـهلالِ تـمـامُه في نـصـفه

مُـغـرى الـيـدين بـضِـعف ما رجتِ المنى
بـدءاً وأجـدرْ أن يـعـود بـضِـعـفه

ومُـسـرَبل من حـلـمه وذكـائه
حـللا مـطـرزة بـبـارع ظَـرفه

---

(١) إضافة نرى أن الوزن يقتضيها.

شيم سقاني صفوَها[1] فسقيتُه
ما شاء من صفو الوداد وصِرفه
فتركتَ صدرَ المجد لابسَ عِقده
مني وجيدَ الجود مُسبل شَنفه
والأرضُ آذنة لصوت ثنائها
من هاتف تُصغي البلاد لهَتفه
فليَأتِيَنَّك شكر من لم تُوله
عني وصفوُ ثناء من لم تُصْفه
من كل موصول الغرام بقلبه
أسفاً لبعدي والسهادِ بطَرفه
ومُغرَّبٍ تبكي السماء لشجوه
مني وتلتهف النجوم للهفه
لولا قضاء فراقه وطلبتَه
في غير جفني ماثلاً لم تُلفه
أبُنَيَّ لاح الفجر إذ بلغ الدجى
أمداً فسَلِّ الهم إن لم تَشْفه
وتركتُ غَوْلَ البَر مُعدِمِ أنسه
مني وهول البحر فاقد إلفه
هذا على خفق الشراع وقلسه[2]
حُرُم وذاك على البعير وخُفه
وقصرتُ ليلي بالسرور منفساً
من طول ليل الناجيات وعسفه
بالحاجب الأعلى المجير لهمتي
حتى أُجِرتُ من الزمان وصَرفه

(١) في الأصل: صفوه، والسياق يقتضي ما أثبتنا.
(٢) القلس: حبل غليظ من حبال السفن يتخذ من ليف أو خوص.

مــلك يُلاقي الــعــلمَ راضِيَ ســعــيه
فــيــرد عــنه الجــهل راغم أنــفه
وإذا تــألق بــارق من ســيــفه
في الـروع أشـفـقت[1] الـربى من خـطـفه
أو لاح في رهـج شــهــاب ســنــانه
نــذِرتْ شــيــاطــين الــضلال بــقــذفه
قــاد الجــيــاد إلى الجــهــاد وحــفــني
بــنــدى يــديه تحت ظِــليْ سَــجــفه
بــوزيــره الــغــادي إليّ بــبــره
وأمــيــنه الحــاني عــليّ بــعــطــفه
أَظْـلـمتُ فـاسـتـوقـدتُ نـورَ جـبـيـنه
وظـمـئت فـاسـتـسـقـيْتُ وابلَ كـفه
وبه جـزيتُ الـنـائـبـات بـصـاعـهـا
صـاعـاً وسُمتُ الـدهـر خُـطـة خـسـفه
فــإذا أَحِلُّ فــفي مُــضــاعف بــره
أو أســتــقل فــفي مــضــاعف زَغــفه
ولــيــعــلمِ الأقــرانُ حــين تــدِب لي
تحت الــوغى أني لحــقت بــصــفه
ولــئن نــهَــدتُ إلــيــهمُ فـبـسـيـفه
ولــئن كــررت عــلــيــهمُ فــبــطَــرفه
كــرَمــاً بــفــطــرة هــمــة وســيــادة
أغــلــيْتُ في تِــبْــرِ الــثــنــاء بـصَـرفه
ونَــدًى هــديْتُ المــنــعــمــين ســبــيــله
ســبْــقــاً وأقــرأتُ الــكــرام بــحــرفه

---

(١) هذه الكلمة مطموسة في الأصل لا تظهر إلا بعض حروفها، وهي: أشـ....ت.

فــاســمـع فــقــد أهــديــتُــهــا لك غــادة
تــلــهــيك عن لــثم الحــبــيب ورشــفه

جــاءتك تــزجــر طــيــرَ واجب مــهــرهــا
في نــســبــة لك كُــرمت عن خُــلــفه

أَنــستْ بــبُــرء الــهم في اسـمك بــعــدمــا
كــســفت ســنــا بــدري ديــاجي كِــسفه

بــكــراً تحــلت جــوهــرَ الــشــكــر الــذي
أنت الــوفي بــحــقه فــاســتــوفه

فــلَــيَــنْــجُــمَنَّ عــلى الــنــجــوم بــحــسنه
ولــيَــعــرِفَنَّ الجــوُّ نــفــحــةَ عَــرفه

ولَــيُــزْهَــيَنَّ عــلى الــغــمــام نــفــاســة
من صــادَ مــثــلي في حــبــائل عُــرفه

****

(٨١)

وله أيضاً رحمه الله(١).

[من الطويل]

سلام(٢) على مستودع الروح والنفْسِ
وذُخرِ غَدِي مما انتحبتُ له أمسِ
بحيث تخطيتُ المنايا إلى المنى
وآنس وَحشي بالفلا كرمُ الأنس
وحيث اعتلى «بالمعتلي» صوتُ رائدي
مُهِلا إلى خِمْسِي(٣) بأنمُله الخمس
وحيث سقى «يحيى» حياتي فأينعت
له من ثنائي زهرةُ الجن والإنس
فمن يد أنفاسي إلى منتهى الدنا
ومن خط أقلامي إلى مطلع الشمس
شواردُ لولا حلم «يحيى» دنا بها
لجلت أدانيها عن الشم(٤) واللمس
فكيف بأن أُزري بها فأَبيعها
- كما زعم الواشون - بالثمن البخس؟

---

(١) هذه القصيدة قيلت في مدح يحيى بن علي بن حمود الحسني الملقب بالمعتلي بالله، وقد تولى الخلافة مرتين: الأولى بقرطبة في جمادَى الأولى سنة ٤١٢ بعد فرار عمه القاسم بن حمود ثاني الخلفاء الحموديين العلويين، وفر من قرطبة في ذي القعدة سنة ٤١٣، وأما المرة الثانية فكانت بعد خلع المستكفي بالله الأموي وكان بمالقة فقدم إلى قرطبة حيث بويع في رمضان سنة ٤١٦ وبقي بها ثلاثة أشهر حتى خرج منها إلى مالقة (انظر البيان المغرب ٣/١٣١ - ١٣٢، ١٤٣ - ١٤٥).

(٢) هذه الكلمة مكررة في الأصل، والوزن يقتضي حذف إحداهما.

(٣) في الأصل: خمسى. والخمس من أظماء الإبل، وهو أن ترد الماء في اليوم الخامس بعد إظمائها أربعة أيام.

(٤) في الأصل: الشمس، والصواب ما أثبتنا.

وكم فـتَّـقَت في الأرض من وقـر مـسـمع
وكم أنـطـقت بـالحـمـد من ألـسن خُـرس
ثـــنــــاءٌ عـــلـى من ردَّ روحـيَ رَوْحُـه
وقــرب أنــفــاس الحــيــاة من الــنــفس
فـهل أنـا مُـسـد لُـبْس هـجـوي لمـنـعم
كساني فسدًى من هـجـاء اسمه لِبْسي
فـأصـبـحتُ مـنه في حُـلى لـو أَفـكْـتُـهـا
لطُفتُ بـهـا في الأرض تـنضح بـالـرجس
وهل أنـــا عـــني خـــالـع تـــاجَ عُـــرفه
فـأهـوي به في هُـوة الخـسف والـنَّكس
كـأنيَ قـد أنـهـجت لِـبـسي من الـهـدى
وأصـبـحتُ من مـنـهـاج جَـدِّكَ[1] في لَـبْس
وأنـــكـــرت حق الـــلـه فـــيـــكم مـــودةً
على كل من أمسى على[2] الأرض أو يمسي
وحــطِّيَ رحــلـي مــنك بــين مــكــارم
يمـزقن عـني راكـد الـظُّـلَمِ الـطُّـمس
وبـحـرُك[3] لي يـخـتـال بـالخـيل والمـهـا
وبَــرك لي يــنــهل بـــالــبِـــر والأنس
فـمن ذا الـذي من بـعـد أرضي ومـشـهـدي
تـخـبَّـطَه شـيـطـانُ ضِـغـني من المس
فـدبَّ بمـا لــو سـامـني الخـوفُ ذكـرَه
لمـا جـال في وهـمي ولا دب من حـسي
ولـــو رُدَّ فيَّ الـــروحُ من قـــتـل قـــاتل
لمـا بـات من ذمي وعـتـبي عـلى وجس

(١) يقصد بجده رسول الله محمداً عليه الصلاة والسلام إشارة إلى نسبه العلوي الفاطمي.
(٢) في الأصل: في، ولا يستقيم الوزن إلا بما أثبتنا.
(٣) ربما كان الأوفق أن يعكس ترتيب هاتين الكلمتين أي أن يكون البيت: وبرك لي يختال...، وبحرك لي ينهل.

وكيف بكفري من هدى وابن من هدى
أبوكَ ويمناك التي أثمرت غرسي
وهبني ذممتُ العالمين فكيف لي
بذميَ من أودعتُ راحتَه نفسي
وإن اختلاق الغَدر عني لِحاسدٍ
لأدنى له أن يصبغ الشمسَ بالنِّقس
وإن أخا غسانَ عندي لَذُويَدٍ
بك ابتاع مني شكرَها غيرَ ذي وكس
غداة تجلى لي بذكرك فاجتلى
عروسَ ثنائي فيك مشهودة العرس
فلم يُلْفِ صدري خامداً نارُ شوقه
إليك ولكن ضم قبْساً إلى قبْس
ولا زادني في حفظ عهدك بسطة
سوى أن حفظ العلم أثبتُ بالدرس
وطيبُ حديثي عنك صادف مُصغياً
لأفصحِ مُقتصٍ وأربحِ مُقْتَسٍّ[1]
فراسلَ نشري عنك شدواً بشدوه
ونادَمَ حمدي فيك كأساً إلى كأس
أياديك في أولى الزمان وإنها
لأدنى إلى ذكري ونشريَ من أمسي
لياليَ في مأواك أمني من الردى
وفي ظلك الممدود نشري من الرمس
ومضجعُ طِيب النومِ في أمد السرى
ومشربُ عذب الماء في منتهى الخِمس

(١) المقتس: مشتق من اقتس الشيء وقسه أي تتبعه وطلبه، وقد تكون كذلك «معتس» من اعتس الشيء أي طلبه.

فلا زال دينُ الله منك بمعقل
منيع وسَمكُ الحق منك على أُسِّ
ولا رمتِ الأقدارُ عنك مُعانداً
بأفوَقَ مفلولِ الغِرار ولا نِكْس[1]
ولا مات من والاك من غُربة النوى
ولا عاش من عاداك من عثرة التَّعْسِ

****

---

(١) السهم الأفوق: هو الذي في فُوقه (بضم الفاء) ميل أو انكسار، والفوق: هو مشق رأس السهم حيث يقع الوتر، والنكس من السهام: أضعفها.

(٨٢)

وله أيضاً رحمه الله[١].

[من الكامل]

نـــور الـــوفـــاء بـــأرضـــنـــا لك ســـاطِعُ
والحق شـــمـل عـــنـــدنـــا بك جـــامعُ

هـديت إلى «المـنـصـور» دعـوتك الـتي
صِـدقُ الـوداد بـهـا إلـيه شـافع

وأواصـــر نـــزعت بـــهن عـــنـــاصـــر
حـــنت وهن لـــشـــكـــلـــهن نـــوازع

تـلك المـعـاهـد من عـهـودك عـنـده
لم يـعـفـهن مـصـائف ومـرابع

صـــدقت فلا بـــرق المـــودة خـــلـب
مـــنـــهـــا ولا غـــيم الـــقـــرابـــة خـــادع

بـــوســـائل هـــتـــفت بـــهن جـــوانح
فـــتـــفـــرجت لـــقَـــبـــولـــهن أضـــالع

فَـهِيَ الـظـمـاء إلى المـيـاه شـوارع
وهي الـطـيـور إلى الـوكـور قـواطع

طُـويت لـهـا بُـعُـدُ الـتـنـائف وانـزوى
لـدنـوهـا مـنه الـفـضـاء الـواسع

وقَـدحْنَ بـالـمَـرْخِ الـعَـفـارَ فـأقـلـعـا
والـلـيلُ بـيـنـهـمـا[٢] نـهـار ساطع

---

(١) هذه القصيدة في مدح منذر بن يحيى التجيبي ملك سرقسطة.

(٢) في الأصل: بينكما، ولعل الأصوب ما أثبتنا.

وزرعن في الترب الكريم مكارماً
أوفت لحاسدها بما هو زارع
نادى المنادي من «مَناد» مُسمعاً
فأجابه «لِتُجِيبَ» رأي سامع
بشوابك الرحم الموصَّلة التي
وُصلَ الوَصولُ بها وجُبَّ القاطع
أشرقن والأيامُ ليل دامس
وحلون[1] والأنسابُ سُمٌّ ناقع
برعاية لا هدْيُ هود غائب
عنها ولا إيصاءُ يعرُبَ ضائع
ودنوها دين لكم وفرائض
وسناؤها سنن لكم وشرائع
فإذا تُثوِّبُ فالقلوب نواظر
وإذا تُنادي فالنفوس سوامع
بعواطفِ اليَمَن التي أنتم لها
وهِيَ اليمين أنامل وأصابع
جمعتكمُ ببطونهن حوامل
وغذتكُمُ[2] بثُديِهِنَّ مراضِعُ
ونحورُها مأوى لكم ومعايش
وحجورها مثوى لكم ومضاجع
فتبعتمُ آثار ما نهجت لكم
في النصر أذواء لكم وتبابع
قهروا الجبابر فالرقابُ مَقاطع
لسيوفهم أو فالرقابُ خواضع

(١) في الأصل: وجلون، وما أثبتناه أنسب.

وسروا إلى داعي الهوى فمُصدِّقٌ
ومُسابق ومبادرٍ ومُبايِعُ
الناصرين الناصحين فما لهم
في غير ما يرضي الإله مَوازع
ما أُشرِعت في الناكثين رماحُهم
إلا وبابُ النصر منها شارع
وإذا سيوفُهُمُ لمعن لوقعة
جلل فوجهُ الفتح فيها لامع
لم يرفعوا راياتهم إلا علت
والحق مرفوع بهن ورافع
فالدينُ أعلام لهم ومعالم
والكفر أشلاء لهم ومصارع
أبني «مَنادٍ» إن تُنادوا للندى
أو للطعان فمُسرع ومُسارع
أو تغضبوا فمعارك ومهالك
أو ترتضوا فقطائع وصنائع
أو تركبوا فمَناظرٌ ومَخابر
أو تنزِلوا فمَشاهد ومَجامع
الشامُ شامُكُمُ ومصرٌ مصرُكم
والمغربان لكم حمى ومراتع
والمشرق الأعلى أبو الحَكَمِ الذي
ناديتُمُ فالدهر عبد طائع[1]
أصفى الملوكَ فناصر أو واصل
وصفا الأنامُ فعائذ أو خاضع

(١) في الأصل: طالع، والأفضل ما أثبتناه.

لم يَطلُعِ البدرُ المنير ببلدة
إلا لكم فيها هلال طالع
ولكمْ بدار المُلْكِ من «سَرْقُسْطَةٍ»
قلم لأقلام البرية فارع
بمفاخرٍ من «مُنذرٍ» ومآثر
نظمت بمنطقه فهن شوائع
وبها له في المغربين مغارب
ولذكره في المشرقين مطالع
سكنت بها الآفاقُ وهْيَ غرائبُ
واستأنست بالعلم وهْيَ بدائع
فالجوُّ من فحواه مِسك فائح
والأرض من يُمناه روض يانع
من بعدما ولدته من صنهاجةٍ
شيَم إلى مَلك الملوك شوافع[1]
ومناقب ومناصب وضرائب
وصوائب وثواقب ولوامع
فبها يُسابق نحوها ويُشايع
وبها إلى يُمنى يديه يُنازع
إن تُشرق الدنيا ببارع ذكره
فمحله عند «ابن يحيى» بارع
مُستودَعاً لكُمُ مليكاً نفسُه
وحياتُه في راحتيه ودائع
فاسعَدْ «أبا مسعودَ»[2] بالهمم التي
عَلِيتَ فهُن إلى النجوم نوازع

(١) في الأصل: شواسع.
(٢) «أبو مسعود» المذكور هنا هو القائد الذي سلفت الإشارة إليه في قصيدة في مدح منذر بن يحيى (ص ١٣٢) ويبدو من هذه القصيدة أنه كان من بني مناد الصنهاجيين الذين كانت منهم الأسرة التي حكمت إفريقية تحت طاعة الفاطميين بمصر.

إن كـان سـيْـبُكَ لـلـحـقـوق مـؤدِّيـاً
فـيـنـا فـسـيـفك لـلـحـقـائق مـانع

بـحـقـائق تجـلـو الخـطـوب كـأنمـا
ريب الـــزمـــان لـــهـــا كـــمـي دارع

ومـــواهب فـــيـــمـــا حـــويت كـــأنـــهـــا
فـــيـــمن غـــزوتَ ملاحم ووقـــائـع

وعـــلـــيك من نـــفـــسي سلام طـــيب
مـــتـــرادف مـــتـــواصل مـــتـــتـــابع

الـــغـــاديـــات بـه إلـــيك نـــوافح
والـــطـــارقـــات بـه عـــلـــيك ضـــوائع[1]

****

(١) هذه الكلمة في الأصل مطموسة تماماً، ونراها أقرب كلمة إلى أن تكون هي المراد. والضوائع جمع ضائعة من ضاع الريح يضوع أي نفح وسطع.

(٨٣)

وله يرثي بعض الفقهاء[1] وتُوفِيَ في طريق الحج رحمة الله عليهما.

[من البسيط]

مـا أحـسن الـصـبرَ فـيـمـا يـحسُنُ الجزعُ
وأوْجَـدَ الـيـأسَ مـا قـد أعـدمَ الـطـمعُ
ولـلـمـنـايـا سـهـام غـيـرُ طـائـشـة
وذو الـنـهى بـجـمـيل الـصـبـر مـدرع
فـإن خـلـت للأسى في شـجـوهـا سـنن
فـطـالما أحـمـدت في كـظـمـهـا الـبـدع
ولـلـفـجـائع أقـدار وأفـجَـعُـهـا
لـلـنـفس حـيث تـرى أظـفـارَهـا تـقع
كـأن لـلـمـوت فـيـنـا ثـأرَ مـحـتـكم
فـمـا بـغـيـر الـكـريم الحـر يـقـتـنع
قـد خـبَّـرت نـفسُ «إسـمـاعـيلَ» في يـده
أنْ لـيـس عن حُـرمـات المجـد يـرتـدع
فاحتسبوا آل «إسماعيل» ما احتسبت
شم الـربى من غـمـام الـغـيث يـنـقـشع!

---

(١) لم يصرح جامع الديوان باسم هذا الفقيه، على أننا نعرف من قصيدة ابن دراج هذه في رثائه أنه كان يُسمَّى «إسماعيل» وأنه توفي بمصر في طريقه إلى الحج. وقد عثرنا في كتاب «بغية الملتمس» للضبي على ترجمة موجزة لفقيه يسمى إسماعيل بن محمد بن فورتش السرقسطي، توفي بمصر سنة ٤١٢ (١٠٢٢)، وقد زادنا ابن الأبار أخباراً عن إسماعيل هذا في ترجمة لابن له يسمى «محمد بن إسماعيل بن محمد المعروف بابن فورتش» فقال إنه (أي إسماعيل) كان قاضي سرقسطة ويقول ابن الأبار: إن محمد بن إسماعيل رحل مع أبيه فسمع بالقيروان من أبي عمران الفاسي في سنة ٤١ (١٠١٩) وإن أباه توفي في منصرفه بمصر سنة ٤١٢. والأرجح هو أن إسماعيل مرثي ابن دراج هو نفسه المذكور هذا (انظر البغية رقم ٥٣٦ والتكملة رقم ٤١٢).

واحتسبوا آل «إسماعيلَ» ما احتسبت
خيل الوغى من لواء الجيش ينصرع

ماذا إلى مصرَ من بِر ومن كرم
بعثتمُ مع وفد الله إذ رجعوا

حجوا به بهلال الفطر وانقلبوا
فاستودعوه ثرى مصرٍ وما ربعوا[1]

فأيُّ قدر رفيع حان مَحمله
في النعش يوماً على أكتافهم رفعوا

وأي مُختشِع لله مُتَّضع
حُرِّ الشمائل في حَر الثرى وضعوا

وغادروه ولا غدر بما فعلوا
وودعوه ولا باك لمن ودَعوا

تغدو عليه حَمام الأيك باكية
وتستهل على أكنافه القَلَع[2]

والريح تُهدي له من كل عارفة
عَرفاً وتحمِل عنه فوق ما تدع

فاستشعِروا آلَ إسماعيلَ تعزية
يُهدَى لها واعظ منكم ومستمِع

فإن غدا شَعبكم في الله مفترقاً
فإن شعبكُمُ في المجد مجتمع

وإن يُصدِّع قلوباً صدْعُ شملكمُ
فالصبر كالشمس حيث الفجر ينصدع

وإن جزعتم فرُزء لا يقوم له
فيض الدموع ولا يُشفى له وجع

---

(١) أي انتظروا وتوقفوا.

(٢) جمع قلعة بفتحتين وهي قطعة السحاب الضخمة العظيمة.

وإنْ صبرتم فمِن قوم إذا بُعثوا
لم يُوهِ عزمهمُ ذعر ولا فزع
قد وطنوا أنفساً للدهر ليس لها
إلا من الذم أن يدنوا لها جزع
كأنهم في نعيم العيش ما نعِموا
وفي الفجائع بالأحباب ما فُجعوا
لله من حُرَم الأموال ما بذلوا
جوداً ومن حُرَم الجيران ما منعوا
وما كَسَوْكُمْ من المجد الذي لبِسوا
واستحفظوكم من الصبر الذي شرَعوا
فاربِطْ لها يا أبا مروانَ جأْش فتىً
سما فأتبع حتى عاد يُتَّبع
وقد عضضت على ناب البزول فلا
يَغبنْكَ حسنَ العزاءِ الأزْلَمُ الجَذَع(1)
دهر شجاك وقد وفاك تعزية
جلت فليست بغير القلب تُستَمَعُ
بشرى لمن زود التقوى لمنقلَب
حيَّاه مُدخَر فيه ومُطَّلَع
بمِيتَة في سبيل الله أسلمه
فيها إلى ربه الأبناء والشيع
في حجة برها في الله متصل
بالمحرمين عن الأوطان منقطع
لبى من الغاية القصوى فجاوبه
حور الخيام(2) إلى لقياه تطَّلِع

(1) في الأصل، يغنيك، والتصويب عن «ق»، إذ هو الذي يستقيم به المعنى والسياق النحوي والبزول (بفتحة فضمة) هو في الأصل البعير إذا استكمل السنة الثامنة وطعن في التاسعة، وإنما هو كناية عن الاكتهال وكبر السن، ويقصد بالأزلم الجذع: الدهر الشديد، وقيل: هو المتعلق به البلايا والمنايا.
(2) إشارة إلى قوله تعالي: «حور مقصورات في الخيام» (سورة الرحمن، آية رقم ٧٢).

واستفتَح الكعبة العلياء فافتُتِحت

له إلى الجنة الأبوابُ والشِّرَعُ[1]

فكيف توحشك الدنيا إلى شيم

لذكرها في الورى مرأى ومُستمَع

تُتلى فيعبق منها كل ذي تَفَل

طيباً[2] ويعذب منها الصاب والسَّلَع[3]

قد حَمَّلت ألسُنَ المثنين ما حملت

وأوسعت أيديَ العافين ما تسع

كالغيثِ ينأى وما يخفى له أثر

والمسكِ يُوعى وما يوعى له فَنَع[4]

لطيِّب الذكر من حِلم ومن ورع

لو كان للموت حِلم عنه أو وَرَع

ومانعِ الجار من ضيم ومن عدم

لو أنه من حِمام الحَيْن يمتنِعُ

ووازعِ الخطب عن قُرب وعن بعُد

لو أن صرف الردى من بعض ما يَزع

وإن أقمتَ أبا مروان سُنتها

شجواً فذو اللب في السُّلوان يَبتدع

فارددْ زفيرك عما لا مرد له

وارجع دُموعك عمَّن ليس يُرتجَع

واستخلفِ العارضَ المنهل يخلفُه

روض تَصِيفُ به مصرٌ وترتبع

---

(١) جمع شرعة وهي الطريق.

(٢) لم يترك الناسخ فراغا هنا في الأصل، وترتب على ذلك اختلال الوزن، غير أننا استطعنا استكمال الشطر من «ق».

(٣) التفل: هو تغير الرائحة، والسلع: شجر مر.

(٤) هذه الكلمة غير واضحة في الأصل، ولعلها كما أثبتنا، والفنع: هو نفحة المسك وذكاء رائحته، وكلمة يوعَى الأولى: أن يحس به، ويوعى الثانية: بضمه وعاء.

من كل بحريَّةٍ شامٍ يُشامُ بها
حادي الجنوب فلا ريث ولا سرع
ينوب عن ضَرَم الأحشاء بارقُها
وعن دموعك فيها الوابل الهَمِع
تزور في مصر قبراً قل زائره
لكنه للعلا والمجد مُضطَجَع
وأكرَمُ الغيث غيث عاد منتجعاً
من لم يزل للندى والجود يُنتَجَع

****

(٨٤)

وله إلى بعض القُضاة رحمهم الله تعالى.

[من الوافر]

بـحُـكم الـعـدل من قـاضي الـسـمـاءِ
حـبـاك بـحق أحـكـامِ الـقـضـاءِ
وراثـةَ مُـورِثِ الأبـنـاء ممـا
تحـلـى من تـراث الأنـبـيـاء
أب وفَّـاك مـيـراثَ المـسـاعي
كـمـا وفـيـته عـهـدَ الـوفـاء
تـهـدَّى فـارتـدى حِـلـمـاً وعـلـمـاً
فـلـم تُـسـبَق إلى ذاك الـرداء
لـتَـلـبـسَه بـإفـضـال وفـضل
وتـنـشُـره بـهَـدْيِ واهـتِـداء
نمـاكَ وقـد بـنى دِيـنـاً ودُنـيـا
لـتـخـلُـفَه عـلى ذاك الـبـنـاء
وشـيَّـده بـإخلاص الأمـاني
وأسـسه بمـقـبـول الـدعـاء
عـلـيـمـاً أن أرفع مـا بـنـاه
بـنـاءٌ أسُّه لك في الـسـمـاء
وأزكى من زكـا صـدقـاً وعـدلاً
زكي حـاز مـيـراث الـزكـاء
فـمـا زَكَ ذو الجلال بـعـلـم غـيب
وفـرَّك ذو الـريـاسـة عن ذكـاء

مـــلـــيك كـــلـــمـــا[1] بـــلغ انـــتـــهـــاء

من الـــعـــلـــيـــا أهلٌ إلى ابـــتـــداء

فـــســـودَدُه كَـــجُـــود يـــديه جـــارٍ

من الـــدنـــيـــا إلى غـــيـــر انـــتـــهـــاء

تجـــلـــى في بـــهـــاء نـــدًى وعـــدل

ومـــدَّ عـــلـــيك من ذاك الـــبـــهـــاء

رجـــاء فـــيك صُـــدِّقَ كي يُـــجـــازى

كـــمـــا اســـتـــدعـــاك تـــصـــديقُ الـــرجـــاء

وجَـــزْلاً من عـــطـــاء الـــلـــه أعـــدى

يـــديكَ به جـــزيلاتُ الـــعـــطـــاء

لـــتـــصـــرِفَ دعـــوة المـــظـــلـــوم عـــنه

كـــمـــا صـــرف الـــسَّـــوام إلى الـــرِّعـــاء

وتـــرعى مـــوقف المـــلـــهـــوف عـــنه

يُـــلـــبِّي نـــفـــسه قـــبل الـــنـــداء

وتـــبـــسُط مـــنك لـــلـــغـــربـــاء وجـــهـــاً

يُـــجـــلـــي عـــنـــهـــمُ كُـــرب الجلاء

فـــتُـــبـــليَ فـــيـــهـــمُ سِـــيَـــرَ «ابن يـــحـــيى»

كـــمـــا أبلاك مـــحـــمـــودَ الـــبلاء

فـــأعـــطى الـــقـــوس بـــاريَـــهـــا وشُـــدت

عَـــرَاقي[2] الـــدلـــو في كَـــرَب الـــرِّشـــاء

ورُدَّ الـــروحُ في جـــســـم المـــعـــالي

ولاحَ الـــنـــجـــم في أفق الـــســـمـــاء

---

(١) في الأصل: كما، ولا يستقيم بها الوزن ولا المعنى، ولعل المراد ما أثبتنا.

(٢) في الأصل: عرافي، والصواب ما أثبتنا، والعراقي جمع عرقوة (بفتح أو ضم فسكون فضم ففتح)، والعرقوتان هما الخشبتان اللتان تعترضان على الدلو كالصليب، والكرب: وهو الحبل الذي يلي الماء، والرشاء: هو الحبل الذي يوصل به إلى الماء.

وجُـــرد لـــلـــهـــدى والحق ســـيف[1]
مُـــحـــلـى بـــالمحـــامـــد والـــثـــنـــاء
فـــولى الـــنُّـــكـــر مـــهـــزوم الـــنـــواحي
وجـــاء الـــعُـــرف مـــنـــشـــور الـــلـــواء
وغـــار الـــظـــلـم في ظـــلـم الـــديـــاجي
ولاح الـــعـــدل في حـــلـل الـــضـــيـــاء[2]
بـــيـــمـن ألـــبـس الأيـــام نـــوراً
يُـــديل من الـــشـــدائـــد بـــالـــرخـــاء
وأحـــكـــامـــاً بـــثـــثـن الـــعـــدلَ حـــتى
تـــقـــاســـمـــهـــا الأبـــاعـــد بـــالـــســـواء
وأخلاقـــاً خـــلـــقـن من الـــتـــمـــني
فـلاقت كـل هـم بـــالـــشـــفـــاء
فـــهـن المـــاء في صـــفـــو ولـــين
وســـوغ وهـي نـــار في الـــذكـــاء
فـــمـــا بـــالـــنـــفـس عـــنـــهـــا من تـــنـــاه
ولا بـــالـــســـر عـــنـــهـــا من خـــفـــاء
فـــكـم جـــلَّـــيْتَ من نـــظـــر جـــلي
قـــرأت بـه أســـاطـــيـــر الـــدهـــاء
وكـم أوريـت مـن زنـــد ثـــقـــوب
أراك ســـراجُـه غـــيـبَ[3] الـــريـــاء
وكـم أحـــيـــيـت من نـــاء غـــريـب
فـــقـــيـــدِ الأهـل مُـــنـــبتِّ الإخـــاء
وكـم نـــفـــسـت كـــربـــة مـــســـتـــكـــين[4]
تـــأخـــر عـــنـه نـــصـــر الأولـــيـــاء

---

(١) ما بين الحاصرتين كلمة ساقطة من الأصل، وقد أعانتنا نسخة «ق» على استكمال الشطر وإضافة الكلمة الساقطة.
(٢) في الأصل: الظياء.
(٣) في الأصل: عيب، والتصويب عن «ق».
(٤) في الأصل: مستكن، والتصويب عن «ق».

وكم جـلَّـيْتَ من خـطب جـلـيل
وكم داويـت مـن داء عَـيـاء
ولا كَـبَـنـي سـبـيل شـردتـهم
عن الأوطـان قـاضـيـةُ الـقـضـاء
عـواصف فـتـنـة غـمَّت بـغـيم
بـوارقُه سـيـوف الإعـتـداء
فـأصـعـقـهم بـراعـدة المـنـايـا
وأمـطـرهم شـآبـيب الـفـنـاء
وطـاف عـلـيـهمُ طـوفـان روْع
أفـاض بـهم إلى الـقـفـر الـفـضـاء
سـهـامُ نـوى إلى بـر وبـحـر
وأغـراض لـنُـشَّـاب الـبلاء
سـروا فـشَـرَوْا بـأفـيـاءٍ ضـواف
فـيـافيَ لا يـقـين من الـضَّـحـاء[1]
وحُـمْـرَ المـوت من خـضـر المـغـاني
وسُـودَ الـبـيـد من بـيض الـمُلاء
ومن كِـلَلِ الـسـتـور كَلاَلٍ[2] خُـوص
وَعـدْنَـهُمُ الـنـجـاةَ عـلى الـنِّـجـاء
وقـد جـدعت أنـوفَ الـعـز مـنـهم
خـطـوب سُـمْـنـهم أنْف الإبـاء
وألـبـسـهم ثـيـابَ الـذل خـطب
يـلـيـهم في ثـيـاب الـكـبـريـاء
وألـحـقـهم بـلـج الـبـحـر سـيل
يمـد مُـدودَه فـيـضُ الـدمـاء

(١) الضحاء: هو أعلى ارتفاع للشمس.
(٢) كذا في الأصل، ولا يستقيم بها المعنى، ولعلها محرفة عن «خلال» جمع خلة وهي الفرجة أو الثقبة.

فوشْكاً ما هوى بهمُ هواء
تألفهم بأفئدة هواء
وحال الموج دون بني سبيل
يطير بهم إلى الغَوْلِ ابنُ ماء[1]
أغرُّ[2] له جَناح من صباح
يُرفرف فوق جُنْح من مساء
يُذكِّرهم زفيفُ الريح فيه
تناوُحها بربعهمُ الخَلاء
ومحُو الماء ما يختط فيه
دياراً خلفوها للعفاء
وصَكُّ الموج فيها كلَّ وجه
وجوهاً ساورتهم بالجفاء
وعُدْمُهُمُ صفاءَ الماء منه
بعدمهمُ لإخوان الصفاء
بحيث تبدلوا باللهو هولاً
ورحْبَ الماء من رحب الفناء
ومن قصف وراح قصْفَ ريح
ومن لَعِب الهوى لَعِبَ الهواء
كأن البر والبحر استطارا
تِجاراً همُّهُم بُعدُ الثِّناء[3]
يبيعون الرغائب بيع بخس
ويشرون المصائب بالغلاء

---

(١) ورد هذا البيت والذي يليه في «شرح مقصورة حازم القرطاجني للشريف الغرناطي» ١٤٢/١، وكذلك في «رايات المبرزين» لابن سعيد المغربي ص ٧٣، وفي الرايات «الماء» في مكان كلمة «الغول» الواردة في الديوان.

(٢) في «شرح المقصورة» وفي «الرايات»: أعير.

(٣) الثناء: هو الحبل، ولعله يعني ببعد الثناء طول الأجل وامتداده.

ولـــكن الـــبـــضـــائع من هـــمـــوم
عـــلت بـــالـــربح فـــيـــهم والـــنـــمـــاء
فـكم طـلـبـوا الأمـانيَ بـالأمـاني[1]
وكم بـاعـوا الـسـعـادة بـالـشـقـاء
وكم فـاضت مـدامـعـهم فـمـدت
عـبـاب الـبـحـر بـالمـاء الـرُّواء
وقـد وفـدت جـوانـحـهم بـشـجـو
يـنـادي الـشـمس: حي عـلى الـصِّلاء
وكم خـاضـوا كـهـمـهـمُ بـحـوراً
وكم عـدِمـوا الـثـرى عَـدَمَ الـثـراء
وجـاء المـوت مـقـتـضـيـاً نـفـوسـاً
لـوت بـقـضـائـهن يـد الـقـضـاء
ومـا رد الـردى عـنـهـا حـنـانـاً
ولـكنْ مـطْلَ داء بـالـدواء
فلأيـاً مـا أهلَّ بـهم بـشـيـر
إلى أرض تـخـيَّلُ في سـمـاء
ولأيـاً مـا تجـافى الـيم عـنـهم
تجـافـيه عن الـزبـد الجـفـاء
ويـا عَـجَبَ الـلـيـالي، أيُّ بـحـر
تـغـلـغل بـين أثـنـاء الـغـثـاء!
ومن يـسـمـع بـأن نجـوم لـيل
هـوت مع بـدرهـا، فـهُمُ أولاء!
وأخـطـأ سـيـرُهم أفُقَ «ابن يـحـيى»
لـيُـخـطِئَ عـلـمُـهم بـالـكـيـمـيـاء

(١) كذا، ولعله تحريف، إذ نظن أن صوابها «بالمنايا».

وكم ســــرت الـــرفـــاق بلا دلـــيل
إلـــيه والـــمَـــطيُّ بلا حُـــداء
وكم وُقِـــيت ركـــاب يمـــمـــته
ســهـــامَ الـــنـــائـــبـــات بلا وِقـــاء
فـــمـــا شـــربـــوا مـــيـــاه الأرض حـــتى
تـــركْنَ وجـــوهـــهم من غـــيـــر مـــاء
ولا نـــشـــقـــوا حـــيـــاة الـــعـــيش إلا
وقـــد خـــلـــعـــوا جلابـــيب الحـــيـــاء
ولا جـــابـــوا إلـــيه الـــقـــفـــر حـــتى
تجـــاوبت الحـــمـــائم بـــالـــبـــكـــاء
ولا دل الـــزمـــان عـــلـــيه حـــتى
حـــسـبتُ عـداي[1] قـد مـاتـوا بـدائِي
ولا ألــقـوا عـصـا الـتـسـيـار حـتى
عـفت حَـلَقُ الـبـطـان من الـلـقـاء[2]
ولا بـــلـــغـــوا مُـــنـــاخَ الـــعـــيس إلا
وفي الحـــلـــقـــوم بـــالـــغـــةُ الـــذَّمـــاء
وفي رب الـــعـــبـــاد عـــزاءُ عـــز
لـــذل غـــالـــه عـــز الـــعـــزاء
وفي «المنـصـور» مـأوى وانـتـصـار[3]
لمـــنـــبـــوذ الـــوســـائل بـــالـــعـــراء
وفي قـــاضي الـــقـــضـــاة قـــضـــاء حق
لمن يـــرعـــاهمُ راعي الـــرِّعـــاء
أبـــو الحَـــكم الـــذي ألـــقت يـــداه
إلـــيك الحـــكم في دان ونـــاء

(١) في الأصل: عدائي، والأصوب ما أثبتنا.
(٢) البطان للقتب: هو الحزام الذي يشد تحت بطن البعير، ويقال «التقت حلقتا البطان» للأمر إذا اشتد.
(٣) في الأصل: وانتصاراً.

وإنك مــــــنه في عــــــدل وفـــــضل
علـى أمــد الــبــعــاد أو الـــثَّـــواء
مـــكـــانَ الـــفـــجـــر أشـــرق من ذُكـــاء
تـــــألـــــقُه وأعـــــرب عن ذَكـــــاء
وإن يكُ قـــدوة الـــكـــرمـــاء جـــوداً
فـــإنك بـــالمـــكـــارم ذو اقـــتِـــدَاء
وإن أحبَّ مـــــا تـــــقـــــضي إلـــــيه
لمن آواهـمُ حـــــكم الحِـــــبـــــاء
وأنتَ بـــســـمع رأفـــته ســـمـــيـع
لـــهم وبـــعـــيـــنه في الـــعـــطف راء
فـــإن لحـــظـــوك من طـــرف خـــفي
فـــقـــد نـــادوك من بـــرح الخـــفـــاء
لـــدَيْنٍ لا يـــدين به لـــــنـــــبع
وأغـــصـــان مُـــشـــذبـــة الـــلِّـــحـــاء
وديـــنُـــهُـمُ عـــلـى الإسلام أولى
ومـــــالُ الـــــلـــــه أوسع للأداء
هـــو الحق الـــذي جـــاءتك فـــيه
شـــهـــود الـــعـــدل من رب الـــســـمـــاء
ومـــا في لحظ طـــرفك من نُـــبُـــوٍّ
ولا في نـــــور رأيك من هـــــبـــــاء
فـــهل «بـــبـــراءة» و«الحـــشـــرِ» ريب
يُـــبـــيَّن بـــالـــنـــفـــار أو الجلاء؟
وإن تـــزدد فـــثـــانـــيـــة المـــثـــاني
وإن تـــزدد فـــرابـــعـــة «الـــنـــســـاء»
وهـل بـــعـــد الأُســـارى والـــســـبـــايـــا
مـــكـــان لـــلـــفـــكـــاك أو الـــفـــداء؟

وقـــد قـــالـــوا: افـــتـــقـــار أو إســـار
كـــمـــا قـــالـــوا: الجلاء من الـــسِّـــبـــاء
وهل بـــالـــبـــحـــر[1] من ظـــمـــإ فَـــيَـــروى
صـــداه بـــغـــيـــر أكـــبـــاد ظـــمـــاء
ومـــا في وعـــد رب الـــعـــرش خُـــلف
بمـــا لـــلـــمـــحـــســـنـــين من الجـــزاء
ومن يـــرغب بـــقـــاء الـــعـــدل يـــســـأل
لك الـــرحـــمـــن طـــولاً في الـــبـــقـــاء
وأيـــةُ حُـــرة من حُـــر نـــظـــمـــي
تجـــلـــت لـــلـــخـــلائق في جِلاء
هـــديـــةَ واصـــل وهَـــدِيَّ كُفء
إلى كفء الـــهـــدايـــا والـــهِـــداء
مـــتـــوجـــةً بـــتـــاج من ودادي
مـــقـــلـــدة بـــدر من ثـــنـــائي
....
....[2]

****

(١) في الأصل: ببحر، ولا يتزن الشطر إلا بما أثبتنا.

(٢) يتلو نهاية هذه الصفحة (وجه الورقة رقم ٨٦) خرم ذهبت فيه صفحتان: ظهر هذه الورقة ووجه الورقة رقم ٨٧. وقد ذهب في هذا الخرم آخر هذه القصيدة الهمزية، وقد رمزنا إلى ذلك بالنقط المتتابعة.

(٨٥)

[وله في مدح ابن أزرق الكاتب رحمهما الله:][1].

[من الوافر]

....

....

أخو ظماء يمص حشاه سبع

وأربعة وكلهمُ ظماء

كأنجم يوسف عدداً ولكن

برؤيا هذه بَرِحَ الخفاء

خطوب خاطبتهم من دواه

يموت الحزم فيها والدهاء

تراءت بالكواكب وهي ظهر

وآذن فيه بالشمس العِشاء

فهل نظري تخفى أو بصدري

وضاق البحر عنها والفضاء

---

(١) سقط في الخرم الذي تحدثنا عنه في الحاشية السابقة أول هذه القصيدة الهمزية وذكر مناسبتها، إلا أننا عثرنا في «الذخيرة» لابن بسام (ق ١ – ١/٨٤ – ٨٥) على أربعة عشر بيتاً منها فأثبتناها نقلاً عن «الذخيرة» ووضعناها بين حاصرتين، كذلك أمدنا ابن بسام بمناسبة هذه القصيدة إذ قال: إنها في مدح ابن أزرق، ولم نعرف عن ابن أزرق هذا إلا أنه كان واحداً من جلة الكتاب الذين استكتبهم منذر بن يحيى التجيبي ملك سرقسطة (انظر ابن عذارى المراكشي: «البيان المغرب» ١٧٧/٣، ونلاحظ أن اسمه ورد خطأ في «البيان»: ابن أزرق، وكذلك في ابن بسام: «الذخيرة» ق ١ – ١/ ١٨٣).
هذا وقد وجدت في القطعة التي عثر عليها أخيراً من الديوان في مكتبة جامعة القرويين (ص ١٧ – ١٨) جزءاً كبيراً من هذه القصيدة يبلغ خمسة وأربعين بيتاً بعضها مما اختاره ابن بسام في «الذخيرة» وسنثبت هنا جميع الأبيات التي انفردت بها نسخة القرويين هذه إلى جانب ما جاء في «الذخيرة» ولم يرد في المخطوطة الزيدانية.

وكـــلـــهم كـــيـــوسف إذ فـــداه
من الـــقـــتل الـــتـــغـــرب والجلاء[1]
وإن ســـجن حـــواه فـــكم حـــواهم
ســجــون الــفُــلك والــقــفــرُ الــقَــواء
وأيــــةُ أســـوة في الحـــسن مـــنه
لإحـــســانــي إذا ارتُـــخِصَ الــشــراء
وفي بـــاكـــيه من بُـــعـــد وصـــدري
وأجــــفـــانـي بمن أبــــكي مِلاء
وأوحش من غـروب الــشــمس يــومــاً
كــســوف في ســنــاهـــا وامِّـــحــاء
وأفلاذُ الـــفـــؤاد أمضُّ قـــرحـــاً
إذا رمت الـــعـــيـــونَ بمـــا تُـــســاء
فـــمـــا كَـــسُـــرُورِهم في الـــدهـــر حُـــزن
ولا كـــشـــفـــائـــهم في الـــصـــدر داء
نـــقـــائـــذُ فـــتـــنـــة وخُـــلـــوف ذل
ألـــذ من الـــبـــقـــاء به الـــفـــنـــاء
فـــإن أقــوت مـــغـــاني الـــعـــز مـــنـــهم
فـــكم عـــمـــرت بـــهم بـــيـــد[2] خلاء
وإن ضـــاقت بـــــهم أرض فـــأرض
فـــمـــا بـــكَّت لمـــثـــلـــهمُ الـــســـمـــاء
وإن نـــسيَ الـــردى مـــنـــهم ذَمـــاء
فـــأعـــذُر زاهقٍ عـــنه الـــذَّمـــاء
فـكم تـركـوا مـعـاهـد مـوحـشـات
عـفت حـتى عـفـا فـيـهـا الـعـفـاء

---

(١) انفرد بإثبات هذه الأبيات الستة الماضية ابن بسام في «الذخيرة».

فأظلم بعدنا الإصباح فيها
وكم دهر أضاء بها المساء
وجدٌ[1] بها البلى فحكت وجوهاً
نأت عنها فجدَّ بها البلاء
وهَوْنُ هوانها في كل عين
جدير أن يعز له العزاء
بسطن لكل مقبوض يداه
فما فيهن غيرَ الدمع ماء
شموس غالها ذعر وبين
فهن لكل ضاحية هَباءُ
وكم لبسوا من النعمى بروداً
جلاها عن جسومِهمُ الجلاء
ملابس بامة[2] لم يبق منها
لهم إلا «ابن يحيى» والحياء
فإن كشفوا لهم منه غطاء
ففيه وفيك لي ولهم غِطاء
شفيع صادق منه الوفاء
ومولى صادق فيه الرجاء
وإن دجت الخطوب بهم عليه
فأنت لكل داجية ضياء
وإن طوت الرزايا من سناهم
فلحظك منه يتضح الخفاء
وإن أخفى نداءَهُمُ التنائي
فسمعك منه يُستمَعُ النداء

(١) لعلها: وجرٌ بها.
(٢) كذا في الأصل، ولم أوفق إلى معناها.

وإن وردوا قـلـيـبَ الجـود عُـطْلاً
فـأنت الـدلـو فـيـهـا والـرشـاء
وقـد شـاء الإلـه بـأنَّ أنـدى
بـحـار الأرض يـسـقـي من تـشـاء
فـنـبِّهْ فـاديَ الأسـرى عـلـيـهم[1]
نـفـوسُـهُمُ لـه ولك الـفـداء
غـصـون عـنـد بـحـر نـداه أوفت
بـهـا كَـحْلٌ وقـد شـذب الـلِّـحـاء[2]
وأواهـا الـربـيـع وكلَّ حـين
يـعـيث الـقـيظ فـيـهـا والـشـتـاء
وجـاورت الـصـبـا فـغـدت وأمـست
تُـجـرجِـرُ في حـشـاهـا الجِـرْبِـيَـاء[3]
رمت بـهـمُ الحـوادثُ نـحـو مـولى
حـواهـا الـرِّقُ[4] مـنـه والـولاء
وقـادهُمُ الـكـتـاب إلى مـلـيك
تـقـاضـاهم لـيـمـنـاه الـقـضـاء
فـكم[5] عـسـفـوا إلـيـه لج بـحـر
تلاقى المـاء فـيـه والـسـمـاء
وجـابـوا نـحـوه من لج قـفـر
يـجـاوب جِـنَّه فـيـه الحُـداء
وكم نـاجت نـفـوسـهمُ المـنـايـا
فلأيـاً مـا نجـا بـهمُ الـنَّـجـاء

(١) هذه الكلمة ناقصة في الأصل، وقد أضفناها لاستكمال المعنى واستقامة الوزن، ولعلها كذلك أو شيء في معناها.
(٢) الكحل: شدة الجفاف، وقوله «شذب اللحاء» يعني ألقى ما عليه من الأغصان حتى بدا عارياً.
(٣) الجربياء: ريح الشمال أو بردها، والجرجرة: هي الصوت المتردد في الجوف.
(٤) في الذخيرة: حماها الدين.
(٥) في الذخيرة: وكم.

وكم بـــاروا هُـــوِيَّ الـــنـــجم تـــهـــوي
بـــهـم في الـــبـــيـــد أفـــئـــدة هـــواء
وكم صـــحـــبـــوا نجـــوم الـــلـــيل حـــتى
جلاهـــا في عـــيـــونـــهـــمُ الـــضَّـــحـــاء
وراعَـــوْهـــا ومـــاليَ غـــيـــرُ جـــفـــني
وأجـــفـــاني لـــســـربـــهـــمُ رِعـــاء
هُـــدًى لـــهـــمُ إلـى الآفـــاق حـــتى
ســـرت ولـــهـــا بـــســـيـــرهمُ اهـــتـــداء
فـــمـــا ظـــفـــروا بمـــثـــلكَ نجم ســـعـــد
به لـــهـــمُ[1] إلـى الأمل انـــتـــهـــاء
ولـــكن عـــدّلـــوا مـــنـــهـــا[2] حـــســـابـــاً
لـه فـــيـــمـــا دعـــوك لـه قـــضـــاء
كـــمـــا زجـــروا من اسم أبـــيك فـــألاً
فـــرُدت فـــيـــه قـــبـــل الـــزاي راء
وخَـــوَّل فـــألُـــهم بك فـــانـــتـــحـــاهم
بـه أُكُل وظل واجـــتـــنـــاء
فـــذكِّـــرْ وادَّكـــرْ جـــيـــران بـــيت
بـــبـــيت فـــيـــه لـــلـــكـــرم اقـــتـــداء
وفـــيـــه لـــلـــنـــهى حَـــكَم وحُـــكم
ولـــلـــنـــعـــمى قـــضـــاء واقـــتـــضـــاء:
«إذا نـــزل الـــشـــتـــاءُ بـــجـــار بـــيت
تجـــنَّب جـــارَ بـــيْـــتِـــهِمُ الـــشـــتـــاءُ[3]

****

---

(١) في الأصل: له بهم، وقد آثرنا قراءة «الذخيرة» فهي أكثر اتساقاً مع المعنى المقصود.
(٢) في الذخيرة: منه.
(٣) هذا البيت للحطيئة أبي مليكة جرول بن أوس العبسي (انظر ديوان الحطيئة بشرح أبي الحسن السكري وتحقيق الأستاذ أحمد بن أمين الشنقيطي – مطبعة التقدم – بدون تاريخ ص ٢٧)، والشتاء: يقصد به القحط.

(٨٦)

وله أيضاً رحمه الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً.

يا سراجي المنير، في مظلمات الأمور، ولو أني المنشور، لعاديات الأمور، وعتادي المذخور، لملمات الدهور، والله جارك أكرم مجير، من نكب الجد العثور، بجارك المستجير، لنجم حرمتك ألا يغور، ولَكوْرِ نعمتك ألا يحور، مستقدماً في عنان السرور، إلى أَكْلاء العمر المعمور، بطيب ذكرك المأثور، ومستجزلاً لبلائك المشكور، أجزل جزائه الموفور في غياض نِعَمْ، تغدق عليك بماء النعيم، ورياض كرمْ، تعبق منك بالخلق الكريم. حيث أخصب المرتع، بالمريح والمُسِيم، وأعذب المشرعْ، بالمجتاز والمقيم، فكيف بهائمات الهموم، تحت غمَّاء الغيوم، أدجى من الليل البهيم، وأحمى من حر السموم، تهيم إليك بأحشاء الظماء الهيم، وتحوم عليك بذماء الكاظم المحروم، قد أخلفته دوالح[١] الغيوم، وأخوت له مجادح[٢] النجوم، وعرَّج عنه الصراط المستقيم، بكل صديق حميم. فأيٌّ موجود أوجد منه المعدوم،/ ومحمود أحمدُ منه المذموم، كم له في معالم العلوم، من فخر مقام معلوم، وفي مكارم الملك الكريم، من حر مقال منظوم، قد أبى لسَلَف الآباء، إلا خلود البقاء، وكم بنى لخَلَف الأبناء، من مَشيدات البناء، وكم سما في شرف العلياء، ببنود الثناء، ثم انثنى مرفوع اللواء، للواحق اللأْواء، ضاحياً بالبيداء، لبوائق الأعداء، منبوذاً بالعراء، في رمض الرمضاء، مُهجراً بالضَّحاء، لهجر الأولياء، لا يفيءُ عليه فيءُ الوفاء، ولا يتوخاه رعي الإخاء، في أيام تعم بالنعماء، وليال تسْري بالسراء، وهو منها في باب النفي والاستثناء، لا في باب الإيجاب والجزاء، يرفعُ البأساء، بفادح الضراء، ويكحل بعَوار الأقذاء، رمد العين العشواء، مُحرمة في تذلل الإغضاء، محكمة في قتال الأكفاء:

---

(١) السحابة الدالحة: هي المثقلة بالماء.

(٢) مجادح النجوم، أنواؤها جمع مجدح (بكسرة فسكون ففتحة)، وقيل المجدح هو: نجم كانت العرب تزعم أنها تمطر به.

[من المتقارب]

وأهْــدِ بــهــا في الــفلا والــسُّــرى
ويـــوم الـــتلاقي وحـــين الـــثـــواءِ
وتحت الــعــجــاج ووسط الــهِــيــاج
وفي بـــحـــر آل وفي بـــحـــر مـــاءِ
وأَوصِلْ بـــهـــا لأصـــيل الـــعـــشيِّ
بـقَـرن الـضـحـى والـضـحـى بـالمـسـاء
وفـــاءً لـــنـــفس أمـــدَّت ســـنـــاهـــا
بـــنـــور الـــنـــهى وبـــنـــار الـــذكـــاء
وهــدْيٍ هــداهــا ســبــيلَ الــعــفــاف
ورأي أراهـــــا هُـــــــدَى كلِّ راء
كــمــا قــد وفــيْتُ لــهــا حــين عُــجْتُ
بــغُــلــتــهــا في عُــبــاب الــوفــاء
يــنــابــيعُ مــجــد سـقت نــبــعــةً
من الــفــضل دانــيــةَ الإجــتــنــاء
زكــا تُــربُــهــا في ثــرى المــأثُــرَات
فــأيــنع إثــمــارُهــا بــالــزكــاء
فــأضــحت تــثــنَّى بــروح الــثــنــاء
ويــنــمي لــهــا عــنــصــر الإنــتــمــاء
فــكم أفــرجت عن نجــوم الــســعــود
وكم أغــمــضت من نجــوم الــشــقــاء
وكم ظــلــلت من حــريــر(١) الــهــجــيــر
وكم أنــزلت من طــريــد الــعِــشــاء
ريــاضــاً تــفــوح بــطــيب الــفَــعــال
وزَهــراً يــلــوح بــبــشــر الــلــقــاء

(١) الحرير يقصد به: المحرور أي الذي أرهقه الحر.

ونــادْيــنَــني بــضــمــان الــنــدى
وحــيَّــيْــنــني بــحــيــاة الــرجــاء
بمــا اســتُــحــفظت من حــفــاظ الجــوار
ومـــا أُبــلــيَت من حــمــيــد الــبلاء
بــجــامــعــهــا شــمل حِــلم وعــلــم
وهـــادٍ لـــهـــا شـــكـــر دان ونـــاء
ومن ولـــدتْ من كـــريم الـــنـــجـــار
ومن أرضـــعت بــلــبــان الـــدهـــاء
رعى حقَّ مــا اســتــودعــتــه المــســاعي
فـــأودعـــنه رعْيَ خـــيـــر الـــرِّعـــاء
ونـــادت به دولـــةُ الـــســـبق: حيًّ!
فـأعــدَتْه بــالــســبق قــبل الــنــداء
تُــجِــيــبِــيَّــةٌ جابَ عــنــهــا الــردى
كــجَــوْب الــمُــهــنَّــد مــتن الــرِّداء
حــقــيقُ الــنــصــيــحــة أن يــســتــثــيــرَ
لـــهـــا الـــدرَّ من تحت ردم الـــغـــثـــاء
وألا يُــــخـــــلّيَ في ظــــلــــهـــــا
ذلــيل الـــذمـــام عـــزيـــزَ الـــعـــزاء
فــبــشــرَ عــنــهــا بــبــذل الــغــنى
وأعـــذر فـــيـــهـــا بـــبـــذل الـــغَـــنــاء
لـــمُـــنــزله مــنــزلَ الإخــتــصــاص
ومُـــلـــبـــسه شُـــرطـــةَ الإعـــتلاء[1]
ومُـــعـــتَـــدٌ أقلامه لـــلـــكـــتـــاب
كـــتـــائبَ مُـــشـــتـــرفِـــات الـــلـــواء
مـــلـــيك تـــواضع في عـــز مُـــلك
كـــســـا دهـــرَه حُـــلـــةَ الـــكـــبـــريـــاء

(١) يشير ابن دراج هنا إلى تولي ممدوحه خطة «الشرطة العليا»، وقد كانت من أكبر المناصب الإدارية في الأندلس.

مُـقـلـدُ سـيفِ الـهـدى والـهـوادي
مـتـوجُ تـاج الـسـنـا والـسـنـاء
وأغـزى جـيـوشَ نـداه الـقـلـوب
فـجـاءته مـذعـنـةً بـالـسِّـبـاء
وخـاصم في مُـهَـجَـات الأعـادي
فـأعُـطيَ بـالـسـيف فـصل الـقـضـاء
كـأن الأمـانـيَ منٌّ عـلـيـه
فلا آيبُ دون ضِـعْـفِ الجـزاء
فـلـبـيكَ لا من بـعـيـدولـكن
عـذيـرك من مُـعـذِرات الحـيـاء
حـمى فـاحـتـبى بـفـنـاء اخـتلالي
فـبـاعـدَ بـيـني وبـين الحِـبـاء
وقـنَّع وجـهي قَـنـاعـات حُـر
فـقـنَّع دوني وجـوهَ الـعـطـاء
وآزرْتُه بـالـتـجـمل حـتى
طـويتُ صـدى ظـمـإٍ عن سِـقـاء
أمـيـر عـلى مـاء وجـهي ولـكن
فـداه بـعـيـنيَّ مـاءً بمـاء
فـأُرصِـدَ هـذا لحُـرٍّ كـريم
وأُسْـبِلَ ذا طـمَـعًـا في الـشـفـاء
فـقـد حـان من بُـرَحـاء الـضـلـوع
رحـيل تَـنـادَى بـبَـرْح الخَـفـاء
عـلى ذُلُلٍ من مـطـايـا الـشـئـون[1]
قـطـعن إلـيك عِـقـالَ الـثَّـواء

---

(١) أي الدموع.

عــواسفَ يَــهــمــاءَ من غَــوْلِ هــمي
يُــقــصِّــر عــنــهــا ذمــيلُ الــنِّــجـاء[١]

جــدلتُ أزمـــتـــهـــا من جــفـــوني
وصُــغت أخِــسَّــتــهــا[٢] من دَمــائي

وأُنْــعِــلُــهــا قَــرِحــات المــآقي
فــأَخْــصِــفُــهــا[٣] بــنــجــيع الــدمــاء

فــمــنــجِــدة في مــجــال الــنــجــاد
وغـــائـــرة في غُـــرور[٤] الـــرداء

فــكم قــد شــقــقن سَــلًى[٥] عن ســلــيل[٦]
وأجــهــضن[٧] عن مُــســتــســرِّ الــوِعــاء[٨]

وكم قـــد رددن حـــيـــاة نـــفـــوس
ظـــمـــاء بمـــوت نـــفـــوس ظـــمـــاء

كـــأن مـــداهن في صـــحن خـــدي
ركــابيَ في صــحــصــحــان[٩] الــفــضــاء

تجــوب الــتــنــائف خــرقــاً فــخــرقــاً
وحــاجــاتُــهــا في عُــنــو الــعــنــاء[١٠]

---

(١) العواسف أي التي تسير في الصحراء بغير قصد ولا هداية، واليهماء هي المفازة لا ماء فيها ولا يهتدى لطرقها.

(٢) الأخسة جمع خسيسة، وخسيسة الناقة أسنانها دون الإثناء، ويقال جاوزت الناقة خسيستها وذلك في السنة السادسة إذا ألقت ثنيتها.

(٣) خصف الجلد هو مظاهرة بعضه على بعض وخرزه.

(٤) الغرور جمع غر (بفتح الغين) وهو للرداء والجلد تثنيه وغضونه.

(٥) السلى هو لفافة الجنين وهو الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه.

(٦) السليل من معانيه السيف وكذلك ما سل من قشره أي نزع، ومنها وسط الوادي حيث يسيل معظم الماء.

(٧) الإجهاض عن الشيء التنحية عنه والأصل فيه هو أن تسقط الحامل ولدها قبل أن يستبين خلقه.

(٨) كذا... ولم نتبين المعنى المقصود، ولعلها «مستسر الرغاء»، يقال «أسرحسواً في ارتغاء» يضرب مثلاً لمن يظهر أمراً ويريد غيره، والأصل في المعنى من يحتسي اللبن وهو يظهر أنه لا يريد إلا رغوته. وقد يكون أراد بالبيت إن هذه الدموع طالما جلبت عليه الراحة والأمن إذ كشفت له عما يتربص به من أهوال وأبدت له مدى نفاق الناس وإظهارهم غير ما يبطنون، والمعنى مع ذلك غير واضح تماماً.

(٩) الصحصحان: ما استوى من الأرض.

(١٠) الخرق: الفلاة الواسعة. والعنو: الحبس والتضييق.

بـــكل حـــزين بـــعـــالي الحُـــزون

ومُـــــقــــو بــــكل بلاد قَــــواء[1]

ومُـــســـتَـــوْهَلٍ حُم مـــنه الحِـــمـــام

لأول وهــــلـــة ذاك الـــــتــــنـــائي

كـــأن تجـــاوُبَ خُـــضـــر الحَـــمـــام

نـــشـــيـــجُـــهُمُ لـــتـــغـــني الحـــداء

وقـــد أوطـــنـــوا أربُـــعـــاً لـــلـــبـــلى

وقـــد وطَّـــنـــوا أنـــفـــســـاً لـــلـــبلاء

وكُـــلِّ خـــــــــــلـــيٍّ عـن الإنـــس رَهْـــنٍ

لجـــنـــبيْ خـــلـــيـــةِ[2] بـــحـــر خَلاء

قـــريـــبـــةِ مـــا بـــين نـــضـــو ونـــضـــو

بـــعـــيـــدةِ مـــا بـــين مـــرأىً وراء

تـــمـــورُ بـــضـــعف نجـــوم الـــثـــريـــا

لـــو انـــفـــردت بـــأديم الـــســـمـــاء

ثـــمـــانٍ كـــأســـرار قـــلـــب الـــكـــئـــيب

ورابـــعـــةٌ كـــقـــداح الـــسِّـــراء[3]

مـــطـــالـــبُـــهم لـــمَـــطـــالِ الـــضِّـــمـــار[4]

وآجـــالُـــهُم لاقـــتِـــضـــاء الـــقـــضـــاء

فـــهل آذنت هـــجـــرتي أن تـــريـــني

عـــواقب تجـــلـــو كـــروب الجلاء

(١) المقوي: الفقير المعدم، والقواء: هي المقفرة الخالية.

(٢) الخلية هنا السفينة الكبيرة.

(٣) لم نهتد لمعنى واضح لهذا البيت، وقد يكون قصد بالسراج جمع سروة وهي نصل صغير قصير مدور وهو أدق ما يكون من السهام. وأما «رابعة» فقد تكون محرفة عن «أربعة» يشير بها إلى أبناء الأربعة في مقابل بناته «الثماني» المشار إليها في أول البيت. وهو معنى كرره ابن دراج في شعره.

(٤) العطاء الضمار: هو الذي لا يرجى.

وهل ظفرت همتي من همومي
بثأر مُنيم ووِتر بَواء[١]
ألم يتناه غُرُوبُ الغريب
إلى مطلع الشمس في الانتهاء
ولم أتخذْ جُنحَ ليلِ المحاق
جَناحاً إلى نور ليل السواء
ولم أتزود هبيد القفار
إلى بحر أَرْيٍ جزيلِ العطاء[٢]
فأصبحتُ من ظُلَم الإكتئاب
على عَلَمٍ بين قَرنيْ ذُكاء
وألقت يميني عصا الاغتراب
من الأمن بين العصا واللِّحاء[٣]
وأوطنتُ في قُبَّةِ المُلك رحلِيَ بين الرواق وبين الكِفاء[٤]
وأوفيتُ سوقَ الندى والمعالي
بدُر المقال وحُر الثناء
وقد شهد البر والبحر أني
بقرب «ابن يحيى» مُجابُ الدعاء
وأنكَ أنتَ الصريخُ السميع
إذا صَمَّ مستمع عن ندائي
وأنك دونيَ طود منيع
على الدهر مستصعَب الإرتقاء

---

(١) البواء هو السواء، ويقال دم فلان بواء لدم فلان أي كفء له.

(٢) الهبيد: الحنظل، والأري: الشهد.

(٣) قال أبو عبيد القاسم بن سلام: إنهم إذا أرادوا أن صاحب الرجل موافق له لا يخالفه في شيء قالوا: «بين العصا ولحائها» واللحاء: هو القشر.

(٤) كفاء البيت: هو مؤخره، أو هو سترة تلقى على مؤخر البيت من أعلاه إلى أسفله.

وأنك أنت الــشــفــيعُ الــرفــيعُ
بــدائي إلى مُــســعِفٍ بــالــدواء
فــكــيف تــخــطَّتْ إليَّ الــرزايــا
ولم أُخْطِ في مُــســتَــجَــاد الــوِقــاء
وكــيفَ اعــتــصــمتُ بــصــدر الــزمــان
وصــــدري قِــــرى كل داءٍ عــــيــــاء
وقــد ضَــرَّسَــتــنــي حُــروب الخــطــوب
وأبــطــأت يــا نــصــرةَ الأولــيــاء
وعُــرِّفْتُ في نــكَــبــات الــزمــان
بــكــنه الــصــديق ومــعــنى الإخــاء
فــوا قــدمي من سِلام الــعــثــار
ويــا ألمي من سِــهــام الجَــفــاء
ومــا أبــعــد الــقــفْــرَ عن عــين راء
ومــا أقــرب الــوقــر[1] من ســمع نــاء
ويــا طــول ظِــمْــئِي لخــمس وعــشــر
طــريــدَ الحــيــاض بــعــيــد الإضــاء[2]
كــأنيَ بــعت الــتــقى بــالــنــفــاق
فــلا هــــــؤلاء ولا هــــــؤلاء
وكم عُــقِــرت دون عُــقــر الحــيــاض
سَــــوامي وأُزَّت أمــــامَ الإزاء[3]
فَــرُحتُ بــهــا مُــخْــمِــصــاً في الــبِــطــان
وأصــدرتُــهــا مُــظــمِــئــاً في الــرِّواء

(١) في الأصل «الوفر» ولعلها كما أثبتنا، والوقر هو ثقل السمع. ويقصد بالبيت أن القريب الذي يشاهدني خلي الذهن عما تجشمته في رحلتي في الفلوات من أهوال، أما البعيد فما أجدره بأن يكون أقل إدراكاً لذلك وأكثر صمماً من أن يجيب دعوتي أو يستمع إلى ندائي.

(٢) الإضاء جمع أضاء وهي الغدير.

(٣) الأز: هو التهييج والحث الشديد، والإزاء: هو مصب الماء في الحوض.

وأرعـيتُ سـعـدانَ «سـعـدِ الـسـعـود»[١]
نِـواءً[٢] المـنى وصـفـايـا الـصـفـاء
وأقـوى فـأنـحَـرُ حَـرفـاً سِـنـاداً
وأرعى فـأحـلُبُ شـطـر الإنـاء[٣]
بـسـبع كـسـبعِ سـمـامِ الـسَّـمـوم
وأربـعـة كـرُبُـوع الـعَـفـاء[٤]
يُـفَـدُّونَ نـفـسي من الحـادثـات
ومـالي ولا لـهُمُ من فِـداء
وكم ضـربـوا بـقِـداح الحُـنـوِّ
عـليَّ فـفـازوا بـقِـسْمٍ سـواء
وقـد أسـلـمـتـهم سـمـائي وأرضي
فلا من ثـرايَ ولا من ثَـرائي
فـيـا ضـيقَ ذرعي لـهم بـالـزفـيـر
على ضـيقِ ذرعي بـضـيق الـشـتـاء
وقـد آذنـتـهم يـدي واضـطلاعي
بـعُـدْم الـوِقـاء لـهم والـصِّلاء
فـمـا بـسـوى حَـرّ تـلك الـصدور
يُـوَقَّـوْنَ من بـرد هـذا الـهـواء
وإن راعتِ الأرض مـنـهم جُـنـوبـاً
تـسـلَّـوْا بـرعي نجـوم الـسـمـاء

(١) السعدان: نبت ذو شوك ومنبته سهول الأرض وهو من أطيب مراعي الإبل ما دام رطباً، وعليه تسمن الإبل وتطيب ألبانها، ويقال في المثل: «مرعى ولا كالسعدان». أما «سعد السعود» فإن ذلك هو اسم أحد منازل القمر (انظر المخصص لابن سيدة ٩/١٠).

(٢) نواء: أي سمان جمع ناوية وهو مشتق من نويت الناقة أي سمنت.

(٣) الحرف: الناقة الصلبة المشبهة بحرف الجبل، والسناد: الشديدة الخلق، وما ورد في هذا البيت وسابقه كناية عن الخصب والرغد بقرب ممدوحه.

(٤) لعله يشير في هذا البيت إلى أبنائه الأربعة وبناته السبع، أما قوله «سماع السموم»، فربما كان تشبيهاً لهن بالسمام وهو ضرب من الطير نحو السماني، أي إنهن مثل هذه الطيور التي عصفت بها ريح السموم فطردتها

/ لاغبوق دون الشعريين، ولا صبوح إلا بالسماكين، ولا مسعد غير الفرقدين، لأنجم مطالعها [سواد][(١)] المقلتين، ومغابرها سواء الشغافين في[(٢)]................................

/ الليل والنهار رايتين، ففتق الإظلام بسراجين، وفلق الإصباح[(٣)] بفجرين، جعل يديه في الجهاد يمينين، مد بهما على الإسلام أمنين، وفي المعروف يسارين أنجزتا في العسر وعد اليسرين، وإن تأتى الميسور عند تناهي المعسور، فاعترض القدرالمقدور على ما خيل التقدير، في ما أهل به البشير، وتهادت التباشير، من مطلع القمر المنير، الذي برقت به القصور، وتألقت له الدهور، فأحدقت بالإسلام سوراً إلى سور، وأشرقت بالأيام نوراً على نور، وأنت أزكى شهيدخبير، بمقامي المشهور، وثنائي المأثور، فلعل في عواقب الأمور، شفاء لما في الصدور، وفي رجاء الملك المنصور، جزاء صبار شكور، وفي حسن ظني أن لن تحور[(٤)]، تجارة ربح له لن تبور، بل لا جرم أن تتناسب الأحوال، تناسب الأشكال، وتتشاكه الخلال، تشاكه الأمثال، فيجرى تأخير الصلات على أمنية النفس، عند تأخير الصلاة حين مطلع الشمس، فهل بعد انفساح الأوقات، وامتداد الساعات، إلا أذان الرغبات، وتثويب الطلبات، حيَّ على صلاة الصلات، حي على فلاح المكرمات، ممن قدمك إماماً في الحاجات، وشفيعاً في الحسنات، مهدياً للتحيات الطيبات، ومستهدياً لنوافل الخيرات، كهديك إلى القربات المقبولات، في الأنعم السابغات، على نفوس قلقات تائبات، أيامها كالجُمعات، وقلوب أَذِناَتٍ مُصغياتٍ، شهورها كالسنوات، بما يتناوبها من عض النائبات، ويحادثها من مض الحادثات، فَلأوانٍ ما آن للذكرى أن تنفع، ولحين ما حان[(٥)] للشكوى أن تسمع، من لسان تضرع[(٦)] بجوى قلب يتصدع، وأجفان تهمع، عن شجا نفس

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل مثبتة في الحاشية.

(٢) يتلو نهاية هذه الورقة (رقم ٨٩) خرم ورقة واحدة (رقم ٩٠) وفيه ذهب آخر تلك الرسالة وأول القصيدة القافية الواردة بعد. على أننا وجدنا الجزء الأكبر من هذه الورقة الساقطة في قطعة مكتبة القرويين التي سبق أن أشرنا إليها، وفيها معظم بقية الرسالة التي تلي هذه القصيدة الهمزية وأول القصيدة القافية الواردة بعد، فعملنا على استكمال ذلك من قطعة مكتبة القرويين المذكورة (ص ٢١ – ٢٢).

(٣) هاتان الكلمتان غير واضحتين في الأصل.

(٤) أي تنقص. ومن هذه العبارة والتي تليها يأتلف شطرًا بيت شعر من بحر المتقارب هو:

وفي حُسن ظني أن لن تحور ... تجارة ربح له لن تبور

(٥) في الأصل: حاز.

تتقطع، ولله أيُّ باب لمن قرع، وأي داع لمن سمع، ما أقرب المرتع، ممن انتجع، والصريخ ممن فزع، وسعد السعود من سعدِ بُلَعْ[1]، بل حسبك الله الذي خلق فأبدع، وأتقن ما صنع، وأراك أن حق الجوار مما شرع،/ والشفاعة الحسنة مما أبدع، والكلم الطيب مما رفع، فرفع ذكرك لتُرفع، وشفع قدرك لتشفع، كما وسع صدرك ليسع، عُذْرَ من شجه الدهر فأفظع، ومسه الضر فأوجع، فإن نازع فكان من المفحمين، أو ساهم فكان من المُدحضين، فحسب من وكل إلى أرحم الراحمين، وأسلم إلى خير الرازقين، فتوكل صدق اليقين، على من يحب المتوكلين، واشتمل في حسن الظنون، إلى من لا يضيع أجر العاملين، وحسبي الله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

****

(١) سعد السعود وسعد بلع: منزلان من منازل القمر.

(٨٧)

وله بقرطبة في بعض الوزراء وكان أنهض ابنه من العرض إلى الشرطة.

[من البسيط]

هل يـجـهل الـسمتَ من يـسـتـوضح الطُّرقا
أو يـبـعـد الـشـمس من يـسـتـيـقن الـفـلـقا

قـد خـبـرت دوحـة المجـد الـتي كـرمت
عن مـعـتـلى ذلك الـغـصن الـذي بـسـقا

لـــله عـــين رأتـه وهـــو بـــدر دجى
يـــومـــاً أهل فـــجـــلى نـــوره الأفـــقـــا

وكم رأيـنـا وجـوه الـروض ضـاحـكـة
في رائح راح أو في بـــارق بـــرقـــا

أنجـبـتَه يـا وزيـر الـمُـلك مُـدَّخـراً
لـفـجـأة الخـطب إن غـادى وإن طـرقـا

وفـارسـاً لـغـمـار الـروع مـقـتـحـمـاً
وصـارمـاً في يمـين المـلك مـؤتـلـقـا

وقـد يـرى في نـواحي المـهـد مـبـتـدراً
إلى الـطـعـان وكـرات الـوغى قـلـقـا

تُـدنَى ملاعـبـه مـنـه فـلـيس يـرى
غـيـر الـسـنـان وغـيـر الـرمح مـعـتـلـقـا

لـلـبـر أول مـا قـامت به قـدم
سـعـيـاً ولـلـحق أولى نـطـقـة نـطـقـا

حـتى غـدا بـكـتـاب الـلـه مـعـتـصـمـاً
يُـحـبَى بـخُـطـة عـز كـلـمـا حـذقـا

ثم استمر إلى العلياءِ مفتتحاً
مـعاقل الفخر لا نِكساً ولا فَرِقا
تلقاه من دونها الأيام متئداً
بالجد مشتملاً بالحزم منتطِقا
وقد أحاطت[1] أزاهير النعيم به
فصير العلم فيها روضه الأنِقا
وما غدا غير كأس المدح مصطبحاً
ولم يرُحْ غير كأسِ المجد مغتبقا[2]
مُفجَّر الكف جوداً والجبينِ سناً
ومفعم الجيب نصحاً والضميرِ تقى
قد شرد الظلم عن أوطان شيمته
فلم يدع منك [لا][3] خَلْقاً ولا خُلُقاً
حتَّى فرايتك[4] اللاتي سموت لها
قد حازها مثلما قد حزتها نسقا
وما انثنى الأمل المعطي رغائبه
فيه ولا وقف الظن الذي صدقا
حتى يُوفَّى الذي وُفِّيتَ في عجل
ومثلُه إن سعى في مثلها لحِقا
فقد رأت أنه حقاً له خلقت
كما رأى أنه حقاً لها خُلِقا
مُشَيَّع السعي لم يُبْهَر له نفس
حتى أتى الغاية القصوى وقد سبَقا

(١) في الأصل: حاطت، ولا يستقيم بها الوزن.
(٢) في الأصل: معتنقاً، ولعل الصواب ما أثبتنا.
(٣) إضافة يقتضيها الوزن.
(٤) كذا، ولم نهتد إلى وجه في تأويلها، ولعلها تحريف لكلمة «برایاتك» أو «لراياتك».

مـا احـتـاز ذو هـمـة في المكـرمـات مـدًى
بِـمُـجـهـد الـشـأو إلا احـتـازه عـنـقـا[1]
لم يـأْنِ أن يـعـلق الـبِـيضَ الحِـسـانَ وقـد
أضـحى فـؤاد الـعلا صَـبّـاً به عـلِـقـا
ولا انـثـنـى لـعـنـاق الخُـود بـعْـدُ وقـد
يـبـيت لـلـشرطـة الـعـلـيـاءِ مـعـتـنـقـا[2]
غـرَّاءُ راحت عـلـيه وهـو بُـغـيـتـهـا
فـأصـبح الـدهـر من أنـفـاسـهـا عـبـقـا
وأصـبح الـعـرض في آثـاره أسِـفـاً
يـعـلل الـنـفس أن تـسـتـبـقيَ الـرمـقـا
إن يُـشْجَ ألا يُـسـمَّى عـارضـاً أبـداً
يُـسـلِّه أن يـسـمى عـارضـاً غـدقـاً
فـالحـمـد لـله راح الـغـصن مـعـتـلـيـاً
والـسيف مـنـصلـتـاً والـبـدر مـتـسقـا[3]
مَـنّـاً من الـلـه المـولَى الـذي مـطـرت
سـمـاؤه الـدر بـله الـتـبـر والـورقـا
مـسـتـيـقـنـاً أن شـمل الـمُـلك مـجـتـمع
يـومـاً إذا كـان شـمل المـال مُـفـتـرِقـا

****

(١) العنق من السير: هو المنبسط السهل.
(٢) الإشارة في هذا البيت والأبيات الثلاثة التي تليه إلى منصبين هما: الشرطة العليا، والعرض. ويبدو أن ممدوح ابن دراج في هذه القصيدة كان يتولى: «خطة العرض» ثم نقل منها إلى «الشرطة العليا»، وأن القصيدة نفسها إنما قيلت في تهنئته بذلك. أما خطة الشرطة فقد كانت في الأندلس على عهد الدولة الأموية على ثلاث طبقات: العليا والوسطى والصغرى (انظر ما كتبه عن هذه الوظيفة ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الاسلامية ١٥٣/٣ – ١٥٨)، وأما «خطة العرض» – وكان متوليها يسمى «صاحب العرض» أو «عارض الجيش» أو «العارض» فقط – فقد كانت وظيفة إدارية عسكرية، وكان القائم بها يتولى إعطاء الجنود رواتبهم وأسلحتهم ومؤنهم كما كان المكلف بالإشراف على الحملات العسكرية وإعدادها (انظر ليفي بروفنسال: نفس المرجع ٨٧/٣ – ٩١).
(٣) في الأصل: منسقا.

(٨٨)

وله أيضاً رحمة الله عليه.

[من المتقارب]

عـــرفتُ عـــوارفَك الـــســـابـــقـــاتِ
بَـوادي الـسـنـا واضـحـاتِ الـسـمـاتِ
ومـــا كـــدتُ أبـــسطُ لحظَ الـــغـــريب
ومـــا آن حَـــلِّي عِـــقـــالَ الأنـــاةِ
وبـــيـــنـــا أُراقب نشء الـــســـحـــا
بِ هـــبَّت ريـــاحكَ لي بـــالـــهِـــبـــات
ومـــا كـــاد يـــنـــصُف لـــيلُ الـــهـــمـــوم
أنـــار صـــبـــاحُك لي في الـــبـــيـــات
فـــوفَّـــرتَ في الـــوجه مـــاء الحـــيـــاء
بِـــداراً إلـــيه بمـــاء الحـــيـــاة
فـــكـــيف وقـــد راق شُـــكـــري عـــلـــيك
وأوثـــقْـت لي مـــنك رهن الـــعِـــدَات
فـــهـــذا أوانُ آذانِ الـــفِـــداء
وقـــد حـــان مـــنـــا إقـــامُ الـــصلاة
وهـــذا إمـــام الـــهـــدى مُـــنـــصت
إلى دعـــوة الـــدين والمـــكـــرُمَـــاتِ

****

(٨٩)

وله أيضاً رحمة الله عليه

[من المجتث]

اِقـبَلْ ثـنـاءً وشـكـرا
وازددْ بـقـاءً وعـمـرا
ولـيَـهـنِكَ المجـد لـبـسـاً
والحـمـد كـنـزاً وذخـرا
فـمـا دجـا لـيَ خـطـب
إلا لمحـتـك فـجـرا
ولا دعـوتـك سـراً
إلا وجـدتـك سـتـرا
وإن تـضَـرَّم صـدري
حَـراً وجـدتـك حُـرا
كـمـا وجـدتـك حـلـواً
إذ ذقـتُ دهـريَ مُـرا
فلا تـزل فـوق مـا كـنـ
ـت لي مع الـعـسـر يـسـرا
وكـنـتَ أمسِ سـريـاً
والـيـومَ أسـرى وأسـرى
وكُـنـتَ تـعـدل والـيـو
مَ أنت بـالـعـدْلِ أحـرى
فـاحـكم كـمـا حـكم الـلـ
ـهُ حـين زادك فـخـرا

وزد فَــــــــعــــــــالـك قـــــــدراً
إذ زادك الـــــــــلــه قـــــــــــدرا

فـــــقـــــد طـــــلـــــعت هلالاً
والـــــيــــوم أمـــــســـــيت بـــــدرا

فـــكـــــيف أرضـــاك بـــــحــــــراً
كـــمـــــا رضـــــيـــــتك نـــــهـــــرا

وكـــــيف يـــــجــــــري جــــواد
كـــمـــــا جــــرى قـــبلُ مُــــهـــــرا

وقـــــــد بـــــــدأتَ بـــــــبِـــــــر
فـــأتـــــبع الـــــبـــــر بـــــرا

وزد عـــــلى الــــبـــــاء رفـــــعــــاً[1]
يـــــرفع لك الـــــــلـه ذكـــــــرا

****

(١) يقصد كلمة «البر» برفع الباء، ومعناها القمح.

(٩٠)

وله أيضاً رحمه الله في الصبا.

[من الطويل]

سـأمـنـع قـلـبي أن يـحن إلـيكِ
وأنـهى دمـوعي أن تـفـيض عـلـيكِ
أَغـدْرًا ولم أغـدر وخَـوْنـاً ولم أخن
لـقـد ضـاع لي صـدقُ الـوفـاء لـديك
بـفِـعـلكَ عِـيبَ الحـسنُ عـنـدي وإن غدت
مـهـاة الـنـقـا والـشمس مُـشـتـبـهـيْكِ
أصدُّ بـوجـهي عن سـنـا الـشمس طـالـعاً
لأن صـار مـنـسـوبَ الـصـفـات إلـيك
وأسـتـفـظع الـشـهـدَ الـلـذيـذ مـذاقُه
لمـطـعـمه المـوجـودِ في شـفـتـيك
وأصـرفُ عن ذكـراكِ سـمـعي ومـنـطـقي
ولـو نـازعـتْـنِـيـهـا حَـمـامـة أيك
ولـو عنَّ لي ظـبـي الـفلا لاجـتـنـبـتُه[1]
لـتـمـثـالِ عـيـنـيك وسـالِـفـتـيْكِ

****

(١) في الأصل: اجتنبته، ولعل الصواب ما أثبتنا.

(٩١)

وله أيضاً رحمه الله في نحو ذلك.

[من البسيط]

شوق شديد ووصل من حبيبَيْنِ
فليت شعريَ ما خطب العذولين؟!
وليت شعريَ إذْ لاما وشِعرُهما
أفي السويداء من قلبي ومن عيني
وهل أُمكِّنُ من أُذْنيَّ عذلهما
فيها[1] إذا قام عذري في العذارين
وقد تعبدني رب الهوى فبه[2]
أعوذ من مشرِك فيه إلهين
وليس ذنبيَ عند العاذلين سوى
أني أُرى في رضاه ثانيَ اثنين
وكم طلبت بها الأيام مجتهداً
طلابَ ربٍّ نفيسِ الدَّيْن بالدَّيْنِ
وكم بذلت لها في الشوق مكتئباً
غُروب جفنين ما تشكو من الأين
بدمع عين أبى ما في الضمير له
حتى يُصيِّرَه دمعاً بلا عين

****

(١) في الأصل: فيهما، ولا يتزن بها الشطر، هذا وقد تكون أيضاً: فيما.
(٢) في الأصل: فيه.

(٩٢)

وله في المظفر يحي بن المنصور أبي الحكم رحمة الله تعالى عليهم.

[من البسيط]

إقـــبـــالُ جَـــدِّكَ لـلإسلام إقـــبـــالُ
وعـــز نـــصـــرك لـلإشـــراك إذلالُ
ولا مـعـقب لـلـحـكم الـذي سـبـقت
بـه من الـلـه أحـكـام وأفـعـالُ
أحقّ حَـقَّك في المـلك الـذي ضـمـنت
مـيـراثَه لـك أملاك وأقـيـال
وحقّ لـلـمَـخـفـر[1] المـرفـوع مَـعـلـمُه
حق ولـلـبـاطل المجـهـولِ إبـطـالُ
فـاسْـعَـدْ بمِـلْك مـفـاتـيح الـفـتـوح ولا
خـابت[2] بـسـعـيك للإسلام آمـال
ولا كـفـتـح غـدت أعلام دعـوته
تـرسـو به وكـثـيب الـشـرك يـنـهـال
فـتـح- كـفـاتحه في الخـلق- لـيس له
ممـا خلا من فـتـوح الأرض أشـكـال
أضـحـت به حـلـل الـدنـيـا لـنـا جـدداً
ولِـبسُ والي الـعـدى والـغـدر أسـمـال
وشبَّ شـيـبـانُـنـا من ذكـره فـرحـاً
وشـاب من خـزيه في الـشـرك أطـفـال

---

(١) هذه الكلمة مطموسة في الأصل لا تبدو إلا بقايا من حروفها.

(٢) في الأصل: خانت، وما أثبتناه أقرب إلى الصواب.

وغـنت الـطـيـر في أغـصـانـهـا طـربـاً
وشـدو طـيـر الـعـدى والـكـفـر إعـوال
فـقل لـرافـعـهـا بـالـغـدر ألـويـة
حـسب الـردى والأعـادي مـنك مـانـالـوا
وقل لمن أخـلـفـتـه الـوعـدَ غـدرتُه:
أن[1] يُـخـلفَ الـقـمـرَ الـوضـاحَ إكـمـال
هـيـهـات أشـرق في جـو الـعلا مـلك
بـالـعـدل والـفـضل قـوَّال[2] وفـعَّـال
ولـلـمـنى كـاسـمه مُـحـي ومُـنـتـعِش
وللأسى والـعـدى والـبـغي قـتَّـال
فَـذُّ المـكـارمِ لا شِـبْـه ولا مـثَل
والـنـاس من بَـعْـدُ أشـبـاه وأمـثـال
وقـد تجـلى إلى الـعـلـيـاء في حُـلل
لـلـمُـلك مـنـهن إعـظـام وإجلاَلُ
وقـابل الـدينَ والإسلامَ في شـيم
في عـفـوهـا من مُـنى الإسلام مـاسـالـوا
وقلْ لمن قـصـرت بـالأُسْـد خـبـرتُه
فـشك أن يَـخـلُفَ الـرئـبـالَ رئـبـال
صـبـراً لمـوقع أظـفـار «المـظـفـر» هل
يـحـيـلـهـا عن حـشـاك الـيـوم مـحـتـال
وقـد طـمت فـوقه أمـواج أبـحـره
حـتى تـيـقن أن قـد غـره الآل
سـفـائن من خـيـول مـا لـهـا شُـحَن
إلا سـيـوف وأرمـاح وأبـطـال

(١) كذا، وربما كانت «لن».
(٢) هذه الكلمة مطموسة في الأصل.

أبـــنـــاءُ روع وأهـــوال لمـــقـــدمـــهم
في أعـــين المـــوت أذعـــار وأهـــوال
ثُـــبْتُ المـــواقف لـــو زالت بـــأرجـلـــهم
تحت الـعـجـاج مـتـون الأرض مـازالـوا
دعـوا إلـيك حـصـون الـغـدر فاسـتـبقت
مـثل الـنـجـوم عـلـى يُـمـنـاك تـنـثـال
والمـــوتُ قـــد عـــدهم أُكْلاً له فـــفـــدت
أعـــدادَهم من بـــني الإشـــراك أبـــدال
مـــعـــاقل عـــرفت يمـــنـــاك فـــاعـــترفت
بـــذنب مـــا فـعل الـغـــاوُونَ أوقـــالـــوا
مـــقـــرة أنك المـــولى المـــلـــيكُ لـــهـــا
وأنـــهـــا مـــنك إنـــعـــام وإفـــضـــال
عـلى الـذي احـتـازهـا مـنـا فـأودعـهـا
غِلاً فـــعـــادت عـــلـــيه وهْيَ أغلال
ذو حُـرمـة فـالَ مـنـهـا فـأل طـائـره
قـلـب غـوى بـحـجـاه عـنك تـذهـال
وكـــان فـــألَ وقـــار صـــدَّ عـــنك به
فـــارتـــدَّ طـــائـــرَ طـــيش ذلك الـــفـــال
صـعـقتَ بـالـنـصـر مـثـواه ومـوطـنَه
فـضُـعـضـعت مـنه غِـيـطـان وأجـبـال
صـعـقـاً رمت كل كـفـر مـنه راجـفـة
وهب في كل غـــدر مـــنه زلـــزال
وحـكَّم الـلـه يـا «يـحـيى» سـيـوفك في
إحـــيـــاء حـــقك والمـــوتـــورُ صـــوَّال
فـمـا يـبـيت نجي الـكـفـر مـرتـقـبـاً
إلا خـــيـــولك في جـــفـــنـــيه تـــخـــتـــال

ولا يـــراعي نجـــوم الـــلـــيل ذو حـــذر
إلا وقـِــــرنـــــاه[١] آجــــــال وأوجـــــال
يـبـيت يُـسـهـده[٢] لـيل الـسـلـيم أسى
بـصـــاع خـوفك يـسـتـوفي ويـكـتـال
فـإن تـخـطـته مـنك الـيـوم بـائـقـة
فـفي غـد بـعـدُ حـال بـعـدَهـا حـال
وإنَّ أقْـــطَـعَ وصَّــــال لــــواصـــــله
غـــدر لــطـــاغـــيـــة الإشـــراك وصَّـــال
فـافـخـر فـمـا فـوق ظـهر الأرض من حسن
في الــذكـــر إلا عـلـيـه مـنك تـمـثـال
وابـــشِـــرْ فـــإنك روحُ الحق لـــيس له
إلا من الـــنـــصـــر أعـــضـــاء وأوصـــال
والـلـهُ يـحـرس مـولًى مـا يـزال لـنـا
به إلى الـــفـــتـح بـــعـــد الـــفـــتـح إهلال

****

(١) في الأصل: وقرناة.
(٢) في الأصل: فيسهده، وبها يختل الوزن، ولعل ما أثبتناه هو الصحيح.

(٩٣)

وله اقتراحا من المنصور أبي الحكم رحمهما الله على تجول خلاخيل النساء[١]. [من الطويل]

غـــرام ولا شـــكـــوى وعـــتـب ولا عُـــتـــبى
وشـوق ولا لُـقـيَـا وصـبـر ولا عـقـبى[٢]

وكم حن مـــعـــشـــوق وأعـــتب عـــاشق
وقـلـبكِ مـا أقـسى وقـلـبيَ مـا أصـبى

سـأصـدع أحـنـاء الـضـلـوع بـزفـرة
تُـطـيـر إلـيك الـقـلب لـو أن لي قـلـبـا

وأُســـبل آمـــاق الجـــفـــون بـــعـــبـــرة
وإن حُـــرمت مـــنك المـــودة في الـــقـــربى

بـــنـــســـبَـــتِـــنـــا في رِقّ مـــولًى أضـــافـــنـــا
فـــبَـــوَّأنـــا الإكـــرام والمـــنـــزل الـــرحـــبـــا

وحـــســـبكِ و«المـــنـــصـــورِ جـــامع شـــمـــلـــنـــا
وكـــنـــتِ له شـــرقـــا وكـــنـــتُ لـه غـــربـــا

فـــجـــهـــز فيَّ الـــعـــلـــم والحِـــلـم والـــنـــهى
وجـــهـــز فـــيك الخـــيـل والـــطـــعن والحـــربـــا

فـــلـــبَّـــيْـــتِـــه ســـبْـــيـــا ولـــبَّـــيـــتُـه مُـــنًى
ودِنْتِ له سِـــلْـــمـــا ودِنْتُ له حـــربـــا

فلا عـــــــدم الإسلامُ مَن عَـــــــزَمـــــــاته
سـيـوفـا بـهـا نـسـبي وجـوهًـا بـهـا نُـسْـبَى

****

(١) يتلو هذا العنوان الذي تنتهي به الورقة رقم ٩٢ ورقتان تحملان رقمي ٩٣ و٩٤ وهما تشتملان على أبيات تبدأ بقوله: وما أنجدت فيه النجود تصبري ولا اتهمت وجدي عليه التهائم
وتنتهي بقوله: جهاد على الكفار بالنصر مقدم ووجه على الإسلام بالفتح قادم
وقد سبق أن نبهنا إلى أن هاتين الورقتين قد أخطئ ترقيمهما إذ إنهما ليستا إلا تكملة القصيدة الميمية التي ورد أولها في آخر الورقة رقم: ٤٣ ومطلعها: لعل سنا البرق الذي أنا شائم يهيم من الدنيا بمن أنا هائم
ولهذا فقد وضعنا الورقتين في مكانهما الصحيح وعلقنا على ذلك في موضعه (انظر ص ١٥٩ من هذا الديوان).

(٢) البيت الذي اقترح يحيى بن منذر على ابن دراج أن ينظم في معارضته من الأصوات الغنائية، وهو من شعر خالد بن يزيد بن معاوية، مطلع قطعة في التغزل برملة بنت الزبير، وهو: تجولُ خلاخيل النساء ولا أرى لرملة خلخالاً يجول ولا قُلْبا
والقطعة واردة في كتاب الأغاني للإصبهاني (ط. دار الكتب ٣٤٠/١٧) ووردت القطعة أيضاً في الكامل للمبرد (٣٤٨/١) وفي معجم الأدباء لياقوت (٤١/١١).

(٩٤)

وله أيضاً اقتراحاً منه عليه رحمهما الله على: «أبلغ سلامة أن البين قد أفدا».

[من البسيط]

وطِّنْ فـؤادَك إن كـان الـرحـيلُ غـدا
أنَّ الأسى إلـفُه من بـعـدهم أبـدا
واندُب لـتشـيـيعـهم حَرَّ الـزفيـر ضُحى
وابـعث دمـوعك في آثـاره مـددا
والـنـفسُ إن لم تـمُت من بـعـدهم كـمـداً
مـات الـوفـاء عـلـيـهـا بـعـدهم كـمـدا
كـحـد سـيـفك يـا مـنـصـور إن سـلـمت
مـنه مـلـوك الـعـدى مـاتـوا له حـسـدا

****

(٩٥)

ولـه فيـه أيضـاً رحمهما الله اقتراحاً على شعر آخر غُنِّيَهُ على: «مـالي جُفِيتُ وكنتُ لا أُجفى»:

[من الكامل]

حـاشى لـنـارِ هـواكَ أن تُـطْـفَـا
ولـسـر وِجـدي فـيك أن يـخـفى

غـادرتَ إلـفك بـالـضـنى أَلِـفـاً
فـرداً وكـنتَ لأنـسه إِلْـفـا

حَـرْفَـا وصـالٍ فُـصِّلا بـنـوًى
كـانـا بـخط يـد الـهـوى حـرفـا

فـغـدوتَ في طـوع الـوشـاة بـنـا
صـنـفـاً سـوايَ وكـنتَ لـي نـصـفـا

ورأيتُ صـبـري كـيف يـغـدِرُ بي
ووجـدتُ مـنك مـدامـعي أوفى

أَلِـذوبِ مـا [في][١] فـيكَ من بَـرَد
أحـرمـتـني من ريـقِكَ الـرشـفـا؟

ولـعَـطفِ صُـدغَـيْك الـلذين بـهـا
أعـدمـتـني من نـيـلك الـعـطـفـا؟

وبمـا كـسـتك الـشـمسُ جَـلـوتـهـا
قـصَّـرتُ عـنك الـوهم والـطـرفـا

وأرى «ابنَ يـحـيى» فـوق مـنـزلـهـا
قَـدْراً وفـوق ضـيـائـهـا ضِـعْـفـا

---

(١) إضافة يقتضيها الوزن وتمام المعنى.

والأرض من ذكـــــراه قـــــد مـــــلـــــئت
عَـــــرفـــــاً ومن إفـــــضـــــاله عُـــــرفـــــا
ومـــــعـــــالـم الإسلام مـــــا بـــــرحت
تـــــلـــــقى بـــــزحف جـــــنـــــوده زحـــــفـــــا

****

(٩٦)

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى:

[من الكامل]

قل لـــلـــهـــوى حُـــكِّـــمْتَ فـــاحـــكم لي
لا تـــصل حَـــر الـــهـــجـــر[1] من أجـــلي
لا يُـــغـــلـــبَنْ خـــصـــمـــاي عـــنـــدك في[2]
عـــين الـــرقـــيب وألـــسن الـــعـــذل
وأصِخ لمـــظـــلـــمـــتي فـــقـــد وَضَـــحت
واســـمع فـــعـــنـــدي شـــاهـــدا عـــدل
أأجـــودُ بـــالـــنـــفس الـــتي كـــرمت
لِـــرَشـــاً يـــضن عـــليَّ بـــالـــوصل
وشـــمـــائل «المـــنـــصـــور» قـــد قـــطـــعت
ظـــلـــم الـــظـــلـــوم وســـنـــة الـــبـــخل
مـــلـــك أجـــار الـــدينَ مـــوقـــفُه
بـــالـــســـيف بـــين الخـــيل والـــرَّجل
وأجـــار خـــلـــقَ الـــلـــه فـــاعـــتـــرفـــوا
عِـــوَضـــاً مـــن الأوطـــان والأهـــل
ووفت بـــعـــهـــد الـــعـــلـــم ذمـــتُه
إذ لـم يـــضـــيـــع مـــثـــلُـه مـــثـــلي

****

(١) في الأصل: الهجير، ولا يستقيم بها الوزن، وما أثبتناه أقرب للمعنى وأحفظ للوزن.
(٢) كذا، ولعلها: من.

(٩٧)

وله فيه أيضاً رحمهما الله:

[من مجزوء الرمل]

دأبُك الـــــهـــــجـــــرُ ودابـي
فـــيك إدمـــانُ الـــتـــصـــابي

أيـــهـــا المـــغـــرى بـــقـــتـــلي
بك أصـــــبـــــحت لمـــــا بـي

لا ومـن آوى اغــــتــــرابـي
وشـــــفـى حَـــــر مــــصـــــابي

وكــــفـــــانـي صـــرف دهـــــر
ســــامــــني ســــوء الــــعـــذاب

مــــا رأت عـــيـــنـي كـــظـــبي
لاح فـي تـمِّ الــــشـــــبـــــاب

أســـبل الــــلــــيلَ عــــلى مـــتـ
ــــنــــيه إســـبــــالَ الــــنـــقـــاب

فـــتـــجـــلى كـــتـــجـــلي الـــبـ
ـــدر مـن تحت الـــســـحـــاب

فـي عـــــقـــــود مـن نجـــــوم
ووشـــــــاح مـن ســــــــراب

فـــــهـــــو نـــــومي وســــروري
وســـــهـــــادي واكـــــتـــــئـــابي

****

(٩٨)

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى:

[من الكامل]

طـيــر الــفــؤاد عــلى لمــاكَ تحــومُ
فـهــو المـنى وهي الـظـمـاء الـهـيمُ

أَرْيٌ تــخــلل نــظم سِــلـكَيْ لــؤلــؤ
في جــانــبــيه جـنــة ونــعــيم

نمَّت عــلــيــهــا طـرة المـسك الـذي
أزرى عــلــيه رحــيــقك المخــتــوم

وحـمـاه قـوسَـا حـاجـبـيكَ بـأسـهم
قــلــبي بــهن مُــجــرَّح مــكــلــوم

وسـنـاً كـإصـبـاح المـغـار مُـروِّع
ودجى كــإظلام الــبــيــات بــهــيم

وعــقــارب صــدري بــهن مــلــسع
وأســاود قــلــبي بــهن ســلــيم

فـكـأنـني لم يـحـمـني المـلِك الـذي
سـجـد الـفِـرَنجُ لـتـاجه والـروم

أو لـم تُــجِــرني راحــة يمــنــيــة
حيَّ الـسـمـاح بـهـا ومـات الـلُّـوم

****

(٩٩)

وله في المنصور أبي عامر حين سمى ابنه عبدالملك بالحجابة[1]:

[من البسيط]

منكم إليكم مساعي المجد تنصرفُ
ونحوكم عنكم الآمال تنعطفُ
وربَّ مَكرُمة عَيَّ الكرام بها
أضحت ذلولاً على أهوائكم تقف
وأين بالبحر عن مثواه منعرج؟
وأين بالنجم عن مجراه منحرف؟
من ذا ينازعكم أعلام مكرمة
والمجد متلِد فيكم ومطرِف؟
أم من يباريكمُ سبقاً إلى كرم
والبرق عن شأوكم بالمجد معترِف؟
والنصر مُنسِلكم والحرب مُرضعكم
وشامخ العز والعليا لكم كنف
والحمد والشكر مخلوع عذارهُما
فيكم وقلب العلا صب بكم كلف
والمُلك مُلككُمُ غاد فمنتظَر،
آت فمقتبَل، ماض فمُؤتَنَفُ

---

(١) يحسن هنا أن ننقل نصاً لابن عذاري (البيان المغرب ٢/٢٩٣) حول تلقيب عبدالملك بن المنصور بن أبي عامر بالحجابة: «وفي سنة ٣٨١ (٩٩١) رشح المنصور ولده عبدالملك للولاية وقدم أخاه عبدالرحمن للوزارة، وترك اسم الحجابة واقتصر على التسمي بالمنصور وأن يكتب: من المنصور أبي عامر وفقه الله إلى فلان، بحذف اسم الحجابة وبذكر اسم ولده عبدالملك بخطة الحجابة والقيادة العليا، وسائر خطط المنصور سلم فيها لابنه عبدالملك، وصحت له الحجابة من يومئذ». وانظر ما كتبه حول هذه المسألة ليفي بروفنسال (تاريخ ٢/٢٢٩).

من ذا يَــعَــدُّ كــقــطــحــان المــلــوك أبــاً
والــتُّــبَّــعــينَ إذا مــا عُــدد الــشــرف؟
أم مَنْ كــعــمــرو وعِــمــران وثــعــلــبــة
وحــــاتم وأبـى ثـــــور لـه ســــلف؟[1]
من كل أبــــلجَ كـــالجـــوزاء مَـــفــــرِقُه
في عَـقـد تـاج بـعـز المـلك يُـكـتـنف
إن يـهبـوا يـجـزلـوا أو يقطعوا يـصلـوا
أو يـعـقدوا عَـقدَ مـحـروم الـوفـاء يـفـوا
إن سالمـوا الأرض كانـوا غـيث أمْـحَلِـهـا
أو - كلَّـفوهـا تـوالي خـيلـهم - عنُفوا
وإن رَضُـوا أشـرق الـلـيل الـبـهـيم بـهم
ويــكــشف المــوتُ عن ســاق إذا أنــفــوا
لم يــحــمــلــوا عــيب ذي قــال يــعِــيــبُــهُمُ
في الجــــود والــــبــــأس إلا أنـه ســــرف
همُ الــــذين هُمُ[2] آووا وهم نـــصـــــروا
لمـــا أتـــاهم من الــرحـــمن مـــا عَــرفُــوا
وثـــبـــتـــوا وطـــأة الإسلام حـــين هـــوى
والــظنُّ يُــخــلـف والأهــواء تــخــتــلف
همُ الــذينُ وقــوا شُح الــنــفــوس عــلى
علات مــاجــشِــمــوا بــذلاً ومــا كَــلِــفُــوا

---

(١) يشير ابن دراج في هذا البيت إلى بعض من اشتهر من ملوك القحطانية وفرسانهم وأجوادهم: أما «عمرو» فلعله يعني به عمرو مزيقياء بن ماء السماء عامر بن حارثة الغطريف الأسدي، وإليه ينتمي الغسانيون، وأما «عمران» فلعله عمران بن عمرو مزيقياء المذكور، وأما «ثعلبة» فربما كان ثعلبة العنقاء ابن عمرو مزيقياء المذكور، ومن ولده الأوس والخزرج، والأرجح في «حاتم» أنه حاتم ابن عبدالله بن سعد بن الحشرج الطائي الجواد المشهور، وأما «أبو ثور» فهذه هي كنية الفارس المعروف عمرو بن معدي كرب الزبيدي.

(٢) زيادة يقتضــيها الوزن، أو قد تكون «له» وتكون الإشارة في هذا الضمير إلى الاسلام أو إلي النبي صلى الله عليه وسلم.

الحـاكـمـون بـحـكم الـله إن حـكـمـوا
والمـؤثَـرون بـسـيف الـله إن زحـفـوا
والموجِبـون اهـتـزاز الـعرش حـين ثـووا
والمـبـتـنى لـهمُ في الجـنـة الـغـرف
همُ الألى رضيَ الـرحـمنُ بـيـعـتـهم
لـلـمـوت في حـرُمـات الحـج إذ صُـرِفـوا
فـإن غـدت مـنـهمُ الأيـام مـوحـشـة
فالحـاجب الـقـائد الأعـلى[1] لـهـا خـلف
سـهـم الخلافـة إلا أنَّ راحـتـه
- وإن نـأت أو تـدانت - لـلـمـنى هـدف
جـارٍ إلي أمـد «المـنـصـور» لا حَـيَـدٌ
فـيه عن الـسـنن الأهـدى ولا جـنف[2]
تـلك الحـجـابـة لا مـطـلـوبُـهـا عـوز
فـيـمـا لـديه ولا مـوعـودُهـا خُـلُف
عـلق من المجـد لاقى كُـفْـوَهُ فـزهـا
بمـألف الـشـكل والأشـكـالُ تـأتـلف
وافـته في الـروع ممـلـوءاً جـوانـحُه
صبـراً عـلى الـهول والأبـطـالُ تـنـتـزف[3]
واسـأل «بـقـبـرةَ»[4] واللائي أطـفن بـهـا
عن عـزمـات له فـيـهن تُـرتَـدف

(١) في الأصل: فالحاجب الأعلى القائد.... الخ، ولا يستقيم الوزن إلا على تغيير نظام الكلمات على النحو الذي أثبتنا.

(٢) الجنف: هو الميل والجور.

(٣) تنتزف: أي تصطرع.

(٤) لم تحتفظ المراجع الأندلسية لنا بشيء عن يوم «قبرة» المذكور هنا، على أن موقع مدينة قبرة **Cabra** الجغرافي (على بعد ثلاثين ميلا إلى الجنوب الشرقي من قرطبة) أي في قلب الأندلس الاسلامية يحملنا على الظن أن هذا اليوم لم يكن بين المنصور بن أبي عامر وجيوش مملكة نصرانية مجاورة، بل يبدو أنه كان يوماً أتيح فيه الظفر للمنصور على بعض الثائرين عليه. وقد وجدنا في الوصف الذي أورده ابن عبدالمنعم الحميري لمدينة قبرة (الروض المعطار ص ١٥٠) ذكراً لمغارة فيها قذف فيها جماعة من الصقالبة المأسورين أحياء في هزيمة كانت، ولسنا نستبعد أن يكون بين يوم قبرة الذي يشير إليه ابن دراج وبين هزيمة الصقالبة هذه علاقة.

في فـيـلق كـعـمـوم الـلـيل لا أَمَمٌ
لـنـاظـر أولٍ مـنه ولا طـرَف[1]
كـأنمـا الـشـمس في أثـنـاء هـبـوته
سـار تـدرع جـنحَ الـلـيل مُـعـتـسِف[2]
ضـاءت كـواكـبُه والـتَجَّ عِـثْـيَـرُه
فـالـليل مـنه ضـيـاء والـضـحى سُدف[3]
والخـيل لاحـقـة الآطـال سـاهـمـة
في مـعـرك عـدوهـا في ضـنـكه رسف[4]
مـسـتـشـرفـات إلى تـدبـيـر مُـتـئِـد
عن رأيه ظُـلمُ الـغـمـاء تـنـكـسف
مُـشـيَّعِ الـعـزم بـالإقـدام مـقـتـحم
لـغـمـرة المـوت والـهـامـاتُ تُـخـتَـطَفُ
لا يـقـرع الـسن في ضـنك الـمَـكَـرِّ إذا
تـقـارعت فيه بـيض الـهـنـد والحَـجَف[5]
وأبـرز المـوتُ عن مُـسـودٍّ أو جـهه
فـالـصـبـرُ يـبـعـدُ والأقـرانُ تـزدلف
فـفـاز قـدحُكَ بـالـفـتح المبـين ضـحى
والـكـفرُ مـنـتـهَبُ الأقـطـار مُـنـتـسَفُ[6]

---

(١) الأمم: هو القصد. والطرف: هو إطباق الجفن على الجفن، هذا وقد جاء في الأصل «لناظر أول»، وربما كانت «أولاً».
(٢) الهبوة: هي غبار الحرب، والمعتسف: هو الذي يسير بغير هداية وعلى غير الطريق.
(٣) العثير: هو غبار الحرب، والسدف: جمع سدفة (بضم السين وسكون الدال) وهي الظلمة.
(٤) لاحقة الآطال: أي ضامرة الخواصر، والرسف: هو مشي المقيد إذا جاء يتحامل برجله مع القيد.
(٥) جمع حجفة (بفتحتين) وهي التروس المصنوعة من الجلد.
(٦) في هذا البيت وما بعده إشارة إلى غزوة للمنصور بن أبي عامر ضد مملكة نصرانية، كما أنه يتحدث عن غادر يبدو أنه أعلن الثورة على المنصور، والذي نعرفه من المراجع التاريخية هو أن تولية المنصور ابنه عبدالملك الحجابة في سنة ٣٨١/٩٩١ كانت بعقب تلك الثورة التي أعلنها ابنه عبدالله بن المنصور ملتجئاً إلى غرسية بن فرذلند أمير قشتالة فتوجه المنصور على رأس حملة غزت قشتالة وأرغمت غرسية على تسليم عبدالله بن المنصور الذي قتل بعد ذلك في ١٤ من جمادي الثانية سنة ٣٨٠/٨ سبتمبر ٩٩١. (انظر ليفي بروفنسال: تاريخ ٢٤١/٢). ولعل ابن دراج يشير الى هذه الواقعة.

وأُبْتَ بـالمـفـخـر الأسـنى يُـشـيِّـدُه
حق بـسـيـفك للإسلام مُـعـتَـرِفُ
أمـكـنت من رقه الإسلامَ مـحـتـكـماً
فـيـهـا وأسـلـمـهـا حـرَّانُ مـلـتـهف
مُـخـدَّع بـأمـاني[1] الـغـدر مـكـتـئب
بـالخـزي مـشـتـمل بـالـذُّل مـلـتـحف
فـات الـسـيـوفَ بـشـلـو حـائن ومـضى
أمـضى من الـسـيف في أحـشـائه الأسف
فـالـفـخـر[2] مـنـتـظم والـمُـلك مـنـتـقم
والحق مـنـتـصـر والـدين مـنـتـصِف
في شـيـعـة بـيَّن الخـزي المحـيط بـهم
عن غبٍّ ما اجـتـرحوا غدراً ومـا اقـترفوا

****

(١) في الأصل: بأمان، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٢) في الأصل: فالفجر، وما أثبتناه أصح.

(١٠٠)

وله فيه أيضاً رحمها الله تعالى[1].

[من البسيط]

حسبي رضاك من الدهر الذي عتَبا
وجودُ كفَّيْكَ[2] للحظِّ الذي انقلَبَا
يا مالكاً أصبحت كفي وما ملكت
ومُهجتي وحياتي بعضَ ما وهبا
ما أقلع الغيثُ إلا ريثَما خفقت
مجادح[3] الجود من يمناك فانسكبا
ولا نأى السعد إلا وهو تجذبه
شوافع المجد عن علياك فاقتربا
أنت ارتجعت المنى غراً محجلة
نحوي وقد أعجزتني دُهمها هربا

---

(١) أورد الحميدي مطلع هذه القصيدة وتسعة أبيات منها، كما أورد مناسبتها بالتفصيل، ويحسن أن نشير إلى ذلك في هذا الموضع، قال الحميدي مسنداً روايته إلى أستاذه أبي محمد ابن حزم القرطبي: إن أول من اتصل به ابن دراج من الملوك كان المنصور بن أبي عامر مدبر دولة هشام المؤيد وإن أول شعر مدحه به كان قصيدته الهائية التي مرت في هذا الديوان (انظر ص ١٠) وأولها:

أضاء لها فجر النُّهى فنهاها عن الدنف المضني بحر هواها

فساء الظن بما أتى به ابن دراج من الشعر واتهم فيه، وكان للشعراء أيام المنصور بن أبي عامر ديوان يرزقون منه على مراتبهم ولا يخلون بالخدمة بالشعر في مظانها، فَسُعِيَ بابن دراج إلى المنصور وزُعِمَ أنه منتحل سارق لا يستحق أن يثبت في ديوان العطاء، فاستحضره المنصور عشي يوم الخميس لثلاث خلون من شوال سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة، واقترح عليه، فبرز وسبق وزالت التهمة عنه، ووصله المنصور بمائة دينار وأجرى عليه الرزق وأثبته في جملة الشعراء، وفي ذلك المجلس بين يدي المنصور أنشد ابن دراج هذه القصيدة البائية، وفيها أشار إلى المعنى الذي استحضر من أجله وفند الدعوى التي قذف بها. (انظر «جذوة المقتبس» ص ١٠٣ – ١٠٤).

(٢) في «جذوة المقتبس»: وعطف نعماك.

(٣) المجادح: هي الأنواء.

لـئن دهـتـني شـمـالاً حَـرجـفاً[1] عـصـفت

بمـاء وجــهي لـقـد أنـشـأتَـهـا سُـحُـبـا

لـــئن تُـــنُـــوسِيَ تحـــريم المحـــرَّم لي

سـعـيـاً لـعـجلانَ مـا أَمَّـنْتَ لي رجـبـا

أنَّـسْـتَـنِي بسَـنَـا[2] الإصبـاح مـنبـلـجاً

في حـين أوحـشـني الـبـدر الـذي غـرَبـا

وصـبَّـحـتـني غـواد مـنك مُـغـدقـة

عن بـارق ليَ في جـنح الـظلام خـبـا

لـئن تـوهـمه الأعـداء لي نُـكـبَـاً

أنـحت عـليَّ لـقـد عُـوِّضـتُـهـا رتـبـا

لـئن فُـجـعت بـهـا بـيـضـاء من ورق

تـبـأى عـليَّ لـقـد أُخـلِـفْـتُـهـا ذهـبـا

فـمن يـبـاري جـواد الـشـكـر فـيك وقـد

نـاولـتـني يـدك الـعـلـيـاء يـوم كـبـا؟

وكـنتَ مـلـجَـأه في الـنـائـبـات وقـد

سـال الـزمـان عـلـيه أسـهُـمـاً وظُـبى

وذبَّ عـدلك دون الحق مـنـتـقـمـاً

ورد نـصـرك ظـلـمَ الـعـلـم مـحـتـسِـبـا

حـتى تـلافـيتَ[3] في ضـنك المـقـام له

حـظـاً غـدا بـين أيـدي الـظـلـم مـنـتـهَـبـا

أبى لك الـلـه إلا أن تـفـوز بـهـا

خـيـراً ثـوابـاً وخـيـراً عـنـده عُـقُـبـا

---

(١) الريح الحرجف: هي الباردة الشديدة الهبوب.

(٢) في الأصل: يسنى.

(٣) في الأصل: تلاقيت، ولعل الصواب ما أثبتنا.

أيـاديـاً إن أكن مـخـصـوصَ نُـصـرتِـهـا

فـقـد عـمـمتَ بـهن الـعـلـم والأدبـا

وأنـعُـمـاً أكـسـبـتـنـي عـز مـفـخـرهـا

وغـادرت كـاشـحـي رهـنـاً بمـا كـسـبـا

فـإن يـقـع جـهـد شـكـري دونـهن فـقـد

أوجـبن من حـسن ظـنـي فـوق مـا وجـبـا

من بـعـد مـا أضـرم الـواشـون جـاحـمـة

كـانت ضـلـوعي وأحـشـائي لـهـا حـطـبـا

ودسـسـوا ليَ في مـثـنـى حـبـائـلـهم

شـنـعـاءَ بتُّ بـهـا حـرَّان مـكـتـئـبـا

حـتـى هُـززتُ فلا زنـدُ الـقـريض كـبـا

فـيـمـا لـديَّ ولا سـيف الـبـديهِ نـبـا

وأشـرقت شـاهـدات الحق تـنـشـر لي

نـوراً غـدت فـيه أقـوال الـوُشـاة هـبـا

هـيـهـات! أعْـجَـزَ أهلَ الأرض أن يـجـدوا

لـلـدر غـيـر عـبـاب الـبـحـر مـنـتـسَـبـا!

وحـاش لـلـورد أن يُـعـزى إلى رمض(١)

وأن يـكـون له غـيـرُ الـربـيـع أبـا!

لِـمَنْ سـنـا الـشـمس إن أضـحـت مُـشـكَّـكَـةً

فـيـه؟ لمن نـفـحـات المـسك إن كُـذِبـا؟

ومن يُـكـذِّبُ في آثـار مـوقـعه

مـهـنَّـداً خـذِمـاً أو عـاملاً ذربـا؟

وكـيـف يـصـدُقُـني مـنك الـرجـاءُ ولا

أجـزي ثـنـاءك إلا الـمَـيْنَ والـكَـذِبـا؟

---

(١) الرمض: هو شدة وقع الشمس على الرمل.

ودون مـا أنـا منْ نُـعـمـاك مُـحْـتَـمِلٌ
ما أنطق الصخر أو ما أنبط القُلُبا!
حـاشى لـقـدرك أن أُزْجي الـثـنـاء له
دعـوًى وأهـدي إلـيه الـدر مـغـتـصَبا!
لـكـنـهـا هـمم أنـشـأتَـهـا نـعـمـاً
تشاكَها بنفيس القدر فاصطحبا
ولـسـتُ أول من أعـيَتْ بـدائـعُه
فاستدعتِ القول ممن ظن أو حسِبَا
إن «امرأَ القيسِ» في بعضٍ لَـمُـتَّهَمٌ
وفي يديه لواءُ الشعر «إنْ رَكِبَا»
والـشِّـعْـرُ قـد أسَـرَ «الأعـشى» وقـيَّـده
خُـبْـراً[1] وقد قيلَ «والأعشى إذا شَرِبا»
وكيف أظْما - وبحري زاخر فِطَناً[2]-
إلى خيال من الضحضاح قد نضَبا؟
فـإن[3] نـأى الـشك عـني أوفـهـا أنـذا
مُهيأً لجليِّ الخُبْر مُرتَقِبا
عبدٌ لنُعمَاكَ في كَفَّيْه[4] نجمُ هُدىً
سارٍ بمدحِكَ يجلو الشك والريبا
إن شئتَ أملى بديع الشعر أو كتبا
أو شئت خاطب بالمنثور أو خَطَبا
كـروضـة الحَزن أهدى الوشيَ[5] مـنظرُها
والماءَ والزهرَ والأنوار والعُشُبا

(١) في «جذوة المقتبس»: دهراً.
(٢) في «جذوة المقتبس»: مطنا (!).
(٣) في الأصل: وإن، وقد آثرنا رواية «الجذوة».
(٤) في «جذوة المقتبس»: فكيه.
(٥) في «جذوة المقتبس»: الرشى (!).

أو سابق الخيلَ أعطى الحُضْرَ متئداً
والشد والكر والتقريب والخببا
سبَكْتُه عامريَّ السِّنْخِ[1] منقطعاً
إليك من سائر الآمال منقضبا
فحُقَّ للعلم أن يُزهى به فرحاً
وحق للشعر أن يشدو به طربا
فأحجمَ الدهرُ مني عن فتًى أدب
قد حالف العز والأملاك والعربا
وبلَّغته المنى من حميرٍ أملاً
وأعلقته العلا من عامر سببا
فأضحتِ المُنْيَةُ الغراء لي وطناً
وأضحت الدعوة العلياءُ لي نسبا
وذُلِّلت ليَ أرض أينعت ثمراً
وظللتني سماء مُلئت شهبا
وقد وجدت عياذَ الله أمَّنني
في ذمة المَلِك المنصور ما حزَبا
من شر تشغيب حُسادي إذا حسدوا
وشر غاسقِ أيامي إذا وقبا[2]
وفَلَّ عنيَ أحزابَ العدى ملكٌ
مُعود أن يَفُلَّ الجحفل اللجبا
ويترك الملك الجبار مختلَعاً
عنه رداء العلا والعز مستلَبا
مجدَّلاً بجُنوب الأرض منعفراً
ومُشعَراً بنجيع الجَوف مختَضِبا[3]

---

(١) في الأصل: السخ، والسنخ: هو الأصل.
(٢) الغاسق: هو ظلام الليل، ووقب: أي دخل.
(٣) مجدلا: أي صريعا، ومشعراً: أي ملصقا، والنجيع: هو الدم المتجمد.

وقـائـدُ الخـيل عَمَّ الجـوَّ عِـثْـيَـرُهـا
ومـادت الأرض من أهـوالـهـا رُعُـبـا
وصـفـوةُ الـله من أنـصـار دعـوته
ومن تـنـقَّى لـنـصـر الـدين وانـتَـخَـبـا
مُوفٍ عـلى الـرتب الـقصوى مَدًى فمدى
ووارثُ الـمُـلك قـحـطـانـاً أبًـا فـأبـا
حـيثُ اعـتزى فـخـرُ إسمـاعـيل في سلَفَيْ
هُـودٍ وحـيث تلاقت خِـنـدَفٌ وسَـبَـا[1]
من كُلِّ قَـرم[2] غـدا بـالمجـد مُـشـتـملاً
ومُـسـتـقِلا بـتـاج المـلك مُـعـتـصِـبـا
ألـقت إلى يـده الـدنـيـا أزمـتـهـا
فـأحـرز الأرض مُـلـكـاً والـعُلا حـسـبـا
مُـسـتـحـقِـر لـعُـبـاب الـبـحـر إن وهـبـا
ومـسـتـكِن بـركن الحِـلم إن غـضِـبـا
كـأنه والمـنى تـسـعى إلى يـده
صب تـنـسم من نـحـو الحـبـيب صـبـا
فـلـيـشـكـر الـلهَ يـا «مـنـصـورُ» مـنك يـداً
كـشـفت عـني بـهـا الأحـزان والـكُـربـا
وطـالمـا لاذتِ الـدنـيـا بـحِـقْـوِكَ مِن
خـطب ألـم فـكـنت المـعـقل الأشـبـا
وكـيف يُـخـلـف مـنك الـظنُّ مـا رغـبـا؟
أو يُـعـوِزُ المجـدَ في كـفـيك مـا طـلـبـا؟

---

(١) مخفف عن «سبأ».
(٢) في الأصل: قوم، ولعلّ الصواب ما أثبتنا.

وقـــد غــــدوت لآمــــال الـــورى أمــــداً

وقــد غــدوت لأفلاك الــعلا قُــطُــبــا

وأنت بــحــر الــنــدى لم يــأل أن عــذُبــا

وأنت حــزب الــهــدى لم يــعْــدُ أن غَــلــبــا

****

(١٠١)

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى:

[من الرمل]

أخْلِقِ الدهرَ بقاءً واستَجِدْ
عُمُراً يفضُل عن عمر الأبدْ
والبس المجدَ حُلىً بعد حلى
واعتوره أمداً بعد أمد
وابلُغِ الغاياتِ مغبوطاً بها
في ضمان الله بُقيا[1] واستزد
وإذا سرك صنع فليدم
وإذا وافاك عيد فليعد
وإذا جاءك يوم بالمنى
فاقتبل أضعافها في يوم غد
نعم[2] تترى وجَدٌّ يعتلي
وعُلاً تبأى وفتح يُستَجَد
واهدم الكفر وغيِّر مُلكَه
وابْنِ أعلامَ الهدى عِزّاً وشِدْ
والْبَسِ الصبرَ إلى أرض العدى
وقُدِ النصرَ إليه واستمِد
واخسِفِ الشرك بعزم يُنتَضى
سيفُه عن «قل هو الله أحد»

(١) في الأصل: بقاء، والوزن يختل بها، ولعلها كما أثبتنا.

وجـــد الخـــيلَ تَـــثـــنَّى مـــرَحـــاً
فـــهَـداهـــا لمـدى الـشـأو الـمُـجِـد
ودعـــا الـــسُّـــمــر فـــوافت شُـــرَّعـــاً
وظُـــبى الـــهـــنـــد فـــجـــاءت تـــتَّـــقِـــد
فـــكـــأنْ مـــا كـــان لـــلـــرمح شَـــبـــاً
قـــبـــلـه يـــومـــاً ولا لـــلـــسـيف حـــد
فـــرمى عن قـــوس بـــأس صـــادق
وســطـاعن ســاعــد[1] الـدين الأشـد
رب أرض بـــغِـــرارَيْ ســـيـــفه
وُجِـــدَ الـــرحـــمن فـــيـــهـــا وعُـــبـــد
وبـلادٍ لـــلـــعـــدى من ذعـــره
عُـــدم الإشـــراك فـــيـــهـــا وفُـــقـــد
فـانـتـحى لـلـكـفـر حـتى لم يـجـد
واقـــتـــفى آثـــاره حـــتى هـــمـــد
جـاب عـنه الأرضَ حـتى جُـمِـعـوا
في أقـاصـيـهـا عـلى أدنى الـعـدد
وعـــفـــا أعلامَـــهم حـــتى لـــقـــد
كـــاد أن يـــخـــفى لـــهم يـــومُ الأحـــد
هـــمم غـــايـــاتـــهـــا لا تـــنـــتـــهي
عـــزمـــات شـــأوهـــا لا يـــتـــئـــد
لـــعـــزيـــز نـــصـــرُه حـــيث انـــتـــوى
وعـــلـي كـــعـــبه حـــيث قـــصـــد
مُـــنـــتـــقى الآبـــاء من ذي يمن
مـاجـد الأحـوال في عُـلـيـا مـعـد

(١) في الأصل: بساعد، وبها يختل الوزن إلا بافتراض زحاف قبيح. ويغني عنه ما أثبتناه.

منهمُ الأقيال والصِّيدُ الألى
طَرَفَ المُلْكُ لهم ثم تَلَدْ
ولهم مُفتَخَر الجود الذي
ولدته «طيِّيءٌ بنت أُدَد»
وهم المغفور في «بدر» لهم
وهمُ الأبرارُ في يوم «أُحُد»
وهمُ حرَّاسُ نفس المصطفى
حين نام الجيش عنه وهجد
وهمُ أندى وأعطى من قَرى
وهم أرضى وأزكى من شهِد
وهنيئاً لك يا مولى الورى
ولداً أنجبته وما ولد
قمر أشرق في أفق العلا
فأضاء الدهرُ منه وسعِد
وحياً أغدق إلا أنه
بَرَقَ الإقدامُ منه ورعد
فهْوَ للإسلام غيث صائب
وعلى الإشراكِ شُؤبوبُ بَرَد
من رسولي نحوه يخبره
بالذي فيه يقيني يعتقِد
دونك السؤدُدَ موفوراً فسُدْ
وجنودَ الدين والدنيا فَقُد
أيَّ مجد لم تحزه عن أب
وفخار لم يحزه لك جد
أسمِعُوهُ رغبة من راغب
ويدي رهن لكم إن لم يَجُد

وأَرُوهُ فــارســاً مــســتــلــئِــمــاً
وأنـــا كـــذابُـــكم إن لـم يــــشـــد

هــدِّئُــوهُ بــالــعــوالي والــظــبى
وبــأبــطــال الــكــمــاة تَــجــتَــلِــد

جــاءت الأعــيــاد تــســتــقــبــله
للأمــاني والــســرور المــسُــتَــجِــد

فَـــهَـــنَـــا الإسلامَ مـــنه عُـــدة
لــلــهــدى والــدين من أســنى الــعُــدد

حــضــروا الإذنَ الـــذي عـــوَّدتَـــهم
كــظــمــاء الــطــيــر أســرابــاً تَــرِدْ

فــدنــوا واســتــوقــفــتــهم هــيــبــة
مــلأتـــــهــم من ســـــرور وزُؤُد[1]

فــتــوانــوا بــقــلــوب لم تــرم
ثم أدنــتــهم جــســوم لم تَــكَــد

ثم أمُّــوا الــراحــةَ الــعــلــيــا الــتي
عــمتِ الــدنــيــا أمــانــاً وصَــفَــد[2]

يــســتــضــيــئــون بــشــمس طــلــقــة
ويُـــهـــالــون بـــإقـــدام أسَـــد

فــــهَـــنَـــاهُم ثم لازال الـــورى
مـــنك في أثـــواب آمـــالٍ جُـــدُد

****

(١) الزؤد (بضمتين): هو الرهبة والخوف.

(٢) الصفد: العطاء.

(١٠٢)

وله فيه أيضاً رحمهما الله[1]:

[من الكامل]

لك البشرى ودمت قريرَ عيْنِ
بشأوَيْ كوكبيك الثاقبينِ

مليكيْ حميرٍ نشأ وشبا
بتيجان السناء متوجين

صفيي°[2] ما نمت عُليا معد
وسيطيْ يعرُب في الذِّروتين

وسيفيْ عاتقيك الصارمين
وطوديْ مفخريك الشامخين

هما للدين والدنيا محَلاًّ
سويداواهُما في المقلتين

نذرتهما لدين الله نصراً
فقد قاما لنَذرك وافيين

(١) هذه القصيدة قالها ابن دراج في مدح المنصور وابنيه الحاجب سيف الدولة عبدالملك وعبدالرحمن الناصر، والإشادة ببلائهما في غزوة شنتياقب (**Santiago de Compostela**) كما يتبين من أسماء المواضع الواردة فيها، وقد قاد المنصور هذه الحملة المشهورة إلى جليقية **Galicia** في أقصى الشمال الغربي من إسبانيا في ٢٣ من جمادي الثانية سنة ٣٨٧ (٣ يوليه سنة ٩٩٧). (انظر عن هذه الغزوة ابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣١٣ – ٣١٦ وليفي بروفنسال: تاريخ ٢/٢٤٦ – ٢٥٠)، على أن لفي بروفنسال – معتمداً على نص وارد في كتاب «مفاخر البربر» – يظن أن المنصور وجه ابنيه عبدالملك وعبدالرحمن على رأس حملة إلى جليقية في نفس السنة إلا أنها مختلفة عن غزوة شنتياقب هذه (تاريخ ٢/٢٤٧، حاشية رقم ٢). أما تاريخ هذه القصيدة فينبغي أن يكون سنة ٣٨٧.

(٢) في الأصل: ضفيى.

ومـــــا زالا لـــــــديك ولـن يـــــزالا
بـــأعـــبـــاء الخلافـــة نـــاهـــضـــين
شــرائعُ كــنت مــبـدعـــهـــا وكـــانـــا
عـــلـى مـــســعـــاك فـــيـــهـــا دائـــبـــين
وقـــامـــا في ســــمــــاء علاك نـــوراً
وإشـــراقـــاً مـــقـــام الـــنـــيـــرين
فـــحـــاط الـــمُـــلكَ أكَلأُ حـــائـــطـــين
وحل الـــدينُ أمـــنـعَ مـــعـــقـــلـــين
بـحـاجب شـمس دولـةِ عـبـدِ شـمس
وســيفِ الـله مـنـهـا في الـيـدين
ونـاصـرهـا الـذي ضـمـنت ظُـبـاه
حـمى الـثـغرين مـنـهـا الأعـلـيـين
غَـذوتَـهُـمـا لـِبـانَ الحـرب حـتى
تـركـتَـهـمـا إلـيـهـا آنِـسَـيْنِ
ومـا زالا رضـيـعَـيْـهـا عَـوانـاً
وبـكـراً نـاشـئـين ويـافـعـين
فـمـا كـذبت ظُـنَـونك يـوم جـاءا[1]
إلى أمـد المـكـارم سـابـقـين
ولا خـابت مُـنـاك وقـد أنـافـا
عـلى رتب المـعـالي سـامـيـين
ولا نُـسـِيَت عـهـودُ «الحـارثـين»
ولا ضـاعت وصـايـا «المـنـذِرين»[2]
ولا خــزيت مــآثــر «ذي كَلاع»
ولا أخْـوَتْ كـواعبُ «ذي رُعـين»[3]

(١) في الأصل: جاء.
(٢) لعله يعني بالحارثين بعض ملوك بني جفنة الغساسنة، وبالمنذرين بعض ملوك الحيرة من بني لخم المعروفين بالمناذرة.

ولمــا اســتــصـــرخ الإسلامُ طــاعَــا
إلى الــعـــادات مـــنك مــلــبـــيـــين
كـــمـــا لـــبــيـــته أيـــام تـــلـــقى
ســيـــوف عُــداته بـــالـــراحـــتـــين
تـــراثٌ حـــزت مـــفـــخـــرَه نِـــزاعـــاً
إلى أبـــنـــاء عـــمك في «حُـــنـــين»(١)
وقـــدت زمـــامه حـــفـــظـــاً ورعـــيـــاً
إلى ســـبـــطـيْ علاك الأولـــين
فـــيـــا عـــزَّ الـــهـــدى يـــوم اســتـــقلا
لحـــزب الـــلـه غـــيـــرَ مُـــواكِـــلـــين
ويـــا خِـــزْيَ الـــعـــدى لما اســتـــتـــمـــا
إلـــيـــهم بـــالـــكـــتـــائب قـــائـــدين
وقـــد نـــهـــدا بـــأيمن طـــائـــرين
وقـــد طـــلـــعـــا بـــأســـعـــد طـــالـــعـــين
وقـــد جـــاءت جـــنـــود الـــنـــصـــر زحـــفـــاً
تـــلـــوذ بـــظل أكـــرم رايـــتـــين
كـــتـــائبُ مـــثل جُـــنح الـــلـــيل تـــبـــأى
عـــلـــى بـــدر الـــظلام بـــغُـــرتـــين
بـــكل مُـــقـــضـــقِض الأقـــران مـــاض
كـــأن [بـــثـــوبه](٢) ذا لِـــبْـــدَتـــين
فـــتى ولـــدته أطـــراف الـــعـــوالي
ومُـــقـــعِـــصَـــةُ(٣) المـــنـــايـــا تـــوأمـــين

(١) يشير بـ«أبناء عمه» إلى الأوس والخزرج (الأنصار) وبلائهم في نصرة النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين. ووجه النسب بين المنصور والأوس والخزرج هو أنه معافري الأصل من العرب القحطانية.

(٢) في الأصل: بلبدتيه، ولا يستقيم بها الوزن ولا السياق، ولعل الصحيح ما أثبتنا أو شيء في معناها ووزنها، ومقضقض الاقران أي مفرقهم ومشتتهم.

(٣) مشتقة من القعص وهو الموت السريع المفاجئ.

كــــأن ســــنــــانه شــيـــعيٌّ بـــغي
تـــقـــحم ثـــائـــراً بـــدم «الحـــســـين»
وكلِّ أصمَ عـــرَّاصِ[1] الـــتـــثـــني
وذي شُـــطَب رقـــيق الـــشـــفـــرتـــين
كـــأنـــهـــمـــا ولـــيلُ الحـــرب داج
ســـنـــا بـــرقـــين فـــيـــهـــا خـــاطـــفـــين
أمـــا وســـنـــاهُـــمـــا يـــوم اســـتـــنـــارا
بـــنـــور الأبـــلـــجـــين الأزهـــرين
وراحـــا بـــالمـــنـــايـــا فـــاســـتـــبـــاحـــا
ديـــار «لَـــمِـــيقُ»[2] غـــيـــر مُـــعـــرِّدَيْنِ
وقـــد جـــاشت جـــيـــوش المـــوت فـــيـــهـــا
بـــأهـــولَ من تـــوافي الأيـــهـــمـــين[3]
كـــأنَّ مـــجـــرة الأفـــلاك حَـــفـــت
بـــهـــا مـــحـــفـــوفـــة بـــالـــشِّـــعـــريـــين
وقـــد زُمت ركـــاب الـــشـــرك مـــنـــهـــا
إلـى ســـقَـــر وكـــانـــا الحـــادِيَـــين
ونـــاءا بـــالـــدمـــاء عـــلـى ربـــاهـــا
حَـــيـــاً لـــلـــدين نـــوْءَ الـــمِـــرْزَمـــين

(١) أي لدن.
(٢) ليـق وتكتـب أيضاً «ليـقه» (بضم القاف وسكون الهاء) **Lamego** مدينة في البرتغال الآن من أعمال مدينة «بازو **Vizeo**»، وهي تـقع على بـعد ٣٥٥ كيـلو متراً إلى الشمال والشمال الغربي من لـشـبـونـة عاصمه البرتغال الحالية وعلى بعد

لـــعـــزم مُـــوفَّـــقَـــين مُـــســـدَّدين

وبـــأس مـــؤيَّـــدين مُـــظـــفَّـــرين

وقـد خـسـفـا «كُـرُنَّـةَ»[1] بـالـعـوالي

و«بُـــوغَـــةَ»[2] بـــادئـــين وعـــائـــدين

لـقـد زجـر الـهـدى يـوم اسـتـطـارا

إلى الأعـــداء أيمن ســـانـــحـــين

وشـــام الـكـفـرُ يـوم تـيـمـمـاه

بـــجـــنـــد الحق أشـــأم بـــارقـــين

فــتــلـك مـصـانـع الأمن اسـتـحـالت

مـــصـــارعَ كل ذي خَـــتْـــر وَمَـــيْـن

لــغــاوٍ سلَّ ســيف الــنـكـث فـيـهـا

كــمـــا نـــعَب الـــغـــرابُ بـــيـــوم بـــين

(١) في الأصل: كرية، ولعل الصواب ما أثبتنا، وقد كنا نظنه يعني مدينة «لا كرونيا **La Coruna**» الحالية عاصمة مقاطعة جليقية **Galicia** في الوقت الحاضر (وهي مدينة تقع على أقصى الطرف الشمالي الغربي لإسبانيا على ساحل البحر المحيط)، وهي في الموضع الذي يذكر جغرافيو العرب أنه كانت به أعمدة هرقل، على أن المشهور هو أن هذه البلدة كانت تسمى **El Faro** (أي المنار) في ذلك الوقت وأنه لم يطلق عليها اسم **Coruna** إلا في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، وهذا هو ما يجعلنا نرجح أن الشاعر إنما عني بهذا الموضع «كورونيو **Corono**» وهو اسم نهير تقع عليه بلدة صغيرة تحمل نفس هذا الاسم وتقع في مقاطعة «لا كرونيا» نفسها على مقربة من عاصمتها (انظر كتاب «تاريخ شنتياقب» الذي يحمل عنوان «مآثر دييجو جلميرث أول كبير لأساقفة سنتياقب»: **"Historia Compastelana, o sea Hechos de D. Diego Gelmirez, Primer Arzobispo de Santiago"** وهو نص لاتيني ألف في القرن الثاني عشر الميلادي،

فــأضــحت مــنه ثــانــيــة لحَــزوى
ووِلى ثــالــثــاً لــلــقــارظِــين
تــنــاديه المــعــاهــد: لــيت بــيــني
وبــيــنك قــبلُ بُــعــدَ المــشــرقــين!
لــئن وجــدته أشــأمَ من «قُــدار»
لــقــد عــدمــته أخــيبَ من «حُــنــين»
ســلــيب الــمُــلك مُــنــبَتَّ الأمــاني
وفــقْــدُ الــعــز إحــدى المِــيــتَــتَــيْن
طــريــدَ الــرَّوْع لــو حــسِبَ الــزُّبــانَى
تلاحــظه لَــغــارَ مع الــبُــطَــين
وكلُّ مُــخــادعٍ لكَ لم يُــخــادِعْ
حُــســامَك مــنه حــسْمُ الأخــدعــين
هــوت بــهمُ مــواطئُ كلِّ غــدر
إلـى أخــزَى مــواردِ كُلِّ حَــيْن
لــســيف لا تــقي حــدَّاهُ نــفــســاً
تــراءى من وراء الــصــفــحــتــين
فــبــاء عِــداك من خُــلْفِ الأمــاني
ومن فــقــد الحــيــاة بــخَــيْــبَــتَــينِ
فــللإشــراكِ كــلــتــا الخِــزيــتَــيْن
وللإسلام إحــدى الحُــسْــنــيــين
مــغــانمُ لا يُــحــيط بــهن إلا
حــســابُ الــكــاتِــبَــين الحَــافِــظَــين
كــأنَّ الأرضَ جــاءتــنــا تــهــادَى
بــوجــرةَ أو بــشِــعْــبَيْ رامــتــين[1]

(١) وجرة ورامة (وتثنى): مكانان في البادية مشهوران بكثرة الظباء، وإنما شبه ابن دراج كثرة ما أتى به المنصور في غزوته تلك من السبايا بوفرة عدد الظباء في هذين الموضعين.

بـــكُلِّ أغـــرَّ ســـامي الـــطَّـــرف غُـــلت

يـــداه لـلإســـــار بــــيـــــارِقـــين[1]

وأغـــيـــد أذهـــلت ســـيـــفـــاك عـــنه

هَـرِيتَ الـشِّـدق عـبل الـســاعـدين[2]

فـيـا سُـمـر الـقـنـا زهـواً وفـخـراً

.......................[3] بـين الجـحـفـلـين

ويـــا قُـــضُبَ الحـــديـــد خلاك ذم

بمـــا أحـــرزت من قـــصَبِ الـــلـــجين

بـــطـــعن الأكـــرمـــيْن الأجـــوديْن

وضـــرب الأمـــجـــدين الأنجـــدين

فـــلـــله المـــنـــابـــرُ يـــوم تـــبـــأى

بـفـتح جـاء يـتـلـو الـبُـشْـرَيَـيْن

لـــئن كـــان اســـمُه في الأرض فـــتـــحـــاً

فـكُـنْـيَـتُه تـمـامُ الـنـعـمـتـين

فُـــتـــوحٌ عـــمت الـــدنـــيـــا وذلت

لـــهن رقـــاب أهلِ الخـــافـــقـــين

وخـــر لـــهـــا الـــصـــلـــيبُ بـــكل أرض

صـــريـــعـــاً لـــلـــجـــبـــين ولـــلـــيـــدين

مـــآثـــرُ عـــامـــريِّـــين اســـتـــبَـــدا

لـــســـاحـــات المـــكـــارم عـــامِـــرين

وهِـــمَّـــاتٌ تَـــنـــازَعُ ســـابـــقـــاتٍ

إلـى مـــيـــراث مُـــلْك الـــتُّـــبَّـــعـــين

---

(١) اليارق: هو السوار.

(٢) هريت الشدق: أي واسعُه، وهو وصف يطلق على الأسد، وعبل الساعدين: أي غليظهما.

(٣) بياض بالأصل.

هــمــا شــمــســا مَــفــارق كل فــخــر
فــخَلّ ســنــاهــمــا والمــغــربــين
وبــحــرا الجــود لــيــثــا كل غــاب
فــكلْ عــدويــهــمــا بــالــعُــدوتــين
ويــا قــطب الــعلا مُــلِّــيتَ نُــعــمى
تــمــلاهــا بــقُــرب الــفــرقــدين
فــــقـــــرة أعــــين الإســلامِ ألا
تـــزالَ بمن ولـــدت قـــريـــر عـــين

****

(١٠٣)

وله فيه أيضاً رحمة الله عليهما:

[من الطويل]

هو النصر والتمكين أدرك طالبُهْ
ولاحت وشيكاً بالسعود كواكبُهْ
وبشَّرَ بالفتح المبين افتتاحُه
وأحرزت الصنع الجليل عواقبه
وسلطانُ عِزٍّ في أَرومة مَفخر
تعالت على زُهر النجوم مراتبه
وجود تناهى في الخلائق وانتهت
إلى «حاتمٍ» في الأكرمين مناسبه
تقصت رجاء الراغبين سجالهُ
وعمت كما عم الغمامُ مواهبه
وملجأُ أمن المستضام ومعقل
كفى الدهرَ حتى ما تنوب نوائبه
وسيف محلى بالمكارم جفنُه
معودةٌ نصرَ الإله مضاربه
إذا سله دين الهدى بكَّرَ الردى
لديه يراعي أمره ويراقبه
تخيره الرحمن من سرْو حمير
فناضل عنه باتكٌ[1] الحد قاضبه
مخلدة في الصالحين سماتُه
وباقية في العالمين مناقبه

---

(١) أي قاطع.

حسام الإمام المصطفى وسنانه
ومفزعُه في المشكلات وحاجبُه
هو القدر المحتوم، من ذا يردُّه؟
وسلطان رب العرش، من ذا يغالبه؟
سما لعميد المشركين بعزمة
تداعت لها أركانهُ وجوانبه
وشيَّعتَه يا ابن الكرام بجحفل
سواء عليه خرقه وسباسبه
يُكاثر أعدادَ الحصى بكماته
وتعتد أضعافَ النجوم قواضبه
لُهام كسا أرضَ الفضاء بجمعه
وفاضت على شمس النهار ذوائبه
نهضت به والجو بالنقع مُفعم
وأنَّستَه والليلُ تسطو غياهبه
وأعلى لك القدرَ الجليلَ أمامه
لواء أضاء الشرق والغرب ثاقبُه
فلما رأى «غَرْسِيَّةُ»(*) أنه الردى
يقيناً وأن الله لا شك غالبه

(*) هناك ملكان من ملوك النصارى كانا يحملان اسم «غرسية» على عهد المنصور بن أبي عامر: أولهما القومس غرسية بن فرذلند (بالإسبانية جارثي فرنانديث **Garco - Fernandez**) قومس (كونت) قشتالة (حكم بين سنتي ٣٦٠ و٣٨٥/٩٧٠ = ٩٩٥م) والثاني غرسية بن شانجه المعروف بغرسية الثاني (**Garcia Sanchez II**) بلاد البشكنس (نبارة) وقد حكم هذا فترة قصيرة بين سنتي ٣٨٤ و٣٩١ (٩٩٤ - ١٠٠٠م)، وإلى كلا الملكين قاد المنصور بن أبي عامر عدة حملات مظفرة، ولسنا نعلم من يقصد ابن دراج منهما في هذه القصيدة، على أننا أميل إلى أن يكون موضوع هذه القصيدة غزوة للمنصور في بلاد الملك البشكنسي غرسية بن شانجه (بين ستنتي ٣٨٤ و٣٩١هـ) إذ أن ابن دراج يتحدث في هذه القصيدة عن إحفاء الملك النصراني رسله ووزراءه في سبيل التماس الصلح من المنصور، ومن المعروف أن البشاكسة كانوا أكثر انقياداً للمنصور وأرغب في مصالحته من جيرانهم أهل قشتالة الذين كانوا أشد نصارى الأندلس مراساً وأصلبهم مكسراً في حروبهم مع ابن أبي عامر، وقد ذكرت المراجع المسيحية بالفعل أن غرسية بن شانجه هذا المعروف بـ«الرعديد **El Temblon**» قد سار على سنة أبيه في معاهدة المنصور والإلحاح عليه حتى يمضي له عقد الصلح معه. (انظر كتاب الأب بيريث دي أوربل عن شانجه الأكبر ملك نبارة) (**Fr. Perez de Urbel: Sancho el Mayor, P. 24**).

وقــد حل حــزبُ الــله دون شَــغــافه
وقـد سـلـكت في نـاظـريه كـتـائـبه
ووافـاه ريحُ الـعـزم يـسـقي ربـوعه
وتـنـهل بـالمـوت الـزؤام سـحـائـبه
وأبـصـر بـحـر المـوت طمَّ عُـبـابُه
وفـاضت نـواحـيه وجـاشت غـواربه
وأيـقن أن الـلـه صـادقُ وعـده
وأن أمـانـيَّ الـضـلال كـواذبه
وأسـلـمَهُ ضـنكُ المـقـام إلى الـتي
لـهـا قـام نـاعـيه وضـجت نـوادبه
وقـد رابه أنـصـارُه وكـمـاته
وأوحـشه أشـيـاعه وأقـاربه
وأخـلـفه الـشـيـطـانُ خـادعَ وعـده
وأيـقن أن الـلـه عـنك مـحـاربه
تـلـقـاك في جـيش من الـذل جـحـفلٍ
صـوارمه آمـاله ورغـائـبه
ومن قـبْلُ أحـفى الـرسلَ نـحـوكَ ضـارعـاً
عـلى حـينٍ أنْ عـزت لـديك مـطـالـبه
وأعـيـا بـآراء الـتـرضي وزيـرُه
وأنـفـذ ألـفـاظَ الـتـذلل كـاتـبُه
فـأعـطَى بـكِـلْـتَيْ راحـتـيه مُـبـادراً
لأمـرك مُـرْض بـالـذي أنت راغـبه
وأمـكن حـبلَ الـرِّق[1] من حُـر جـيـده
مُـتـابعَ عـزم حـيث أَمُـرك جـاذبه

(١) في الأصل: الرزق، ولعل الصواب ما أثبتنا.

فـأعـطـيـتـه مـا لـو تـأخـر سـاعـة
لَـزُمت إلى نـار الجـحـيم ركـائـبه
وأضحت سبايا المسلمين حصونُه
وقـد نَـفِـدَت ولِـدانُه وكـواعـبه
فـملاَّك عـزَّ الـمُـلك والـنـصـر ربُّه
وهـنـاك الـصـنعَ المـتـمَّمَ واهـبه

****

(١٠٤)

وله في عبدالملك المظفر رحمهما الله تعالى(١).

[من الكامل]

شهدت لك الأبطال يوم كفاحها
والحرب بين غدوها ورواحها
والبِيضُ يوم جلائها ومضائها
والخيلُ في إقحامها ومراحها
ومواكبُ الأملاك يوم بهائها
ومشاهد السادات يوم سماحها
أنَّ المدى يوم ارتهان سباقها
لك والمعلى يوم فوز قداحها
عقدت بمفرِقك الرياسةُ تاجها
وكستك لِبْسَ ردائها ووشاحها
ونمتك من أملاك يعرُبَ نبعة
تأوي الكواكب في ذُرَى أدواحها
آسادُ أغيال على مُهتاجها
وبحار إنعام علي مُمتاحها
ومحط أرحالِ المنى بموارد
رحْبٍ على الوُرَّاد عذبُ مُراحها

(١) نظم ابن دراج هذه القصيدة – كما يبدو من الإشارة إلى المنصور بن أبي عامر فيها – في حياة المنصور، وقد تحدث فيها عن غزوة له في بلاد «بنبلونة» أي نبارة، ونحن نعلم أن المنصور قد وجه عدة غزوات إلى هذه البلاد، ولسنا نعلم أي هذه الغزوات أراد، وربما كانت الإشارة إلى حملة وجهها المنصور إلى بنبلونة في سنة ٩٩٩/٣٨٩ حينما كان يحكمها الملك غرسية الثاني بن شانجه الذي توفي بعد ذلك سنة ١٠٠٠/٣٩١ (م). (انظر عن تلك الغزوة ليفي بروفنسال: تاريخ ٢/٢٥٠ – ٢٥١ وبيريث دي أوربل: شانجه الأكبر ص ٢٥).

ومــنــابتُ الــعِــز الــذي عــمــرت به

في الـدهـر شمُّ إكـامـهـا وبِـطـاحِـهـا

ومـعـاقـدُ الـتِّـيـجَـان فـوق مـفـارق

بـهـرت إياة[1] الـشـمس من أوضـاحـهـا

والـبـأس ملءُ صـدورهـا والحـلـم حَشـ

ـو بـرودهـا والجـود مـوطن راحـهـا

حـكـمت لـهـا مـضـر عـلـى ساداتـهـا

يـوم افـتـخـار «أُحَـيْـحَـةَ بنِ جُلاحِـهـا»[2]

خـصت بـتـعـلـيم الأذان فـنـوديت

في نـومـهـا بـصلاحـهـا وفلاحـهـا

واسـتـقـرض الـرحـمن جـنـةَ خـلـده

بـبَـتـات حـائـطه «أبـو دَحْـداحِـهـا»[3]

ومـنـاقب أَرْبَت عـلـى خُـطَـبَـائـهـا

ومـآثـرٌ زادت عـلـى مُـدَّاحِـهـا

---

(١) إياة الشمس: هي شخصها وعلامتها.

(٢) يشير في هذا البيت إلى أبي عمرو أحيحة بن الجلاح الأوسي كان من فرسان يثرب (المدينة) وأشرافها في الجاهلية (انظر عن أخباره أبا الفرج الأصبهاني: الأغاني ١١٤/١٣ – ١٢٢) ولعل ابن دراج يعني بحكم مضر له على ساداتها ذلك الخبر الذي أورده الاصبهاني (أغاني ١١٤/١٣) والذي يذكر فيه أن الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك أبدى إعجابه بأحيحة وتفضيله له لأبيات قالها في الافتخار بقصر الزوراء، وذلك في حديث للخليفة الوليد مع الأحوص الشاعر.

(٣) هو أبو الدحداح الصحابي الأنصاري، وفي هذا البيت إشارة إلى حديث عن أبي الدحداح هذا رواه الإمام مسلم في «الجامع الصحيح» وفيه أن رجلا سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول «كم من عذق معلق – أو مدلى – في الجنة لأبي الدحداح»، وقال النووي في تفسير هذا الحديث: إن يتيماً خاصم أبا لبابة في نخلة فبكى الغلام، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) لأبي لبابة: أعطه إياها ولك بها عذق في الجنة، فأبى أبو لبابة، فسمع ذلك أبو الدحداح فاشتراها من أبي لبابة بحديقة له، ثم قال للنبي (صلى الله عليه وسلم): أيكون لي بها عذق في الجنة إن أعطيتها اليتيم؟ قال: نعم، فأعطاها اليتيم (صحيح سلم ٦٠/٣ – ٦١ط. القاهرة سنة ١٣٢٩هـ)، وعن أبي الدحداح انظر ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ترجمة رقم ٨٧٨ – ١٩٣ (ط. القاهرة سنة ١٩٣٩م)، ابن عبدالبر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١٩٧/١ (على حاشية ابن حجر)، محيي الدين ابن شرف النووي: تهذيب الأسماء واللغات ق ١ – ٢٢٨/٢ (ترجمة رقم ٣٣٩).

فـنـمـتك في أقـيـالـهـا ومـلـوكـهـا
وعـمـرت سـبل نـوالـهـا وسـمـاحـهـا
فـلـبـست ثـوب سـنـائـهـا ووفـائـهـا
وحـفـظت عـهـد سـيـوفـهـا ورمـاحـهـا
فـعـبـأتَ للإسلام عـطـفـة رحـمـة
ألْـحَـفت أهلَ الأرض ظلَّ جـنـاحـهـا
وتـبـاشـرت مـنك الـمُـنى لمـا دنت
بمُـيَـسَّـر الـشـيم الـكـرام مُـتـاحِـهـا
وبـطـشت بـالإشـراك بـطـشـة قـادر
بـالـله مُـجـتث الـعِـدى مُـجـتـاحِـهـا
فـحـطـمْتَ عُـدة مُـلـكـهـا، وفـصـمت عُـر
وةَ جـمـعـهـا، وكـفَـيْت غَـرْبَ جِـمـاحـهـا
وقـريْتَ عُـلـيـا «بَـنْـبِـلُـونَـةَ» عـزمـةً
هـبت عـلـيـهـا من مـهـب ريـاحـهـا
وتـكـنـفـتك من الـسـعـود كـواكب
طـلـعت بـخـيـلك في وجـوه نجـاحـهـا
والخـيلُ تـغـدو في الـوغى بـفـوارس
تَـخِـذت مـعـاقـلَـهـا ذُرى أشـبـاحـهـا
ثم انـبـرى «المـنـصـور» فـيـهـا قـارعـاً
بـاب الـسـمـاء بـدعـوة اسـتـفـتـاحـهـا
مـسـتـنـجِـزاً تـأيـيـدَ ذي الـعـرش الـذي
فـلق المـشـارق عن سـنـا إصـبـاحـهـا
فـنـهـبت عُـمـرَ حـيـاتـهـا وحـويت رِ
قّ حـريمـهـا وحـكـمتَ في أرواحـهـا
فـأقـمت فـيـهـا لـلـجلاد ولـلـردى
سـوقـاً حـويت المجـد في أربـاحـهـا

ورمت ظُباك إليك نفسَ مليكها
واري زناد الخزي غيرَ شَحاحها

مسترحماً لك من وقائعَ لم تزل
يودي بمهجتها[1] أليمُ جراحها

فزِعاً إليك بنفس عان خاضع
بادي المقاتل للسيوف مُباحها

في شيعة أمَّت إليك وقد رأت
أن الخضوع إليك خيرُ سلاحها

فأجرتَ منه بالتعطف مُهجة
وقْفاً مواعِدُها على أنواحها

وكررتَ خيلَ الله تحملُ مثلها
أطلاحَ أسفار على أطلاحها

فصدعت أحشاء الظلام بعزمة
تسري البصائر في سنا مصباحها

والنصرُ يشرق في ظبى أسيافها
والفتح يلمع في ذرى أرماحها

حتي صَبَحت بلاد «ميرو»[2] وقعةً
أنحى على الإشراك سوءُ صباحها

(١) الضمير هنا عائد على «نفس» الواردة في البيت السابق.

(٢) لسنا نعرف من يقصده ابن دراج باسم «ميرو» هذا على وجه التحقيق، وهو ينبغي أن يكون أحد قوامس الإمارات المسيحية في شمال إسبانيا، وأهم من نعرفه من هؤلاء ممن كانوا يحملون هذا الاسم اثنان: أولهما ميرو **Miro** أو ميرو **Miron** بن سينار **Sunyer** قومس برشلونة، وكان أبوه يحكم هذه الإمارة بين سنتي ٣٠٢ و٣٤٣هـ. (٩١٤ – ٩٥٤م)، ثم اعتزل سينار حكمها واعتكف في أحد الأديرة مخلفاً عليها ابنين له هما ميرو هذا وأخوه بريل (الثاني) **Borrell II**، وقد حكم هذان الأخوان مشتركين حتى توفي ميرو سنة ٩٦٦/٣٥٦ دون خلف، فانفرد بريل بحكم برشلونة حتى توفي سنة ٣٨٢ (٩٩٢م). انظر: **Aguado Bleye: Manuel de Historia de Espana, I, P. 506** أما الثاني فهو ميرو بن ريمند قومس بليارش **Pallars** (وكانت إمارة شبه مستقلة تقع بين منطقة الثغر الأعلى أي سرقسطة وأعمالها ومملكة نبارة)، وكان أبوه ريمند الأول **Regemondo I** يحكمها بين سنتي ٢٧١ و٣٠٤ (٨٨٤ – ٩١٦)، ولسنا نعلم الكثير عن ميرو هذا إذ لم تمدنا المراجع – – المسيحية بشيء

لاقــتك دون حــصــونــهــا فــكــأنمــا

لاقت ســيــوفك في فــضــاء بــراحــهــا

وأبــحت مــنــهــا كل مُــخــطــفَــة الحــشــا

شَــرِقٍ عــلــى الــلــبــات نــظمُ وشــاحــهــا

فُــجِــئَتْ بــلــمس الــبــعل إلا أنــهــا

خــطت رمــاحُ الخط عَــقْــد نــكــاحــهــا

بِــيض حــدتــهن الــســيــوف فــأبــرزت

صــفــحــاتِ أوجــهــهن بــيضُ صــفــاحــهــا

يــا حــاجــبــاً شــمسَ الأقــاصي والــدنى

بــنــداه ثــوبُ أمــانــهــا وصلاحــهــا

اســلَمْ ولا زالت حــيــاتُكَ غــبــطــةً

أبــداً تــديــر عــلــيك أكــؤسَ راحِــهــا

****

له قيمته عن حياته وأخباره، وقد أسلفنا الحديث عن ذلك عند تعليقنا على اسم «ابن ميرو» في موضع سابق من هذا الديوان (انظر ص ٢٠١). والذي نراه أن كلا هذين الأميرين يستبعد أن يكون قد أدرك أيام المنصور ابن أبي عامر في أواخر القرن العاشر الميلادي، على أننا نرى أن إشارة ابن دراج إلى «بلاد ميرو» لا تلزم بأن يكون «ميرو» المذكور – أيا كان – حيا في تلك الفترة، فقد يكون يعني بذلك أحد أبنائه أو أحفاده. هذا والذي نعرفه أن ميرو قومس برشلونة لم ينجب، أما قومس بليارش فقد احتفظت لنا المراجع المسيحية بذكر اثنين من أبنائه يسمى أحدهما جيرمو **Guillermo** والآخر ريمند **Raimundo** ولهذا فنحن أميل إلى أن يكون الشاعر قد عني بـ«بلاد ميرو» هذه الإمارة الصغيرة التي كان يحكمها في أيام المنصور أحد هذين الابنين أو كلاهما، كما أن متاخمة بليارش لمملكة نبارة ترجح لدينا هذا الرأي (انظر بشكل خاص **Jose Maria Lacarra: Textos navarros del Codice de Roda Estudios de Edad Media de Ia Corona de Aragon, Vol, l, p. 246**).

(١٠٥)

ولأبي عمر ابن دراج(١) أيضاً في المنصور أبي عامر، وقد صدر رحمه الله من بعض غزواته من بلاد غرسية بن شانجه(*).

[من الطويل]

تبلج عن إشراق غُرتك الصبحُ
وأسفر عن إقدامك النصر والفتحُ
وقرت عيون المسلمين بأوبة
مصادرها عز وموردها نُجح
كأن شعاع الشمس من نور هديها
وعَرف نسيم الروض من طيبها نفح
ضربت بحزب الله في الأرض مُقدِماً
إلى متجر جنات عدن له رِبح

---

(١) في حاشية هذا الوضع تعليق بخط مغاير لخط الناسخ هذا نصه: «صرح الكاتب هنا باسم ناظم هذا الديوان».

(*) هو غرسية بن شانجه ملك نبارة، حكم بين سنتي ٣٨٤ و٣٩١ (٩٩٤ - ١٠٠٠)، انظر تعليقنا عليه في موضع سابق (ص ٣٧٩). أما مناسبة هذه القصيدة فيبدو لنا أنها كانت عند عودة المنصور من الحملة التي عرفت باسم «غزوة جربيره **Gervera**» التي دارت فيها موقعة عنيفة بين جيوش المنصور وجيوش النصارى في ٢٥ شعبان سنة ٣٩٠ (٣٠ يولية سنة ١٠٠٠)، وكانت الممالك النصرانية في شمال إسبانيا قد ائتلفت لمحاربة المنصور، فاشتركت في الاستعداد للحرب قشتالة التي كان يحكمها شانجه بن غرسية بن فرذلند ونبارة التي كان يحكمها غرسية بن شانجه (المذكور في عنوان القصيدة) وقريون **Carrion** التي كان يضطلع بحكمها غرسية بن غومس وأسرته وليون التي كانت خاضعة لسلطان ألفنش بن برمند (ألفونسو الخامس **Alfonso**)، وكان شانجه بن غرسية قومس قشتالة هو زعيم هذا الائتلاف النصراني، وقد انتهت هذه المعركة بانتصار المنصور العامري على جيوش المسيحيين بعد أن كادت الهزيمة تلحق بجيوش قرطبة، وكان لابني المنصور عبدالملك وعبدالرحمن في هذا اليوم بلاء حسن، وقد اقتحمت الجيوش الاسلامية بعد ذلك النصر أرض بنبلونة وخربتها، ويبدو أن ذلك كان قبل موت ملك نبارة غرسية بن شانجه (سنة ٣٩٠/١٠٠٠) بقليل، وقد احتفظ لنا ابن الخطيب بتفصيل واف لهذه الغزوة (أعمال الأعلام ص ٦٩ - ٧٣). وانظر ما كتبه عنها ليفي بروفنسال: تاريخ ٢/٢٥٢ - ٢٥٤ وبيريث دي أوربل: شانجه الأكبر ص ٢٥ - ٢٦.

فضعْضَعْتَ تيجانَ الضلال بوقعة
على الشرك لا يؤسى لها أبداً جُرح
ورويت من ماء الجماجم والطلى
متون جياد شفها الظمأ التَّرح
بوارقَ ما أومضنَ عنك لناكث
فأخلف من سُقيا دمٍ ديمةً تسحو[1]
صفائح أعداها سناك فأشرقت
ولم يعدُهُن العفو منك ولا الصفح
وزُرقاً تعالى للعداة كأنما
تطايرَ من زند المنون لها قدح
هوادٍ إذا جَلَّيْن عنك لناكث
فحتمُ المنايا من لواحظها لمح
وسابحةٌ في البر والبحر لم يزل
ببأسك في بحر الدماء لها سبح
إذا جمجمت يوماً بها منكَ صولة
إلى الشرك لم يملِك أعنتها الكَبح
رفعت برايات الهدى من صدورها
هواديَ أدنى شأوها الشدُّ والضبح[2]
فما حملت خطباً إلى دارِ خالع
وإن عز إلا كان أيسرَه الفدْحُ
ولا وطئت للكفر أرضا وإن نأى
بها الغول إلا مسها منهمُ قرح
فكم روَّعت للغي في عُقر داره
حمًى لم يُرع من قبلهنَّ له سرح

(١) أي تجرف وتقشر، ويقال ذلك في السيل أو المطر إذا كان شديداً، ويحتمل أيضاً أن تكون «سح».
(٢) في الأصل: والصبخ. والضبح هو تردد أصوات الخيل في أجوافها.

بـــكل حـــمي الأنف دونك لم يـــخِم

به ســاعــد عــبل ولا صــارم شــبح[1]

تحلـوا فـنـاطـوا بـالـعـواتق في الـوغى

جـيـوبـاً كـرامـا حـشـوهن لك الـنـصح

وكم طـــردوا من تحت غِـــيل وغـــابـــة

إلـــيك أســـوداً مـــا يُـمـلُّ لـــهـــا ذبح

وسِـربٍ مـهـاً أخـلـى الـهـيـاجُ خـدودهـا

فـأسـفـر عن أحـداقـهـا الـضَّـالُ والـطـلح

لَـــواهٍ عن الأكـــفـــاء عِـــزاً وإن تـــقل

لـهـا بـالـقـنـا الخـطي خِـطْب تـقُل نِـكْح

تـركن عـمـيـدالـشـرك مـا بـين جـفـنه

وبـــين غِـرار الـــنـــوم عـــهـدٌ ولا صـلـح

يـلـــوذ بـــشُمِّ الـــراسـيـــات وسَـــحْـرُه

من الـطـود شِعْب لـلـمُـخـاتل[2] أوسـفح

ومـــا كـــر إلا نـــادبـــا لمـــعـــاهـــد

لك الـفـرح الـبـاقي بـهـا وله الـتـرح

ويـــا رُبَّ عِـــلـق لم يـــسُـــسْه مـــوفَّق

فـــوَفَّـــرَهُ جُـــود وبـــدده شُح

تـركت لـعـيـنـيه مـقـاصِـرَ عـزه

وأحـسنُ مـا حـلـيت أوجُـهَـهـا الـقُـبْح

وأوطـأتَ أيـدي الخـيل بَـيْـضـة مُـلـكه

فـأقـلـعن لا قَـيْض هـنـاك ولا مُحُّ

---

(١) أي طويل.

(٢) في الأصل: المحاتل.

وإن حـــمت[1] الآجـــال بـــعض حُــمــاته
فـــإنك في أعـــجـــاز لـــيـــلـــهِمُ صـــبح
وأنت ركـزت الملك[2] في الأرض مـثـلـمـا
يُـثـبِّتُ فـيـهـا ذو الجلال ومـا يمـحـو
لـقـد كـدحـوا نَـكـثـاً لـعـهـدك مـنـهمُ
فـخُـيِّبَ ذاك الـسـعيُ وانـقـلب الـكـدح
وأمـسـوا وأضـحـوا موُجِـفـين بـبـغـيـهم
إلى نـقم أمـسـوا لـهن ولم يُـضْـحُـوا
مـواردُ لا مـرعى الـسـيـوف بـعُـقـرهـا
جـديب ولا شُـرْبُ الـرمـاح بـهـا نَـشْح[3]
سـريتَ لـهم بـالخـيـل في ظلِّ غـيـهب
من الـلـيـل مـا يـطـوى عـلـيك له كـشح
تـقـابل فـيه الـبـدر والـبـدر والـقـنـا
وزُهـر نجـوم الـلـيل والجُـنْحُ والجُـنح
وسِـبـطـانِ من أملاك يـعـرُبَ أقـدمـا
بـأجـنـادهـا كـالـنـجم يـقـدمُه الـنَّطح[4]
سـراجـان للإسلام مـا طـلـعَـا مـعـاً
عـلى الخـطب إلا بـشـر الـيُمْن والـنُّجح
فـهـذا حـسـام في يـد الـمُـلك قـاضب
رَسـوبٌ[5] وهـذا في يمـين الـهـدَى رُمح
هـو الحـاجب المحـتل من رتب الـعلا
بـحـيث تـنـاهى الـفـخـر والحـمـد والمدح

---

(١) غير واضحة في الأصل.
(٢) هاتان الكلمتان مطموستان في الأصل لا تبدو منهما إلا بعض حروفهما.
(٣) النشح: هو الشرب القليل الذي لا يروي.
(٤) النطح: نجم من منازل القمر، والإشارة هنا إلى ابني المنصور.
(٥) السيف الرسوب: هو الذي يغيب في الضريبة.

وأنــفسُ نــفس في الــورى غــيــر أنه
إذا لــقيَ الأعــداءَ فــهــو بــهــا سَــمْحُ
وصِـنــوُ عُلاه «نــاصــر الــدولــة» الــذي
يــفــوز له في كل مــكــرمــة قِــدْحُ
فـتـلك الـربى من «بـنـبـلـونـة» والحـمى
من الـراح[1] مُـسـودٌ بـأرجـائه الـصـبح
وبَـيـعَـةُ «شَـنْتَ اقْـرُوجَ»[2] أوْرَيت فـوقـهـا
سـنـا لـهب فـيه لَـعـمـيـائِـهـا شـرح
وكـان لـهـا الـفِـصح الأجل فـأصـبـحت
لـنـارك فِـصـحـاً مـالـهـا بـعـده فِـصح
فـلـلـه عـيـنـا من رأى بك صـرحـهـا
ومن جـاحمِ الـنـيـرانِ في سَـمـكه صـرح
رفـعتَ من الـصُّـلـبـان في عـرصـاتـهـا
وقــوداً له في وجه «رُومِــيَّــة»[3] لــفح
وفـجَّـرت فـيـهـا من دمـاء حُـمـاتـهـا
بـحـوراً لـهـا في تـاج مُـلـكـهمُ نَـضح

(١) لم نوفق إلى معرفة ما يقصده الشاعر بقوله «الحمى من الراح»، ولو أننا نظنه يعني المنطقة المعروفة الآن باسم **La Rioja** وكانت عاصمتها ناجرة **Najera** التي تردد ذكرها في هذا الديوان.

(٢) في الأصل «شنت افروج» ولعل الصحيح ما أثبتنا، والشاعر يعني بغير شك كنيسة كانت تسمى «**Santa Cruz**» (ومعناها الصليب المقدس)، ولم تحفظ المراجع العربية شيئاً عن كنيسة بهذا الاسم خربها أو أحرقها المنصور بن أبي عامر، غير أن الوثائق المسيحية التي بقيت من أوائل القرن الحادي عشر الميلادي تذكر أن هناك ديراً يحمل هذا الاسم كان من بين ما خربته حملات المسلمين، وأن السلطات الكنسية كانت تجتهد في سنة ١٠٣٥م (٤٢٧هـ) في إصلاحه وترميمه، ولا يستبعد أن تكون هذه «البيعة» التي يتحدث عنها ابن دراج هي نفسها ذلك الدير الذي أشارت إليه الوثائق (انظر بيريث دي أوربل: شانجه الأكبر ص ١٠٥) كما ورد أيضاً في مقال نشره في مجلة المجمع التاريخي الملكي الأستاذ سرانو سانث عن بعض الوثائق المحفوظة بكنيسة (سانتا ماريا دل بورتو)، المجلد الثالث والسبعون، ص ٤٣١).

(٣) يقصد برومية المسيحية عامة.

وأشـــرعت في أرجـــائـــهـــا كل ثـــاقب
له في شـغـاف الـقـلب من قـيـصـر جـرح
طـــــوالـعَ من آفـــاق جـــيش كـــأنه
بــخَــرق الملا كِسف من الــلـيل أو جُـنح
يــضِلُّ مــدى الأبـــصــار في جــنــبــاته
ويَـحْـسـرُ عن غـايـاته الـريح والـضِّحُّ[1]
فــجـــوزيت عن ســعـي الــبلاد بــأنْــعُم
ذخــائــرهــا فــوز وعــاجــلــهــا فــتح
وَوُفِّـيتَ أجــر الـصــابـرين مُـضـاعـفـاً
من الـــدين والــدنــيــا، لك المن والمــنح
ومُـلِّـيت شـهـراً لـلـصـيـام نـسـكـتَه
بـأشـفـاع غـزو دأبـهـا الـضـرب والـكفح
ولا زال عِــزُّ الـنـصـر والـفـتح عـامـداً
لآيــة مــا يــنــوي وآيــة مــا يــنــحــو

****

(١) الضح: هو ضوء الشمس، ويقال جاء بالريح والضح أي بما طلعت عليه الشمس وهبت الريح.

(١٠٦)

وله فيه أيضاً رحمهما الله وقد خرج غازياً.

[من الكامل]

سِرْ سارَ صُنعُ الله حيث تسيرُ
قُدُماً وساعَدَ عزمَكَ المقدورُ
ووصلت موصولاً ببغيتك المنى
وميسَّراً لمرادك التيسير
وأعاد عادات جرت لك بالمنى
رب على أضعافهن قدير
فالسعد بالنصر العزيز مُخَبِّرٌ[1]
واليُمْنُ بالفتح المبين بشير
حكمت لك الأقدار أنك باهر
مُلْكَ الملوك وأنه مبهور
وقضى لك الرحمنُ أنك قاهر
حزبَ الضلال وأنه مقهور
جُعِلت فداءَك أنفُسٌ أحيَيْتَها
وبها جميعاً - لا بِكَ -المحذور
فانهض بحزب الله يقدُم جمعَه
حفظُ الإله وسعيُك المشكور
في جحفل جَمِّ العديد كأنه
فلك على الأرض الفضاء يدور

---

(١) في الأصل: مخير.

عُــمَّت بـه الأقـــطـــار إلا مـــوضـــعـــاً
فـــيه عـــدوك لـــلـــســـيـــوف أســـيـــر
لجبٍ يُـــغـِصُّ الأرض وهي عـــريـــضـــة
ويـــرد غـــرب الـــطـــرف وهـــو حـــســـيـــر
من كل مـــــقـــــدام يـــــكـــــاد فـــــؤاده
طـــربـــاً إلى نـــغم الـــســـيـــوف يـــطـــيـــر
مُـــتـــســـربلٍ صـــداً الـحـــديـــدكـــأنه
قـــمـــر تـــعـــرض دونه ســـاهـــور
ومُـــهـــنـــدٍ يُـــزجي المـــنـــون كـــأنه
عـــبـــد بـــطـــاعـــة حـــدِّه مـــأمـــور
لُجٌّ بـــشـــيـــر الـــنـــصـــر فـــيه ســـابح
بـــرقُ ســـحـــابِ المـــوت مـــنه قـــطـــيـــر
ومُـــثـــقفٍ صَـــدْقِ الـــكـــعـــوب كـــأنه
قـــلـم تـــمـــكن من شَـــبـــاه الـــنـــور
وأقبَّ مـــصـــقـــول الأديم كـــأنه
بـــحـــر بـــريـــعـــان الجِـــراء يمـــور
مَـــرحٍ يـــكُـــرُّ الـــقـــلبُ حـــيث يـــقـــودُه
ويـــســـيـــر طـــرفُ الـــعـــين حـــيث يـــســـيـــر
هَـــزِجٍ يـــكـــاد يـــبـــين في نـــغـــمـــاته
ويلاك يـــا «غَـــرْسِـــيَّـــةُ» المـــغـــرور!!
أين الـــنـــجـــاء وقـــد أظـــلـك مُـــغـــضَـــبـــاً
لـــيث الـــعـــرين الحـــاجب «المـــنـــصـــور»؟!
وأتـــاك في لـــبس الـحـــديـــد مُـــضـــاعَـــفـــاً
ســـيف الـــهـــدى ولـــواؤه المـــنـــشـــور!

سهم - إذا شجر[1] القواضبُ - صائب
سيف - إذا اعتنق الكماة - مُبير

غيث - إذا ما الغيث أخلف - هاطل
بدر - إذا دجت الخطوب - منير

سام إلى شيم الملوك منازع
هاد على خُلُق الهدى[2] مفطور

متفرد بمناقب متقاصر
عن كنهها المنظوم والمنثور

عبدالمليك فتى المكارم والذي
حظ الرجاء بسيبه موفور

فهناك سَلَّك[3] صارمين كلاهما
للملك والدين الحنيف نصير

وذخيرة في النائبات ومعقل
من صرف أحداث الزمان مجير

حازا سناء مناظر ومخابر
ملئت بهن نواظر وصدور

****

(١) في الأصل: أشجر، وقد تكون اشتجر.

(٢) في الأصل: الهوى.

(٣) في الأصل: سلاك، ولا يستقيم بها الوزن ولا المعنى، ولعل الصواب ما أثبتنا، ويحتمل أن تكون أيضاً: فهناك سلا.. ألخ».

(١٠٧)

وقال فيه أيضاً رحمهما الله وقد ورد الخبر على المنصور بإقبال ابن / شانجه صهره(*) محكماً له في نفسه إثر ما كان من إيقاع المنصور به:

[من الطويل]

ألا هكذا فليَسْمُ للمجد من سما ... ويحم ذمار الملك والدين من حمى

وإلا «فللمنصور» غايات ما شآ ... إليه بني الدنيا وأغراضُ من رمى

وحَقٌّ لمن لاقى فأقدم سيفُه ... على غمرات الموت أن يتقدما

ومن حقرت مستعظم الهول نفسه ... إذا الخيل كرت أن يكون المعظما

(*) يعني ابن دراج بـ«ابن شانجه» هذا «شانجه الثاني بن غرسية الأول بن شاتجه الأول» ثالث ملوك البشكونس (مملكة نبارة)، وهو الذي ينبز في المراجع المسيحية بلقب **Abarca**، حكم مملكة نبارة بين سنتي ٣٦٠ و٣٨٢ (٩٧٠ – ٩٩٤) أي معاصراً للحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر، وقد بدأ شانجه هذا حكمه بتجديد عهود الخضوع للحكم المستنصر، إلا أنه لم يلبث أن نقض عهده وتحالف مع ملك ليون وقومس قشتالة ضد المسلمين، فأوقع به المستنصر ثم المنصور العامري في عدة غزوات قتل في إحداها ابن لشانجة هذا اسمه رذمير **Ramiro** (في سنة ٩٨١/٣٧١)، فعول الملك البشكنسي حينئذ على تأكيد عهود الصلح مع المنصور، بل إنه أهدَى إليه ابنة له، فقبلها المنصور وأعتقها وتزوجها وتسمت بـ«عبدة» وحسن إسلامها، وأولدها المنصور ابنه عبدالرحمن الملقب من أجل ذلك بشنجول (تصغير شانجه اسم جده لأمه)، ويقول ابن الخطيب بعد ذلك: إنه «لم تزل الأيام حتى ورد أبوها الملك على بابه [أي باب المنصور] زائراً ومستصرخا» (أعمال الأعلام ص ٦٦)، وقد وصل شانجه إي قرطبة في ٣ رجب سنة ٣٨٢/٤ سبتمبر سنة ٩٩٢، واستقبله المنصور استقبالا رائعاً فخماً، وقد أفاض في وصف حفل الاستقبال ابن الخطيب (نفس المرجع ص ٧٣ – ٧٤) وانظر ليفي بروفنسال تاريخ ٢٤٢/٢ – ٢٤٣، أما تاريخ هذه القصيدة فينبغي أن يكون في المناسبة المذكورة وسترد قصيدة أخرَى لابن دراج في نفس الموضوع.

ومن مَلَّ[1] أُنس المال حتى تحكمت
على ما حوت كفاه أن يتحكما
ومن حمت العلق النفيس سيوفه
من الضيم أن تختار مُرتبعَ الحِمَا
ومن تيمته أوجهُ المجد أن يُرى
وقلب العلا صباً إليه متيما
ولله يا «منصور» آراؤك التي
بنيت بها نحو الكواكب سلما
وهذا عظيم الشرك قد جاء خاضعاً
وألقى بكفيه إليك مُحكِّما
سليل ملوك الكفر في ذِروة السنا
ووارث ملك الروم أقْدَم أقدما
توسط أنساب القياصر فانتمى
من الصيد والأملاك أقرب منتمى
ولما تقاضى غَرب سيفك نفسَه
وحاطت له الأقدار مُحتقَن الدِّما
ولم يستطع نحو الحياة تأخراً
بفوت ولا نحو النجاة تقدما
تداركه المقدار في قبضة الردى
وخاطبه حناً عليه فأفهما
وبشره التأميلُ منك بعطفة
تلقى بها رَوْح الحياة تنسُّما
فأشرع أرماح التذلل طاعناً
وأصلت أسياف الخضوع مُصمِّما

(١) إضافة يقتضيها الوزن والمعنى.

وقـابـلـه الـنـصـرُ الـذي لك صـفـوُه
مع السعد حتى[1] احتازه لك مغنما
وقـاد لحـبل الـرق نـحـوك نـفـسه
فلاقـاك ممـتـنـاً ووافـاك مـنـعِـمـا
وحـفَّت به لـلـحـاجب الـقـائـد الـذي
أبى الـدهـر إلا مـا أمـرَّ وأحـكـمـا
حـمـايـة آبـاء ومـنـعـة قـادر
يـتـيه عـلى صـرف الـزمـان مُـحـرَّمـا[2]
فـراح ذلـيلاً ثم أضـحى مُـبَـجَّلاً
وأمـسى مُـهـانـاً ثم أصـبح مـكـرمـا
وأصـبحَ من حظ الـسلامـة وافـراً
بـأن راح من عـز الإمـارة مُـعـدِمـا
ولاقـاك فـاسـتـخـذى لـديك تـذللاً
لـيـحـتـاز من أدنى رضـاك تـرحـمـا
لـئن خـفـرته مـنك ذمـة قـادر
لـقـد فـارق الـكـفـرَ الخـذول مُـذَمَّـمـا
لـئن سُـمـتَه الـبـأسـاء في عـقـر داره
لـقـد عُـضْـتَه في دار مـلـكك أنـعُـمـا
لـئن خـاض في اسـتـقبالك الجود والندى
لـقـد خـاض في آثـارك الـنـقع والـدِّمـا
ومـرَّ يُـبـكِّي من مـعـاهـد مُـلـكِه
مـعـالـم عـفَّـتـهـا الـسـيـوفُ وأرْسُـمـا

---

(١) في الأصل: «مع السعد الذي احتازه لك مغنما»، ويرى أن كلمة «الذي» الواردة هنا مؤدية إلى اختلال الوزن وعدم اتساق المعنى، وقد أثبتنا في موضعها كلمة «حتى» التي يستقيم بها الوزن والمعنى، وقد يكون أيضاً في موضعها «لما».

(٢) في الأصل: فحرما.

تُـراعُ بــهــا الأجــبــال من رنــة الــصــدى
ويُـذعَـرُ فـيـهـا الـطـيـر أن يـتـرنمـا
بــســطت له أمــنــاً وقـد بـسط الـقـنـا
ثـرى أرضه من أهــلــهــا بك أعـظُـمـا
ســقــيـت به الإسلام أرْيــاً وطــالمــا
سقـاهم بـكـأسِ المـوت صـابـاً وعـلـقـمـا
وهـــا هـــو ذا في راحـــتــيـك مُـــذللاً
رهـيـنـاً لمـا أمـضـيت فـيه مُـحـكِّـمـا
رمى نــفــسه قــســراً إلى المــلـك الـذي
رأى الــدهــر ممـلـوكـاً له فـتـعـلـمـا
ولولا سيوفُ النصر حين انتضيتَها
لـقـد جل هـذا الـصـنع أن يُـتَـوهَّـمـا
فـجـاء وقـيـدُ الـروع يـقـصُـر خـطـوَه
ويمـتـد في حـبل الخـضـوع تـقـدمـا
يـخـاطب عن رعب وإن كـان مـفـصـحـاً
ويـفـصح عن ذُعـر وإن كـان أعـجـمـا
إذا راعه هــول الجــنــود فـأحـجـمـا
تــداركه ذكــرى رضــاك فــأقــدمــا
ومـــا كـــرَّ رجعَ الـــطـــرف إلا وضـــيـغم
يُـســاور في رعب الأســنــة ضـيـغـمـا
وأرقَمُ يــســطــو بـــالـهــواء اضــطِـرابُه
يُـنـاهِـس في لـيـل من الــنـقـع أرقـمـا
وعِـقـبـانُ أعلام تـمـرُّ يـخـالُـهـا
عـلى نـفـسه في مـعـرك الحـرب حُـوَّمـا
فـــلــلـه يـــوم جلَّ قـــدرُ عـــديــده
وعُـدَّتِه عن مــثــلــمــا[1] وكـأنَّـمـا

(١) في الأصل: مثلها.

جـنـود كـأن الأرض من لمـعـانـهـا
بـروق تلالا أو حـريق تـضـرمـا
سـحـاب من الـبـيض الخـوافق قـد علا
وبـحـر من الـسرد الـمُضـاعَف قد طما
بـكل كـمي عـامـري كـأنمـا
تـسربل من شـمس الـضحى وتـعـمـما
يُـحـيِّي الأمـيـرَ بـالحـيـاة مـبـشـراً
وإن كـان قـد فـاجـاه بـالمـوت مُـعـلِـما
وقـد طـالمـا لاقـاه قِـرنـاً مُـسـاوراً
فـوشـكـانَ مـا لاقـاه حِـزبـاً مُـسـلِّـما
كـأن الـنـجـوم الـزهـر حَـفَّت بـوجـهه
فـأدَّتْه مـحـروسـاً إلى قـمـر الـسـمـا
فـقـابل وجـهـاً بـالجـمـال مـتـوجـاً
وقـبل كـفـا بـالـسـمـاح مُـخـتَّـمـا
فـهُـنِّـيتَ يـا «مـنـصـور» سـعـداً مُـجـدداً
وإقـبـالَ صـنـع بـالـبـقـاء مُـتـمَّـمـا
ومُـلِّـيتَ من أسـبـاط مـجـدك حـاجـبـاً
يـبـاشـر مـنـه المجـدُ والـفـخـرُ مَـقـدِمـا
رمـيت به بـحـر الـضلالـة فـانـتـهى
وجـشـمـته عِبْءَ[1] الـعلا فـتـجـشـمـا

****

(١) لم يبق من هذه الكلمة إلا حرف الباء.

(١٠٨)

وله إليه رحمهما الله عند أوبته من سرقسطة والثغر الأعلى:

[من البسيط]

شِـيـمَـا سنـا الـبـارق المنـهل فـالْـتَـمِـحَـا
أيَّ الـــسُّـــرى أمَّ أمْ أيَّ الـــبـلاد نـــحـــا
واسـتـخـبـرا نـفـحـات الـريـح هل سـبـكت
دُرا من الــتـبـر أوشــابت دُجىً بـضُـحـى
أمِ استـهـامت هـوادي الـلـيل فـاقـتـبـست
أم هل تـضـلـل حـادي المـزن فـاقـتـدحـا
ســارٍ كــأن اضـطـرام الـشـوق أقـلـقه
فـلـيس يـرقـأُ مـنه مـدمَعُ سَـفَـحـا
ومُـسـتَـهِلٌّ حـيـاً أحـيـا الـورى غـدقـاً
بل طـائـر بـتـبـاشـيـر المنى سـنـحـا
ســنـــاً تــألق في دار يـــبـــشـــرنـــا
دنـــوه بـــتـــلـــقي شـــاحط نـــزحـــا
هي الـسـوانح «لـلـمـنـصـور» قد نـطـقت
بـقـربه وخـفـاء الـفـأل قـد بَـرِحـا

---

(١) الوحف من الشعر والنبات: ما غزر وأثث أصوله.

لــعل قــادم بــشــراه يــخــبــرنــا
عن هـاجس بـأمـاني الـنفس قـد نجـحـا
بــرق تــهــلل في المـزن الــهــتــون كـأنْ
من وجـــهه ضــاء أو عن كـفه سـمـحـا
والــريح تــسـحب ذيل الــقــطــر في أرج
وَحْفٍ[1] كــأن بِــرَيَّــا ذكــره نــفــحــا
إن الملا بـجـنـود الأرض قـد بـجـحت[1]
والجـوُّ من رهج الـفـرسـان قد طـفـحـا
بـــكل مُـــعـــتَـــنِقِ الأقـــران في كُـــرَب
لــو زُلــزِلت قُــنَن الأطــواد مــا بَــرِحَـا
شـرى من الـلـه نـفـسـاً حُزتَ طـاعـتـها
فـأحــرز الــدين والــدنـيـا بمـا ربـحـا
كـأنه في مــجــال الخــيل لــيث شــرى
وعــنــد مــزدحم الــفـرسـان قـطب رحى
يـكـاد يـشـتفُّ[2] نـفس الـقِرن من طـرب
إذا المــهــنــد غــنَّــاهُ بمــا اقــتــرحـا
وسـابحِ الـشـأو مـا أقْـحَـمْتَ هـاديه
بــحــرَ المــهـالك إلا غـاض أو سـبـحـا
طِـرْفٍ تــقـودُ عِـنــان الـطَّـرف غُـرته
إذا تـــعـــالـى مُـــجِـــدّاً أو ونـى مَـرِحـا
وأزرقٍ يـــتـــلـــظى فـــوق عـــامـــله
شـهـاب قـذف إلى الـعَـيُّـوقِ قـد طـمَـحـا
ومــرهف يــتــثــنى شــاربــاً ثــمـلاً
من طول مـا اغـتبق الأرواح واصطـبـحـا

(١) بجح بالشيء: فرح به وافتخر.
(٢) اشتف الماء: أي تقصى شربه حتى لم يفضل منه شيئاً.

هـاتـيك أجـنـحـة الـرايـات خـافـقـةً
إلى المـبـارك من جـو الـعلا جُـنُـحـا
وقـلَّبَ الـمُـلكُ في الآفـاق مـنـتـظـرا
طـرفـاً إلى الـغرة الـعـلـيـاء مُـلـتـمِـحا
والأرض قـد لـبِـست أثـواب زَهـرتـهـا
وقُـلـدَ الـروض من أزهـارهـا وُشُـحـا
والأيكُ يـهفو بـأنـفـاس الـصَّبـا سَحَـراً
قـد هبَّ مُـسـتـنـطـقـاً أوتـارهَ الـفُصُـحا
يـا من إلـيه اسـتـطـار الشـوق أنـفسنـا
نـأيـا وآب فـطـارت نـحـوه فـرحـا
مُـلِّـيتَ حـاجـبك الأعـلى ودمت له
وقـمت بـالـشـكـر فـيه لـلـذي مـنـحـا
نجم أنـافت عـلى الـدنـيـا ريـاسـتُه
ومـعـلـم لـلـهـدى والـدين قـد وضَـحـا
سـلـلـتَه لحـمى الإسلام مـنـتـقـمـاً
ممن عـتـا في سـبـيل الـله أو جـمـحـا
مُـتَـوجـاً بـسـنـاء المـلك مـشـتـمـلا
بـالحزم مـلـتـحـفـاً بـالـبـأس مـتشـحـا
مـسـتـنـصرَ الـله في الأعـداء مـنـتـصراً
له ومـسـتـفـتـحـاً بـالـله مُـفـتـتِـحـا
ملاذُنـا من صـروف الـدهـر إن طـرقت
دُهْـمـاً ومَـفـزعُـنـا في الخـطب إن فـدحا
الـشِّـعـرُ أجـدر أن يـلـقـاه مـعـتـرفـاً
بـالـعـجـز عـمـا يـنـاوي مـنه مُـمـتَـدِحـا
والـصُّـحْفُ تـنـفـدُ والأقلام عـاجـزة
عن خط مـا اجـتث من أعـدائه ومـحـا

فـعِشْ ودم وابق وامـلِك واقـتـبل نِـعَـمـاً
واحـلُل مـنـيـعـاً من المكـروه مُـنـتـزِحـا
وقَـرَّ عـيـنـاً بـسِـبـطـيْ حـمـيـرٍ حـقـبـاً
مـسـتـوفـيـاً فـيـهـمـا آمـالَك الـفُـسُـحـا

****

(١٠٩)

ولـه فيه أيضاً رحمهما الله تعالى وقد ورد عليه القومس ابن غومس(*) في أثر إيقاعه به:

[من البسيط]

جـاءتك خـاضـعـةً أعـنـاقُـهـا الأممُ
مـسـتـسـلـمـين لما تُـمـضـي وتَـحـتـكِمُ
واسـتـرهـنـتك مـلـوك الأرض أنـفـسـهـا
مـا استـنفـدَ الـبـأس أوما اسـتدرك الـكرم
فـلـيَـهْنِ سـيـفك أن الـكـفـر مـنـقـصم

(*) ينتمي هذا القومس (الكونت) إلى أسرة عرفت في التاريخ المسيحي باسم «بني غومس **Beni Gomez**» وكان جدهم يسمى غومس بن ديز **Gomez Diaz**، وكانوا أمراء شبه مستقلين على منطقة صغيرة شرق مدينة ليون تدعي قريون **Carrion** وشلطانية **Saldana**، وقد وفد بعض رؤساء هذه الأسرة على الحكم المستنصر في أواخر أيامه ليؤكد عهود الولاء والخضوع (انظر ليفي بروفنسال: تاريخ ١٨١/٢)، ثم وجه المنصور بن أبي عامر إليهم جملة بعد أن نكثوا بعهودهم في سنة ٣٨٥ (٩٩٥) فخرب قريون مقر إمارتهم، ويبدو أن «ابن غومس» هذا وفد على المنصور مجدداً عهود الولاء بعد تلك الوقعة، ولسنا نعرف اسم هذا القومس ولو أنه يغلب على الظن أنه «غرسية بن غومس **Garcia Gomez**» الذي نراه بعد ذلك متحالفاً مع قومس قشتاله شانجه بن غرسية في سنة ٣٩٠ (١٠٠٠) حينما قاد المنصور حملة جربيره. انظر عن هذه العائلة: ليفي بروفنسال ٢٥٢/٢.

(١) في الأصل: تبنى، ولعل الصواب ما أثبتنا، يعني تنبأ.

بـــهـــبـــتـــيه وأن الـــدين مـــنـــتـــظم

فــهل تـرى لــلـعـدى في الأرض بـاقــيـة

إلا حُـشــاشــة من يــبــكي ويــلــتــدم

هـذي قـواصي مـلـوك الـشـرك مـذعـنـة

تُـنـبـا[1] وتُـعـلَم أن الـشـرك يُـصـطَـلَمُ

وراسـيـاتُ جـبـال الـكـفـر يـخـبـرنـا

هُــوِيُّـــهـــا أن ذاك الـــطــود مـــنـــهـدم

فَلٌّ لــــســــيــــفك في أقــــصى بلادهمُ

بك اسـتـعـاذوا ومن كـراتك انـهـزمـوا

فـشَـلَّـهم[1] طـارد الـذعـر المطـيف بـهم

حــــتى أجــــارهـمُ في ظــــلك الحــــرم

مـعـتـسـفـين سـهـوب الأرض قـد جـهـلـوا

من كل آنــســة الأقــطــار مــا عــمــلــوا

مـعـاهـد قـدت فـيـهـا الخـيل فـانـقـلـبت

مـثل الـربـوع مـحـا آثـارهـا الـقِـدم

عـفت مـعـالمـهـا من بـعـدهم سـحبٌ

صـوبُ الـصـوارم مـنـهـا[2] والـقـنـادِيَمُ

لا يــســألــون لــهــا رســمــاً بــقــاطــنه

إلا أجـــابـــتـــهمُ الأشلاء والـــرمم

ولا تـــخُبُّ مـــطـــايـــاهم عـــلى بـــلـــد

إلا اسـتُـثـيـرت بـأدنى وَخْـدهـا الـلـمم

غـادرتَـهـا مُـوحـشـاتٍ بـعـد آنـسِـهـا

والأرضُ خـاويـة مـنـهم بمـا ظـلـمـوا

لــئن تـــنـــاهى بـــهم أفق فـــشط بـــهم

---

(١) أي طردهم.

(٢) في هذا الموضع كلمة قد طمست تماماً، ولعلها كما أثبتنا.

لِشدما حملتهم نحوك الهِمَمُ
حتى رموا بعصا التّسيار فامتسكوا
حبلاً من الملك «المنصور» واعتصموا
ألقوا إليك بأيدي الذل فاعتقدوا
عهداً من الأمن محفوظاً له الذمم
وجاهدوا عفوه عن أنفس علمت
أن الحياة لهامن بعض ما غنموا
يمشون في ظلل الرايات تُذكِرُهم
أيام تغشاهمُ العِقبان والرَّخَم
من كل أغلب محذور بوادرُه
يساور الريح أحياناً ويلتهم
وكُلِّ فتخاءَ ماضٍ حدُّ مِنسَرِها
كأنه نحو أكباد العِدى قَرِمُ
وأرقَمٍ يتلوَّى نحو أرؤسهم
حتى يكاد لها في الجو يلتقم
والأُسْدُ تزأر والرايات خافقة
كأنها مثبتات في قلوبهمُ
والخيل منظومة بالخيل لا كتب[1]
منها لغاية ذي سعي ولا أَمَم
والأرض من رهبة الأبطال مائدة
والجو من رهج الفرسان مُزدحم
والسمر في هبوات النقع ثاقبة
والبِيضُ في قُرُب الأغماد تضطرم
كأنما ملأت رحب الفضاء لهم

(١) كذا، وربما كانت «كثب» بالثاء ومعناها القرب وهي مرادفة لكلمة «أمم» الواردة في الشطر الثاني.
(٢) إياة الشمس: ضياؤها، والنهي: هو الغدير وكل مكان يجتمع فيه الماء.

غُــلْبُ الــضــراغم والــغــابــاتُ والأجَمُ

وأولــيــاءُ الــهـدى والـدين قـد سـتـروا

من أوجه بـسـنـاهـا الخـطبُ يـبـتـسم

تـعـمـمـوا بـإيـاة الـشـمس واشـتـمـلـوا

رقـراقَ نِـهْيٍ سـراب الـبـيـد والـتـثـمـوا[٢]

كــأنمــا تــتلالا[٣] في رؤوســهمُ

وقـد تـوافـوا أيـادٍ مـنك أو شـيـم

وشـيـعـةُ الـكـفـر في مـثـنى حـبـائـلـهم

تُـصـدق الـعـيش أحـيـانـاً وتـتـهم

حـتَّى تـراءاك من أقـصى الـسِّـمـاط وقـد

شِـيمَ الحِـمـام وسـيف الـعـفـو مُـحـتـكِم

مُـمـثَّل في هـواديـهم وأرؤسـهم

مـا عُـوِّدت مـنـهـمُ المـصـقـولـة الخُـذُم[١]

لمـا انـتـضـيت سـنـاهـا في مـفـارقـهم

خـرت سـجـوداً لك الأعـنـاق والـقـمم

وأوجه عـفـروهـا الـتـربَ خـاضـعـة

كـأن كل جـبـين مـنـهمُ قـدم

فـإن يـفض بـحـرك الـمُـحـيي لـهم فـلـقد

جـازوا الـصـفـوف ومـوج الـذعـر يـلـتـطم

أو عـايـنـوا الـبـدر في أعـلى مـنـازله

فـقـد أحـاطت بـهم من دونه ظـلم

فـإن عـفـوت فـفي الـرحـمن مُـؤتـلَفٌ

وإن سـطـوت فـفي الـرحـمن مُـنـتـقَم

واسـلـم ولا بـرحت فـيـهم لـنـا نـقم

تـتـرى بـهم ولك الآلاء والـنـعم

---

(١) أي القاطعة.

****

(١١٠)

وله فيه أيضاً رحمهما الله في عيد الأضحى:

[من الطويل]

إذا شئتِ كان النجمُ عندكِ شاهدي
بلوعة مشتاق ومُقلة ساهدِ

غريب كساه البين أثواب مدنف
وحفَّتْ به الأشجانُ حفَّ الولائد

بَعيدِ الضُّحى من بعد إلفٍ مُفارق
طويل الدجى من طول بث مُعاود

كأن ظلام الليل سد طريقَه
تَعَلُّقُ أجفاني برعي الفراقد

وقد لبست آفاقه من دجونه
حِدادَ نواعٍ للصباح فواقد

سليني عن الليل التمام قطعتُه
بزفرة مشتاق وأنفاس واجد

طواكِ على طِيبِ الكرى فطويتُه
بشكوى سلي عنهن صم الجلامد

يطاول ليل التَّم بثيَ مُسعِداً
على ذكر إلف بانَ غيرِ مُساعد

ويوحشني ملء السماء كواكباً
إلى كوكب في مغرب البين واحد

ألم أدر أن الصبح شِبْهُكِ قبلها
فأعرِفَ منه الآن خُلفَ المواعد؟

ستـرعى وفـاء الـعـهـد لي إن نَـقـضْـتِهِ
لــواعجُ بث في هـــواك مُـــعـــاهِـــدي
ويـوشك أن تُـجـلـى وجـوهُ مـطـالـبي
بـــأزهـــرَ وضـــاح وأروعَ مـــاجـــد
مـلـيكٍ لـشـمل المـلك والـعـز جـامع
وعن حـــرم الأحـــســـاب والمجـــد ذائـــد
أغـرَّ سـمـا لـلـدين فـاعـتـصم الـهـدى
به وهـــدى المـــعـــروفَ سُـــبْل المحـــامـــد
حـيـاً طـبَّق الآفـاقَ شـرقـاً ومـغـربـاً
فـمـا تُـقـتَـفى في المحل آثـار رائـد
بـسـيف لأقـدار الحـتـوف مُـسـاور
وسـيب لـتَـهْـتَـان الـغـيـوم مُـجـاود
سـلـيلُ عُلاً تـنـمـيه أنـسـابُ حـمـيـر
إلى كل بـــان لـــلـــمـــفـــاخـــر شـــائِـــد
هـمـام له من فـخـر يـعـرُبَ في الـعلا
ذُرى كل سـامي الـسَّـبك راسي الـقـواعـد
مَـحـاتِـدُ عـز واعـتلاءٍ كـأنمـا
سـنـا الـشـمس من إشـراق تـلك المحـاتـد
فـتى أذعن الـدهـر الأبي لحـكـمه
فـأضـحى إلـيه مُـلـقِـيـاً بـالمـقـالـد
هـو الـبـدر إشـراقـاً ونـوراً وسـيـفُه
مـدى الـدهـر مـنه في مـحـل عُـطـارد
تـدانت من الآمـال أنـواء كـفه
وبـرَّز سـبـقـاً في المـدى الـمُـتـبـاعـد
فـحـجَّبَ مـنه الـمُـلكُ أكـرمَ حـاجب
وقـاد جـنـودَ الـنـصـر أكـرمَ قـائـد

كتائبُ توحيدالإله شعارُها
وما يومُ خزي الكفر فيها بواحد
إذا يممت منه حِمىً فكأنما
أربَّت عليه مُصعِقات الرواعد
لئن حل دار المُلكِ مِن بَعْدُ قافلاً
لقد شد أقصاها برأي مجاهد
فشاهد عنه النصرُ إن لم يشاهد
وجالد عنه الصبرُ إن لم يجالد
رعى الله «للمنصورِ» نُصرةَ دينه
فجازاه خيرَ ابنٍ تَلاَ خيرَ والد
وأيد هذا المُلكَ والدينَ منهما
بأيمنِ يُمنى ساعدت خير ساعد
فيا جامع الإسلام شملاً وتاركاً
ديار الأعادي موحشات المعاهد
ومقتحم الأهوال في حومة الوغى
كما بادر الظمآنُ عذبَ الموارد
ليَهْنِكَ أن العيد وافاك قادماً
بأوشك باد للسرور وعائد

(١) يبدو من المواضع المذكورة في هذه القصيدة أن الغزوة التي يتحدث عنها ابن دراج كانت موجهة إلى مملكة ليون التي كان يحكمها في ذلك الوقت برمند الثاني **Bermundo II** بن أردون (الثالث) (٣٧٢ – ٣٩٠/ ٩٨٢ – ٩٩٩)، وكان المنصور قد وجه عدة حملات إلى ليون في خلال سنتي ٣٧٧ و٣٧٨ (٩٨٧ و٩٨٨)، وبعد ذلك طلب برمند من المنصور عقد صلح معه، بل إنه أهدى إليه في سنة ٣٨٣ (٩٩٣) إحدى بناته لتكون جارية له، فأعتقها المنصور وتزوج منها، وعلى الرغم من ذلك فإن برمند حاول الثورة على المنصور وعمل على إجارة عبدالله بن عبدالعزيز الأموي المعروف باسم «بتره شقه» **Piedra Seca** (أي الحجر اليابس) وكان ممن تآمروا على المنصور، فقاد هذا إلى ليون حملة احتلت فيها جيوش المسلمين أسترقة **Astorga** وخربت مملكة ليون، وكان ذلك في شوال سنة ٣٨٥ (نوفمبر ٩٩٥)، والأرجح لدينا أن غزوة المنصور هذه هي المقصودة في قصيدة ابن دراج (انظر عن هذه الغزوة ليفي بروفنسال: تاريخ ٢/٢٤٦).

(٢) في الأصل: دهيت، ولا معنى لها هنا.

تـلـقـاك بـالـبـشـرى وحـيـاك بـالمـنى
وسـاعـد لـلـبـشـرى لأعـدل شـاهـد
فلا زالت الأيـامُ أعـيـاد فـضـلـكم
لـكُلِّ مُـوال خـالص الـشـكـر حـامـد
ولا زلـتمُ مـأوى غـريب وآمل
ومـفـزع مـلـهـوف وفـرصـة قـاصـد

****

(١١١)

وله في المنصور أيضاً رحمهما الله تعالى يهنئه بالقفول من غزاة نفعه الله[١].

[من الكامل]

إنْ تفخرِ الدنيا فأنتَ فخارُها
أو تـخـتـر الـعـلـيـا فـأنت خـيـارُها
المجـد ممـنـوع بـسـيـفك عـزه
والأرض مـعـمـور بمـلـك دارهـا
زُهـيت[٢] بـذكـرك أرضـهـا وسـمـاؤهـا
وجـرى بـسـعـدك لـيـلـهـا ونـهـارهـا
هُـدِيت بـهـديك في الـظلام نجـومـهـا
وسـرت بـنـورك في الـدجى أقـمـارهـا
يـا عـامـريـين اعـمُـروا رتب الـعلا
فـلـكم سـنـيٌّ سـنـائـهـا وفـخـارُهـا
وتـمـكـنـوا من دولـة الـعـز الـتي

أنـــتم زكي أَرومـــهـــا ونجـــارُهـــا

لا تَـــعْـــدَ مَنَّ عُلاكمُ الـــرتبَ الـــتي

أضــحت مــعــظــمــة بــكم أقــدارهــا

بـكمُ اكـتـسـت حـلل الـسـنـا وبـسـعـيكم

ضــاءت مــعــالمــهــا وحــيط ذمــارهــا

رضــيت تــعــبُّــدَكمُ لــهــا أملاكُــهــا

وتـــفـــاخـــرت بـــولائـــكم أحـــرارهـــا

من دوحـــة الــكـــرم المــنــعــمــة الــتي

أخـــذت بــآفــاق الـــعلا أشـــجـــارهـــا

مُـــدَّت لأمن المــســلــمـــين ظلالُـــهـــا

ودنت لأرزاق الـــعـــبـــاد ثـــمـــارهـــا

في ذروة الـــشـــرف الـــتي شـــادت لـــكم

شُــرُفــاتِــهــا قــحــطــانُــهــا ونــزارهــا

أعــطــتــكمُ رهْنَ الــســبــاق جــيــادهــا

وخـلا لــفــائـت شــأوكم مــضــمــارهــا

ســبَق الــقــضــاءُ بــأنــكم أملاكــهــا

دون الأنـــام وأنـــكم أنـــصـــارهـــا

لـــله مـــنك إذا الـــشِّــفــار تــقــاصــرت

هـــمم تـــمـــر بمـــرِّهـــا أقـــدارهـــا

يــا قــائــد الخــيل الــعــتــاق كــأنمــا

عــزمــاته أرمــاحــهــا وشــفــارهــا

لـيث يـخـاطـر في الـمَـكـرِّ بـنـفـسه

هِـمم عـظـيم في الـعلا أخـطـارهـا

أوطـأتَ أرض المـشـركـين كـتـائـبـاً

فـيـهـا وشـيكُ فـنـائـهـا ودَمـارُهـا

وتـــركت أرض «لِـيُـــونَ» وهي كـــأنـــهـــا

---

(١) يدل هذا البيت على أن هذه الغزوة وجهت إلى بلاد ليون في الشتاء، وهو يتفق مع ما سبق أن ذكرناه في تعليقنا من أنها كانت في شهر نوفمبر.

لم تغن بالأمس القريب ديارها
مرفوعة لك في العلا أعلامها
لما غدت بك عافياً آثارُها
شيع حواهاحد سيفك عنوة
أضحت وعقبى الانتقام قُصارها
وفلولُ من فات الفرارَ بنفسه
جاءت يعاجلها إليك فِرارها
من بعدما عاذت بحفظ حياتها
ببُروج منعٍ للنجوم جوارها
واستعصمت بمعاقل قد أصبحت
للحَيْن وهي قيودُها وإسارها
غُبِقوا بخمر الحرب صِرفاً فاغتدت
تلك الحفائظَ والحتوفَ خمارُها
وكأنما بَصُرت لظىً بمكانهم
متمنعين فعاجلتهم نارها
نار تطاير بالغواة كأنها
حين ارتمت بهمُ هناك شَرارُها
وتبرؤوا من كل مُخْطفَة الحشا

(١) يعني نهر الدويره المعروف، وهذه الكلمة تكتب بضم الدال وفتح الواو أو كسرها، وضم الراء أو فتحها وسكون الهاء، أما الشكل الذي كتبها به ابن دراج – وهو يقتضي نطقها هكذا «دير» (بضم الدال وسكون الياء وضم الراء) – فليس ضرورة شعرية كما يبدو لأول وهلة، بل هو الصورة البدائية التي كانت تنطق بها هذه الكلمة ومثيلاتها في مملكة ليون وأشتوريش وجليقية، إذ كانوا في ذلك العصر يكتبونها هكذا: **Doyro**، أما نطقها الحالي **Duero**، فهو يرجع إلى تطور صوتي متأخر، ومثل ذلك نراه مثلاً في كلمة **Aguero**، (ومعناها الفأل) وهي تنطق الآن هكذا: «أجو يرو» إذ كانت تكتب وتنطق في ذلك العصر **Agoyro**. وهكذا نرى أن ابن دراج الذي لا نشك في أنه كان يعرف اللغة اللاتينية الدارجة المتداولة في الأندلس على أيامه – إنما اتبع النطق الشائع لهذه الكلمة في أوساط المتعربين النصارى المقيمين في الأندلس الإسلامية ممن كان نطقهم للاتينية الدارجة (لطينية الأندلس) أقرب ما يكون إلى لغة نصارى مملكة ليون وأشتوريش وجليقية (انظر ما كتبه عن هذه الظاهرة اللغوية الأستاذ مفندث بيدال في كتابه «أصول اللغة الإسبانية»)، هذا وقد احتفظ بذلك النطق البدائي لأمثال هذه الكلمة في كثير من قرى جليقية إلى الآن على ما أعرف، فكلمة **Cuero** مثلاً (ومعناها الجلد) تنطق هكذا **Coiro**، وغيرها كثير.

محـفـوظـة لحـلـيـلـهـا أطـهـارهـا

شـجـيت بمـصـرع بـعـلـهـا ثم انـثـنت

مـطـلـوبـة بـجـفـونـهـا أوتـارهـا

من كل مُـغـرمـة بـخل تـمـتـري

الـسـيفُ أمـضَى فـيه أم تـذكـارهـا؟

لـبـست ثـيـاب الأمن حـين تـمـنـعت

(*) شانجه بن غرسية بن فرذلند ثالث قوامس قشتالة، وأول من حكمها منهم ممن كانوا يتسمون بهذا الاسم، وقد ولى الحكم بعد وفاة أبيه غرسية بن فرذلند في أسر المنصور بن أبي عامر في سنة ٩٩٥/٣٨٥ (وستأتي قصيدة لابن دراج في وصف الوقعة التي أُسر فيها غرسية وتهنئة المنصور بذلك)، وقد حكم شانجه قشتالة بين سنتي ٣٨٥ و٤٠٨ (٩٩٥ – ١٠١٧) أي معاصراً للمنصور وابنيه عبدالملك المظفر وعبدالرحمن شنجول وسنوات الفتنة التي أعقبت انهيار الخلافة الأموية. وشانجه هذا هو الذي كان قد ثار على أبيه غرسية في سنة ٩٩٤/٣٨٤ بتحريض من المنصور بن أبي عامر على ما يذكر بعض المؤرخين، وكان ذلك من المنصور رداً على ما سبق أن قام به غرسية من تحريض عبدالله بن المنصور على أبيه وإيوائه له عندما أعلن الثورة. ولهذا فإن شانجه لا يكاد يلي حكم قشتالة حتى يؤكد عهود الصلح مع ابن أبي عامر ويدفع له الجزية معترفاً بتبعيته له، وهذا هو ما يفسر لنا كيف كانت السنوات الأولى من حكمه (٣٨٥ – ٣٨٩ / ٩٩٥ – ٩٩٩) سنوات سلام ودعة في إمارته، بينما كانت الأقطار المسيحية الأخرى (نبارة وليون وجليقية وبرشلونة) مسرحاً لغزوات المنصور. وقد وجه شانجه خلال هذه الفترة جهوده إلى العناية بالأمور الداخلية في إمارته، فسن تشريعات إصلاحية دعت المؤرخين المسيحيين إلى تسميته «القومس ذا السنن الحميدة»، على أن شانجه ظل يتلمس الفرص بعد ذلك للغدر بالمنصور، ويرجح بيريث دي أوربل أن قطع علاقاته مع المنصور تم في سنة ٣٨٧ (٩٩٧) وهي السنة التي غزا فيها المنصور شنتياقب وجليقية، وعلى أية حال فإن شانجه غزا ما كان يتاخم قشتالة من بلاد المسلمين مما حمل المنصور على أن يقود حملة لعقابه، وتزعم شانجه إسبانيا النصرانية واستصرخ حلفاءه ملوك نبارة وليون وقومس شلطانية (غرسية بن غومس)، ولكن المنصور أوقع بهذا الائتلاف المسيحي هزيمة ساحقه في موقعة جربيرة سنة ٣٩٠ (١٠٠٠) وفي سنة ٣٩٢ (١٠٠٢) وجه المنصور حملته الأخيرة ضد قشتالة مقتحماً إقليم «لاريوخا **LaRioja**». وقد واصل عبدالملك المظفر بن المنصور حملاته ضد قشتالة بعد أن خلف أباه، وكان من آخر تلك الحملات غزوة قلونية **Clunia** سنة ١٠٠٧/٣٩٧ التي توفي عبدالملك بعدها بقليل. وبعد ذلك نرى شانجه يتدخل في الحرب الأهلية التي نشبت في الأندلس بعد انهيار الخلافة، بل إننا نرى ابن عبدالجبار المهدي وسليمان بن الحكم المستعين يتسابقان على طلب تأييده وهكذا نراه حكماً في تلك الفتنة بين القوات المتضاربة، وكان من نتائج ذلك أن ظفر بمعظم القلاع والمعاقل التي فقدتها قشتالة في غزوات المنصور وابنه المظفر. وقد قنع شانجه بما غنمه من جراء الصراع الداخلي بين ملوك الطوائف ووجه همه إلى تنظيم شؤون بلاده وإلى تقوية علاقاته بجيرانه من ملوك النصرانية ومن أجل ذلك عقد مصاهرة بينه وبين قومس برشلونة إذ زوج ابن هذا من ابنته هو، وعقد هذا الصهرفي سرقسطة بتوسط من ملكها الحاجب منذر بن يحيى التجيبي، وتوفي شانجه بعد ذلك بقليل في سنة ٤٠٨ (١٠١٧)، وكان يعرف في المراجع العربية أيضاً باسم «ابن مامة دونة» (نسبة إلي جدته)، انظر: **Perez de Urbel Dozy: Recherches... I, pp. 203 - 10, Historia del Condado de. Castil-la** وانظر ابن بسام: الذخيرة ق ١ – ١/ ١٨٣ – ١٨٥، ابن عذاري: البيان ١٧٦/٣ – ١٧٧. هذا والذي يبدو أن شانجه بن غرسية قد وفد على المنصور في أثناء حياة أبيه وقبل أن يلي الملك في قشتالة، وهي سفارة لم تحدثنا عنها المراجع التاريخية، وربما أوعز المنصور خلالها إليه بإعلان الثورة على أبيه.

اَفــاقُــهــا وتــبـــاعــدت أقــطــارهـــا
وتــسـربـلـت حُـلـل الـثـلـوج جـبـالُـهـا
واسـتـفـرغت مـدَّ الحـيـا أنـهـارهـا[1]
والخـيلُ والأبـطـالُ تجـهـد خـلـفـهـا
ألا يَـشـطَّ عـلـى الخـلـيل مـزارهـا
حـتـى عـبـرن خـلـيج «دوَيْـرُ»[1] كـأنـهـا
سـفن تـرامَى بـالحـتـوف بـحـارهـا
بـقـواضب قُـضـبت بـهن حـيـاتـهـا
وصـوارم صُـرمت بـهـا أعـمـارهـا
وكـتـائب لَـهِـجت بـطـيِّب ذكـركم
فـلـذيـذُه عـنـد الـهـيـاج شـعـارهـا
وكـأنـهن وقـد دجت ظـلـمُ الـوغى
في الـروع أفلاك عـلـيك مـدارهـا
وصـلت بـيـمـنك صـومَـهـا بـجـهـادهـا
ونـدى يـديكَ بـأوبْـهـا إفـطـارُهـا
حـتـى قـدمت بمـفـخـر الـفـتـح الـذي
أحـيـا المـنى بـقـدومه اسـتـبـشـارُهـا
وطـلـعت لـلـمـتـأمـلـين بـغُـرة
كـالـشـمس يَـحْـسِرُ دونـهـا أبـصـارهـا
فـنـفـوسُ أهل الخـافـقَـيْن فـداؤهـا
والـلـه من صـرف الحـوادث جـارُهـا

****

(١١٢)

وله في المنصور رحمهما الله يمدحه ويذكر وفادة شانجه بن غرسية ابن فرذلند(*) إلى حضرته سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة جبرها الله تعالى وأعادها:

[من البسيط]

إليكَ منك فرارُ الخائف الوجلِ
وفي يديك أمانُ الفارس البطلِ

تقابلت نحوك الآفاق واجتمعت
على يمينك شتى الطُّرْقِ والسُّبل

ويممتك ملوك الأرض مُعملة
إليك نَصَّ نِجَاءِ الخيل والإبل

فالبر والبحر من آتيكَ في شغل
والشرق والغرب من راجيك في جَذَل

قدساعدتك نجومُ السعد طالعة
فاسعد، وأُعطيتَ غايات المُنى فَسَلِ

وأسلمت لك أملاك البلاد معاً
أعنة الملك والأيام والدول

وفاز قِدحك إذ قارعت أرؤسها
بطاعة الدهر والأديان والملل

وقد تيمم «شنج» منك عائدة
تجيره من سيوف الكرب والوهل

(١) في الأصل: «سهوح سفل»، ولعل الصحيح ما أثبتنا.
(٢) في الأصل: ليس.
(٣) جمع غلة (بضم الغين) وهي الغلالة.

وقـــاد نـــحـــوك والـــتـــوفـــيقُ يـــقـــدُمه
جـيـشـاً من الـذل ملءَ الـسـهل والجـبل
مـسـتـعـطـفـاً لحـيـاة جل مـطـلـبـهـا
عن مُبـلغ الكُتْب أو مُـسـتـعـطِف الرسل
مـسـتـخـذيـاً لـسـيـوف الـنـصـر حـين أبت
من دِين طـــاعـــتـه قـــولاً بـلا عـــمـل
خـلـى الـكـتـائب قـسـراً والـظـبى وغـدا
عن الأحـــبـــة والأشـــيـــاع في شـــغـل
مُـذِلَّ صـفـحـةِ عـانٍ جل مـطـلـبه
داع إلى صـفـحك المـأمـول مُـبـتـهل
في شـــيـــعـــة ملأت ذلا قـــلـــوبـــهمُ
نُـهـوج سُـبْل[1] إلـيـهـا لـلـقـنـا ذُلُلِ
مُـحـكِّـمـين يـسـوقـون الـنـفـوس إلى
إنـفـاذ حـكـمك سَـوْقَ الـسـبْيِ والـنـفل
مـسـتـبـشـرين بمـا أحـيـيت من زمل
مـسـتـسـلـمـين لمـا أمـضـيت من أجل
خـاضـوا إلـيك بـحـار المـوت زاخـرة
يمـور فـيـهن مـوج الـنـقع كـالـظّـلُل
وأضـحت الأرض في رحب الملا لجـجـاً
سـالت عـلـيـهم بـبـيض الـهـنـد والأسل
والأســد بـــارقـــة الألحـــاظ في أجم
من الـقـنـا بـحَـبـيك الـبـيْض مُـشـتـعِل
رقت غلائـــلـــهم ســرداً كـــأنـــهمُ
تـسـربـلـوا لُـبس[2] رقـراق من الـغُـلل[3]

---

(١) البرجيس: هو النجم المعروف باسم المشتري.

والـصـافـنـاتُ تَـهَـادَى في أعـنـتـهـا
كـالـغـيـد يـرفـلن بـين الحَـلـي والحُـلل
وخـافـقـاتٌ كـأمـثـال الـحـشـا خـفـقت
روعـاتِـهـا خـطـراتُ الـذعـر والـوجل
تـزيـنت بـسـكـون الجـأش ثـابـتـة
واسـتـشـعـرت هـفـوات الـطـائش الـوجل
حتَّى انـتـهَى يدَك الـعـلـيـا وقـد قُسِمت
أحـشـاؤه بـين أيـدي الـريْثِ والـعَـجَلِ
إذا ونت بـخـطـاه هـيـبـةٌ حـكـمت
عـلـيه ثـار به مُـسـتـعـذَب الأمل
فـوافق الـبـحـرَ والآفـاقُ تـكـنـفُه
من الـريـاح ووافى الـشـمسَ في الحـمل
وقـابل المجـدَ والإعـظـامَ في مـلك
بـالـسـعـد مُسـتـقـبَل لـلـسـعـد مقـتَبِل
مُـتَـوَّج بـبـهـاء الـمُـلك مُـعـتَـصِب
ومُـحـتَب في رداء الـعـز مُـشـتَـمِل
بـالجـود مُـغـتَـبِق بـالـحـمـد مُصطَبِح
في الـسـبق مـنـقـطِع بـالحِـلم مُـتَّصِل
لـلـه يـومٌ من الأيـام فُـزتَ بـه
فـرداً من المـثل فـيـهـا سـائِـرَ المـثل
من بـعـد مـا وعـظـتـه الحـادثـات بمن
أردت سـيـوفُك من أشـيـاعه الأُوَل
وكم تـأسف مـنـهم في مـعـاهـدَ قـد
آلت مـعـاهـد للأحـزان والـهَـبَل
وأخـضَلَ الـدمعُ من أجـفـان مُـقـلـته

(١) في الأصل: فليلها.

(٢) في الأصل: ولعل، ولا يستقيم بها الوزن ولعل الصواب ما وضعنا.

مــجـــاله في نجـــيع مـــنـــهمُ خَـــضِلِ
فـلـتـهـنكَ الـرتب الـعُـلـيـا الـتي قصُرت
عـنـهن سـامـيــة الـبِـرْجِـيس[1] أو زُحل
فـــاسـلـم ولا زال عـــز المـــلك مـــتـــصلاً
من يـــعـــرُبٍ وبـــنـــيـه حـــيث لم يـــزل
في خـفضِ عـيش ومُـلك غـيـر مـنـفـصم
وظل عـــز وأمن غـــيـــرِ مُـــنـــتـــقِلِ

****

(١١٣)

وله في المنصور رحمهما الله في أضحى سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة:

[من الكامل]

كُــفّي شـــئـــونَك ســـاعـــةً فـــتـــأمـــلي
في لـيـلـهـا[1] بُـشْرى الـصـبـاح الـمُـقْبِلِ
وتـــنـــجـــزي وعـــد المـــشـــارق وانـــظـري
واســـتـــخـــبـري زُهــر الـكـواكب واسـألي

(١) العيوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن.

(٢) الدبران: كوكب أحمر على إثر الثريا وبين يديه كواكب كثيرة مجتمعة، والأجدل الصقر.

(٣) الجوزاء: برج من منازل الشمس، والخوامس: هي الإبل التي ترعى ثلاثة أيام ثم تورد الماء في اليوم الرابع غير اليوم الذي شربت فيه.

(٤) الشعرَى: كوكب نير يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه في شدة الحر.

(٥) السماكان: نجمان نيران أحدهما السماك الأعزل والآخر السماك الرامح، ويقال إنهما رجلا الأسد الذي هو من منازل القمر.

فلعل غايات الدجى أن تنتهي
وعسى[2] غيابات الأسى أن تنجلي
لا تخدعي بدموع عينك في الورى
قلباً يعز عليه أن تتذللي
وتجملي لشجا النوى لا تُمْكني
أيدي الصبابة مِن عِنان تجملي
لا تخذُلي بالعجز عزميَ بعدما
شافهتُ أعجاز النجوم الأُفَّلِ
فليُسْعِدَنَّ الحزمُ إن لم تُسعِدي
وليفعلنَّ الجِدُّ إن لم تفعلي
ولأعسِفَنَّ الليلَ غيرَ مُشيَّع
ولأركبن الهول غير مذلل
ولأسْطُوَنَّ على الزمان بعزمتي
ولأُنْخِيَنَّ على الخطوب بكلكلي
ولأرمِيَنَّ مقاتل النوب التي
ولِعَت- مع المتحلقين - بمقتلي
فإذا رأيتِ النجم يُبدي أُفْقُه
منه بقية جمر نارِ المصطلي
وتخلف العَيُّوقُ فهْوَ كأنه
سارٍ تضلل في فضاءٍ مَجْهل[1]
وتعرضَ الدَّبَرانُ بين كواكب
مِزَقٍ كسِرب قطاً ذُعِرن بأجدل[2]
وكواكبَ الجوزاء تهوي جُنَّحاً

(١) في الأصل: وتجرعن.
(٢) ورد هذا البيت في شرح الشريف الغرناطي على مقصورة حازم القرطاجني (١/١٠٣)، ويعني بالأبلق الفرس الذي اختلط في لونه البياض والسواد، أما الأشعل فهو الفرس الأسود ذو الذنب الأبيض.

مــثل الخــوامس قــد عــدلن لمــنــهل[٣]

وكــأنمــا الــشِّــعــرى ســراجُ تَــوقــد

وَقْفُ عــلى طُــرق الــنــجــوم الــضُّــلَلِ[٤]

وكــأن مُــلــتَــزِمَ الــفــراقــد قُــطــبَــهــا

ركْبٌ عــلــى عِــرفــان داثــر مــنــزل

وتحــولت أم الــنــجــوم كــأنــهــا

زَهَــر تــراكم فــوق مــجــرى جــدول

ورأيتِ جُــنح الــلــيل نــاط رواقُه

من كل أفق بــالــســمــاك الأعــزل[٥]

فــهُــنــاكَ وافــتك الــســعــود طــوالــعــاً

تــقــضي لــصــدق تــيــمن وتــفــاؤل

فــهِيَ المــنى فــتــيقــني، وهُــو الــسرو

ر فــأبــشــري، وهــو الــصــبــاح فَــأمِّــلِي

وتجــرعي[١] غُــصص الــتــنــائي واجــمــعي

بــين المــطي ولــيــلــهن الألــيل

واســتــوطــني وحش الــفلاة ووطــني

نــفــســاً لــبــرح تَــوَدُّع وتــرحُّل

فلأعــقِــدَنَّ عــلــيكِ أكــرم ذمــة

ولأبــنــين عــلــيك أشــيــد مــعــقل

بــعــزائم لا تــنــثــني وبــصــائــر

لا تــنــتــهي ووســائل لا تــأتــلي

حــتى رأيتُ الــعــيس وهي لــواغب

يــشــرعن في نــهــر الــصــبــاح الأول

والــفــجــرَ يــرفع جــفن طــرف أدعج

---

(١) في الأصل: البازل، وهي كلمة تبدو قلقة لا محل لها في هذا الموضع، ولعل الصواب ما أثبتنا.

والـلـيلَ يُـغـضي جـفن طـرف أكـحل

فـكـأنمـا في الجـو فـارسُ أبـلقٍ

يـشـتـد في آثـار فـارسِ أشـعل[٢]

ولـدَيَّ «لـلـمـنـصـور» شـكـرُ صـنـائع

تـنـأى الـرِّكـابُ بـعـبـئـهـا الـمُـتَـحـمَّلِ

نـشـرٌ يـنـم من الحـقـائب عَـرفُه

أرَجـاً ويـشـرق من خـلال الأرحُل

يُـهـدي ثـنـاء الـمُـمْـحِلات إلى الحَـيَـا

وثـنـا الـريـاض إلى الـغـمـام الـمُـسْـبِل

بـكـرائمٍ لم تُـمـتَـهَن، وعـقـائل

لم تـمـتـثل، ومـصـونـة لم تُـبـذل

حـمـلت بـهـا أم الـعـلـوم وأُرضِـعت

منَ در أخلاف الـربـيـع الحُـفَّل

وكـفـيـلـةٍ بـالحـمـد تـهـديه إلى

مـلك بـغـايـات الـمُـنَى مُـتـكـفِّل

حـتى تـؤدي الحـمـد عـنـدَ مُـسـوِّف

وتـفي بـعـهـد الـشـكـر عـنـد مـؤجِّل

وتـنـيـخَ ركب الـنـازل[١] المـتـوسِّل

في ظل عـفـو المـنـعم المـتـفـضل

وتحط رحل المـذنب المـتـنـصل

في ظل عُـقـر الـعـائـد المـتـطـول

فلأُسـلِـمَنَّ إلـيه هـمـة نـازع

وحـبـال مـنـقـطع وكف مُـؤمِّل

مَـلِكٌ تـوسط من ذؤابـة يـعـرب

(١) في الأصل: يأس.

(٢) أي ملصق بالرمل، وفي الأصل: ومزمل، ولعل الصواب ما أثبتنا.

في الجـوهـر المـتـخـيـر المـتـنـخل
بـسـقت به أعـراق مُـلك أشـرقت
بـعلاه في شـرف المحل الـمُـعـتـلي
عن كل مـعـدوم الـقـرين مـكـرم
ومـعـظم في المـالـكـين مـبـجل
وغـمـامُ عُـرف في الـزمـان المـمـحل
وسـراج نـور في الـكـريـهـة مُـشـعَل
يـخـتـال تـاج المـلك فـوق جـبـيـنه
لمـا تـبـوأ مـنه أكـرم مـنـزل
فكـأن صـفـحـة وجـهه شـمس الـضـحى
وُصِـلت بـبـدر بـالـنـجـوم مـكـلل
الـعـائـدون بـكل فـضل مـعـجـز
والـدافـعـون لـكل خـطب مـعـضل
ورثـوا الـسـيـادة كـابـراً عن كـابـر
واسـتـوجـبـوهـا آخـراً عن أول
وتـبـوأوا دار الـنـبـوة والـهـدى
صـنـعـاً وتـفـضـيلاً من المـلك الـعـلي
فـتـخـيـر الـرحـمن طـيب ثـراهم
داراً وقـبـراً لـلـنـبي المـرسل
وتـفـردوا بـالمـكـرمـات وأحـرزوا
جـزل الـثـنـاء من الـكـتـاب المـنـزل
هم أنجـبـوكَ وقـلـدوك سـيـوفـهم
لـلـنـصـر تُـبـلي في الإله وتـبـتـلي
فـضـربت أشـيـاع الـضلال بـعـزمـة
عَـجِلت إلـيـهم بـالحِـمـام الـمُـعـجل

فــأعــدت أرضــهمُ ولــيس لمــعــقل
قــصــد ولــيسَ لــمُــفــلت من مــعــقل
بــعــزائم ومــخــائل أعــيت عــلى
بــأس[1] الــشجــاع وحــيلــة الــمُــتحــيِّل
فــتــركتَ حــزب الــشــرك بــين مُــصــرَّع
ومُــعــفــر ومــجــدل ومــرمل[2]
وثــنــيت حــزب الــدين بــين ممــلك
ومــظــفــر ومُــغَــنَّمٍ ومُــنَــفَّل
فــاســعــد بــعــيــد عــاد وهــو مــبــشــر
لك بــالــنــعــيم وبــالــبــقــاء الأطــول
وبمــشــهــد لــلــمُــلك أعــيــا دونه
فــكــر الــلــبــيب ومــقــلــة المــتــأمل
أمــتك أبــصــار الخلائق واصِــلــي
نــور بــتــعــجــيل الــســرور الأعــجل
وتَــيــمَّــمــوكَ من المــصــلى فــانــثــنــوا
ســاعــين بــين مــكــبــر ومــهــلل
مــتــزاحــمــين عــلى يمــين أصــبــحت
مــبــســوطــة لمــؤمل ومــقــبل
وتــواضــعتْ صــيــد المــلــوك مــهــابــة
يــضــعــون أوجــهــهم مــكــان الأرجل
ورأوا هلال المــلــك فــوق ســريــره
بــســنــا المــكــارم والــهــدى المــتــهــلل

****

(١) الأمم: هو القصد.

(٢) العلق: هو الدم الغليظ الجامد، والجناجن: جمع جنجن وجنجنة (بكسر الجيمين) وهي عظام الصدر.

(١) شام السيف يشيمه: من الكلمات الأضداد إذ تعني سلّه وأغمده، وهي هنا بمعنى أغمدوا.

(١١٤)

وله فيه أيضاً وقد فصل لبعض مغازيه:

[من الكامل]

النصر حزبك في الضلالة فاحتكمْ
واغضب لدين الله منها وانتقِمْ
قد وافق التوفيق سعيك مُقدِماً
فيها وقد عزم القضاءُ لما عزم
فموارد النصر العزيز لها مدًى
وعوائد الفتح المبين لها أَمم[1]
فلرب موقف ظافر لك في الوغى
والخيل تعبس والبوارق تبتسم
والشمسُ في كبد السماء كأنها
- والنقع يغشاها - كميٌّ مُلتثِمْ
وكأنما كِسَفُ العَجَاج- إذا التقت
أُسْدُ الكماة - سحائبُ مطرت بدم
ثم اقتحمتَ الحرْبَ في ضنك الوغى
والموتُ في عَلَقَ الجناجِن يَقتحِم[2]
حتى انتهيْتَ من العدى أمد المنى
ومن العلا أسنى الرغائب والقِسَم
يا بن الأُلَى لم تعصِ طاعةَ أمرهم
«عادٌ» على أولى الزمان ولا «إرم»
رفعوا رواق الملك في أرماحهم
حتى استكان الدهر والدنيا لهم

ولَوَ أنـهم شـامـوا[1] الـسـيـوف لأحـرزوا
مُـــلك الخلائق بـــالخلائق والـــشـــيم
ثم انـــتـضـوا دون الــهـدى أسـيـافـهم
قـسـراً فـعـز الـدين والـدنـيـا بـهم
لا نـــظم أشـــعـــاري ولا نــــثـــري ولا
صـحـفي ولا جـهـد الـلـسـان ولا الـقـلم
ممـا يـقـوم بـنـشـر أيـسـر مـا طـوى
صـــدري من الإخلاص فـــيك ومـــا كـــتم
وصلاتـك اتـــصــــلت مع الأيـــام لي
حـــتى عـــدمت بـــهن آثـــار الـــعـــدم
ورفـعن ذكـري في عـبـيـدك فـاعـتـلى
ونـظـمن شـمـلي في جـوارك فـانـتـظم
وتـبـوأت بيَ من جـنـابك مـوطـنـاً
وَقْـفـاً عـلى كـرم الـوسـائل والـذمم
فـحـطـطتُ رحـلي مـنك في عـز الـحـمى
ومـنـعت أهـلي مـنك في أهل الـحـرم
وغـدتْ تـهـادَى بي إلـيك بـصـيـرة
دانت بمـا شـرع الـوفـاء ومـا حـكم
حُـدِيتْ مـطـايـانـا بـأُهـبـة شـاكـر
تُـزهى بـأنـعُـمِك الـتي لا تـكـتـتم
ومن الـذي يـعـتـاد من شـمس الـضـحى
نـوراً ويـهـدأ في غـيـابـات الـظـلم؟
وبمـا يـكـيـدالـعـجـز عـنك عـزيمـةً
ألـفت جـنـاب الـعـز مـنك فـلم تَـرِمْ؟
وبمـا أقـيمُ وقـد حـشـدتُ مـحـامـدي
لأقلِّ جـــزء من نَـــداك فـــلم تـــقمْ؟

(١) القمقام هو الجامع لصفات السيادة.

وأَضِنُّ عــنك بــبــذل نــفس طــالمـا
سُـقِـيت بــجـود يــديك أنــداءَ الــكـرم؟
ويــرُوعُــني لــفحُ الــهـجـيـر إذا الــتـقى
وَهَـجَـاً وأنــسى مــنك مُــنــهَلَّ الــدِّيم؟
أَمُــثَــبِّــطي عــنك الــزمــانُ إذن؟ فلا
نــهـضت إلى الــظل المــبــارك لي قـدم!
أَأُسَــرُّ دونك بــالحــيــاة، وكم يــدٍ
لك بــشـرتــني بــالحـيـاة؟ وكم؟ وكم؟
أقــريــرة عــيــني بــعــيش لا أرى
فــيه ســيــوفك في عُـداتك تحــتــكم؟
أمــكــلل وجــهي ووجــهك بــارز
لـشبـا الأسـنـة والـهـواجـرُ تـضـطـرم؟
إني إذن لــكــفــور أنــعــمك الــتي
صـرمت حـبـال الـذل مـني فـانـصـرم!
لا والــذي قــادت إلــيك هــبــاته
مُـلْكَ المـلـوك وصـفـوَ طـاعـات الأُمم!
لا أقــتــدي بــالخــالــفــين ولا أُرَى
أسـعى لـنـيل رضـاك في أدنى الـهـمم
حــتى تــبــين كـيف أثــمــارُ الــندى
عـنـدي وتَـبْـلُـوَ كـيف شُـكْـري لـلـنـعم
ويــريك صــدق مــواردي ومــصــادري
إبـطـالَ مـا اخـتـلق الحـسـودُ ومـا زعم
ولــعل من يــقـضي الأمــورَ يُــقـيـدُني
بـرضـاكَ من صـرف الـزمـان فـأحـتـكِمْ

****

---

(١) في الأصل: القول.

(١١٥)

وله فيه أيضاً رحمهما الله في يوم عيد:

[من الكامل]

عــادتْ عــلــيكَ عــوائــد الأعــوام
في الــعـــز والإجلال والإعـــظـــامِ
وعــمــرت هــذا الملك مــنــتــهــيــاً به
أمــد الــدهــور وغــايــة الأيــام
في صــحــة مــصــحــوبــة بــتــمــام
وسلامــة مــوصــولــة بــدوام
وقــهــرتَ أشــيــاع الــضلال مــؤيــداً
بــنــوافــذ الأقــدار والأحــكــام
وبــلــغت حــيث نــوتْ لــقــصــدك هــمــة
مــوصــولــة الإنجــاد والإتــهــام
مــتــذلل لك عــز كل مُــمــنَّع
مــتــســهِّل لك صــعب كل مــرام
حــتى تــبــوأ بــالمــشــارق طــاعــة
مــأمــولــة من مُــعْــرِق وشــآمي
وتــرد نــائي الــمُــلك في أوطــانه
من عــهــد كلِّ مُــتــوَّج قــمــقــام[1]
وتُــنِــيخَ رحل الــعِــزِّ غــيــرَ مُــدافع
بمــعــاهــد الأخــوالِ والأعــمــامِ
وتحل بــالحــرمــين مــنك كــتــائب

مــــأمــــونـــة الإحلال والإحــــرام

فبك استـعـاذ الـمُلك من سطـو الـعدى

وغــــدا بــــســــيــــفك بـــاهـــر الأعلام

وبـنـور وجـهك أشـرقت سبل الـهـدى

وانجــاب عــــنـــهـــا غـــيـــهب الإظلام

وبـــجـــودك اتـــصـــلت أمـــانيُّ الـــورى

بـالـنُّـجح وانـفـصـمت عُـرَى الإعـدام

فـلـــيـــشـــكُـــرَنَّ الـــدينُ أن أولـــيـــتَه

عـطف الـشـقـيق وخُـلـة الأرحـام

فـصـدعت عـنـه الجـور صـدعـة ثـائـر

ونـظـمت فـيـه الـعـدل[1] أي نـظـام

فـاسـعـد بـأضـعـاف الجـزاء وخـذ به

أوفى الحـظـوظ وأوفـر الأقـسـام

ولـيَـهْـنِكَ الـفـوز الـذي أحـرزته

نُـسـكـاً بـأزكى قُـربـة وصـيـام

ولـيـهنك الـفـطـر الـذي اسـتـقـبـلـته

لـهـجـاً بـخـيـرتحـيـة وسلام

مـسـتـبـشـراً بـالحـاجب الـنـدب الـذي

في بـــرئه بـــرء من الأســــقــــامِ

بـدرُ المـعـالي شـفـه بـعض الـذي

مـازال يـلـحـق كل بـدر ظلام

وشَـكـاةُ ضـرغـام جـديـر كـرهـا

من جـسم ضـرغـام إلى ضـرغـام

---

(١) كلمة مطموسة في الأصل لا يبدو منها إلا «ولا ويك».

(٢) لا يبدو من هاتين الكلمتين في الأصل إلا «يقـ ـواك».

حـمـيت جـوانح صـدره شـوقـاً إلى
لمع الأسـنـة في الـهـجـيـر الحـامي
وشـكـا اعـتلالاً حـين هـام تـذكـراً
نـحـو الـطـعـان ونـحـو ضـرب الـهـام
وأنـا الـزعـيم بـأن عـاجل بـرئه
في قـرع طـبل أوصـلـيل لجـام
أو لـبس درع أو تـهـادي سـابح
أو مـد رمح أو بـريق حـسـام

(١) يعني بابن شنج في الغالب ملك البشكنس (نبارة) صاحب بنبلونة، وإذا كنا نرجح أن تاريخ هذه القصيدة هو سنة ٣٨٧ (٩٩٧) كما سنبين فإن «ابن شنج» هذا ينبغي أن يكون غرسية بن شانجه المعروف بالرعديد **El Temblon** الذين كان يحكم نبارة بين سنتي ٣٨٤ و٣٩١ (٩٩٤ – ١٠٠٠)، (انظر تعليقنا على ص ٣٨٠).

(٢) من أعمال سرقسطة، وتقع إلى الجنوب الشرقي منها وتنسب إلى أيوب ابن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير ووالي الأندلس بين سنتي ٩٧ و١٠٠هـ (٧١٦ – ٧١٩م)، وتسمى الآن **Calatayud**.

(*) لم تحفظ المراجع الأندلسية التي وقعت إلينا ترجمة تعرف بحكم بن عبدالعزيز هذا، غير أننا وجدنا في «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم (ص ٤٠٤ – ٤٠٥) تفصيلاً لنسب التجيبيين في سرقسطة ودروقة **Daroca** وقلعة أيوب **Calatayud**، وقد جاء فيه ذكر لرجل منهم هو حكم بن عبدالعزيز بن حكم بن المنذر بن عبدالرحمن بن عبدالعزيز بن عبدالله بن المهاجر، وكان جده الأعلى عبدالرحمن بن عبدالعزيز واليا على دروقة وقلعة أيوب، وولي جده المباشر حكم بن المنذر على قلعة أيوب أيضاً لعبدالرحمن الناصر إذ كان قد والاه على أخيه سليمان الشويرب الذي ثار على الخليفة في ذلك الوقت، أما أبوه عبدالعزيز فقد ولاه المنصور بن أبي عامر على قلعة أيوب لسبب مماثل إذ أنه والى المنصور على أخيه هاشم الذي اشترك في التآمر على ابن أبي عامر مع القائد غالب، ولهذا فإننا نرجح أن حكما المذكور هنا هو ابن لعبدالعزيز والي قلعة أيوب للمنصور، وربما كان ابن أبي عامر قد عهد إليه بمنصب أبيه بعد موته وإن لم ينص ابن حزم على ذلك، أما أخوه الذي قتل في غارة «ابن شنج» على قلعة أيوب فلسنا نعرف اسمه ولكنه قد يكون واحداً من الإخوة الثمانية الذين أورد ابن حزم أسماءهم.

(٣) بلدة صغيرة تقع على مقربة من سرقسطة (على بعد خمسة عشر فرسخا) وهي تكون الآن مع أربع قرى بجوارها ما يعرف بـ«قرى أرغون الخمس **Las Cineo Villas de Aragon**» وتقع في واد عميق بين فرعي ريجل **Riguel** وكاردنياس **Cardenas** وهما من فروع نهر إبره **Ebro**، وتقوم الآن فيها قلعة قديمة تدل على أهميتها في الماضي (انظر مادوث. المعجم الجغرافي ١٥/٢١٥ – ٢١٦)، وقد أشار إلى مكانتها في القرنين العاشر والحادي عشر بيريث دي أوربل: شانجه الأكبر ص ٥٦، ٦٠، ٦٣ – ٦٤. وتسمى الآن **Uncastillo**، أما اسمها القديم فقد كان **Unocastello**.

(٤) هو عبدالرحمن المعروف باسم شنجول أي تصغير شانجه نسبة إلى جده لأمه شانجه بن غرسية ملك نباره (انظر تعليقنا على صفحة ٣٩٥).

خواضُ أهوال الحروب مساورٌ
غُلْبَ الليوث مُضعضعِ الآجام
مُستقبَل بالنجح ممنوع الحمى
ماضي الطعان مؤيَّد الإقدام
أمَّ العداةَ فصال صوْلَ حِمام
وسقى العفاة فصاب صوب غَمام
ولرب مبهمة الفروج تمزقت
غمَّاؤها عن وجه البسام
حازت له الهمم السنية منزلا
في الفخر أعجز خاطر الأوهام
وتهللت منه المكارم والندى
والبأسُ عن ملك أغر همام
أعطى السيادة حقها حتى اغتدت
منه الحجابةُ في المحل السامي
وحوى عن «المنصور» غر شمائل
قادت له الدنيا بغير زِمام
ياربنا فاحفظ علينا منهما
ذُخر الرجاء وعُدة الإسلام
يا موسع الراجين إفضالاً ويا

---

(١) هو باب قصر الخلافة بقرطبة وكان يقع على ضفة «الوادي الكبير» في الطرف الجنوبي الغربي من قرطبة، وقد اشتهر هذا الباب كما يقول ابن حيان بأنه كان هو المكان الذي تعرض عليه رؤوس من يتم إعدامه بقرطبة من الثوار أو من زعماء المسيحيين الذين يقتلون في المعارك الدائرة بينهم وبين المسلمين.

(٢) في حاشية هذا الموضع تعليق بخط متأخر هذا نصه «وهنا أيضاً صرح باسم ناظم الديوان وزاد نسبه».

(٣) تطلق كلمة الرصيف في قرطبة على الطريق المرصوف الذي كان يمتد بين الأسوار الجنوبية لقصر الخلافة وضفة «الوادي الكبير»، وكان الذي شق هذا «الرصيف» هو الأمير عبدالرحمن بن الحكم الأوسط بشهادة ابن الأبار: الحلة السيراء ١١٤/١ (انظر مقال الأستاذ توريس بلباس عن أبواب السدة عامة في مجلة «الأندلس، المجلد ١٨ سنة ١٩٥٢، ص ١٦٥ – ١٧٥».

مـــأوى الـــغـــريب وكـــافلَ الأيـــتـــام

أعـجِـزْ بـجُـهـدي أن يـفي بـالـعـهـد من

مـــن عـــليَّ لـــراحـــتـــيك جِـــســـام

فلأَفـــخـــرنَّ عـــلـى الـــزمـــان وأهـــله

بـــصلات جـــود من نـــداك كـــرام

أصـــبـــحت لي دون الـــلـــئـــام وقـــايـــة

وإلى علاك وســـيـــلـــتي وذمـــامي

والـــعـــدلُ في حـــكم المـــكـــارم والـــعُلا

أن يُـــشـــفَع الإنـــعـــامُ بـــالإنـــعـــام

فلأشـــكـــرنَّك أو تجـــيءَ مـــنـــيـــتي

ولأرجـــونك[1] أو يـــحـمَّ حِـــمـــامي

ولأصـــــرِ مَنَّ علائق الأمل الــــذي

يـــقـــتـــادني لـــســـواك[2] أيَّ صِـــرام

****

(١) كلمة ناقصة من الأصل، وقد أضفناها لكي يستقيم الوزن والمعنى، ويبدو أن الذي اطلع على المخطوط وعلق على حواشيه قد لاحظ اختلال هذا البيت فكتب في الهامش: «لعله من» مقترحاً إضافة هذا الحرف «من» بعد كلمة «لقي»، غير أن هذه الإضافة لا تقيم البيت ولا تصلح السياق.

(٢) هذا البيت مطموس في الأصل طمساً لا تكاد تبين منه إلا بعض الكلمات، وقد جعلنا أعسر الكلمات صعوبة في القراءة بين حاصرتين إذ لسنا نجزم بأن ما أثبتناه في موضعها هو الصواب، وإنما هو أقرب ما تراءى لنا إلى الأصل.

(١١٦)

وورد الخبر على «المنصور» بظهور خيل «لابن شينج[١]» على أهل «قلعة أيوب[٢]» وقتلهم أخا واليها «حكم بن عبدالعزيز التجيبي[*]» وقوماً معه، فأمر المنصور بضرب أعناق من كان في أسره بقرطبة من فرسان ابن شنج وأقاربه الأشراف الذين ظفر بهم في مدينة «أونة قشتيل[٣]» وغيرها من بلاد «بنبلونة»، وركب ابنه «عبدالرحمن بن المنصور[٤]» إلى باب السدة[١] بقصر قرطبة وضرب بين يديه رقاب خمسين رجلاً منهم صبراً، وقتل عبدالرحمن بيده رحمه الله تعالى شريفاً منهم وهم أخواله، فقال أبو عمر ابن دراج القسطالي[٢] رحمه الله في ذلك:

[من الخفيف]

يا غياث العباد إن بَخِلَ المُز
نُ سقاهم وبلاً وما استمطروهُ
والذي أمَّن العباد ببِيض
مرهفات لقاؤهن كريهُ
شهد الناس أمسِ ما لم يروه
في الذي أدركوا ولا شهدوه
قتل المشركون منا شهيداً
فتمنوا بأنهم أنشروه
سُفِكت بالدم الكريم دماءٌ

---

(١) في هذا البيت إشارة إلى أن سن عبدالرحمن بن المنصور (شنجول) كانت في ذلك الوقت تجاوز الثانية عشرة بقليل، وإذا كان عبدالرحمن هذا قد ولد في سنة ٣٧٤ (٩٨٤) على أرجح الأقوال (انظر ليفي بروفنسال: تاريخ ٢٤٢/٢) فإن هذه الحادثة تكون قد وقعت في الغالب بين سنتي ٣٨٦ و٣٨٧ (٩٩٦ – ٩٩٧).

(٢) في الأصل: حياني، والنجه: هو استقبال الرجل بما يكره.

(١١٧)

وله فيه أيضاً رحمهما الله يهنئه بوفادة غند شلب(*) ابن شانجه بن غرسية عليه قرطبة سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائه:

[من الكامل]

طاعت لك الأحرار باستعبادها
وأباحت الأملاك صعب قيادها
فلأخمصيكَ اليومَ حُر وجوهها
ولوَطْءِ خيلك أمسِ حُرٌّ بِلادها
مازلت تخطب بالظبى أرواحَها
حتَّى أتتك بهن في أجسادها
وتُحَمِّلُ الخَطِّيَّ أرؤسها فقد
جاءتك تحملها على أكتادها
من بعدما قد رعتها بعزائم
هدت لهن الشم من أطوادها
وخلت متون الخيل من أبطالها
ومرابض الآجام من آسادها
ومشاهد البِيعَات من عُمَّارها
ومعالق الصلبان من عُبَّادها

(*) في الأصل: عبد شلب والصواب ما أثبتنا، وهو الأمير غند شلب ابن ملك البشكنس (نبارة) شانجه الثاني بن غرسية المعروف باسم **Sancho Abarca** (انظر تعليقنا على ص ٣٩٥) وهذا الملك هو الذي حكم بلاده بين سنتي ٣٦٠ و ٣٨٤ (٩٧٠ – ٩٩٤) وكان قد قدم إلى قرطبة في سنة ٣٨٢ (٩٩٢)، أما ابنه غند شلب المذكور فإنه قدم إلى قرطبة في أواخر أيام أبيه وبتكليف منه ليؤكد عهود الولاء للمنصور، وهذا هو ما يظهر لنا من هذه القصيدة وإن كانت المراجع التاريخية لم تذكر لنا شيئاً عن هذه السفارة، وكان غند شلب نائباً لأبيه ملك نبارة على إقليم أرغون **Aragon** (انظر بيريث دي أوربل: شانجه الأكبر، ص ١٥ – ١٦، ٢٢، ٥٢).

حــتى تلافت مــنك بــاســتــسلامه
مــا كــان أعــجــزهــا بــحَــرِّ جلادهــا
ورمى «ابن شـنجُ» إلـيك نـفس مُـحـكمٍّ
نـهج الخـضـوعُ لـهـا سبـيل رشـادهـا
مـسـتـعـطـفـا لحـشـاشـة من مـلـكه
وثــمــالــة قــد آذنت بــنــفــادهــا[1]
فـاسـتـنـقـذته مـنك عـودةُ مـنـعم
قــامت لمـهـجـتـه مـقـام مـعــادهـا
وثــنى نــواجــذَه وفِـلــذَة كــبــده
شـفـقـاً ونــاظـرَ عـيـنه وسـوادِهـا
فـسـمـا يـخـوض إلـيك بـحـر كـتـائب
ضـاقت جـنـود الأرض عن أجـسـادهـا
في سـابـغـاتِ دروعـهـا ومُـثـقَّـفـا
تِ رمـاحـهـا ومُـسـوَّمـات جـيـادهـا
نـيـطت نجـوم الـسـعـد من[2] أعلامـهـا
وغـدت جـنـود الـنـصـر من أمـدادهـا
غـازٍ لـعـطف الـعـامـري مُـجـاهـد
في طـاعـة «المـنـصـور» حقَّ جـهـادهـا
مــســتــنــجــدٌ مــنه مــذلــةَ خــاضع
غـنمَ الحـيـاةَ أبـوهُ بـاسـتِـنـجَـادِهـا[3]
فـحـمـته طـاعـتك الـتي لـو خـانـهـا
طـارت إلــيه الـبِـيضُ من أغـمـادهـا

(١) موضع ما بين الحاصرتين مطموس في الأصل، وقد اعتمدنا في إعادة تركيبه على ما بقى فيه من حروف، ولعل ما أثبتناه هو الصواب أو أقرب ما يكون إليه.
(٢) كذا وربما كانت «في» أصلح لهذا الموضع.
(٣) الإشارة هنا إلى سفارة أبيه شانجه ملك نبارة إلى المنصور بقرطبة في سنة ٣٨٢، وقد كانت هذه السفارة موضوع قصيدة سابقة لابن دراج (انظر ص ٣٩٥) من هذا الديوان.

حـتَّى أنـاخ بـعَـقْـوة الـمِـلَك الـتي
قـد حـلق الـعَـيُّـوقُ دون وهـادهـا
ومـلـيك قـحـطـانَ الـذي وَكَـلَت به
إحـيـاء مـفـخـرهـا ورفْع عِـمـادهـا
صَـفْـوِ الملـوك الـصـيـد من أذوائـهـا
وسُلالـة الـعـظـمـاء من أمـجـادهـا
وسِـنـيِّـهَـا وعَـلـيِّـهـا وزَكِـيِّـهـا
وحـلـيـمـهـا وكـريمـهـا وجَـوادِهـا
فـاسـلم لـعـز الـدين والـدنـيـا الـتي
أصـبـحتَ أنـفس ذُخـرهـا وعـتـادهـا
حـتى تُـؤدِيَ شُـكـر سـعـيك أمـةٌ
وطَّـأْتَ في نُـعـمـاك خَـفْضَ مِـهـادهـا
خُـضت المـهـالك دون صـفـو حـيـاتـهـا
وهـجـرت غـمـضك عن لـذيـذ رُقـادهـا
بـلـغت سِـجَـالُك مُـنـتـهى رغـبـاتـهـا
وتجـاوزت نُـعـمـاك شـأو مُـرادهـا
والـله يـشـهـد أن بـين جـوانـحي
نـفـسـاً رجـاؤُك في صـمـيم فـؤادهـا
لـو قـارعت عـنك الخلائق كـلـهـا
غـلـبت عـلـيك بـشـكـرهـا ووِدادهـا

****

(١١٨)

وله أيضاً يهنئ المنصور رحمه الله بأسر ابن فرذلند(*):

[من الوافر]

تـــنـــاضل عـــنك أقـــدارُ الـــســمــاءِ
وتــبــطِشُ عن يــديك يــدُ الــقــضــاءِ
وســـعيٌ لا يـــعـــوج عـــلـى حُـــلـــول
وشـــأوٌ لا يـــفـــوتُ إلى انـــتـــهـــاءِ
فـــمـــا قـــصـــرت رمـــاحُك عن عـــدو
ولـــو أعـــيـــا بـه أمـــدُ الـــتـــنـــائي
إذا أشـــرعْـــتَـــهـــا في إثْـــر غـــاو
فـــقـــد ضـــاقت(١) بـه سُـــبُل الـــنَّـــجَـــاءِ

(*) هو غرسية بن فرذلند **Garci - Fernandez** قومس قشتالة، وأبوه فرذلند بن غند شلب **Fer nan - Gonzalez** هو مؤسس إمارة قشتالة التي كانت في أول الأمر قومسية متواضعة ثم استفحل أمرها حتى أصبحت مملكة كبيرة اضطلعت بالجانب الأكبر من احتلال القواعد الأندلسية وانتزاعها من أيدي المسلمين، وكان فرذلند بن غند شلب يحكم هذه الإمارة قريباً من خمسين سنة (٣١١ – ٣٦٠هـ/ ٩٢٣ – ٩٧٠م). أما غرسية المذكور هنا فإنه حكم قشتالة بعد وفاة أبيه وظل على ذلك حتى سنة ٣٨٥ (٩٩٥)، وربما كان غرسية هذا أشد أعداء المنصور بن أبي عامر مراساً وأصلبهم عوداً (وهو ما نجد له صدى في هذه القصيدة نفسها)، هذا على الرغم من الهزائم الساحقة المتوالية التي أوقعها به المنصور، وقد كان آخر غزوات المنصور لبلاده تلك الحملة التي قادها الحاجب العامري في سنة ٩٩٤/٣٨٤ فاقتحم قشتالة واحتلت جيوشه حصن شنت اشتيبن **San Esteban de Gormaz** وقلونية **Clunia** وخرب أبلة **Avila** وكانت هذه الغزوة عقاباً لغرسية على إيوائه عبدالله بن المنصور الثائر على أبيه قبل ذلك بقليل، على أن غرسية رغم ذلك عاود الهجوم في العام التالي على الثغور الإسلامية الواقعة على ضفاف نهر دويره في المنطقة الجبلية التي تحيط بمدينة سريا **Soria**، فسار المنصور لغزو بلاده مرة أخرى، وانتهى الأمر بأن أسر المسلمون غرسية في الخامس عشر من ربيع الثاني سنة ٣٨٥ (١٩ مايو ٩٩٥) فأمر المنصور بحمله إلى قرطبة غير أنه توفي بعد ذلك بأيام. (انظر عن هذه الغزوة وأسر غرسية: ابن بسام: الذخيرة ق ٤ – ٤٥/١، ابن الخطيب: أعمال ص ٦٨ – ٦٩، وكذلك ليفي بروفنسال: تاريخ ٢٤٤/٢ – ٢٤٥، وبيريث دي أوربل: تاريخ إمارة قشتالة ص ٧٦٦ – ٧٧٠).

(١) موضع هاتين الكلمتين مطموس في الأصل لا تكاد تبين منهما إلا بعض حروفهما.

ولـــو طـــارت بـه ألـــفـــا عُـــقـــاب
يَـرُمن[1] بـــنـــفـــسه خَـرْقَ الـــهـــواء
وأين يـــفـــر عن درك المـــنـــايـــا؟
وأين يـــشـــذ من تحت الـــســـمـــاء؟
فـيَـــهْنِ الــدينَ والـــدنـــيـــا بـــشـــيـــر
«بـــغَـــرْسِـــيَـــةِ» الأعـــادي والـــعَـــداء
بـــصُـــنْع أعـــجـــزَ الآمـــال قِـــدمـــاً
وقـــصـــر دونه أمـــد الـــرجـــاء
ألـــذَّ عـــلـى المـــســـامع من حـــيـــاة
وأنجع في الـــنـــفـــوس من الـــشـــفـــاء
فـــيـــا فـــتـــحـــاً لمـــفـــتَـــتِحٍ وبـــشـــرى
لمـــنـــتـــظـــر ويـــا مـــرأى لـــراء
أســـيـــرٌ مـــا يُـــعـــادَل في فـــكـــاك
وعـــان مـــا يُـــســـاوَى في فـــداء
هـــو الـــداء الـــعـــيـــاء شـــفـــيت مـــنه
فـــمـــا لـــلـــدين من داء[2] عـــيـــاء
لـــقـــد كـــادت ســـعـــودك مـــنه نجـــمـــاً
مـــنـــيـــعَ الجـــو وعـــر الإرتـــقـــاء
وأعـــظـمَ في الـــضلالـــة من صـــلـــيـب
وأعـــلـى في الـــكـــتـــائب من لـــواءِ
حـــمى شـــيـــع الـــضلال فـــأهـــلـــته
لمـــلـك الـــرق مـــنـــهـــا والـــولاءِ
زعـــيـم بـــالـــكـــتـــائب والمـــذاكي
ثـــمـــال لـــلـــرعـــايـــا والـــرعـــاء
مـــبـــاري ســـيـــفِه قَـــدَمـــاً وبـــأســـاً
ومـــشـــفـــوعُ الـــتـــجـــارب بـــالـــدهـــاء

(١) هذه الكلمات كذلك مطموسة في الأصل.
(٢) في الأصل: دين، ولعلها سهو من الناسخ.

وهل للحزم والإقدام يوماً
إذا عنَّت سُعودك من غَنَاءِ؟
تعاطى في جنود الله كَرّاً
وقد نبذت إليه على سواء
وما للنصر عنها من خلاف
وما للفتح منها من خفاء
فساورَ نحوها غوْل المنايا
وجُرِّع دونها مُرَّ اللقاء
وأجلتْ عنه منجدِلاً صريعاً
مصون الشلو محميَّ الذماء
وأسلَمَه إلى الإسلام جيش
أغصَّ بجمعه رحبَ الفضاء
لئن خذلته أطراف العوالي
لقد آساه إعوال البُكاء
بكل مُرجِّعٍ للنوح يُشجي
بواكيَه بتثويب النِّداء
نَعَاءِ إلى ملوك الروم طراً
ذوي التيجان «غرسيةً» نَعاءِ!
وهل للروم والإفرنج منه
- وقد أودَى - سوى سوء العزاء
فمُلك الكفر ليس بذي ولي
وثأر الشرك ليس بذي بَواء
لقد أرضت سيوفُك فيه مولى
كريم العهد محمود البلاء

فــمــا أغــنت بــظــهــر الــغــيب إلا
وقــد أغــنى بــهــا[1] كــرمُ الــوفــاء
ولا أســـــــــــــرَتْ لــك الأمــلاكَ إلا
وقــد ألــبــسْــتَــهــا ســيــمى الــســنــاء
ولا خــــــطــــــفت لك الأرواحَ إلا
وقـــد أرويـــتَـــهُن من الـــدمـــاء
وقـــد أبــلـــيْتَ فـــيه الـــله شـــكـــراً
تُـــواصِـــلُه بـــإخلاص الـــدعـــاء
وســعتَ عــبــاده صــفــحــاً وفــضلاً
عــلــيــمــاً أنه رب الجـــزاء
فـــوالى بـــالمـــزيـــد من الأمـــاني
وضــاعف بــالجــزيل من الــعــطــاء
وأتـــبع فَلَّ «غَــرْسِــيَــةٍ» عـــجـــالا
يـــســوقـــهمُ الــردى سَــوْق الحُــداء
فــأســألُ من بــراهم لــلــمــنــايــا
بــســيــفك أن يــخــصك بــالــبــقــاء
قــريــر الــعـــين مــشــفــوع الأمــاني
ســعــيــد الجــدِّ مــحــبــور الــثــواء
لــــمُــــلْك لا يُــــراع بــــريْب دهـــر
وســعْــدٍ لا يــحــورُ إلى انــقــضــاء

****

(١) موضع الكلمتين مطموس في الأصل لا يبين منه إلا بعض الحروف.

(١١٩)

وله إلى المنصور رحمهما الله وقد برز لبعض صوائفه:

[من الكامل]

عــــزم حـــدَاه الـــسَّـــعـــدُ والإقـــبـــالُ
وعُلاً تَـــضـــعـــضَعُ دونـــهـــا الآجـــالُ

وعـــــوائـــــدٌ لــــلــــه مـــــازالت لـــــكم
بـــالـــنـــصـــر عـــائـــدة ولـــيس تُـــزال

وكــتــائبٌ لــلــيُــمْن يــومَ رحــيــلــهــا
بــالــفــتح في جــنَــبَــاتِــهــا اســتِــهْلالُ

وعــبــيــدُ مــمــلــكــة وشــيــعــة دولــة
قـــد أيـــقـــنـــوا أن الحـــيـــاة قـــتـــال

صُبُـر إذا انـتَـضُـوا الـسـيـوف تـبـيـنت
أعـــــداؤُهـم أن الـــــلـــــيـــــوث رجـــــال

مــســتــأنــســين إلى الــهــواجــر مــالــهم
- إلا مـــــتـــــونَ المـــــشـــــرفيِّ - ظلال

لـهـجـوا بـ«يا مـنـصـور»[1] فـهـو شـعـارهم
نـــغـم تـــعـــود صـــدقَـــهُن الـــفـــال

وصـــوارم جـــلت الـــظلام ومـــا لـــهـــا
بـــســوى الجـمـاجـم والـنـحـور صـقـال

---

(١) يبدو أن هذا الهتاف: «يا منصور!» كان هو الشعار الذي اتخذه جنود المنصور بن أبي عامر في ساحات المعارك، إذ ينص عليه كذلك بعض المؤرخين في حديثهم عن الموقعة التي دارت في شمال المغرب بين واضح قائد المنصور وزيري ابن عطية المغراوي الثائر عليه في سنة ٩٩٨/٣٨٨ (انظر ليفي بروفنسال: نبذ تاريخية عن البربر في القرون الوسطى ص ٢٩، وكذلك نفس المؤلف: تاريخ ٢٣١/٢).

مما انتمى حيث انتميتَ وأورثَتْ
آباؤك الأذواءُ والأقيال
من كل مشحوذ الغِرار كأنه
للشمس في ظلم العَجاج خيال
وقَناً إذا اقتضت العُداة نفوسها
لم يعتَلِلْ بأدائهن مطال
سُلُبٍ إذا أشرعتهن تقاصرت
أعمار مطلبهن وهْي طوال
بهرت مناقبُك الضحى وتقاصرت
عن كنهها الأشباه والأمثال
نفسي فداؤك والنفوس هفت بها[1]
نار الوغى وتصادم الأجبال
والبِيض تلمع والأسنة تلتظي[2]
والخيل في ضنك الوغى تختال
ومجالُ وجهك في مواقفَ للردى
ما للخواطر بينهن مجال
ونَفِيسَةٍ أقحمتَ نفسك دونها
إنَّ النفائس بالنفوس تُنال

****

(١) مطموسة في الأصل.
(٢) مطموسة في الأصل.

(١٢٠)

وله أيضاً في المنصور رحمهما الله يهنئه بفتح شنتياقه[١]:

[من البسيط]

اليوم أنكص إبليسُ على عَقِبِهْ
مُبرَّءاً سببُ الغاوين من سَبَبِهْ

واستيقنت شيع الكفار حيث نأت
في الشرق والغرب أن الشرك من كذبه

«بِشَنْتِيَاقَةَ» لما أن دلفت له
بالبيض كالبدر يسري في سنا شهبه

وحلبةُ الدين والإسلام عاطفة
عليك كالفلك الجاري على قُطُبه

حتى فصمت عرى دين الضلالة من
راسي القواعد ممنوع الحِمى أَشِبِه

لم يَذْعَرِ الدهرُ فيه نفْسَ سائمة
ولا أصاخت له أُذْن إلى نُوَبِه

---

(١) مدينة شنت ياقب أو شنتياقه **Santiago de Compostela** العاصمة القديمة لمنطقة جليقية، وهي الآن مدينة من أعمال «لا كرونيا **La Coruna** وفيه الكنيسة المشهورة التي تحمل اسم يعقوب الحواري على ما يذكر المؤرخون الإسبانيون، وكان يعقوب الحواري هذا – كما يقال – قد قتل في بيت المقدس فحمله تلامذته في مركب حتى خرجوا به إلى ساحل بقرب موضع هذه الكنيسة، وقد ارتفعت مكانة شنتياقب في العصور الوسطى بين المسيحيين في غرب أوربا كله حتى أصبحت من أول مراكز الحج بين أمم النصرانية. أما تاريخ غزو المنصور ابن أبي عامر لشنتياقب فقد كان في ٢٣ من جمادي الآخرة سنة ٣٨٧ (٣ يوليه ٩٩٧)، وقد احتفظ لنا ابن عذاري عنها بتفاصيل وافية (انظر تعليقنا على نونية ابن دراج التي قالها في نفس هذه الغزوة ص ٣٧١)، وأن يكون ابن دراج قد شهد غزوة شنتياقب بنفسه في رفقة المنصور كما يفهم من نص للحميدي (جذوة المقتبس ص ١٠٣).

مما اصطفت عُبَّدُ الطاغوت واعتقدت
وشيَّد الكفرُ في الآلاف من حقبه
عمود شركهمُ السامي ذوائبُه
والرومُ والحُبْشُ والإفرنج من طُنُبه
تحجُّه فرق الكُفار سائلةً
كالجو أظلم فيه ملتقى سُحُبه
مستودع في شعاب الأرض حيثُ نأى
شُمُّ الجبال ولُجُّ البحر من حُجُبه
من كل أغبر من عضِّ السفار به
وساهم الوجه من طول السرى شَجِبِه[(١)]
وكل مُهْدٍ إلى أركان بيعته
ما عز من نفسه فيها ومن نشبه
قد طالما أحفت الأملاكُ أرجلَها
فيه وخرت على الأذقان من رَهَبه
أممتَه بجنود الحق فانقلبت
بغُرة الفتح من تغيير مُنقلبه
وسُمْتَه جاحِماً للنار ما بقيت
نفس من الكفر إلاَّ وهْيَ من حَطَبِه
يا حُسْنَ مرأى الهدى من قبح منظره
وبرْد أكباد حزب الله من لهبه
وعاذ «بِرْمُنْدُ»[(٢)] منه بالفرار وكم
من قبلها عاذ بالأنصاب من صُلُبه

(١) الشجب: هو الذي أعنته الهم من سفر أو قتال أو حزن.
(٢) برمند بن أردون ملك أشتوريش وليون وجليقية، وسنترجم له في تعليقنا على قصيدة ابن دراج الرائية في ذكر غزوة شنتياقه. (انظر ص ٤٦١ من هذا الديوان).

مستوطناً مركب الإحجام عنك، وهل
يعدو به وِجهةَ المحتوم من عَطَبِه؟
مُستخْفِياً بظلام الليل منك فإن
وافاهُ صبحٌ توارى في دُجَى كُربه
قد حفت اليوم منه قلبَ ملتهب
منها ومن......... ربه[1]
لا يَزْجُرُ الطيرَ في سهل ولا جبل
إلا بوارح تُعمِي[2] عينَ مُقتَرِبه
وأين منه سبيلُ الفوت منك وقد
سللتَ سيف الهدى والنصر في طلبه؟
و«إيلِيَاءُ»[3] التي كانت أَلِيَّةَ ذي
جُهْدٍ من الشّرك خاشي الإثم مُرتقِبه
رفعت منها سنا نار أضاء لهم
ما كان أودعها الشيطان من رِيَبِه[4]
يشبُّها منك عزم لو ونى ضرَم
منها لأضرمها في الله من غضبه
فالله جازيك يا «منصور» دعوته
بسعي ماض لنصر الدين محتسبه

(١) هذا الشطر مطموس في الأصل لا تبدو منه إلا الكلمات التي أثبتنا.

(٢) مطموسة لا تبدو منها إلا الياء الأخيرة، وقد تكون كذلك «تغشي».

(٣) «إيلياء» هي المدينة التي كانت تسمى «إيريا فلافيا **Iria Flavia**» على عهد الحكم الروماني، وتسمى الآن «بادرون **Padron**»، وهي من أعمال «لا كورونيا **La Coruna**» على

وعن كــتــائب للإسلام قــدت بــهــا

إلى رضــا الــلــه حــتى كُنَّ من كُــثُــبه

ومــؤمنٍ مُــنــصِبٍ لــلــه مُــهــجــتَه

بــلَّــغْــتَه أمــد المــغــبــوطِ من نَــصَــبه

وعن حُــسَــامِ هُــدًى لم تجلُ صــفــحــته

إلا أســلْتَ دمــاء الــشِّــرْك في شُــطَــبِه

ولــيفــتــخــر مــنك يــا «مــنــصــورُ» يــومُ علاً

تــركتَ غــابــرةَ الأيــام تــفــخــرُ به

****

(١٢١)

وله في ابنه الحاجب عبدالملك/ رحمهم الله تعالى يهنئه بمولود:

[من الكامل]

طلعتْ نُجومُ السعد من آفاقها
فالأرضُ تُشرِق من سنا إشراقِها

للحاجب الأعلى المُصرِّف همة
موصولة بشآمها وعراقها

بهلال أقمار الهدى من يعرب
فمُنى مساعي شأوها بلَحقاها[1]

الطالعات على الهدى بتمامها
والطالعات على العدا[2] بمحاقها

والمستَهِلُّ على العُفاة براحة
وسِعَ الهُدى والملكَ ظل رواقها

فالدينُ يونع من ندى إغداقها
والكفر يرجف من رَدى إصعاقها

خلفاً من «المنصور» في عزماته
والخيل جارية على أعراقها

زُهيت نحور الغانيات به وقد
سام الوغى بوداعها وفراقها

مترشِّفُ الهبوات قبل شفاهها
ومعانق الأبطال قبل عناقها

(١) كذا ورد هذا البيت، ولم نهتد إلى وجه صالح لتأويله.

(٢) في الأصل: الهدى، ولا معنى لها هنا، ولعل الصواب ما أثبتنا.

قــلــقت إلــيه الــبـيض في أغــمــادهــا
وثــنت إلـــيه الخــيل من أعــنــاقــهــا
مــتــفــجــر لــعــفــاته عن شــيــمــة
زادت بـــهـــا الأيـــام في أرزاقـــهـــا
مـــتــكــشف عن ســطـــوة مـــذخـــورة
لــلــحــرب [إن] كــشــفت له عن ســاقــهــا
تـــفـــديه مـــنـــا أنـــفس وجـــدت به
ريـــحـــانـــة الآمـــال في إنـــشـــاقــهــا
[ونـــــواظـــــر حـــــفت به تـــــواقـــــة
لــو أنــهــا] حــمــلــته في أحــداقــهــا
في روضــة [الــمُــلك الــتي يــجــري بــهــا
مــاء][1] الــنــعــيم يــروق في أوراقــهــا
[وازدادت][2] الأشــيــاء حُــســنــاً كــلــهــا
حـــتى حـــمـــام الأيك في أطـــواقـــهـــا
[يــاعــامــرًا][3] من أعــمــروا سُــبُلَ الــهـدى
لا دَرَّ دَرُّ الخـــيل بـــعـــدَ عِـــتـــاقـــهـــا

****

---

(١) موضعها مطموس في الأصل.

(٢) هذه الكلمات تكاد تكون مطموسة تماماً في الأصل، ولسنا نجزم بأن ما أثبتناه هو الصحيح، غير أنه أقرب ما رأينا إلى ما بقي من آثار كلماته مع المحافظة على المعنى والوزن بقدر ما أدى إليه الاجتهاد.

(٣) هذه الكلمات غير واضحة تماماً في الأصل.

(١٢٢)

وله في خروجه إلى غزاة ممقصر[1] من بلاد الإفرنج وهي الأولى من غزواته بعد وفاة والده رحمة الله عليهم:

[من الكامل]

الـــله جـــارُك ظـــاعـــنـــاً ومُـــقـــيـــمـــا
ومـثـيـبك الـتـبـجـيل والـتـعـظـيـمـا

قــرت عــيــون المــســلــمــين وقــد رأوا
إقــدام عــزم بــالــفــتــوح زعــيــمــا

كـرات نـصـر أصـبـحت لـذوي الـهـدى
هــمـمــاً وفي أرض الـضلال هـمــومـاً

مــا يمــمت بــالـفـلج مــهــجـة كـافـر
إلا انــثــنــى من ذكــرهن أمــيــمــا[2]

فــارفع لــواء بــالــنــجــاح عــقــدته
بـالـنـصـر في سبل الـهدى مـوسـومـا

وانـهض بـأنـصـار الـهدى نـحـو الـعدى
جـيـشـاً بـخـسـفـهمُ أجشَّ هـزيمـا

من كل سـامي الـطـرف يـحـدو وُلَّـهًـا
قــد غــادرت أم الــضلال عــقــيــمــا

تُــذكي أكــفــهمُ لإضــرام الــوغى
شُــعَلاً وفي قــمم الــرؤوس نجــومــا

---

(١) سيرد تعليق على هذه الغزوة بمناسبة قصيدة أخرى لابن دراج في الموضوع نفسه.

(٢) اسم مفعول من «أم»، يقال أمه: أي أصاب أم رأسه.

مستلئمين من السيوف بوارقاً
ومن السَّنَوَّر عارضاً مركوما
عزت بذكرك في البلاد صَوارم
تركت رجاء عُداتها مصروما
وأسنةُ الخط التي خطت على
شيع الضلالة حَيْنَها المحتوما
طلعت على دين الهدى بك أسعُداً
وعلى ديار المشركين رجوما[1]
فاطلب بها - واللهُ مسعدُ حظها -
حظاً من الفتح المبين جسيما
وامدد على الآفاق كفاً لم تزل
تفني بوادرُها العدى واللُّوما
صابت على الإشراك خسفاً مفنياً
وهمت علينا بالنوال غيوما
فلقد وسعت الأرض معروفاً وقد
شيدت مجداً في السماء مقيما
ولقد حميت ذمار أمة أحمد
وأبحت من عز الضلال حريما
في معرك أظمأْتَ أَكْبادَ[2] العدى
فيه ورويت[2] الرماح الهِيمَا
أخضلت فيه السيف من مُهجاتهم
وتركتهم للرامسات[2] هشيما
بك أصبح الثغر المُروَّعُ مشرقاً
ولكاد قبلك[2] أن يكون بهيما

---

(١) جمع رجم (بفتحة فسكون): وهو: الشهاب.
(٢) هذه الكلمات غير واضحة تماماً في الأصل.

يـا أيــهـا المـلك الــذي بــسـيــوفه
ورمـاحه أضـحى الـهـدى مـعـصـوما
بـكمُ اغـتـدى شـمل الـعِـدى مـتـبـدداً
وبـكم غـدا شـمل الـهـدى مـنـظـوما
طــبــتم فــروعــاً في ذؤابــة يــعــرب
وزكــــوتمُ في المــــالــــكــــين أَرُومَــــا
المـسـرعـون إلى الـنـدى والـطـائـرو
ن إلى الـوغى والـراجـحـون حُـلـوما
والمـنـتـضـون سـيـوفَـهم لـوقـائع
عـزت قـنـاهـا فـارسـاً والـروما
دانت لـهم غـرر المـنـاقب واصـطـفـوا
حـسـبـاً حـديـثـاً في الـدنـا وقـديما
كـرُمت مـغـارسـهم وطـاب نِـجـارهم
حـتى غـدا بـهمُ الـزمـان كـريما

****

(١٢٣)

وله فيه أيضاً رحمهم الله وقد خرج إلى بعض غزواته بنبلونة:

[من البسيط]

قد عادت الشمس في أعلى مطالعها
ولجة البحر في أعلى مشارعها
وعز نظم الهدى في كف ناظمه
وراق مجتمع الدنيا بجامعها
وعاد نور جفون في نواظرها
به وقرت قلوب في مواضعها
وقابلتها اللهى في كف باذلها
وحوزةُ الملك في أكناف مانعها
وحط رحل الوغى عن ظهر صائفة
شابت رؤوس الأعادي[1] من وقائعها
كادت تهد الصخور الصم روعتها
لولا تمكن وقر في مسامعها
هول نفى الجن عن أخفى ملاعبها
وأوحش الوحش في أقصى مراتعها
تقودها دعوة التوحيد قد أخذت
عهدًا من الله في تشفيع شافعها
وغرة أشرقت في كل مظلمة
بثاقب الهدي والأنوارِ ساطعها

(١) في الأصل: «العدى» ولا يستقيم بها الوزن، ولعلها كما أثبتنا.

بـريح نـصـرٍ إلى الأعـداءِ تـقـدمُـهـا[1]
كـريح عـاد جـلـتـهـا عن مـصـانـعـهـا

فـإن يـعـوذوا بـآنـاف الجـبـال فـقـد
جـاءت أنـوفُـهُمُ في سـيف جـادعِـهـا

أو عـلـلـوا بـفـرار أنـفُـسـاً عـلـمت
أن الـفـرار دواء غـيـرُ نـافـعـهـا

فـمـا الـنـجـاة تَـمـارى في تـفـكـرهـا
ولا الحـيـاة تـراءى في مـطـامـعـهـا

بل الـردى مـنـك مـكـتـوب عـلـى مُـهَج
قد أصـبـحـت[2] بـارزاتٍ في مـضـاجـعـهـا

ولا بـسـيـفـك عـجـز عن مـعـاقـلـهـا[2]
ولا سـنـانُك نـاب دون دارعـهـا

ومـا تـرجـلْتَ[2] إلا ريـثـمـا نـزلـوا
عـلـى الأحـبـة في أدنى مـصـارعـهـا

وأنتَ جـارٍ من الـعـلـيـا عـلـى سُـنن
تـداركُ الحـرب من أزكى شـرائـعـهـا

والـلـه جـارُك في حل ومُـرتحل
وسـاحـةِ الأرض دانـيـهـا وشـاسـعـهـا

حـتى يُـثـيـرَ لك الآفـاق مـؤتـنِـفـاً
كـواكـبـاً تُـسـعـدُ الـدنـيـا بـطـالـعـهـا

****

(١) في الأصل: يقدمه.
(٢) كلمات غير واضحة في الأصل.

(١٢٤)

ولــه فيـه أيضــاً رحمهــما اللـه وقد تلـقاه من غزاته ممقصر[1] سنة ثلاث وتسعـين وثلاثمـائة:

[من المتقارب]

لِـتَـهـنِئْ سلامــتُك المسـلـمـيـنـا
وتـفْـدِك[2] أنـفـسُـهم أجـمـعـيـنـا

فـقـد صـدَّق الـله مـا يـرغـبـونـا
وقـد حـقق الـله مـا يـأمـلـونـا

غـزوتَ فـأُعـطِـيت نـصـراً عـزيـزاً
وصُـلت فـوُفِّـيت فـتـحـاً مـبـيـنـا

بـسـيـف ضـربت بـه في الإلـه
فـأعـززت مـلـكـاً ودنـيـا وديـنـا

وبـلـدةِ شـرك تـيـمـمـتَـهـا
فـغـادرتـهـا آيـة الـسـائـلـيـنـا

ودائعُ مـجـد تـقـلـدتـهـا
فـكـنت عـلـيـهـا الـقـوي الأمـيـنـا

---

(١) ممقصر اسم حصن كان من أهم حصون برشلونة، وكانت إليه أول غزوات عبدالملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر في سنة ٣٩٣ (١٠٠٣) بعد موت أبيه، وقد فتحه المظفر عنوة وأسكنه المسلمين ودوخ بسيط برشلونة وما يتصل به، وهناك خلاف حول اسم هذا الحصن ومكانه في الوقت الحاضر ولعل خير تفسير له هو ما وصل إليه الأستاذ إرنانديث خيمينث **Herandez Jimenez** من أنه حصن كان يسمى بالإسبانية **Monmagstre** من أعمال برشلونة (انظر ليفي بروفنسال: تاريخ ٢/٢٨٥)، وكانت برشلونة في وقت تلك الغزوة تحت حكم ريمند (الثالث) بن بريل **Ramon Borrell III** (٣٨٢ - ٤٠٩/٩٩٢ - ١٠١٨).

(٢) في الأصل:وتفديك.

نــهــضـت فــأرضـــيت مـــنـــا الـــنـــفــوس

وأُبتَ فــأقـــررت مـــنـــا الـــعـــيـــونـــا

فـــمـــا خـــيب الـــلـه فـــيك الـــرجـــاء

ولا كـــذب الـــلـه فـــيك الـــظـــنـــونـــا

فــأُبْـقِـيتَ حــصــنــاً مــنــيــعــاً رفــيــعــاً

ودُمت كـــريمـــاً عـــزيـــزاً مـــكـــيـــنـــا

****

(١٢٥)

وله فيه أيضاً رحمهما الله ويعزيه عن طفل توفي له في حياة المنصور أبيه:

[من البسيط]

عَمري لقد أعذر الدمع الذي وكفا
لو اشتفى من تباريح الأسى وشفى
وما غَناءُ دموع العين عن كبد
حرى ونضو يقاسي الليل ملتهفا؟
يا بن الذين لأيديهم وأمرهِمُ
ألقى الزمان قياد الذل معترفا
ببأسهم قام دين الله منتصراً
من الحوادث والأعداء منتصفا
أعزز علي الدين والدنيا وأهلهما
خطب سما فارتقى من عزِّكُم شرفا
غُصن من المجد عاذ المسلمون به
هبت عليه رياح النصر فانقصفا
لله من قمر أسرى العفاة به
حتى إذا ما استوى في أفقه[١] كُسِفا
سما إلى جنة الفردوس معتليا
إذ لم يزل مستهاماً بالعلا كلفا
تلك المكارمَ والَـتْهُ فعُلِّـقَها
حُباً، شهِدتُ لقد أودى بها شغفا

(١) هذه الكلمات مطموسة في الأصل، ولعلها لا تخرج كثيراً عما رجحنا.

وسـهمُ نـصـر تُـراع الحـادثـات به
أضـحى بـسـهم المـنـايـا والـردى قُـذِفـا
يـا من رأى الجـود يـغشى نـعشه شـغـفـاً
بـالـهم مـرتـديـاً بـالحـزن مـلـتـحـفـاً[1]
يــدعـوه حــتى إذا أعـيـا مـحـاورة
نـادى فـأسـمع صم الـصـخـر: وا أسـفـا!
وخـلـفـوه لـديه رهن مَـلـحـدة
حـيـران يـلـثُم بُـرد الـتـرب مـرتـشـفـا
مـبـارِيـاً لـدمـوع المـزن مـا هـتـنت
ومُـسـعـداً لحـمـام الأيك مـاهـتـفـا
قـد كـان من دون ذاك الـغـاب لـيثَ وغى
أحـمى الـعـرين وفي تـلك الـعلا خَـلَـفـا
فـاخـتـاره الـله في الـدنـيـا لـكم فَـرَطـاً
ذخـراً وفي جـنـة المـأوى لـكم سـلـفـا
من بـعـدمـا اهـتـز سيف الـنـصـر في يـده
وصـال غـضـبـان من دون الـهـدى أسِـفـا
وشـمـرت دون ذاك المـلـك عـزمـتُه
يـود لـو كـر صـرف الـدهـر أو زحـفـا
واسـتـشـرفت أعـينُ الأبـطـال نـاظـرة
أيـان يـركب ردع المـوت[2] مـعـتـسـفـا
والخـيلُ قد نـسـجت سفـلى سنـابـكـها
من الـقـتـام عـلى فـرسـانـهـا كِـسَـفَـا
كـأنـهم في لَـبـوس الـسـابـغـات ضـحى
كـواكبٌ لـبِـست من لـيـلـهـا سُـدَفـا

(١) ورد هذا البيت والبيتان التاليان له في مختارات ابن الكتاني الطبيب في كتابه «التشبيهات من أشعار أهل الأندلس»، القطعة رقم ٦١٢ ص ٢٧٤.
(٢) يقال ركب ردع الموت أي خر صريعاً.

والـبـيض قـد غـشـيت مـنـهم سـنـا غُـرر
كـأنــهـا دُر بــحــر يــســكن الــصَّـدفـا
فـاسـلـم ولا زال شـمـل الـكـفـر مـفـتـرقـاً
بـالـسـيف مـنك وشـمـل الـدين مـؤتـلـفـا
واسـتـقـبل الـعـيـد مـسـروراً ولا بـرحت
تــهـدي الـلـيـالي إلـيك الـعـز مـؤتـنـفـا
ولـيـهـنك الـفـوز والـزلـفى وأنـفـسُـنـا
يـلـقـين من دونك الـتـبـريح والأسـفـا

****

(١٢٦)

وله فيه أيضا رحمهما الله يهنئه ببعض فتوحاته:

[من الكامل]

أهلاً بمن نصر الإلهُ وأيدا
وحمى[(١)] من الإشراك أمة أحمدا

وسخا لأطراف الرماح بنفسه
شُحا[(١)] وإشفاقا على دين الهدى

وبمن حمى التوحيدممن سامه
خسفاً فأصبح في المعالي أوحدا

حتى أعاد الدين أبيض مُشرقا
بسيوفه والكفر أدهم أسودا

بسط الإله بسيفه وبرمحه[(١)]
ظلاً على الدين الحنيف ممدا

بمكارم شهدت عليه بأنه[(١)]
أندى الورى كفاً وأطيبُ محتدا

وشمائلٍ لو شام رهبة سيفه[(٢)]
لغدا لرقتها الورى مستعبَدا

من أحرز الغايات أدنى شأوه
حتي تقاصر عن مساعيه المدى

وسطا على الأعداء حتى لاغتدت
عنقاءُ مُغرِبُ[(٣)] في البلاد من العدى

---

(١) غير واضحة في الأصل.

(٢) غير واضحة في الأصل، ولعلها كما أثبتنا، وشام هنا: بمعنى أغمده.

بعزائم في الروع قحطانية
تركت ديار الشرك قاعاً فدفدا
يا حاجباً ورث الرياسة والعلا
والملك والإعظام أمجد أمجدا
والقائد الميمون والقمر الذي
يجلو بغرته الظلام إذا بدا
والأزهر الوضاح والملك الذي
لبس الندى والبأس ثوباً وارتدى
إن يُكْنَ عن بعض النجوم بأسعد
فلقد تجلت كلها لك أَسْعُدَا
فخراً لمصدرك الذي لم يَتَّرِكْ
لظبى الصوارم في الأعاجم موردا
لله في الإشراك منك وقائع
أربت على حرب «الذنائب» مشهدا
لا مثل «بَرْ بَدِّيلَ»[1] يوم حويتها
فخراً أغار على الزمان وأنجدا
جردت للإسلام فيها صارماً
عودته ضرب الطلى فتعودا

(١) في الأصل «رمديل»، وقد رجحنا أن تكون كما أثبتنا، ونراه يعني حصناً كان يعرف في قشتالة باسم **Barbadillo**، ويعرف الآن باسم **Barbadillo del Mercado**، ويدل على ذلك تكرر هذا الموضع في كتب التاريخ المسيحي الإسبانية التي ورد فيها حديث الأسطورة التاريخية

وسلـلـتـه لـلـه فـيـهـا سـلـة
مـنـعـت صـلـيـبـاً بـعـدهـا أن يـعـبـدا
ووقـفـت دون الـديـر فـيـهـا وقـفـة
كـانـت لـنـصـر الـلـه فـيـهـا مـوعـدا
و«قُلُنْيَةً»[1] أنـشـأت فـيـهـا عـارضـاً
لـلـحـرب أبـرق بـالـحـتـوف وأرعـدَا
وبـرأي عـيـني[2] يـوم خـضـت لـفـتـحـهـا
بـحـراً من الـبـيـض الـصـوارم مـزبـدا
فـرأيت مـا اسـتـنـزلـت من نجم هـوى
وشـهـدت مـا حـدثـت عن لـيـث عـدا
والحـرب قـائـمـة تـغـص بـنـقـعـهـا
لمحـاً بـنـار المـشـرفـيـة مُـوقَـدا
والـشـمـس حـيـرى في الـسـمـاء كـأنـهـا
تـرنـو إلى الـدنـيـا بمُـقـلـة أرمـدا
والخـيـل تـسـتـلـم الـصـعـيـد كـأنمـا
تـبـغي إلى الجـوزاء مـنـهـا مـصـعـدا
مـا إن تـرى إلاَّ خـفـوق مـهـنـد
- كـالـبـرق - يـقـرع في المـكـر مـهـنـدا
وثُـقُـوبَ أزهـر كـالـشـهـاب مُـثـقف
يُـهـدَى إلى ظُـلَمِ الـنـفـوس بـه الـردى
فـغـدا إلـيـهـا مـنـك لـيـث خـفـيـة
مـا راح إلا لـلـفـخـار ولا غـدا
لا تـرتـضي لـلـسـيـف سـلـة سـاعـة
حـتـى تـراه في الـكـواهل مـغـمـدا

---

(١) انظر تعليقنا على هذا الموضع في ص ١٨ من هذا الديوان.

(٢) في الأصل: «مراي عسى» كذا دون إعجام، ولعلها كما قرأنا.

وتـركت «شَـنْتَ اشْـتِـيـبَـنـاً»[1] وكـأنمـا
حـطت سـيـوفك من عِـداهـا الـفـرقـدا
فـقـصـرت مـدتـهـا بـوقـفـة سـاعـة
أبـقت لك الـفـخـر الجـلـيل مـخـلـدا
شـيَّـدت عـز المـسـلـمـين بـهـدم مـا
قـد كـان عـز الـكـفـر مـنـهـا شـيـدا
وتـركت «غَـرْسِـيَـةً»[2] بـنـقـمـة غـدره
بـالـروع في الأرض الـفـضـاء مـقـيـدا
لـهْـفـانَ يـجـتـاب الـنـهـارَ مـروعـاً
بـظـبـاك والـلـيل الـتـمـام مـسـهـدا
خَـزيـانَ قـد أوسـعتَ حُـر بلاده
وديـاره لـهب الـسـعـيـر المـوقـدا
قـد غـر أحـزاب الـكـمـاة ومـا حـمى
وأضل أشـيـاع الـضلال ومـا هـدى
إيـهـاً بـني المـنـصـور أنـفسُـنـا لـكم
ونـفوس من في الـشـرق والـغـرب الـفدا
الـيـوم أنـسى فـتـحُـكم مـا قـبـله
عِـظَـمـاً كـمـا نَـسَّـا[3] لـفـتـحِـكُمُ غـدا

****

(١) هي القلعة المعروفة لدى المسيحيين باسم **San Esteban de Gormaz** وكانت هي وقلعة قلونية أو قلنية (الواردة في هذه القصيدة) من أمنع خطوط الدفاع عن إمارة قشتالة والهجوم منها على الأندلس الإسلامية.

(٢) يقصد هنا غرسية بن فرذلند **Garci - Fernandez** قومس قشتالة الذي ترجمنا له عند تعليقنا على قصيدة لابن دراج في أسره وقتله (ص ٤٣٥).

(٣) تسهيل «نسأ» بتشديد السين: أي أخر.

(١٢٧)

وله يرثيه عند وفاته ويعزي أخاه ناصر الدولة عبدالرحمن/ ابن المنصور ويهنئه بالحجابة والولاية بعده[١]:

[من البسيط]

ما أطبق الهمُّ إلا ريثما انفرجا
ولادجا الخطب إلا وشْك ما انبلجا[٢]
ما كاد يبدو الضحى بالحَزن مكتئباً
حتى رأينا الدجى بالنور منبلجا
فاليوم قد لبس الإظلام ثوب سناً
في عُقْبِ ما لبس الإصباح ثوب دجى
وأورقت شجرُ الدنيا لدُن عريت
وعادَ يشدو حمام المُلك إذ نشجا
بشَّرَ بالشمس إشراقُ الضحى فشفى
في إثر ناع نعى نجمَ الهدى فجشا
رُزء حكى كَظَمَ الأرواح أعْقَبه
صُنع أعاد إلى أوطانها المهجا
فأصبح المُلك لا رَبْثاً[٣] ولا خلَلاً
وأصبح الدين لا أَمْتًا ولا عِوَجا
فلتَهْنِنَا نِعَمُ الرحمن حين هدى
بعبده سُبلَ الحق الذي نهجا

---

(١) كانت وفاة عبدالملك المظفر في سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) وقد ولي بعده الحجابة أخوه عبدالرحمن المنصور الملقب بشنجول الذي يعزيه ابن دراج ويهنئه بهذه القصيدة.

(٢) في الحاشية تعليق نصه: «تعزية وتهنية، الأولى في الصدر والثانية في العجز».

(٣) الربث: هو الضعف والعجز والتفرق.

«بنـاصـر الـديـن» والإسلام مـفـتـتـحـاً

بـيـمـنـه كل بـاب لـلـمـنـى ارْتـتِـجَـا

يـــا بن الـــذي قـــاد من أنذواءِ ذي يمن

عُـرفاً بـعُـرف المـعـالي والـهـدى وُشِـجـا

من ذا يـــنـــازعك المـلـك الـــذي عـــمـــرت

به أوائـــلـك الأحـــقـــاب والحِـــجَـــجـــا[1]

وفي جـبـيـنـك سـيـمـا المـلك قـد بـهـرت

وفي يمـيـنـك قِـدح الحق قـد فَـلَـجـا[2]

مـــا كـــان أولَ كـــرب جل فـــادحُه

دجـا[3] فـكـنـت لـنـا من هـمـه فـرجـا

فـرُب دهـيـاء من خـطب أضـأت[4] لـنـا

أراءك الـــزهـــرَ في آفـــاقـــهـــا سُـــرُجـا

وربٍّ يـــوم وأيـــامٍ كـــشَـــفتَ بـــهـــا

عـنَّـا وعن مَـلِـكَـيْكَ[5] المأزق الـلَّـحِـجَـا[6]

وعـــزمـــةٍ لك يـــوم الـــروع صـــادقـــة

تـركت صُم الـصَّـفـا في جـوهـا رهـجـا

ولُـجَّـة من صـفـيح الـهـنـد خـضت بـهـا

من المـنـايـا إلى نـيـل المـنـى لُـجَـجَـا

وكـــرَّةٍ بـــعـــد أخـــرى في نـــدىً ووغى

بـنَـيْـتَـهـا لـسـمـاوات الـعلا دَرجـا

---

(١) جمع حِجة (بكسر الحاء): وهي السنة.

(٢) أي فاز وظفر.

(٣) هذه الكلمات مطموسة في الأصل لا تبدو إلا بعض حروفها.

(٤) مطموسة تماماً في الأصل، وقد تكون كما أثبتنا أو شيئاً على وزنها ومعناها كأن تكون «رفعت» مثلاً...

(٥) يقصد بـ«ملكيه» أباه المنصور بن أبي عامر ثم أخاه عبدالملك المظفر وهما اللذان قاما على تدبير الدولة قبله.

(٦) أي الضيق الحرج.

فـمــا دعت غـــيـــرَك الآمـــالُ حـــين دعت
ولا رجــا غـــيـــرَك الإسلامُ حـــين رجــا
ولا أتـــتك وفـــود الحـــمـــد عـــامـــدة
إلا تـلــقـتك مـشـغـوفـاً بــهــا لَـهِـجًـا
ولا تــيــمـــمك الــتــأمــيلُ مــبــتــكــراً
إلا ووافـــاك بـــالإنـــعـــام مُـــدَّلِـــجــا
ولا تـــقـــلـــبت في مـــثـــوى ولا ســـفـــر
إلا وذكــرك في حـــلـق الـــضلال شـــجــا
ولا نجــــــا مــــــنك ذو غِل ولا دَغل
إلا إلى حــكــمك المــاضي عــلــيه نجــا
صـبـــر كـثـــهلانَ يـــوم الـــروع مُـتـئـداً
جـود كسـيـحـانَ يـوم المـد مُـعـتَـلِـجـا(١)
فـــيـــا مُـــعـــاديَه أجْـــفِلْ ولا وزَراً
ويـــا مـــؤمـــلـه أســـرف ولا حـــرجــا
ولا تـــزل أيـــهــا الـدهـــر الـــسـعـيـد به
بـــوجـــهه بـــهِـــجــاً من ذكــره(٢) أَرِجــا

****

(١) ثهلان: اسم جبل، وسيحان: اسم لنهرين أحدهما بالشام والآخر بالبصرة، ومعتلج: أي ملتطم الأمواج.
(٢) في الأصل: بذكره، وهي تمكن أن تصلح لهذا الموضع مع زحاف قبيح يغني عنه جعلها «من ذكره» كما أثبتنا.

(١٢٨)

وله في الناصر عبدالرحمن بن المنصور في غزوة شنتياقه(١):

[من المتقارب]

هــو الــبــدر في فــلَكِ المجـد دارا
فــمــا غَــسَقَ الخــطبُ إلا أنــارا

تجــلى لــنــا فــأرتــنــا الــســعــودُ
غــيــوبَ المــنى في ســنــاه جــهــارا

وأوفى فــكــادت صــوادي الــقــلــوب
تــفــوتُ الــعــيــونَ إلــيه بــدارا

وحل فــحــلــت جــســام الــفــتــو
ح تَــبــأى اخــتــيــالاً وتُــزهى افــتــخــارا

وحُقّ له الــيــومَ رِق الــكِــرا
مِ طــوعــاً ورق الــعُــداة اقــتــســارا

فــيــا رُب غــايــة مــجــد شَــأَوْتَ
إلى فــخــرهــا مــعــجــزاً أنْ تُــجــارى

ومن يَــسْمُ في ذِروتَيْ حِــمــيــرٍ
ويــحــتــل من يَــمَنِ الــمُــلك دارا

يُــنــازعْ إلى شــبــه ذاك الــســنــاء
وتــنــحُ مــســاعــيــه ذاكَ الــنــجــارا

وحــسبُ الخــلــيــفــة إيــثــاره
لــكم دون هــذا الأنــام اقــتــصــارا

(١) سبق أن علقنا على هذه الغزوة في موضعين سالفين عند الحديث عن قصيدتين قالهما ابن دراج في نفس الغرض (انظر صفحتي ٣٧١ و٤٤٠).

تـنـقـاكُـمـا عـامـرِّيْـين قـامـا
بـأعـبـائه فـاسـتَـجَـدَّا الـفـخـارا
فـلـم يـأْلُ بـحـبـوحـة المـلـك حـظـا
ولا ادخـر المـسـلـمـين اخـتـيـارا
رمـى بـك بـحـرَ الأعـادي وأدنـى
من الـمُـلـك حـاجـبـه مُـسـتـشـارا
فـكـان الحـسـام وكـنـت الـسـنـان
وكـان الـشـعـار وكـنـت الـدثـارا
وَلألأ مِـنـه عـلـى الـديـن نـوراً
وأضـرم مـنـك عـلـى الـشـرك نـارا
فـأولـيـتَ نُـعـمـاه في الـلـه عـزمـاً
تـرى الـنـصـر يـقـدمُه حـيـث سـارا
فـصـنـت الـعـلا وأبـحـت الـنـدى
وحُـطـت الـهـدى وحـمـيـت الـذمـارا
فـأصـبـح سـيـفـك لـلـديـن حـصـنـاً
وأمـسـى سـنـانـك لـلـثـغـر جـارا
وفي «شَـنْـتِ يَـاقُـبَ» أوردتـهـا
شـوازبَ يـبـغـين في الـبـحـر ثـارا
فـسـرت هـلالاً تـبـاري الـهـلال
إلـيـهـا وبـحـراً يـخـوض الـبـحـارا
وشـمـسـاً تـطَـلَّعُ بـالمـغـربـين
بـحـيـث تُـوافي ذُكـاءُ الـغـبـارا
فـمـا رِمْتَ حـتى عـلـت[1] جـانـبـاهـا
بـأيـدي المـذاكي عَـجـاجـاً مُـثـارا

(١) كذا، ولعلها «علا».

تــهب بـــهــا في الـــهــواء الـــريــا
ح إمـــا دخـــانـــاً وإمـــا غـــبـــارا
ولم يـــســتـــطع «يــاقُبُ» نــصــرهــا
ولا دفع الخـــسف عـــنه انـــتـــصـــارا
لـــئن غـــوَّرتْ في شَــغــاف الـــشــمـــال
لـــقــد أنجــد الـــفــتحُ مـــنــهـــا وغـــارا
وأخــلفَ «بِــرْمُــنْــدُ»[1] مــنــهــا الــرجــاء
ومـــا زاده الـــشـــرك إلا تـــبـــارا
أَطـــرْتَ إلـى نـــاظـــريه عَـــجـــاجـــاً
تـــركت به عـــقـــله مـــســتـــطـــارا
فـــمـــا يـــعـــرف الـــعـــهـــد إلاامـــتـــراء
ولا يـــوقن الـــعـــهـــد إلا ادِّكـــارا

---

(١) أشار ابن دراج إلى برمند هذا في قصيدة سابقة حول غزوة شنت ياقب أيضاً (انظر ص ٤٤٢)، وهو برمند (الثاني) **Bermundo** بن أردون (الثالث) **Ordono III** بن رذمير (الثاني) **Ramiro II**، حكم مملكة ليون وأشتوريش وجليقية بين سنتي ٣٧٢ و٣٩٠هـ (٩٨٢ - ٩٩٩م) أي معاصراً للمنصور بن أبي عامر، وكان السبب في إعلانه ملكا هو فشل سلفه وابن عمه رذمير الثالث **Ramiro III** في حروبه ضد المنصور بن أبي عامر مما أدى بأهل جليقية **Galicia** إلى الثورة على ذلك الملك وتنصيب برمند هذا على عرش ليون. على أن برمند لم يسعه حين ولي الملك إلا إعلان الخضوع الكامل للمنصور ودفع الجزية له وطلب الحماية منه مما حمل المنصور على أن يرسل إليه جيشاً من المسلمين يتكفل بحمايته، غير أن برمند لم يلبث أن نقض عهده، وطرد ذلك الجيش من بلاده فوجه المنصور إليه حملة لتأديبه في سنة ٣٧٧ (٩٨٧)، واحتلت الجيوش الإسلامية عند ذلك مدينة قلبرية **Coimbrct** (في البرتغال الآن)، وفي السنة التالية (٣٧٨/٩٨٨) احتلت جيوش المنصور عاصمة ملكه ليون **Leon** وكذلك مدينة سموره **Zamora** وحينئذ طلب برمند الصلح فقبل المنصور منه، بل إن برمند أهدى إليه ابنته في سنة ٣٨٣ (٩٩٣) لتكون جارية له فأعتقها

ولمـــا ادرعت إلـــيه الـــيـــقـــيـ
ـن لم يـــدَّرع مـــنك إلا الـــفـــرارا
وشـــام غِـــراريْ حُـــســـام المـــنـــايـــا
فـمـــا يَـطـعـمُ الـنـومَ[1] إلا غِـرارا
و«لَـنْـيُـوشُ»[2] أمـطـرتَـهـا صـائـبـاتٍ
تُـصـيـبُ الـنـفـوس وتـعـفـو الـديـارا
هـــززتَ إلـــيـــهـــا رِمـــاحـــاً طـــوالاً
تُـــصـــيِّـــر أعـــمـــار قـــوم قـــصـــارا
فـــغـــادرتـــهـــا في ضـــمـــان الإله
ويمـــمـــت أعـــلـــى وأنـــأى مـــزارا
وقـد يـفـرس الـلـيثُ أروى الـهـضـاب
ويُـهـملُ حـرش الـضـبـاب احـتـقـارا[3]
وخـلَّـفت فـيـهـا مُـبـيـد الـضلال
يـــقَـــرِّبُـــهـــا لك ثـــوبـــاً مُـــعـــارا[4]
يـــكـــفـــكِفُ أدمعَ عـــينٍ سِـــجـــامـــاً
ويُـــبـــرِدُ أحـــشـــاء صَـــدْرٍ حِـــرارا

(١) في الأصل: «المنايا» ولا يستقيم بها المعنى ولا الوزن، ولعل الصحيح ما أثبتنا.

(٢) في الأصل: لسوش، ولعل الصواب ما أثبتنا، وربما كان يعني الموضع الذي كان يعرف قديماً باسم **Laniosum** باللاتينية و**Lanhoso** باللغة البرتغالية الحالية، إذ أن هذا الحصن كان يقع في المنطقة الداخلة اليوم في حدود البرتغال. وكان حصنا على جانب كبير من الأهمية كما يدل على ذلك كتاب «تاريخ شنتياقب» الذي أسلفنا الإشارة إليه في بعض تعاليقنا (انظر ص ٣٠٣ من الكتاب المذكور)، وقد جاء في تعليق محقق الكتاب على هذا الموضع أنه على بعد ١٠ كيلو مترات إلى الشمال الشرقي من مدينة براجا **Braga** التي كانت النصوص الأندلسية القديمة تُسميها براقرة انظر ابن عبدالمنعم الحميري، الروض المعطار ص ٦٦ من النص و٨٣ من الترجمة الفرنسية. وبراقرة هذه بلد يقع على بعد ٥٧ كيلو متراً إلى الشمال الغربي من مدينة أوبورتو **Oporto** (برتقال العربية) ثاني مدينة اليوم في البرتغال.

(٣) الأروى: جمع أروية (بضم الهمزة وكسرها وتشديد الياء) وهي أنثى الوعول، والحرش مصدر حرش (بفتحتين) يحرش (بكسر الراء) وهو اصطياد الضب خاصة.

(٤) في الأصل: تعربها لك...، ولعلها كما أثبتنا. أما «بيد» فقد تكون محرفة عن «عميد» يعني برمند ملك ليون.

فــإن أخــطــأته كــئــوس المــنــايــا

لــقــد خــلــدتْ في حَــشــاه خُــمــارا[1]

وعمَّ بـــهـــا فـــتـــحُك الأرضَ نـــوراً

كــمــا ذرَّتِ الــشــمــسُ فــيــهــا الــنــهــارا

فــعــرج عــلــى الحج بــالمــســلــمــين

بــعــقب اصــطلامك حجَّ الــنــصــارى

فــقــد نــشــرت مــصــرُ والــقــيــروانُ

ومــدت عــيــونُ الحــجــاز انــتــظــارا

****

(١) الخمار: هو سورة الخمرة.

(١٢٩)

وقال يمدح منذراً ويذكر حمى أصابته

[من الطويل]

تسلَّيْتَ حتى أُنْسِيَ الهائمُ الهمَّا
وأغنيت حتى أُعدِمَ المعُدِمُ العُدْما

وإلا فكيف اغتالت القُطبَ والسُّها
وعارضَتِ الجوزاءَ واعتامتِ النجما

وكيف دنت منك الخطوب وما رجت
بساحة من والاك ظلماً ولا هضما

وكيف ابتغت للسقم عندك موضعاً
وأنت الذي يشفي الإلهُ به السقما

وكم رعتها بالسيف في كل بلدة
فإن أقدمت يوماً ففي بسطك السَّلما

ألا أقدمت في حومة الموت والردى
تطارده حمرا وتبهره قدما

وهلا وأبصارُ[1] الكماة شواخص
وبيض الظبى تَحمى وسمر القنا تدمى

وما كانت الحمى بأول كاشح
سعى لك بالبؤسى فجازيته النُّعمَى

فأوليتها الصبر اللجوج إلى العدى
وعرَّفتها الصبر الخَرُوجَ من الغُمَّى

(١) في الأصل: وأنصار.

ومِنْ قَبْلُ ما أوسعتها صدرَ صافح
ونفساً يلذ المسكَ أنفاسُها شَمَّا
فإن جُدِّدت في بعدها لك صحةٌ
فمِن بعدِ أن زودتَها الطِّيبَ والحِلما
وإن تلق جسماً بعد جسمك في الورى
- وكيف بها أن ترتضي بعده جسما! -
فقد أهدت البُشرى إليه وأفرغت
عليه السرور المحض والكرم الجما
وما نقصت منك الليالي فَعُوَّدٌ
عليك به إلا الخطيئة والإثما
وعند ذُبُول[1] الروض يُرجَى له الحيا
وعند محاق البدر يَستقبِلُ التِّما
ومن يصْلَ نارَ الحرب في جاحم الوغى
فلا غرو أن يَحْصى حَشاه وأن يَحْمى
ولا عجب من وهْن جسم تعاورت
قواه الحصونَ الصُّمَّ والمدُن الشُّمَّا
فبسطةُ باع[2] جازت الوهم والمدى
ورحب ذراع حازت العُرْب والعُجْما
فإن يبق من شكواك باق فهذه
تمائمك اللاتي شفَيتَ بها قِدما
خيولاً كساها الجو نوراً فأقدمت
محجلة غراً وإن نُتِجَت دُهما
وبيضاً تشكت من شَكاتك وَحشة
بما أنست[3] حتى قرنتَ بها العزما

(١) في الأصل: ذيول.
(٢) في الأصل: باغ.
(٣) مطموسة في الأصل.

وسمراً كأن الليل لما سريته
كسا كل لَدن من كواكبه نجما
وكلَّ غريق[1] في الحديد كأنما
تسربل من غزل الغزالة واعتما
تهاوت به الأهواء حتى أَمَمْتَه
إلى طاعة الرحمن فانقاد وائتما
فلم يدر إلا ظل ملكك موطناً
ولا والداً إلا لديك ولا أما
ويا ذا الرياساتِ افتتح فقد انجلت
فواتحك اللاتي ضَمِنَّ لك الحتما
ويا منذر الرايات والسابحات قم
فأنذر عداك الذل والخزي والرَّغما
ونادت بك الدنيا: أبا الحكم احتَكِمْ
بحول الذي ألقى إلى يدك الحُكما!
وأوف على العلياء واستوف أنعُماً
حباك الذي يحبو بأجزلها قِسما

****

(١) في الأصل: عريق.

(١٣٠)

وله في المظفر عبدالملك بن المنصور رحمهم الله تعالى[١]:

[من الطويل]

بـدالك نجم الـسـعـد[٢] واطَّـلع الـنُّـجْحُ
فـبالـله فـاسـتـفـتح فـقد جـاءك الـفـتحُ
وقـد قـدَّمَ الـنـصـرُ الـعـزيـز لـواءَه
وقـبل طلـوع الـشـمس يـنـبلـج الـصبح
فـقُـدْ في سـبـيل الـله جـيـشـاً كـأنه
من الـلـيل قِـطع طـبَّق الأرضَ أو جُـنح
كـتـائبُ في إقـدامـهـا الحق والـهـدى[٣]
وألـويـة في عَـقـدهـا الـيُـمن والـنـجح
فـقـد حـان يـوم الـفـتح واهـتـزت المنى
وصحَّ رجاء الـسيف واسـتـبـشـر الـرمح
وحـنت إلى يـوم الـلـقـاء سـوابح
لـهـا في بـحـار الموت نـحـو الـعدى سبح
حـمـلت عـلـيـهـا كل حـامل نـعـمـة
بـيـمنـاك مـقـرونـاً به الـصـدق والـنـصح
بـضـائـعـهم في مـتـجـر الحـرب أنـفُس
رضـاك لـهـا في كل مـلـحـمـة ربح

---

(١) نقل ابن عذاري المراكشي في «البيان المغرب» (٩/٣) عن ابن حيان مناسبة هذه القطعة وسنة نظمها، إذ ذكر أن ابن دراج قالها عند قفول عبدالملك المظفر من غزوة «ممقصر» في سنة ٣٩٣هـ، وقد اختار منها في ذلك الموضع أربعة أبيات.

(٢) بيان: بدا ريح السعد.

(٣) بيان: والتقى.

فـــيـــا أنـــفَسَ الأمـلاكِ نَـــفْـــســـاً وإنه
بــهــا في ســبـيل الـلـه يـوم الـوغَى سَـمْحُ
ويـا أيــهـا المـشـغـوف بـالـبـأس والـنـدى
ومـا زال مـشـغــوفـاً بـه الحـمـد والمـدح
وبـــحـــرك مـــورود الـــســـواحل مـــفـــعم
وعـبـدك[1] قـد أودى بـه الـظـمـأ الـبـرح

****

(١) في الأصل: وعهدك، ولا معنى لها هنا، وإنما هي على الأرجح كما أثبتنا، ويقصد الشاعر نفسه بقوله: إنه عبده.

(١٣١)

وله فيه رحمهما الله على لسان جارية:

[من البسيط]

من سبي سيبك مما أنبتتْ نِعمُكْ
من در بحرك مما عمه كرمُكْ
حتى أتيتك طِيباً طاب مرتعه
وسْط الرياض التي جادت لها ديمك
أو كوكباً من نجوم الحسن مطلعه
جو السماء التي من فوقها هممك
من ريقَتِي المسكُ بل رياه من أرجي
كأنما صافحتني بالضحى شيمك
والغصنُ يسرق من قدي تثنيَه
رقصاً وحاشى له ممن غذت نعمك
أقول للصبح- والدنيا تنير به -:
يا صبح من ير وجهي فهو مُتَّهِمك!
وكم دعوتُ وجنح الليل منسدل:
ياليل، شعريَ يُغشي الليل أم ظُلَمكُ؟!
ورُب برق خبا لما هتفت به:
هيهات من مبسمي يا برق مبتسمك!
بدائع تقتضي حقي لديك وقد
رأيتُ آمال أهل الأرض تقتسمك
لعل عطفك يا مولاي يأذن لي
في وضع خديَ حيث استوطأت قدمك

وتـــبـــلُـــوَ الـــســـر من قـــول يـــردده

إلـــيك قـــلـــبيَ لا يـــعـــيـــا بـه فَـــهَـــمُك

مـــا شـــيـدالـكـفـرُ حـصـنـاً من بلادهمُ

إلا لـــيـــخـــفِق في أبـــراجه عـــلـــمك

ولا تـــــذوق طـــــعم الأمن ذو حـــــذر

من الـــنـــوائب حـــتى ضـــمه حـــرمك

ولا تـــعـــذر من طـــالـــبت مـــهـــجـــته

ولا تـــــمـــــنـع إلا من حـــــمت ذممك

ولا تـــنـــسم من عـــاداك مـــنـــفـــسه

حـــتى تحلِّ بـــأقـــصى داره نـــقـــمك

****

(١٣٢)

وقال يمدح ابن باق رحمهما الله:

[من المتقارب]

تَسَمَّعْ لدعوةِ ناءٍ غريبِ
كثير الدعاء قليل المُجيبِ

يهيم إليك بهَمٍّ شُجاع
ويجبُن عنك بسَتر هَيوب

ويقتادُه منك صدقُ اليقين
فيرتابُ منه بظن كَذُوب

أيأذَنُ سمعك لي من بعيد
ولحظُك قد رابني من قريب؟

وكيف بأجشان قلب عزيز
فيسعِدُه لهو قلب طروب؟

فناداك من غمرات التناسي
وناجاك في ظلمات الخطوب

ببالغة للتراقي حدَتْها
إليك وَصاة القريب المجيب

بما خُطَّ للجار وابن السبيل
وأُوجِبَ للمستضام الغريب

وما قد حباك الرضا من مليك
بلاكَ بلاءَ الحسام الرَّسوب[1]

(١) السيف الرسوب: أي القاطع الذي يغيب في الضريبة.

فـــحلاَّك إكـــرامَه في الـــعـــيـــون

لـــتـــقـــدُم أعلامَـه في الحـــروب

وأذكى ســـراجَك وسْط الـــقـــصـــور

لـيُـعـلي عَـجـاجك خـلف الـدروب

فـأرعـيْـتَه صِـدق حُـر شـكـور

تـسـربلَ إخلاص عـبْـدٍ مُـنـيب[1]

وأبـلـيْـتَه نُـصح جـيْب[2] سـلـيم

وفي الـضَّـمـان بـنُـصح الجـيـوب

تـقـودُ إلـيهِ رجـاءَ الـبَـعـيـد

وتـتـلـو عـلـيه ثـنـاء الـقـريب

وتـلـقَى وجـوه الـمُـحـبـين عـنه

بـبـشـر المحب ووصْل الحَـبِـيب

وكم مـنـبَـرٍ لـلـعُلا قـد بـنـاه

له الـله من مُـعـظَـمـات الـصَّـليب

حـمَـيْتَ ذُراه بـأنف حَـمِيٍّ

ورحب ذَراه بـصـدر رحـيب

وضـاق بمن أسـمع الـضـيم عـنه

فـيَـا لِـخَـطِـيب صـريع الخُـطـوب

قـريبٌ إلى كل أُفق بـعـيـدٍ

بـعـيـد عـلى ذكـر مـولى قَـريب

وقـد أطـلـع الـشـرقُ والـغـربُ عـنه

كـواكبَ تـهـوي لـغـيـر الـغـروب

نجـومـاً أضـاءت بـفـصل الخـطـاب

له الـدهـرَ إلا مـكـان الخـطـيبِ

---

(١) هذه الكلمات مطموسة في الأصل لم تبق منها إلا حروف اعتمدنا عليها في إثبات ما وضعنا بين الحاصرتين.

(٢) في الأصل: حبيب.

وعــنــه تـــنـــكــبت قـــوس الـــنــضـــال

فَـــرِشْتَ لــــهـــا كل ســـــهم مـــصـــيب

فـــأوتـــرتــــهــــا لـــقـــلـــوب الـــعــداة

وأغــرقت[1] فـــيـــهـــا لـــرمي الـــغـــيــوب

فـــمـــا لك عن غـــرض كـــالــــصــــبـــاح

تجـــلـل أُفق الـــصَّـــبـــا والجـــنـــوب

يــــضـــاحك من روض فـــكـــري بـــذكـــري

أزاهـــيـــرَ نـــــور بـــــنـــــور مـــــشــــوب

فـــلـــــله إشـــــراقُ ذاك الـــــشـــبــــاب

تــــألـق في حـــــسن ذاك المـــــشـــــيب

فـــفـــاح تَـــضَــــوُّعُ ذا من ضـــيــــاعي

كـــــمـــــا لاح مـــــطــــلـع ذا من غـــــروبي

فــتـــلك نـــقـــائض ســــعــــيي وســــعـــدي

يــنـــادين: يـــا لـــلـــعـــجـــاب الـــعـــجـــيب!

وتـــلك بـــضـــائع نـــثـــري ونـــظـــمي

ضــــواربُ في الأرض، هل من ضـــــريب؟

ويـــا لــــلــــخــلائق هل من مـــــســـــاو؟

ويـــا لــــلـــدواوين هل من مـــجـــيب؟

ويـــا نـــشـــأتِي عـــبــــد شـــمس...[2]

ومن أعـــقـــبت هـــاشم من عـــقـــيب

ومـــا خــــطَّـه أثـــر عن أمـــيــــر

وســــــــطَّـــــــــــره أرب عـن أريـب

---

(١) يقال: أغرق النازع في القوس: أي استوفى مدها.

(٢) هكذا ورد الشطر، وواضح أنه بهذه الصورة مختل الوزن ناقص المعنى، ولعل صحته أن يكون: «ويا نشأتي [في ذرا] عبد شمس، أي في كنف دولة بني أمية.

فهل في الورى غيرُ سمع شهيد
يلبيه كل فؤاد لبيب
وغيرُ لسان صدوق البيان
يقر له كل زعم كذوب
بأن لم يفز قبلها مُلْكُ مَلْك
بقِدح كقدح مليكَيْ «تُجِيبِ»
فَأنجِبْ بمُورثه من مليك
وأسعِدْ بوارثه من نجيب
وأعجِبْ بأوفى مليك أضاعَ[1]
من الذكر والفخر أوفى نصيب!
لواءُ ثناءٍ كبرق الغمام[1]
يهل إليه لواء الحروب
وما قد كسا كل بر وبحر
بذكراهُ من كل حسن وطيب
حدائقَ من زهرات العقول
تفوح إلى ثمرات القلوب
تَغَنَّى العذارى بها في الخدور
وتُحدى المهارى بها في السهوب
وقد أينع الحَزن والسهل منها
بشِرب ذَنوب مَحا منْ ذُنوبي
بلاغُ حياة وأحجمتُ عنه
لعودِ الخِباء وللعَندليب
كما ابتَزَّ صَيْدَ العُقاب الذبابُ
وصادَ النعامَ حسيرُ الدبيب[2]

(١) كلمات مطموسة في الأصل لا تبدو منها إلا بعض الحروف.
(٢) أي صغير النمل وضعيفه.

وذُلِّـيَ أودعَ هــــــذا وهــــــذا
أظـــافــيـــرَ لـــيْثٍ وأنـــيـــابَ ذِيبِ
مــــظــــالمُ أظـــلـــمَ حق المحق
بـــهـن وأشـــرق ريب المـــريب
وأنت عــلــيــهــا شــهــيـد الــعــيــان
وحــكـمك فــيــهــا صــريح الــوجــوب
ووعـــــدك ألــــزمـــــني من ذَراكَ
وِصَـــال المحب ورعيَ الـــرقـــيب
فــحــين افــتــتــحتَ بــنــصــر عــزيــز
يُـــبـــشــــر عـــنك بـــفـــتح قــريب
تــرقــيت في هــضــبــة الــعــز عــني
وأهـــويت بي لمـــهـــيلٍ كـــثـــيب
ولـــفـــتك دوني غـــصـــونُ الـــنـــعـــيم
وأســـلـــمتُ ضـــاحيَ مـــرعًى جَـــديب
فُـــمُـــلِّـــيـــتَــهـــا جـــنـــةً لا يـــزالُ
يُـــمـــدُّ بـــهـــا كل عـــيشٍ خـــصـــيب
ولا بـــرحـــتـــهـــا طــــيـــورُ الـــســـرور
يمـــيـــدُ بـــهـــا كل غُـــصْن رطـــيب
وإن شـــاقـــني من صَـــبـــاهــــا نـــســـيمُ
يـــفـــرج عـــني بُـــروحَ الـــهَـــبــوب(١)
وأظـــمـــيتُ مـــنـــهـــا إلى رشف مـــا
يُـــمـــثل لي فـــيه ريقُ الحـــبـــيب
وكم سُـــمتُ أوراقَـــهـــا في الـــريـــاح
لأخـــصف فـــيـــهـــا(٢) لـــعـــار ســـلـــيب

(١) البروح: جمع برح وهو الشدة والشر، والهبوب (بفتح الهاء): هي الريح المثيرة للغبرة.
(٢) كذا في الأصل، ولعل الأصح: منها.

وأمسَحُها في مآقي جفون
دوامي القذى قَرِحات الغُروب
بما فَتَّ فيهن رميُ العداة
وما غض منهن ذُل الغريب
فإن رَمِدت فقليل لعين
يُقلبها شجو قلب كئيب
وإن قدحت بالحشا في الحشايا
فزَندا ضِرام لنار الكُروب
تُؤججها حسرات التناسي
وتنفُخها زفرات النحيب
وكُلاً وسعتُ بصبر جميل
وبعضاً كففتُ بدمع سكوب
لأوقِدَ منها مصابيحَ جَمر
تُنيرُ إليك بسرٍّ الغيوب
ولو غاب علمُك عن بحر ظِمء
وما غيضَ من شربِهِ في الشُّروب
لأغناكَ عن شُبهة الشك فيه
ذبولُ الجنى في ذُبول القضيب
وحسبِي لها منك حُرٌّ كريم
وفيٌّ الشهود أمين المغيب
وأرجى عليلٍ لبُرء السَّقام
عليلٌ تيقن يُمْنَ الطبيب
وحُسنُ الظنون لصدقِ اليقين
نسيبٌ ولا كالنسيب الحسيبِ

فـــإن تُـــنْهِ عـــني فـــأولى مـــجـــاب

دعـــا لـــلـــمـــكـــارم أهـــدى مـــجـــيب

وكـــنـــتَ بـــذلك أحـــظى مـــثـــاب

له من ثـــنـــائـيَ أوفى مُـــثـــيب

ومن يمـــنعِ الـــضـــيفَ رحب الـــفـــنـــاء

فـــقـــد قـــاده لـــلـــفـــضـــاء الـــرحـــيب

****

(١٣٣)

وله أيضاً في المؤتمن عبدالعزيز بن أبي عامر(*) رحمهم الله:

[من الوافر]

أَهِــــلِّي قـــد[1] أَنَى لك أن تُــــهِـــلِّي
إلى صــوب الــغــمــام المــســتــهِلِّ
فــمــدي طــرف نــاظــرة تــريــني[2]
تــمــكن مــغــرِسي فــيــه وأصــلي
ســـنـــا بـــرق تلألأ عن ذِمـــامي
وصــوْبُ حــيــاً تجــلى عن مــحــلي
ودونكِ مــبــرَكــاً في فيء ظل
يــريك بــأنه فــيــئي وظــلي
هــو الــظل الــذي قــارعتِ عــنه
حــصى الــرمــضــاء دامــيــةَ الأظل[3]
وهــذا مــوعــد الأمل المــنــادي
سُــراكِ سُــروره ألاَّ تــمــلي

(*) هو عبدالعزيز بن عبدالرحمن المعروف بشنجول بن المنصور بن أبي عامر، كان الموالي العامريون قد اتفقوا على أن يولوه بلنسية بعد أن اشتدت أطماع ملوك الطوائف في هذه المدينة، فدعوه إلى ولايتها وكان حينئذ في كنف منذر بن يحيى بسرقسطة، فأحكم له منذر التدبير وأخرجه سراً إلى بلنسية حيث تولى إمارتها، واعترف في أول ولايته بخلافة القاسم بن حمود وذلك في سنة ٤١٢ (١٠٢٢)، ولهذا خلع القاسم عليه لقب «المؤتمن ذي السابقتين»، وقد طالت إمارة عبدالعزيز هذا حتى توفي سنة ٤٥٢ (١٠٦٠). (انظر ابن عذاري: البيان المغرب ٣/١٦٤ – ١٦٥).

(١) في الأصل: فقد.

(٢) في الأصل: تبيني، على أنه من الممكن أن تكون: تبيني (بضم التاء) تمكن (بضم الكاف المشددة أي على صيغة المصدر) أي تتبيني.

(٣) الأظل: هو باطن منسم البعير.

ونـــور الـــفـــجـــر من إظلام لـــيل
أضـــاء نجـــومَه لكِ أن تَـــضـــلِّي
أوان يُـــفَـــتِّـــرُ الإمـــســـاءُ جـــهـــدي
فـأطــلبُ في سـنـا الإصـبـاح ذحـلي
ويـرمَـد في هـجـيـر الـقـيظ جـفـني
فـأجـعلُ من سـواد الـلـيل كُـحـلي
لـكـيـمـا تـعـلـمي في أي مـأوًى
من الـمُـلك الـرفـيع وضـعتُ رحـلي
ويـصـدُقَكِ الـعـيـانُ بـأي حـبل
من ابن الـعـامـريِّ وصـلت حـبـلي
وحـــســـبُكِ قـــوله أهلاً وســـهلاً
بمـــا جـــاوزتِ من حَـــزن وســـهل
فـــســـيـــحي وارتـــعي كلأ إلـــيه
عـلى ظَـلَع[1] الـكلالِ حـمـلتِ كَـلِّيّ
مـــدًى لكِ كـــان مـــنك مـــدى كـــريم
فـــكـــوني مـــنه في حِلٍّ وبِلِّ[2]
وقـــد قـــضتِ المـــكـــارمُ أن تـــعَـــزِّي
كـــمـــا قـــضت المـــكـــارهُ أن تَـــذِلِّي
فـــرعـــيـــاً في حـــمى مـــلك رعـــاني
فـــحل قـــيـــود تَـــرحـــالي وحِـــلِّي
مـــدى «عـــبـــدِالـــعـــزيـــزِ» وأيُّ عـــز
أنـــخـــت إلـــيـــه ذُلاً فـــوق ذُل

(١) في الأصل: طلع.
(٢) البل: المباح، ويقال: «هو لك حل وبل» أو هي إتباع لكلمة حل.

فـــعَـــوَّضَ مـــنكِ في مـــثـــواه بِـــري
وأذهل عـــنكِ في مـــثـــواه نُـــزلي

وعن مـــثـــنى زِمـــامكِ في يمـــيـــني
شـــبَـــا قـــلمٍ عـــلى الـــدنـــيـــا مُـــطِلِ

يُـــمِلُّ عـــلـــيه «مَـــؤَتَـــمنُ» المـــعـــالي
مـــســـاعِـــيَه فـــيـــســـتـــمـــلي ويُـــمـــلي

ويُـــســـمِع في صـــريـــر الخط مـــنه
خـــطـــابـــاً لا يُـــمَلُّ من الـــمُـــمِلِّ

لجَـــدِّكَ كـــان أولُ ســـعـــد جَـــدِّي
وأغـــدَقُ بـــارق في جـــو مَـــحـــلي

وأحـــنى مُـــوتِـــر بـــرضـــاه قـــوسي
وأحـــفى رائش بـــنـــداه نَـــبـــلي

كـــســـاني الـــعـــزَ لُـــبـــســـاً بـــعـــد لُـــبس
وســـقَّـــانِـــيه سَـــجْلاً بـــعـــدَ سَـــجْل

وصـــيَّـــر مـــا حـــمى حـــرمي حـــرامـــا[1]
عـــلى عـــدْوِ الـــزمـــان الـــمُـــسْـــتـــحِلِ

ووطَّـــأ في مـــكـــارمه مـــهـــادي
وأعـــلى في مـــراتـــبه مـــحـــلي

وكم حـــلَّى يـــدي من ذي عِـــنـــان
ودلَّ إلـــى يـــدي مـــن ذات دل

فـــحـــقـــاً مـــا تـــركت عـــلـــيه بـــعـــدي
ثـــنـــاءً أعْـــجـــز الـــمُـــثْـــنِـــين قـــبـــلي

(١) في الأصل: حرما، ولا يستقيم بها الوزن.

فـأمــطــرتُ الــورى رُطَــبــاً جــنــيــاً

ومــا سُــقــيت بــغــيــر نــداه نــخــلي

وســقَّــيتُ الــنــهى أرْيــاً مَــشــوراً

ومــا جــرَست سـوى نُـعـمـاه نـحـلي(١)

هــو المــلك الــذي لم يُــسبق مِــثْلاً

ســواكَ ولا لــنــظم عُلاك مِــثــلي

ويــبــخــسُـني الــزمــان ولــو وفى لي

بــحــظي لاشــتــكى جُــهــد المــقل

ولــو أني ســلــلت عــلــيه ســيــفــاً

تُــقــلــدُني لــبــاء بَــشِــسْع نــعــلي

وكم من شــاهــد عــدل عــلــيه

بــظــلــمي لــو قــضى قــاض بــعــدل

ولَــوْ سَمِ(٢) جــدُّك «المــنــصــورُ» أدعــو

إلــيه لم يَــسُــمــني سَــوْمَ مــطل

وأنتَ ورثْــتَــه طــفــلاً ولــكن

رجــحتَ عــلى الــرجــال بــحِــلم كــهل

بمــا ردَّاكَ من هــدي وبــر

ومــاحــلاَّك مـن قــول وفــعل

فَــغَضٌ من الــبــدور ســنــا هلال

وهــد من الــلــيــوث زئــيــر شِــبل

وأنــت أمــيــنُــه في كل ســعي

ســقى نَــهَلاً لــتُــثْــبِــعَه بــعَلِّ

---

(١) يقال: جرست النحل أي لحست أو أكلت ثمر الشجر للتعسيل. والمشور: اسم مفعول من شار العسل أي استخرجه واجتناه.

(٢) كذا، ولم نر وجهاً في تأويلها إلا أن تكون ترخيم ضرورة للفظ «سمع» مثل قول الشاعر «أو الفامكَّة من وُرْقِ الحمِى» أي الحمام. وهي ظاهرة لغوية نادرة قام بدراستها الدكتور ابراهيم أنيس في كتابة «في اللهجات العربية» ص ١٣٢ – ١٣٥.

مُحافِظُ عهده في[1] قَوْد جيش
بأعباء الوقائع مُستقِلِ
وتالي شأوِه في كل فخر
وثاني سَعْيه في كلِّ فضل
وفيض يمينه والحمدُ يغلو
ونورُ جبينه والحربُ تغلي
بكل أغرَّ فوق أغر يَصْلى
جحيمَ الحرب مُقتحماً ويُصلي
يلوث الدِّرْعَ منه بليث بأس
يصول على العدى بأصمَّ صلِّ
وكُلِّ عُقاب شاهقةٍ تُجَلِّي
أُناسِيَّ الحُتوفِ لما تُجَلي[2]
بَرِيُّ السيف من دَهَش وجُبن
وحُرُّ الصدر من غدر وغل
وما يُثْنَى السنان بغير قصف
ولا حد الحسام بغير فَل
جلوتَ لهم معالِمَ ذكَّرَتهم
معالم جدِّكَ الملك الأجلِّ
سلكتَ سبيلَه هدْياً بهدي
وقُمت مقامه مِثْلاً بمثل
وأخلصت الصلاة إلى المصلى
فبُورك في المصلى والمُصلي
وقد خفَقَت عليك بنود عز
علت والله أعلاها ويُعلي

---

(١) إضافة يقتضيها الوزن والمعنى.

(٢) تجلى الأولى: تظهر وتبين وتجلى الثانية: نظرت (العقاب) إلى الصيد.

كـمـا خـفـقت عـلـيَّ قـلـوبُ غـيـد
أمَـــرَّ لـــهن دُوني وَهْـــو مُـــحْلِ
بمـــا أثْـــبَتَّ فـــيه من يـــقـــيـــني
ومـــا حـــقَّـــقتَ فـــيه من لَـــعَـــلِّي
ومـــا راعـــيت فـــيه من ذمـــامي
ومـــا أدنـــيت فـــيه من مَـــحَـــلي
فلا زِلْتَ المـــفـــدى والمـــرجى
نـــداه لـــلـــغـــريب ولـــلْـــمُـــقِل[1]
ونـــوراً في الـــظلام لمـــســـتـــنـــيـــر
وظلا في الـــهـــجـــيـــر لمـــســـتـــظل

****

(١) في الأصل: وللمقيل.

(١٣٤)

وله في الموفق مجاهد(*) رحمه الله سنة تسع عشرة وأربعمائة:

[من الطويل]

إلى أيِّ ذكرٍ غيرِ ذكرك أرتاحُ
ومن أي بحرٍ بعد بحرك أمتاحُ

إليكَ انتهى الرِّيُّ الذي بك ينتهي
ولاح ليَ الرأيُ الذي بك يلتاح

وفي مائك الإغداقُ والصفوُ والرِّوَى
وفي ظلك الريحانُ والرَّوْحُ والرَّاحُ

وكلٌّ بأثمار الحياة مُهَدَّل
وبالعطف مياس وبالعُرف مياح(١)

فأغدقَ للظمآنِ مَحْياً ومشربٌ
وأفصح بالضاحي(٢) غصون وأدواح

تُغني طيور الأمن فيها كأنَّما
بعَلياك تشدو أو بذكركَ ترتاح

(*) أبو الجيش مجاهد العامري الملقب بالموفق، كان أحد القواد الصقالبة الذين ارتفع شأنهم في أيام المنصور بن أبي عامر، إذ كان والياً له على مدينة دانية **Denia**، ولما اشتعلت نار الفتنة استقل بعمله في سنة ٤٠٠ (١٠١٠) وفي سنة ٤٠٥ (١٠١٤) استولى على الجزائر الشرقية (جزر البليار: ميورقة ومنورقة ويابسة) وفي السنة التالية غزا جزيرة سردانية ولو أنه لم ينجح في الاستيلاء عليها، وكان مجاهد من أعظم ملوك الطوائف وأكثرهم عناية بالعلم والأدب، وفي كنفه عاش عدد من كبار علماء الأندلس في هذه الفترة نذكر منهم أبا عمرو الداني صاحب الكتاب المشهور في القراءات، والمحدث الكبير ابن عبد البر، وابن سيده اللغوي صاحب كتابي المخصص والمحكم، وصاعداً البغدادي وكثيرين غيرهم، وكانت وفاة مجاهد في سنة ٤٣٦ (١٠٤٤ – ١٠٤٥). (انظر الدكتور أحمد مختار العبادي: الصقالبة في إسبانيا ص ٢١ – ٢٦).

(١) أي جواد كثير العطاء.

(٢) الضاحي: هو الذي أصابته الشمس.

فـألحـانُـهـا في سـمع من أنت حـزبُه
أغـان وفي أسـمـاع شـانـيك أنـواح
وكم قُـدتَ للأعـداء من حُـزن لـيـلـة
ضُـحـاهـا لمن والاك غُـنم وأفـراحُ
سـموتَ لـهـا بـاسم وفـعل كلاهُـمـا
بـسـيـفك في الـهـيـجـاء أَزْهَـرُ وضـاح
جـهـادٌ وفت آيـاتُ فـعـلك بـاسـمه
كـمـا شَـرَحَ المـعـنى بـيـانٌ وإيـضـاح
وكـالجـيش إذ أعْـلـقـتَه مـنك نـسـبـةً[١]
بـعـزتـهـا تـعـلـو الجـيـوش وتجـتـاح
أَبُـوَّةُ آبـاءٍ لأبـنَـاءِ مُـلـكه
مَـشـابِهُ يـحـدوهُنَّ صـدق وإفـصـاح
فـمـا ظـلـمـوهـا قـائـمـين بـشِـبـهـهـا
إذا غـوَّروا تحت الـسَّـنَـوَّرِ أو لاحـوا
سـوابغُ لم تُـخـلِل بـصِـبْغ جـسـومـهم
إذا مـا غـدوا في لُـبس نُـعـمـاك أو راحـوا
ولا أَسْـهَـكَـتْـهُمْ[٢] في سـبـيـلك لِـبْـسـةٌ
بـإسـهـاكـهـا طـابُـوا ومن ريـحـهـا فـاحـوا
وكم من فـتـى أعْـدَيْـتَه مـنك شـيـمـةً
يـشم بـهـا ريح الـعُـداة فـيـرتـاح
ويُـزجي من الخَـطِّيِّ أشـطـانَ مـاتِحٍ
إلى قُـلُبٍ وَسْط الـقـلـوب فـيَـمْـتَـاحُ
وبَـدْرٍ إذا مـاغُمَّ[٣] في رَهَـجِ الـوغى
تجـلى بـه قَـرن من الـشـمس لـمَّـاحُ

(١) يشير ابن دراج هنا إلى كنية الموفق مجاهد العامري: أبي الجيش.
(٢) الإسهاك: مشتق من السهك (محركة) وهو الريح الكريهة من عرق ونحوه.
(٣) غم البدر: أي استتر أو حال الغيم دون رؤيته.

وقَـرْمٍ لـشَـوْل الحق إن حـال وَسْـقُـهـا
تجـلـلـهـا مـنه ضِـراب وإلـقـاح[1]
جـعـلت عـلـيه الـبـر والـبـحـر إسـوة
فـفي الـبـر طـيـار وفي الـبـحـر سـبـاح
وأقـبـسـته من نـور هـديك فـاهـتـدى
إلـى حـيث لا يُـهـدى شـراع وملاح
بـفُـلك كـأفلاك الـسـمـاء نجـومُـهـا
كـمي ونـبَّـال وشـاك ورمَّـاح
وغُـر إلـى الـغـايـات هـيمٌ نـوازع
تـهـيم بـهـا في لجـة الـبـحـر أشـبـاح
قـرعت بـهـا أمـواج بـحـر تـركـته
وأمـواجُـه تحت الـكلاكل أطلاح
مـفـاتـيـحُ أقـفـالِ الـفـتـوح الـتـي نـأت
وأنت بـهـا في طـاعـة الـلـه فـتَّـاح
وصـابـحَـةٍ لـلـمـسـلـمـين بـغـارة
غـنـائِـمُـهُـم فـيـهـا تـمـور وتـنـسـاح
حـكـمتَ بـرد الحق عـنـهـا فـأسـمَـحَت
ولـولا ظُـبـاك الـحـمـرُ مـا كـان إسـمـاح
غـداةَ طـمـست الـغَيَّ مـنـهـم بـوقـعـة
ومـا قـدْرُ مـصـبـاح إذا لاح إصـبـاح؟!
مـآثـر لم يـعْـطَلْ بـهـا قـرن نـاطح
وكـيف وقَـرنُ الحق عـنـهن نـطـاح
قـدِ اكـتُـتِـبَتْ في الـلـوح فـخـراً مـؤيَّـداً[2]
صـدورُ الـدنـا مـنـهـا سـطـور وألـواح

(١) الشول: الإبل التي تشول بذنبها أي ترفعه طلباً للقاح، والوسق: هو الحمل والضراب: اللقاح.
(٢) يحتمل أن تكون أيضاً «مؤبداً».

وآمـالُـنـا فـيـهـا بـضـائعُ مـتـجـر
سـجـايـاك أمـوال لـهن وأربـاح
مـسـاعيَ أبـقـين الـدهـور كـأنـهـا
جـسـوم لـهـا مـنه نـفـوس وأرواح
مـحـاسنَ تـتـلـوهـا الـلـيـالي كـأنـهـا
عـلـوم إلـيـهـا تـسـتـهل وتـرتـاح
فـلـو أُعـطِيتْ غـيـدُ[1] الـكـواعب سُـولَـهـا
لـصـيغ لـهـا مـنـهـا عـقـود وأوضـاح[2]
وبـأسٌ لـو اسـتـعـطى الـكـمـاةُ فضـولَه
لَـقُـدَّ لـهم مـنه سـيـوف وأرمـاح
إلـيـهـا حـدتـني حـادثـات كـأنـهـا
بـوارح يـحـدوهن بـرح وأبـراح[3]
عـلـى غَـوْلِ بـحـر من هـمـومٍ عُـبـابُه
بـرحـلـي إلى غَـوْلِ المـتـالف طـوَّاح
إذا رام تـغـريـقي فَـلُجٌّ وغـمـرة
وإن مُـدَّ في ظِـمـئي فـآل وضـحـضـاح
وحـسـبيَ مـنه في الـهـواجـر والـسرى
جـنـاح له من حـسن ظـني وإنجـاح
وشـأوُ مـدًى في مـورد الـنـجح شـارع
وزنـد هـدى في فـحـمـة الـلـيل قـدَّاح
إذا مـد إظلامُ الأسى ظُـلَـم الـدجى
تـمَـثل لي من نـور وجـهك مـصـبـاح
وإن أبـهـمت أقـفـالَـهـا عِـنّـيَ الـفلا
تـخـيل لي من بِـشْـرِ بِـرِّكَ مـفـتـاح

---

(١) في الأصل: عبد، ولا معنى لها هنا، ولعل الصواب ما أثبتنا.
(٢) جمع وضح: بالتحريك): وهو الخلخال.
(٣) ربما كانت «وأتراح» أي أحزان.

فـمـا صـدني عن مُـلـتَقَى الـغِيل ضـيـغم
ولا راعــني في مــورد المــاء تــمــســاح
ولا بَــرحَــتْــني يــا «مُــوفَّقُ» نــشــوة
سـجـايــاك لي فِـيــهـا كـئـوس وأقـداح
فـكل فـؤاد مُــخــلِص فــيك مُــخــلص
وكل لـــســـان صـــادقٍ لك مـــدَّاح

****

(١٣٥)

وله في عبدالملك المظفر بن أبي عامر رحمهم الله تعالى:

[من الطويل]

أهــنــيك يــا عــيــد الــرغــائب عــيــدا
تــلــقــاك بــاسم صــادق لــتــعــودا
كــنُــعــمــاكَ فــيــنــا فــاتحــاً ومُــتــمــمــاً
وجُــهــدِكَ فــيــنــا مــبــدئــاً ومــعــيــدا
فــأعــطــاكَ بــالــعــهــد الــكــريم مــواثــقــاً
وبــالــنــصــر في طــول الــبــقــاء عــهــودا
وقــد ملأ الأيــام مــنك مــحــاســنــاً
وآفــاقــهــا الــعُــلــيــا إلــيك ســعــودا
وحلاَّكَ عِــقــدَ المــكــرمــات مُــنــظــمــاً
وألــبَــسْــتَه ثــوب الــســرور جــديــدا
وقــد أشــرقت مــنك المــصــلى بــغُــرة
يــظل لــهــا وجه الــصــبــاح حُــســودا
أضــاءت بــنــور الحق والــعــدل والــنــهى
فــجــاءتك أحــرار الــرجــال عــبــيــدا
ســجــدت لــرب الــعــرش ديــنــاً وطــاعــة
فــخــرَّت إلــيك الــنــائــبــات سُــجــودا
ومــد إلــيك الــنــاظــرون نــواظــراً
أقــامت بــإخلاص الــقــلــوب شــهــودا
فــملأَّتــهــا هــديــاً وبــراً وسَــوْدداً
وبــأســاً عــلى أعــدائــهن وجــودا

وأعلام عـــز أحــــدقت بمــــكـــارم
فــواتخ[1] عِـقــبــان حــمــلن أســودا
كــأن نــدى يمــنــاك ممــا تجــودهــا
كـسـاهـا من الـروض الـنـضـيـد بـرودا
وقـد طـلـع الـديـبـاج والـوشي فـوقـهـا
حـدائق زهـر في الـغـصـون نـضـيـدا
وكم لــبــست مــنه عــداك حــدادهــا
إذا لـبـسـوا فـوق الـسـروج حـديـدا
وكم ملأوا الأرض الـفـضـاء حــوافـراً
وجــوَّ الـسـمـاء قَـسْـطلاً وبـنــودا
وبـيـضـاً ردّدن الـلـيل أبـيض مـشـرقـاً
عــلــيــنــا وأيـام المـعـانِـد سـودا
وزرقــاً من الخــطي أوقــدهــا الــوغى
فـأضـحت لـهـا غـلـب الـرقـاب وقـودا
مــســاع رعـــين المــلك حـــتى تلألأت
قلائـــد في لــــبـــاته وعــــقــــودا
فـلـو لم تـشـيـعك الجـنـود إلى الـعدى
لأضـحى لك الـنـصـر الـعـزيـز جـنـودا
فلا زلت للإسلام سـيـفـاً مـحـامـيـاً
وصـنـوُك ركـنـاً لـلـثـغـور شـديـدا[2]
تـنـــادمه كـأس الـوفـاء فـإن غـدا
بـعـيـداً فـمـا مـثـواه مـنك بـعـيـدا
فمُـلِّـيـتَـهـا نـصـحـاً يـعـود بـغـبـطـة
وأُلْـهِـمْـتَـهـا حـمـداً يـقـود مـزيـدا

****

---

(١) في الأصل: «فواتح»، ولعل الصحيح ما جعلنا، والفواتخ من العقبان: ما كانت لينة الجناح.
(٢) لعله يشير بقوله «صنوك» إلى أخيه عبدالرحمن بن المنصور.

(١٣٦)

وله أيضاً في عضهم يعزيه في ابن له رحمهم الله:

[من الطويل]

فداؤُك مَن[1] لو كان في وُسعه الفدا
لَلاقى الأسى من دون نفسك والردى

فلم تُضح من صرف الزمان مُروعاً
ولا بتَّ من ليل المنون مُسهدا

ولا راع منك الصبحُ سرباً مُسوماً
ولا هز عنك الليل مثوى مُمهدا

ولم تجد الشكوى لعلياكَ مُرتقى
ولا النائباتُ في سَمائك مَصعدا

ولا الحُزن في روضات عِزِّك مرتعاً
ولا الهم في أرجاء بحرك مورِدا

ولا ماءُ دمع في جفونك مَسلكاً
ولا نارُ وجد في ضلوعك موقِدا

وأصبحَ جَدِّي حين أفديك طائعاً
بنفسيَ أحظى بالوفاء وأسعدا

وماليَ لا أفدي المكارم والعلا
وناهج سُبل الفضل والجود والندى

ولكن أرى مِنْ سَلِّ رأيك للنهى
وسعيك للحسنى وهديك للهدى

(١) زيادة يقتضيها الوزن والمعنى.

لـقـاءك مـا لُـقِّـيتَ إلا تـصـبـراً
وحـمـلك مـا حُـمِّـلت إلا تجـلـدا
مـرزأ أفلاذِ الـفـؤاد مـصـائـبـاً
تـوالت بـهـا الأيـام مـثـنى ومـوحـدا
فـلم تَـبْدَ[1] إلا كـنت بـالـصـبـر باديـاً
ولا عُـدن إلا كـنت بـالـعَـوْد أحـمـدا
جـديـراً وقـد أشـجـاك فـقْدُ «مـحـمـد»
بـسـلـوة ذكـراك الـنـبي مـحـمـدا[2]
لـتَـقْـتَـضِيَ الأجـرَ الجـزيل مـضـاعـفـاً
وتـشـتـمل الـصـبـر الجـمـيل ممـدا
بـأعـلى من الـنـجم الـذي غـار مُـقـتـنى
وأزكى من الـغـصـن الـذي....[3]
هـلالاً يـسـامي فـيك مـجـرًى ومـطـلـعـاً
وفـرعـاً يـبـاري مـنك «أصلاً ومـحـتـِدا»
تـتم بـه الـنـعـمى ويُـسـلى به الأسى
وتَـبـأى بـه الـدنـيـا ويَـشْجى به الـعِدى

****

(١) أي تبدأ.
(٢) هذا الشطر مطموس في الأصل، وما بين الحاصرتين قراءة نقترحها معتمدين على ما بقي من الحروف، ولعلنا لم نبعد فيه عن الصواب، ولعله يعني بذلك أن يأتسي برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما توفي ابنه إبراهيم.
(٣) بقية هذا الشطر مطموسة في الأصل وربما كانت «جف منتدى» أو شيئاً على وزنها وبمعناها.

(١٣٧)

وله أيضاً في المظفر يحيى بن منذر رحمهم الله تعالى:

[من الطويل]

إذا سُقيتْ أرض فقد بُشرت أرضُ
وعند عموم الكل ينتظِرُ البعضُ

وقد ذبلت في روض جُودك زهرة
ثناؤك منها في الورى يانع غض

وأظلم في عُليا سمائك كوكب
يسامي بذكراك الظلام فيبيَضُّ

وقد بسطت للجند منك شفاءها
يد شفني منها التأخر والقبض

وأجناد شكري لم تفتك بعرضها
ولا فاتها في الأرض طول ولا عرض

****

(١٣٨)

وله رحمه الله تعالى على «رُبَّ ركب قد أناخوا حولنا»:

[من الرمل]

رُبَّ ظبي خَنِثٍ ألحاظُهُ
كعوالي «منذرٍ» يوم النِّزالِ[1]
أترع الكأسَ وحيَّاني بها
فأخذتُ النجمَ من كف الهلالِ
فكأني واجد في شربها
لذة «المنصور» في بذل النوال

****

(١) أورد ابن سعيد المغربي هذا البيت مع اختلاف يسير في روايته فقد جاء في الشطر الأول منه «فتكت» بدلاً من «خنث». (المغرب في حلى المغرب ٢/٤٣٥)، وأما القطعة التي عارضها ابن دراج فأولها:

رب ركب قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال

وهي لعدي بن زيد العبادي الشاعر الجاهلي أنشدها النعمان بن المنذر الأكبر وقد خرج يتنزه بظاهر الحيرة (أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ٢/٩٥، ط. دار الكتب، ورواية الأغاني:.... قد أناخوا عندنا).

(١٣٩)

وله أيضاً لمنذر بن يحيى رحمهم الله تعالى:

[من الوافر]

بـــســـعـــدِكَ لا بـــسَـــعـــد أو سُـــعـــادِ
تـــــنـــــقل كل هم عن فـــــؤادي
قـعـدتُ عن الـصِّـبـا[1] وظـلـلـت أدعـو
بـأن تُـعـطى الـظـهـورَ عـلى الأعـادي
وذلك حــــين أبـــصـــرتُ الـــعـــوالي
تُـــمـــيل إلـــيك أفـــئـــدةَ الـــعـــبـــاد
عـــلـــمتُ بـــأنك الـــمَـــلِكُ الـــذي لا
تـــدين لـــغـــيـــره كل الـــبلاد
عـــجـــبتُ لمـــارق يـــعـــصـــيك جـــهلاً
وقـــد ســـبـــقت إلـــيه لك الأيـــادي
فـــسَـــلْهُ مُـــخـــزيـــاً هل كـــان يـــدري
بـــأن الخـــزي في طـــلب الـــعـــنـــاد؟
ألـم يك لـــو أنـــاب إلـــيك طـــوعـــاً
يـــنـــال من الـــعلا فـــوق المـــراد؟
ومـن لـم يـــــدر أن الـــــهـــــامَ زرع
لِـيَـنـظُـرْ فـعل سـيـفك في الأعـادي
..............................[2] عن الـــيـــالي
حـــســـامك لاســـتـــحـــالت بـــالـــفـــســـاد

---

(١) الصبا هنا الشوق والميل.

(٢) أول هذا الشطر مطموس تماماً، وقد يكون «فإنك لو كففت».

فـــــــــــــلا ....[1]

فـــإن الـــدهـــر عـــنـــدك في قـــيـــاد

ومن يـــكن الـــزمـــان لـــديه عـــبـــداً

يـــنل مـــا شـــاء من غـــيـــر ارتـــيـــاد

فـــنـــفـــسُك[2] بـــالمـــكـــارم قـــد تحـــلـت

ورأيك قـــــد تحـــــلـى بـــــالـــــســـــداد

وســـيــفك[2] حـــيـــثـــمـــا وجـــهت مـــاض

ونـــورك حـــيـــثـــمـــا يمـــمت هـــاد

ونجـــمك طـــالع بـــالـــســـعـــد يـــجـــري

فـــســـعـــدك كل يـــوم في ازديـــاد

ونُـــصـــحك في الـــديـــانـــة لـــيس يـــخـــفى

ومـــا تـــســـعى إلى غـــيـــر المـــعـــاد

ومـــــا صُـــــوِّرتَ إلا من حـــــديـــــد

ولا اســـتُـــعْـــمِـــلت إلا لـــلـــجلاد

ومـــا تـــرضى بـــغـــيـــر الـــدرع لـــبـــســاً

ولا فَـــرشـــاً تحب ســـوى الجـــيـــاد

أرى الأقـــدار مـــا أمـــضـــيت تُـــمـــضي

أأنت تـــســـوقـــهـــا أم أنتَ حـــاد؟

أرى جـــــــدواك لـلإمـلاق ضـــــــداً

وفي يـــدك المـــنـــونُ لمن تـــعـــادي

أظـــنك أنت مـــفـــتـــاحَ المـــنـــايـــا

وقـــد مُـــلِّـــكتَ أرزاق الـــعـــبـــاد

أتت كـــتب الأوائـل عـــنك تُـــثـــني

تـــبـــشـــرنـــا وتـــنـــذر قـــوم عـــاد

---

(١) لم نستطع قراءة هذا الشطر، إذ إن الكتابة فيه مطموسة تماماً، على أن بقايا حروف فيه تسمح باحتمال كونه «فلا يصعب عليك قياد حر».

(٢) غير واضحة في الأصل.

بـــأنك[1] ســـوف تُـــهـــلك كل عـــاد
وتُـــنـــصَـــر بـــالملائـــكـــة الـــشـــداد
ولـــيـــست «فَـــعْـــلـــة»[2] تـــشـــنـــاك لـــكن
تَـــمـــلَّك أهـــلَـــهـــا ضِـــدٌّ المـــعـــاد
ولـــو وجـــدوا الـــســـبـــيل إلـــيك يـــومـــاً
لمـــا خـــفـــيت لـــهم طـــرق الـــرشـــاد
أشِـــرْ نـــحـــو الـــشـــآم وأرض مـــصـــرٍ
تجـــئك مـــجـــيـــبـــة لك بـــالـــقـــيـــاد
وهل مـــلِكٌ يـــقـــاس إلـــى «ابن يـــحـــي»
لـــدى الـــهـــيـــجـــاء أو في كل نـــاد؟
مـــلـــيك إن حـــلـــلـــت به مُـــقِـــلاً
نـــزلـت عـــلـــى أجلَّ من الـــتـــلاد
هل «المـــنـــصـــور» لـلأيـــام إلا
يـــد قِـــبَلَ الـــبَـــريـــةِ بل أيـــاد
يـــحِلُّ قـــصـــورُ[3] مـــثـــلك في مـــثـــالي
حـــلـــول المـــاء في ظـــمـــآنَ صـــاد
لـــئن غـــلـــبت مـــنـــاقـــبـــكم لـــســـاني
فـــإن الـــعـــذرَ من بـــعض الـــسِّـــداد

****

(١) في الأصل: فإنك.
(٢) راجع تعليقنا على هذه الكلمة التي وردت من قبل في شعر ابن دراج (ص ١٩٦ – ١٩٧) حيث ذكرنا احتمال كونها اسم قلعة أو بلد.
(٣) كذا ولعلها «قصود».

(١٤٠)

وقال يمدح ابن باق رحمهما الله تعالى:

[من الكامل]

أقْدَمْتَ دون معالم الإسلامِ
فاقْدَمْ بخير تحية وسلام

مُتَقلداً سيف الغَناء وفوقه
حَليُ البهاء وحُلة الإعظام

سام إلى مرآك أبصارُ الورى
قلقاً إليك مُبارَك الإكرام

فوزاً بأسنى القسم من ملك حوى
من صدق سعيك أجزل الأقسام[1]

فجزاك من كرم القدوم وفاءَ ما
أبليته من صادق الإقدام[1]

بمواقفٍ لك في الوغى سُمْن العِدى
طيشَ العقول وزَلة الأقدام

ومناقبٍ لولا دُنُوُّكَ للندى
لأرْتكَ في جو السماء السامي[1]

رُتباً رفعت ثناءها وسناءها
بشبا الرماح وألسن الأقلام

وحمائلٍ في طيٍّ ما حَمَّلْتَها
ذُلُّ الضلال وعزة الإسلام

---

(١) كلمات غير واضحة تماماً في الأصل.

لله منه صارم لك كلما
نَجَمَ الشقاقُ دنا له بصِرام

نكصت سيوف الغي عنه وانحنت
فَهِيَ الأهلة وَهْوَ بدرُ تمام

تمت له وبه الرغائب وانجلى
منهن ليل الظلم والإظلام

سار إلى الأعداء في سَنن الدجى
حتى يُقيل على مقيل الهام

فبه حللت بلاد حِلك وانثنى
حَرَماً على الغاوين كل حرام

وحكمت بالحق المبين لأهله
عدلاً من الأقدار والأحكام

أرضاً أنرت الحق في أعلامها
بخوافق الرايات والأعلام

ومطرت عاليها صواعقَ بارق
أغدقتها بسوابغ الإنعام

سقياً لها بحيا الحياة وكاشفاً
عنها غرام الغُرم والإرغام

غادرتَها للغدر دارَ إزالة
وأقمْتَها للأمن دار مُقام

ونظمت دُر عقودها وعهودها
في سلك هذا المُلْكِ أيَّ نظام

وأقمت حد الله فيمن ضامها
ضرباً بحد الصارم الصمصام

باغ أصاب ببغيه وبنَكثه
نفساً عليها يتَّقي ويُحامي

ولــئن خــتــمتَ عــلــيه سجــنَك قــاهــراً
فــغــدا وأمــسى مــنك رهْن حِــمــام
في بــطــن أم بــرة لــقِــحَت بــه
يــوم الــوغى من ذابل وحــســام
فــلــقــد تــمــخض عــنه مــنك بــروعــة
تُــوفي فــتُــســقــطُه لــغــيــر تــمــام
ولــقــد نــدبت لحــربه في بــطــنــهــا
قــرعَ الــظــنــون ومُــرجِفَ الأوهــام
ولــو اســتــجــزت له المــنــام لــرده
كي لا يــرى عــيــنــيك في الأحلام
ولــقــد ملأت عــلــيه أجــواز الملا
بــروابض الآســاد في الآجــام
مــتــربــصــين جــنى ثــمــار قــد أنى
مــنــهــا إلــيك تــفــتح الأكــمــام
فــابْــشــرْ بــهــا من نــعــمــة مــشــكورة
في دولــة مــوصــولــة بــدوام
وافــخَــرْ فــأنت لــكل مــجــد مــفــخــر
واســلــم فــأنت ذخــيــرة الإسلام
ســعــيــاً به أعــدمتَ مــثــلَك في الــورى
فــحــويت مــفــخــرَ ذلك الإعــدام
ولــئن رعــيت الــدين والــدنــيــا فــمــا
أنــســتك رعي وســائــلي وذمــامي
يــوم اطّــلــعتَ مــشــاربي فــرأيت في
عُــقــر الحــيــاض الــوُفْــرِ خِــزيَ مَــقــامي
وأنِــسْتَ من نــظــري تــذللَ مــوقــفي
وَوَجِــسْتَ في الأحــشــاء حَــرَّ أُوامي

ورأيتَ في أنـــيـــاب عـــاديـــة الـــعـــدى
لحـــمي وظُـــفـــرُ الـــظـــلـم مـــنِّيَ دامي
وعـــلـــمتَ إن أبـــطـــأتَ عـــني أنـــني
ممـــــا أُلاقي لا أَشُـــــــدُّ حـــــــزامي
فـسـبـقتَ خـشـيـة أن تحـين مـنـيـتي
وبـــدرت خـــيـــفـــة أن يُـــحَمَّ حِـمــامي
ونـــكِـــرْتَ من جَـــوْر الحـــوادث أنـــني
ظـــام وبـــحـــرُ الجـــود فـــوقِيَ طـــام
وحَـــرِجْتَ مـــني أن أهـــيم بـــغُـــلـــتي
سُـقْـمـاً وفي سُـقـيـاك بُـرء سَـقـامي
وبـصُـرتَ من خَـلـل الـتـجـمل خَـلـتي
وفـــهـــمت من صـــمت الحـــيـــاء كلامي
فـفـتـقت أنـهـارَ الجَـدا لحـدائـقي
ونـصـبت أغـراض المـنى لـسـهـامي
وفـتـحت نـحـو المـاء ضِـيقَ مـواردي
وفـسـحت في المـرعى لـرعي سـوامي
وأنِـفْتَ لـلآداب أن يـسـطـو بـهـا
جـــهل الـــزمـــان وعـــثـــرة الأيـــام
رَحِـمـاً من الـعـلـم اقـتـضى ليَ رحـمـة
من واصل الآمـــــــال والأرحـــــــام
فلأهـتـفنَّ بـحـمـدهـا وثـنـائـهـا
وجـــزائـــهـــا في مُـــعـــرِق وشـــآمي
ولأرجُـوَنْ بـتـمـامـهـا من مُـنـعم
لا يـرتـضي الـنـعـمى بـغـيـر تـمـام

****

(١٤١)

وله في يحيى بن منذر رحمهم الله تعالى:

[من المتقارب]

أيـــاديكَ ردت يـــدي في يـــديـــكـــا
وبـــرك قـــاد عـــنـــاني إلـــيـــكـــا
كـــقـــودك لـــلـــحـــرب خـــيلاً تـــهـــز
عـــوالـــيَـــهـــا من كلا جـــانـــبـــيـــكـــا
وقـــد أُبـــصِـــرَ الـــنـــجحُ في نـــاظـــريـــكـــا
وســـاعَـــدَهُ الـــســـعـــد من ســـاعـــديـــكـــا
وهـــــذا إيـــــابيَ مـن يـــــوم زُمَّتْ
ركـــابي من غـــرتي كـــوكـــبـــيـــكـــا
إلى كل بـــــر وبـــــحـــــر أنـــــارت
جـــوانـــبـــهـــا من ثـــنـــائي عـــلـــيـــكـــا
أشـــيمُ نجـــومـــاً هـــدتـــني إلـــيك
تـــلـــوح مـــطـــالـــعُـــهـــا من يـــديـــكـــا
يـــــدور بـــــهـــــا فـــــلـــك من علاك
فـــمِن مـــشـــرقـــيك إلى مـــغـــربـــيـــكـــا
لـــيـــاليَ أبـــقـــيـــتَـــهـــا للأنـــام
وذكـــراكَ فـــيـــهـــا حَـــمـــامـــاً وأيـــكـــا
فلا بـــرحت نِـــعَـــمُ الـــلـــه تـــتـــرى
لـــديَّ مُـــفَـــجَّـــرَة من يـــديـــكـــا

****

(١٤٢)

وله في منذر رحمهما الله تعالى[1]:

[من البسيط]

وعـداً عـلى الـله حـقـاً نـصـرُ من نَـصَـرَهْ
وحُـكمُ سـيـفك في هـامـات من كَـفَـرَهْ

رأس مـطل عـلى بـابيْ «طـلـيـطـلـة»
يُـومي إلى الـكفـر: هـذا مـوعـد الـكَفـره!

وهـامـة قد قضت نـحب الحِـمـام ضـحى
وهـامـة فـوق صَـفـحَيْ «شَنْجُ» مُـنـتـظـرِه

أوفى عــلى مــوعــد مــنه تُــراقــبه
تـدعـو: هَـلُمَّ إلى مـسـتـودَعِ الـغَـدَره

ونــاخــراً أمسِ في الـبـيـداء من عِـظَمٍ
والـيـومَ أصـبح فـيـهـا أعـظُـمـاً نـخِـرَه

كم من سَــمِـيٍّ له فــيــهــا وذي نــسب
لم يــدَّخــر نــابـهَ عــنه ولا ظُــفُــرَه[2]

---

(١) هذه القصيدة – كما نستنتج من سياقها – في تهنئة منذر بن يحيى بإيقاعه باثنين من كبار قواد «ابن شنج»، ويعني به «شانجه الأكبر **Sancho El Mayor**» ملك نبارة **Navarra**، وهي المملكة النصرانية المتاخمة لمملكة التجيبيين في سرقسطة، ويبدو أن جيوش منذر بن يحيى استطاعت قتل هذين القائدين، وأن منذراً أمر بنصب رأسيهما على «باب طليطلة» من أبواب مدينة سرقسطة جرياً على العادة المتبعة في العصور الوسطى، وقد صرح ابن دراج في آخر القصيدة باسم واحد من هذين القائدين، وهو «لبس» (بضم اللام وتشديد الباء المكسورة أو المضمومة)، وهو اسم كان وما زال شائعاً في إسبانيا النصرانية وكان يكتب بصور مختلفة: **Lope, L p, Lo-pez, Lupo** كذلك كان يستخدمه الأندلسيون المسلمون بهذه الصورة «لب». ويظهر من شعر ابن دراج أن هذا القائد النصراني كان من أكثر قواد «شانجه» اتصالاً به وقرباً إليه.

(٢) في هذا البيت دلالة على أن ابن دراج كان يعرف اللاتينية الشائعة في أيامه بين الأندلسيين، فهو يشير هنا إلى اسم أحد القائدين النصرانيين وهي **Lopez** الذي أشرنا إليه في التعليق على مناسبة هذه القصيدة، وهذا الإسم مشتق من اللاتينية **Lupus** ومعناها «الذئب» (وهي بالإسبانية الحديثة **Lobo**) فابن دراج إنما عرض بالأصل الذي اشتق منه اسم القائد المذكور، إذ إنه يقصد أن يقول: «كم من ذئب مثل هذا القائد مسمى باسمه لم يأل

كــأنمــا زار مــشــتــاقــاً ومــعــتــنــقــاً
فــاعــتــام مــنه مــكــان الــنــحــر والــقَــصَــره[1]

ومُــســعــِراً لــضِــرام الــحــرب من أَشَــرٍ
فــلــم يُــطق مــنك في إضــرامــهــا شــرره

فــإن جــرى دمه فــيــهــا فــأطــفــأهــا
فــإن نــفس «ابن شــنج» مــنه مــســتــعــره

شــقــيق مــفــخــره[2] إن قــام مــفــتــخــراً
وشــق مــهــجــتــه إن واتــرٌ وتــره

حُــمَّ الــحِــمــام لــه قَــدْراً فــأفــرده
يــدعــو الــحــمــامَ لــرُزْءٍ غــال مُــصْــطَــبَــره

مــا يــرجــعُ الــطَّــرفَ إلا وهــو ذاكــرُه
ولا يــحــس بــنــفــس كــلــمــا ذكــره

ولا يــرد الــردى عــنــه ســوى دلــه
وافى المــصــابَ ولــم يــعــرف بــه قَــدَرَه

ومــا الــقــنــا بــالــغــاتٌ من جــوانــحــه
بــلــوغ ألــســنــة أبــلــغــنــه خــبــره

عــتــادهُ لــلــوغــى إن خــاف طــارقَــهــا
وذخــرُه لــمُــلــمٍّ الــخــطــب إن حــذره

وســيــفُــه وســيــوف الــهــنــد بــارقــة
ورمــحــه ورمــاح الــخــط مــشــتــجــره

فــتــح تــقــدمتَ في اســتــفــتــاح مُــقْــفَــلــه
بــخــافِــقــات إلــى الأعــداء مُــبــتــدِره

في دعــوة ســمــعَ الــرحــمــن داعــيَــهــا
لمــا اســتــهــل بــأخــرى ســورةِ «الــبــقَــره»[3]

---

(١) القصرة: هي أصل العنق الغليظ.

(٢) في الأصل: مفخرة.

(٣) يعني الشاعر الآيات الواردة في آخر سورة البقرة من القرآن الكريم، وبصفة خاصة ختام آخر آيات السورة (رقم ٢٨٦) وهو: (... فانصرنا على القوم الكافرين).

هو الجهاد الذي برت مشاهدُه
فأشهَدتْه الكرامُ الصفوةُ البررهْ
ذللتَ فيه حمى الإشراك مقتحماً
بالخيل رائحةً فيه ومُبتكره
في كل ضاحية ألبَسْتَها كسفاً
غادرتَ شمسَ الضحى فيهن منعفره
دون السماء سماءُ النقع أنجمُها
زرقُ الوشيج على الأعداء منكدره
وكلُّ مُزدَحَمٍ في جُنح مرتَكِمٍ
لا نجْمَه يرقبُ الساري ولا قمره
إلا جبينَك يحدو صارماً ضرماً
كالبدر تحت الدياجي يتبع الزُّهَره
حتى رفعت على أعلامهم علماً
يستنجز اللهَ فيها وعدَ من نصره
عُقاب فأل بعقبى رفع أوله
يجلو السعادة للإسلام والخِيَره
وجَدُّ شانيك مخفوض فكان لهم
عِقابَ خَسْف مبِين الزَّجْر والطِّيَره
سعيٌ تركت به أرض العدى نَهَجاً
لمن سعى في مداه واقتفى أثره
فهل لنفس «ابن شَنْجٍ» بعدها عِوضٌ
من لُبِّ «لُبِّسَ»(١) أو من كافرِ الكَفَره

---

(١) في الأصل: لبسى، ولعل الصواب ما أثبتنا، وقد تكون كذلك: لبش بالشين، وهو يعني اسم القائد النصراني الذي علقنا عليه من قبل، وقد رجعنا إلى المراجع التاريخية النصرانية التي كتبت عن «شانجه الأكبر» فوجدنا من قواده أكثر من واحد يحملون هذا الاسم، ولعل أقربهم إلى أن يكون من قصده ابن دراج بهذه الإشارة اثنان:
١ – الأول اسمه «لبس بن غند شلب **Lope Gonzalez**» وكان حاكماً على مدينة ناجرة **Najera** طوال السنوات الأخيرة من القرن الرابع الهجري وشطراً من أول القرن الخامس.
٢ – والثاني «لبس بن شانجه **Lope Sanchez**»، وكان من كبار قواد الملك المسيحي بين سنتي ٤٠٠ و٤١١ (١٠٠٩ – ١٠٢٠).
انظر عن هذين كتاب الأب بيريث دي أوربل: شانجه الأكبر (ص ٦٦، و٣٥٤ على الترتيب).

صـــنـــواه في حـــربه أو في ضلالـــته
قـد كـان ذا سـمْـعَه فـيــهـا وذا بـصَره
وفت دمـــاؤُهـــمـــا ثـــأراً فـلـم يــدعـــا
لـلـمـسـلـمـين عـلى حـرب الـضلالِ تِـرَه
فـلـيَـهْـنِكَ الـيـومَ فـتح تـقـتـفـيه غـداً
عـوائـدٌ من فـتـوح الـلـه مـنـتـظَـره
بـــضـــائعٌ لك من بـــأس ومن كـــرم
مـحـفـوظـة لك عـنـد الـلـه مُـدخـره
سـلَّـمْـتَـهـا في سـبـيل الـلـه وافـيـة
فـنـاجزُ الـنقـد أو مُـسـتـقْـرَبُ الـنَّـظِرَه
وابـشِرْ بـأخـرى وأخـرى واعـدَتْ فـوفتْ
بـوعـد ذي الـعـرش في نـعـمـاءِ منْ شَكَرَه

****

(١٤٣)

وله أيضا رحمه الله تعالى:

[من الطويل]

نــــداك حـــبـــيب لا يـــشِطُّ مـــزارهُ
وإن غـــنـــيت بـــين الـــكـــواكب دارهُ

وأكــرِمْ به إلــفــاً دعـا الـحـمـدَ راغـبـا
فـلـبـاه مـخـلـوعـاً إلـيه عِـذاره

أبــان سـبـيل الـنـجح سـاطع نـوره
ولاحت لـعـلـيـاء الـنـواظـر نـاره

فـصـبح الـذي يـغـدو إلـيك بـشـيـره
ولـيل الـذي يـسـري إلـيك نـهـاره

وأيُّ رجـاء حـاد مـنك طـريـقه
وأي ثـنـاء قـر عـنك قـراره

ولا أمـل إلا إلـيـك مـآلـه
ولا سَـوْدَد إلا عـلـيـك مـداره

ولـو أن قـلـبـاً شـاقه المجـد والـعلا
فـطـار إلـيـهـا مـا عـداك مـطـاره

ولـو نـثـر الـبـحـرُ المـسـخـر دره
لمـا كـان إلا في ذَراك انـتـشـاره

ولـو كـان من زهـر الـكـواكب زائـر
إلى مـلك مـا حـاد عـنك مـزاره

لأَمَّكَ مشدوداً إليك زمامه
ووافاك مرفوعاً إليك عَماره[1]
ولو كان للدهر المؤبد مفخر
لكان بما أبدعت فيه افتخاره
ولم يعدمِ الشادي بذكراك زهرة
يطول بها إعجابه وازدهاره
لَبوسُ ثناءٍ من مساعيك بِينُه[2]
ومن غرر الأشعار فيك شعاره
تُهِلُّ به الدنيا إلى الملك الذي
زكا وتعالَى جِذْمُه ونِجَاره
مليك تردى من «تُجيبَ» سكينة
وحلماً يفي بالراسيات وقاره
ودَوْحُ تعالت في السماء فروعُه
ولكن دنت للمجتنينَ ثِمارُه
بمطعمِ سَلْم لا يُملُّ مساغُه
ومطعَمِ حرب لا يُساغ مُراره
إذا نشأت بالبارقات سحابه[3]
وجاشت بجيش الدارعين بحاره
وقد أضرم الآفاق من حُرٍّ بأسه
لظى لهب زُرْقُ الوشيج شَراره
وغرة شمس المجد تسمو كأنما
تراءى له في غرة الشمس ناره
وكم وصلته بالكواكب همة
تُجلي إلى الآفاق أين مَغاره

---

(١) أي تحيته.
(٢) البين (بكسر الباء): هو ناحية الشيء.

ولــيث لــيــوث يُــصــعِقُ الأرض زأرُهــا

ويــقــدمُــهــا في حــومــة المــوت زارُه

وشمس وفِي كِسف العَجـاج كُسوفهـا

وبـــدر وفي خـــفق الـــبـــنـــود سِـــراره

وأكــرِمْ بـه أن يــعــرف الــنــكث عَــقــدُه

أو الخُـــلْفَ راجــيه أو الــضَّــيْمَ جــارُه

ومن طـرقت خـــيلُ الخـــطـوب حـــريمه

فـــأول دعـــواه إلـــيه انـــتـــصـــاره

فـــتى جـــعل الجـــرد الجـــيـــاد قـــداحه

فـــفـــاز بـــأقـــمـــار المـــعـــالي قِـــمـــاره

ضـــمـــان عـــلـــيه أن يـــذل عـــدوه

وحق إلـــيه أن يـــعـــز جـــواره

ومـــالي لا أخـــتـــار قـــربك بـــاديـــاً

وأنت من الـــدهـــر الخـــيـــار خـــيـــاره

ومن ذا لـــداع لا يـــجـــاب دعـــاؤه

ســـواك وعـــانٍ لا يـــفـــك إســـاره

ومـــهـــوى غـــريق لا يُـــرجى غـــيـــاثه

وعـــاثـــر جَـــد لا يُـــقـــال عـــثـــاره

ألا عَـــزَّ من أبـــدى إلـــيك خـــضـــوعه

وحـــاز[1] غِـــنـــاه من إلـــيك افـــتـــقـــاره

****

(١) في الأصل: جاز.

(١٤٤)

وله أيضا رحمه الله تعالى:

[من المتقارب]

هـنـيـئـاً لـنـا ولأقـصى الـعـبـادِ
جـهـادك في الـلـه حق الجـهـادِ
تُـبـاري الـصَّـبـا وتـنـاوي الـشـمـال
تُـراوح أرض الـعـدى أو تُـغـادي
بـسـمـر الـقـنـا وبـيـض الـسـيـوف
وحُـر الـكـمـاة وغـر الجـيـاد
جـيـوشـاً تـضل الأدلاء فـيـهـا
وأنت لـهـا بـهـدى الـنـصـر هـاد
إذا اكـتـحـل الجـوُّ كُـحْلَ الـظلام
كـحـلت الـعـيـون بـطـول الـسـهـاد
تـقـود أعـنـتـهـا مـسـتـقـيـداً[١]
إلـيـك بـهـا كل صـعـب الـقـيـاد
مـظـلـلـة بـعـوالي الـرمـاح
مـكـلـلـة بـطـوال الـهـوادي
مـجـلـلـة مـنك بـرد الـيـقـين
فـهـان عـلـيـهن حَـر الجلاد
تُـوَطِّـئُـهن لحـمل الـكـمـاة
وتُـوطِـئُـهن صـدور الأعـادي

---

(١) في الأصل: مستفيداً.

مــجــيــبــاً بــهن مُــنــادي الإله

فــلــبَّــاك كل مُــجــيب المــنــادي

بــعــزم يُــذكــر أرض الأعــادي

هــبــوب الــعــواصف في أرض عــاد

فــأقــدمْــتَــهــا يــا «بن عــبــدالــعــزيــز»

لــعــز الــمُــوالي وذل الــمُــعــادي

لــتُــحْــيــيَ من «حَــكَمٍ» حُــكْــمَه

بــســقي الــردى كل بــاغ وعــاد

ولــم يَــثْــنــهــا عن مــدى غــارة

تُــغَــوِّرُهــا في مــغــار الــبــعــاد

ولا أخَّــرت يــانــعــات الــرؤوس

لــيــوم الجــنى ولــيــوم الجــداد[1]

فلأيــاً طــردت المــهــا عن أســود

أَبَــرْتَــهُمُ في مــكــر الــطــراد

ديــاراً ســقــيت دم المــانِــعــيــهــا

مــتــون الــربى وبُــطــونَ الــوهــاد

وأطــفــأتَ فــيــهن نــار الــســيــوف

وأضــرمت مــنــهن قــدح الــزنــاد

وَقُــوداً تُــبَــيِّض فــيــهــا الــلــيــالي

ويُــصــبغ نــور الــضــحى بــالــسواد

بمــا بُــدلت من مــجــال الــرمــاح

مــجــالَ الــريــاح بــهــا في الــرمــاد

فــأُلْــبــستَ فــيــهــا ثــيــاب الــسرور

وغــادرتَــهــا في ثــيــاب الحــداد

(١) الجداد: هو صرام النخل.

بـــفـــتح تـــفـــتح مـــنه الأمـــاني
إلى كل حـــــاضـــــر أرض وبـــــاد
مـــعـــالم مـــنـــهـــا تـــعـــلـــمتُ مـــنك
إلـــيك مـــســـالك سُـــبْلِ الجـــهـــاد
فـــأعـــلـــيتُ نـــحـــوك بـــنـــد الـــثـــنـــاء
وقـــدت إلـــيك خـــيـــول الـــوداد
وشـــرد جـــفـــني لـــذيـــذَ المـــنـــام
وعـــطل جـــنـــبي وثـــيـــر المـــهـــاد
مـــثـــالاً تـــمـــثـــلـــتُه مـــنك فـــيك
وأنت إلى الـــغـــزو ســـار فـــغـــاد
فـــكم أبت مـــنه بـــبـــيض الـــوجـــوه
كـــمـــا أبتُ مـــنك بـــبـــيض الأيـــادي
وكم عـــدت مـــنه بـــفـــتح الـــفـــتـــوح
كـــمـــا عـــاد لي مـــنك عـــهـــد الـــعـــهـــاد!
ولـــكنَّ مـــنـــكم جـــوادي وســـرجي
ونـــزلي ويـــســـري ومـــائي وزادي
وأنـــتم شـــددتم يمـــيـــني بـــرمـــحي
وهـــيـــأتمُ عـــاتـــقي لـــلـــنـــجـــاد
وأنـــتم ســـقـــيـــتم ثـــراة اغـــتـــرابي
ســـجـــال الـــغـــمـــام وصـــوب الـــغـــوادي
فـــتـــلك أزاهـــيـــرهـــا قـــد ســـقـــيـــتم
تـــفـــوح لـــكم من أقـــاصي الـــبلاد
ويـــســـري بـــهـــا في الـــدجى كل ســـار
ويـــشـــدو بـــهـــا في الـــورى كل شـــاد
عـــلى كل فُـــلك طَـــروق الـــشـــراع
وفي كل رحـل وثـــيـــق الـــشـــداد

وتـــلك حـــدائق مـــا قـــد غـــرســـتم
مُـــنًى وجـــنًى لـــنـــفـــوس الـــعـــبـــاد
تُـــــروِّضُ من نـــــشـــــرهـــــا كل أرض
ويـــــنـــــدى بـــــإنـــــشـــــادهـــــا كل نـــــاد
ســـتـــؤتـــيـــكمُ أُكْـــلـــهـــا كل حـــين
ويُـــــجـــــنـــــيـــــكمُ زهـــــرَهـــــا كلُّ واد
بـــإحـــيـــاء فـــخـــركمُ لـــلـــحـــيـــاة
وإجـــــزالِ ذُخْـــــرِكُـمُ في المـــــعـــــاد
ودونك غـــراءَ يُـــضـــحـي ســـنـــاهـــا
بـــــغـــــرة ســـــيـــــدهـــــا في ازديـــــاد
فلا خـــانـــهـــا أمل المـــســـتـــفـــيـــد
وأُبـــقِـــيتَ في عُـــمُـــرٍ مـــســـتـــفـــاد

****

(١٤٥)

وله أيضاً في المؤتمن عبدالعزيز بن أبي عامر رحمه الله:

[من الطويل]

تصدتْ لو شك البين من جفوة الصدِّ
وحلت قناع الصبر عن زفرة الوجْدِ
وألقت إلى حكم الأسى عزة الأسا[1]
فنمَّ بِمَا تُخفي تباريحُ ما تبدي
وأسفر ريب السخط عن صادق الرضا
ولاح هلال الوصل من مغرب الصد
فوشْكَانَ ما لفت قضيباً بقاضب
وأدنت نجادَ السيف من مسلك العقد
وهبَّ غليلُ الشجو في غَلل اللمى
وسال جمان الخد في يانع الورد
فجَرعتُ حَرَّ[2] الشوق من بَرد الحيا
وزودتُ مر الصاب من ذائب الشَّهد
وقالت وتوديعُ التفرق قد هفا
بصدر إلى صدر وخد إلى خد:
عسى قُرْبُ ما بين الجوانح فَأْلَنا
لمجنى ثمار القرب من شجر البعد
فسبقاً إلى ذي السابقات برحلة
تلوح بنجم العلم في مطلع السعد

(١) الأسى (بفتح الهمزة): الحزن، والأسا (بضم الهمزة أو كسرها): جمع أسوة أو إسوة وهي سلوة الحزين.
(٢) في الأصل: برد، ونظنه سهواً أو خطأ من الناسخ، إذ أنها لا معنى لها في هذا الموضع.

إلى الحميري العامري الذي به

غدت حرمة التأميل وارية الزند

إلى ملك ملء الرغائب والمنى

وملء نجاد السيف والدرع والبُرد

وملء مكر الخيل في حومة الوغى

وملء رداء الحلم في مشهد الحمد

و«مؤتمَن» لله مستحفَظ له

لما ضاع من حق وما خاس من عهد

تجلى لنا في مطلع الملك فانجلت

به ظلمات الغي في سُبُل الرشد

فأعلق سيفَ النصر في عاتق العلا

وأثبت تاج الملك في مفرِق المجد

وأشرق في جو من العز معتل

وأغدق من ظل على الأرض ممتد

ولاقى وجوه الراغبين كأنما

أمانيُّهم يصبحن منه على وعد

ونادى خطوب الدهر: برَّحتِ فاقصري

وثوَّبَ بالآمالِ: أبرحْتِ فامتدي[1]

إلى رَوْح إنعام يُراح إلى المنى

ولجة معروف تُهِلُّ إلى الورْد

تراثك عن جَد وجَد بهديهم

تناهى بك الدنيا إلى أسعد الجَد

فحسبك من نفس وكافيك من أب

وشرْعُك من عم وناهيك من جَد

(١) برحت: أي بالغت وأسرفت في الإيذاء، وأبرحت: أي أعجبت وأكرمت.

بــهم مُــدَّ بـــحـــرُ الــدين في كل بــلــدة
وهم تــركــوا بـــحـــر الأعـــادي بلا مــد
وهم عــمــروا الأيــام من ســاكن الــهـدى
وأخـلـوْ اغِـيـاضَ الـشـرك من ساكن الأُسْد
وهم جـــردوا أســـيـــاف دين مـــحـــمـــد
وخــلــوا ســيــوف الــنــاكــثــين بلا حــد
وهم سلبوا الـتـيـجـان كسرى وقـيـصراً
وحـــلـــوك تـــاج المـــلك فـــرداً بلا نـــد
دعـــائم ســـلـــطـــان وأركـــان عـــزة
بــــهـــا وشـــجت قـــربى تـــمـــيم من الأزد
ومــا حــفــظــوا أعلامــهــا ونــظــامــهــا
بمــثــلك من مــولى ومــثــليَ من عــبــد
بمـا شِـدْتَ فـيـهـا من سـنـاء ومن سـنـاً
وراق عــلــيــهــا من ثــنـائي ومن حـمـدي
فـمـا جَـلَـتِ الـدنـيـا عـروسَ ريـاسـة
لــمُــلــكــهمُ إلا وفي صـــدرهـــا عـــقـــدي
ولا جــاشتِ الآفــاقُ من طـــيب ذكـــرهم
بـجـيْشِ ثـنـاً إلا وفي وَسْـطه[1] بـنـدي
بمـا بـسـطـوا لي أيـديـاً مـلـكت يـدي
أعــنـــةَ أعـــنـــاقِ الـــمُـــسَـــوَّمـــةِ الجُـرد
ومـــا مـــهَّـــدوا لي من فـــراش كـــرامـــة
ومــا أتــبــعــوني من لــواء ومن جــنــد
وكم جـلـلـوني نـعـمـة قـد جـلـوتُـهـا
عـلى غـابـر الأزمـانِ في حُـلـة الخُـلـد

(١) في الأصل: سطه.

فــإن تــمــتــثــلــهــا مــنــهمُ فِيٌّ فَــذَّةً
فــكم حــزتُــهــا مــنــهم عِــداءً[1] بلا عــد
وإن تَــحْـبُـنِيـهـا عن تـنـاهـيك في الـنـهى
فـقـدمـاً حـبـانـيـهـا أبـوك من المـهـد
وإن عــم أهـلَ الأرض فــيـضُ نــداكمُ
فــإني قــد بــرَّزتُ في شــكـركم وحــدي
بــدائعُ أضــحـت فــيـكمُ آل يــعــرب
أوائلَ مــا قــبـلـي وآخــر مــا بــعــدي
ومـا بُـعْـدُ عـهـدي عـنك يُـنـسي عـهـودهم
إلــيك بــحــقي من وفــائك بــالــعــهــد
ولا نــأيُ داري عــنك يُــبـلـي وســائلاً
جــليٌّ بــهــا قُــربي وفِيٌّ بــهــا بُــعْــدي
فلا أخــطــأتْ أســيـافُكم سـيـف مُـعْـتـد
ولا خــذلت أيــديــكُم ظنَّ مُــعْـتَــدٍّ
ولا زالتِ الأيــامُ تــشــرق مــنــكم
كمـا أشـرق الإحـسـان من عـنـدكم عـنـدي

****

---

(١) أي موالاة ومتابعة.

(١٤٦)

وله في المظفر يحيى بن منذر بن يحيى رحمهم الله:

[من البسيط]

استقْبِلِ العزَّ مرفوعاً به علَمُكْ
واستوثق الأمن محفوظاً به ذِمَمُكْ

واستطلع السعد من أفق إلى أفق
كواكباً تتلالا فوقها هممك

واستفتح الدهر أبواباً مفاتحها
إما سيوفك في الأعداء أو نعمك

أجزل بها نعماً فُزنا بها قِسَماً
في دولة العز إذ فازت بها قِسَمُك

فإن نحا سيفك الأعداء مضطرماً
ناراً أنار لنا في صفحه كرمك

وإن غدا كل رحب من بلادهمُ
عليهمُ حُرُماً أفضى بنا حَرَمُك

فأنت كالدهر ممساه ومُصبَحِه:
لنا ضُحاك وفي أعدائنا ظُلَمُكْ

ليل إذا هوَّمتْ فيه عيونهمُ
بذكر عفوك صاحت فيهمُ نِقَمُك

وإن تخيَّل خيلاً منك حُلمهمُ
فإن حِلمك عن جانيهمُ حُلُمك

لمثلها أنشأ الرحمنُ منك لنا
نورين عظَّمَ من قدْرَيْهما عِظَمُك

«مُعِزَّ دولتك» العليا وصفوتَها:

هذا حسامك في الهيجا وذا عَلَمُك

وإن تَردَّتْهُما عِطفاك يوم رضاً

فذاك خاتمك الأسنى وذا قلمك

كالنصر والفتح شملاً أنت جامعُه

لكل خيلِ وغىً فرسانُها حشمك

وكالنهى والمنى فيمن شددت به

للملك عصمة مشدود به عُصُمُك[1]

نجيبُ مُلكك لم تقعُد به قدم

عن كل سعي علت في فخره قدمُك

سمَّيْتَه «منذرَ» الأعداء لا عدمٌ

منه الفتوح ولا البشرى به عدمُك

ساع مراتبُك العليا له أَمَم

وكل حظ من الدنيا به أمَمُك

فحَقُّه عهدُ من لا أنت مُتَّهِمٌ

منه السداد ولا الإيثارُ متَّهِمُك

عبد غدا يوم عاشوراءَ شاهدَه

في كل سمع مطاع عنده كَلِمك

لله من بيعة قاد القلوبَ لها

رشادُ حكمك أو ما أبدعت حِكَمُك

وقرَّ عيْناً بما أقررت أعيُنَنا

ما شاكه اسمَ الحيا واسمَ الحياة سِمُك[2]

في دولة للعلا أيامُها خدمُك

وجنة للمنى أثمارها شِيَمُك

(١) جمع عصام: وهو الحبل، ويمكن أن تكون بكسر العين وفتح الصاد أي جمع عصمة.

غَـنَّـاءَ ممــا تــغــنى في حــدائــقــهــا
طـيــورُ يُــمــنك تــهــمي فــوقــهــا ديمك
واعْلُ ولا زالتِ الأملاك قـــــاطــــبــــة
تـعـلـو عـلـى الـشم من أطـوادهـا أكَـمُك
ولا خــلتْ مــنك تــاجــاً لــلــعــنــان يــدٌ
ولا تـــخـــلَّى ركـــاب حَـــلْـــيُهُ قَـــدَمُك

****

(١٤٧)

وله يعزيه عن ابن له صغير توفي:

[من المتقارب]

عَــــزاءً وأنت عــــزاءُ الجـــــمـــــيعِ
ومن ذا ســـواك لجـــبـــر الـــصـــدوعِ؟

ومن ذا ســـــواك لـــــرُزء جـــلـــــيلٍ
تُــسَــلـــيِّه أو لمــقـــام فـــظـــيع؟

ولـــولاك مــــا كــــان بــــالمــســـتــطــاع
جَــوًى مـــا لأدنـــاه من مُـــســـتـــطـــيع

لَــهَبَّ الــعــويلُ هــبــوب الــريـــاح
فــعــفَّى الــســلــوَّ عَــفــاء الــربــوع

وفُــلَّتْ ظــبى كل عــضب صــقـــيل
وهُـــبَّتْ(١) ذُرا كل ســـور مـــنـــيع

وأقـــبـــلت الخـــيل من كل أوب
تجـــر أعـــنـــة ذل الخـــضـــوع

لـــنـــجـم تلألأ لـــلآمـــلـــين
فَــغُــوِّرَ عــنــا بــعُــيْـدَ الــطــلــوع

وغَــيْمٍ تـــدفق لـــلـــراغـــبـــين
فـــأقْـــشَعَ عـــنـــد أوان الـــهـــمـــوع

فــيــا صَــدْرُ هــاتِ زفــيــرَ الــضــلــوع
ويـــا عـــين هـــاتي غـــزيـــر الـــدمـــوع

---

(١) فعل «هب» (بتشديد الباء) إذا كان متعدياً فإن معناه قطع أو شق.

لأُسْـعِـدَ فـيه بـكـاء الـسـمـاء
بـذوب الـهـجـيـر وصـوب الـربـيع
كـصـوب خـوافـقه في الحـبـيك[1]
وصـوت مَـغـافـره في الـدروع
وأجـنـاده في فـضـاء[2] الـثـغـور
تـروعُ الأعـاديَ من كل ريع[3]
بـسـمـر تُـفـجِّـرُ من كل صـدر
مَـقـرَّ الـنـفـوس وَدَّر الـنـجـيع
وبـيض تـفـيض عـلى الـمُـلحـدينَ
بمـوتٍ ذُعـاف وسُم نـقـيع
وجُـرْدٍ يُـنَـفِّـضْنَ أعـرافَـهُن
عـلى كل مـصـرع غـاو صـريع
فـفُـزْ يـا «مـظـفـرُ» ممن شـجـاك
بـأكـرم ذخـر وأزكى شـفـيع
تـصـافـحه عـنـد بـاب الجـنـان
وتـعـلـو به في المحل الـرفـيع
وفي ذمـة الـلـه أصل كـريم
يُـسَـكِّنُ من فـقـد بـعض الـفـروع
بـطـول بـقـاءٍ يـفي بـالـزمـان
وصـفـو حـيـاة تـفي بـالجـمـيع

****

(١) أي القتال الشديد.

(٢) في الأصل: قضاء.

(٣) الريع: هو المرتفع من الأرض، أو هو الطريق المنفرج في الجبل.

(١٤٨)

وقال في المنصور منذر بن يحيى عند ابتناء ابنه يحيى بن منذر رحمه الله:

[من الطويل]

كذا ينتهي البدر المنير إلى الشمس
وتمتزج النفس الكريمة بالنفس
وتلتحم الأنساب من بعد بُعدها
وتدنو القلوب الموحشات إلى الأنس
ويُجمع شملُ الوصل من فُرقة القِلى
ويُرفعُ بند الوصل من مصرع النِّكس
كجمع «سليمانَ» النبي بصهركم
ذوي يمن والشام والجن والإنس
وتأليفِ «ذي القرنين» إذ هُديَت له
كريمة «دارا» دعوةَ الروم والفرس
فأهلاً بذات التاج من سلف العلا
إلى ابن ذوي التيجان في سالف الحَرْس(١)
إلى وارث الأحساب هوداً وتُبَّعاً
وباني العلا بالدين سمْكاً على أُس
ولابسِ حِلْمٍ قد تناهى مدى النهى
وحاجب مُلْك قد علا حاجب الشمس
ويا رُبَّ حرب أسمعته دعاءها
بهندية عُرْب وألسنة خُرس

(١) الحرس: هو الدهر.

فـــكم سلَّ من كـــرْب وأنـــقـــذ من عـــمًى
وروَّح مـن رُوح ونـــــــفَّس من نـــــــفس
وأســــــبل من غـــــيث وملأً من يــــــد
وكم فكَّ من غِل وأطـــــلق من حَـــــبْس
زكـا فـرعُـهـا في آل «ذي الـنـون» سُـنَّـة
بــهـا راقتِ الأثـمـارُ في يـابس الـغَـرس
فـلـلـه أكـفـاءٌ تـدانـوا لـصـفـقـة
من الصِّهر قد جلَّت عن الغبن والوَكس
وذكَّــرَهُم يــوم الــتــخــاذل يــومَــهُم
بمــوت عــهــود كُنَّ يَــحْــيَــينْ بــالأمس
فـأسـمـعـهم داعي «تُـجـيبَ» فـمـثـلـوا
....[1] الــداعي إلى الجــود والـــبـــأس
فـيـاذمـة الـصـهـر الـذي شُـدَّ عـهـدُهـا
بـخـاتـمـة الآيـات من آيـة[2] الـكـرسي
فـعـفَّت رسومَ الـغـدر من ظـاهـر الـثـرى
وخطت وفاء العهد في صفحة الشمس
وسـلـت من الإقـبـال والـهـدي والـهـدى
صـــوارم لا تُـــثـــنى بـــدرع ولا تُـــرس
إذا غـــنِـــمَت جـــاءتك بـــالأمن والمـــنى
وإن غضبت أنحت على الشُّوم والتَّعس
بـــســـرَّاءَ ممـــا ثـــبت الـــلـه أو مـــحـــا
وشـحـنـاءَ ممـا يـنـسخُ الـلـهُ أو يُـنـسي

---

(١) كلمة مطموسة لم نهتد إلى وجه فيها.

لــهــا أعـــين أهــدى إلى الحق من قــطــاً
وألــســنــة بــالــسَّــلْم أخـطبُ من «قُس»[1]
ومـــا قـــصَّـــرت عن سَـــاعِـــيَيْ آل مُـــرَّة
لصلح «بني ذبيانَ» والحي من «عبس»[2]
ولـــله مـــا زُفت «لـــيـــحـــيى» كـــتـــائب
مُـــروِّعـــة الإقـــدام مُـــرهِـــبَـــةُ الجَـــرْس
يُضيء الـدجى من عـز من حل وسْطـهـا
ويُــظــلم عــنــهــا ثــاقب الــوهم والحس
ويُــحْــجَبُ بــالــرايــات في مُشـرِق الـفلا
ويُشـرق بــالإعـظـام في الـظُّـلَمِ الـدُّمْسِ
وقـد رُفِـعَتْ رفع الحـصـون قِـبـابُـهـا
عـلى حُلَلِ الإحـصـان والـطُّـهْر والـقُدْس
وحُـلِّـيَتِ الـبـيضَ الـصـوارمَ والـقـنـا
عـلى الدر والـيـاقـوت لُـبْـسـاً عـلى لُبْس
هِـداءً هـدى سُـبْلَ الـرغـائب وانـتـحى
يُـنـشِّرُ مـيْتَ الـسَّـلْم من ظُـلَمِ الـرَّمْسِ
ويـــومُ بِـــنـــاءٍ قـــد بـــنى فُـــرْجَـــة المـــنى
بـــعُـــرْس غـدت مـــنه المـكـــارم في عُـرس
وقـصـر تجـلى فـيه «يـحـيى» و«مـنـذر»
صـبـاحـاً لمن يـضـحي وبـدراً لمن يمـسي
وقـــد أذنـــا في الأرض: حي ومـــرحـــبـــاً
إلى المشـهـد المذكـور والمنـظـر المـنـسي
يـريك الـنـجـوم الزهـر في مـجـلس الـقِرى
من الـطـاس والإبـريق والجـام والـكـأس

(١) يعني الخطيب العربي المشهور قس بن ساعدة الإيادي.
(٢) يريد بساعيي آل مرة حرملة بن الأشعر بن صرمة بن مرة وابنه هاشم، وكان حرملة أول من سعى في الحمالة

وسقيٌ يُنسّي الإلْفَ ريقةَ إلفه
وطعم له وقع الحياة من النفس
وأمواه ورد في ورود حياضها
شفاء الظماء الهيم من غُلة الخِمس
وغيْم من العُود الذكي تراكمت
أعاليه حتى كدن يُوجَدن باللمس
وغالية تكسو المشيبَ شبَابَه
وتُنبت سود العُذر[1] في الأوجه المُلْس
مكارم أضحت للرجال مغانماً
بلا نصب المُغْزي ولا سُنَّة الخُمْس
فإن حملت من بعدها سيفَ فتنة
يد فتخلَّتْ من أناملها الخَمس
وإن أوترت قوساً إلى رمي مُسلم
فلا انفصلت عن مقبض العضْم[2] والعَجْس[3]
ولا ضاعت الأنساب بالغدر والقلى
ولا بيعت الأحساب بالثمن البخس
ولا زال ما ترجوه أقرب من غد
ولا انفك ما تخشاه أبعد من أمس

****

(١) في الأصل: الغدر، والصواب ما أثبتنا، ويعني بالعذر العذر (بضمتين)، وسكن للضرورة، وهو جمع عذار.
(٢) في الأصل: العصم، والصواب ما أثبتنا، والعضم: هو مقبض القوس.
(٣) العجس: هو موضع السهم من القوس وهو أجل موضع فيها وأغلظه.

(١٤٩)

وله أيضاً في المنصور أبي عامر رحمهما الله، ولها قصة طويلة:

[من البسيط]

يـا حـبـذا خـجـل الـتـفـاح في طـبقِ
مُـنـضـد بـجـني الـزهـر مـتـسق

فـيه عـيـون بـهـار قـد أحـطن به
نـواظـرا بـجـفـون الـعـاشق الأرق

كـأن مـا احـمـر من تـفـاحه خـجلاً
بـدر بـدا قِـطَـعـاً من حـمـرة الـشـفق

في مـجـلس الملك «المـنـصـور» يـانـعـة
كـأنمـا غُـذِيت من جُـوده الـغـدق

****

(١٥٠)

وله رحمه الله تعالى قطعة في رسالة بين رئيسين يغبطهما بصلح:

[من الطويل]

وأيُّ زِنَــادَيْ فــتــنــة أوْرَيــا لــهــا
سـنـا صُـبح حق في دُجى لـيل بـاطلِ

وسـيْـفَـيْنِ رد الـلـهُ غَـرْبَ شـبـاهـمـا
تلاقٍ بـصـفـحَيْ واصلٍ لـمُـوَاصل

حـلـيـفـين شـدا عَـقْـدَ مـا احـتـلـفـا له
وردا عـلـيـه عـاطـفـاتِ الـوسـائل

****

(١٥١)

وقال يمدح المنصور منذر بن يحيى رحمهم الله في رسالة كتب بها إليه:

[من المديد]

ازْرَعِ المعروف حَزْناً وسهلاً
واحْصُدِ الكفار سبْياً وقتلا
واقْتضِ الرحمن فتحاً قريباً
كلما جلَّ تناهى[1] أَجَلاًّ
كُفْءَ ما أوليتَ حمداً وشكراً
وصدقتَ اللهَ قولاً وفعلا
وعممتَ الخلق عُرفاً وجوداً
ووسعت الأرض حكماً وعدلا
وبهرت البر والبحر خُلْقاً
عم إفضالاً كما خص فضلا
بجبين ما تجلى لخطب
يُظلِمُ الإصباحَ إلا تجلى
ويمينٍ عاهدتْ من سقاهُ
لا تمل السقيَ حتى يملا
وبعزم ألبس الدينَ عزا[2]
مثلما قد ألبس الشرك ذُلا
وهلالٍ في سماءِ «تُجيبٍ»
حازَ تِمَّ المجد يوم أهلا

(١) في الأصل: تنايا.

(٢) في الأصل: عدلاً، وما أثبتنا أنسب للمقام.

وغمامٍ لم تكد تمتريه
منكَ ريحُ النصر حتى استهلا
سيف ضرب لم يَرُقْهُ حُليٌّ
وتراه بالدماء مُحلَّى
وسنان ما يمل استناناً
لو تُولّيهِ الردى ما تولى
كَلِفٌ بالطعن والضرب تامتْ
قلبَه الحربُ جمالاً ودلا
فصبا في جاحم الحرب نفساً
وعصَى في حاطم الزحف عذلا
فتمام الوصل ألاَّ يُخَلِّي
لجُسوم الشِّرك بالهام وصلا
ونظامُ الشمل ألاَّ يُبَقِّي
في ديار الكفر للكفر شملا
فاعمُرِ الدنيا........[1]
ساورَ الأُسْدَ وما تَمَّ شبلا
طرد البأساءَ حتى سقاها
بكؤوس الموت نهلاً وعَلاً[2]
وسقى ماء الفضاء دماء
كندى كفيه سحا ووبلا
في مَكرٍّ قال للرمح: رفقاً!
ومجال قال للسيف: مهلاً!
وتلقتهُ العدى بصدور
خَط بالخَطيِّ فيها وأملى

---

(١) بقية هذا الشطر مطموسة بشكل لم نتمكن معه من قراءة شيء منها.

وقــضى بــالــهــام لــلــجــو عُــلْــواً

وعــلــى الأشلاء لــلــتُّــرْب سُــفْلا

ورأى أنَّ صــــدور الــــعــــوالي

من صــدور الــغــدر بــالــهــام أولى

فــدنت والــســورُ يــومي إلــيــهــا

ويــــنــــاديــــهن: أهـلاً وســــهلا!

وعــيــون الخــلق تــســمــو إلــيه

فــدنــا وهــو من الــبــدر أعــلى

صــلــيَتْ مــنه الــعــدى بــســيــوف

حَــرُّ نــار الــله فــيــهن أصــلى

فــبه أُعْــلِيَ قــحــطــانُ فــخــراً[1]

وبـه زُكِّي يــــعــــربُ أصلا

وبـه عــرَّفَــنــا الــلــهُ أنَّــا[2]

ســنــرى في خَــلْــفِه لكَ مِــثْلا

****

(١) في الأصل: مفخراً.

(٢) في الأصل: أننا.

(١٥٢)

وقال أيضاً يمدحه رحمهما الله من جملة رسالة:

[من الوافر]

ويــوم كـســوتَــهـا رهـجَ المـصـلـى
تـنـاديـهـا المـنى: أهلاً وسـهلا!

مُـجـلَّـلـة هـوادِيـهـا بـعـز
يُـجـلِّلُ أوجهَ الأعـداء ذُلاًّ

إذا ضل الـعـجـاج بـهـا هـداهـا
جـبـيـنك أن تُـعـرج أو تـضلا

وقـد نـشـقت[1] ريـاح الـنـصـر تُـزجي
غَـمـام المـوت أبـرق فـاسـتـهلا

شـوازبَ كـالـقـداح مـسـاهـمـات
ضـربتَ بـهـا الـعـدى حَـزنـاً وسـهلا

وكـنـت نـصـيـحـهـا سـراً وجـهـراً
وكـنت أمـيـنـهـا قـولاً وفـعلا

وكـنت ولـي حـكم الـلـه فـيـهـا
تـنـيـر بـنـوره صـدقـاً وعـدلا

فـحـاز الـغـدرُ أخْـيَـبَـهـا سـهـامـاً
وطِـبْتَ فـفُـزت بـالـقِـدْح المـعـلـى

فـمـا جـلـتِ الـدجى شـمسُ تجـلتْ
كـوجـهك في الـوغى لمـا تجـلـى

(١) في الأصل: نشفت.

ولا راق الحُـــلـيُّ عـــلـى ســـيـــوف
كـــســيــفك من دمـــائـــهم مُـــحـــلى

إذا الــتــقت الــفــتـوح عــلــيك تــتـرى
فـــأولى لـــلـــمـــصـــاب بـــهن أولى[1]

وجـــاءتك المـــنى صـــوراً تـــوالى
فلا تَـــحْـــزُنك صـــفـــحـــةُ مـــا تـــولى

ولا يُـــؤْيِـــسْكَ أبـــراج تـــســـامت
بـــأهْـــمَـــاجٍ فـــإن لـــديك أعـــلى

ورُب عُـــقـــاب شـــاهـــقـــةٍ تـــعـــلى
بـــهـــا أمل إلى يـــدكُم تـــدلى

****

(١) قص طرف الصفحة ابتداء من هذا الموضع حتى نهاية الصفحة، وقد ذهبت في هذا القص أواخر الأبيات، فعملنا على استكمالها بما بدا لنا من سياق الأبيات، وقد وضعنا ما أضفناه بين حواصر.

(١٥٣)

وقال فيه أيضاً رحمهما الله، ووقعت في بعض رسائله[(١)]:

[من البسيط]

إلى شـجـا لاعج في الـقـلـب مُـضـطـرمِ
جـاشٍ[(٢)] إلـيك به بـحـرٌ[(٣)] من الـكَـلِمِ[(٤)]

ودمع أجـفـان عـين قـد شـرقن به
حـتى تـرقـرق بـين الـرَّفِّ والـقـلم[(٥)]

ديْـنـاً[(٦)] لـذي أسـرة دُنْـيـا وفـيتُ[(٧)] به
ورحـمـةً وُصِـلـت مـني بـذي رحم[(٥)]

إكـرامه كـرمي وذُلّـه ألمي
وظُـلـمه ظُـلـمِي وعُـدْمُه عـدمي

إذا رددتُ سـيـوفَ الـهـنـد عن دمه
فـإنمـا رجـعت[(٨)] عن مـهـجـتي ودمي[(٥)]

وإن ضـربتُ رواقـاً دون حـرمـته
فـإنـهـا سَـتُـرى مُـدَّتْ عـلـى حُـرَمي

---

(١) أورد ابن بسام جزءاً من هذه الرسالة وثمانية أبيات منها في «الذخيرة» ق ١ - ٦٦/١.

(٢) ضبطت في الأصل وكذلك في الذخيرة بفتح الشين، ولا يستقيم الوزن بهذا الضبط إلا مع زحاف قبيح يغني عنه الضبط الذي أثبتناه، وتكون «جاش» بذلك اسم فاعل من جشا، وجشأ (بالهمز) وجشا (بتخفيف الهمزة) بمعنى جاش.

(٣) ذخ: مجر.

(٤) هذه الكلمات ساقطة في البتر الذي أسلفنا الإشارة إليه، والتكملة عن الذخيرة.

(٥) هذه الكلمات ساقطة في البتر الذي أسلفنا الإشارة إليه، والتكملة عن الذخيرة.

(٦) في الأصل «دنيا»، وقد آثرنا قراءة الذخيرة.

(٧) في الأصل: «وصلت»، ورواية الذخيرة تبدو لنا أفضل.

(٨) ذخ: رفعت.

لـهـفي عـلـيه وقـد أهْـوَتْ له نُـكَبٌ
لا تـسـتـَقِل لـهـا سـاقٌ عـلـى قـدم
فـبات يُـسْـعِـرُ بَـرْد الـليل من حـزنٍ[1]
ويـسـتـثـيـر[2] دمـوع الـصَّـخْـر من ألم
ومـا بـعـيْـنَـيَّ عن مـثـواهُ من وسن
ومـا بـأُذْنَـيَّ عن شـكـواهُ منْ صَـمَمِ
لـو أنـهـا كُـرْبـة مـنـهـا أُنَـفِّـسُـهـا
بـالمـارن الـلـدن أو بـالـصـارم الخَـذِمِ[3]
لـكـنـهـا كـربـة جـلت مـواقـعـهـا
عن حـول مـتـئـد أو صـول مـنـتـقم
فـمـا هـززت لـهـا إلا شـبـا قـلـم
مستنصر العفو أو مستصرخ الكرم
إلى[4] الـذي حـكـمت بـالـعـفـو قـدرته
لمـا دعـتـه المـنى: احْـكُمْ يـا أبـا الحـكم!
ومن[5] إذا مـا الـتـظى في صـدره حـنق
فـبـارق صـعق أو مُـغـدق الـديم
مـتى تَـجـرَّعْهُ حـرَّ الـقـيظ[6] مـغـتـربـاً
فـابـشِـرْ لِـغُـلـته بـالـبـارد الـشـبم
تـلـقى الـكـتـائب في إقـدام مـصـطـلـمٍ
وعُـذرَ جـانـيه في إعـراض مـنـهـزم

****

(١) ذخ: حرق.
(٢) في الأصل: ويستشير.
(٣) في الأصل: الخدم.
(٤) في الأصل: إن، ولعل الأصح ما أثبتنا.
(٥) في الأصل: يا من.

(١٥٤)

وقال فيه أيضاً رحمهما الله تعالى:

[من الخفيف]

إن روضـــاً لـم تـــسـقه مـــنـــذ عـــامِ
لمخـــوف عـــلـــيـه حَـــرُّ الأُوام
جـــارك الـــله[١] كـيـف يـظـمـأ روْض
أنت جـــار لـه وبـــحـــرك طـــام
فـائح من شـذاك[١] يـومـاً فـيـومـاً
أن ســقـاه نـداك عــامـاً بـعــام
وَفِّهِ مـن نـــداك أوفى نـــصـــيب
فـجـزاء[١] الـكـرام رهن الـتـمـام
وأَحَقُّ الـريـاض بـالـسـقي روض
راهـنٌ شـــكـــرُه مـع الأيـــام
والأيـادي[١] أهـلـة فـإذا مــا[٢]
تُـمـمت أشـبـهت بـدور الـتـمـام
وريـــاض الأشـــراف أكـــرم من أن
تـتـبـاهى إلا بـسـقي الـكـرام
........................[٣] وعـيـد وفـصـد[٤]
ألـّـــفـــا من سلامـــة وسلام

(١) هذه الكلمات مطموسة في الأصل لم تبق منها إلا بعض الحروف استكملنا على أساسها ما أثبتنا مع المحافظة على الوزن والمعنى.

(٢) إضافة يقتضيها الوزن، ويمكن كذلك أن يكون البيت على هذه الصورة: والأيادي أهلة فاذا تـ(ـمّـ)ـمتها أشبهت بدور التمام.

(٣) لم نستطع تبين شيء من هذا الموضع.

(٤) في الأصل: وقصد، ونظنها تحريفاً لـ«وفصد» التي أثبتنا، وذلك لأن هذه القطعة كما يبدو من سياقها إنما قيلت في منذر بن يحيى تهنئة له بعيد أتى موافقاً لشفائه بعد قيامه بالفصد، ويدل على ذلك قوله بعد:

وكلا الـطـالِـعَـيْنِ سـعـد ويُـمن
صـادق الـفـأل جـائـز الأحـكـام
راحـة فُـجِّـرت بـتـفـجـيـر راح
ودم صـائب لـصَـوْب مُـدام
وأرى الـعـيـد يـقـتـضي مـنك وعـداً
كـاقـتـضـاء الـثرى[1] لـصـوْبِ الـغـمـام
ودواء مُـضـمَّن لـشـفـاء
وسـرور مُـيـسَّـر بـدوام

****

(١) في الأصل: كاقتضاك الثوى، ولعل الصواب ما أثبتنا.

(١٥٥)

وقال يمدح مباركاً ومظفراً صاحبَيْ بلنسية وقد دُعِيا إلى ولاية طليطلة أعادها الله تعالى:

[من الطويل]

أُهـنِّـيـكُـمـا مـا يَـهْـنِئُ الـدين مـنـكُـمـا
هـدى ونـدًى فـلـيَـسْـلـم الـدينُ واسْـلَـمَا

وشــهـرٌ تـولَّى راضـيـاً قـد بـلـغـتـمـا
مــداه كــرامــاً قُــوَّمَ الــلــيلِ صُــوَّمــا

وفــطــر تحــلــى بــالــصلاة إلى الــذي
دعـونـاه ألاَّ يُـوحش الأرضَ مـنـكـمـا

فـأسـفـر عن وجه تجـلـى سـنًـا كُـمـا
وصِـدْقٍ تجـلى بـالـسلام عـلـيـكـمـا

وأكــرم به فــطــراً يُــبــشــر بــالمــنى
وعـيـداً مُـعـاداً بـالـسـرور لـديـكـمـا

ولـم أر يــومــاً كــان أبــهجَ مــنــظــراً
وأسـنى وأسـرى في الـقـلـوب وأكـرما

وأكــبــر أقــمــاراً عــلــون أهــلــة
وعـالَـيْن في جـو من الـنـقـع أنجُـمـا

ولا مــلــكــاً قــد عــظم الــله قــدره
أقل اخـتـيـالاً مـنـكـمـا وتـعـظُّـمـا

يُـضـاحكُ فـيه الـشـمسُ دُرا وجـوهـراً
ويـحـسُـدُ مـنه الـروضُ وشـيـاً مـنـمـنـما

وخُـطَّـابُ أمـرِ الـثـغـر قـد صَـدقَـتْـهُمُ
عـيـونٌ يُـعَـفِّـينَ الـحـديث المـتـرجـما

خلت لكما من كل بعل[1] ومالك
ونادتكما للنصر فذا وتوأما
دواليكُمَا إن الرمايا لمن رمى
ودونكما إن العزيز لمن حَمى
فإنَّ جَنِيَّ الباسقات لمن جنى
وإنَّ سماء المكرُمات لمن سما
وما تيَّم[2] الأخطارَ والرتب العلى
كمن بات مشغوفاً بهن متيما
ومن رفع الأعلام في السلم والوغى
ليجعلها للحق والعدل سُلَّما
ومن ليس يرضى الفضل إلا مُبادِئاً
ولا يصنعُ المعروف إلا مُتمِّما
ومن لا يرى نيل المراتب مغنماً
لمن قد يرى بذل الرغائب مغرما
ومن حدَّ ألا يورد الماء خيلَه
غداة الوغى حتى يخوضَ بها الدَّما
ومن ليس يرضى حكم يمناه في العدى
إذا لم يكن فيه الندى مُتحَكِّما
ومن يسَّر الإسلامَ بالسَّلم قادماً
وأنذر حزب البغي بالسيف مُقدِما
مكارمُ تعتام الكرامَ فلا تبتْ
كريمةُ هذا الثغر منهن أَيِّما
فشُدَّا لها ميثاق مهر مُؤجل
وسوقا إليها المهر مهراً مُقَدَّما

(١) في الأصل: فعل.

فـقـد لــبـسـت بــرد الــوفــاء وقــلــدت
تــرائــبــهــا عــقــد الــوفــاء مــنــظــمــا
وقـد أشـرقت من فـوق «تـاجـو» مـنـيـفـةً
بـــتـــاج هـلال قـــد تـــكـــلـل أنجُـــمـــا
وأنى بــهــا عن كـفـرهـا ومـلـيـكـهـا
وبـالـهـائم المشـتـاق عنـهـا وعـنـكـمـا
وفِـلـذةُ قـلـبي في حـمـاهـا رهـيـنـة
وإنـسـان عـيـني في ذَراهـا مُـخـيِّـمـا
تـقـسـم ريْبُ الـدهـر والـنـأيِ شـمـلَـنـا
وقـلـبـاً غـدا لـلـبـين نـهْـبـاً مُـقـسَّـمـا
فـــمـــا نـــأتـــسي إلا أَسىً وتـــعـــزِّيـــاً
ومـــا نـــلـــتـــقي إلا كـــرى وتـــوهُّـــمـــا
لــيــاليَ كــالإعــدام طــولُــهــا الأسى
وطـاولـتُـهـا حَـوْلاً وحـولاً مُـجَـرَّمـا
أَسَـــهْـــمـــاً رمـــاه عن قِـسيٍّ جـــوانـــحي
فـــراق فـــوالى مـــنه قـــلـــبيَ أســـهُـــمـــا
بـذكـراك شـاجَـيْتُ الحَـمـام فـلـو وفى
لأنـــبـــاك عن شـــجـــوي إذا مـــا تـــرنمـــا
وإن يـرع لي وكفُ الـحـيـا حق مُـسـعِـد
يـــخـــبـــرك عن دمـــعي إلـــيك إذا هـــمى
فـكم عُـذتُ من لـيل الـهـمـوم بـلـيـلـة
تـركت بـهـا الأجـفـان حـسـرى ونُـوَّمـا
فـأسـريـتُـهـا بـالـشـعـريَـيْن مُـفـرِّطـاً
وأفـنـيـتُـهـا بـالـقـلب عـنـهـا مُـخـيِّـمـا
وكم لـيـلـةٍ لـيلاءَ وافْـيتُ صـبـحَـهـا
أَذَرَّ عـــلـى عـــيْـــنِـي ظلامـــاً وأظْـــلَـــمـــا

دجًى مثل جلباب السماء استمر بي[1]
فقنَّع فَوْدَيَّ المشيبَ وعمَّما
وصُبحاً كسا الآفاق نوراً وبهجة
ووجْهِيَ قِطْعاً من دجى الليل مُظلِما
وكم لُجَّةٍ خضراءَ من لُجَج الردى[2]
ركبتُ لها في الليل أظلمَ أدهما
كسا الصبحُ أعلاه مُلاء مُهدَّباً[2]
وأسفلَه الإظلامُ برداً مُحَمَّما
إذا رقرقت ريح الصبا من جناحه
تحمل أُكْمَ الموت غرقى وعُوَّما
فَأَهْوِ به في مُفرَج الموت حيةً
وأَعْلِ به في هضبة الحَيْن أَعْصَما
خطوباً لبستُ الصبر حتى جعلتُها
لمرقى أيادي العامريين سُلَّما
فأصبحتُ نجماً في سماء كرامة
مُحَيّاً مُفدّىً بالنفوس مُعَظَّما
مَلِيكَيْ زمانَيْنا وجارَيْ ديارنا
«بزاهرةِ»[3] المُلك التي أنْجَبَتْهُما
بعز لواء يبلغ النجم إن علا
وبحرِ عطاء يرْغَبُ الأرضَ إن طمى
وخيلٍ تهد الأرض تسري وتغتدي
تقود ملوك الأرض أسْراً ومغنما

---

(١) زيادة يقتضيها الوزن.
(٢) مطموسة في الأصل لا تبدو إلا بقايا من حروفها.
(٣) يقصد بالزاهرة الضاحية التي بناها المنصور بن أبي عامر بقرطبة، ويشير بذلك إلى كون مبارك ومظفر ممدوحيه من موالي الدولة العامرية.

أما والقصورِ البيضِ منها وما حوت
من الصِّيد كالآساد والبِيض كالدمى
وما عمرت منها الليالي وغيرت
وشيَّد أمرُ الله فيها وهدَّما
وعافِي قُصورٍ من قصور بلاقع
إذا ذر قَرن الشمس فيهن أظلما
لقد سُلِّيَتْ عنها بلاد حوتْكُما
وقد عُوِّضت منها جُفون رأتكُما
فآوا كُما ذو العرش في ظل أمنه
ولا حلَّ عَقْدَ النصر منه عليكُما
جزاءً لما أوليْتُما وكفَيْتُما
وآويتما من غربة وكنفتُما

****

(١٥٦)

وقال يمدح المظفر يحيى بن منذر رحمهم الله تعالى:

[من المتقارب]

هربنا إليكم فآويتُمُونا
وخِفْنا الحُتوف فأمَّنْتُمُونا

وشرَّدَنا السيف من أرضنا
سِراعاً إليكم فآسَيْتُمونا

وهوَّن أقدارنا الاغترابُ
على كُلِّ خلْق فأكرمتُمُونا

وأوحشنا الدهرُ في كل بَر
وفي كل بحر فأنَّستمونا

وكم قد دعونا قريب الديار
وأنتم على البعد لبيتمونا

وقابلتُمُ دوننا المعتدين
ونحن بأسواركم عائذونا

ولاقيتمُ البِيض والسمر عنا
ونحن بعقوتكم آمنونا

فأسريتُمُ الليلَ حِفْظا لنا
ونحن على فُرشكم نائمونا

وبالأمس ودَّعتُمونا كراماً
وأُبتم إليها فبَشَّرْتُمونا

بأفرح بُشرى تسر النفوس
وأعظمِ فضل يُقِرُّ العيونا

بأنا نعود لأوطاننا
وقد كان يُحْسَبُ ألا يكونا
فجازاكُمُ الله عن سترنا
بأفضل ما جُوزيَ المحسنونا
واَواكمُ الله في ظله
مُقارَضةً حين اَويتمونا

****

(١٥٧)

وقال على قافية الصاد يمدح المنصور منذراً من جملة رسالة:

[من الخفيف]

ثُم أقْـدَمْـتَـهُن شُـعث الـنـواصي
يـتـهـادين في فُـضـول الـدِّلاصِ
تحت بـيض كـأنمـا صـقـلـوهـا
بـالـذي أضـمـروا من الإخلاص
وظـبـاء خـاضت بـهن المـذاكي
في تلاع من الـدمـاء غِـصـاص
يـنـتـعـلن الخـدود من تحت حُـجْن[1]
قـد تـلـفـفن في شـعـور الـنـواصي
بـعـد ضـرب مـا قَـتْـلُه لـمُـقـيـد
وطـعـان مـا جُـرْحُـهـا لـقِـصـاص
وابـتـدارِ الـنَّـجـاء وهْـو غَلاء
بـنـفـوس عـلى الحـتـوف رِخَـاص
تـنـطِقُ الـبِـيضُ في الـطلى، والـعـوالي
في الـكـلى أبـشِـري بـفَـوْتِ الخلاص!
لـو ركـبـتم مـنـا الـريـاحَ فـراراً
لـتـردى بـكمُ ركـوبُ المـعـاصي
كم دُعِـيـتُم أنْ لاتَ حـين شِـقـاق
فـأبـيـتم، فلاتَ حـين مـنـاص!

****

(١) هذا الشطر مطموس في الأصل طمساً شديداً، وقد اجتهدنا في قراءته بقدر ما سمح به ما بقي من حروفه.

(١٥٨)

وقال – سمح الله وعفا عنه بمنه – يستهدي نبيذاً من كاتب اليهود:

[من الخفيف]

قـد خـطـبـنـا وقـد أجـاز الـوليُّ
بـعـد عـلـم أن الخـطـيبَ كَـفِيُّ
وبـعـثـنـا الـصـداق نـثـراً ونـظـمـاً
فَـمن الحق أن تُـزفَّ الـهَـدِيُّ
يـا أبـا جـعـفـر، أمـا[1] بـعـد ظِمْءٍ
جـاوز الخـمسَ أن تُـراح الـمَـطِيُّ؟
أمن الـعـدل أن تَـجف حـشـاهـا
وبـجَـمَّـاتِـهـا لـديك الـرُّكِيُّ[2]

****

(١) في الأصل: وما.

(٢) جمع ركية (بفتح الراء وتشديد الياء): وهي البئر.

(١٥٩)

وقال يمدح المنصور منذر بن يحيى رحمهم الله تعالى من جملة رسالة:

[من مجزوء الكامل]

الـــســـيف أبـــهى لـــلـــعلا
والحـــزم أبـــلغُ في المـــدى
وشـــــرائع الحق الـــــذي
يمـــمت أهـــدى لـــلـــهـــدى
وعـــــواقب الأيـــــام أو
لـى أن يـــــفـــــين لمن وفى
والـــغـــدرُ أقـــبحُ مـــا تـــز
وَّدَ من دنـــــا أو من نـــــأى
لـــو تـــغـــدرُ الـــشـــمسُ انـــتـــهت
في دون مـــقـــدار الـــسُّـــهـــا
أو دب غـــــدر في الجـــبـــا
ل لـــعُـــدْن أمـــثـــالَ الحـــصى
وإقـــالـــةُ الـــعـــثـــرات أحـ
ــيـــا لـــلـــنـــفـــوس من الـــردى
نـــفس إذا أحـــيَـــيْـــتَـــهـــا
فـــكـــأنمـــا تُـــحـــيي الـــورى
والـــلـــهُ قـــد ضـــمن الجـــزا
ء لـــكل مـــقـــتـــدر عـــفـــا
وهـــــو الـــــذي أوحى بـــــأ
نَّ الـــعـــفـــوَ أقـــرب لـــلـــتـــقى
وسلام من يُـــسْـــمِي الـــسلا
مَ عـــلَـــيك مـــا مَـــتَعَ الـــضـــحى

****

(١٦٠)

وقال يعزي ابن خطاب المرسي[1] بابنه رحمهم الله تعالى:

[من الطويل]

يـا[2] صـفـوة الأجـفـان من عـبـراتـهـا
ومُـدَّخَـرَ الأضلاع من زفـراتِـهـا

هـلـمي إلى أم الـرزايـا فـأسـعـدي
نـفوساً يـضيق الدهـر عن حسـراتـها

لخـطب رمى في آل خـطَّـابَ سـهـمه
فـفُـجِّـعت الـدنـيـا بـأسرى سَـراتـهـا

فـيـا عِـبـرَة الأيـام بـالـقـمـر الـذي
به عـاذَتِ الأيـامُ من عـبـراتـهـا

ويـا غـمـرةً لـلـمـوت غـالَ حِـمـامُـهـا
فـتى أنـقـذ الأحـرار من غـمـراتـهـا

ويـا دوحـة الـعـز الـتي قـادتِ المـنى
إلى بـاسق الأغـصـان من شـجـراتـهـا

لـئن فـاتـني صَـرف الحِـمـام بـظـلـهـا
لـقـد أخـلـفت لي من جـنَى ثـمـراتـهـا

وإن غـاض عَـيْـنَيْ مـاءِ دجـلـةَ حَـيْـنُـهـا
لـقـد أغـرقت أرْضَيَّ بـعـدَ فُـراتـهـا

****

(١) لم نتحقق من شخصية ابن خطاب هذا، على أن الذي نعرفه هو أن بني خطاب كانوا بيتاً ذا رياسة ونباهة وشرف في مرسية **Murcia** بشرق الأندلس وقد كان منهم عزيز بن خطاب الذي ولي ملك مرسية في القرن السابع الهجري (انظر المغرب لابن سعيد ٢/٢٥٢ – ٢٥٣ والمراجع المذكورة في حاشية هذا الموضع).

(٢) كذا، ولعلها «أيا»، ولو أنه من الممكن أن يكون قد لحق هذا المطلع ما يسميه العروضيون بـ«الخرم»، وهو ذهاب السبب الأول، وهو كثير في الشعر.

(١٦١)

وقال في يحيى بن علي بن حمود رحمهم الله يسأله الجواز إلى الأندلس من جملة رسالة كتب بها إليه:

[من البسيط]

وفي غيابات أطباق الخطوب شَجٍ
بالبين ييأس أحياناً وينتظرُ
مُظاهِرٌ بي ليْلَيْ كُربة ودجى
لا يُرتجى لهما فجر ولا سحر
قد أخرس الدهر منه منطقاً هتفت
عنه الرزايا: ألا غاد فمعتَبِرُ؟!
لمعتلي همة بين النجوم هوت
به النجوم برُزْء ما له وزر
وتلك آثاره بالمشرقين سناً
للعين والعينُ لاحظ ولا أثر
حانٍ على كَرِشٍ[1] منثورةٍ سُلُبٍ
يكاد من شجوهن النجمُ ينتثِر
أُبْرِزنَ من سُتُرِ الإكرام وانسدلت
من الهوان علينا بعده سُتُر
يُخفي التعففُ مثوانافليس لذي
أنس إلى وَحْشنا سمع ولا بصر
ولا يد غيرَ أيدي الظلم تعرفنا
ولا بغير دموع العين ننتصر

(١) الكرش عيال الرجل وصغار ولده.

نـرعي الـهـشـيم ونمـتص الـثـمـار وقـد

أظل أنـــهـــارنـــا الأغـــصـــان والـــثـــمـــر

والأرض مَـــضـــجـــعُ أبـــشـــار مُـــمـــهـــدة

لـــهـــا الأرائك في الأكـــنـــان والـــسُّـــرُر

وتحت أجـــنـــحـــة الإشـــفـــاق حـــانـــيـــةٌ

(حــمــرُ الحــواصل لامــاء ولا شــجــر)(١)

....

....(٢)

إذا تـــضـــرم بـــالـــشـــكـــوى تحَـــلَّـــلَهُ

وجه بمـاء الحـيـاء الـعِـدِّ يـنـفـجـر

وهل بـسمعك يا «يحيى» - حَيِيتَ لنا -

عن دعـــــوتِي زَوَرٌ أو عـــــنْك لِي وزر(٣)؟

وهل بمـدحك أسـتـقْـضِـيك عـارفـة؟

بل الـغـمـامُ بـطـبـع الـسَّكبْ يـنـهـمـر

وإنَّ أولى بمُـــهْـــدٍ فـــيك مِـــدْحـــتَه

لـو جـاء قـبْلُ من الـتـقـصـيـر يـعـتـذر

وأين نـظـمـي ونـثـري من حُـلـى مـلك

تُـــتـــلـى بمـــفـــخـــره الآيـــات والـــســـور

وكـــيف يـــبـــلغ ســـبْـــقي في مـــدائـــحه

مـــدًى تـقـاصـــر عـنـه الجن والـبـشـر

لـيَـهْـنِك الـفـطْـرُ والأعـيـاد تـتـبـعه

في عــز مُـــلـــكِكَ مـــا في صـــفـــوه كـــدر

(١) هذا شطر بيت مشهور للحطيئة جرول بن أوس العبسي وأوله: «ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ»، وهو من قطعة في استعطاف عمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر ديوان الحطيئة بشرح أبي الحسن السكري - نشر أحمد بن الأمين الشنجيطي ص ٨٠. وقد جاء في الديوان «زغب الحواصل...».

(٢) هذا البيت مطموس طمساً كاملاً لا يكاد يتبين منه شيء.

والـنـصـرُ مـتـصل والـفـتح مـقـتَـبَلٌ
سـار فَـمُـدَّلِجٌ غـاد فـمُـبْـتَـكِـرُ
وقـد تـسـابـقت الـبـشـرى إلـيك بمـا
به تـوالت إلى أعـدائك الـنـذر
فـالْبَسْ ثـيـاب ثـنـاءٍ حَلْيُ عـاتـقـهـا
سـيف عـلـى الـثـغـر لا يـبـقي ولا يـذر
لـعـلـنـا نـرد المـاء الـذي صـدرت
عـنه الحـوائم وِرْداً مـا لـه صَـدَر
وتـنـجـلي ظـلـمـات الخـطب عن أمم
لا الـشـمس آفـلـة عـنـهـا ولا الـقـمـر
بـأوجه الـفـاطـمـيـين الـتي شـهـدت
شمسُ الـضـحى أنـهـا في وجـهـهـا غُرر

****

(١٦٢)

وقال في إدريس بن علي(*) رحمهم الله تعالى بسبته يهنئه بمولود:

[من الطويل]

هلال بنور السعد والحق مقمرُ
أهلَّ على الإسلام «ألله أكبرُ»
أغرُّ نما في الغُرِّ من آل هاشم
ووافى به يوم أغرُّ مُشهَّر
به زِيدَ في آل النبي محمد
حسام وبحر بالندى يتفجر
فأدركت الآمال غايات سُؤلها
وأعْطِيَتِ الأيامُ ما تتخير
وقام سرير للخلافة ثابت
وسرج ومحراب وتاج ومنبر
وما الناس إلا آمل ومؤمل
وما الدهر إلا مُبْشِرُ ومُبَشِّر

(*) هو إدريس بن علي بن حمود الحسني، وأبوه علي بن حمود الذي كان أيضاً ممن مدحهم ابن دراج هو أول من ولي الخلافة بالأندلس من الحسنيين العلويين، أما إدريس فقد كان والياً على مالقة **Malaga**، وكان أخوه يحيى والياً على سبتة، فلما ولي عمهما القاسم بن حمود الخلافة بقرطبة مصرع أخيه علي في سنة ٤٠٨ (١٠١٨) اتفق إدريس ويحيى على خلع عمهما القاسم، وجاز يحيى ابن علي إلى مالقة وأناب أخاه إدريس عنه في حكم سبتة وطنجة والعدوة الإفريقية، ويبدو أن إدريس بقي والياً على هذه المنطقة طوال خلافة أخيه يحيى الملقب بالمعتلي (وهو أيضاً من ممدوحي ابن دراج) حتى قتل يحيى في قرمونة سنة ٤٢٧ (١٠٣٦)، وحينئذ خاطب زعماء البربر إدريس واستدعوه، فأجاز إلى مالقة، وبايعه بالخلافة حبوس بن ما كسن الصنهاجي صاحب غرناطة وغيره من أمراء البربر فضلاً عن زهير العامري صاحب مدينة المرية **Almeria**، ولقب باسم «المتأيد بالله» وبقيت على طاعته سبتة ومالقة وغيرهما من مدن الأندلس والمغرب حتى أدركته وفاته في سنة ٤٣١ (١٠٤٠).

وأيـــامُ مـــحـــيـــانـــا حـــدائق تـــزدهي

وأوجه دنـــيـــانـــا كـــواكب تُـــزهِـــرُ[1]

فـدومـوا لـهـذا الـديـن حـصـنـاً ومـوئلاً

فـــأنـــتم لـه عـــز وذكـــر ومـــفـــخـــر

****

(١) هذا البيت مكرر في الأصل مرة أخرى، ولعله سهو من الناسخ.

(١٦٣)

وله[1] في رسالة كتبها عن صديق من الوجوه بسرقسطة إلى ذي الكفايتين تاج الدولة ابن أبي الحسين بمصر فيما بينه وأوضحه:

[من الطويل]

وفي «سُرَّ منْ رَا»[2] من مَحلِّي مَقاصِرُ
تلاعب فيهن الظباء الجآذرُ
وتُزهى بها من صنو دجلةَ لُجة
تحل منها الروض جار وحائر[3]
حدائق جنات نضائرُ زانها
تقلب أحداق إليها نواظر
مَشابهُ حُسْن ما لهن مَشابه
نظائر شكل ما لهن نظائر
ثلاث كأطلاء الظباء روائع
ولا شبَه إلا الطُّلى والنواظر
نماها إلى الأرءام رُوم وجَلِّق
وأرضعها منهم سُلَيْمٌ وعامر
لتَأْثُرَ عنا كلما فاه خاطب
وأغرَبَ رجَّاز وأبدع شاعر
إذا أجرتِ الأقلامُ عنهم بمنطق
أرتكَ بطون الصُّحْفِ وهْيَ أزاهِرُ

---

(١) في هذا الموضع نحو أربع أو خمس كلمات مطموسة طمساً بالغاً بحيث لم نتمكن من قراءتها.
(٢) في الأصل: «سر من رأى».
(٣) في الأصل: جائر، والصواب ما أثبتنا، والحائر هو المكان المنخفض الذي يتجمع فيه الماء ولا يخرج.

يُـــذكِّــرْنـــني مـــا أنت عـــنِّيَ مُـــبْـــلِغٌ[1]
خـــواطِبَ أحـــيـــاءٍ وهُن مـــنـــابـــر
بـــتـــرجـــيع ألحـــان كـــأن حـــنـــيـــنـــهـــا
لمـــا أنـــا من آثـــار مـــجـــدك ذاكـــر
ويُـذْهِـلُـني عن سحـر مـا في جفـونـهـا
...... بـــتـــفـــاح ... ســـواحـــر
تـــطـــاردهـــا في الجـــو نـــزْواً كـــأنـــهـــا
نـــــوازع ..... [وبـــــوادر]
نـــســـور تـــهـــادى بـــالـــســـرور وإنـــني
لـــهـــا بـــالـــذي يـــهـــدي الـــســـرور لـــزاجـــر
وإن بُـدِّلتْ مـنـهـا الـسـكـاكـينُ خِـلْـتـهـا
غـــمـــامـــاً.....دى... صـــائـــر
وإن قـام بـاسْـطُـرْ لآبـهـا يـدُ بـعـضـهـا
فـــكِـــيـــوانُ أو بـــهـــرامُ ....
يُـــخـــبِّـــرُني أن قـــد تـــبـــيـــنتَ أنـــني
لمـعـروف مـا تُـسـديه نـحـويَ شـاكـر
وأنك مـوصـولُ الـسُّـعـود بـغـبـطـة
يـــطـــاولـــهـــا في عـــمـــر أمـــرك عـــامـــر
وحُـــيِّـــيتَ مـــني كل يـــوم تحـــيـــة
تـسـيـر بـهـا الـركـبـانُ مـا سـار سـائـر
يـــلـــوح بـــهـــا نجم من الأفق طـــالع
ويُـرجِـعُـهـا لي مـنك مـا غـار غـائـر

وقال يمدح علي بن حمود رحمهم الله تعالى من جملة رسالة:

....
....

****

(١) ورد هذا الشطر في الأصل هكذا: «يذكرنني ما أنت عني مبلغ كأنها» وواضح أن الوزن لا يستقيم بهذه الصورة،

الفهارس

فهرس القوافي(*)

(*) الأرقام المثبتة إلى اليمين هي أرقام قصائد الديوان ومقطعاته، ومن هذه الأرقام ما أضيف إليه حرف «م»، وهي إشارة إلى ترقيم القصائد والقطع المثبتة في «ملحق» الديوان، أما الأرقام التي جعلت إلى اليسار فهي تدل

حرف الراء

حرف السين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف اللام

****

فهرس أسماء الأعلام والطوائف والقبائل(*)

(أ)

(ب)

(*) روعي في الترتيب الأبجدي للأسماء إسقاط «ابن» و«أبو»، ونلاحظ كذلك أن الخط المائل (/) يفصل بين صفحات التصدير العام للديوان وصفحات الديوان نفسه.

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(هـ)

(و)

(ي)

****

فهرس الأعلام الجغرافية(*)

(أ)

(ب)

(*) أثبتنا في هذا الفهرس أسماء المواضع والأعلام الجغرافية الواردة في الديوان أو في تصديره العام أو حواشيه،

(ج)

(خ)

(د)

(ر)

(س)

(ش)

(ن)

(و)

(ي)

****

فهرس المؤلفين

(أ)

(ب)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

****

المحتوى

✱✱✱✱